التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسر العلامة

أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى سنة ٥١٤هـ

أول كتاب يبرز مطبوعًا للمؤلف
ويطبع محققًا على ثلاث نسخ خطية
إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص
عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حققه وقدم له

محمد خلوف العبد الله

المجلد الثالث

الأنعام - هود

دار اللباب

التيسير في التفسير

(٣)

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

9 789933 935047

دار اللُّباب

للدِّراسَاتِ وتَحقِيق التُّراث

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990

دمشق - سوريا
00963993151546
info@allobab.com
Www.allobab.com

اسطنبول - تركيا
00902125255551
00905454729850

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسر العلامة

الإمام أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم

عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى سنة ٥١٤هـ

رحمه الله تعالى

أول كتاب يبرز مطبوعاً للمؤلف

ويطبع محققاً على ثلاث نسخ خطية

إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص

عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حققه وقدم له

محمد خلوف العبد الله

المجلد الثالث

الأنعام - هود

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الأَنعَامِ

تفسير سورة الأنعام

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ نزلَتْ هذه السُّورةُ جملةً واحدةً بمكّةَ[1]، غيرَ ستِّ آياتٍ نزلَتْ بالمدينةِ، وهي: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى

---

(١) روي في نزول سورة الأنعام جملة واحدة عدة أخبار:

منها: حديث أبي بن كعب الآتي قطعة منه وهو حديث موضوع.

ومنها: ما رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٤٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

ومنها: ما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ١٧٨) عن أسماء بنت يزيد. وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف.

ومنها: ما رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٢٢٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٤٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠): فيه يوسفُ بن عطية الصَّفَّارُ وهو ضعيفٌ.

ومنها: ما رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٦٩) عن معمر. وإسناده ضعيف لإرساله.

ولأجل ما روي من أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة فقد ابتدع جماعة من النساك عبادة خاصة يقرؤون بها سورة الأنعام في ركعة واحدة، وسئل ابن الصلاح عن ذلك فقال في «فتاويه» (١/ ٢٤٩): الخبر المذكور في ذلك قد رويناه من حديث أبي بن كعب عن النبي ﷺ وفي إسناده ضعف، ولم نر له إسنادًا صحيحاً، وقد روي ما يخالفه، فروي أنها لم تنزل جملة واحدة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا في عددها، ولو ثبت الحديث فلا يثبت بمجرده استحبابُ قراءتها جملة واحدة كما يفعلونه.

آخرِ ثلاثِ آياتٍ، وقولُه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقولُه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ١٤٤][(١)].

وفي الخبرِ: «شيَّعَها سبعونَ ألفَ ملَكٍ طبقوا ما بينَ السَّماءِ والأرضِ، ولهم زَجَلٌ[(٢)] بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ»، ونزلَتْ ليلًا، فدَعا رسولُ الله الكُتّابَ فكتبُوها من ليلَتِهم[(٣)].

والسُّورةُ في مُحاجَّةِ المُشركينَ.

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٤٤٣)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٦/ ٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر السمرقندي أنه من رواية أبي صالح. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٧) دون نسبة.

وروى النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤١٥) من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهي مكية، إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة فهي مدنية ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى تمام الآيات الثلاث.

(٢) في (أ): «وجل».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٥) من طريق ابن عباس عن أبي بن كعب. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٦٣): فيه أبو عصمة وهو متهم بالكذب.

وهذا الحديث هو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور سورةً سورةً عن أبي بن كعب، وقد فرقه الثعلبي حسب السور وتابعه فيه الواحديُّ وأبو حفصٍ النسفي والزمخشري والبيضاويّ.

قال السيوطي في «نواهد الأبكار» (٣/ ١١٢): هذا من الحديثِ الموضوعِ الذي رُوي عن أبيِّ بن كعبٍ في فضائلِ القرآنِ سورةً سورةً، وقد نبَّه أئمةُ الحديث وحُفَّاظه ونقَّادُه قديماً وحديثاً على أنه موضوعٌ مختلقٌ على رسول الله ﷺ، وعابُوا على مَن أورده من المفسِّرين في تفاسيرهم.

قال ابن حجر: وأوله عند الطبراني في «الصغير» من حديث ابن عمر إلى قوله: «والتحميد»، وفيه يوسف بن عطية، وهو ضعيف.

قلت: رواه الطبراني في «الصغير» (٢٢٠)، وقد تقدم قريباً.

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناءٌ منَ الله على نفسِه.

وقيلَ: أي: قولُوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

ثمَّ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ بمعنَى المدحِ؛ أي: بقُدرتِه أبدعَ السَّماواتِ والأرضَ، أو بمعنَى الشُّكرِ؛ أي: اشكُرُوه على أنْ هيَّأَ لكم الأفلاكَ وأضاءَ لكم النُّجومَ، ومهَّدَ الأرضَ، وبيَّنَ بهذا أنَّ المعبودَ هو الذي خلَقَ السَّماواتِ والأرضَ لا الأصنامَ.

وقيلَ: لمَّا بيَّنَ أنَّه خالقُ السَّماواتِ والأرضِ فقد بيَّنَ[1] أنَّه خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو الذي تبتَدِرُه الأفهامُ.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي: خلقَهما، يعني: اللَّيلَ والنَّهارَ، وقيلَ: الكفرَ والإيمانَ.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يجعَلُونَ له عديلًا فيعبُدونَ الأصنامَ، يُقالُ: عدَلَ الشَّيءَ بالشَّيءِ يعدِلُ عَدْلًا؛ أي: سوَّاهُ به.

وقيلَ: الباءُ في قولِه: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ بمعنَى «عن»، و﴿يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: يميلُونَ، منَ العُدولِ؛ أي: ينحَرِفُونَ عن عبادتِه.

وهذا تعجيبٌ؛ أي: عجَبًا منهم في فعلِهم هذا.

***

(٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يعني: آدمَ، والخلقُ نسلُه، والفرعُ يُضافُ

---

(١) في (أ): «قد تبين».

إلى أصلِه ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ قيلَ: الأجلُ المَقضيُّ أجلُ الحياةِ إلى الموتِ، والأجلُ المُسمَّى عندَه أجلُ الموتِ إلى البَعثِ.

وقيلَ: الأجلُ المقضيُّ هو الموتُ، والأجلُ المُسمَّى هو البعثُ.

وقيلَ: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾؛ أي: النَّومَ يقبضُ فيه الرُّوحَ ثمَّ يردُّها إلى صاحبِها، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وهو الموتُ، عن ابنِ عبّاسٍ[١].

وقيلَ: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ وذلك الأجلُ هو أجلٌ مُسمًّى عندَه معلومٌ، فلكلٍّ عندَه أجلٌ في حياتِه وموتِه وبعثِه لا يطَّلعُ عليه إلّا مَن يُعرِّفُه الله ذلك.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾؛ أي: في سابقِ علمِه.

و﴿ثُمَّ﴾ لعطفِ الخبرِ على الخبرِ لا لتأخُّرٍ زمانيٍّ.

وقيلَ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾؛ أي: أظهرَ ذلك الحكمَ بعد خلقِ آدمَ.

والأجلُ: الوقتُ المضروبُ لانقضاءِ الأمدِ، وهو منَ التَّأخيرِ، يُقالُ: أَجِلَ الشَّيءُ يَأْجَلُ أُجُولًا فهو آجِلٌ؛ أي: تأخَّرَ.

أي: هو الذي خلقَكُم من طينٍ وقدَّرَ لكلِّ شيءٍ أجلًا ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ فهو تعجيبٌ أيضًا.

﴿مِّن طِينٍ﴾ قيلَ: بعثَ جبريلَ إلى الأرضِ ليأتيَه بطائفةٍ منها فقالَتْ: أعوذُ بالله منك أن تنقُصَ منِّي، فبعَثَ ميكائلَ فقالت كذلك، فبعَثَ ملَكَ الموتِ فقالَتِ الأرضُ ذلك[٢]، فقال: أعوذُ بالله أن أُخالفَ أمرَه، فأخذَ من وجهِ الأرضِ منَ الحمراءِ والسَّوداءِ والبيضاءِ، فلذلك اختلفَتِ الألوانُ، وعجَنَها بالماءِ العذبِ والملحِ، ولذلك اختلفَتِ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٥٣).

(٢) في (أ): «كذلك».

الأخلاقُ، ثمَّ تركَ ذلك الطِّينَ حتَّى صارَ حَمَأً مَسْنونًا، ثمَّ تركَه حتَّى صارَ صلصالًا كالفخّارِ، فمرَّ به إبليسُ فقال: خُلِقْتَ لأمرٍ عظيمٍ، ونفخَ الله فيه الرُّوحَ، فأوَّلُ ما جرى فيه الرُّوحُ بصرُه وخياشيمُه، فعطَسَ فألهمَه الله حتَّى قال: الحمدُ لله، فقال الله له: يرحمُكَ الله، وجعلَ قبضَ الأرواحِ إلى ملَكِ الموتِ؛ لأنَّه الذي أخذَ من وجهِ الأرضِ التُّرابَ الذي خُلِقَ منه آدمُ[١].

* * *

(٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: واللهُ المُعظَّمُ أو المعبودُ في السَّماواتِ وفي الأرضِ؛ كما تقولُ: زيدٌ الخليفةُ في المشرقِ والمغربِ، وقد يُقالُ: إنَّ الله في كلِّ مكانٍ؛ أي: بالتَّدبيرِ والحِفظِ[٢].

وقال أبو عليٍّ: فيه إضمارٌ للأمرِ أو القِصّةِ أو الحديثِ؛ أي: الأمرُ اللهُ يعلَمُ في السَّماواتِ والأرضِ سِرَّكُم وجهرَكُم[٣].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٨٦)، وابن منده في «التوحيد» (٤٨٦)، عن السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، في خبر طويل. قال ابن كثير في «تفسيره»: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوا من بعض الكتب المتقدمة، والله أعلم.

(٢) وهذا مذهب جماعة من الخلف رحمهم الله تعالى في التأويل للنصوص المتشابهة، ومذهب المتقدمين وجماعة من الخلف في تلك النصوص هو التسليم مع التنزيه، وإمرارُها كما جاءت من دون تأويل ولا تعطيلٍ ولا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ.

(٣) انظر: «الإغفال» (ص: ٧٠٣ ـ ٧٠٤)، و«البسيط» (٨/ ١٥).

وقيلَ: السِّرُّ والجهرُ في القولِ؛ أي: ما تُظهِرُونَه وما تُضمِرُونَه.

وقيلَ: أي: يعلَمُ ما تُسرُّونَ من قولٍ وعملٍ وما تجهَرُونَ منهما.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: تفعَلُونَ، والكَسْبُ: الفعلُ لاجتلابِ نفعٍ أو دَفعِ ضرٍّ، ولهذا لا يُقالُ لفعلِ الله: كَسْبٌ.

وقيلَ: وهو الله في السَّماواتِ وفي الأرضِ، فيشهدُ له السَّماءُ والأرضُ بأنَّه الإلهُ، فلا تبطُلُ الهيئةُ بإنكارِ المُشركِ الذي يجعلُ له عديلًا.

* * *

(٤) ـ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿مِّنْ﴾ في قولِه: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ لاستغراقِ الجنسِ، تقولُ: «ما في الدّارِ من أحدٍ». والآيةُ: العلامةُ.

وقيلَ: الآيةُ: الجماعةُ، يُقالُ: «خرجَ القومُ بآيتِهم»؛ أي: بجماعتِهم، فالآيةُ: جميعُ حروفٍ دالّةٍ على معنًى مخصوصٍ.

وقيلَ: الآيةُ: الرِّسالةُ. وقيلَ: العجبُ، يُقالُ: «فلانٌ آيةٌ في كذا»؛ أي: عجبٌ.

والمُرادُ هاهُنا بالآياتِ: المُعجِزاتُ، وقيلَ: آياتُ القرآنِ.

وقيلَ: أدلّةُ التَّوحيدِ، كخلقِ السَّماءِ والأرضِ والنُّورِ والظُّلمةِ؛ أي: هم مُعرِضُونَ تارِكونَ لتأمُّلِها.

* * *

(٥) ـ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ يعني: مُشركي مكّةَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالدِّينِ الحقِّ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ به الصّادِقُ.

وقيلَ: الحقُّ محمَّدٌ عليه السَّلامُ.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾؛ أي: ينزلُ بهم العقابُ، وأرادَ بالأنباءِ ـ وهي الأخبارُ ـ: العذابَ، وهو كقولك: «اصبِرْ فسوفَ يأتيك الخبرُ»؛ أي: العذابُ.

* * *

(٦) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

قولُه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: ألا يعتَبِرون بمَن أهلَكْنا منَ الأممِ لتكذيبِهم الأنبياءَ؛ أي: ألـم يعرِفُوا ذلك؟

﴿كَمْ﴾ نصبٌ بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾ لا بقولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾؛ لأنَّ لفظَ الاستفهامِ لا يعملُ فيه ما قبلَه.

﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: أفنَيْنا بنقضِ البِنيةِ والإماتةِ والإفناءِ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: أمَّةٍ، وأهلُ كلِّ عصرٍ قرنٌ، كأنَّهم قومٌ مُقتَرِنُون.

وقيلَ: القرْنُ اسمٌ لمدَّةٍ محصورةٍ، قيلَ: هي سبعونَ سنةً. وقيلَ: ثمانونَ سنةً. وقيلَ: مئةُ سنةٍ؛ أي: كم أهلَكْنا من أهلِ قرنٍ.

وأصلُ القرنُ: الشّيءُ الطّالعُ كقرنِ ما له قَرنٌ.

﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾؛ أي: أعطَيْناهُم ما لـم نُعطِكُم منَ الدُّنيا، والمُتمَكِّنُ منَ الشَّيءِ: هو الذي لا يتعذَّرُ عليه ذلك الشَّيءُ.

وقد قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وهو للمُغايبةِ[1]، ثمَّ قال: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ فخاطَبَ، وهو اتِّساعٌ في الكلامِ، ومثلُه كثيرٌ.

ويجوزُ: مكَّنَه ومكَّنَ له، فأتَى في الآيةِ باللُّغتَينِ، كما يُقالُ: شكَرَه وشكَرَ له، ونصَحَه ونصَحَ له.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: أرسلْنا المطرَ ﴿مِّدْرَارًا﴾: كثيرَ الدَّرِّ، يُقالُ: دَرَّ اللَّبنُ؛ أي: أقبلَ على الحالبِ منه شيءٌ كثيرٌ.

ثمَّ؛ المِدْرارُ نعتٌ للمطرِ وللسَّماءِ الذي هو السَّحابُ.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾؛ أي: من تحتِ أشجارِهم؛ أي: وسَّعْنا عليهم النِّعَمَ ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: بكُفرِهم ﴿وَأَنشَأْنَا﴾؛ أي: أوجَدْنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ أي: فليحذَرْ هؤلاءِ منَ الإهلاكِ أيضًا.

* * *

(٧) ـ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ نزلَتْ في قومٍ منهم قالوا: لن نُؤمِنَ لك حتَّى تأتيَنا بكتابٍ من عندِ الله ومعه أربعةٌ منَ الملائكةِ يشهدونَ أنَّه من عندِ الله وأنَّك رسولُه[2].

وكانوا يتعلَّمون هذه الاقتراحاتِ منَ اليهودِ.

---

(١) في (أ): «للمعاينة»، وغير واضحة في (ف)، والصواب المثبت.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٦) عن مقاتل والكلبي، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢١٤) عن الكلبي.

والقِرْطاسُ: الصَّحيفةُ، وقَرْطَسَ فلانٌ: إذا رمى فأصابَ الصَّحيفةَ المُلزقةَ بالهدفِ.

وأرادَ بالكتابِ: المكتوبَ.

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: فعايَنُوا ذلك حسًّا ومسُّوه باليدِ كما اقترَحُوا.

﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ﴾؛ أي: ما هذا إلّا سحرٌ؛ أي: الاقتراحاتُ تعلُّلٌ منهم، ولو وجَدُوها لَـمَا آمَنُوا ولقالُوا: إنَّما سُكِّرَتْ أبصارُنا وسُحِرْنا.

ويحتمِلُ أن يكونَ نزولُ الآيةِ في قومٍ علِمَ اللهُ منهم أنَّهم لا يُؤمِنُون.

* * *

(٨) ـ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ اقترَحُوا هذا أيضًا ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: لقامتِ السّاعةُ، أو: لأُهلِكُوا بالاستِئصالِ؛ لأنَّ الله أجرَى سُنَّتَه بأنَّ مَن طلبَ آيةً فأُظهِرَتْ له فلم يُؤمِنْ أهلَكَه الله في الحالِ.

﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يُمهَلون.

* * *

(٩) ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾؛ أي: إنَّهم لا يستطيعون أن يرَوا الملَكَ في صورتِه؛ لأنَّ العادةَ جرَتْ بأنَّ أعيُنَ الخلقِ تَحارُ عن رُؤيةِ الملَكِ إلّا بعد التَّجسُّمِ بالأجسامِ الكثيفةِ، وكانتِ الملائكةُ تأتي الأنبياءَ في صورةِ البشرِ، فأتوا إبراهيمَ ولوطًا في صورةِ الآدميِّين، وأتى جبريلُ النَّبيَّ عليه السَّلامُ في صورةِ دحيةَ

الكلبيِّ(١)؛ أي: لو نزلَ ملَكٌ من السماء لرأَوه في صورةِ رجلٍ ولنَفَى اللَّبسَ، والقومُ طلَبُوا العلمَ الضَّروريَّ، فبيَّنَ أنَّه لا سبيلَ إليه في الدُّنيا وإنْ جازَ في الفعلِ.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾؛ أي: لَبَسُوا على ضَعَفَتِهم وشَكَّكوهم؛ أي: لو رأوا ملَكًا في صورةِ رجلٍ لكنَّا قد لَبَسْنا عليهم؛ لأنَّه يلحقُهم فيه منَ اللَّبسِ ما يلحقُ ضعَفَتَهم منهم(٢)، فيحتاجُونَ إلى آيةٍ أُخرَى، ثمَّ إلى أُخرَى، إلى أن يحصُلَ العلمُ الضَّروريُّ، ولو حصلَ فقد مضَتْ سنَّةُ الرَّبِّ تعالى بالاستئصالِ للكفّارِ عند ذلك.

وقيلَ: أي: مَن حَكَمَ اللهُ بكُفرِه فلو رأى كلَّ آيةٍ فاللهُ قادرٌ على أن يمنَعَه الهدايةَ، فالمدارُ على وجودِ الهدايةِ لا على شُهودِ الآيةِ.

واللَّبسُ: الخلطُ، يُقالُ: لَبَسْتُ عليه الأمرَ ألبِسُه لَبْسًا؛ أي: خلَطْتُه، وأصلُه: السَّترُ، ومنه: لُبْسُ الثَّوبِ.

وقيلَ: كانوا يعتَقِدون أنَّ الملائكةَ إناثٌ؛ أي: لو أنزَلْنا ملَكًا فرأَوه في صورةِ رجلٍ لقالوا: هذا ليس بملَكٍ.

ثمَّ؛ قالَ: ﴿لَلَبَسْنَا﴾ وقالَ: ﴿يَلْبِسُونَ﴾ فأضافَ إلى نفسِه خلقًا وإلى العبدِ كسْبًا.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما. ودحية بن خليفة بن فروة الكلبي، كان من كبار الصحابة، وبقي إلى خلافة معاوية، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان رسول رسول الله ﷺ إلى قيصر سنة ست من الهجرة. انظر: «الإصابة» (٢/ ٣٢٢).

(٢) قوله: «أي لبسوا على ضعفتهم...»؛ أي: كانوا هم يَلْبِسونَ عَلَى ضَعَفَتِهِمْ في أمر النبي ﷺ فيقولون: إنما هذا بشر مثلكم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ فرأوا هُمُ المَلَكَ رَجُلًا لكان يَلْحَقُهُمْ فيه من اللبس مثل ما لحق ضعفتهم منهم. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٣١)، و«البسيط» (٨/ ٢٨).

(١٠) ـ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: اقتَدَوا بمَن قبلَهم في الاستهزاءِ، وأولئك حاقَ بهم ضررُ استهزائِهم[١]، فكذلك هؤلاءِ، والحَيْقُ: ما حاقَ بالإنسانِ من سوءٍ، يُقالُ: حاقَ يحيقُ حَيْقًا، وأحاقَ الله به مَكْرَه؛ أي: أحاطَه به.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: حاقَ بهم عقوبةُ فعلِهم[٢].

﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾؛ أي: منَ الأنبياءِ.

وقيلَ: أي: حاقَ[٣] بالسّاخرين من تلك الأُممِ.

* * *

(١١) ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سافِرُوا وانظُرُوا واستخبِرُوا لتعرِفُوا ما حلَّ منَ العقابِ بالكفَرةِ.

والمُكذِّبُ: هو الذي يُكذِّبُ بالحقِّ والباطل[٤]، لا مَن كذَّبَ بالباطلِ، ولكنْ صارَ مُطلَقُ الاسمِ في العُرفِ للذَّمِّ، **فحسُنَ الإطلاقُ**.

* * *

---

(١) في (أ): «حاق بهم استهزاؤهم».

(٢) في (أ): «أحاق بهم عقوبة مكرهم وفعلهم».

(٣) في (أ): «أحاق الله».

(٤) «والباطل» ليست في (ف).

(١٢) ـ ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: قُلْ لهم هذا، فإنْ لم يُجيبوا فعرِّفْهم و﴿قُل لِّلَّهِ﴾ والمعنَى: إذا ثبَتَ أنَّ له ما في السَّماواتِ والأرضِ وأنَّه خالقُ الكلِّ: إمَّا باعترافِهم أو بقيامِ الحجَّةِ بذلك، فالله قادرٌ على أن يُعاجِلَهم بالعقابِ، ولكنَّه كتبَ على نفسِه الرَّحمةَ، فلذلك أمهَلَ.

﴿كَتَبَ﴾؛ أي: أخبرَ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ اللّامُ لامُ القَسَمِ؛ أي: والله ليجمَعَنَّكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يجمعُكم في القُبورِ إلى اليومِ الذي أنكرتُمُوه.

وقيلَ: لَيُؤخِّرَنَّ جمعَكم إلى اليوم الذي هو[1] يومُ القيامةِ.

وقيلَ: ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى «في»؛ أي: في يومِ القيامةِ.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: لَيجمَعَنَّ المُشركين الذين خسِرُوا أنفُسَهم.

وقيلَ: هو ابتداءٌ، وخبرُه: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، تقولُ: «الذي يُكرِمُني فله درهمٌ»، فالفاءُ تتضمَّنُ معنى الشَّرطِ والجزاءِ.

وقيلَ: أي: فانظُروا كيفَ كان عاقبةُ المُكذِّبين الذين خسِرُوا أنفُسَهم.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فإنَّهم كانُوا لا يُؤمِنُون.

* * *

(١٣) ـ ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ نزلَتِ الآيةُ لأنَّهم قالوا: علِمْنا أنَّه ما

---

(١) «اليوم الذي هو» ليست في (ف).

يحمِلُك على ما تفعلُ إلّا الحاجةُ، فنحنُ نجمعُ لك من أموالِنا حتَّى تصيرَ أغنانا(١).

فقال الله: أخبِرْهم أنَّ جميعَ الأشياءِ لله، فهو قادرٌ على أن يُغنِيَني.

﴿سَكَنَ﴾؛ أي: استقرَّ ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ من خَلْقٍ، و﴿سَكَنَ﴾ بمعنى: هَدَأَ.

وقيلَ: هو عامٌّ في جميعِ المخلوقاتِ مُتحرِّكِها وساكنِها؛ فإنَّه يجري عليه اللَّيلُ والنَّهارُ، وعلى هذا ليس المُرادُ بالسُّكونِ ضدَّ الحركةِ، بل المُرادُ به الحلولُ، يُقالُ: فلانٌ يسكنُ بلدَ كذا؛ أي: يَحُلُّه.

وقيلَ: أي: وله ما سكَنَ وتحرَّكَ في اللَّيلِ والنَّهارِ، كقولِه تعالى: ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أي: الحرَّ والبردَ، فنبَّهَ بهذا على ذلك.

* * *

(١٤) ـ ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ لـمَّا دعَوه إلى عبادةِ الأصنامِ قال: أيجوزُ أن يُظَنَّ بي هذا وخالقُ السَّماواتِ والأرضِ هو الله؟ أفأتَّخِذُ وليًّا غيرَه؟

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: خالقُها، من فطَرْتُ البئرَ؛ أي: شقَقْتُها وأظهَرْتُ ماءَها.

﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ قُرِئَ: ﴿وَلَا يُطۡعَمُ﴾(٢)؛ أي: يرزُقُ ولا يُرزَقُ، وهذا طُعمةُ فلانٍ؛ أي: رزقُه.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢١٤) عن الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو في «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٤٢) عن الكلبي.

(٢) هي قراءة العشرة.

وقيلَ: ولا يُطعَمُ عبيدُه؛ لأنَّ مَن أَطْعمَ عيالَ إنسانٍ يُقالُ: أطعَمَه، وإنَّما قال هذا حيثُ رغَّبُوه في المالِ.

وقُرِئَ: (ولا يَطْعَمُ)[١]؛ أي: يتقدَّسُ عن الطُّعمِ، وقُرِئَ: (ولا يُطْعِمُ)[٢]؛ أي: وهو يُطعِمُ، والصَّنمُ الذي أمرتُموني بعبادتِه لا يُطعِمُ. والقراءتانِ ضعيفتانِ.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ أي: من قومي ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾؛ أي: وقيلَ لي: لا تكونَنَّ ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

* * *

(١٥) ـ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أي: أعلَمُ[٣].

وقيلَ: أي: إن عبَدْتُ غيرَ الله فإنِّي خائفٌ من عذابِ يومِ القيامةِ، والخوفُ[٤] تَوَقُّعُ المكروه.

* * *

(١٦) ـ ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

قولُه: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: مَن يُصرَفْ عنه ذلك العذابُ ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾؛ أي: رحمَه الله.

---

(١) بفتح الياء، نسبت لسعيد بن جبير ومجاهد والأعمش وأبي حيوة وعمرو بن عبيد. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٢٧٣)، و«البحر المحيط» (٩/ ٥٦).

(٢) نسبت للأشهب العقيلي. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٤٤)، و«الكشاف» (٣/ ١٩).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٤/ ٣٤)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٦/ ٣٢).

(٤) في (أ): «يوم القيامة والعذاب».

وقُرِئَ: ﴿مَن يَصرِفْ عنه﴾[(١)]؛ أي: مَن يصرِفْ ربِّي عنه[(٢)] ذلك فقد رحمَه.

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾؛ أي: النَّجاةُ منَ العذابِ فوزٌ عظيم.

* * *

(١٧) ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: إنْ أمَسَّكَ اللهُ ضرًّا، وهو ما يتضرَّرُ به الإنسانُ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ والكشفُ من صفاتِ الأجسامِ فاستُعمِلَ هاهُنا توسُّعًا.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ القَهرُ: الغلَبَةُ ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: هم تحتَ تسخيرِه.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: العالِمُ، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ أيضًا بمعنى العالِمِ، ذكرَه تأكيدًا.

وقيلَ: ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بمعنى المُخبِرِ؛ أي: مَن اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ يجبُ ألّا يُشرِكَ به.

* * *

(١) قرأ بها حمزة وأبو بكر والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٤)، و«التيسير» (ص: ١٠١).

(٢) في (أ): «يصرف الله عنه».

(١٩) ـ ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗ﴾ نزلَتْ لأنَّ المُشركينَ قالوا: ما نرَى أحدًا يشهدُ لك في الرِّسالةِ[1]؛ أي: أيُّ شيءٍ أعظَمُ شهادةً؟

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فقُلْ: فهو الشَّهيدُ بيني وبينكم على أنِّي قد بلَّغتُكُم.

وقيلَ: يعني بشهادةِ الله: إظهارَ المُعجِزاتِ على صدقِه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾؛ أي: فيشهدُ لي القرآنُ.

﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾؛ أي: ولأُنذِرَ مَن بلغَه القرآنُ.

وقيلَ: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾؛ أي: ومَن احتكَمَ.

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰ﴾ هذا استفهامُ توبيخٍ.

ثمَّ؛ قال: ﴿ءَالِهَةً أُخۡرَىٰ﴾ ولم يقُلْ: أُخر، قال الفرَّاءُ: لأنَّ الآلهةَ جمعٌ، والجمعُ يقعُ عليه التَّأنيثُ كقولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقولِه: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، ولو قال: «الأُوَلِ» و«الأُخرُ» صحَّ أيضًا[2].

﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُ﴾؛ أي: فأنا لا أشهدُ معكم، فحُذِفَ لدلالةِ الكلام عليه، ونظيرُه: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢١٤) عن الكلبي. وهو في «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٢٩)، و«البسيط» للواحدي (٨/ ٤٩).

﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ يُستَحَبُّ ضمُّ هذا التَّبرِّي إلى كلمةِ الشَّهادةِ في حقِّ كلِّ مَن يُسلِمُ.

***

(٢٠) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: هؤلاءِ اليهودُ والنَّصارى، وقد راجعَهم المُشرِكون في أمرِ محمَّدٍ يعرِفُونَ صِدقَه.

وقيلَ: يعرِفُونَ كتابَهم وأنَّ فيه ذكرَ محمَّدٍ.

وقيلَ: يعرِفُونَ صِدقَ القرآنِ.

﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾ كما قال ابنُ سَلَامٍ: لا أشكُّ في أنَّه رسولُ الله لِـمَا أجِدُه في التَّوراةِ، وأمَّا ابني فلا أدري ما أحدَثَتِ النِّساءُ، فسمِعَه عمرُ يقولُ ذلك فقال: «وفَّقَكَ اللهُ يا ابنَ سَلَامٍ»(١).

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ نعتٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: أهلُ الكتابِ الذين أنكرُوا نُبوَّةَ محمَّدٍ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ يعرِفُونَه، ويكونُ هذا وصفَ رُؤَسائِهم الذين عانَدُوا.

وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ ابتداءٌ وخبرُه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(٢).

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٩٢) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومحمد بن مروان والكلبي متهمان بالكذب، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس. وذكره دون نسبة الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٤).

(٢) كذا في النسختين، والصواب: «﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾» فمجموعها هو الخبر وليس ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وحدها.

(٢١) ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

قولُـه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾؛ أي: لا أحـدَ أظلَمُ، فهو اسـتفهامٌ بمعنَى الجحدِ.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾؛ أي: بالقرآنِ أو بالمُعجِزاتِ.

ثمَّ؛ قيلَ: أي: ومَن أظلَمُ منَ المُشركينَ واليهودِ والنَّصارى؟

وقيلَ: أي: مَن أظلَمُ منِّي إن افترَيتُ على الله الكذِبَ.

* * *

(٢٢) ـ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾؛ أي: واذكُرْ يومَ يحشرُهم.

وقيلَ: أي: لا يُفلِحُ الظّالمون اليومَ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾؛ أي: لا يُفلِحُونَ أبدًا.

وقيلَ: انظُرْ كيفَ كذَّبُوا يومَ يحشرُهم؛ أي: كيف يُكذِّبُونَ جميعًا.

أي: يُحشَرُ سائرُ الكفَّارِ ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾؛ أي: بزَعمِكم؛ فإنَّهم زعمُوا أنَّها شُركاءُ لله تعالى، وهذا توبيخٌ لهم.

﴿تَزْعُمُونَ ﴾؛ أي: تَكذِبُون.

قال ابنُ عبَّاسٍ: كلُّ زعمٍ في القرآنِ فهو كذبٌ[١].

وفيه إضمارٌ؛ أي: الذين كنتُم تزعُمونَ أنَّهم شُفعاءُ.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٥٤).

(٢٣) ـ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ الفِتنةُ: الاختِبارُ؛ أي: لم يكُنْ جوابُهم حينَ اختُبِروا بهذا السُّؤالِ ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قيلَ: دَواعي الكذبِ غدًا مرفوعةٌ، وقد صارتِ المعارفُ ضروريَّةً، فمعنَى قولِهم هذا: إنَّا أرَدْنا أن تُقرِّبَنا الأصنامُ إلى الله زُلفَى، فيقولُ الله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ﴾ في قولِهم: إنَّ عبادةَ الأصنامِ تُقرِّبُهم إلى الله زُلفَى، بل ظَنُّوا ذلك، وظنُّهم الخطأُ لا يَعذُرُهم ولا يُزيلُ اسمَ الكذبِ عنهم، ومَن ظنَّ أنَّ الشِّركَ حسَنٌ لم يَصِرْ حسنًا بظنِّه.

وقال مُقاتلٌ: يرَونَ مغفرةَ الله للمُوحِّدينَ فيقولون: «ما أشرَكْنا» طمَعًا منهم في المغفرةِ ويظُنُّونَ أنَّ هذا الإنكارَ ينفَعُهم[1].

وقيلَ: المعنى: أنَّهم ينتَفون عن الشِّركِ فيعتَذرون، فلا يَحصُلون إلّا على التَّكذيبِ لأنفسِهم.

قُرِئَ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ بالياءِ وبالتَّاءِ، وقُرِئَ: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرَّفعِ والنَّصبِ[2].

وقُرِئَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ بالخفضِ، وقُرِئَ ﴿ربَّنا﴾[3]؛ أي: يا ربَّنا.

* * *

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٥) بنحوه، وروى نحوه أيضاً عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد علقه البخاري قبل حديث (٤٨١٦).

(٢) قرأ ابن كثير وابن عامر وحفص: ﴿لم تَكُن﴾ بالتاءِ و﴿فِتْنَتُهُم﴾ بالرَّفع، وقرأ نافعٌ وأبو عمرو وأبو بكر بالتَّاء والنَّصب، والباقون بالياء والنَّصب. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٤)، و«التيسير» (ص: ١٠١).

(٣) هي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٤)، و«التيسير» (ص: ١٠١).

(٢٤) - ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ قيلَ: باعتذارِهم بالباطلِ. وقيلَ: بجَحْدِ شركِهم في الآخرةِ.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾؛ أي: وانظُرْ كيف ضلَّ عنهم افتِراؤُهم؛ أي: تلاشَى ما كانُوا يفتَرونَه من شفاعةِ آلـهتِهم لهم.

وقيلَ: وضَلَّ عنهم آلـهتُهم التي كانوا يفتَرونَ على الله بتصييرِهم إيّاها شُركاءَ له.

وقيلَ: انظُرْ كيفَ عادَ ضررُ كفرِهم عليهم.

وقولُهم: ﴿مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ لا يُناقِضُ قولَه: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]؛ لأنَّهم لا يكتُمونَ في بعضِ المواطنِ، ويكذِبُونَ على أنفُسِهم في بعضِ المواطنِ يومَ القيامةِ[١].

وقيلَ: يظُنُّونَ أنَّهم يكتُمونَ، ولكنْ لا يخفَى على الله شيءٌ، فصَحَّ قولُه: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢].

وقيلَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: علِمْنا أنَّ الأحجارَ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ[٢]، ولا يُعذَرُونَ بهذا، فإنَّ المُعانِدَ كافرٌ غيرُ معذورٍ.

* * *

(١) وهذا الرد وارد عن ابن عباس رضي الله عنهما من جملة حديث طويل. رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٨٨)، والبخاري قبل حديث (٤٨١٦).

(٢) بعدها في (أ): «ولكن كنا معذبين».

(٢٥) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: استمعَ أبو سفيانَ بنُ حربٍ، والوليدُ بنُ المُغيرةِ، والنَّضرُ بنُ الحارثِ، وعُتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ وجماعةٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ قالوا للنَّضرِ: ما تقولُ؟ قال: أرى[1] تحريكَ شفتَيه، وما يقولُ إلّا أساطيرَ الأوَّلينَ مثلَ ما كنتُ أُحدِّثُكم عن القرونِ الماضيةِ، وكان النَّضرُ صاحبَ أسفارٍ، فسمعَ أقاصيصَ في ديارِ العجمِ مثلَ قصَّةِ رُستمَ وأسفنديادرَ، فأنزَلَ الله هذه الآيةَ[2]؛ أي: فيهم مَن يُكذِّبُ أوَّلًا، وفيهم مَن يُظهِرُ الاستماعَ ثمَّ يُكذِّبُ.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: هي جمعُ كنانٍ، وهو ما سترَ شيئًا، مثلَ: الأسِنَّةِ والسِّنانِ، والأعِنَّةِ والعِنانِ، وكنَنْتُ وأكنَنْتُ؛ أي: سترتُ.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ أي: لئلّا يفقَهوه، أو: كراهةَ أن يفقَهوه، والمعنى: منَعناهُم عن الإيمانِ وخلَقْنا الكفرَ في قلوبِهم.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ هو الثِّقْلُ في الأُذنِ، يُقالُ: وَقِرَتْ أذُنُه تَوْقَرُ فهي مَوقُورةٌ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾؛ أي: حالُهم أنَّهم إذا جاؤُوكَ مُجادِلينَ.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وهم المُستَمِعونَ إليك: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والسَّطرُ: الشَّيءُ المُمتَدُّ المُؤلَّفُ كسطرِ الكتابِ، يُقالُ: سَطْرٌ وسَطَرٌ، فجمعُ السَّطْرِ: أسطُرٌ وسُطُورٌ، وجمعُ السَّطَرِ: أسطارٌ، والأساطيرُ: جمعُ الجمعِ.

---

(١) في (أ): «قال ما أدري».

(٢) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٥ ـ ٥٦) عن الكلبي، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢١٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية أبي صالح. وانظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٥).

وقيلَ: الأساطيرُ جمعُ أُسطورٍ وأُسطورةٍ وإِسطيرٍ وإِسطيرةٍ، مثلُ: أُحدوثةٍ وأحاديثَ.

وقيلَ: لا واحدَ للأساطيرِ من لفظِها؛ مثلَ: عباديدَ وأبابيلَ.

وفي التَّفاسيرِ: ما هذا إلّا تُرَّهاتٌ وبسابسُ لا فائدةَ فيها، والمُجادَلةُ: المُحاجّةُ.

وقيلَ: عنَى قولَهم: «تأكُلون ممَّا تقتُلونَ، ولا تأكُلونَ ممَّا قتَلَ الله»[1].

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين يستمِعُون إليك ينهَونَ عن القرآنِ وينأَونَ عنه.

وقيلَ: أي: إنَّهم ينهَونَ عن محمَّدٍ وينأَونَ عنه، فالآيةُ الأولى على صيغةِ الخطابِ إذ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وهذه على المُغايبةُ، ومثلُه كثيرٌ في الكلامِ.

ونأى ينأَى أي: بعُدَ.

وقيلَ: نزلَتْ في أبي طالبٍ وقومٍ من بني هاشمٍ كانُوا يدفَعُونَ الأعداءَ عن النَّبيِّ

---

(١) روى أبو داود (٢٨١٩) واللفظ له، والترمذي (٣٠٦٩)، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: جاءتِ اليهودُ إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: نأكُلُ ممَّا قتَلْنا ولا نأكُلُ ممَّا قتلَ اللهُ؟ فأنزل اللهُ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] إلى آخر الآية. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

ورواه الطبريُّ في «تفسيره» (٩/ ٥٢٢ ـ ٥٢٦) عن ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد والضحاك وغيرهم.

ﷺ؛ أي: هم يَزْجرُونَ عنه النَّاسَ، ولكنَّهم ينأَونَ عنه فلا يُؤمنُونَ به[1].

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: ما يُهلِكُونَ إلّا أنفُسَهم بإصرارِهم على الكفرِ.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: إذ أُوقِفُوا غدًا، و«إذ» قد تُستعملُ في موضعِ «إذا»، و«إذا» في موضعِ «إذ»، وما سيكونُ فكأنَّه كانَ، ويُقالُ: وقَفْتُه وقفًا فوقَفَ وقوفًا.

﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: وُقِفُوا بقُرْبها وهم يُعايِنُونَها، أو وُقِفُوا عليها؛ أي: على الصِّراطِ والنّارُ تحتَهم، أو عرفُوا حقيقتَها كقولك: «وقفتُ فلانًا على الكلامِ»؛ أي: عرَّفتُه معناه.

وقيلَ: «على» بمعنى «في»؛ أي: وُقِفُوا في النّارِ، كقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: في مُلكِه.

وجوابُ (لو) محذوفٌ؛ ليذهبَ الوهمُ إلى كلِّ شيءٍ فيكونَ أبلغَ في التَّخويفِ؛ أي: لَرأيتَ منظرًا هائلًا.

﴿فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبُ﴾ بالرَّفعِ، فيدخُلُ ﴿ولا نكذِّبُ﴾ في التَّمنِّي؛ أي: يتمنَّونَ الرَّدَّ وأن لا يُكذِّبوا، وأن يكونُوا منَ المُؤمنين، أو: ليتَنا نُرَدُّ ونحنُ لا نُكذِّبُ بآياتِ ربِّنا، فيضمَنُونَ أنَّهم لا يُكذِّبون رُدُّوا أو لم يُرَدُّوا.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٨٥)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٦٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٢٨) وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقُرِئَ: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ بالنَّصبِ؛ لأنَّه جوابُ التَّمنِّي، كقولك: «ليتَكَ تصيرُ إلينا ونُكرِمَكَ»؛ أي: ليتَ مصيرَكَ يقعُ وإكرامَنا، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ مُبدَلةً منَ الفاءِ؛ أي: ليتَنا نُرَدُّ فلا نُكذِّبَ، وقرأ عبدُ الله بالفاءِ[1].

وقيلَ: أي: يا ليتَنا نُرَدُّ غيرَ مُكذِّبين، كقولك: «لا تأكلِ السَّمكَ وتشربَ اللَّبنَ»؛ أي: لا تأكلِ السَّمكَ شاربًا للَّبنِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿ولا نُكذِّبُ﴾ بالرَّفعِ، ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنَّصبِ[2]، فأدخلَ ﴿ولا نُكذِّبُ﴾ في التَّمنِّي، أو أرادَ: ونحنُ لا نُكذِّبُ، وقولُه: ﴿وَنَكُونَ﴾ نصبٌ لأنَّه جوابُ التَّمنِّي.

* * *

(٢٨) ـ ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ هذا ردٌّ لكلامِهم؛ أي: إنَّما اعتذَرُوا لأنَّهم افتُضِحُوا لا لصِحَّةِ عزمِهم على الإيمانِ لو رُدُّوا؛ أي: كانُوا[3] يُخفونَ أعمالَهم السَّيِّئةَ في الدُّنيا إذ كانت لهم ذنوبٌ جمَّةٌ، وربَّما كانوا يُظهِرُونَ الإيمانَ ويُخفونَ الكُفرَ، فبدَتْ أعمالُهم السَّيِّئةُ على رُؤوسِ الأشهادِ، قال الله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٨].

وقيلَ: أي: بدا لهم عقابُ ما كانُوا يُخفونَه من سيِّئاتِ أعمالِهم، وما كانوا يعتَقِدُونَ ذلك.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٧٦)، و«تفسير الطبري» (٩/ ٢٠٨).

(٢) أي: برفع الأول ونصب الثاني، وقرأ حمزة وحفص بالنصب فيهما، والباقون بالرفع فيهما. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

(٣) في (أ): «لأنهم كانوا»، بدل: «أي كانوا».

وقيلَ: نزلَتْ في قومٍ كانُوا يعلَمُونَ صدقَ محمَّدٍ، ولكنَّهم عانَدُوا؛ أي: بدا لهم ما كتَمُوه عنادًا.

وقيلَ: بدا لهم من أمرِ النّارِ ما كانوا يُخفونَه على أنفُسِهم بالتَّشكُّكِ.

وقيلَ: بدا لمُشركي العربِ ما كانَ أهلُ الكتابِ يُخفُونَ عنهم منَ البعثِ وأمرِ النّارِ؛ لأنَّه سبقَ ذِكرُ أهلِ الكتابِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢٠].

وقيلَ: أي: بدا للأتباعِ ما أخفاه الرُّؤساءُ عنهم.

وقيلَ: هم يجحَدُونَ الشِّركَ غدًا فيقولُونَ: والله ما كنَّا مُشركينَ، فيُنطِقُ الله جوارِحَهم فتشهدُ عليهم بالكفرِ، فذلك حينَ بدا لهم ما كانُوا يُخفُونَ من قبلُ.

﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾؛ أي: إلى ما نُهوا عنه منَ الشِّركِ؛ لعِلْمِ الله فيهم، وإرادَتِه أنْ لا يُؤمِنُوا في الدُّنيا، وقد عاينَ إبليسُ ما عاينَ من آياتِ الله ثمَّ عانَدَ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ هذا التَّكذيبُ يرجعُ إلى ما أخبَرُوا به عن أنفُسِهم؛ إذ قالوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾، ومَن قال: يدخلُ قولُه: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾، وقولُه: ﴿وَنَكُونَ﴾ في التَّمنِّي؛ قال: يرجعُ هذا التَّكذيبُ منَ الله لهم إلى معنى التَّمنِّي؛ لأنَّ معنى تمنِّيهم: نحنُ لا نُكذِّبُ إذا رُدِدْنا، وقد كذَّبُوا.

* * *

(٢٩) ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: لَعادوا إلى الشِّركِ ولَقالوا: ما هي إلّا حياتُنا الدُّنيا.

وقيلَ: هذا ابتداءُ إخبارٍ عنهم؛ أي: إنَّهم قالُوا في الدُّنيا: «لا حشرَ».

وعلى القولِ الأوَّلِ بعد مُعاينةِ العذابِ لو رُدُّوا إلى الدنيا لَعادُوا إلى الكفرِ واشتغلُوا بلذَّةِ الحالِ، ولـم يُفكِّروا فيما علمُوه بالضَّرورةِ كما بيَّـنّا من حالِ إبليسَ، وهذا يُحمَلُ على المُعانِدِ، أو على أنَّ الرَّبَّ يُلبِّسُ عليهم بعدَما عرَفُوا بالضَّرورةِ ما عرَفُوا، وهذا سائغٌ في العقلِ.

***

(٣٠) ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: حُبِسُوا في موقفِ الحسابِ على ما يكونُ من أمرِ الله، وهذا وقوفُ انتظارٍ.

وقيلَ: وُقِفُوا عند الملائكةِ وعند جزاءِ الله، وحيثُ لا سلطانَ فيه لغيرِ الله، فعبَّرَ عن هذا بقولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، تقولُ: «وقفتُ على فلانٍ»؛ أي: عندَه.

وقيلَ: أي: عرَفُوا الرَّبَّ؛ فإنَّهم كانوا غيرَ عارفينَ به في الدُّنيا، تقولُ: «وقفْتُ فلانًا على كذا»؛ أي: عرَّفتُه ذلك الشَّيءَ.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: أليس هذا البعثُ كائنًا موجودًا؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ ويُؤكِّدونَ اعترافَهم بالقَسمِ، فيقولونَ: «بلى والله».

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: فهذا جزاءُ كفرِهم يومَ القيامة[1].

***

---

(١) «يوم القيامة» من (أ).

(٣١) ـ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لو رأيتَهم لرأيتَهم خاسرين باعُوا الإيمانَ بالكفرِ والجنّةَ بالنّارِ.

﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: بالبعثِ وجزاءِ الله، ففخَّمَ بأنْ أضافَ إلى نفسِه، واستدلَّ القفّالُ لهذا بقولِه عليه السَّلامُ: «مَن حلَفَ على يمينٍ كاذبةٍ ليقتطعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ لقيَ الله[1] وهو عليه غضبانُ»[2]؛ أي: لقيَ جزاءَه؛ لأنَّ مَن غضِبَ الله عليه لا يرَى الله عند مُثْبتي الرُّؤيةِ.

وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنَّ حملَ اللِّقاءِ في موضعٍ على لقاءِ الجزاءِ لدليلٍ قام لا يُوجِبُ هذا التَّأويلَ في كلِّ موضعٍ، فليُحمَلِ اللِّقاءُ على ظاهرِه في هذه الآيةِ، والكفّارُ كانوا يُنكرون وجودَ الصّانعِ، ومُنكرُ الرُّؤيةِ مُنكرٌ للوجودِ[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ أي: السّاعةُ التي يُحاسَبون فيها، وعُرِّفَتْ بالألفِ واللّامِ لأنَّها كانت معروفةً منهم.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ بيانٌ للوقتِ؛ أي: مُنتَهى تكذيبِهم الحسرةُ يومَ القيامةِ.

﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأةً.

﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا﴾؛ أي: يا حسرَتي هذا وقتُكِ فتعالَي، وتقولُ: يا عجَباهُ؛ أي: يا عجَبِي هذا وقتُكَ فتعالَ.

---

(١) بعدها في (أ): «يوم القيامة».

(٢) رواه البخاري (٢٦٧٣)، ومسلم (١٣٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) في (ت): «الوجود».

وقيلَ: هو تنبيهٌ[١] للنَّاسِ على عظيمِ ما يَحِلُّ بهم منَ الحسرةِ؛ أي: يا أيُّها النّاسُ تنبَّهوا على ما بي منَ الحسرةِ، ووقعَ النِّداءُ على غيرِ المنادى على الحقيقةِ، كقولك: «لا أرينَّكَ هكذا[٢]»، فيقعُ النَّهيُ على غيرِ المنهيِّ في الحقيقةِ.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾؛ أي: ضيَّعْنا، يُقالُ: فرَطَ فلانٌ؛ أي: تقدَّمَ وسبقَ، ومنه: «أنا فرَطُكم على الحوضِ»[٣]، ومنه: الفارطُ، فقولُه: ﴿فَرَّطْنَا﴾؛ أي: قدَّمْنا العجزَ.

وقيلَ: ﴿فَرَّطْنَا﴾؛ أي: جعَلْنا غيرَنا الفارطَ السّابقَ لنا إلى طاعةِ الله وتخلَّفْنا فيها؛ أي: في الدُّنيا.

وقيلَ: في السّاعةِ؛ أي: في العملِ للسّاعةِ.

وقيلَ: في الجنَّةِ وطلَبِها.

وقيلَ: يا حسرَتَنا على الطّاعاتِ التي قصَّرْنا فيها.

وقيلَ: أي: في الصَّفقةِ؛ لأنَّه جرَى ذِكرُ الخسرانِ.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أي: أثقالَـهم منَ الذُّنوبِ، والوِزْرُ: الثِّقلُ، ومنه: الوزيرُ؛ لأنَّه يحملُ أثقالَ ما يُسنَدُ إليه من تدبيرِ الولايةِ.

والمعنى: أنَّهم لزِمَهم الآثامُ فصارُوا مُثقَلين بها، وهذا توسُّعٌ.

وفي التَّفاسيرِ: إذا خرجَ المُؤمنُ من قبرِه استقبَلَه صورةٌ من أحسنِ ما يكونُ وأطيبِه ريحًا، فيقولُ: أنا عملُكَ الصّالحُ، طالَ ما ركبتُك في الدُّنيا، فاركَبْني أنت

---

(١) في (أ): «بينة».

(٢) في (أ): «هذا وهكذا»، والمستعمل في مثل هذا: «هاهنا».

(٣) روي في الصحيح عن عدد من الصحابة، منها ما رواه البخاري (٦٥٧٥)، ومسلم (٢٢٩٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

اليومَ، فذلك قولُه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]؛ أي: رُكبانًا على نجائبِ طاعاتِهم، وأنَّ الكافرَ إذا خرجَ من قبرِه استقبلَه أقبحُ شيءٍ صورةً وأخبثُه ريحًا، فيقولُ: أنا عملُك السَّيِّءُ، طالَ ما ركبتَني في الدُّنيا، فأنا أركبُكَ اليومَ، فذلك قولُه: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١]؛ أي: ما أسوأَ الشَّيءَ الذين يحمِلُونَه(١).

***

(٣٢) ـ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لـمَّا قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، قيلَ لهم: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لِقِصَرِ مُدَّتِها.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: هذا حياةُ الكافرِ لأنَّه يُزجيها في غرورٍ وباطلٍ، فأمَّا حياةُ المُؤمنِ فتنطَوي على أعمالٍ صالحةٍ، فلا تكونُ لعبًا ولـهوًا(٢).

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾؛ أي: الجنّةُ خيرٌ، فسُمِّيَتْ آخرةً لأنَّها بعد الدُّنيا؛ أي: نعيمُ الدّارِ الآخرةِ خيرٌ.

وقُرِئَ: ﴿ولدارُ الآخرةِ﴾ بالإضافةِ(٣).

قال الفرَّاءُ: هي إضافةُ الشَّيءِ إلى نفسِه، كقولك: بارحةُ الأولى، ويومُ الخميسِ، وحقُّ اليقينِ، وإنَّما يجوزُ هذا عند اختلافِ اللَّفظَينِ(٤).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢١٦) عن عمرو بن قيس الملائي.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٩١).

(٣) قرأ بها ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٣٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٨/ ٩٢).

وقالَ البصريُّونَ: لا يجوزُ إضافةُ الشَّيءِ إلى نفسِه، فالمعنى: ولدارُ السَّاعةِ الآخرةِ، ويجوزُ إقامةُ الصِّفةِ مُقامَ الموصوفِ إذا كانتِ الصِّفةُ تُستعمَلُ استعمالَ الأسماءِ، والآخرةُ صفةٌ قد تُستعمَلُ اسمًا كقولِه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤][1].

﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: يتَّقونَ الشِّركَ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قُرِئَ بالتَّاءِ والياءِ[2].

* * *

(٣٣) ـ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾؛ أي: يحزُنُك قولُهم: ما جئتَ به أساطيرُ الأوَّلينَ، ويسوؤُكَ إصرارُهم على الكفرِ وهم ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بل عرفُوكَ بالصِّدقِ، ولكنَّهم يُكذِّبُونَني.

نزلَتْ في الأخنَسِ بنِ شريقٍ، قال لأبي جهلٍ: أخبِرْني عن محمَّدٍ، أكاذِبٌ هو؟ فإنَّه ليس هاهُنا أحدٌ يسمعُ كلامَكَ، فقال: ما كذَبَ قطُّ، ولكنْ إذا ذهبَ بنو قُصَيٍّ باللِّواءِ والسِّقايةِ والحجابةِ والنَّدوةِ والنُّبوَّةِ، فماذا يكونُ لسائرِ قُريشٍ[3]؟

وقيلَ: قال بعضُهم: إنَّا لا نتَّهِمُكَ يا محمَّدُ، ولكنْ لو اتَّبعناكَ نُتخَطَّفُ من أرضِنا

---

(١) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢١٦).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء، وقرأ الباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٢٢) عن السدي، وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٦٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢١٦).

ولا طاقةَ لنا بالعربِ، فنزلَتِ الآيةُ[١]، فهي إذًا في المُعانِدين كما قالَ الله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

وقيلَ: هو إخبارٌ عن جميعِ الكفَّارِ؛ أي: لا يُمكِنُهم تكذيبُكَ؛ للمُعجِزاتِ، أو لأنَّهم عرَفُوا صِدقَكَ فهم يكفُرونَ بي.

قُرِئَ: ﴿ليُحْزِنُكَ﴾ و﴿لَيَحْزُنُكَ﴾[٢]، يُقالُ: حزَنَه الأمرُ وأحزَنَه، بمعنًى.

وقُرِئَ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بالتَّشديدِ، وقُرِئَ: ﴿يُكْذِبُونَكَ﴾ بالتَّخفيفِ[٣]، والتَّكذيبُ والإِكذابُ بمعنًى.

وقيلَ: أي: لا يجِدُونَكَ كذَّابًا، تقولُ: أكذَبْتُه؛ أي: وجَدْتُه كذَّابًا، وأبخَلْتُه؛ أي: وجَدْتُه بخيلًا؛ أي: لا يجِدُونَكَ كذَّابًا إنْ تدَبَّرُوا ما جئتَ به.

وقيلَ: أكذَبْتُه؛ أي: دَلَّلْتُ على كذبِه؛ أي: لا يُمكِنُهم تصحيحُ كذبٍ عليك.

وقيلَ: الآيةُ في أهلِ الكتابِ؛ أي: إذا أخبرتَهم بما في كتابِهم لا يُمكِنُهم تكذيبُكَ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: يُكذِّبُونَ، إذ يُقالُ: كذَّبَ به، ولا يُقالُ: جَحَدَ به.

---

(١) ذكر نحوه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٢٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق أبي صالح. وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، والراوي عنه هو الكلبي، وهو متروك.

(٢) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي، والباقون بفتح الياء وضم الزاي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٦)، و«التيسير» (ص: ٩٢).

(٣) قرأ نافع والكسائي بالتخفيف والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

وقيلَ: ولكنَّ الظّالمينَ بردِّ آياتِ الله يجحَدُونَ، كقولِه: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ أي: بردِّها وإنكارِها.

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾؛ أي: حتَّى عُوقِبَ الكفّارُ، أو آمنَ القومُ.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا ناقِضَ لحكمِه، ولا خُلفَ في وعدِه، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: من خبرِهم في القرآنِ؛ أي: جاءك من أخبارِهم البعضُ، فحُذِفَ الفاعلُ.

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ كان يشتَدُّ عليه كفرُهم، فبيَّنَ أنَّ لكلِّ نبيٍّ أجلًا مضروبًا، وأمرَه بالصَّبرِ، ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾؛ أي: عن الإيمانِ بك.

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ﴾؛ أي: تطلُبَ ﴿نَفَقًا﴾؛ أي: سَرَبًا في الأرضِ تخلُصُ منه إلى مكانٍ آخرَ ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الجوابُ مُضمَرٌ؛ أي: فافعَلْ ذلك، والمعنى: أنَّهم اقترَحُوا عليك آياتٍ ليسَتْ لك، ولا يجبُ إظهارُها بعد أن رأَوا مُعجزاتِكَ، فانظُرْ هل تجدُ سبيلًا إلى الاحتيالِ في الإتيانِ بهذه الآياتِ؟ فإنْ لم تجِدْ سبيلًا فاصبِرْ.

وقيلَ: هو إشارةٌ إلى قولِـهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: ٩٣] وقولِـهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، فابتغاءُ النَّفقِ في الأرضِ لاستخراجِ الماءِ؛ أي: اقترَحُوا ما لا قُدرةَ لك عليه، فليس إلّا أن تُهوِّنَ على نفسِكَ.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ بيَّنَ أنَّ كُفرَهم بمشيئةِ الله.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ بأنَّهم لا يجتمِعُونَ على الهدى.

وقيلَ: أي: لا تحزَنْ على كُفرِهم فتُقارِبَ حالَ الجاهلِ بأحكامِ قضاءِ الله وقدَرِه.

وقيلَ: الخطابُ له والمُرادُ الأمَّةُ؛ فإنَّ قلوبَ المسلمينَ أيضًا كانت تضيقُ مـمَّا يلقَونَه منَ الأذى.

* * *

(٣٦) ـ ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ﴾؛ أي: يستجيبُ المُؤمنون الذين يسمَعُونَ الذِّكرَ فينتَفِعُونَ به.

﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قد يُحييهم عن شركِهم، عنَى المُشركينَ يُؤمِنُون وقتَ البأسِ أو في القيامةِ، ولكنْ لا ينفعُهم، فالمُرادُ بالمَوتَى الكفَّارُ.

* * *

(٣٧) ـ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: هلَّا أتى بما نقترِحُه ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قُدرَتَه، أو: لا يعلَمُونَ ما عليهم في تلك

الآيةِ لو نزلَتْ؛ فإنَّ فيها استئصالَـهم إنْ لـم يُؤمِنُوا، وكان في علمِ الله أن يخرُجَ من أصلابِهم أقوامٌ يُؤمِنُونَ ولـم يُرِدِ استئصالَـهم.

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ خلافَ المعلومِ يجوزُ أن يكونَ مقدورًا.

***

(٣٨) ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؛ أي: البهائمُ تطلُبُ منافعَها وتحذرُ التَّالفَ، وهؤلاءِ لا يهتَدُونَ لِمَنافعِهم.

وقيلَ: أي: ما من دابَّةٍ ولا طائرٍ إلّا وهو يُسبِّحُ الله، ويدُلُّ على وحدانيَّتِه لو تأمَّلَ الكفّارُ.

وقيلَ: أي: ليس فيها ما يجحَدُ توحيدَ الرَّبِّ، فما بالُ الكفّارِ يجحَدُونَ؟

وقال مُجاهدٌ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؛ أي: هي أصنافٌ تُعرَفُ بأسمائِها(١)، فهذا معنى المُماثلةِ.

قال أبو هُريرةَ: هي أمثالُنا على معنَى: أنَّه يحشرُ البهائمَ غدًا، ويقتَصُّ للجمَّاءِ منَ القَرْناءِ، ثمَّ يقولُ الله لـها: كوني تُرابًا(٢).

---

(١) في (أ): «تعرف بأمثالها وأسمائها» والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في المصادر. فقد رواه هكذا الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٨٥)، والفريابيُّ وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٦٦).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٧٨٦)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (٣٢٢)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٣١)، وصححه.

وهذا اختيارُ الزَّجَّاجِ؛ فإنَّه قال: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ في الخلقِ والموتِ والبعثِ والاقتصاصِ[١].

وقال قومٌ: تُحشرُ البهائمُ غدًا ويُعوَّضُونَ منَ الآلامِ التي حلَّتْ بهم، ثمَّ يُنعَّمون في الجنّةِ، وتُحشَرُ صُوَرُهم، فيستأنِسُ بها أهلُ الجنّةِ.

والصَّحيحُ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ في كونِها مخلوقةً دالّةً على الصّانعِ مُحتاجةً إليه مرزوقةً من جهتِه، كما أنَّ رِزْقَكم على الله.

وقال سُفيانُ بنُ عُيَينَةَ: أي: ما من صنفٍ منَ الدَّوابِّ والطَّيرِ إلّا وفي النّاسِ شبهٌ منهم، فمنهم مَن يعدُو كالأسدِ، ومنهم مَن يَشْرَهُ كالخنزيرِ، ومنهم مَن يعوي كالكلبِ، ومنهم مَن يزهُو كالطّاووسِ، فهذا معنى المُماثلةِ، واستَحْسَنَ الخطَّابيُّ هذا، وقال: فإنَّك تُعاشِرُ البهائمَ والسِّباعَ فخُذْ حِذْرَكَ[٢].

﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ ذكرَ الجناحَ تأكيدًا.

وقيلَ: قد يقولُ الرَّجلُ: طِرْ في حاجَتي، فذكرَ ﴿بِجَنَاحَيۡهِ﴾ ليتمحَّضَ القولُ في الطَّيرِ.

﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾؛ أي: في اللَّوحِ المحفوظِ؛ فإنَّه أثبتَ فيه كلَّ ما يقعُ منَ الحوادثِ.

وقيلَ: أي: في القرآنِ؛ أي: ما ترَكْنا شيئًا يحتاجُونَ إليه من أمرِ الدِّينِ إلّا أثبَتْناه[٣]

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٤٥).

(٢) روى الخطابي قول سفيان بن عيينة وعلق عليه بما نقل المصنف. انظر: «العزلة» للخطابي (ص: ٥٥)، وانظر: «البسيط» للواحدي (٨/ ١١٦).

(٣) في (أ): «إلا بيناه».

في القرآنِ، ثمَّ منها ما تـمامُ بيانِه يُتلقَّى منَ الرَّسولِ، ومنه ما يُتلقَّى منَ القياسِ الذي ثبتَ بالإجماعِ، الذي ثبتَ بنصِّ الكتابِ.

والتَّفريطُ: مُجاوَزةُ الحدِّ.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾؛ أي: للجزاءِ، كما سبقَ في خبرِ أبي هُريرةَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ في روايةٍ: حشرُ الدَّوابِّ والطَّيرِ موتُها[1].

وقيلَ: يرجعُ هذا الحشرُ إلى الكفَّارِ، وما تخلَّلَ كلامٌ مُعترِضٌ وإقامةُ حُجَجٍ.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾؛ أي: كلُّ أمَّةٍ منَ الدَّوابِّ وغيرِها تهتَدي لمصالحِها والكفَّارُ لا يهتَدونَ، وقد فقَدُوا الانتفاعَ بأسماعِهم وأبصارِهم.

﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي: ظُلماتِ الكفرِ.

﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ دلَّ على أنَّه شاءَ ضلالَ الكافرِ، ألا ترَى أنَّه قال: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ وترجعُ هذه المشيئةُ إلى الدِّينِ.

* * *

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٢٤٠٠)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٢٨٧).

(٤٠) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ يُحاجُّ مُشرِكي قريشٍ ممَّن اعترفَ بأنَّ له صانعًا؛ أي: أنتم عند الشَّدائدِ ترجِعُونَ إلى الله، وستُرجَعُونَ يوم القيامةِ إليه أيضًا، فلِمَ تُصِرُّونَ على الشِّركِ في حالِ الرَّفاهيةِ؟

﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ قال الفرَّاءُ: الرُّؤيةُ بمعنى رُؤيةِ العينِ تُعدَّى بالضَّميرِ إلى المُخاطبِ، وتُثنَّى وتُجمَعُ، تقولُ: «أرأيتَكَ على حالِ كذا»، «أرأيتُماكما»، «أرأيتَموكم»، «أرأيتَكِ»، «أرأيتنَّكُنَّ»(١)، فأمَّا الرُّؤيةُ بمعنى الخبرِ أو العلمِ إذا قلتَ: «أرأيتَكَ إنْ فعلتُ كذا ماذا تفعلُ؟» أي: أخبِرْني، فهاهُنا تُترَكُ التّاءُ مُوحَّدةً على كلِّ حالٍ، تقولُ: «أرأيتَكَ، أرأيتكُما، أرأيتكُم، أرأيتَكِ، أرأيتكُنَّ» بفتحِ التّاءِ؛ لأنَّهم لم يُريدوا أن يكونَ الفعلُ واقعًا منَ المُخاطَبِ على نفسِه، فاكتَفَوا من علامةِ المُخاطبِ بذكرِه في الكافِ، وترَكُوا التّاءَ على التَّذكيرِ والتَّوحيدِ.

ويجري هذا في الألفاظِ التي تتعدَّى إلى مفعولَينِ أوَّلُهما الثّاني، وهي: «ظننْتُ»، و«خِلْتُ»، و«حسِبْتُ»، و«علِمْتُ»، و«رأيْتُ» بمعنَى: علِمْتُ، و«زعَمْتُ» بمعنَى: علِمْتُ، فتقولُ: «ضربتُ نفسي»، ولا تقولُ: «ضربَتُني» بل تقولُ: «علمْتُني خارجًا»؛ لأنَّهم أرادُوا الفصلَ بينَ الفعلِ الذي قد يُلغَى وبين الفعلِ الذي لا يجوزُ إلغاؤُه، ألا ترَى أنَّك تقولُ: «أنا أَظُنُّ خارجٌ»، فيجوزُ أن يُلغَى «أظُنُّ»، فتقولُ: «أنا خارجٌ»، قال الله: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧]، ولم يقُلْ: «أنْ رأى نفسَه»(٢).

---

(١) في النسختين: «أرأيتكن»، والتصويب من «معاني القرآن» للفراء و«البسيط».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤)، و«البسيط» (٨/ ١٢٥).

وهذا قولُ الزَّجّاجِ أيضًا، غيرَ أنَّ الفرَّاءَ يقولُ: الكافُ في ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ موضِعُها نصبٌ، وتأويلُها رفعٌ؛ لأنَّ الفعلَ تحوَّلَ منَ التّاءِ إليها، وهي كالكافِ في «دونَكَ» للإغراءِ إذا قلتَ: «دونَكَ زيدًا»؛ فإنَّ الكافَ في اللَّفظِ خفضٌ، وفي المعنى رفعٌ[(١)].

وقالَ الزَّجّاجُ: لا موضعَ لهذه الكافِ، والمعنى: «أرأيتَ زيدًا ما حالُه؟»، والكافُ زيادةٌ، وهي حرفٌ وليست باسمٍ، كما أنَّ الكافَ في «ذلك، وهُنالِكَ، وأُبصِرُك» للخطابِ، ولو كان محلُّ الكافِ نصبًا: فإذا قُلتَ: «أرأيتَكَ زيدًا ما شأنُه؟» يجبُ أن يكونَ معناه: «أرأيتَ نفسَك زيدًا ما شأنُه»؛ لأنَّ الرُّؤيةَ تعدَّتْ عندَه إلى الكافِ وإلى «زيدًا»، وهذا مُحالٌ، فالكافُ إذًا للخطابِ ولا موضعَ لها، ومعنى الآيةِ: أخبِرُوني ماذا تفعَلُونَ إنْ أتاكُم عذابُ الله، ولهذا لم يقُلْ: أرأيتُموكم؛ لأنَّه لم يُرِدْ رُؤيةَ العينِ[(٢)].

﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ الموتُ.

وقيلَ: هو عامٌّ في شدائدِ الدُّنيا والآخرةِ.

﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامةُ ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أخبِرُونا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

* * *

(٤١) ـ ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ «بل» إضرابٌ عن الأوَّلِ وإيجابٌ للثّاني ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يكشفُ الضُّرَّ الذي تدعُونَ إلى كشفِه، والكنايةُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ ترجعُ إلى ﴿مَا﴾.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٣٣)، و«البسيط» (٨/ ١٢٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧)، و«البسيط» للواحدي (٨/ ١٢٧).

﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾؛ أي: أصنامَكم؛ إذ لا ضرَرَ فيها ولا نفعَ.

وقيلَ: أي: أنتم في ترككُم دُعاءَهم بمنزلةِ مَن قد نسيَهم.

* * *

(٤٢) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، وفيه إضمارٌ؛ أي: أرسَلْنا إلى أُممٍ من قبلِكَ رُسلًا، وفيه إضمارٌ آخرُ؛ أي: فكفَرُوا.

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ﴾؛ أي: بالفقرِ والشِّدّةِ منَ البُؤسِ والضَّرّاءِ؛ أي: بالأسقامِ والآلامِ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ أي: ليقعَ ما يرجُوه العبادُ منهم منَ التَّضرُّعِ، وهو التَّخشُّعُ، يُقالُ: ضرَعَ فهو ضارعٌ، وهذا وصفُ قومٍ آخَرين لا وصفُ مَن يدعو الله في الشَّدائدِ.

* * *

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾؛ أي: هلَّا ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأصرُّوا ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أعمالَهم؛ أي: أغراهُم بالمعاصي.

قولُه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: تركُوا ما وُعِظُوا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: منَ النِّعمِ، وهي عامٌّ، والمُرادُ: بعضُ الخيراتِ، كقولِه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾؛ أي: اغترُّوا بما أُعطُوا ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾؛ أي: فجأةً.

وفي الخبرِ: «إذا رأيتَ الله يُعطي على المعاصي فإنَّ ذلك استدراجٌ منَ الله»، ثمَّ قرأ هذه الآيةَ[1].

﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ المُبْلِسُ: الآيِسُ منَ الخيرِ.

وقيلَ: مَن انقطَعَتْ حُجَّتُه.

* * *

(٤٥) ـ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الدّابرُ: الأخيرُ، يُقالُ: دبرَ القومَ؛ أي: كان آخِرَهم.

وقيلَ: قطعَ الله دابِرَه؛ أي: أصلَه.

﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا تعليمٌ للمُؤمنين ليحمَدُوا الله على النِّعمِ.

وقيلَ: مدحَ نفسَه؛ أي: هو الممدوحُ في كلِّ حالٍ.

* * *

(٤٦) ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ﴾ يُخاطِبُ مَن يعترفُ بأنَّ الله خالقُ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٣١١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه بلفظ: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾.

السَّماواتِ والأرضِ؛ أي: إنْ أخذَ سمعَكم وأبصارَكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ حتَّى لا تفهَمُوا شيئًا ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾؛ أي: لا أحدَ يأتيكُم به.

﴿بِهِ﴾؛ أي: بما أخذَ، وقيلَ: يأتيكُم بالسَّمعِ، ثمَّ ما[1] عُطِفَ عليه يدخلُ في القِصّةِ معه.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: نُبيِّنُ الحججَ ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾؛ أي: يميلُون عنها، والصُّدوفُ: الميلُ.

* * *

(٤٧) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأةً، ويقعُ ذلك سرًّا ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾؛ أي: علانيةً. وقيلَ: ليلًا أو نهارًا.

﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾؛ أي: لا يُهلَكُ ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهم المُشرِكُون لقولِه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

* * *

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ أي: بالرَّغبةِ والرَّهبةِ، وقد أجرَى الله سُنَّتَه بوعدِ المُطيعِ ووعيدِ الكافرِ، وإنْ كانَ يصِحُّ منه تكليفُ العبدِ من غيرِ وعدٍ ووعيدٍ.

---

(١) في (أ): «بالسمع وما».

ثمَّ؛ المُصدِّقُ لا خوفٌ عليه ولا حُزنٌ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ والمُكذِّبُ يمسُّه العذابُ؛ أي: يُصيبُه العذابُ، وهو مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: يكفي الرَّسولَ مُعجزةٌ واحدةٌ، وإنَّما عليه التَّبشيرُ والإنذارُ.

* * *

(٥٠) ـ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ الخِزانةُ ما يُخْزَنُ فيه الشَّيءُ، وخزائنُ الله: مَقدُوراتُه؛ أي: لا أملكُ أنْ أفعلَ كلَّ ما أُريدُ ممَّا تقترِحُونَ.

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أيضًا إلّا إذا أُوحِيَ إليَّ بشيءٍ.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ كان القومُ يتوهَّمونَ أنَّ الملائكةَ أفضلُ؛ أي: لسْتُ بمَلَكٍ حتَّى أُشاهِدَ مِن فِعْلِ الله ما لا يَشهدُه البشرُ.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ **الصَّحيحُ**: أنَّ الأنبياءَ يجوزُ منهم الاجتهادُ، والقياسُ على المنصوصِ بالوحيِ اتِّباعٌ للوحيِ، وقياسُ أحدِنا أيضًا من جملةِ أدلَّةِ الشَّرعِ.

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: الكافرُ والمُؤمنُ.

وقيلَ: أي: أنتم في الاقتراحاتِ عمِيتُم عن الرُّشدِ.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الإنذارُ: الإعلامُ بموضعِ المَخافةِ؛ أي: علِمْتَ

إصرارَ الكفّارِ على كُفرِهم فأقبِلْ على أصحابِكَ فإنَّه أولى، ولا يجوزُ طَردُهم فإنَّهم الُمرادون بالتَّكريمِ والمحبّةِ منَ الله.

﴿بِهِ﴾؛ أي: بالقرآنِ. وقيلَ: بالله. وقيلَ: باليومِ الآخرِ.

﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: يخافُونَ من عذابِ الله، لا أنَّهم يتردَّدُونَ في الحشرِ.

وقيلَ: ﴿يَخَافُونَ﴾؛ أي: يعلَمُونَ.

وقيلَ: الآيةُ في المُشركينَ؛ أي: أنذِرْهم بيومِ القيامةِ. **والأوَّلُ أليَقُ بما بعدَه.**

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾؛ أي: من غيرِ الله ﴿شَفِيعٌ﴾ ردًّا على مَن قال: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ومَن قال: «الآيةُ في المُؤمنين» قال: شفاعةُ الرُّسلِ لهم تكونُ بإذنِ الله، فهو الشَّفيعُ إذن.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: في المُستقبلِ، وهو الثَّباتُ على الإيمانِ.

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ قال المُشركُونَ: لا نرضَى بمُجالسةِ أمثالِ سلمانَ وصُهَيبٍ وبلالٍ وخبَّابٍ فاطرُدْهم عنكَ، وطمِعَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ في إيمانِهم(١).

وقيلَ: كان الفقراءُ يسبِقُونَ ويأخُذونَ المجلسَ، فقال الأقرَعُ بنُ حابسٍ وعُيَينةُ

(١) رواه بنحوه مسلم (٢٤١٣) من حديث سعد رضي الله عنه.

بنُ حصنٍ وأمثالُـهما: لو أدنَيْتَنا إذا جئْنا، وهَمَّ النَّبيُّ عليه السَّلامُ بذلك، لا استِحقارًا للفقراءِ، ولكنِ استِجْلابًا لقُلوبِ أولئك، فنزلَتِ الآيةُ(١).

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾؛ أي: يعبُـدونَ ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قـال ابنُ عبَّـاسٍ: يعني: صلاةَ الصُّبحِ والعصرِ(٢).

والأظهرُ: أنَّه عبارةٌ عن ذكرِ الله، وقراءةِ القرآنِ، ومُلازمةِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ في كلِّ وقتٍ.

قُرِئَ: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾، وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿بالغُدْوَةِ﴾(٣).

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؛ أي: يُخلِصُونَ له في الطّاعةِ.

وقيلَ: أي: يُريدونَ الوجهَ الذي وجَّهَهم فيه، وهو الطّاعةُ، فالوجهُ: الجِهةُ.

وقيـلَ: يُريـدونَ اللهَ الموصـوفَ بـأنَّ لـه الوجـهَ، كمـا قـالَ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وهـو كقولِـه: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢].

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾؛ أي: المدارُ على الأعمالِ لا على الحسَبِ

(١) رواه ابن ماجه نحوه (٤١٢٧) من حديث خباب رضي الله عنه. وإسناده ضعيف، فيه أسباط بن نصر كثير الخطأ، ذكره الذهبي في «الميزان» فقال: وثقه ابن معين، وتوقف فيه أحمد، وضعفه أبو نعيم، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال حرب بن إسماعيل، قلت لأحمد: كيف حديثه؟ قال: ما أدري، وكأنه ضعفه.

وقال ابن كثير في «تفسيره»: «وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٦٤) عن مجاهد، وروى (١٧/ ٣٢٠) معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

والرِّياسةِ في الدُّنيا، وكان الكفّارُ يقولونَ: هؤلاءِ طرَحُوا كدَّ[1] الاكتِسابِ عن أنفُسِهم ليجِدُوا قوتًا، فقال الله: ليس رزقُهم عليكَ.

وقيلَ: أي: ما عليكَ من جزاءِ أعمالِـهم شيءٌ، بل جزاءُ الجميعِ عندَ الله، وهو الذي لا بدَّ لك ولا لـهم منه.

وقيلَ: ما عليكَ من حسابِ هؤلاءِ المُشركينَ من شيءٍ حتَّى تحزَنَ لكُفرِهم وتحرِصَ كلَّ هذا الحرصِ فتطرُدَهم خوفًا من أن يلحقَكَ منهم ضررٌ.

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾؛ أي: لا تطرُدْهم فتكونَ ظالـمًا تَنْقُصُ ثوابَكَ، وتضعُ الشَّيءَ غيرَ موضعِه، أو تظلِمَهم بطردِهم.

قـال خبَّـابٌ: طلَبُـوا منَ النَّبـيِّ عليه السَّـلامُ أن يكتُـبَ صحيفةً بإبعـادِ الفقراءِ، فاسـتحضَرَ عليًّـا ليكتُـبَ، فنزلـتِ الآيةُ، فقـال الكفّارُ: فاجعَـلْ لنا يومًـا ولهم يومًا، فلـم يفعَـلْ، فقالُـوا: فأقبِلْ علينـا بوجهِـكَ دونَهم، فنزلـت: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ ﴾ [الكهف: ٢٨]، فألقَى النَّبيُّ عليه السَّلامُ الصَّحيفةَ من يدِه وعانَقَنا[2].

***

(٥٣) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

قولُـه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا ﴾؛ أي: كمـا فتَنَّـا مَـن قبلَكم كذلـك فتَنَّا هـؤلاءِ، أو: وهكـذا فتَنَّا، يعنـي: فتنةَ الرُّؤسـاءِ الضُّعفـاءَ، والضُّعفاءِ الرُّؤسـاءَ.

والفِتنةُ: الاختِبارُ؛ أي: عامَلْناهم مُعاملةَ المُختَبِرين.

---

(١) في (أ): «حد».

(٢) ورد بنحوه ضمن حديث خباب المتقدم تخريجه قريبًا عند ابن ماجه.

﴿لِيَقُولُوٓاْ﴾ اللّامُ للعاقبةِ، كقولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: الضُّعفاءَ؛ أي: منَّ عليهم اللهُ مِن دونِنا، وربَّما قالوه طَنْزًا واستِخفافًا.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فيمُنَّ عليهم بالإيمانِ دونَ الرُّؤساءِ الذين علِمَ منهم الكفرَ، وهذا استفهامُ تقريرٍ.

* * *

(٥٤) - ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ نزلَتْ في الذينَ نهَى الله نبيَّه عليه السَّلامُ عن طردِهم، فكانَ إذا رآهم بدأَهُم بالسَّلامِ، وقال: «الحمدُ لله الذي جعَلَ في أمَّتي مَن أمرَني أن أبدأَهُم بالسَّلامِ»(١).

وقال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ(٢).

والسَّلامُ: التَّسليمُ، كالسَّراحِ منَ التَّسريحِ، والأداءِ منَ التَّأديةِ، ويُقالُ: سلَّمْتُ عليه سلامًا؛ أي: دَعَوتُ له بأن يسلَمَ منَ الآفاتِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٩٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢١٩)، عن عكرمة، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٣٤) عن الحسن وعكرمة. وهو في «تفسير مقاتل» (١/ ٥٦٣).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ١٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٩٠) عن عطاء، وزاد: «وبلال وسالم وأبي عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار ابن ياسر، والأرقم بن أبي الأرقم وأبي سلمة بن عبد الأسد».

وقيلَ: السَّلامُ عليكم؛ أي: السَّلامةُ عليكم.

وقيلَ: أي: الله عليكُم؛ أي: على حفظِكم، فالسَّلامُ من أسماءِ الله، وهذا بعيدٌ لتنكيرِ السَّلامِ، فإنَّه[1] قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾.

ثـمَّ؛ هذا السَّـلامُ يحتملُ أنَّـه كانَ من جهةِ النَّبيِّ عليه السَّـلامُ، ويحتمـلُ أنَّه كانَ منَ الله؛ أي: أبلِغْهُم منّا السَّـلامَ.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾؛ أي: وعَـدَ، وفـي فهـمِ الخلـقِ أنَّ ما كُتِبَ يكـونُ أوكَدَ.

وقيلَ: أي: كتَبَ في اللَّوحِ المحفوظِ.

﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾؛ أي: خطأً.

وقيلَ: مَن آثرَ العاجلَ على الآخرةِ فهو الجاهلُ.

قُـرِئَ: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ﴾ بالفتـحِ، ﴿فإنَّـه غفـورٌ﴾ بالكسـرِ، فـالأوَّلُ بـدلٌ مـنَ الرَّحمـةِ، والثّانـي ابتداءٌ.

وقُرِئَ: ﴿إنَّه مَن عمِلَ﴾ بالكسرِ، ﴿فإنَّه غفورٌ﴾ بالكسرِ على الابتداءِ.

وقُرِئَ: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ﴾، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ﴾ بالفتحِ فيهما[2]؛ أي: كتَبَ ربُّكم أنَّه غفورٌ.

* * *

---

(١) في (أ): «لأنه».

(٢) قرأ عاصم وابن عامر بفتح الهمزتين، ونافع بفتح الأولى وكسر الثانية، والباقون بكسرهما. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

(٥٥) - ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: كما فصَّلْتُ المُحاجَّةَ مع المُشركينَ أُفصِّلُ لكم الآياتِ في كلِّ ما تحتاجُونَ إليه في الدِّينِ، والتَّفصيلُ: التَّميزُ للبيانِ.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ عطفٌ على المعنَى؛ أي: ليظهَرَ الحقُّ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ قُرِئَ بالتّاءِ والياءِ، وقُرِئَ برفعِ (السَّبيل) ونصبِها[1]، يُقالُ: استبانَ الشَّيءُ واستَبَنْتُه.

وإذا بانَ سبيلُ المُجرمينَ فقد بانَ سبيلُ المُؤمنينَ.

* * *

(٥٦) - ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أُمرَ بهذا القولِ لئلّا يطمَعُوا في مُطابقتِه[2] لهم.

﴿تَدْعُونَ﴾؛ أي: تعبُدونَ، أو تدعُونَهم في المُهِمَّاتِ، أرادَ: الأصنامَ.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ في عبادةِ هذه الأشياءِ، وفي طردِ مَن استدعَيْتُم طردَه.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾؛ أي: إنْ فعلتُ ما قُلتُم فقد ضلَلْتُ إذاً[3] سبيلَ الحقِّ.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص: ﴿ولتستبين﴾ بِالتَّاءِ ﴿سَبِيلُ﴾ رفعاً، وقرأ نافع: ﴿ولتستبينَ﴾ بالتاء ﴿سَبِيلَ﴾ نصباً، وقرأ عاصم في رواية أبي بكرٍ وحمزةُ والكسائي: ﴿وليَستبينَ﴾ بالياء ﴿سَبِيلُ﴾ رفعاً. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٣).

(٢) في (أ): «في مقابلته ومطابقته».

(٣) في (أ) زيادة: «إذا».

والفصيحُ: ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتحِ اللّامِ، وقُرِئَ بالكسرِ[1].

* * *

(٥٧) ـ ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: دلالةٍ ويقينٍ لا على هوًى.

وقيلَ: البيِّنةُ: القرآنُ.

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: بالبيانِ؛ لأنَّ البيِّنةَ والبيانَ بمعنًى، أو ترجعُ الكنايةُ إلى معنَى البيِّنةِ، وهو القرآنُ.

وقيلَ: أي: وكذَّبتُم ربِّي؛ لأنَّه جرَى ذِكرُه.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: العذابَ؛ فإنَّهم كانُوا لفَرطِ تكذيبِهم يستعجِلُونَ بالعذابِ، وقيلَ: ما عندي الآياتُ التي تقترِحُونَها.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تأخيرِ العذابِ وتعجيلِه، وفي إنزالِ الآياتِ.

﴿يَقْضِ الحَقَّ﴾؛ أي: القضاءَ الحقَّ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ الفَصْلُ إنَّما يكونُ في القضاءِ، وقُرِئَ: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾[2]؛ أي: يقولُ الحقَّ.

* * *

(١) الفتح قراءة السبعة، وقراءة الكسر ذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٣) عن يحيى وابن أبي ليلى، وذكرها اليشكري في «الكامل في القراءات» (ص: ٥٤٠) عن طلحة، والقورسي عن أبي جعفر؛ وشبل في اختياره، وأحمد.

(٢) قرأ بها عاصم ونافع وابن كثير، وباقي السبعة: ﴿يَقْضِ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٣).

(٥٨) - ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: لو أنَّ عندي العذابَ الذي تستعجِلُونَه لأنزَلْتُه بكم حتَّى ينفصِلَ الأمرُ، والاستِعجالُ: طلَبُ تعجيلِ الشَّيءِ قبلَ وقتِه، والإسراعُ: تقديمُ الشَّيءِ في وقتِه.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: بالمُشركينَ، وبوقتِ عُقوبتِهم.

* * *

(٥٩) - ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: علمُ الغيبِ عند الله، والمفاتحُ: جمعُ مِفتَحٍ ومَفتَحٍ، فالمِفتَحُ: المِفتاحُ، والمَفتَحُ: الخزانةُ، والغَيبُ: ما غابَ عنِ العبدِ منَ الثَّوابِ والعقابِ.

وقيلَ: أي: عندَه خزائنُ الرِّزقِ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: ممَّا عَلِمَه العبادُ أو علِمُوا بعضَه.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ أي: يعلمُها ساقطةً وثابتةً ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾؛ أي: ولا من حبَّةٍ في الثَّرى تحتَ الأرضِ ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾؛ أي: ما ينبُتُ وما لا ينبُتُ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في اللَّوحِ المحفوظِ.

وفي الخبرِ: «مفاتِحُ الغيبِ خمسةٌ لا يعلمُها إلّا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى قولِه: ﴿بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾»(١).

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦٠) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾؛ أي: إمهالُه الكفّارَ ليس لغفلةٍ عن كُفرِهم، فإنَّه أحصى كلَّ شيءٍ وعلِمَه وأثبَتَه، ولكنْ ليُقضَى أجلٌ مُسمًّى، ثمَّ تُرجَعُونَ إليه، وقد دلَّ على الحشرِ والنَّشرِ بالبعثِ بعدَ النَّومِ.

﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾؛ أي: يقبِضُ أرواحَكم في منامِكم؛ أي: يقبِضُ نفوسَكم التي بها تـمتَرون، وليس ذلك موتًا، بل هو قبضُ الأرواحِ عن التَّصرُّفِ بالنَّومِ كما يقبِضُها بالموتِ، ولكنَّ الذي يقعُ بالموتِ يكونُ أتمَّ.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: يرُدُّ عليكم أرواحَكم بالنَّهارِ، يعني: اليقظَةَ.

والتَّوفِّي: استيفاءُ الشَّيءِ، وتوفِّى الميِّتُ؛ أي: استَوفَى عددَ أيّامِ عمرِه، والذي ينامُ فكأنَّه استَوفَى حركاتِه في اليقظةِ.

﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أي: يُحييكُم من موتِ النَّومِ ليستَوفيَ كلُّ إنسانٍ أجلاً ضُرِبَ له ﴿مُّسَمًّى﴾؛ أي: مُسمًّى عند الله.

والقضاءُ: فصلُ الأمرِ، وقضاءُ الأجلِ: فصلُ مدّةِ العمرِ من غيرِها بالموتِ.

* * *

(٦١) ـ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

قولُـه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ يعنـي: فوقيَّـةَ المكانـةِ والرُّتبةِ ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾؛ أي: مـنَ الملائكـةِ، قـال الله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]؛ أي: ملَـكُ المـوتِ بأعوانِه.

ثمَّ يجوزُ أن يكونُوا غيرَ الحفظةِ، ويجوزُ أن يكونوا منَ الحفظةِ.

ثمَّ التَّوفِّي تارةً يُضافُ إلى ملَكِ الموتِ؛ لأنَّ الملائكةَ يَتوفَّون بأمرِه، وتارةً إلى الملائكةِ؛ لأنَّهم يتولَّون ذلك، وتارةً إلى الله؛ لأنَّ كلَّ مأمورٍ منَ الملائكةِ فإنَّما يفعلُ ما يفعلُه بأمرِه.

﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾؛ أي: لا يُضيِّعُونَ أمرَ الله.

* * *

(٦٢) - ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

قولُه: ﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: يُبعَثُونَ للحسابِ.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾؛ أي: القضاءُ ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ مضى معناه.

* * *

(٦٣) - ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[1].

﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: من شدائدِهما، يُقالُ: يومٌ مُظلمٌ؛ أي: شديدٌ.

وقيلَ: يعني: ظُلمةَ اللَّيلِ والغيمِ في البرِّ والبحرِ.

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قُرِئَ بضمِّ الخاءِ وكسرِها[2]؛ أي: مُظهِرينَ ضراعةً، وهي شدَّةُ الفقرِ، ﴿وَخُفْيَةً﴾؛ أي: مُسرِّين فقرَكم إليه.

---

(١) التخفيف قراءة يعقوب من العشرة، وقرأ باقي العشرة بالتشديد. انظر: «النشر» (٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

(٢) بالكسر قراءة أبي بكر، والباقون بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٣).

﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ وقُرِئَ: ﴿لَئِنْ أَنجَىٰنَا﴾[1]؛ أي: قائلين: لَئِنْ أنجَيْتَنا.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: منَ الطّائعينَ.

* * *

(٦٤) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾؛ أي: سيقولون: اللهُ، فقُلْ: نعم، هو الذي يُنجيكم ﴿مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾؛ أي: غمٍّ، يُقالُ: كرَبَه الغمُّ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ وهذا تعجيبُ العبادِ منهم.

* * *

(٦٥) ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾؛ أي: الذي يُنجِّيكم منَ الكربِ قادرٌ على تعذيبِكم.

﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما أنزلَ الحجارةَ على قومِ لوطٍ وأصحابِ الفيلِ، وكالصَّيحةِ، والرِّيحِ، والإغراقِ بالطُّوفانِ، وكلِّ عذابٍ نزلَ[2] منَ السَّماءِ.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما خُسِفَ بقارونَ، وكالرَّجفةِ.

وقيلَ: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الأمراءَ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ السَّفِلةُ وعبيدُ السُّوءِ.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٣).

(٢) في (أ): «عذاب ينزل».

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾؛ أي: يخلِطُ أمـرَكم ويجعـلُكم فِرَقاً يُقابلُ بعضُكم بعضاً، والشِّيَعُ: جمعُ شيعةٍ، وهم الأتباعُ.

ولمَّا نزلَتِ الآيةُ دعا رسولُ الله واستعاذَ من هذه الأشياءِ في أمَّتِه، فأُجيبَ في العذابِ من فوقِهم ومن تحتِ أرجُلِهم، ولـم يُجَبْ إلى ألّا يلبِسَهم شيَعاً، فقال عليه السَّلامُ: «إذا وُضِعَ السَّيفُ في أُمَّتي لـم يُرفَعْ عنهم إلى يومِ القيامةِ»[1].

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٤٥٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٠٥)، وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٦٢): «كذا ذكره الثعلبي بغير سند». وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٤٤٠): «غريب بهذا اللفظ، وأقرب ما وجدته إلى هذا اللفظ ما رواه ابن مردويه... عن عمرو بن قيس عن رجل عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الآية قال: فقام النبي ﷺ فتوضأ ثم قال: «اللهم لا ترسل على أمتي عذابًا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم، ولا تلبسهم شيعاً»، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله قد أجار أمتك أن يبعث عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم».
وذكره عن ابن مردويه أيضاً ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية، وابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٦٢).
ثم قال الزيلعي: «وقد ورد هذا الحديث من طرق كثيرة بألفاظ مختلفة» ثم عددها:
فمنها: ما رواه مسلم (٢٨٩٠) عن سعد مرفوعاً: «سألتُ ربي أن لا يُهلكَ أُمَّتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألتُه أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألتُه أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها».
وعند مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان مطولاً، وفيه: «وإني سألتُ ربِّي لأُمَّتي أن لا يهلكها بسَنةٍ عامَّة، وأنْ لا يسلِّطَ عليهم عدوًّا من سوى أنفُسهم فيستبيحَ بيضَتَهم، وإنَّ ربِّي قال: يا محمدُ، إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُردُّ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسَنةٍ عامَّةٍ، وأنْ لا أسلِّط عليهم عدوًّا من سوى أنفُسهم يستبيحُ بيضتَهم ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها ـ أو قال مَن بَيْنَ أقطارها ـ حتى يكونَ بعضُهم يُهلِكُ بعضًا، ويَسبي بعضُهم بعضًا».
ولابن ماجه من حديث معاذ نحو حديث سعد، وللنسائي من حديث أنس نحوه، وللترمذي من حديث خباب بن الأرت نحوه، وعند أحمد من حديث أبي بصرة الغفاري نحوه. =

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾؛ أي: نُبيِّنُ لهم ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ في القرآنِ؛ ليفقَهُوا بُطلانَ ما هم عليه منَ الشِّركِ.

* * *

(٦٦ ـ ٦٧) ـ ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾؛ أي: كذَّبَ بالقرآنِ قومُكَ يا محمَّدُ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: والقرآنُ ما بيَّنَّاه منَ الآياتِ هو الحقُّ.

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لستُ مُوكَّلاً بكم أُلازِمُكم إنَّما أنا منذرٌ وقد بلَّغْتُ.

ثمَّ؛ قيلَ: هذا منسوخٌ بآيةِ القتالِ.

وقيلَ: ليس بمنسوخٍ؛ إذ لـم يكُنْ في وُسعِه إيمانُهم[1].

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: استقرارٌ، وقيلَ: المُستقَرُّ موضعُ الاستقرارِ، والمعنى: لكلِّ شيءٍ وقتٌ يقعُ فيه من غيرِ تقدُّمٍ وتأخُّرٍ[2]. وقيلَ: أي: لكلِّ عملٍ جزاءٌ.

= وقوله: «أن فناء أمتي بالسيف» رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٩٥٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلفظ: «فَنَاءُ أُمَّتي بالطَّعْن والطاعون». ورواه أيضاً (٢٥٠١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «لا تَفْنَى أُمتي إلا بالطعن والطاعون».

(١) قال النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤١٦): هذا خبر لا يجوز أن ينسخ، ومعنى (وكيل): حفيظ ورقيب، والنبي ﷺ ليس هو عليهم بحفيظ إنما عليه أن ينذرهم وعقابُهم إلى الله عز وجل.

(٢) قوله: «أي: استقرارٌ، وقيلَ: المُستقَرُّ موضعُ الاستقرارِ» فسر المستقر بما يحتمله اللفظ في اللغة من أن يكون مصدراً بمعنى الاستقرار، أو اسم مكان بمعنى موضع الاستقرار، وترك الوجه الثالث وهو أن يكون المستقر أيضاً بمعنى الزمان كما أجازه السمين في «الدر المصون» (٤/ ٦٧٤). ثم قول المؤلف: «والمعنى: لكلِّ شيءٍ وقتٌ يقعُ فيه...» هذا على أنه بمعنى الزمان مع أنه لم يذكره، وكان =

(٦٨) ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: إذا طعَنُوا في القرآنِ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ حتَّى لا تسمعَ قبيحَ أقوالِـهم، وفيه إضمارٌ؛ أي: يخوضُونَ في آياتِنا بالتَّكذيبِ.

والمعنى: أنَّه لا ينجَعُ فيهم الوعظُ إنْ وعَظْتَ، فالأَولى ألَّا تسمعَ قولَـهم.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ منَ الإنساءِ، وقُرِئَ: ﴿يُنَسِّيَنَّكَ﴾ بالتَّشديدِ(١)، وهما بمعنًى واحدٍ؛ أي: إنْ نسيتَ مُجالستَهم، فإذا ذكرْتَ فقُمْ، والذِّكرى اسمٌ للتَّذكيرِ.

* * *

(٦٩) ـ ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: لـمَّا نزلَ: لا تقعُدوا مع المُشركين، وهو المُرادُ بقولِه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال المسلمون: لا يُمكِنُنا دخولُ المسجدِ والطَّوافُ، فنزلَتْ هذه الآيةُ(٢)؛ أي: إذا قعدْتُم معهم وخاضوا فيما لا يجوزُ فذكِّروهم وقولُوا: إنَّ هذا يسوؤُنا، فلعلَّهم ينكفُّونَ عنه.

= الأولى أن يقول: «وقت ومكان يقع فيه» كما هي عبارة الواحدي في «البسيط» (٨/ ٢٠٧)، كما أن المؤلف ترك ذكر المعنى على المصدرية، وذكره الواحدي فقال: «وإذا جعلت المستقر مصدرًا كان المعنى: لكل وعدٍ ووعيدٍ من الله وقوع واستقرار لابد».

(١) وهي قراءة ابن عامر، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٣).

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٠٩)، والواحدي في «البسيط» (٨/ ٢١١)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٤٥٧)، وابن أبي زمنين في «تفسيره» (٢/ ٧٦)، عن الكلبي. فلعله من روايات الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

ثمَّ قيلَ: نُسِخَ هذا بقولِه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠][1]، وإنَّما كانتِ الرُّخصةُ قبلَ الفتحِ، وكانَ الوقتُ وقتَ تقيَّةٍ، وأشارَ بقولِه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾[2].

والأظهرُ: أنَّ الآيةَ ليست منسوخةً، والمعنى: ما عليكم شيءٌ من حسابِ المُشركين، فعليكم تذكيرُهم وزَجرُهم، فإنْ أَبَوا فحسابُهم على الله.

وقيلَ: أي: ليس نهيُنا إيَّاكم عن مُجالسِتهم لأنَّكم يلزَمُكم شيءٌ من حسابِهم، ولكنْ ذِكرى لتُعرِضُوا عنهم، فلعلَّهم يُؤمِنُون إذا رأوا إعراضَكم عنهم.

وقيلَ: بيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ هذا النَّهيَ نَهيُ تنزيهٍ؛ أي: ليس عليكم شيءٌ من حسابِهم، ولكنَّ الله وعظَكُم لتزيدوا تُقًى على تُقًى.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣١٧) عن السدي، ورواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٢١١): والذي عليه أهل التفسير أنه لا ينسخ لأنه خبر والآيتان محكمتان ومعنى الآية: أنه إذا نهي عن المنكر فليس عليه حساب من فعله.... قال: هذه غباوة ظاهرة. ليس هذا بخبر بل هو صريح أمر لأن الله تعالى قال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ فإن نسيت فتذكرت فقم ساعة تذكارك عنهم ولا تقعد بعد ذلك معهم. وهذا منسوخ بأمره بالقتل والقتال بلا إشكال، والآية التي في النساء مثلها، فإنه نهاه الله أن يجالسهم إذا سمعهم يكفرون. وهذه أيضًا منسوخة بالأمر بالقتال إذ كان مأمورًا أن يقوم عنهم إذا سمعهم يستهزئون بآيات الله ويكفرون وصار بعد ذلك مأموراً بأن يقاتلهم ويقيم الحد بالقتل في ذلك عليهم وهذا نسخ بيِّن.

(٢) من قوله: «ولكن الذي يقع بالموت..» إلى هنا في (أ) يوجد آيات بديلة لها مكررة، فهو خطأ من النَّاسخ.

(٧٠) ـ ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾؛ أي: لا تُعلِّقْ قلبَكَ بهم؛ فإنَّهم أهلُ تعنُّتٍ، فإنْ كنتَ مأموراً بوَعظِهم.

﴿لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾؛ أي: جعَلُوا عادتَهم الاستهزاءَ، وأرادَ: استهزَؤُوا بدينِهم الذي هم عليه فلم يعمَلُوا به؛ إذ الاستهزاءُ ليس مُسوَّغاً في دينٍ.

وقيلَ: استهزَؤُوا بالدِّينِ الذي دعَوتَهم إليه.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي: لـم يعلَمُوا إلّا ظاهِرًا منَ الحياةِ الدُّنيا.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقُرآنِ، أو بالحسابِ، وقد مضَى ذِكرُه.

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾؛ أي: أن تُرْتَهَنَ في جهنَّم بما كسبَتْ في الدُّنيا.

والإبسالُ: تسليمُ المرءِ للهلاكِ، وهو الـخُذْلانُ؛ أي: ذكِّرْهُم إبسالَ النُّفوسِ في الآخرةِ بما كسبَتْ في الدُّنيا.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾؛ أي: فإنْ تفدِ كلَّ فداءٍ من جهةِ المالِ لـم ينفعْها، والعدلُ: الفِديةُ؛ لأنَّها تعدِلُ المُفدَى؛ أي: جُعِلَتْ نظيراً له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ ﴾؛ أي: أُسلِمُوا للهلاكِ، أو أُسلِمُوا إلى خزنةِ جهنَّمَ.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو الماءُ الحارُّ يُصْهَرُ به ما في بطونِهم والجلودُ فتُقطَّعُ أمعاؤُهم.

ثمَّ قيلَ: الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ القتالِ[1].

وقيلَ: ليسَتْ منسوخةً؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾ تهديدٌ كقولِه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ [الحجر: ٣]، أو معناه: لا تحزَنْ عليهم فإنَّما عليكَ التَّبليغُ.

* * *

(٧١ ـ ٧٢) ـ ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أندعو الأصنامَ ونعبدُها وهي لا تنفعُ ولا تضرُّ ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾؛ أي: نُردُّ إلى الشِّركِ، يُقالُ: رجعَ فلانٌ على عقبَيه: إذا أدبرَ.

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾؛ أي: استغْوَتْه، يُقالُ: هوَى يهوِي إلى الشَّيءِ؛ أي: أسرَعَ إليه.

وقالَ الزَّجّاجُ: هو من هَوَى يهوَى، من هوَى النَّفسِ؛ أي: زيَّنَ له الشَّيطانُ هَواهُ[2].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨١٧) عن قتادة، ومن طريقه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣١٧)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤١٨)، وقال النحاس: «هذا ليس بخبر وهو يحتمل النسخ، غير أن البين فيه أنه ليس بمنسوخ وأنه على معنى التهديد لمن فعل هذا أي: ذره فإن الله تعالى مطالبه ومعاقبه». وسيشير المصنف لنحو هذا لاحقاً.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٦٢).

وقرأ حمزةُ رضيَ الله عنه: ﴿كالذي استهواه﴾ بالإمالةِ(١).

﴿حَيْرَانَ﴾ يُقالُ: حارَ يحارُ حَيْراً وحَيْرةً وحَيرورةً؛ أي: تردَّدَ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ: أي: مَثَلُ عابدِ الصَّنمِ مَثَلُ مَن دعاه الغُولُ في المفازةِ باسمِه واسمِ أبيه فيتبعُه فيُصبِحُ وقد ألقَتْه في مَضَلَّةٍ ومَهْلِكةٍ(٢).

وقالَ في روايةٍ: نزلَتْ في عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بكرٍ، كانَ يدعُو أباه إلى الكفرِ، وأبوه يدعوهُ إلى الإسلامِ(٣).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٢١).

(٣) ذكره مقاتل في «تفسيره» (١/ ٥٦٨)، والفراء في «معاني القرآن» (١/ ٣٣٩)، وابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص: ١٥٥)، والثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١١٤)، ومكي في «الهداية» (٣/ ٢٠٦٥)، ولم يذكر له هؤلاء راوياً ولا سنداً.

وذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٤٥٩)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ١٣٢) من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وأمثال هذه الرواية معروفة من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥) من طريق عطاء عن ابن عباس، وذكره أيضا عن الكلبي.

فتلخص من هذه الروايات: أن هذا الخبر إما من رواية مقاتل، أو من رواية الكلبي، أو من رواية ابن عباس من طريق عطاء أو الكلبي، وكل هذا ساقط لا يحتج به، فمقاتل والكلبي متروكان، **وطريق عطاء عن ابن عباس التي دأب الواحدي على ذكرها هي نسخة موضوعة كما تقدم بيانه عند تفسير قوله تعالى:** ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وهذا القول مردود لا يصح عن ابن عباس ولا عن غيره، فإن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قد أسلم وكان من أجلاء الصحابة، وإنما ينزل مثل هذا فيمن مات على كفره كأبي لهب والوليد بن المغيرة.

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٠٧) متعقباً لهذا الخبر: وهذا ضعيف؛ لأن في الصحيح =

﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾ يعني: أبوَيه والمُسلمينَ.

﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾ تقولُ: أمرتُكَ لتفعَلَ كذا، و: أمرتُكَ أن تفعَلَ كذا، و: أمرتُكَ بأنْ تفعَلَ كذا. والإسلامُ: الإخلاصُ(١).

قولُه: ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: وأُمِرْنا أن نُقيمَ الصَّلاةَ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾؛ أي: تُبعَثُون.

* * *

(٧٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: فهو الذي يجبُ أن يُعبَدَ لا الأصنامُ ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: واذكُرْ يومَ، أو: وخلَقَ يومَ يقولُ، يعني: يومَ القيامةِ؛ أي: يقولُ لكلِّ ما يخلُقُه ذلك اليومَ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وهو إشارةٌ إلى سرعةِ الحسابِ والبَعثِ.

وارتفَعَ ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّ﴾ بالابتداءِ.

= أن عائشة رضي الله عنها لما سمعت قول قائل: إن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ [الأحقاف: ١٧] نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، قالت: كذبوا والله، ما نزل فينا من القرآن شيء إلا براءتي. قلت: رواه البخاري (٤٨٢٧).

وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» في آية الأحقاف: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

(١) في (أ): «للإخلاص».

وقيلَ: ﴿يقولُ: كُنْ، فيكونُ قولُه الحقُّ﴾، فهو اسمُ (كانَ)؛ [أي][(١)]: فيكونُ ما دلَّ عليه القولُ، كما تقولُ: «قد قُلتَ فكانَ قولُكَ»؛ أي: كانَ ما دلَّ عليه القولُ.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ أي: وله المُلكُ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، أو: قولُه الحقُّ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، وخُصَّ ذلك اليومُ لأنَّ الدَّعاويَ تنقطعُ فيه، كقولِه: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ قيلَ: الصُّورُ جمعُ صورةٍ؛ أي: في صُورِ المَوتى، وجمعُ الصُّورةِ صُوَرٌ وصُوْرٌ، مثل: سورةٌ وسُوَرٌ، **والصَّحيحُ** أنَّ الصُّوْرَ قَرنٌ يُنفَخُ فيه، وقد وردَ به الأخبارُ[(٢)]، وقد قالَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ولم يقل: «فيها»، فعُلِمَ أنَّه ليس جمعَ الصُّورةِ، وأيضاً لا يُنفَخُ في الصُّورِ للبَعثِ مرَّتَينِ، بل يُنفَخُ مرّةٌ واحدةٌ.

قالَ أبو الهيثمِ: مَن أنكرَ أن يكونَ الصُّورُ قَرْناً فهو كمَن يُنكِرُ العرشَ والصِّراطَ والميزانَ وطلَبَ لها تأويلاتٍ[(٣)].

* * *

(١) ما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق، وقوله: «فهو اسم كان» فيه تجوُّزٌ؛ لأنه في الحقيقة فاعل لها لأنها هنا تامة، ثم كلمة: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ نعت لـ﴿قَوْلُهُ﴾. انظر: «البسيط» (٨/ ٢٢٩)، و«التبيان» للعكبري (ص: ٥٠٩).

(٢) انظر: «جامع الأصول» (١٠/ ٤٢٠ ـ ٤٢٣) وقد جمع ابن الأثير فيه عدة أحاديث في النفخ في الصور.

(٣) نقله الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٢/ ١٦٠) قال: أخبرني المنذري عن أبي الهيثم، وذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٢٣١).

(٧٤) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ ذكرَ في الاحتجاجِ على المُشركينَ قصّةَ إبراهيمَ، وردَّه على أبيه في عبادةِ الأصنامِ، وأولى النّاسِ باتِّباعِ إبراهيمَ العربُ؛ فإنَّهم ورَثَتُه.

﴿وَإِذْ﴾ أي: واذكُرْ إذ قالَ إبراهيمُ، أو: وذكِّرْ به أن تُبسَلَ نفسٌ بما كسبَتْ وذكِّرْ إذ قالَ إبراهيمُ.

﴿ءَازَرَ﴾ هو أبُو إبراهيمَ.

وقيلَ: هو لقَبٌ له، واسمُه تارَحُ، ويجوزُ أن يكونَ على العكسِ.

وقُرِئَ ﴿آزَرُ﴾[1]؛ أي: يا آزَرُ أتتَّخِذُ؟

وقيلَ: آزَرُ اسمُ صنمٍ، وهو كما تقولُ لمن يشتُمُ زيداً: أزيداً؟ وتسكتُ؛ أي: أزيداً تشتمُ؟ كذلك: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾؛ أي: آزَرَ، أتتَّخِذُ معبوداً؟

والصَّحيحُ: أنَّ آزرَ اسمُ أبِ إبراهيمَ.

* * *

(٧٥) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: كما وصَفْنا من قولِه لأبيه نُريه الملَكوتَ، والملكوتُ: المُلْكُ، زِيدَتِ الواوُ للمُبالغةِ كالرَّغَبُوتِ والرَّهَبُوتِ.

---

(١) هي قراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٥٩).

وقيلَ: أرادَ به ما في السَّماواتِ من عبادةِ الملائكةِ والعجائبِ، وما في الأرضِ من عصيانِ بني آدمَ، فكانَ يدعُو على كلِّ مَن يراه يَعصي فيُهلِكُه الله، فأوحَى الله إليه: يا إبراهيمُ أمسِكْ عن عبادِي، أما علِمْتَ أنَّ من أسمائي الصَّبورَ(١).

وقيلَ: كشفَ الله له عن السَّماواتِ والأرضِ حتَّى العرشِ وأسفَلِ الأرَضينَ.

وقيلَ: أراهُ الشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ وملَكُوتَ الأرضِ منَ الجبالِ والأشجارِ والبحارِ استدَلَّ بها، والمعنى: نُريه ملَكُوتَنا في السَّماواتِ والأرضِ.

وقيلَ: قالَ الكُهَّانُ أو المُنجِّمُونَ لنُمْروذ إذ رأى رُؤيا فعُبِّرَتْ له، أو وجدَ في كتُبِ المُتقدِّمينَ: إنَّه يُولَدُ في هذه السَّنةِ غلامٌ يذهبُ ملكُكَ على يدِه، وأمرَ بانعِزالِ الرِّجالِ عنِ النِّساءِ وبقتلِ كلِّ مولودٍ ذكرٍ، وكانَ آزرُ منَ المُعتَمَدين عندَ نُمروذ، فأرسلَه يوماً في بعضِ حوائجِه فواقعَ امرأتَه فحبِلَتْ بإبراهيمَ، فحمَلَها إلى بعضِ الشِّعابِ حتَّى ولدَتْ إبراهيمَ، وحفرَ لإبراهيمَ سَرَباً في الأرضِ، ووضعَ على بابِه صخرةً لئلّا يفترِسَه سبُعٌ، فكانتِ الأمُّ تحضرُه فتجدُه يمصُّ أصابعَه، من إحداها عسَلاً، ومن الأُخرَى لبناً، ومنَ الأُخرَى ماءً، وشَبَّ فكانَ على سنةٍ مثلَ ابنِ ثلاثِ سنينَ، فلمَّا أخرَجَه منَ السَّرَبِ توهَّمَ النَّاسُ أنَّه وُلِدَ مذ سنينَ، فقالَ لأُمِّه: مَن ربِّي؟ فقالَتْ: أنا، فقال: ومَن ربُّكِ؟ قالَتْ: أبوكَ، قال: ومَن ربُّه؟ قالت: نُمرودُ، فقال: ومَن ربُّه؟ فلطَمَتْه، وعلِمَ أنَّه الذي يذهَبُ ملكُهم على يدَيهِ(٢).

﴿نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: أَرَينا إبراهيمَ، وقد يرِدُ المُستقبلُ بمعنى الماضي.

---

(١) رواه بنحوه الطبراني في «الأوسط» (٧٤٧٥) من حديث جابر رضي الله عنهما. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠١): وفيه علي بن أبي علي اللهبي وهو متروك.

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٧٩)، عن ابن إسحاق.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾؛ أي: نُريه الملَكوتَ ليستَدِلَّ ﴿وَلِيَكُونَ﴾، فهو عطفٌ على المعنَى.

وقيلَ: أي: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أرَيْناه.

* * *

(٧٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ يُقالُ: جَنَّ عليه اللَّيلُ وأجَنَّه اللَّيلُ، فأصلُه السَّترُ، ومنه: الـجَنَّةُ والـجُنَّةُ والـجِنَّةُ.

وقيلَ: أي: أظلَمَ عليه اللَّيلُ.

﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ هذه قصةٌ أُخرَى سِوَى قصّةِ عرضِ الملَكوتِ عليه.

وقيلَ: عرضُ الملَكوتِ هو إلهامُ النَّظرِ والاستدلالُ في الكوكبِ والقمرِ والشَّمسِ؛ أي: لمَّا أخرجَه والداه عن السَّرَبِ وكانَ وقتَ غيبوبةِ الشَّمسِ، فرأى الإبِلَ والخيلَ والغنَمَ فقالَ: لا بدَّ لها من ربٍّ، فرأى المُشتَريَ أو الزُّهرةَ فقالَ: هذا ربي.

وقيلَ: إنَّما رأى ذلك من شقِّ الصَّخرةِ الموضوعةِ على رأسِ السَّرَبِ، فرأى الزُّهرةَ ثمَّ القمرَ ثمَّ الشَّمسَ، وكانَ هذا في آخرِ شهرٍ.

قال محمَّدُ بنُ إسحاقَ: كانَ ابنَ خمسَ عشرةَ سنةً[1].

وقيلَ: ابنَ سبعِ سنينَ.

---

(١) ذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٧٢١).

وقيلَ: لمَّا حاجَّ نُمروذَ كانَ ابنَ سبعَ عشرةَ سنةً.

﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قيلَ: كانَ في مهلةِ النَّظرِ، فلمَّا تمَّ نظرُه قالَ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، واستدلَّ بالأُفولِ لأنَّه أظهَرُ الآياتِ على الحدوثِ، وكانَ هذا عادتَه، كما قالَ: ﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وإنَّما نظرَ في الأجرامِ السَّماويةِ تنبيهاً على أنَّها إذا كانت مخلوقةً فالأجرامُ الأرضيَّةُ أولى بذلك، ولأنَّ قومَه كانوا يُشيرونَ إلى السَّماءِ في الأمورِ الإلهيَّةِ، وكانَ مُهاجَرُه حرَّانَ، وكانَ عندَه الأنجمُ السَّبعةُ.

وقال قومٌ: قد وصفَه بقولِه: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾، فلا يجوزُ أن يُوصَفَ بالخلُوِّ عنِ المعرفةِ، بل عرَفَ الرَّبَّ بأوَّلِ النَّظرِ إن لم يُقَلْ: معارفُ الأنبياءِ ضروريّةٌ، فعلى هذا إنَّما قالَ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾؛ لتقريرِ الحجّةِ على قومِه، فأظهرَ مُوافقتَهم، فلمَّا أفلَ النَّجمُ قرَّرَ الحجّةَ وقالَ: ما تغيَّرَ لا يجوزُ أن يكونَ ربًّا.

وقيلَ: أي: هذا ربِّي بزَعمِكُم، كما قال الله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، وقال: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]؛ أي: عندَ نفسِكَ.

وقيلَ: أي: وأنتم تقولونَ: هذا ربِّي، وإضمارُ القولِ كثيرٌ في القرآنِ.

وقيلَ: أي: هذا دليلٌ على ربِّي. وفي هذا بُعدٌ عن نظمِ الكلامِ.

وقيلَ: هو إنكارٌ؛ أي: أهذا ربِّي؟ كقولِه: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ﴾ [الشعراء: ٢٢]؛ أي: أوَتلكَ نعمةٌ؟

* * *

(٧٧) ـ ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ بزَغَ؛ أي: ابتدأ في الطُّلوعِ، والبَزْغُ: الشَّقُّ، كأنَّه يشُقُّ بنورِه الظُّلمةَ، ومنه: بزَغَ البَيْطارُ.

﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾: لَئِنْ لـم يُثبِّتْني على الهدايةِ، وقد كانَ مُهتَدياً، إنْ لـم يُقَلْ: جرَى هذا في حالِ مُهلةِ النَّظرِ، ومثلُه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ أي: ثبِّتْنا على الهدايةِ.

* * *

(٧٨) ـ ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ لـم يقُلْ: «هذه»؛ لأنَّ الشَّمسَ بمعنى الضِّياءِ والنُّورِ، وليس في لفظِ «الشَّمسِ» علامةُ التَّأنيثِ.

وقيلَ: هذا الطَّالعُ ربِّي، أو: هذا الذي أراه ربِّي، ثمَّ لمَّا قرَّرَ الحجَّةَ قالَ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

* * *

(٧٩) ـ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

قولُه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾؛ أي: جعَلْتُ قَصْدي بعبادتي لله عزَّ وجلَّ، وذِكرُ الوجهِ لأنَّه أظهرُ ما يُعرَفُ به صاحبُه.

﴿حَنِيفًا ﴾: مائلاً إلى الحقِّ.

(٨٠) ـ ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ ﴾؛ أي: خوَّفُوه بآلهتِهم ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِ ﴾؛ أي: في توحيدِ الله، وشدَّدَ النُّونَ لاجتماعِ النُّونَينِ وإدغامِ إحداهُما في الأُخرَى، وقرأ نافعٌ بتخفيفِ النُّونِ(١)، فحُذِفَ النُّونُ الثّانيةُ لأنَّ الأولى دلالةُ الإعرابِ، وهذا الحذفُ لطلبِ التَّخفيفِ.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: آلهتَكم ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ قيلَ: هو استثناءٌ منقطعٌ، وهو كقولك: لا أخافُ زيداً شيئاً إلّا أن يظلِمَني غيرُه.

وقيلَ: ليس مُنقطِعاً، بل المُرادُ: لا أخافُ ما تُشرِكُونَ به إذ هو مواتٌ، إلّا أن يُحيِيَه الله ويُقدِّرَه، فيُخافُ ضررُه حينَئذٍ.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾؛ أي: أحاطَ علمُه بما يُصيبُني، وفيه دليلٌ على ثُبوتِ علمِه تعالى.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ هذه الأصنامَ جماداتٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، وكانُوا اتَّخذوا سبعةَ أصنامٍ على هيئةِ النُّجومِ السَّبعةِ بزَعمِهم.

* * *

(٨١) ـ ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

قولُـه: ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ ﴾؛ أي: كيـفَ أخـافُ مـا لا ينفـعُ ولا يضـرُّ وأنتم لا تخافـونَ الله القـادرَ على كلِّ شـيءٍ.

---

(١) قرأ بها نافع، وكذا ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦١)، و«التيسير» (ص: ١٠٤).

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: حجّةً.

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ المُوحِّدُ أم المُشرِكُ؟

* * *

(٨٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: هو من قولِ إبراهيمَ[١]، كما يَسأَلُ المُعلِّمُ[٢] ويُجيبُ نفسَه.

وقيلَ: من قولِ قومِ إبراهيمَ؛ أي: أجابُوه بما هو حجّةٌ عليهم.

وقيلَ: من قولِ الله.

﴿ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: آمنُوا بالله، وقيلَ: أي: أَمَّنُوا أنفُسَهم من عذابِ الله.

﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أي: بشركٍ؛ قال ابنُ مسعودٍ: لـمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ قيلَ: يا رسولَ الله، وأيُّنا لـم يظلِمْ نفسَه؟ فقالَ عليه السَّلامُ: «إنَّما هو كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[٣].

وقيلَ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أي: بشيءٍ منَ الشِّركِ والمَعاصي، فإنَّ الأمنَ الحقيقيَّ لمن اجتنَبَ جميعَ المعاصي، وأمَّا مَن عصى فأمرُه مَوكولٌ إلى المشيئةِ، وعَنَى إبراهيمُ بهذا نفسَه، وكانَ معصوماً عنِ الزَّلّاتِ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ من عذابِ الله ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في الدُّنيا.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٢٥٤).

(٢) في (أ): «العالم».

(٣) رواه البخاري (٣٤٢٩)، ومسلم (١٢٤).

(٨٣) - ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أشارَ إلى جميعِ احتجاجاتِه، فإنَّهم قالوا: أمَا تخافُ أن تُخبِّلَكَ آلهتُنا؟ فقال: ألَا تخافونَ أنتم ذلك وقد سوَّيتُم بينَ الصَّغيرِ والكبيرِ في العبادةِ، فلِمَ لا تخافُونَ أن يغضَبَ الكبيرُ؟

وقال: أمَن يعبُدُ إلهاً واحداً أحقُّ أن يأمنَ أم مَن يعبُدَ آلهةً شتَّى؟

وقال: أمَن يترُكُ الإلهَ القادِرَ الخالقَ أحقُّ بالخوفِ أم مَن يترُكُ الصَّنمَ الذي لا يضُرُّ ولا ينفعُ؟ وإلى قولِه: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾، وإلى قولِه: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، وإلى ما حاجَّ به قومَه لـمَّا كسَّرَ أصنامَهم.

﴿نَرْفَعُ دَرَجاتِ مَن نَشاءُ﴾ بالإضافةِ، وقُرِئَ: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ بالتَّنوينِ[1]، يعني بالدَّرجاتِ: مراتبَ العلمِ والفَهمِ والإمامةِ والملكِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يضعُ كلَّ شيءٍ موضِعَه.

* * *

(٨٤) - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ أي: جزاءً له على الاحتجاجِ في الدِّينِ وبذلِ النَّفسِ ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾؛ أي: كلَّ واحدٍ منهم مُهتَدٍ في دينِه.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾؛ أي: من ذُرِّيةِ إبراهيمَ.

---

(١) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي، والباقون بالإضافة. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦١)، و«التيسير» (ص: ١٠٤).

وقيلَ: من ذُرِّيةِ نوحٍ؛ لأنَّه قال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٤]، وهذا أحسَنُ؛ لأنَّه ذَكرَ مِن جملةِ مَن عَدَّ مِن هذه الذُّرِّيةِ يونسَ ولوطاً، وما كانا من ذُرِّيةِ إبراهيمَ، إلّا أن يقولَ: أرادَ: هَدَى يونُسَ ولُوطاً[1].

وقال[2] ابنُ عبَّاسٍ: هؤلاءِ الأنبياءُ جميعاً مُضافُونَ إلى ذُرِّيةِ إبراهيمَ[3]، وإنْ كان فيهم مَن لـم يلحَقْه ولادةٌ من جهتِه من قبلِ أبٍ ولا أمٍّ؛ لأنَّ لوطاً ابنُ أخي إبراهيمَ، والعربُ تجعلُ العمَّ أباً، كما أخبرَ الله عن ولدِ يعقوبَ أنَّهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وإسماعيلُ عمُّ يعقوبَ، وذكرَ من ذُرِّيةِ إبراهيمَ: داودَ وسليمانَ وأيُّوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ، ثمَّ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

* * *

(٨٥) ـ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وصفَهم بالصَّلاحِ وانتفاءِ الفسادِ عنهم في أديانِهم وأخلاقِهم وأعمالِـهم، وعدَّ عيسى من ذُرِّيَّتِه، وإنَّما هو ابنُ البنتِ، فأولادُ فاطمةَ رضي الله عنها ذُرِّيةُ النَّبيِّ ﷺ.

---

(١) رواه أبو صالح عن ابن عباس، كما ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٠)، قال: واختاره الفراء، ومقاتل، وابن جرير الطبري. وانظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٧٣)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٤٢)، و«تفسير الطبري» (٩/ ٣٨١).

(٢) في (ف): «وقد قال».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٢٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء. وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٠) عن عطاء، وعن الزجاج: كلا القولين جائز، لأن ذكرهما جميعاً قد جرى. وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٦٩).

(٨٦) - ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ قُرِئَ بتخفيفِ اللّامِ، وقُرِئَ: ﴿واللَّيسع﴾ بتشديدِ اللّامِ[1]، والمعنى واحدٌ في أنَّه اسمٌ لنبيٍّ معروفٍ، وهو اسمٌ أعجميٌّ مثلَ إسماعيلَ وإبراهيمَ، ولكنْ خرجَ عمَّا عليه الأسماءُ الأعجميّةُ بإدخالِ الألفِ واللّامِ عليه.

وتوهَّمَ قومٌ أنَّ اليسعَ إلياسُ، **وليس كذلك**؛ لأنَّ الله أفرَدَ كلَّ واحدٍ بالذِّكرِ.

وقالَ وَهْبٌ: اليسَعُ صاحبُ إلياسَ[2]، وكانُوا قبلَ زكريّا ويحيى وعيسى.

وقيلَ: إلياسُ هو إدريسُ، **وهذا غيرُ صحيحٍ**؛ لأنَّ إدريسَ جدُّ نوحٍ، وإلياسُ من ذُرِّيَّته.

وقيلَ: إلياسُ هو الخضِرُ.

وقيلَ: لا بل اليسعُ هو الخضِرُ.

* * *

(٨٧) - ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾؛ أي: وهَدَينا بعضَ آبائِهم وذُرِّياتِهم ﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾ فـ(من) للتَّبعيضِ.

﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: استَخْلَصناهُم، من «جَبَيْتُ الماءَ في الحوضِ»؛ أي: جمَعْتُه.

﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أعادَ للتَّأكيدِ، فمنَ الآباءِ آدمُ وإدريسُ؛ فإنَّه جدُّ نوحٍ.

وقال المُبرِّدُ: أي: ومن آبائِهم وذُرِّياتِهم وإخوانِهم قومٌ صالحون، فلا يقتَضي هذا أن يكونُوا أنبياءَ.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٣٧).

(٨٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قولُـه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: دينُ الله ﴿يَهۡدِي بِهِۦ﴾ أي: يُرشِـدُ إليـه ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ﴾، أي: عبَـدُوا غيـري لَحبِطَـتْ أعمالُـهم ولكنِّـي عصَمْتُهـم، والحُبوطُ: البُطلانُ.

* * *

(٨٩) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: هؤلاءِ المُسمَّونَ.

﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ أي: العلمَ والفقهَ.

﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا﴾؛ أي: بآياتِنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: كفّارُ عصرِكَ يا محمّدُ ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا﴾ يعني: مَن خلقَه للإيمانِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: فإنْ يكفُرْ بها أهلُ مكّةَ فقد وكَّلْنا بها أهلَ المدينةِ[1].

وقيلَ: المُهاجرينَ والأنصارَ.

وهو عامٌّ في كلِّ مُؤمنٍ منَ الجنِّ والإنسِ والملائكةِ.

* * *

(٩٠) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أشارَ إلى الأنبياءِ والمُؤمنينَ؛ أي: هَداهُم الله.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٣٩).

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الاقتِداءُ: طلَبُ مُوافقةِ الغَيرِ في فعلِه، والأكثَرونَ يُثبِتُونَ الهاءَ في ﴿ٱقْتَدِهْ﴾ في الوصلِ والوقفِ ساكنةً، وحذَفَها قومٌ في الوصلِ، وهو القياسُ، وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿اقتدهي﴾ بكسرِ الهاءِ مع إشباعٍ، وفي روايةٍ بكسرِ الهاءِ من غيرِ إشباعٍ، وإثباتُ الهاءِ في الوقفِ والوصلِ لاتِّباعِ خطِّ المُصحَفِ[١].

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: جُعْلًا على القُرآنِ ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: القرآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: موعظةٌ للخلقِ، وأضافَ الهدايةَ إليهم فقالَ: ﴿بهُداهُم اقتَدِه﴾؛ لوُقوعِ الهدايةِ عنهم، وقال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ لأنَّه الخالقُ للهدايةِ.

***

(٩١) - ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا ردٌّ على المُشركينَ وأهلِ الكتابِ إذ أنكَرُوا القرآنَ.

قال ابنُ عبّاسٍ: قالتِ اليهودُ: تدَّعي أنَّ الله أنزَلَ عليك كتاباً؟ فقالَ عليه السَّلامُ: «نعم»، فقالوا: والله ما أنزَلَ الله منَ السَّماءِ كتاباً، فنزَلَ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾[٢].

---

(١) قرأ ابن ذكوان بكسر الهاء وصلتِها، وهشام بكسرها من غير صلة، وحمزة والكسائي يحذفان الهاء في الوصل خاصة، والباقون يثبتونها ساكنة في الحالين. انظر: «التيسير» (ص: ١٠٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٢)، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢١٩).

وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: جاءَ رجلٌ من أحبارِ اليهودِ يُقالُ له: مالكُ بنُ الصَّيفِ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ يُخاصِمُه، وكانَ سميناً عتُلَّ الجثّةِ، فقالَ عليه السَّلامُ له: «أنشُدُكَ باللهِ الذي أنزلَ التَّوراةَ على موسى، أما تجِدُ في التَّوراةِ أنَّ اللهَ يُبغِضُ الحبرَ السَّمينَ؟» فغضِبَ وقالَ: واللهِ ما أنزَلَ اللهُ على بشرٍ من شيءٍ، فنزلَتْ هذه الآيةُ[١].

وقيلَ: الآيةُ في مُشرِكي العربِ.

﴿وَمَاقَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ما عظَّموه حقَّ تعظيمِه، وقيلَ: ما آمَنُوا بأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، يُقالُ: قَدَرَ الشَّيءَ؛ أي: سبَرَه وأرادَ أن يعرِفَ مِقدارَه فقدَرَه قَدْراً، ومنه: «فإنْ غُمَّ عليكم فاقدُرُوا له»[٢].

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ مَن قالَ: الآيةُ في المُشركينَ قال: عنَى رُجوعَهم إلى أهلِ الكتابِ في كثيرٍ من أمورِ دينِهم، وجعلَتِ اليهودُ التَّوراةَ صُحُفاً؛ أي: كتَبُوها في قراطيسَ مُقطَّعةٍ ليُخفُوا ما شاؤُوا.

قُرِئَ ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ بالتاءِ والياءِ[٣].

وقيلَ: أي: تُودِعُونَه في قراطيسَ ﴿تُبْدُونَهَا﴾؛ أي: القَراطيسَ.

﴿وَعُلِّمْتُم﴾؛ أي: بالقرآنِ: منَ الأحكامِ، وأقاصيصِ الأوَّلينَ، والاحتجاجِ على

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٢) عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٢) رواه البخاري (١٩٠٦)، ومسلم (١٠٨٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان، فقال: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له».

(٣) وكذا في ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء في الثلاثة، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

أهلِ الملل ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾: ما لـم تعلَمُوه من قبلُ، فهو خطابٌ لليهودِ أو للمُشرِكينَ.

وقيلَ: للمُؤمنينَ.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قُلْ يا محمَّدُ: اللهُ أنزَلَ ذلك الكتابَ على مُوسى، وهذا الكتابَ عليَّ.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: لاعِبينَ، ولو كانَ جواباً للأمرِ لقالَ: يلعَبُوا، والمعنى: أنَّ سعيَهم فيما لا ينفعُ، ومثلُ هذا السَّعيِ لعبٌ.

وقيلَ: ﴿ذَرْهُمْ﴾ منسوخٌ بآيةِ القتالِ(١).

❊ ❊ ❊

(٩٢) ـ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآنَ ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ أي: بُورِكَ له فيه، والبركةُ: الزِّيادةُ ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: منَ الكتُبِ المُنزلةِ؛ فإنَّه يُوافقُها في نفيِ الشِّركِ وإثباتِ التَّوحيدِ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ هـو عطـفٌ عـلى المعنى؛ أي: أنزَلْناه للبركةِ والإنذارِ، أو: ليُصدِّقَ وليُنذِرَ.

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: ليُنذِرَ أهلَ أمِّ القُرَى، فحُذِفَ المُضافُ، وأمُّ القُرَى: مكّةُ؛ لأنَّ جميعَ النَّاسِ تؤُمُّها(٢)، أو لأنَّ الأرضَ دُحِيَتْ من تحتِها، فهي أصلُ الأرضِ.

---

(١) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله (ص: ٨٦)، و«الناسخ والمنسوخ» لمحمد بن حزم (ص: ٣٧)، وصحح ابن الجوزي عدم النسخ وأن الآية محكمة ومعناها التهديد. انظر: «نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٤٢٧).

(٢) في (أ): «يؤمونها».

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: جميعَ الآفاقِ.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: أتباعَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ بدليلِ قولِه: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ولم يُعتَدَّ بإيمانِ مَن آمنَ بالآخرةِ إذا لم يُؤمِنْ بمحمَّدٍ وبكتابِه.

قُرِئَ ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ بالتّاء، وبالياءِ[1]، كأنَّه جعلَ الكتابَ هو المُنذرَ.

وقيلَ: مُصدِّقُ الذي بينَ يدَيه منَ البَعثِ.

* * *

(٩٣) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بيَّنَ أنَّ المُكذِّبينَ بالقرآنِ ظالمونَ، انتهى جهلُهم إلى أن ادَّعى بعضُهم النُّبوّةَ، وبعضُهم القُدرةَ على إنزالِ مثلِه كمُسيلمةَ وغيرِه، وقال قومٌ: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ [الأنفال: ٣١].

وكان عبدُ الله بنُ سعدِ بنِ أبي سَرْحٍ يكتبُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، فإذا أملَى عليه «عزيزٌ حكيمٌ»، كتبَ «غفورٌ رحيمٌ»، ثمَّ ارتدَّ وقالَ: إنِّي سأُنزِلُ مثلَ ما أنزلَ الله[2].

---

(١) قرأ أبو بكر عن عاصم بالياء، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٦٠). وتحرف لفظ «بكر» في مطبوع «التيسير» إلى: «عمرو».

(٢) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٣٤٤)، والثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٤٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ١٤٤).

وقيلَ: لـمَّا نزلَ قولُه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ وأملاه النبيُّ ﷺ إلى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ عجِبَ عبدُ الله بنُ سعدٍ من تفصيلِ خلقِ الإنسانِ، فقالَ: تبارَكَ الله أحسَنُ الخالقينَ، فقالَ رسولُ الله: «هكذا أُنزِلَتْ عليَّ»، فشَكَّ عبدُ الله حينَئذٍ وقالَ: «لَئِنْ كانَ محمَّدٌ صادِقاً فقد أُوحِيَ إليَّ كما أُوحِيَ إليه، وإنْ كانَ كاذِباً فقد قُلتُ كما قالَ»، وارتدَّ(١).

= وهذه القصة قد وردت في أكثر التفاسير، وهي باللفظ الذي ذكره المؤلف مردودة سنداً ومتناً، أما السند فقد صرح بعض من ذكرنا أنها من رواية أبي صالح عن ابن عباس، وآخرون أنها من رواية الكلبي عن ابن عباس، فتكون من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، فالخبر ساقط لا يحتج به.

وقد روي نحوه عن عكرمة والسدي، رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٠٥) عن عكرمة، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٦) من طريق أسباط عن السدي، وكلاهما ضعيف للإرسال، وأسباط هو ابن نصر قال عنه الحافظ في «التقريب»: صدوق كثير الخطأ يغرب. وخبر عكرمة في إسناده الحسين بن داود المصيصي المعروف بسنيد، وهو ضعيف. انظر: «تقريب التهذيب» ترجمة سنيد بن داود.

وأما متناً ففيه نكارة عظيمة في قوله: فإذا أَملى عليه: «عزيز حكيم» كتب «غفور رحيم»، وإذا أملى عليه ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ كتب ﴿رؤوفاً رحيماً﴾، بل زاد بعضهم: (فيقول له النبي ﷺ: هما سَوَاء)، فكيف يعقل أن يترك النبي ﷺ ما أنزل الله عليه ويعدل إلى كلام ابن أبي سرح فيثبته بدلاً عن كلام الله؟!

وقد وردت هذه القصة بسياق آخر ليس فيه ما تقدم من النكارة، لكن فيه إشكال من وجه آخر. انظر التعليق الآتي.

(١) ذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٧٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٤٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢٠)، والرازي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٦٦)، بألفاظ متقاربة.

وقد رد بعض العلماء هذه القصة، فقال أبو الليث عقبها: وقد قيل: إن الحكاية غير صحيحة، لأن ارتداد عبد الله بن أبي سرح كان بالمدينة، وهذه الآية مكية.

ونحوه قول ابن كمال باشا في «تفسيره» عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾: وهذه =

ثمَّ استأمنَ له عثمانُ عامَ الفتحِ، وكانَ أخاه منَ الرَّضاعةِ.

ووجهُ الحجَّةِ على مَن قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾: مُعارَضَتُهم بأن يأتُوا بمثلِ سورةٍ منَ القرآنِ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: حينَ هم في غَمراتِ الموتِ، والغَمْرةُ: الشِّدّةُ، ومنه: غَمَرَه الماءُ، وغَمَرَه الحربُ، وغَمَرَه الدَّينُ؛ أي: كثُرَ عليه.

يعني: في الشَّدائدِ التي تغمُرُ عقولَـهم.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: ملائكةُ العذابِ باسِطُو أيديهم بمقامعِ

= الرِّواية غيرُ صحيحة؛ لأنَّ السُّورةَ مكيَّةٌ، وارتداده كان بالمدينة على ما اعترف به الرَّاوي.

وقد نقل الآلوسي رحمه الله التوفيق بين كون السورة مكية والقصةِ وقعت في المدينة فقال في «روح المعاني» (١٨/ ٣٨): وطعن بعضهم في صحة هذه الرواية بأن السورة مكية وارتداده بالمدينة كما تقتضيه الرواية، وأجيب: بأنه يمكن الجمع بأن تكون الآية نازلة بمكة واستكتبها ﷺ إياه بالمدينة فكان ما كان، أو يلتزم كون الآية مدنية لهذا الخبر، وقوله: إن السورة مكية، باعتبار الأكثر.

قلت: وأصل القصة عند أبي داود (٤٣٥٨)، والنسائي (٤٠٦٩)، ولفظه: عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ، فأزله الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره رسول الله ﷺ.

وقال الطبري (٩/ ٤٠٧): ولا تمانُع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال: إني قد قلت مثل ما قال محمد، وأنه ارتدّ عن إسلامه ولحق بالمشركين.

وقد حسن إسلام عبد الله بن سعد بن أبي السرح بعد ذلك، وكان فارس بني عامر بن لؤي المعدود فيهم، وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في افتتاحه وفي حروبه، وتولى مصر زمن عثمان رضي الله عنه، ومنها افتتح أفريقية، وكان أمير غزوة ذات الصواري. مات بالرملة فارًّا من الفتنة، وهو في الصلاة. انظر: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (٣/ ٩١٨)، و«سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٣ ـ ٣٥)، و«الإصابة» (٤/ ٩٤).

الحديدِ وبالعذابِ، يضرِبُونَ وُجوهَهم وأدبارَهم، أو باسِطُو أيديهم لقَبْضِ أرواحِهم.

﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾؛ أي: يقولونَ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾؛ أي: ذوقُوا العذابَ، كما تقولُ لِـمَنْ تُوبِّخُه: «لأُزهِقَنَّ رُوحَكَ»؛ أي: لأُذيقَنَّكَ العذابَ، وهذا لأَنَّهم لا يُخرِجُونَ أرواحَهم بل يقبِضُها ملَكُ الموتِ وأعوانُه.

وقيلَ: أي: خلِّصُوا أنفُسَكم منَ العذابِ إنْ أمكنكُم، وهو توبيخٌ.

وقيلَ: يُقالُ هذا للكفّارِ وهم في النّارِ وقد غشِيَتْهم شدائدُ كشِدّةِ الموتِ.

وقيلَ: هو تغليظٌ عليهم في حالةِ الموتِ، والمعنى: أنَّهم يأخذونَ أرواحَهم بعُنفٍ، وجوابُ (لو) محذوفٌ؛ أي: لرأَيتَ أمراً عظيماً.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ أي: العذابَ المُهينَ، وهو كقولك: «ضربتُه ضربَ التَّلفِ»؛ أي: الضَّربَ المُتلِفَ، والـهُونُ: الـهَوانُ.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بقَولِكم: الملائكةُ بناتُ الله، والقرآنُ سِحرٌ، أو نحنُ نقدرُ أن نأتيَ بمثلِه.

﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: تتعظَّمُونَ عن قَبولِ آياتِه.

* * *

(٩٤) ـ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾؛ أي: كنتُم تتعظَّمونَ عن الانقيادِ، فها أنتم في العذابِ مُهانُونَ، ورَدْتُم الآخرةَ عُراةً حُفاةً كما خُلِقْتُم أوّلَ مرّةٍ، وفي الآيةِ إضمارُ القولِ؛ أي: يُقالُ لهم في الآخرةِ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾.

وقيلَ: المُرادُ المُستقبلُ وإنْ كانَ اللَّفظُ للماضي؛ أي: تجيؤوننا فُرادَى.

﴿فُرَٰدَىٰ﴾ واحدُها: فَرْدٌ وفَرِدٌ وفَرِيدٌ وفَرَدٌ؛ أي: جِئتُمونا بلا أهلٍ ولا مالٍ ولا ولدٍ، ولم ينفَعْكُم ما عبَدتُم من دونِ الله.

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: كما خرَجْتُم من بُطونِ أمَّهاتِكُم.

وقالَ الزَّجّاجُ: أي: كانَ بَعثُكم كخَلقِكم ابتداءً أوّلَ مرّةٍ[1].

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: أعطيناكُم، والخَوَلُ: ما أعطَى الله الإنسانَ منَ العبيدِ والنِّعَمِ.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾؛ أي: الأصنامَ ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾؛ أي: شركاءُ لي، فإنَّ المُشركينَ كانُوا يقولونَ: الأصنامُ شركاءُ الله وشُفَعاؤُنا عندَه.

﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ﴾ بالرَّفعِ؛ أي: وَصْلُكم، وقُرِئَ: ﴿بَيْنَكُمْ﴾[2]؛ أي: تقطَّعَ ما كنتُم فيه منَ الشركةِ بينكم، أو: تقطَّعَ ما بينكم.

﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾؛ أي: ذهبَ عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: تكذبون في الدُّنيا.

* * *

(٩٥) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ عَدَّ من عجائبِ صُنعِه ما تعجَزُ عن أدنَى شيءٍ منه آلهتُهم، والفَلْقُ: الشَّقُّ؛ أي: فلَقَ الحبَّ عن السُّنبلةِ، والنَّواةَ عن النَّخلةِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٧٣)، و«البسيط» للواحدي (١٤/ ٤١).

(٢) قرأ بها نافع وحفص والكسائي والباقون برفع النون. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

وقيلَ: عَنَى بالفَلْقِ: الشَّقَّ الذي في الحبِّ وفي النَّوى.

وقيلَ: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾؛ أي: خالقُهما، والنَّوى: جمعُ نَواةٍ، ويجري في كلِّ ما له عَجَمٌ كالمِشْمِشِ والخَوْخِ.

﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾؛ أي: يُخرِجُ منَ النُّطفةِ الميتةِ بشراً حيًّا[1]، ويُخرِجُ منَ الحيِّ النُّطفةَ الميتةَ.

وقيلَ: يُخرِجُ المُؤمنَ منَ الكافرِ، والكافرَ منَ المُؤمنِ.

وقيلَ: يُخرِجُ النَّباتَ منَ الحَبِّ، ويُخرِجُ الحبَّ اليابسَ منَ النَّباتِ الحيِّ، ويجوزُ أن يجرِيَ لفظُ الحياةِ فيما ينمُو ويزيدُ.

* * *

(٩٦) - ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

قولُه: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾؛ أي: إنَّ الله فالقُ الإصباحِ، والفَلْقُ: مصدرُ فلَقْتُ أفلُقُ، والصُّبحُ والصَّباحُ: أوَّلُ النَّهارِ، وكذلك الإصباحُ؛ أي: فالِقُ الصُّبحِ كلَّ يومٍ.

﴿وجاعلُ اللَّيلِ سكناً﴾ وقُرِئَ: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾[2].

والسَّكَنُ: ما سكنْتَ إليه؛ أي: النّاسُ يسكُنونَ في اللَّيلِ سكونَ راحةٍ.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًا﴾؛ أي: بحسابٍ[3]، كما قال: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ

---

(١) «حيًّا» من (أ).

(٢) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (١/ ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(٣) في (أ): «بحسبان».

وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥]؛ أي: يدورانِ في حسابٍ، والحُسبانُ والحِسابُ: مصدرُ حسَبْتُه أحسُبُه.

وقيلَ: الحُسْبانُ: جمعُ حسابٍ، مثلَ: «رُكبانٍ وشُهبانٍ» في جمعِ رِكابٍ وشِهابٍ؛ أي: جعَلَ الشَّمسَ والقمرَ يجرِيانِ بحسابٍ، فحُذِفَ الباءُ؛ أي: بحسابٍ لا يختلفُ، أو بحسابٍ تتعلَّقُ به مصالحُ العبادِ.

ونُصِبَ ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لأنَّ في (جاعل) معنى جعَلَ.

وقيلَ: ﴿حُسْبَانًا﴾؛ أي: ضياءً، والحسبانُ: النَّارُ في لغةٍ، وقد قالَ الله: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: ٤٠]، قال ابنُ عبّاسٍ: ناراً[1].

* * *

(٩٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ بيَّنَ كمالَ قُدرتِه، وفي النُّجومِ فوائدُ ومنافعُ، منها الاهتِداءُ بها في البحارِ والأسفارِ، ومنها كونُها زينةً، ومنها كونُها حِفظاً من كلِّ شيطانٍ ماردٍ، وإنَّما ذكرَ في هذه الآيةِ بعضَ منافعِها.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: بيَّنّا العلاماتِ مُفصَّلةً ليكونَ أبلغَ في الاعتبارِ.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ خصَّهم لأنَّهم المُنتَفِعُونَ بها.

* * *

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٣٠) دون سند، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٢٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء.

(٩٨) ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾؛ أي: من آدمَ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾؛ أي: فلكُم بعدَ ذلك مُستَقَرٌّ ومُستودَعٌ، وهو كقولك: «إنْ تزُرْني فمُحسِنٌ»؛ أي: فأنتَ مُحسِنٌ، وجازَ الحذفُ لدلالةِ الكلامِ عليه.

ثمَّ قال ابنُ عبّاسٍ: مُستقَرٌّ في الأرحامِ، ومُستَودَعٌ في الأصلابِ[1].

وقيلَ: على العكسِ.

وقُرِئَ: ﴿فمُستَقِرٌّ﴾ بكسرِ القافِ[2] بمعنى القارِّ؛ أي: منكم مُستَقِرٌّ ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ بالفتحِ.

وقيلَ: المُستَودَعُ ما كانَ قبل الخروجِ من بطنِ الأمِّ، والمُستَقَرُّ ما كانَ بعد ذلك، ثمَّ إذا انفصَلَ من بطنِ الأمِّ فله مُستَقَرٌّ على ظهرِ الأرضِ مدّةً وتحتَ الأرضِ مدّةً، ثمَّ دوامَ القرارَ في الجنّةِ أو النّارِ.

وقيلَ: الاستقرارُ في الأرضِ مدّةَ الحياةِ، قال الله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، والاستيداعُ إشارةٌ إلى كونِهم في القبرِ إلى أن يُبعَثُوا للحسابِ.

وقيلَ: المُستَقَرُّ: القَبرُ، والمُستَودَعُ في الدُّنيا؛ لأنَّ اللُّبثَ في الأرضِ أكثرُ.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٣٨).

(٢) قرأ بها أبو عمرو وابن كثير، ولم يختلفوا في (مستودَع) أنه بفتح الدال. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٥)، و«النشر» (٢/ ٢٦٠).

(٩٩) - ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾؛ أي: المطرَ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ﴾؛ أي: بالماءِ ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ مـمَّا تُنبِتُه الأرضُ.

وقيلَ: غذاءَ كلِّ حيوانٍ، وهذا تلوينُ الخطابِ؛ لأنَّه قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا ﴾، وهذا كقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ يُقالُ: اخضَرَّ فهو أخضَرُ وخَضِرٌ.

قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ: القمحَ والشَّعيرَ والسُّلْتَ والذُّرةَ والأرُزَّ[١].

﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾؛ أي: ثمَّ نُخرِجُ من ذلك الزَّرعِ الأخضرِ حبّاً مُتراكباً بعضُه على بعضٍ في سُنبلةٍ واحدةٍ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ الطَّلعُ: الكُفُرَّى قبلَ أن تنشَقَّ عنِ الإغْرِيضِ، والإغرِيضُ يُسمَّى طَلْعاً أيضاً، والطَّلعُ: أوَّلُ ما يُرَى من عَذْقِ النَّخلةِ.

والقِنْوانُ: جمعُ القِنْوِ، مثلُ: صِنْوٌ وصِنْوانٌ، وتثنيةُ القِنْوِ: «قِنْوانِ» بكسرِ النُّونِ، وحالُ الجمعِ على لفظِ الاثنَينِ، والإعرابُ في النُّونِ للجمعِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٣١٧). والسلت: شعير لا قشر عليه؛ أجرد.

﴿دَانِيَةٌ ﴾؛ أي: تدنُو ممَّن يجتَنيها، ونبَّهَ بذكرِ القريبةِ على البعيدةِ كقولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

وقيلَ: الدّانيةُ: المُتذلِّلةُ؛ فإنَّها أقرَبُ مُتَناوَلاً.

وقيلَ: ذِكرُ الدّانيةِ؛ لأنَّ من العَرَضِ في الآيةِ ذكرُ القدرةِ، ومنَ العَرَضِ الامتِنانُ بالنِّعمةِ، والامتِنانُ فيما يقرُبُ مُتناوَلُه أكثرُ.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾؛ أي: وأخرَجْنا جنّاتٍ.

وقُرِئَ: (وجناتٌ) بالرَّفعِ[1]؛ أي: وجنّاتٌ من أعنابٍ أخرَجْناها، كقولك: «أكرمتُ عبدَ الله وأخوه»؛ أي: وأخوه أكرمتُه أيضاً.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾؛ أي: شجرَ الزَّيتونِ وشجرَ الرُّمَّانِ، كقولِه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَها.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾؛ أي: مُشتَبِهاً ورَقُهما، مُختلِفاً ثمرُهما.

وقيلَ: مُشتَبِهاً أشجارُهما غيرَ متشابهٍ في الطَّعمِ.

وقيلَ: أرادَ: في كلِّ جنسٍ ما يتشاكلُ في الخِلْقةِ والطَّعمِ واللَّونِ، ومنه ما يختلفُ ولا يتَشاكلُ، وخُصَّ الرُّمّانُ والزَّيتونُ بالذِّكرِ لقُربِهما منهم ومكانِهما عندَهم، وهو كقولِه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، ردَّهم إلى الإبلِ لأنَّها أغلَبُ ما يعرِفُونَه.

وقيلَ: قرَنَ بينهما لأنَّ ورقَهما مُشتملٌ على الغُصنِ من أوَّلِه إلى آخرِه، وورقُ الزَّيتونِ مشبهٌ لورقِ الرُّمّانِ، ولم يقُلْ: «مُشتبهةً» لأنَّه أرادَ جنسَ الثَّمرِ.

---

(١) وهي قراءة الأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٥)، و«البحر المحيط» (٩/ ٣١٥). واتفق العشرة على القراءة بالنصب: ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾.

﴿انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ يعني: نظرَ الاعتِبارِ، والثَّمرُ جمعُ «ثمرةٍ».

وقُرِئَ: ﴿ثُمُرِه﴾ بضمِّ الثّاءِ والميمِ[1]، وهو جمعُ الثَّمرةِ، مثلُ: خشبةٍ وخُشُبٍ.

﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ اليَنْعُ: النُّضْجُ من «ينَعَ يَيْنِعُ»، مثلَ: ضَرَبَ يضرِبُ.

وقيلَ: «يَنِعَ يَيْنَعُ» مثلَ: علِمَ يعلَمُ، وأَينَعَ يُونِعُ، بيَّنَ بهذا أنَّها تنتقِلُ من حالٍ إلى حالٍ كالإنسانِ تتبدَّلُ حالاتُه، ولا بدَّ للمُتغيِّرِ من مُغيِّرٍ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ على أنَّ لها صانعاً قادراً عالِـماً، وعلى جوازِ البَعثِ لإعادةِ النَّباتِ بعد الجفافِ.

* * *

(١٠٠) ـ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ هذا ذكرُ نوعٍ آخرَ من جَهالاتِهم؛ أي: منهم مَن اعتقَدَ لله شركاءَ منَ الجنِّ.

قال الكلبيُّ: نزلَتْ في الزَّنادِقةِ، قالوا: إنَّ الله وإبليسَ أخوانِ، فالله خالقُ النّاسِ والدَّوابِّ، وإبليسُ خالقُ الحيّاتِ والسِّباعِ والعقاربِ[2].

ويقرُبُ من هذا قولُ مَن قالَ بالنُّورِ والظُّلمةِ، والمجوسُ بأجمعِهم قائلون بيزدانَ وأَهرمن، ويُضيفُونَ الشَّرَّ إلى إبليسَ[3].

وقيلَ: أي: أطاعُوا الشَّياطينَ في عبادةِ الأوثانِ.

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٦٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢١).

(٣) يعبرون عن الله بيزدان، ويعبرون عن إبليس بأهرمن. انظر: «جامع البيان» للإيجي (١/ ٥٦٣)

وقيـلَ: أشـارَ إلـى عبادتِهـم الملائكـةَ؛ فإنَّهم قـد يُسـمَّونَ جِنَّـا لاجتِنانِهم عن الأبصارِ.

﴿ٱلْجِنَّ﴾ نصبٌ لأنَّه مفعولٌ؛ أي: جعَلُوا الجنَّ لله شركاءَ(١).

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾؛ أي: واللهُ خلقَ هؤلاءِ المُشركينَ.

وقيلَ: والله خلَقَ الجنَّ والشُّركاءَ؛ أي: أنَّى يجوزُ الإشراكُ بالله وهو خالقُ الجميعِ.

﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ يعني قولَ العربِ: الملائكةُ بناتُ الله؛ أي: افتعَلُوا له بنينَ وبناتٍ، وافترَوا كذباً وكُفراً، يُقالُ: خرَقَ واختَرَقَ؛ أي: كذَبَ، وقد قالتِ اليهودُ: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، والنَّصارَى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وقُرِئَ: ﴿وخرَّقوا﴾ بالتَّشديدِ(٢).

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: تنزيهاً له.

* * *

---

(١) وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ على هذا متعلق بـ﴿شُرَكَآءَ﴾، وفي الآية وجه آخر: أن يكون ﴿شُرَكَآءَ﴾ المفعول الأول، و﴿لِلَّهِ﴾ واقع موقع المفعول الثاني، و﴿ٱلْجِنَّ﴾ بدل من الشركاء، قال الكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ٣٧٧): وهذا الوجه أبلغ وأحسن لأنه يتضمن فائدة شريفة لا توجد في الوجه الأول، وذلك أنه يفيد إنكار الشركاء أصلًا، والإنكار يجري مجرى النفي، وعلى الوجه الأول يفيد إنكار كون الجن شركاء لله دون غيرهم، تعالى أن يكون له شريك أو شبيه، ومثله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧].

(٢) قرأ بها نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(١٠١) ـ ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾.

قولُه: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ أي: مُبدِعُهما فكيف يجوزُ أن يكونَ له ولدٌ؟

وقيلَ: البديعُ: الذي لا نظيرَ له.

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ ﴾، ولا ولدَ في العُرفِ إلّا من صاحبةٍ.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ أي: هو خالقُ الكلِّ، فكيف يكونُ مَن خلقَه شريكاً له، وأيضاً هو خالقُ الكلِّ، ولا حاجةَ به إلى عَونٍ وشريكٍ وولدٍ يُعاضِدُه.

* * *

(١٠٢) ـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ أي: هو خالقُ كلِّ شيءٍ، فـ﴿خَٰلِقُ﴾ خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ.

﴿فَٱعۡبُدُوهُ ﴾؛ أي: أطيعوه، وقيلَ: وحِّدوه.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ بالحفظِ له والتَّدبيرِ والخلقِ.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾.

قولُه: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ بيَّنَ أنَّه مُنزَّهٌ عن سماتِ الحدوثِ، ومنها الإدراكُ بمعنى الإحاطةِ والتَّحديدِ، فالإدراكُ مُنتَفٍ عنه والرُّؤيةُ ثابتةٌ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: لا تُدرِكُه الأبصارُ في الدُّنيا[1]؛ لأنَّه قيَّدَ الرُّؤيةَ بالجنّةِ فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢].

وقيلَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ بل المُبصِرونَ بالبصرِ يُدرِكُونَه.

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ وكلَّ موجودٍ، وإنَّما خصَّ الأبصارَ لتطبيقِ[2] الكلامِ.

ثمَّ الآيةُ إن دلَّتْ على أنَّ الأبصارَ لا تُدرِكُه فليس فيها أنَّه لا يجوزُ أن تُدرِكَه الأبصارُ، ولا تمدُّحَ في خروجِ الشَّيءِ عن أن يُرَى؛ فإنَّ الكفرَ عندَ الخصومِ والمعدوماتِ عندَ الكلِّ لا تُرَى، وليس لـها صفةُ مدحٍ بذلك، وإنَّما التَّمدُّحُ في أن يُقالَ: هو مَرئيٌّ، ولكنْ يَقدِرُ على منعِ الأبصارِ عن رُؤيتِه.

ثمَّ نُفاةُ الرُّؤيةِ[3] قد نَسُوا أنفُسَهم في التَّمسُّكِ بهذه الآيةِ؛ فإنَّه نفَى الإدراكَ عن الخلقِ وأثبتَه لنفسِه فقال: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، وهما بمعنًى واحدٍ، وعندَ البغداديِّين منهم ليس الله مُدرَكاً على الحقيقةِ، ويُسمَّى بصيراً سميعاً على التجوُّزِ، فيضطرُّونَ إلى حملِ الإدراكِ على خلافِ الرُّؤيةِ، فكيف يحمِلونَ إدراكَ الخلقِ له على الرُّؤيةِ؟

والبصريُّونَ منهم يقولونَ: هو مُدرَكٌ حقيقةً، ولكنَّ الأبصارَ ليست من قِبَلِ المرئيّاتِ عندَهم، بل هي كالطُّعومِ والرَّوائحِ، فيستحيلُ رُؤيتُها منَ الله ومنَ الخلقِ، فما معنَى قولِه: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ حتَّى ينفيَ عن العبدِ ما يُثبتُه للرَّبِّ؟ وغايتُهم

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٦٨)، والواحدي في «البسيط» (٨/ ٣٣٣).

(٢) في (ف): «لتعليق».

(٣) وهم المعتزلة، الذين فسروا هذه الآية وأمثالها على ما يوافق مذهبهم، وينظر كلامهم ورده في «الكشاف» طبعة دار اللباب عند تفسير هذه الآية، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

الحملُ على العلمِ؛ أي: وهو يعلمُ الأبصارَ، فلْيَحْمِلوا إدراكَ الخلق على العلمِ أيضًا، وقد قالوا: تطرَّقَ إلى الخبرِ تخصيصٌ وتجوُّزٌ، وعندَهم: ما دخلَه التَّخصيصُ صارَ مُجملًا لا يُتمسَّكُ به.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ يُقالُ: لَطَفَ فلانٌ لفلانٍ يَلْطُفَ؛ أي: رفقَ به.

وقيلَ: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: العالِمُ.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

قولُه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: حُجَجٌ وبيِّناتٌ، وهي جمعُ بصيرةٍ، وهي الدَّلالةُ التي تُوجِبُ إبصارَ النُّفوسِ الشَّيءَ، ويُقالُ للدَّمِ الذي يُستَدَلُّ به على القتيلِ: بصيرةٌ.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: مَن آمنَ بالقرآنِ وبمُحمَّدٍ فلنفسِه عمِلَ.

﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عن الحقِّ فعلى نفسِه جرَّ العذابَ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: لا أحفَظُكم عن عذابِ الله، وقيلَ: برقيبٍ، وإنَّما عليَّ التَّبليغُ.

وقيلَ: نزلَ هذا قبلَ فرضِ القتالِ.

* * *

(١٠٥) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: كما صرَّفْنا الآياتِ في الوعدِ والوعيدِ والوعظِ والتَّنبيهِ في هذه السُّورةِ نُصرِّفُ في غيرِها.

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ الواوُ للعطفِ على مُضمرٍ؛ أي: نُصرِّفُ الآياتِ لتلزمَ الحجّةُ وليقُولوا: ﴿دَرَسْتَ﴾، من درَس يدرُسُ دراسةً، وهي القراءةُ على الغيرِ.

وقيلَ: درَسْتُه؛ أي: ذلَّلتُه بكثرةِ القراءةِ، فأصلُه من درَسَ الطَّعامَ؛ أي: داسَه، والدِّراسُ: الدِّياسُ بلغةِ أهلِ الشّامِ.

وقيلَ: أصلُه: درَسْتُ الثَّوبَ أدرُسُه دَرْساً فهو مدروسٌ ودَرِيسٌ؛ أي: أَخْلَقْته، ويرجعُ هذا إلى التَّذليلِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: قال أهلُ مكَّةَ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: تعلَّمتَ من يسارِ بنِ فكيهةَ، وقرأتَ علينا تزعمُ أنَّه من عندِ الله(١).

وقيلَ: قالوا: تعلَّمتَ منَ اليهودِ وقرأتَ كتُبَ أهلِ الكتابِ.

وقيلَ: أي: نُبيِّنُ لهم الآياتِ إلى أن يعترِفُوا بأنَّ الذي جئتَ به عُلِّمتَه، وهو ممَّا علَّمَكَ الله.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٣٤٠)، وذكر مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٤٨٧) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ [النحل: ١٠٣]: «ذلك أن غلامًا لعامر بن الحضرمي القرشي يهوديًا أعجميًا كان يتكلم بالروميَّة يسمى يسار ويكنى أبا فكيهة، كان كفار مكة إذا رأوا النبي ﷺ يحدثه قالوا: إنما يعلمه يسار أبو فكيهة... فضربه سيده فقال: إنك تعلم محمدًا، فقال أبو فكيهة: بل هو يعلمني.

ويسار أبو فكيهة: معدود في الصحابة، قال: ابن إسحاق في «المغازي»: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس يجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن حرب. انظر: «الاستيعاب» (٤/ ١٥٨٢).

وقال ابن حجر في «الإصابة» (٧/ ٢٦٨): وقيل: مولى بني عبد الدار، ويقال: أصله من الأزد. أسلم قديمًا فربط أمية بن خلف في رجله حبلًا فجره حتى ألقاه في الرمضاء وجعل يخنقه، فجاء أخوه أُبيُّ بن خلف، فقال: زده، فلم يزل على ذلك حتى ظنَّ أنه مات، فمرَّ أبو بكر الصديق فاشتراه وأعتقه.

وقُرِئَ: ﴿دارَسْتَ﴾، وقُرِئَ: ﴿درَسَتْ﴾ بسكونِ التّاءِ[1]؛ أي: هذه الأخبارُ التي تلَوتَها علينا قديمةٌ، قد درَسَتْ وانمَحَتْ، منَ الدُّروسِ الذي هو تَعفِّي الأثرِ.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾؛ أي: نُصرِّفُ الآياتِ ليسعدَ بها قومٌ ويشقَى آخرونَ ولنُبيِّنَه لقومٍ يعلمون.

وقيلَ: هي لامُ الصَّيرورةِ؛ كقولِ الله تبارَكَ وتعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

* * *

(١٠٦ ـ ١٠٧) ـ ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

قولُه: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: بعدَما بلَّغْتَ، فلا تُعلِّقْ قلبَكَ بهم، بل اشتغِلْ بعبادةِ الله؛ إذ لا إلهَ إلّا هو.

قولُه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ نصَّ على أنَّ الشِّركَ بمشيئةِ الله.

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؛ أي: لا يُمكنُك حِفظُهم من عذابِ الله.

وقيلَ: أي: ليس عليكَ إلّا التَّبليغُ.

وقيلَ: نسَخَتْه آيةُ السَّيفِ[2].

---

(١) قرأ ابن كثير وابو عمرو: ﴿دارَسْتَ﴾ بالألف وفتح التاء، وابن عامر بغير ألف وفتح السين وإسكان التاء، والباقون بغير ألف وإسكان السين وفتح التاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٥).

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله (ص: ٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٢/ ١٧٣)، و«الناسخ والمنسوخ» لمحمد بن حزم (٨/ ٣٤٥)، ورجح ابن الجوزي أنها محكمة. انظر: «نواسخ القرآن» (ص: ١٤٠).

(١٠٨) ـ ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قيلَ: نزلَتْ قبلَ آيةِ القتالِ، وقيلَ: بعدَها.

وهو خطابٌ لأصحابِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ أي: لا تسُبُّوا آلـهتَهم فيُجازُوكم بسَبِّ الله عَدْواً منهم ومُجاوزةً للحدِّ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: قالوا: يا محمَّدُ، لتَنتَهِيَنَّ عن سبِّ آلـهتِنا أو لنهجُوَنَّ ربَّك[(١)].

وقال السُّدِّيُّ: لمَّا حضرَ أبا طالبٍ الوفاةُ قالت قُريشٌ: لِندخُلْ عليه فَلنأمُرَنَّه أن ينهَى عنَّا ابنَ أخيه، فإنَّا نستَحيي أن نقتُلَه بعد موتِه فتقولُ العربُ: كانَ يمنعُه فلمَّا ماتَ قتلُوه، فجاءَ أبو سفيانَ، وأبو جهلٍ، والنَّضرُ بنُ الحارثِ، وأميَّةُ وأُبيٌّ ابنا خلَفٍ، وعُقبةُ بنُ أبي مُعَيطٍ، وعَمرُو بنُ العاصِ، والأسودُ بنُ البَخْتَرِيِّ، إلى أبي طالبٍ وقالوا: أنتَ كبيرُنا وسيِّدُنا، وإنَّ محمَّداً قد آذانا وسبَّ آلـهتَنا، فنُحِبُّ أن تنهاهُ عن ذكرِ آلـهتِنا ولَنَدَعنَّه وإلـهَه، فدَعاه وقال: هؤلاءِ قومُك وبنو عمِّك، فقالَ: «ماذا تُريدونَ؟» قالوا: نُريدُ أن تدَعَنا وآلـهتَنا، وندَعَكَ وإلـهَكَ، فقال أبو طالبٍ: قد أنصَفَكَ قومُكَ فاقبَلْ منهم، فقال: «أرأيتُم إن أعطَيتُكم هذا هل أنتم مُعطيَّ كلمةً إنْ تكلَّمتُم بها ملكتُم العربَ ودانَتْ لكم بها العجَمُ؟» قال أبو جهلٍ: نعم وأبيكَ، لنُعطِيَنَّكَها وعشرَ أمثالِـها، فما هي؟ قال: «قولوا: لا إلهَ إلا الله»، فأبَوا واشمَأزُّوا، فقال أبو طالبٍ: قُلْ غيرَها يا ابنَ أخي؛ فإنَّ قومَكَ قد فزِعُوا منها، فقال: «يا عمِّ، ما أنا بالذي أقولُ غيرَها ولو أتَوني بالشَّمسِ فوضعُوها في يدي»، فقالوا له: لتكُفَّنَّ عن

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٦٦).

شتمِ آلـهتِنا أو لنشتُمَنَّكَ ولنشتُمَنَّ مَن يأمُرُكَ»، فنزلَتْ هذه الآيةُ[١].

﴿عَدْوًا﴾؛ أي: ظُلماً بالجهلِ، تقولُ: عَدا عَدْواً وعُدُوّاً وعُدْواناً؛ أي: ظلَمَ.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا﴾؛ أي: كما زيَّنّا لـهؤلاءِ عمَلَهم كذلك زيَّنّا لكلِّ أمَّةٍ عمَلَهم.

قال ابنُ عبَّاسٍ: زيَّنّا لأهلِ الطّاعةِ الطّاعةَ، ولأهلِ الكفرِ الكفرَ[٢]، وهو كقولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

* * *

(١٠٩) ـ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قال محمَّدُ بنُ كعبٍ: قالت قريشٌ: يا محمَّدُ، تُخبِرُنا بأنَّ موسى ضرَبَ بعصاه الحجرَ فانفَجَرَتْ منه اثنَتا عشرةَ عيناً، وأنَّ عيسى كان يُحيِي الموتَى، وأنَّ ثمودَ كانت لهم ناقةٌ، فأتِنا ببعضِ هذه الآياتِ حتَّى نُصدِّقَكَ، فقالَ: أيَّ شيءٍ تُحبُّونَ أن آتيَكم به؟ قالوا: اجعَلْ لنا الصَّفا ذهَباً، فواللهِ إنْ فعلتَه لنتَّبِعَنَّك أجمعين، فقامَ رسولُ الله يدعو، فجاءَه جبريلُ وقالَ: إنْ شئتَ أصبحَ الصَّفا ذهباً، ولكنْ لـم أُرسِلْ آيةً مُقترَحةً فلم يُصدَّقْ بها إلا أنزَلْتُ العذابَ، وإنْ شئتَ تركتُهم حتَّى يتوبَ تائبُهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «اترُكْهم حتَّى يتوبَ تائبُهم»،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٦٧)، عن السدي. وفيه نظر، فإن كفار قريش إنما كانوا يعتبرون مجرد النهي عن عبادة الأصنام والدعوة إلى التوحيد شتماً لآلهتهم، وليس اعتراضهم ناشئاً من أن النبي كان يشتم تلك الآلهة بصريح العبارات، فإنه ﷺ منزه عن ذلك، فلا يصح أن يكون هذا سبب النزول.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٣٤٨).

فنزلَتْ هذه الآيةُ[١]، وبيَّنَ الرَّبُّ بأنَّ مَن سبقَ العلمُ الأزليُّ بأنَّه لا يُؤمنُ فإنَّه لا يُؤمِنُ وإنْ أقسمَ ليُؤمِنَنَّ.

﴿وَأَقْسَمُوا﴾؛ أي: حلَفُوا، وهو منَ القِسْمِ الذي هو الحظُّ، أي: حازَ القِسْمَ الذي وقعَ التَّنازعُ فيه بذكرِ الله.

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: اجتَهَدُوا في المُبالغةِ في اليمينِ.

وقيلَ: أتَوا بأغلظِ الأيمانِ.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: هو القادرُ على الإتيانِ بها، وإنَّما يأتي بها إذا شاءَ.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾؛ أي: ما يُدرِيكُم إيمانَهم؟ فحُذِفَ المفعولُ؛ أي: هم لا يُؤمنون مع مجيءِ الآيةِ، ثمَّ استأنَفَ فقالَ: ﴿إنَّها إذا جاءتْ لا يؤمنون﴾ بكسرِ (إنَّ)، وقد أعلَمَنا في الآيةِ بعد هذه أنَّهم لا يُؤمِنُونَ، وقُرِئَ: ﴿أَنَّهَا﴾[٢].

قال الخليلُ: هو كقولِكَ: ايتِ السُّوقَ أنَّك تشتَري لنا شيئًا؛ أي: لعلَّكَ، فكأنَّه قال: لعلَّها إذا جاءَتْ لا يُؤمِنُونَ[٣]، و«أنَّ» بمعنَى «لعلَّ» كثيرٌ في الكلامِ، وفي القرآنِ:

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (ص: ٢٧٤)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٨٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢٢)، وهو مرسلٌ، وأصل الحديث رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٣٣٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، لكن في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

(٢) قرأ بكسر الهمزة ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم، وباقي السبعة بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٥)، «التيسير» (ص: ١٠٦).

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (٨/ ٣٥٣) وعنه نقل المصنف، وانظر كلام الخليل في: «الكتاب» =

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]؛ أي: أنَّه يزَّكَّى، فذُكرَ بعد العلمِ، كذلك هاهُنا ذكرَ بعد العلمِ «أنَّه» فهو بمعنَى «لعلَّ».

وقيلَ: ﴿لَا﴾ صلةٌ، ويجوزُ ذلك إذا تقدَّمَها جحدٌ، قال الله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]؛ أي: حرامٌ عليهم أن يرجِعُوا؛ أي: وما يُشعِرُكم أنَّها إذا جاءَتْ يُؤمِنُونَ؛ أي: إنَّها لو جاءَتْ لـم يُؤمِنُوا[١].

قُرِئَ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياءِ، وبالتّاءِ[٢]؛ أي: لا تُؤمِنُونَ أيُّها المُقسِمُونَ.

وقيلَ: الخطابُ في قولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للكفّارِ المُقسِمينَ؛ أي: وما يُدريكم أنَّكم تُؤمِنُونَ إذا جاءَتْ.

* * *

(١١٠) ـ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾؛ أي: نحولُ بينَهم وبينَ الإيمانِ لو جاءَتْهم تلك الآيةُ كما حُلْنا بينَهم وبينَ الإيمانِ أوَّلَ مرّةٍ لـمَّا دَعَوتَهم وأظهَرْتَ المُعجِزةَ.

والتَّقليبُ والقلبُ: تحويلُ الشَّيءِ عن وجهِه، والمعنى هاهُنا: كانَ ينبَغي أن يُؤمِنُوا إذا جاءَتْهم الآيةُ فرأَوها بأبصارِهم وعرَفُوها بقُلوبِهم، فإذا لـم يُؤمِنُوا كان ذلك بتقليبِ الله قلوبَهم وأبصارَهم.

= (٣/ ١٢٣)، وعنه نقل الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٢٨٢).

(١) وهو قول الكوفيين. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٧٤)، و«تفسير الطبري» (٩/ ٤٨٧)، و«معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٤٧٣)، و«غرائب التفسير» للكرماني (١/ ٣٨٠).

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة بالتاء، وباقي السبعة بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٥)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دخلتِ الكافُ على محذوفٍ؛ أي: فلا يُؤمِنُونَ كما لـم يُؤمِنُوا به أوّلَ مرّةٍ؛ أي: أوّلَ مرّةٍ أتَتْهم الآياتُ؛ أي: لا يُؤمِنُونَ عند الآياتِ المُقتَرحةِ كما لـم يُؤمِنُوا عند انشقاقِ القمرِ، وعند نزولِ الآياتِ التي عجَزُوا عن مُعارضتِها.

﴿بِهِۦٓ﴾؛ أي: بالقرآنِ، أو بمحمَّدٍ، أو بما طلَبُوا منَ الآياتِ.

وقيلَ: الكافُ للجزاءِ؛ أي: نُقلِّبُ أفئدتَهم كما لـم يُؤمِنُوا؛ أي: جزاءً وعقوبةً على تركِهم الإيمانَ بالآياتِ المُتقدِّماتِ.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: أنَّها إذا جاءَتْ لا يُؤمنون كما لـم يُؤمِنُوا أوّلَ مرّةٍ.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ... وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: يتحيَّرونَ.

وقيلَ: نُقلِّبُ أفئدةَ هؤلاءِ كيلا يُؤمِنُوا كما لـم يُؤمِنْ كفَّارُ الأممِ السّابقةِ لـمَّا رأَوا ما اقترَحُوا من الآياتِ.

وقيلَ: نُقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم في الآخرةِ لو رُدُّوا إلى الدُّنيا حتَّى لا يُؤمِنُوا كما لـم يُؤمِنُوا في ابتداءِ حالِـهم في الدُّنيا، وهو كقولِه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

* * *

(١١١) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ كانُوا يقترِحُونَ هذه الأشياءَ فقالَ اللهُ: لو

رأوا الملائكةَ عياناً ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ وشهِدُوا لك بالنُّبوّةِ ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ لـمَا آمنُوا.

قُرِئَ: ﴿قُبُلًا﴾ و﴿قِبَلاً﴾[1]؛ أي: مُواجهةً، وهما بمعنًى واحدٍ، تقولُ: «لقيتُه قِبَلاً ومُقابلةً وقُبُلاً وقَبَلاً[2]» بمعنًى.

وقيلَ: القُبُلُ جمعُ القَبيلِ، بمعنى: الكفيلِ، وقبَلْتُ الرَّجُل أَقبُلُه قَبالةً؛ أي: تكفَّلتُ به؛ أي: لو حُشِرَ لهم كلُّ شيءٍ يَكفلُكَ[3] بصحَّةِ ما تقولُ ما آمنُوا، وفي الأشياءِ المحشورةِ ما ينطقُ وما لا ينطقُ، فإذا نطقَ بالكفالةِ ما لا ينطقُ كانَ بالغاً في الأُعجوبةِ.

وقيلَ: أي: وحشَرْنا عليهم جميعَ النّاسِ فضمِنُوا لهم صحَّةَ قولِك، فالأُعجوبةُ في جمعِهم لهم في وقتٍ واحدٍ.

وقيلَ: القُبُلُ: جمعُ القَبيلِ بمعنَى الصِّنفِ؛ أي: جمَعْنا عليهم كلَّ شيءٍ قَبيلاً قَبيلاً.

وقيلَ: أي: وأَريناهُم الثَّوابَ والعقابَ مُعاينةً.

والحشرُ: الجمعُ.

﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾؛ أي: يجهَلُونَ الحقَّ؛ أي: يجهَلُونَ أَنَّهم لو أُتُوا بكلِّ آيةٍ ما آمَنُوا، ويجهَلُونَ[4] أنّه لا يجوزُ اقتراحُ الآياتِ بعد أن رأَوا آيةً واحدةً.

***

(١) بكسر القاف وفتح الباء قرأ بها نافع وابن عامر، وباقي السبعة بضمهما. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٥ ـ ٢٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(٢) وقُبَلًا كصُرَدٍ أيضاً. انظر: «القاموس» (مادة: قبل).

(٣) في (أ): «فكفل».

(٤) في (أ): «أو يجهلون».

(١١٢) - ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾؛ أي: إنْ كانَ لك أعداءٌ فقد كان لكلِّ نبيٍّ أعداءٌ، فقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما جعَلْنا لمَن قبلَكَ أعداءً كذلك أنتَ، أو هو معطوفٌ على قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾؛ أي: كما فعَلْنا ذلك جعَلْنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا؛ أي: أعداءً، كقولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ [الشعراء: ٧٧].

﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ﴾ هو بدلٌ من ﴿عَدُوًّا﴾، وهو مفعولٌ ثانٍ؛ أي: جعَلْنا شياطينَ الإنسِ والجنِّ أعداءً للأنبياءِ. والشَّيطانُ: كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ.

قال ابنُ عبّاسٍ: أمَّا عدوُّه عليه السَّلامُ من شياطينِ الجنِّ فالأبيضُ[١] الذي كان يأتي في صورةِ جبريلَ يُوحي إليه، وأمَّا منَ الإنسِ فالوليدُ بنُ المُغيرةِ،

---

(١) جاء ذكره في «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٠٣) قال: «وذلك أن النبي ﷺ حين بعث، قال إبليس: من لهذا النبي الذي خرج من أرض تهامة؟ فقال شيطان ـ واسمه الأبيض ـ هو صاحب الأنبياء: أنا له، فأتى النبي ﷺ فوجده في بيت الصفا، فلما انصرف قام الأبيض في صورة جبريل ليوحي إليه، فنزل جبريل عليه السلام فقام بينه وبين النبي ﷺ، فدفعه جبريل بيده دفعة هينة فوقع من مكة بأقصى الهند من فرقه...».
ونقله المفسرون عن مقاتل، ومقاتل لا يحتمل عنه مثل هذه الأخبار، قال الحلبي في «سيرته» (١/ ٣٦١): وقد ذكر بعض المفسرين أنه ﷺ كان له عدوّ من شياطين الجن يقال له: الأبيض، كان يأتيه في صورة جبريل. واعترض بأنه يلزم عليه عدم الوثوق بالوحي.
وأجيب عنه بمثل ما هنا، وهو أن الله تعالى جعل في النبي ﷺ علمًا ضروريًّا يميز به بين جبريل عليه السلام وبين هذا الشيطان، ولعل هذا الشيطان غير قرينه الذي أسلم.
وفي كلام ابن العماد: وشيطان الأنبياء يسمى الأبيض، والأنبياء معصومون منه، وهذا الشيطان هو الذي أغوى به برصيصا الراهب العابد بعد عبادته خمس مائة سنة.

وأبـو جهـلٍ، والعاصُ بـنُ وائـلٍ، وعُتبةُ وشـيبةُ، وأُبـيٌّ وأميةُ ابنـا خلَفٍ[1].

وقيلَ: عنى بالإضافةِ إلى الإنسِ شياطينَ الجنِّ الذين يُغوُونَ الإنسَ؛ أي: شياطينَ الإنسِ التي مع الإنسِ، وشياطينَ الجنِّ التي مع الجنِّ.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: يُلقي ويُناجي بالكذبِ ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: الباطلَ الذي زُيِّنَ بالكذبِ، وكلُّ شيءٍ حسَنٍ مُـمَوَّهٍ فهو زُخرفٌ كالنُّقوشِ.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: مـا فعَلُـوا إيحـاءَ القـولِ بالغُـرورِ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ مـمّا زَيَّـنَ لهـم إبليـسُ.

* * *

(١١٣) - ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: جعَلْنا لك هؤلاءِ الأعداءَ لينكشِفَ للخلقِ حالُ الذين لا يُؤمنونَ بالآخرةِ.

والصَّغْوُ: الميلُ، يُقالُ: صَغَى يصْغِي ويصْغُو وصَغَى يُصغِي إليه؛ أي: إلى زُخرفِ القَولِ.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ يُقالُ: اقترَفَ ذنباً؛ أي: اكتَسَبَه؛ أي: ليكتَسِبُوا الذُّنوبَ، أو ليختَلِفُوا في القرآنِ، مثل قولُه: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٣٧٢).

(١١٤) - ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾؛ أي: قل لهم: هذا حكمُ الله، وهو أنَّه لا يُجيبُكم إلى ما تطلُبونَ، أفغيرَ الله أطلُبُ لكم حاكماً وهو الذي كفاكُم مُؤنةَ المسألةِ في الآياتِ بما أنزلَه إليكم منَ الآياتِ المُفصَّلةِ؟ والحكَمُ: الحاكمُ.

﴿مُفَصَّلًا﴾؛ أي: مُبيَّناً.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾؛ أي: اليهودَ والنَّصارَى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآنَ ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: أنْ كلَّ ما فيه منَ الوعدِ والوعيدِ صدقٌ، أو: يعلمونَ أنَّ القرآنَ من عندِ الله؛ وأنَّ محمَّداً صادقٌ؛ لأنَّهم وجَدُوا ذلك في كتُبِهم، ويرجعُ هذا إلى أحبارِهم.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾؛ أي: منَ الشَّاكِّينَ في أنَّهم يعلمون أنَّه مُنزَّلٌ منَ الله، والامتِراءُ: طلَبُ التَّشكُّكِ مع ظُهورِ الدَّليلِ، وهو من مَريتُ الضَّرعَ؛ أي: مسحتُه ليظهرَ دَرُّه.

وقيلَ: عنَى بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ مَن أسلَمَ منهم، كسَلمانَ وعبدِ الله بنِ سلامٍ.

* * *

(١١٥) - ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

قولُه: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ قُرِئَ: ﴿كلماتُ ربِّكَ﴾(١).

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿كلمة﴾ بالإفراد، وباقي السبعة بجمعها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

قال ابنُ عبّاسٍ: مواعيدُ ربِّكَ لأوليائِه فلا تبديلَ لقولِه[1].

والكلماتُ ترجعُ إلى العباراتِ، أو إلى المُتعلِّقاتِ منَ الوعدِ والوعيدِ وغيرِهما.

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ أي: لا خُلْفَ في قولِه: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: لا رادَّ لقضائِه، ولا خُلْفَ لوعدِه.

* * *

(١١٦) ـ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: تـمَّتْ كلماتي على المُشركينَ وهم الأكثَرونَ فلا تُطِعْهم.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ نزلَ في قومٍ قالوا: تأكلون ممَّا تقتُلونَ ولا تأكلُونَ ما قتَلَ ربُّكم[2]؟! أي: دينُهم الذي هم عليه ظنٌّ، وليس معهم بيِّنةٌ.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الـخَرْصُ: التَّظنِّي والـحَزْرُ، ثمَّ قيلَ للكذبِ: خَرْصٌ؛ لأنَّه لا يقينَ فيه.

---

(١) ذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (٨/ ٣٨٦)، قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٩٦): «في المراد بهذه الكلمات ثلاثة أقوال: أحدها: أنها القرآن، قاله قتادة. والثاني: أقضيته وعداته. والثالث: وعده ووعيده وثوابه وعقابه.

وفي قوله تعالى: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قولان: أحدهما: صدقاً فيما أخبر، وعدلا فيما قضى وقدر. والثاني: صدقاً فيما وعد وأوعد، وعدلاً فيما أمر ونهى.

وفي قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قولان: أحدهما: لا يقدر المفترون على الزيادة فيها والنقصان منها. والثاني: لا خلف لمواعيده، ولا مغير لحكمه».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٨٦).

(١١٧) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ﴿مَن﴾ بمعنَى: أي؛ أي: ربُّك أعلَمُ أيَّ النّاسِ يَضلُّ عن سبيلِه، فـ﴿مَن﴾ محلُّه النَّصبُ بنزعِ الخافضِ؛ أي: بمَن يضِلُّ، وقُرِئَ: (يُضِلُّ)[١]، والأوَّلُ أحسَنُ؛ لأنَّه قال: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فلو كانَ منَ الإضلالِ لقالَ: وهو أعلَمُ بالـهادينَ.

* * *

(١١٨) ـ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ هذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾، وكان من جملةِ تخييلاتِ الشَّيطانِ أمورٌ في الذَّبائحِ؛ أي: كلوا ممّا ذُكِّيَ على اسمِ الله، والمسلمُ يذبحُ على اسمِ الله سمَّى أو لـم يُسمِّ.

* * *

(١١٩) ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

قـولُه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ يقعُ لكـم في أن لا تأكلُوا ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: الميتةَ والموقوذةَ والمُنخَنِقةَ والمُتردِّيَةَ والنَّطيحةَ وما أكلَ السَّبعُ.

قُرِئَ: ﴿فُصِّلَ﴾ بالضَّمِّ ﴿ما حُرِّمَ﴾ بالضَّمِّ، وقُرِئَ فيهما بالفتحِ، وقُرِئَ في الأوَّلِ بالفتحِ، وفي الثّاني بالضَّمِّ[٢].

---

(١) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٠)، و«المحتسب» (١/ ٢٢٨).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وعاصم ونافع: ﴿وقد فصَّل﴾ بفتح الفاء والصاد، والباقون بضم الفاء وكسر =

﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يَحلُّ لكم تناوُلُ الميتةِ إذا دعَتْكم إليها الضَّرورةُ.

﴿وإنَّ كثيراً ليَضِلُّونَ﴾ بفتحِ الياءِ، وقُرِئَ بضمِّها[1].

﴿بِأَهْوَائِهِم﴾؛ أي: باتِّباعِ أهوائِهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: من غيرِ حكمٍ منَ الشّارعِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: بمَن يُجاوِزُ حدودَ الشَّرعِ.

* * *

(١٢٠) ـ ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ قيلَ: ظاهرُ الإثمِ: الإعلانُ بالزِّنا، وباطِنُه: الاستِسْرارُ به.

وقيلَ: ظاهرُه الزِّنا وباطِنُه المخالَّةُ والمُحادثةُ.

والآيةُ عامّةٌ في كلِّ إثمٍ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾؛ أي: يكتَسِبُونَ مِنَ التُّهمِ والذُّنوبِ، تقولُ: فلانٌ قرَفَني؛ أي: تَهِمَني الذي أتهمُه في هذه الجنايةِ.

* * *

= الصاد، وقرأ نافع وحفص: ﴿ما حَرَّم﴾ بفتح الحاء والراء، والباقون بضم الحاء وكسر الراء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٦ ـ ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(١) قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(١٢١) ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ممَّا لـم يُذَكَّ، والعربُ تُعبِّرُ عن الذَّكاةِ بالبسملةِ، ولا خلافَ أنَّه لو تركَ التَّسميةَ ناسياً حلَّتِ الذَّبيحةُ، فخرجتِ الآيةُ عن أن تكونَ نصًّا.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾؛ أي: والأكلُ منه؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ يدلُّ على الأكلِ.

وقيلَ: أي: وإنَّ الذَّبحَ لغيرِ الله لَفِسقٌ، والفِسقُ: الخروجُ عن الطّاعةِ.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يعني: قولَ المجوسِ لمُشركي العربِ: إنَّهم يأكلون ممَّا قتلُوا ولا يأكلون ممّا قتَلَ الله، وقولَ الكفّارِ فيما يُحلِّلون ويُحرِّمونَ، وقولَهم: إنّا نذبحُ للصَّنمِ لأنَّه يُقرِّبُنا إلى الله زُلفَى.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: في استحلالِ الميتةِ وتحكُّماتِهم ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وأَحَدٌ لا يُسمِّي مُستحِلَّ متروكِ التَّسميةِ مُشركاً، فعُلِمَ أنَّ ما لـم يُذكرِ اسمُ الله عليه هو الميتةُ وما ذُبِحَ للأصنامِ.

وقيلَ: أرادَ بقولِه: ﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ذكرَ القلبِ، فالتَّذكيةُ ينبغي أن تقعَ ممَّن يذبحُ لله، كالمسلمين أو أهلِ الكتابِ، ولا يضرُّ تركُ التَّسميةِ باللِّسانِ.

وقيلَ: إنَّما هو ذِكرُ اللِّسانِ، ولكنَّه نهيُ تنزيهٍ، ويرجعُ قولُه: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ إلى أكلِ الميتةِ والذَّبحِ للصَّنمِ؛ لأنَّ هذه الآياتِ تشتملُ على جميعِ هذه الأشياءِ.

* * *

(١٢٢) - ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾؛ أي: لا تُطِعْ هؤلاءِ الكفّارَ وأقبِلْ على المُؤمنينَ، فليس مَن أحيَيْناه بنورِ الإيمانِ كمَن هو في ظلماتِ الكفرِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في حمزةَ بنِ عبد المُطَّلبِ وأبي جهلٍ؛ لأنَّ أبا جهلٍ رمَى رسولَ الله ﷺ بفَرْثٍ وحمزةُ لـم يُؤمِنْ بعدُ، فأُخبِرَ حمزةُ بذلك وهو راجعٌ منَ الصَّيدِ وبيدِه قوسٌ، فأقبلَ مُغضَباً حتَّى علا أبا جهلٍ بالقوسِ وهو يتضرَّعُ إليه ويقولُ: يا أبا يعلَى، أما ترَى ما جاءَ به؟ سفَّه عُقولَنا، وسبَّ آلهتَنا، وخالفَ آباءَنا، فقال حمزةُ: ومَن أسفَهُ منكم؟ تعبُدون الحجارةَ من دونِ الله، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، فنزلَتْ هذه الآيةُ(١).

وقالَ زيدُ بنُ أسلَمَ: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ عُمَرُ ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أبو جهلٍ(٢).

وقيلَ: نزلَتِ الآيةُ في النَّبيِّ عليه السَّلامُ وأبي جهلٍ، فإنَّ أبا جهلٍ قالَ: زاحمَتْنا بنو عبدِ منافٍ في الشَّرفِ حتَّى إذا صِرْنا كفَرَسَي رهانٍ قالوا: منّا نبيٌّ يُوحَى إليه، والله

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢٤).
وروى نحو هذه القصة لكن دون ذكر النزول الطبراني في «الكبير» (٢٩٢٥) عن محمد بن كعب، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٣٣): رواه الطبراني مرسلاً، ورجاله رجال الصحيح. وفيه تكنية حمزة رضي الله عنه بأبي عمارة، وهو المعروف من كنيته، ولم يذكر الحافظ في ترجمته في «الإصابة» (٢/ ١٠٥) غيرها.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨١)، أن رسول الله ﷺ دعا فقال: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب»، قال: وكانا ميتين في ضلالتهما، فأحيا الله عمر بالإسلام، وأعزه، وأقر أبا جهل في ضلالته وموته، قال: ففيهما أنزلت هذه الآية.

لا نُؤمِنُ إلّا أن يأتيَنا وحيٌ كما يأتيه، وقد أخبرَ الله عنه بهذا في قولِه: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤](١).

والأصحُّ أنَّها عامَّةٌ في كلِّ مؤمنٍ وكافرٍ.

قُرِئَ ﴿مَيْتًا﴾ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ(٢).

﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: الهدى والإيمانَ، يمشي به مع المسلمين.

وقيلَ: النُّورُ نورُ الحكمةِ.

وقيلَ: النُّورُ هاهُنا: القرآنُ.

وقيلَ: هو المذكورُ في قولِه: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، وقولِه: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: كمَن هو في الظُّلماتِ، فـ(مثل) زائدٌ، تقولُ: أنا أُكرِمُ مِثْلَكَ؛ أي: أنا أُكرِمُكَ، وقالَ الله: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ [المائدة: ٩٥]؛ أي: فجزاءُ ما قتَلَ، وقالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي: كهو، والمِثْلُ والمَثَلُ واحدٌ.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: زيَّنَ لهم الشَّيطانُ عبادةَ الأصنامِ وأوهمَهم أنَّهم أفضلُ منَ المسلمينَ.

* * *

(١) ذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ٥٨٧)، ورواه ابن إسحاق عن الزهري كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣١٦) دون ذكر النزول، ونحوه في «المعجم الكبير» للطبراني (٢٤/ ٣٤٧) عن عروة في قصة رؤيا عاتكة رضي الله عنها دون ذكر النزول أيضاً.

(٢) قرأ نافع بتشديد الياء، والباقون بتخفيفها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(١٢٣) ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾؛ أي: كما وسَّعْنا على أكابرِ قُريشٍ فتوَهَّموا أنَّهم أفضلُ منَ المسلمينَ فعَلْنا ذلك في كلِّ قريةٍ غيرِ مكّةَ منَ الأممِ السّالفةِ، فعَصَوا وطَغَوا، والأكابرُ: جمعُ الأكبرِ، وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: جعَلْنا مُجرِميها أكابرَ.

﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ قال مجاهدٌ: كانُوا أجلَسُوا على كلِّ عقبةٍ أربعةً يُنفِّرونَ النّاسَ عن محمَّدٍ عليه السَّلامُ[1].

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: وبالُ مكرِهم عائدٌ إليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ في الحالِ ـ لفَرْطِ جهلِهم ـ أنَّ وبالَ كُفرِهم يعودُ إليهم.

* * *

(١٢٤) ـ ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ ﴾ بيَّنَ شيئاً آخرَ من جهلِهم، وهو أنَّهم قالوا: لا نُؤمِنُ حتَّى نكونَ نحنُ أنبياءَ، ونظيرُه: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]، والكنايةُ في ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ ترجعُ إلى الأكابرِ الذين جرَى ذِكرُهم.

وقيلَ: لـم يطلُبوا النُّبوّةَ، ولكنْ قالوا: لا نُصدِّقُكَ حتَّى يأتيَنا جبريلُ والملائكةُ يُخبِرونَنا بصِدقِكَ، **والصَّحيحُ الأوَّلُ**؛ لأنَّه قال:

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٨/ ٤١١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٧٤).

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، والعاملُ في ﴿حَيۡثُ﴾ فعلٌ يدُلُّ عليه ﴿أَعۡلَمُ﴾، و﴿حَيۡثُ﴾ ليس ظرفاً هاهنا، بل هو اسمٌ مُنتصِبٌ انتصابَ المفعولِ به؛ أي: الله أعلَمُ أهلَ الرِّسالةِ.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذُلٌّ يُصغِّرُ إلى المرءِ نفسَه أيضاً، وأصلُه منَ الصِّغَرِ دونَ الكِبَرِ.

وقال اللَّيثُ: هو منَ الصُّغرِ، وهو الرِّضا بالذُّلِّ، يُقالُ منه: صَغَرَ يصْغُرُ، مثل: نصَرَ ينصُرُ، وصَغِرَ يصْغَرُ، مثل حمِدَ يحمَدُ، صَغَراً وصَغَاراً، فأمَّا الصِّغَرُ الذي هو ضِدُّ الكِبَرِ فيُقالُ منه: صَغُرَ يصْغُرُ صِغَراً فهو صغيرٌ، مثل: عظُمَ يعظُمُ[1].

وهذا لا يمنَعُنا من أن نقولَ: أصلُ الصُّغرِ: الصِّغَرُ منَ الذُّلِّ عندَ الله؛ أي: سيُصيبُهم صَغارٌ ثابتٌ عند الله لهم.

وقيلَ: أي: صغارٌ من عندِ الله، فلمَّا حُذِفَ «من» انتَصَبَ ﴿عِندَ﴾ كالظَّرفِ.

وقيلَ: أي: سيُصيبُهم الصَّغارُ يومَ القيامةِ.

* * *

(١٢٥) ـ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾؛ أي: تمَّتْ كلمةُ ربِّكَ فمَن يُرِدِ الله أن يهديَه ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ يُضيِّقْ صدرَه، والله أعلَمُ حيثُ يجعلُ رسالاتِه، فمَن يُرِدْ أن يهديَه يسَّرَ له اتِّباعَ محمَّدٍ، ومَن لا فلا.

(١) انظر: «العين» (٤/ ٣٧٢)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ٦٠)، و«البسيط» (٨/ ٤١٥).

وشرحُ الصَّدرِ: توسيعُه وفتحُه وإيضاحُ الهدى له، وقيلَ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: كيفَ يشرحُ الله صدرَه؟ قالَ: «بنُورٍ يقذِفُه فيه حتَّى ينفَسِحَ وينشَرِحَ»، فقيلَ: وما أمارَتُه؟ قالَ: «الإنابةُ إلى دارِ الخلودِ، والتَّجافي عن دارِ الغُرورِ، والاستعدادُ قبلَ نُزولِ الموتِ»[١].

وحقيقةُ شرحِ الصَّدرِ بالإسلامِ بخلقِ الهدايةِ في القلبِ، ويضيقُ الصَّدرُ بخَلقِ الكفرِ في قلبِ الكافرِ.

﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ وبالتَّخفيفِ[٢]، مثلُ «مَيِّتٌ ومَيْتٌ».

﴿حَرَجًا﴾ قرأ نافعٌ بكسرِ الرّاءِ، والباقونَ بفتحِها[٣].

والحرَجُ والحرِجُ الضَّيِّقُ، مثلُ: الوحَدُ والوَحِدُ، والدَّنَفُ والدَّنِفُ، قالَه الفرّاءُ[٤].

وقالَ الزَّجّاجُ: الحرَجُ أضيَقُ الضِّيقِ، فإذا قيلَ: «رجلٌ حَرَجُ الصَّدرِ» فالمعنى: ذو حَرَجٍ في صدرِه، وإذا قيلَ: «حرِجٌ» فهو فاعلٌ.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٤٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٦٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال الذهبي: «عدي بن الفضل ساقط».
ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٨٥٢)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٩١٨ ـ تفسير)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٢٦) عن عبد الله بن المسور عن النبي ﷺ مرسلاً.
وذكر له الدارقطني في «علله» (٥/ ١٨٩) طرقاً ثم قال: وكلها وهم، والصواب عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ، وعبد الله بن المسور هذا متروك.

(٢) قرأ ابن كثير بالتخفيف، وباقي السبعة بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(٣) بكسر الراء نافع وأبو بكر، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٥٤)، و«البسيط» للواحدي (٨/ ٤٢٢).

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ، وقُرِئَ: ﴿يصّاعَدُ﴾ بالتَّشديدِ[1] بمعنى: يتصاعدُ؛ أي: يتكلَّفُ ما يثقُلُ عليه فلا يُطيقُه كما لا يستطيعُ صُعودَ السَّماءِ.

وقيلَ: أي: كأنَّ قلبَه يصَّعَّدُ إلى السَّماءِ نُبُوًّا عن الإسلامِ.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾؛ أي: جعَلَ الرِّجسَ عليكم كجَعْلِه ضِيقَ الصَّدرِ في أجسادِهم.

قال ابنُ عبَّاسٍ: الرِّجسُ: الشَّيطانُ[2]؛ أي: يُسلِّطُه عليهم.

وقيلَ: الرِّجسُ: العذابُ واللَّعنُ[3].

* * *

(١٢٦) ـ ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ يعني: التَّوحيدَ، وقيلَ: القرآن.

وقيلَ: أي: هذا الذي أنتَ عليه يا محمَّدُ دينُ ربِّكَ مُستقيماً.

وهو نصبٌ على الحالِ، تقولُ: «هذا زيدٌ قائماً»؛ أي: أُشيرُ إليه في حالِ قيامِه.

---

(١) قرأ ابن كثير: ﴿يَصْعَدُ﴾ بالتخفيف، وأبو بكر: ﴿يَصَّاعَدُ﴾ بتشديد الصَّاد وألف بعدها، والباقون: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بتشديد الصَّاد والعين من غير ألف. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٥٢).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٩٠)، وفيه: «والرجس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة».

والصِّراطُ المُستقيمُ: ما يُؤدِّي سالكَه إلى الجنّةِ.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ قيل: أرادَ أصحابَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ.

* * *

(١٢٧) ـ ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ أي: للمُتذكِّرين، ودارُ السَّلامِ: الجنّةُ، والسَّلامُ من أسماءِ الله، فالجنّةُ دارُ الله، كما يُقالُ: الكعبةُ بيتُ الله.

وقيلَ: سُمِّيتِ الجنّةُ دارَ السَّلامِ؛ لأنَّها دارُ السَّلامةِ الدّائمةِ، فالسَّلامُ بمعنى السَّلامةِ كاللَّذاذِ واللَّذاذةِ.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: مضمونةٌ لهم عند ربِّهم يُوصِلُهم إليها ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾؛ أي: ناصِرُهم.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ هذا إخبارٌ عن أحوالِ الكفّارِ الذين لم يسلُكوا الطَّريقَ المُستقيمَ، أو: أرادَ لهم دارَ السَّلامِ يوم يحشرُ جميعَ الخلقِ.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: فيُقالُ لهم: يا معشرَ الجنِّ ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾؛ أي: من إغواءِ الإنسِ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

قيلَ: استمتاعُ الإنسِ بالجنِّ: أنَّ مَن سافرَ منهم كان يقولُ إذا أمسَى[١] بوادٍ وخافَ على نفسِه: أعوذُ بسيِّدِ هذا الوادي من سُفَهاءِ قومِه، فيبيتُ آمِنًا في ظنِّه، واستمتاعُ الجنِّ بالإنسِ: فخرُ الجنِّ بأنَّ الإنسَ يستعيذُونَ بنا، قال الله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦][٢].

وقيلَ: استمتاعُ الجنِّ بالإنسِ: طاعةُ الإنسِ لهم، واستمتاعُ الإنسِ بالجنِّ: أنَّ الجنَّ زيَّنت لهم الهوى وفعلَ المعاصي.

وقيلَ: استمتاعُهم بالجنِّ: ما كانُوا يُلقُونَ إليهم منَ الأراجيفِ والكَهانةِ.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾؛ أي: استوفَينا آجالَنا في الدُّنيا وفي القبرِ ووافيناكَ نادِمين.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾؛ أي: موضعُ مُقامِكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيلَ: يرجعُ الاستثناءُ إلى النّارِ؛ أي: إلّا ما شاءَ الله من تعذيبِكم بغيرِ النّارِ.

وقال الزَّجّاجُ: يرجعُ إلى يومِ القيامةِ؛ أي: خالدينَ في النّارِ إلّا ما شاءَ الله من مقدارِ حشرِهم من قُبورِهم، ومقدارِ مُدَّتِهم في الحسابِ[٣].

وقال ابنُ عبّاسٍ: استثنَى قوماً قد سبقَ في علمِه أنّهم يُسلِمُونَ[٤]. فـ﴿مَا﴾ بمعنى: (من).

---

(١) في (ف): «مشى».

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (١/ ٥٨٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٢٩١)، و«البسيط» للواحدي (٨/ ٤٤٠).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٤٤٠)، وروى الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٨٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه أن لا ينزلهم جنة ولا نارًا.

وقيلَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ على صفةٍ واحدةٍ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من تجديدِ الخلودِ ونقلِهم إلى صفةٍ أُخرَى منَ العذابِ.

وقيلَ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من كونِهم في الدُّنيا بغيرِ عذابٍ.

* * *

(١٢٩) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا﴾؛ أي: كالذي وصفتُ لكم من استمتاعِ بعضِهم ببعضٍ أجعَلُ بعضَهم أولياءَ بعضٍ، ثمَّ يتبرَّأُ غداً بعضُهم من بعضٍ، ومعنى ﴿نُوَلِّي﴾ على هذا: نجعلُ وليّاً.

وقيلَ: أي: نكِلُ بعضَهم إلى بعضٍ فيما يختارُونَه منَ الكفرِ كما نكِلُهم غداً إلى رؤسائِهم الذين لا يقدرونَ على تخليصِهم منَ العذابِ؛ أي: كما فعَلْنا ذلك بهم في الآخرةِ كذلك نفعلُ بهم في الدُّنيا، وقد قيلَ: في قولِه: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]: نكِلْه إلى ما وكَلَ إليه نفسه.

وقيلَ: أي: كذلك نُسلِّطُ بعضَهم على بعضٍ فيتلاعَنُونَ يومَ القيامةِ، ويتبرَّأُ بعضُهم من بعضٍ.

* * *

(١٣٠) ـ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾؛ أي: يومَ نحشرُهم نقولُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ فيعترِفُونَ بما فيه افتِضاحُهم؟

وقيلَ: ﴿مِنكُمْ﴾؛ أي: منَ الإنسِ، أو: من أحدِكم، كما قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدِهما، وهو الملحُ.

وقيلَ: هذا جائزٌ؛ لأنَّ ذكرَهما سبقَ.

وقيلَ: هو كقولك لجمعٍ منَ العربِ والعجَمِ: ألـم أبعَثْ إليكم رجُلاً منكم؟ وإنَّما أرسَلَ رسولاً منَ العربِ - مثلاً - إليهم.

وقيلَ: ﴿مِنكُمْ﴾؛ أي: مثلُكم في التَّكليفِ والعقلِ.

وقيلَ: أي: من أهلِ الأرضِ لا منَ الملائكةِ.

وقيلَ: استمعَ إلى الأنبياءِ قومٌ منَ الجنِّ ثمَّ عادوا إلى قومِهم وأخبرُوهم، فيُقالُ لهم: «رسُلُ الله» وإنْ لـم ينُصَّ على إرسالِـهم.

وقال الضَّحّاكُ: أرسلَ الله إلى الجنِّ رسُلاً منهم كما أرسلَ إلى الإنسِ رسُلاً منهم(١).

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾؛ أي: شهِدْنا أنَّهم بلَّغُوا.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ظنُّوا أنَّها تدومُ وخافُوا زوالَـها عنهم إن آمَنُوا.

---

(١) رواه بمعناه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٦٠)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٢١٦). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿مِنكُمْ﴾ أي: من جملتكم، والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف.

وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر.

وحكى ابن جرير، عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلاً، واحتج بهذه الآية الكريمة، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرج من الملح لا من الحلو.

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ أي: اعترَفُوا بكُفرِهم.

قال مُقاتلٌ: هذا حينَ شهِدَتْ عليهم الجوارحُ بالشِّركِ[1].

* * *

(١٣١) ـ ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ﴾؛ أي: إنَّما فعلْنا بهم هذا لأنِّي لـم أكُنْ لأُهلِكَ القُرى من غيرِ قطعِ العُذرِ بإرسالِ الرُّسلِ إليهم، و﴿أَن﴾ هي المُخفَّفةُ منَ الثَّقيلةِ، ويُقدَّرُ معها الخافضُ وإضمارُ الهاءِ؛ أي: لأنَّه لـم يكُنْ.

﴿بِظُلۡمٍ﴾؛ أي: لا يُهلِكُهم بذنبِهم ما لـم يبعَثْ إليهم الرُّسلَ، ولو أهلَكَهم قبلَ بَعثِه الرُّسلَ فله أن يفعلَ ما يُريدُ، لا بظُلمٍ منه، ولكنَّه يكونُ في صورةِ الظُّلمِ في ظنِّ أهلِ العُرفِ.

وقيلَ: أي: لو أهلَكْناهم وهم غافِلُونَ من غيرِ بعثةِ رُسلٍ إليهم ما كانَ ذلك ظُلماً؛ لأنَّ تصرُّفَنا في مُلكِنا.

* * *

(١٣٢) ـ ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

قولُـه: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾؛ أي: للمُطيعيـنَ درجـاتٌ فـي الثَّوابِ، وللعُصـاةِ درجاتٌ فـي العقابِ.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ عن عملِهم بل يُجازيهم، والغفلةُ: أن يذهبَ الشَّيءُ عنك لاشتِغالِكَ بغيرِه.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٢/ ٣٦).

﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قُرِئَ بالياءِ وبالتّاءِ[1].

* * *

(١٣٣) - ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾؛ أي: لا حاجةَ به إلى أعمالِ عبادِه، والغنيُّ عن الشَّيءِ هو الذي يستَوي عندَه عدمُ ذلك الشيء[2] ووجودُه.

﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾؛ أي: بأوليائِه وأهلِ طاعتِه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإماتةِ والاستِئصالِ بالعذابِ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾؛ أي: يُنشِئْ من بعدِكم خلقًا آخرَ ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ يعني: آباءَهم الماضينَ، ولـم يقُلْ: «مَن يشاءُ» لأنَّه أرادَ: نجعلُ فيها مَن يخلُفُكم منَ النّاسِ أو غيرِهم.

﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾؛ أي: مِن نسلِ قومٍ يُخرِجُهم من أصلابِهم.

وقيلَ: أرادَ: بعد ذُرِّيَّةِ قومٍ آخَرينَ، وهذا كقولك: «أعطيتُكَ من دينارِكَ ثوبًا»؛ أي: مكانَ دينارِك، أو: بدَلَ دينارِك، والمعنى: أنَّهم أُنشِئُوا مكانَ قومٍ آخَرين؛ لأنَّهم كانوا من أصلابِهم.

* * *

(١٣٤) - ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾؛ أي: ما توعَّدناكُم من نصرِكم ومنَ القيامةِ،

---

(١) قرأ ابن عامر بالتاء، وباقي السبعة بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(٢) «الشيء» من (أ).

أو: توعَّدناكُم به منَ العذابِ، ﴿لَأَتٍ﴾ لا محالةَ، فيجوزُ أن يكونَ ﴿تُوعَدُونَ﴾ منَ الوعدِ، ويجوزُ أن يكونَ منَ الإيعادِ.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: فائِتين، يُقالُ: أعجَزَني فلانٌ؛ أي: فاتَني وغلَبَني.

* * *

(١٣٥) ـ ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: اثبُتُوا على ما أنتم عليه؛ فإنِّي أثبُتُ على ما أنا عليه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَن له العاقبةُ المحمودةُ، وهذا تهديدٌ؛ أي: اعملُوا على قَدْرِ تمكُّنِكُم في الدُّنيا، فإنَّكم لن تضُرُّونا، قُرِئَ: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ و﴿مكاناتِكُم﴾[1].

﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾؛ أي: على مكانَتي، فحُذِفَ لدلالةِ الحالِ عليه.

﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ﴾ نُصب بوقوعِ العلمِ عليه، ويجوزُ أن يكونَ رفعاً؛ أي: تعلَمُونَ أيُّنا تكونُ له عاقبةُ الدّارِ، كقولِه: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ [الكهف: ١٢].

﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: مَن له النَّصرُ في دارِ الإسلامِ، ومَن له وراثةُ الأرضِ، ومَن[2] له الدّارُ الآخرةُ؛ أي: الجنّةُ.

قُرِئَ ﴿تَكُونُ﴾ بالتّاءِ وبالياءِ[3].

* * *

(١) قرأ أبو بكر عن عاصم بالجمع في كل القرآن. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

(٢) في (أ): «أو من».

(٣) قرأ حمزة والكسائي بالياء، وباقي السبعة بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

(١٣٦) ـ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ ذكرَ أنَّ من جملةِ ما صارُوا إليه بوحيِ الشَّيطانِ وتزيينِه أنَّهم صرَفُوا طائفةً من مالِـهم إلى الله بزَعمِهم، وطائفةً إلى الأصنامِ، ثمَّ فضَّلُوا أصنامَهم عليه.

قال ابنُ عبّاسٍ: كانُوا يجعلونَ من حَرْثِهم وثمارِهم وأنعامِهم نصيباً لله، وللأصنامِ نصيباً، فما كانَ للصَّنمِ أُنفِقَ عليه وعلى سدَنَتِه، وما كانَ لله أُطعِمَ الضِّيفانَ والمساكينَ، ثمَّ ما سقطَ مما جعلُوه للهِ في نصيبِ الأصنام تَركوه وقالوا: إنَّ اللهَ غنيٌّ عن هذا، وإنْ سَقَط مما جعلوه للأصنامِ في نصيبِ الله التقَطُوه ورَدُّوه إلى نصيبِ الصَّنَمِ، وقالوا: إنَّه فقيرٌ[1].

والزَّعمُ: الكذِبُ، وكانوا يكذِبُونَ فيما يقولونَ من هذه الأشياءِ؛ لأنَّه لـم ينزِلْ بشيءٍ من ذلك شرعٌ.

وقال الحسَنُ: كانُوا إذا هلَكَ ما جعلوه للصَّنمِ أخذُوا بدلَه مـمَّا لله، ولا يفعَلُون مثلَ ذلك فيما لله[2].

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلى المساكينِ.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساءَ الحكمُ حكمُهم.

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٩٠ ـ ١٣٩١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩٧١١).

(٢) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٣/ ١١)، والواحدي في «البسيط» (٨/ ٤٥٥)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٨٠).

(١٣٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: وكالذي زيَّنَ الشَّيطانُ لهؤلاءِ من تحريمِ هذه الأنعامِ والحرثِ زيَّنَ لكثيرٍ منهم شُركاؤُهم قتلَ أولادِهم، فالشُّركاءُ في الآيةِ الأولى الأصنامُ، وفي هذه الآيةِ الشَّياطينُ، وأشارَ بهذا إلى الوأدِ لخوفِ الفقرِ، وسمَّى الشَّياطينَ شُركاءَ لأنَّهم أطاعُوهم في معصيةِ الله فأشرَكُوهُم مع الله في وُجوبِ طاعتِهم.

وقيلَ: كانَتْ سدَنَةُ الأصنامِ يُزيِّنونَ للكفَّارِ قتلَ الأولادِ، وكانَ الرَّجلُ منهم يحلِفُ ويقولُ: لَئِنْ وُلِدَ له كذا غلاماً لينحرَنَّه، كما حلَفَ عبدُ المُطَّلبِ على ابنِه عبدِ الله، فالشُّركاءُ: السَّدَنةُ[1].

﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾؛ أي: قتلَهم أولادَهم كقولِه: ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]؛ أي: من دُعائِه الخيرَ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿زُيِّنَ﴾ بضمِّ الزّاي، ﴿قَتْلُ﴾ بالرَّفعِ، ﴿أولادَهم﴾ بالنَّصبِ، ﴿شُرَكائِهم﴾ بالجرِّ[2]؛ أي: زُيِّنَ لكثيرٍ منهم قتلُ شركائِهم أولادَهم، ففُصِلَ بينَ المُضافِ والمُضافِ إليه بالمفعولِ به.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٤) عن الكلبي، وذكر نحوه الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٣٥٧).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

وقـال قـومٌ: إنَّـه قبيـحٌ[1]، وهـذا مُحـالٌ؛ فإنَّـه إذا ثبَـتَ بالتَّواتُرِ عـنِ النَّبـيِّ عليه السَّـلامُ فهو الفصيـحُ لا القبيحُ، وقـد ورَدَ ذلك في كلامِ العربِ، فـلا يجوزُ: «ضرَبَ غـلامُ فـي السُّـوقِ زيـدٍ»؛ لأنَّـه فصـلٌ بأجنَبـيٍّ غيـرِ مُتعلِّـقٍ بكلَيهمـا أو بأحدِهمـا، والفصـلُ فـي قـراءةِ ابنِ عامـرٍ مُتعلِّـقٌ بالمُضـافِ والمُضـافِ إليـه في المعنَـى، فهو كقـولِ القائـلِ: «همـا أَخَـوا في الحـربِ مَن لا أخا لـه»، فإنَّه فصـلٌ غيرُ أجنَبـيٍّ؛ لأنَّ الإعانـةَ يُحتـاجُ إليها فـي الحربِ.

وفي مُصحفِ عثمانَ: (شُرَكايِهم) بالياءِ[2]، وهذا يدُلُّ على قراءةِ ابنِ عامرٍ.

وأُضيفَ القتلُ في هذه القراءةِ إلى الشُّركاءِ لأنَّ الشُّركاءَ هم الذين زيَّنُوا ذلك لهم ودَعَوا إليه.

وقيلَ: الشُّركاءُ هم الأصنامُ كما في الآيةِ الأولى؛ أي: إنَّ حبَّهم لأصنامِهم حملَهم على أن يُسمُّوا لها بزَعمِهم قِسْماً مع الله، وعلى أن نذَرُوا ذبحَ الولدِ قُرباناً

---

(١) وقـد تعقـب العلمـاء علـى مـن ردهـا أو ضعفهـا بـردود عـدَّة، انظـر منهـا مـا كتبـه أبـو حيـان في «البحـر المحيـط» (٩/ ٤٢٣)، وابـن المنيـر «الانتصـاف علـى الكشـاف» (٢/ ٦٩)، والآلوسـي «روح المعانـي» (٨/ ٤٥١).
وقال ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية: واعتقاد الضَّعف في مثل تلك القراءة مِن ضعف الاعتقاد، مبناه عدمُ الاعتماد على القراءة والطَّعنُ في الإسناد، ولا يخفى ما فيه من الفساد.
أما الرد العلمي فسيأتي بعض ذلك في كلام المصنف.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٥٧)، و«الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه (ص: ١٥١)، و«المقنع في رسم مصاحف الأمصار» (ص: ١٠٧).

للصَّنمِ، وإنَّما قالَ: ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأنَّ بني كنانة لم يكونُوا يرونَ وَأْدَ البناتِ.

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ الإرْداءُ: الإهلاكُ ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾؛ أي: ليُدخِلُوا عليهم الشَّكَّ في دينِهم، وكانوا على دينِ إسماعيلَ، وما كانَ فيه قتلُ الولدِ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ بيَّنَ أنَّ كُفرَهم بمشيئةِ الله ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: وقولَهم: إنَّ لله شريكاً.

* * *

(١٣٨) ـ ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾ ذكرَ نوعاً آخرَ من جهلِهم، وهو قولُهم: هذه أنعامٌ وحرثٌ ﴿حِجْرٌ﴾؛ أي: حرامٌ، وأصلُه: المَنعُ، ويُسمَّى العقلُ حِجْراً لمنعِه عنِ القبائحِ، وفلانٌ في حِجْرِ القاضي؛ أي: منعِه؛ أي: حرَّمُوا أنعاماً وحَرْثاً وجعلوهُما لأصنامِهم وقالوا: لا نُطعِمُهما إلّا مَن نشاءُ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ هذا تَحكُّمٌ لم يرِدْ به شرعٌ، ولهذا قال: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾.

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعني: ما سيَّبُوا لآلهتِهم.

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ أي: يقتُلونَها لآلهتِهم وَقْذاً أو خَنْقاً.

﴿ٱفْتِرَآءً﴾؛ أي: للافتراءِ على الله؛ لأنَّهم كانُوا يقولونَ: أمَرَنا الله بهذا، فهو نصبٌ لأنَّه مفعولٌ له.

وقيلَ: أي: يفترُونَ افتراءً، فانتِصابُه لكونِه مصدراً.

وقيلَ: أي: لا يركبُونَها حتى يُذكرَ اسمُ الله عليها عند رُكوبِها.

* * *

(١٣٩) ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ هذا نوعٌ آخرُ من جهلِهم، قيلَ: أرادَ بما في البطونِ: الألبانَ.

وقيلَ: الأجِنَّةَ، قالوا: إنَّها لذُكورِنا، ثمَّ إنْ ماتَ منها شيءٌ أكلَه الرِّجالُ والنِّساءُ.

﴿خَالِصَةٌ﴾ قيلَ: الهاءُ للمُبالغةِ، مثل: «رجلٌ علَّامةٌ ونسَّابةٌ وداهيةٌ وطاغيةٌ».

وقيلَ: الخالصةُ مصدرٌ كالعاقبةِ والعافيةِ، أُنِّثَتْ لأنَّها أُجرِيَتْ مُجرَى المصادرِ التي تكونُ بلفظِ التَّأنيثِ إخباراً عن الأسماءِ المذكورةِ، كقولِهم: المطرُ رحمةٌ، وهذا الأمرُ عافيةٌ، وفلانٌ خالِصَتي وخُلَّتي، كما تقولُ: «فلانةُ خُلَّتي»، فيستَوي المُذكَّرُ والمُؤنَّثُ.

وقال الفرَّاءُ: تأنيثُ ﴿خَالِصَةٌ﴾ لتأنيثِ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لأنَّ ما في بُطونِها مثلُها[١]؛ أي: الأنعامُ التي في بُطونِ الأنعامِ خالصةٌ لذُكورِنا.

وقيلَ: أي: جماعةُ ما في البطونِ خالصةٌ.

وقيلَ: قولُه: ﴿مَا﴾ يرجعُ إلى الألبانِ أو الأجنَّةِ، فجازَ التَّأنيثُ على المعنى

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٥٨)، و«البسيط» للواحدي (٨/ ٤٦٥).

والتَّذكيرُ على اللَّفظِ، ولهذا قالَ: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾؛ أي: نسائِنا.

وقيلَ: أرادَ الزَّوجاتِ منَ النِّساءِ.

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾؛ أي: إنْ يكُنْ ما في البُطونِ ميتةً.

وقُرِئَ: ﴿ميتةٌ﴾ بالرَّفعِ؛ أي: وإنْ يكُنْ لهم ميتةٌ، فـ(كان) بمعنَى الوُقوعِ.

وقُرِئَ: ﴿يَكُن﴾ بالياءِ وبالتّاءِ[1].

﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾؛ أي: الرِّجالُ والنِّساءُ، وإنَّما قالَ: ﴿فِيهِ﴾؛ لأنَّ الميتةَ غيرُ مختصّةٍ بالأُنثى، وأيضاً المُرادُ بالميتةِ الحيوانُ.

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾؛ أي: سيُعذِّبُهم الله بما[2] حرَّمُوا وأحَلُّوا وافترَوا على الله تعالى على طريقِ التَّحكُّمِ.

* * *

(١٤٠) ـ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ﴾؛ أي: وَأَدُوا البناتِ أحياءً ﴿سَفَهًۢا﴾؛ أي: للسَّفَهِ، وهو مصدرٌ؛ أي: سفِهُوا سَفَهاً.

﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ منَ السّائبةِ والبَحيرةِ وغيرِهما ﴿ٱفْتِرَآءً﴾؛ أي: للافتراءِ، أو هو مصدرٌ.

---

(١) قرأ ابن عامر: ﴿وإن تكن﴾ بالتاء ﴿ميتةٌ﴾ بالرفع، وابن كثير: ﴿يكن﴾ بالياء و﴿ميتةٌ﴾ بالرفع، وأبو بكر عن عاصم: ﴿تكن﴾ بالتاء كابن عامر ﴿ميتةً﴾ بالنصب، وباقي السبعة: ﴿يكن﴾ بالياء ﴿ميتةً﴾ بالنصب. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

(٢) في (أ): «كما».

﴿قَـتَلُوٓا۟﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ للمُبالغةِ، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ(١).

* * *

(١٤١) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

قولُـه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾؛ أي: افتَـروا علـى الله وهـو خالـقُ الأشـياءِ، وأنَّ الله جعَلَ هذه الأشـياءَ لهـم أرزاقاً، فهلّا أخَذُوا بذلك ولـم يتحكَّمُوا بتحريـمِ بعضِها.

﴿أَنشَأَ﴾: أبدَعَ وأظهرَ، ونشأ الشَّيءُ ينشَأُ؛ أي: ظهَرَ.

﴿جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾ من عرَشْتُه عَرْشاً، وعرَّشتُه تعريشاً؛ أي: عطَفْتُ العيدانَ التي تُرسَلُ عليها قُضبانُ الكَرْمِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: المعروشاتُ: ما انبَسَطَ على وجهِ الأرضِ وانتشرَ كالكُرومِ والقَرْعِ والبِطِّيخِ، وغيرُ المعروشاتِ: ما قامَ على ساقٍ كالنَّخلِ والزَّرعِ والأشجارِ(٢).

وقيلَ: المعروشاتُ: المُثمِرةُ، وغيرُ المعروشاتِ: ما لا يُثمِرُ.

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر بالتشديد وباقي السبعة بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧١)، و«التيسير» (ص: ٩٣).

(٢) ذكره بهذا اللفظ عن ابن عباس الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٣٣)، والواحدي في «البسيط» (٨/ ٤٧٢).

وروى عنه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٩٣) أنه قال: ﴿مَّعْرُوشَـٰتٍ﴾: ما عرش الناس، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾: ما خرج في البر والجبال من الثمرات.

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ الزَّرعُ: جميعُ الحبوبِ التي تُقتاتُ ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾؛ أي: لكلِّ شيءٍ طعمٌ ليس للآخرِ، والأُكُلُ: ما أُكِلَ؛ يعني: ثمرَ النَّخلِ والزَّرعِ.

وقد بيَّنَ أنَّه خلقَ النَّخلَ والزَّرعَ مُختلفاً أُكُلُه؛ أي: في حالِ اختلافِ أُكُلِه، وهذا لا يدُلُّ على أنَّه غيرُ مُنشِئٍ لهما فيما تقدَّمَ؛ لأنَّه دلَّ في مواضعَ على أنَّه خلقَ جميعَ الأشياءِ.

ويجوزُ أن يُقالَ: لـمَّا أنشأَه كان مُختلفاً أُكُلُه، على معنى: أنَّه لو كانَ له أُكُلٌ لكانَ مُختلِفاً أُكُلُه.

ولـم يقُلْ: «أكُلُهما» لأنَّه اكتَفَى بإعادةِ الذِّكرِ على أحدِهما كقولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]؛ أي: إليهما.

وقيـلَ: ﴿أُكُلُهُ﴾ يرجـعُ إلـى النَّخـلِ؛ أي: منـه الحامـضُ والحلـوُ والجيِّدُ والرَّديءُ.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾؛ أي: ورَقُ الزَّيتونِ يُشبِهُ ورقَ الرُّمّانِ في اشتمالِه على جمعِ الغُصنِ، وفي حجمِ الورقِ، ولا يتشابَهُ الرُّمّانُ والزَّيتونُ في الثَّمرةِ وطعمِه.

وقيلَ: يُريدُ التَّشابُهَ وعدمَ التَّشابُهِ في كلِّ جنسٍ منهما، فإنَّ الرُّمّانَ يُشبِهُ بعضُه بعضاً في اللَّونِ والخِلقةِ، ثمَّ يختلفُ الطَّعمُ، وكذلك الزَّيتونُ.

﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ﴾ هذا أمرُ إباحةٍ.

﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾؛ أي: يومَ حَصْدِه، يُقالُ: حَصادٌ وحِصادٌ، وهو مثلُ: جَذاذٌ وجِذاذٌ، وقَطافٌ وقِطافٌ، يعني: العُشرَ ونصفَ العُشرِ، وإنَّما يلزمُ الإخراجُ يومَ التَّجفيفِ والتَّنقيةِ، فهو المعنيُّ بيومِ الحصادِ.

وقيلَ: هذا حقٌّ سِوَى الزَّكاةِ أمرَ الله به نَدْباً.

وقيلَ: لقاطُ السُّنبلةِ. وقيلَ: الضِّغْثُ.

وقال قومٌ: كانَ هذا قبلَ وُجوبِ الزَّكاةِ، فلما فُرِضَتْ نُسِخَ[1].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾ أي: لا تُجاوِزُوا ما حُدَّ لكم.

قيلَ: جَذَّ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ خمسَ مئةِ نخلةٍ وقسَّمَها في يومٍ واحدٍ، ولـم يَدْخُلْ منها شيءٌ إلى منزلِه، فأنزَلَ الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾[2].

وقيلَ: لا تُسرِفُوا؛ أي: لا تمنَعُوا الصَّدقةَ، ولا تُجاوِزُوا الحدَّ في النَّخلِ.

* * *

(١٤٢) - ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ الـحَمُولةُ: ما أطاقَ الحملَ والعملَ.

ثمَّ؛ قيلَ: يختصُّ اللَّفظُ بالإبلِ.

وقال أبو زيدٍ: يَشْمَلُ كلَّ ما حَمَلَ من بعيرٍ وغيرِه[3].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠٤٧٢)، و(١٠٤٨٧)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه، وفي رواية أخرى عنه أنه فسر الحق هنا بالعشر ونصف العشر ولم يذكر النسخ، رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٣٩٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦١٥) عن ابن جريج، وذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٤٨١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (٨/ ٤٨٤)، ثم قال: «وأنكر أبو الهيثم ما قاله أبو زيد، وقال: الحمولة من الإبل التي تحمل الأحمال على ظهرها، فأما الحُمر والبغال فلا تدخل في الحمولة».

﴿وَفَرۡشٗا﴾ قيلَ: الفَرْشُ: صِغارُ الإبلِ.

وقيلَ: صِغارُ الأنعامِ.

وقيلَ: الفَرْشُ: الغَنَمُ.

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أرادَ الأكلَ منَ الحلالِ.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ أي: ما زيَّنَ الشَّيطانُ.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: بيِّنُ العَداوةِ؛ لأنَّه أخرجَ آدمَ منَ الجنَّةِ.

* * *

(١٤٣) ـ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ هذا بدلٌ من قولِه: ﴿حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا﴾.

وقيلَ: أي: كلُوا ممَّا رزَقَكُم الله ثمانيةَ أزواجٍ، ويُقالُ للذَّكرِ: زوجٌ، وللأُنثى: زوجٌ، ويقعُ لفظُ الزَّوجِ على الواحدِ والاثنَينِ.

﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ أي: الذَّكرِ والأُنثى، والضَّأنُ: ذواتُ الصُّوفِ منَ الغَنَمِ، وهي جمعُ ضائنٍ، والأُنثَى: ضائِنةٌ، والجمعُ: ضَوائِنُ.

﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ قُرِئَ بفتحِ العينِ وسُكونِها[1]، وهي ذواتُ الشَّعرِ منَ الغنمِ، والواحدُ: ماعِزٌ.

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ﴾ نصبَ (الذَّكَرينِ) بقولِه: ﴿حَرَّمَ﴾، ووجهُ الحجَّةِ:

---

(١) قرأ بفتح العين ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو، وباقي السبعة بسكونها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧١)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

أنَّهم قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] فقالَ الله: إنْ كانَ التَّحريمُ للذُّكورِ فحَرِّمُوا كلَّ ذكرٍ، وإنْ كانَ للأُنوثةِ فحَرِّمُوا كلَّ أُنثَى، وإنْ كانَ بحُكمِ الله تعالى فلِمَ تحكُمُونَ أنتم؟

وقيلَ: أي: وإنْ وقعَ التَّحريمُ من جهةِ الذَّكرِ ففي الأُنثَى ماءُ الذَّكرِ، وإنْ كانَ من جهةِ الأُنثَى فلا ذكرَ إلّا من أُنثَى.

﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي: آلذَّكرينِ حرَّمَ أم الأُنثيينِ أم ما اشتمَلَتْ عليه أرحامُ الأُنثيَينِ منَ الضَّأنِ والمعزِ؟ فيجبُ أن تُحرَّمَ الأولادُ كلُّها، والمعنى: ما بالُ هذا التَّحكُّمِ ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾؛ أي: أخبِرُوني من أينَ هذا التَّحريمُ.

***

(١٤٤) - ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ معناهما سبقَ.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾؛ أي: هل شاهَدتُم الله قد حرَّمَ هذا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بيَّنَ أنَّهم كذَبُوا إذ قالوا بما لم يدُلَّ عليه دليلٌ.

***

(١٤٥) ـ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾؛ أي: الذي أُوحِيَ إليَّ في التَّحريمِ والتَّحليلِ هذه الأشياءُ لا ما ترَونَه بشهواتِكُم.

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾؛ أي: إلّا أن يكونَ المأكولُ ميتةً، وقُرِئَ بالتّاءِ(1)؛ أي: إلّا أن تكونَ العَينُ أو الـجُثّةُ أو النَّفسُ ميتةً.

وقُرِئَ: ﴿إلّا أنْ يكونَ ميتةٌ﴾ بالرَّفعِ(2)؛ أي: إلّا أن تقعَ ميتةٌ.

﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾؛ أي: سائلاً، يُقالُ: سفَحَ الدَّمَ والدَّمعَ سَفْحاً وسفَحَ هو سُفُوحاً، ولا يدخُلُ فيه الكبدُ والطِّحالُ، ولا ما يختلطُ باللَّحمِ من الدَّمِ لأنَّه غيرُ سائلٍ.

﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ أي: ما ذُبِحَ على النُّصُبِ، سمّاه فِسقاً لأنَّه يفسُقُ بأكلِه عن الدِّينِ؛ أي: يخرُجُ.

والآيةُ ليست نصّاً في المُحرَّماتِ، بل سألُوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ عن هذه الأشياءِ فبيَّنَ أنَّها حرامٌ، وهو كالرَّجلِ يقولُ لغيرِه: «ما أكلتُ اليومَ حلاوةً»، فيقولُ: «وما أكلتُ إلّا الحلاوةَ»، وغرَضُه أن يُضادَّ في قولِه وإنْ كانَ أكلَ غيرَ الحلاوةِ أيضاً.

وقد رَوَى الشّافعيُّ عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ أنَّه قالَ في هذه الآيةِ: أشياءُ سألُوا

---

(1) قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

(2) قرأ ابن عامر بالرفع وباقي السبعة بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

عنهـا رسـولَ الله، فأجابَهم عـن المُحرَّماتِ من تلك الأشـياءِ[١].

وقيلَ: أي: لا أجِدُ فيما أُوحيَ إليَّ هذا الوقتَ، ثمَّ لا يَمتنِعُ حدوثُ وحيٍ بعد ذلك بتحريمِ أشياءَ أُخرَ، فقولُ مالكٍ: «هذه الآيةُ من أواخرِ ما نزلَ»[٢] لا يمنعُنا من أن نقولَ: ثبتَ تحريمُ بعضِ هذه الأشياءِ بعد هذه الآيةِ، وقد أحلَّ الله الطَّيِّباتِ وحرَّمَ الخبائثَ، ونَهَى رسولُ الله عن أكلِ كلِّ ذي نابٍ منَ السِّباعِ وكلِّ ذي مخلبٍ منَ الطَّيرِ، ونهى عن لُحومِ الحمُرِ الأهليّةِ عامَ خيبرَ،

وقيلَ: أي: لا أجدُ فيما أُوحِيَ إليَّ منَ القرآنِ، فأمَّا وَحيُ السُّنَّةِ فقد حرَّمَ الله أشياءَ كثيرةً. **والذي يدُلُّ على صِحَّةِ هذا التَّأويلِ**: الإجماعُ على تحريمِ العَذِرةِ والبولِ والحشراتِ المُستَقذَرةِ والحمُرِ ممَّا ليس مذكورًا في هذه الآيةِ.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾؛ أي: إلى تناوُلِ شيءٍ من هذه الأشياءِ ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ على سُلطانِه ﴿وَلَا عَادٖ﴾ على المسلمينَ بسيفِه بأخذِ مالِـهم أو قَتلِهم.

وقيلَ: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ بأكلِ الميتةِ من غيرِ ضرورةٍ ﴿وَلَا عَادٖ﴾ مُجاوزٍ للقَدْرِ الذي لا بدَّ منه.

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ أي: لا يأخُذُ المُضْطرَّ بذلك.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٩/ ٨٢) عن الشافعي عن ابن عباس، وانظر: «الرسالة» للشافعي (ص: ٢٠٧)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص: ٤٣٥)، واستحسن النحاس هذا القول وصححه.

(٢) وممن ذكر أن هذه الآية من آخر ما نزل: إمام الحرمين في «غياث الأمم» (ص: ٤٩٠)، و«البرهان» (٢/ ١٩٧)، وابن العربي في «القبس» (ص: ٦٢١) عازيًا القول بذلك إلى ابن عباس رضي الله عنهما. والمشهور أن سورة الأنعام مكية، فهي ليست من آخر ما نزل، ونقل السيوطي في «الإتقان» (١/ ١٠٥ ـ ١٠٦) كلام الجويني ثم قال: وتعقبه ابن الحصار بأن السورة مكية باتفاق، ولـم يَرِد نقل بتأخر هذه الآية عن نزول السورة، بل هي في محاجة المشركين ومخاصمتهم وهم بمكة.

(١٤٦) - ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾؛ أي: حرَّمْنا عليهم أشياءَ عقوبةً لهم على بغيِهم على أنبيائِهم، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا﴾ الآية [النساء: ١٦٠]، ويُقالُ: ظُفْرٌ وظُفُرٌ وظِفْرٌ بكسرِ الظّاءِ وسُكونِ الفاءِ، وظِفِرٌ بكسرِهما.

قال ابنُ عبّاسٍ: ذو الظُّفرِ: البعيرُ والنَّعامةُ[١]؛ لأنَّ النَّعامةَ ذاتُ ظُفرٍ كالإبلِ.

وقال قتادةُ: هو كلُّ ما ليس بمشقوقِ الأصابعِ، ولـم تفرَّجْ قوائمُه منَ البهائمِ كالبعيرِ والنَّعامِ والبطِّ وحمارِ الوحشِ[٢].

وقيلَ: أرادَ بذي الظُّفرِ الإبلَ فقط.

وقيلَ: يعني: كلَّ ذي مخلبٍ منَ الطَّيرِ، وذي حافرٍ منَ الدَّوابِّ، ويُسمَّى الحافرُ ظُفرًا استعارةً.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾؛ أي: الثُّروبَ[٣].

﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾؛ أي: إلّا ما علِقَ بالظَّهرِ منَ الشَّحمِ من داخلِ البطنِ.

و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾؛ أي: المباعرَ والمصارينِ، فأباحَ لهم ما علِقَ بها منَ الشَّحمِ،

---

(١) علقه البخاري قبل حديث (٤٦٣٣)، ووصله الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤١٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩٧٠٣)، وإسناده حسن كما قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٢٩٥).

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٧١)، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٣٩)،

(٣) الثروب: جمع ثرب؛ شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء. انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٥٩).

وكذا بالعظمِ، وواحدةُ الحوايا: حاوِيةٌ وحَوِيّةٌ وحاوِياءُ، مثل زاوِيةٍ وزَوَايا.

والمُرادُ بقولِه: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾: شحمُ الأَلْيةِ.

وقيلَ: كلُّ شحمٍ في القوائمِ والجنبِ والرَّأسِ، وفي العينَينِ والأُذنَينِ.

وقيلَ: حُرِّمَتْ عليهم الثُّروبُ وأُحِلَّ لهم ما حملتِ الظُّهورُ، وأمَّا الحوايا وما اختلَطَ بعظمٍ فهو نسقٌ على ما حُرِّمَ لا على الاستثناءِ، والمعنى: حُرِّمَتْ عليهم شحومُهما، أو الحوايا، أو ما اختلَطَ بعظمٍ، إلّا ما حملَتِ الظُّهورُ فإنَّه غيرُ محرَّمٍ.

﴿ذَلِكَ﴾؛ أي: ذلك التَّحريمُ ﴿جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾؛ أي: عقوبةً لهم بقتلِهم الأنبياءَ وأخذِهم الرِّبا.

* * *

(١٤٧) - ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ كذَّبَ المُشركونَ رسولَ الله فيما أخبرَ به من أمرِ اليهودِ فنزلَتِ الآيةُ[١].

﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ ولذلك لا يُعجِّلُ عليكم بالعُقوبةِ.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: المُكذِّبينَ من أهلِ الكتابِ وغيرِهم.

* * *

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٩٦)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٥١٠) عن الكلبي، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٤٨) ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

قولُه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ ظنُّوا أنَّ هذا مُتمَسَّكٌ لهم فقالوا: لو شاءَ الله ما أشرَكْنا ولا حرَّمْنا هذه الأشياءَ.

﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ ولم يقُلْ: «نحنُ ولا آباؤُنا»؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَآ﴾ قامَ مقامَ توكيدِ المُضمرِ، ولهذا حسُنَ أن يُقالَ: «ما قُمتُ ولا زيدٌ».

ومَن قال: ليستِ المعاصي بمشيئةِ الله تعالى[1]، قال: معنى الآيةِ أنَّ المُشركينَ قالوا: لو شاءَ الله ما أشرَكْنا وقد كَذَبُوا.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ في أنَّ الكفرَ بمشيئةِ الله.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ بل لله الحجَّةُ البالغةُ فلا يأمرُ بما يُريدُ خلافَه.

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هَدْيَ إكراهٍ وإجبارٍ، ولكنَّه لا يفعلُ، وإنَّما يَهدي بإكمالِ العقلِ، وقد فعلَ.

وقال أهلُ الحقِّ: لا يجري في العالَـمِ شيءٌ إلّا بإرادةِ الله، كما قالَ في هذه السُّورةِ وغيرِها: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وعلى هذا لـم يَكذِبِ المُشركونَ في قولِـهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، بل كذَبُوا في ظنِّهم أنَّ مشيئةَ الله عذرٌ لهم، فإنَّ المشيئةَ لا تعذُرُ، كما

---

(١) وهم المعتزلة. قال الماتريدي: يحتمل أن تكون المشيئة بمعنى الرضا، أو بمعنى الأمر والدعاء؛ لأنهم قالوا: إن الله أمرنا بذلك، ويحتمل أن قالوه استهزاء وسخرية، انتهى. ولا تعلق للمعتزلة بذلك مع هذه الاحتمالات. انظر: «تأويلات أهل السنة» (٢/ ١٨٨)، و«البحر المحيط» (٩/ ٤٦٩).

أنَّ علمَ الله بأنَّ هذا الشَّخصَ لا يُؤمِنُ لا يعذُرُه، ولو كانتِ المشيئةُ عُذراً لهم لكانَ قولُهم مُتَناقِضاً؛ لأنَّ المُسلمينَ أيضاً قالوا ما قالوا بمشيئةِ الله فليُعذَرُوا[1] في قتالِ الكفّارِ وتكفيرِهم، فلا يكونُ هذا المُعتَقَدُ عذراً للكفَّارِ.

وقالَ البَجَليُّ وابنُ الأنباريِّ: إنَّما عابَهم لأنَّهم قالوا ما قالوه استهزاءً ودَفعاً لحجَّةِ المُسلمين؛ إذ بلَغَهم من قولِهم: إنَّهم يُفوِّضُونَ الأمرَ إلى مشيئةِ الله، ولو قالوا هذا من اعتقادٍ صحيحٍ لكانُوا مُؤمنينَ لا مُشركينَ، ويدُلُّ عليه قولُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ونظيرُه قولُه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠][2]، ثمَّ قال:

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: يقولونَ هذا لا عن علمٍ، والمُؤمنون يقولُونَه عن علمٍ، ولهذا قالَ في هذه الآيةِ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: هل قُلتُم هذا عن علمٍ؟ بل هو ظنٌّ ودفعٌ للحجّةِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وهم ما كذَبُوا في أنَّ محمَّداً عليه السَّلامُ رسولُ الله، بل كذَبُوا في إظهارِهم أنَّهم يقولونَه عن اعتقادٍ صحيحٍ، وكقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، فلم يكُنْ قولُهم: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ كذِباً، ولكنْ عابَهم لأنَّه لـم يكُنْ لهم في ذلك حجّةٌ ـ في تركِ الإنفاقِ ـ على الأنبياءِ.

---

(١) في (أ): «فيعذروا».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٥١٤) عن ابن الأنباري والحسين بن الفضل، وهو البجلي. إلا أن الواحدي ساق كلام كل واحد منهما على حدة، والمصنف جمع بين قوليهما.

وقيلَ: إنَّ الكفّارَ توهَّموا ما توهَّمَتْه القَدْرِيَّةُ في أنَّه لا فرقَ بين الإرادةِ والأمرِ؛ أي: لو أمرَنا الله بالإسلامِ لفعَلْناه، أو: لو نهانا عنِ الشِّركِ لانتهَينا، فهو إنكارٌ لقولِ الرَّسولِ، ومَن عُوقِبَ على فعلٍ فلا تعلُّقَ له بأن يقولَ للمُعاقِبِ: أنتَ أرَدْتَ هذا، بل يقولُ: أنتَ أمَرْتَ به، ولهذا قال: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، فأضافُوا التَّحريمَ إلى أنَّ الله أمرَهم به لا إلى مشيئتِه، ولو أضافُوا إلى المشيئةِ لقال: أتحريمُ الذَّكرَينِ شاءَ لكم أم تحريمُ الأُنثَيَينِ؟

وقال أيضاً: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٤]، والتَّوصيةُ أمرٌ لا مشيئةٌ باطنةٌ، ولا يُمكِنُهم أن يُشاهِدُوا مشيئتَه.

ثمَّ قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: ممَّن قال: إنَّ الله أمرَنا بتحريمِ هذه الأنعامِ، والجملةُ: أنَّهم أضافُوا شِركَهم إلى أمرِ الله كما أضافُوا التَّحريمَ، وقد صرَّحَ بهذا في قولِه: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فتكذيبُهم يرجعُ إلى قولِهم: «إنَّ الله أمرَنا بالشِّركِ»، والأمرُ بالشِّركِ مُتناقِضٌ؛ لأنَّ الأمرَ بالكفرِ لا يُتصَوَّرُ.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أي: في تحريمِ ما حرَّمتُم[1].

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: ما تتَّبِعُونَ إلّا الظَّنَّ، وما أنتم إلّا خارِصونَ.

***

(١٤٩) ـ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ إذ بيَّنَ التَّوحيدَ وأيَّدَ الرُّسلَ بالمُعجزاتِ، ولزِمَ أمرَه كلُّ مُكلَّفٍ، فأمَّا علمُه وإرادتُه وكلامُه فغيبٌ لا يطَّلعُ عليه العبدُ، ويكفي في

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٥١٥).

التَّكليفِ أن يكونَ العبدُ بحيثُ لو أرادَ أن يفعلَ ما أُمِرَ به أَمْكنَه، وخلافُ المعلومِ مقدورٌ فلا يَلْتحِقُ بما يكونُ مُحالاً في معنَيَيه.

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا تصريحٌ بأنَّ الكفرَ واقعٌ بمشيئةِ الله، وحَمْلُ هذا على أنَّه قادرٌ على تحصيلِ مُرادِه بالإكراهِ عبثٌ، ولا يخفَى على عاقلٍ بُطلانُه؛ إذ هذا الإكراهَ تهويلٌ وإظهارُ آياتٍ، وليس في قُدرتِه عند القَدريّةِ خلقُ الإيمانِ أصلاً، فلو لـم يُبالِ الكافرُ بالتَّهويلِ فقد عجزَ الإلهُ عن تحصيلِ الإيمانِ له.

وأيضاً أنَّ الله يُريدُ منَ المُكلَّفِ إيماناً يُثيبُه عليه، وما يحصلُ إكراهاً فلا ثوابَ عليه، فما حصَلَ لـم يُرِدْ، وما أرادَ لـم يحصُلْ.

* * *

(١٥٠) ـ ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾؛ أي: قُل لـهؤلاءِ المُشركينَ: أحضِرُوا شُهودَكم على أنَّ الله حرَّمَ ما حرَّمْتُم، و«هلُمَّ» كلمةُ دعوةٍ إلى شيءٍ، ويستَوي فيه الواحدُ والجماعةُ والذَّكرُ والأُنثَى، إلّا في لغةِ قومٍ يقولون: «هلُمّا» «هلُمُّوا» «هلُمِّي» «هلْمُمْنَ»، قال الله: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] تقولُ: «هلُمَّ»؛ أي: احضُرْ وادْنُ، و«هلُمَّ الطَّعامَ»؛ أي: هاتِ الطَّعامَ، والمعنى هاهُنا: هاتُوا شهداءَكُم.

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾؛ أي: إنْ شهِدَ بعضُهم للبعضِ ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾؛ أي: فلا تُصدِّقْ؛ إذ الشَّهادةُ من كتابٍ أو على لسانِ نبيٍّ، وليس معَهم شيءٌ من ذلك.

* * *

(١٥١) ـ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ بيَّنَ أنَّ المُحرَّمَ الشِّركُ، وقتلُ الأولادِ والأنفُسِ، وقربانُ الفواحشِ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، لا ما تحكَّمُوا به في[1] السَّائبةِ والبحيرةِ وغيرِهما.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾؛ أي: تعالَوا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم: ألا تُشرِكُوا به شيئاً؛ لأنَّ مَن حرَّمَ ما أحلَّ الله فقد جعَلَ غيرَ الله في القَبولِ منه شريكًا له.

وقيلَ: أي: تعالَوا أتلُ عليكم أنْ لا تُشرِكُوا؛ أي: أتلُ عليكم تحريمَ الشِّركِ.

وقيلَ: أي: أُوصيكُم أنْ لا تُشرِكُوا به شيئًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ معناه: أُوصيكُم بالوالدَينِ إحساناً.

وقيلَ: أي: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ كما قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ويجوزُ تقديرُ الرَّفعِ كما تقولُ: عليكم الصِّيامُ والحجُّ.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: أُوصيكُم بالوالدَينِ إحساناً.

وقيلَ: تقديرُه: عليكُم أنْ لا تُشرِكُوا به شيئاً وأن تفعَلُوا بالوالدَينِ إحساناً.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾؛ أي: من مخافةِ الفقرِ أو للغَيرةِ.

وأملَقَ؛ أي: افتقَرَ، وأملَقَه؛ أي: أفقَرَه، فهو لازمٌ ومُتعدٍّ.

---

(١) في (ف): «من».

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ أي: علانيةً وسرًّا، وكانوا يكرهونَ الزِّنا علانيةً ويُقدِمُونَ عليه سرًّا، فهو عامٌّ في كلِّ معصيةٍ.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالقَوَدِ، وفي الموضعِ الذي يجوزُ.

***

(١٥٢) - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾؛ أي: لا تناوَلُوا مالَ اليتيمِ إلّا بما يعودُ بحِفظِه عليه حتَّى يبلُغَ أشُدَّه، فحينئذٍ فادفَعُوا إليه مالَه.

ثمَّ؛ قيلَ: الأَشُدُّ لا واحدَ له.

وقيلَ: واحدُها «شِدّة»، مثل: أنعُمٍ ونِعمةٍ، والشِّدَّةُ: القُوَّةُ، والهاءُ في النِّعمةِ والشِّدّةِ زائدةٌ، والأصلُ: نِعْمٌ وشِدٌّ، فجُمِعَ على «أفعُلٍ»، مثلَ: رِجلٍ وأرجُلٍ.

وقيلَ: واحدُها: شُدٌّ، مثلَ قولِك: فلانٌ وُدِّي، وهم أَوُدِّي[1].

وبلوغُ الأشُدِّ: أن يبلُغَ مبلغَ الرِّجالِ بالاحتلامِ أو السِّنِّ مع إيناسِ الرُّشدِ، وفي غيرِ هذا الموضعِ هو بلوغُ أربعينَ سنةً.

---

(١) انظر: «الألفاظ» لابن السكيت (ص: ٣٣٩)، وفيه: وددته فأنا أودُّه ودًا ومودةً، وهم وُدِّي، وهم أودي وأوداني.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ يُقالُ: دِرهمٌ وافٍ، وكَيلٌ وافٍ؛ أي: بلغَ كمالَه، وأوفَيتُه حقَّه؛ أي: أتمَمْتُه.

﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾؛ أي: الوزنَ به، أو: وزنَ الميزانِ، فهو من بابِ حذفِ المُضافِ.

﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ أي: بالعدلِ.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾؛ أي: ما لا يُمكِنُ الاحتِرازُ عنه من تفاوُتِ ما بين الكَيلَينِ.

وقيلَ: الكَيلُ بمعنَى المِكيالِ، يُقالُ: هذا كذا وكذا كيلاً، ولهذا عُطِفَ عليه بـ(الميزانِ).

﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾؛ أي: إذا قُلتُم قولاً على جهةِ الشَّهادةِ أو غيرِها فقولوا العدلَ، وهو المُستَوي المُعتَدلُ.

﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ منَ الأيمانِ والنُّذورِ وكلِّ ما عهدَ الله فيه إليكم.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ أي: هذه الجملةُ ﴿وصَّاكُم به لعلَّكم تذَّكَّرون﴾؛ أي: تتذكَّرون.

وقُرِئَ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيفِ الذّالِ وتشديدِ الكافِ[1].

***

(١٥٣) ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾؛ أي: وأتلُو أنَّ هذا صراطي، فهو نصبٌ،

(١) قرأ حمزة وحفص والكسائي بتخفيف الذال، وباقي السبعة بتشديدها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

قالَه الفرَّاءُ، قال: ويجوزُ أن يكونَ خَفْضاً؛ أي: وصَّاكُم به، وبأنَّ هذا صراطي[1].

وقُرِئَ: ﴿وأنْ هذا﴾ مفتوحةً مخفَّفةً، والمُخفَّفةُ كالمُشدَّدةِ، إلّا أنَّ فيه ضميرَ القِصّةِ والشّأنِ؛ أي: وأنّه هذا.

وقُرِئَ: ﴿وإنَّ هذا﴾ على الاستئنافِ[2]؛ أي: الذي ذُكِرَ في هذه الآياتِ صراطي مُستقيماً.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾؛ أي: اليهوديّةَ والنَّصرانيّةَ والتَمَجُّسَ وعبادةَ الأوثانِ والبِدَعَ.

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: فتضِلَّ بكم عن دينِه، وقيلَ: فتميلَ.

وقيلَ: فتتشتَّتَ قُلوبُكم، فـ﴿عَن﴾ بمعنى «بعدَ»، تقولُ: «كسَوتُكَ عن عُريٍّ»؛ أي: بعد عُرِيٍّ، دعاهُم إلى اجتماعِ الكلمةِ، ونهاهُم عنِ التَّفرُّقِ.

* * *

(١٥٤) ـ ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾؛ أي: أعطَينا موسى التَّوراةَ زيادةً على ما كانَ يُحسِنُه موسى ممَّا كانَ الله علِمَه قبلَ نُزولِ التَّوراةِ عليه.

ثُمَّ؛ قيلَ: تقديرُ الكلامِ: ثمَّ كنّا قد آتينا موسى الكتابَ قبلَ إنزالِنا القرآنَ على محمَّدٍ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٦٤).

(٢) قرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة، والباقون بفتحها، وخفَّف ابن عامر النُّون وشدَّدها الباقون. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

وقيلَ: أي: ثمَّ أُخبِرُكم بعدَ ما أخبرتُكم به من نزولِ القرآنِ على محمَّدٍ بنُزولِ التَّوراةِ.

وقيلَ: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾؛ أي: على جنسِ المُحسِنينَ؛ أي: آتيناه الكتابَ تتميماً على الأنبياءِ الكُتُبَ ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾.

وقيلَ: ﴿تَمَامًا﴾؛ أي: إتـماماً منَّا لكرامتِه على ما أحسنَ منَ الطَّاعةِ أو العلمِ.

* * *

(١٥٥) ـ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾؛ أي: حقُّه أن يُكتَبَ ليبقَى محفوظاً على مرِّ الزَّمانِ ﴿مُبَارَكٞ﴾؛ أي: كثيرُ الخيراتِ.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾ تحريفَه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾؛ أي: لتكونُوا راجينَ للرَّحمةِ.

* * *

(١٥٦) ـ ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ قال الكوفيُّونَ: لئَلَّا تقولُوا. وقال البصريُّونَ: أي: أنزَلْناه كراهةَ أن تقولُوا[1].

﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ أي: التَّوراةُ والإنجيلُ ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾؛ أي: على اليهودِ والنَّصارَى ﴿وَإِن كُنَّا﴾؛ أي: وما كنَّا إلَّا غافلينَ؛ أي: كنَّا غافلينَ عن تلاوةِ كتُبِهم، وعن لُغاتِهم، وهذا خطابٌ للعربِ.

وقال: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾، ولـم يقُلْ: «دراستِهما»؛ لأنَّ كلَّ طائفةٍ جماعةٌ.

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (٨/ ٥٣٤)، وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٠٧).

(١٥٧) - ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ﴾؛ أي: كما أُنزِلَ عليهم ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾.

﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ﴾؛ أي: قد زالَ العذرُ بمجيءِ محمَّدٍ.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ أي: فإنْ كذَّبتُم فلا أحدَ أظلَمُ منكم.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾؛ أي: أعرَضَ.

* * *

(١٥٨) - ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ أي: عندَ الموتِ لقَبْضِ أرواحِهم؛ أي: يجبُ أن لا ينتَظِرُوا إلّا هذا.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أمرُ ربِّكَ فيهم بالقتلِ أو غيرِه[1].

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قيلَ: هو طُلوعُ الشَّمسِ من مغربِها، بيَّنَ بهذا أنَّهم إنَّما يُمهَلُونَ في الدُّنيا، فإذا ظهرَتِ السّاعةُ فلا إمهالَ.

﴿قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكُم العذابَ، وفي الخبرِ: «ثلاثٌ إذا خرَجْنَ لا ينفَعُ

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٥٤٧).

نفسًا إيمانُها لـم تكُنْ آمنَتْ من قبلِ: طلوعُ الشَّمسِ من مغربِها، والدَّجّالُ، ودابّةُ الأرضِ»[1].

﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾؛ أي: مَن لـم يُؤمِنْ، أو آمنَ ولكنْ لـم يعمَلْ خيراً، بل أتى بكبائرَ وذنوبٍ، فلا توبةَ له بعد ظُهورِ تلك الآياتِ، ولكنْ قامَ الدَّليلُ على أنَّ مَن خرَجَ منَ الدُّنيا غيرَ مُؤمنٍ لا يُغفَرُ له شِركُه، ومَن ماتَ غيرَ مُشركٍ فإنْ شاءَ الرَّبُّ غفرَ له أو عاقبَه مدّةً ثمَّ يُخرَجُ منَ النّارِ.

* * *

(١٥٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ قيل: عنَى اليهودَ والنَّصارى وقد وُصِفُوا بالتَّفرُّقِ، قال الله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

وقيلَ: عنَى المُشركينَ، عبَدَ بعضُهم الصَّنَمَ، وبعضُهم الملائكةَ.

وقيلَ: الآيةُ عامَّةٌ في جميعِ الكفّارِ، وتفريقِ أهلِ الكتابِ الإيمانَ ببعضِ الأنبياءِ دونَ بعضٍ.

﴿دِينَهُمْ﴾؛ أي: ما أُمِرُوا به منَ الدِّينِ.

وقُرِئَ: ﴿فارَقُوا دينَهم﴾[2] أي: بايَنُوه وترَكُوه.

﴿شِيَعًا﴾؛ أي: أحزاباً، مِن شاعَ؛ أي: ظهَرَ، ومِنْ شيَّعَ بعضُهم بعضاً؛ أي: تَبِعَ.

---

(١) رواه مسلم (١٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ أي: أنتَ بريءٌ منهم، وهم بُرَآءُ منك، وهو كقولِه عليه السَّلامُ: «مَن غَشَّنا فليس منّا»[1]؛ أي: نحنُ بُرَآءُ منه.

وقيلَ: أي: لستَ من عقابِهم في شيءٍ، وإنَّما عليكَ الإنذارُ.

* * *

(١٦٠) - ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾؛ أي: عاقبةُ الأمورِ إلى الله، فمَن جاءَ بالحسنةِ يُكتَبْ في ديوانِه عشرُ حسناتٍ، ومَن جاءَ بسيِّئةٍ كُتِبَ عليه سيِّئةٌ، وحُذِفَ الهاءُ من ﴿عَشْرُ﴾.

والأمثالُ: جمعُ مثَلٍ، وهو مذكَّرٌ؛ لأنَّ المُرادَ: فله عشرُ حسناتٍ، فحُذِفَتِ الحسناتُ وأُقيمَتِ الأمثالُ التي هي صفتُها مُقامَها.

وفي الخبرِ أنَّه قال: «الحسنةُ عشرٌ أو أزيَدُ، والسَّيِّئةُ واحدةٌ أو أغفِرُ، فالويلُ لمَن غلَبَتْ آحادُه أعشارَه»[2].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يُنقصُ ثوابُ أعمالِهم.

* * *

(١) رواه مسلم (١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٠)، والواحدي في «البسيط» (٨/ ٥٥٨)، عن أبي ذر رضي الله عنه، وأصل الحديث رواه مسلم (٢٦٨٧)، ولفظه: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة، فجزاؤه سيئة مثلها. أو أغفر»، دون قوله: «فالويلُ لمَن غلَبَتْ آحادُه أعشارَه»، وهذا اللفظ مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا عليه، رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٥)،

(١٦١) ـ ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لـمَّا بيَّنَ أنَّ الكفَّارَ تفرَّقُوا بيَّنَ أنَّ الله هداه إلى الدِّينِ المُستقيمِ، وهو دينُ إبراهيمَ.

﴿دِينٗا﴾ نُصِبَ حملاً على المعنى؛ لأنَّ معنى ﴿هَدَىٰنِي﴾: عرَّفَني ديناً.

ويجوزُ أن يكونَ بدلاً عن الصِّراطِ؛ أي: هَداني صراطاً مُستقيماً ديناً.

﴿قِيَمٗا﴾؛ أي: مُستقيماً، وهو كالصِّغرِ والكبرِ.

وقُرِئَ: ﴿قيِّماً﴾ بالتَّشديدِ[1].

﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بدلٌ من قولِه: ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ ﴿حَنِيفٗا﴾ نصبٌ على الحالِ من ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أي: في حالِ حنيفيَّتِه.

* * *

(١٦٢ ـ ١٦٣) ـ ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي﴾ باللَّيلِ والنَّهارِ ﴿وَنُسُكِي﴾؛ أي: حَجِّي وعُمرتي وما أذبحُه في القرآنِ ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾؛ أي: ما أعمَلُه في حياتي، وما أُوصي به بعد وَفاتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أفرَدَه بالتَّقرُّبِ بها إليه وحدَه.

والنُّسُكُ: سَبائِكُ الفِضَّةِ، كلُّ سبيكةٍ نسيكةٌ، فالعبدُ إذا أخلَصَ عملَه لله تنسَّكَ[2].

وقيلَ: (محيايَ ومماتي لله)؛ أي: بقُدرتِه حياتي ومَوتي.

---

(١) قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وباقي السبعة بكسر القاف وفتح الياء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

(٢) في (أ): «نسك».

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾؛ أي: بذلك أوحَى الله إليَّ ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: أوَّلُ مَن أسلَمَ بقلبِه ولسانِه وجَوارِحِه؛ أي: من هذه الأمَّةِ أو من أهلِ هذا الزَّمانِ.

* * *

(١٦٤) ـ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾؛ أي: إلـهاً، وهو إلهُ كلِّ أحدٍ.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾؛ أي: إثمُ الجنايةِ على الجاني.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ نزلَتْ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ، كان يقولُ: اتَّبِعُوا سبيلي أحمِلْ أوزارَكُم، ذكرَه ابنُ عبّاسٍ[1].

* * *

(١٦٥) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

قولُـه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾؛ أي: جعلَكـم خلفـاءَ عـن الأُمـمِ الماضيـةِ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: فـي المعـاشِ. وقيلَ: فـي الفضلِ.

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾؛ أي: ليختبِرَكم؛ أي: ليُظهِرَ منكم ما يكونُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: للكفّارِ ﴿غفورٌ رحيمٌ﴾ لأوليائِه.

وقيلَ: سريعُ الحسابِ؛ أي: القيامةُ قريبةٌ، فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ.

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٨/ ٥٦٤)، عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

سُورَةُ الأَعْرَافِ

تفسيرُ سورةِ الأعرافِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿الٓمٓصٓ﴾ السُّورةُ مكِّيَّةٌ إلَّا ثمانيَ آياتٍ، وهي قولُه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ﴾[1].

وهذه الحروفُ اسمُ السُّورةِ؛ أي: اسمُ السُّورةُ التي تلي الأنعامَ ﴿الٓمٓصٓ﴾، وهو كقولِك: كتابُ كذا؛ أي: هذا كتابُ كذا[2].

---

(١) هذا قول مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٢٧ ـ ٢٨). وقد اختلف فيها، فقد روي عن ابن عباس وابن الزبير أنها مكية كلها دون استثناء، رواه عن ابن عباس ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص: ٢٣)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤٤٥). وعن عبد الله بن الزبير رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤١٢).

وفي «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٥٥): عن قتادة: مكية إلَّا قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ الآيةَ فإنها نزلت بالمدينة.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٠٠): روى العوفي وابن أبي طلحة وأبو صالح عن ابن عباس أن سورة الأعراف من المكّيّ، وهذا قول الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة. وروي عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا خمس آيات أولُها قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾.

(٢) هذا قول من عدة أقوال في الحروف المقطعة أوائل السور، وهناك أقوال أخرى، تقدمت في أول سور البقرة.

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ هذا كلامٌ مُبتدأٌ؛ أي: هذا المص، هذا كتابٌ أُنزِلَ إليك.

وقيلَ: أي: ﴿المص: كتابٌ أُنزِلَ إليك﴾، وبعضُ القرآنِ قد يُسمَّى كتاباً؛ لأنَّ سبيلَه أن يُكتَبَ ليُحفَظَ؛ أي: هذه السُّورةُ المعروفةُ بـ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتابٌ منَ الله أُنزِلَ إليك.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: أنا الله أعلَمُ وأُفصِّلُ(١).

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾؛ أي: ضِيقٌ؛ أي: لا يضِقْ صدرُكَ بالإبلاغِ، أو: لا يضِقْ صدرُكَ إنْ كذَّبوك ولا تخَفْ منهم، أو: لا يكُنْ في قلبِكَ شكٌّ أنَّه منَ الله.

ثمَّ قيلَ: الخِطابُ له ولأُمَّتِه. وقيلَ: المُرادُ أمَّتُه.

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾؛ أي: أُنزِلَ إليك لتُنذِرَ به ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ففيه تقديمٌ وتأخيرٌ.

وقيلَ: أي: فلا يكُنْ في صدرِكَ حرَجٌ لتُنذِرَ كما تقولُ: لا تكُنْ ظالِماً لتقضيَ صاحبَك دَينَه.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: لتُذكِّرَ به المُؤمنينَ.

ثمَّ؛ قيلَ: الإنذارُ للكفّارِ، والذِّكرَى للمُؤمنينَ.

وقيلَ: الإنذارُ للكلِّ، والذِّكرَى للمُؤمنين؛ لأنَّهم المُنتَفِعُونَ به.

* * *

(١) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٣١٣)، والسمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٠٢)، والواحدي في «البسيط» (٢/ ١٦)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٧) دون قوله: «وأفصل».

(٣) ـ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُـه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ أي: اتَّبِعُـوا هـذا الكتـابَ؛ فإنَّـه مُنـزَّلٌ من جهـةِ الله، ثـمَّ ما قالَـه النَّبيُّ عليه السَّـلامُ ولـم نجِدْه في الكتـابِ فاتِّباعُـه واجبٌ فيه أيضاً؛ لقولِـه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشـر: ٧].

﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ أي: من غيرِه.

﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قُرِئَ بتخفيفِ الذّالِ وتشديدِ الكافِ، وقُرِئَ بتشديدِهما[1].

* * *

(٤) ـ ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بيَّنَ بعضَ ما حلَّ بمنَ لـم يتذكَّرْ؛ أي: وكثيرٌ منَ القُرَى، وهي مواضعُ اجتماعِ النَّاسِ؛ أي: أهلَكْناها، وفي الآيةِ حذفٌ؛ أي: وكم من أهلِ قريةٍ، ولهذا قالَ: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾.

﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ البأسُ: العذابُ الآتي على النَّفسِ، وهذا كقولِكَ: قتلتُ فلاناً فجاءَه القتلُ مُؤَكَّدًا، والمعنى: أهلَكْناها فكانَ إهلاكُنا إيّاهُم في وقتِ كذا، فمجيءُ البأسِ هو الإهلاكُ.

وقيلَ: البأسُ غيرُ الإهلاكِ؛ أي: جاءَها بأسُنا بالإهلاكِ فكانا مُقترنَينِ.

ويجوزُ أن يكونَ الإهلاكُ غيرَ الإفناءِ، بل بالخذلانِ، وقد يُرادُ بالإهلاكِ: مُقاربةُ الهلاكِ.

---

(١) قرأ ابن عامر بياء تحتية بعدها مثناة فوقية وذال مخففة، وقرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿تذكَّرون﴾ بحذف إحدى التاءين وذال مخففة، وقرأ باقي السبعة بتاء فوقية وذال وكاف مشددتين. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٠٨).

وقيلَ: أي: وكم من قريةٍ أَرَدْنا إهلاكَها فجاءَها بأسُنا كقولِه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ ﴾ [النحل: ٩٨].

وقيلَ: أهلَكْناهم في حُكمِنا، ثمَّ جاءَهُم بأسُنا.

وقيلَ: أتتهُم ملائكةُ العذابِ، فهذا هو الإهلاكُ، ثمَّ جاءَهم بأسُنا وهو الاستِئصالُ.

﴿بَيَٰتًا﴾؛ أي: ليلاً، ومنه: البيتُ؛ لأنَّه بياتٌ فيه، والبَيتُوتةُ: دُخولُك في اللَّيلِ، يُقالُ: باتَ يبيتُ بيتاً وبياتاً.

﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾؛ أي: أو وهم قائِلُونَ، فاستَثقَلُوا فحَذَفُوا الواوَ، وليس ﴿أَوْ﴾ للشَّكِّ، بل للتَّفصيلِ، كقولِكَ: «لأُكرِمَنَّكَ مُنصِفاً أو ظالِماً».

والقَيلولةُ: نومُ نصفِ النَّهارِ.

وقيلَ: الاستراحةُ نصفَ النَّهارِ إذا اشتدَّ الحرُّ وإنْ لم يكُنْ معَها نومٌ.

والمعنى: جاءَهم بأسُنا وهم غافلونَ، إمَّا ليلاً وإمَّا نهاراً.

* * *

(٥) ـ ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾؛ أي: دُعاؤُهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾؛ أي: عذابُنا ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ وهو رفعٌ بـ﴿كَانَ﴾، والدَّعوَى نصبٌ، كقولِه: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ٥].

ويجوزُ أن تكونَ الدَّعوَى رفعاً، و﴿أَن قَالُوٓا۟﴾ نصباً كقولِه: ﴿ليس البرُّ أنْ تُوَلُّوا﴾ برفعِ ﴿البِرُّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

* * *

(٦) ـ ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾؛ أي: نسألُ يومَ القيامةِ أُممَ الرُّسلِ عن تبليغِ الرُّسلِ، ونسألُ الرُّسلَ عن جوابِ القومِ لهم.

وقيلَ: فلَنسألَنَّ الذين أُرسِلَ إليهم؛ أي: الأنبياءَ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: الملائكةَ الذين أُرسِلُوا إلى الأنبياءِ.

* * *

(٧) ـ ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾؛ أي: لنُخبِرَنَّهم بما عمِلُوا، بيَّنَ بهذا أنَّ ذلك السُّؤالَ سؤالُ توبيخٍ وتقريرٍ، ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي: بعلمٍ منَّا بجميعِها.

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾؛ أي: كنَّا مُشاهِدين لأعمالِهم، ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ الله عالمٌ بعلمٍ.

* * *

(٨) ـ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي: والجزاءُ على الأعمالِ في هذا اليومِ الذي يُسألُ فيه الأنبياءُ والأممُ واقعٌ بالاستحقاقِ يومَئذٍ؛ أي: يومَ السُّؤالِ.

والمُرادُ بالوزنِ: وزنُ أعمالِ العبادِ.

وفي الخبرِ: أنَّ الله ينصِبُ ميزاناً له لسانٌ وكفَّتانِ يومَ القيامةِ تُوزَنُ به أعمالُ العبادِ خيرُها وشرُّها[١].

---

(١) انظر: «البسيط» (٩/ ٢٣) وهو خبر ابن عباس رضي الله عنهما الآتي.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: تُوزَنُ الحسناتُ والسَّيِّئاتُ في ميزانٍ له لسانٌ وكِفَّتانِ، فأمَّا المُؤمنُ فيُؤتَى بعملِه في أحسنِ صورةٍ، فيُوضَعُ في كفَّةِ الميزانِ، فتَثْقُلُ حسناتُه على سيِّئاتِه، فذلك قولُه: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾[١].

وهذا يُشيرُ إلى أنَّ عملَ المُؤمنِ يتصوَّرُ في صورةٍ حسنةٍ، وعملَ الكافرِ في صورةٍ قبيحةٍ، فتُوزَنُ تلك الصُّورةُ، وهذا قريبٌ مـمَّا قيلَ: يخلُقُ الله بدلَ كلِّ جزءٍ من أعمالِ العبدِ جوهراً فيقعُ الوزنُ على تلك الجواهرِ[٢].

وقيلَ: تُوزَنُ الصُّحفُ، وقد ورَدَ هذا في الخبرِ[٣].

ثمَّ لا يبعُدُ أن يكونَ هناكَ موازينُ للعاملِ الواحدِ يُوزَنُ بكلِّ ميزانٍ منها صنفٌ من أعمالِه، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، ويُمكِنُ أن يكونَ ذلك ميزاناً واحداً، ويكونَ مجازَ لفظِ الجمعِ قولُـهم: «خرجَ[٤] فلانٌ إلى مكّةَ على البغالِ»، و: «خرجَ إلى البصرةِ في السُّفنِ».

وقيـلَ: الموازيـنُ: جمعُ مـوزونٍ، لا جمـعُ ميـزانٍ، أرادَ بالموازيـنِ: الأعمالَ الموزُونةَ.

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٠٤)، والثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٠١)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٣)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٢) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) نسب هذا القيل ابن فورك لبعض المتكلمين ثم رده. انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ١٥٧).

(٣) هو حديث البطاقة، وسيأتي.

(٤) يعني: أن العرب وقع الجمع على الواحد فيقولون: «خرج... ». انظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٢٦)، نقلاً عن ابن الأنباري.

وقال الضَّحّاكُ والأعمشُ ومجاهدٌ: الوزنُ والميزانُ بمعنى العدلِ والقضاءِ[(١)]. ويكونُ الوزنُ ضربَ مثلٍ، وهو كما تقولُ: هذا الكلامُ في وَزنِ هذا وفي وِزانِه؛ أي: يُعادِلُه ويُساويه وإنْ لـم يكُنْ هناك وزنٌ.

قال الزَّجّاجُ: هذا سائغٌ من حيثُ اللِّسانُ، والأولَى أن يُتَّبَعَ ما جاء في الأسانيدِ الصِّحاحِ من ذكرِ الميزانِ[(٢)].

فقد أحسنَ فيما قال؛ إذ لو حُـمِلَ الميزانُ على هذا فليُحمَلِ الصِّراطُ على الدِّينِ الحقِّ، والجنّةُ والنّارُ على ما يرِدُ على الأرواحِ دونَ الأجسادِ، والشَّياطينُ والجنُّ على الأخلاقِ المذمومةِ، والملائكةُ على القِوَى المحمودةِ، وقد اجتمَعَتِ الأمّةُ في الصَّدرِ الأوَّلِ على الأخذِ بهذه الظَّواهرِ من غيرِ تأويلٍ، وإذا أجمعُوا على منعِ التَّأويلِ وجبَ الأخذُ بالظّاهرِ وصارَتْ هذه الظَّواهرُ نصوصًا[(٣)].

* * *

(٩) ـ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: يُؤتَى بعملِ الكافرِ في أقبحِ صورةٍ فيُوضَعُ في كفّةِ الميزانِ فيخفُّ وزنُه حتَّى يقعَ في النّارِ، ثمَّ يُقالُ للكافرِ: اِلحَقْ بعَمَلِكَ[(٤)].

---

(١) ذكره عنهما الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٨ و٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٤٠) من طريق الأعمش عن مجاهد، وذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٣١٩) عن الضحاك.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣١٩).

(٣) نقل القرطبي في «تفسيره» (٧/ ١٦٥)، والشوكاني في «فتح القدير» (٢/ ٢١٦)، كلام المصنف هذا.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٠١)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٧)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٢) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهو تتمة الخبر المقدم قريبا عنه. =

وفي الخبرِ: «إذا خفَّتْ حسَناتُ المُؤمنِ أَخرجَ رسولُ الله ﷺ بطاقةً كالأنمُلةِ، فيُلقيها في كفَّةِ الميزانِ اليُمنَى التي فيها حسناتُه، فتَرجَحُ الحسناتُ، فيقولُ ذلك العبدُ المُؤمنُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: بأبي أنتَ وأُمِّي، ما أحسَنَ وجهَكَ، وما أحسَنَ خلقَكَ، فمَن أنتَ؟ فيقولُ: أنا نبيُّكَ محمَّدٌ، وهذه صلواتُكَ التي كنتَ تُصلِّي علَّي قد وفَّيتُكَ أحوجَ ما تكونُ إليها»(١).

والبِطاقةُ ـ بكسرِ الباءِ ـ رقعةٌ فيها رقمُ المتاعِ بلغةِ أهلِ مصرَ.

وفي روايةِ ابنِ عبَّاسٍ: قد يخفُّ ميزانُ المؤمنِ فيُثقَّلُ بكتابٍ كالأَنمُلةِ، فيه شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، فترجَحُ حسناتُه على سيِّئاتِه(٢).

= وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٨٥)، ولفظه: « ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ يعني بالوزن: القسط بينهم بالحق في الأعمال الحسنات والسيئات، فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقل موازينه، يقول: أذهبت حسناته سيئاته، ومن أحاطت سيئاته بحسناته فقد خفت موازينه، وأمه هاوية».

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٧)، ونقله عنه الرازي في «التفسير الكبير» (١٤/ ٢٠٤)، والقرطبي في «تفسيره» (٧/ ١٦٧) عن المصنف، والذي أسنده الأئمة من حديث البطاقة هو ما رواه الترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (٩) و(١٩٣٧) وصحَّحَه، من حديثِ عبد الله بنِ عمرو رضيَ اللهُ عنهما قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ اللَّهَ سيخلِّصُ رجلًا من أُمتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامة فيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعين سِجِلًّا كلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البصر، ثُم يقول: أَتُنْكِرُ مِن هذا شيئًا؛ أَظَلمكَ كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أَفَلَكَ عذرٌ؟ قال: لا يا رب، فيقولُ: بَلَى، إنَّ لكَ عندنا حَسَنةً وإنَّه لا ظُلْمَ عليكَ اليومَ، فتُخْرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فيقولُ: يا ربِّ ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجِلَّاتِ؟ فيقولُ: إنَّكَ لا تظلَمُ، قال: فتُوضَعُ السجلَّاتُ في كِفَّةٍ والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السجلَّاتُ وثَقُلتِ البطاقةُ فلا يَثْقُلُ مع اسمِ الله شيء».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٧).

﴿فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾؛ أي: عرَّضُوها للعذابِ ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴾؛ أي: بشركِهم وكُفرِهم بالمُعجِزاتِ وبآياتِ القرآنِ.

ولا يُقالُ: ظلَمَ بكذا، وهاهُنا قال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴾ لأنَّه أرادَ بالظُّلمِ الشِّركَ[1].

* * *

(١٠) ـ ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ أي: جعَلْنا لكم الأرضَ قراراً ومِهاداً، وهيَّأنا لكم فيها أسبابَ المعيشةِ.

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ العَيشُ: المطعمُ والمشربُ وما تكونُ به الحياةُ، يُقالُ: عاشَ يعيشُ عَيشاً ومَعاشاً ومَعيشاً ومَعيشةً وعيشةً.

وقال الزَّجَّاجُ: المعيشةُ الوُصلةُ إلى ما يعيشُونَ به، والأَولى أن يقولَ: «معايِش» بالياءِ من غيرِ همزٍ[2]؛ لأنَّ المعيشةَ مفعلةٌ، والياءُ أصليَّةٌ، وإنَّما يُهمَزُ إذا كانتِ الياءُ زائدةً، مثل: مدينةٌ ومَدائنُ، وصحيفةٌ وصحائفُ[3].

* * *

(١١) ـ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ لـمَّا ذكرَ نِعمَه ذكرَ ابتداءَ خلقِه للعبدِ.

﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾: أوجَدْناكم.

---

(١) في (أ): «بالظلم الجهل».

(٢) اتفق السبعة على القراءة بالياء دون همز فيها.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٢٠). وقد اتفق العشرة هنا على القراءة: ﴿مَعَٰيِشَ﴾ بالياء.

والخلقُ: التَّقديرُ في اللُّغةِ.

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾؛ أي: أثبَتْنا هذه الصُّورةَ بعد الإيجادِ، قال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ [المؤمنون: ١٢] الآيات، فآدمُ خُلِقَ من طينٍ ثمَّ صُوِّرَ، وذُرِّيَّتُه صُوِّرُوا في أرحامِ الأمَّهاتِ بعد أن خُلِقُوا فيها وفي أصلابِ الآباءِ.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾ قيلَ: ﴿ثُمَّ﴾ ليس للتَّراخي، وهو كما تقولُ: «فلانٌ رجلٌ جليلٌ قد وَلِيَ أعمالًا، ثمَّ كانَ أبوه قد وَلِيَ أعمالًا جليلةً»، أو أرادَ: ثمَّ إنِّي أُخبِرُكم بأنِّي قلتُ للملائكةِ: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

وقيلَ: «ثمَّ» للتَّرتيبِ؛ أي: خلَقْناكُم وصوَّرناكُم بعد أن سبقَ إكرامُنا إيّاكم بأنْ قُلنا للملائكةِ: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، والتَّقديرُ: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني: آدمَ ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، آدمَ في الطِّينِ وذُرِّيَّتَه في ظهرِه، إذ ورَدَ في الخبرِ: أنَّه أخرجَهم من ظهرِ آدمَ في صورةِ الذَّرِّ(١)، ثمَّ أمرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لآدمَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: آدمَ(٢)، ذُكِرَ بلفظِ الجمعِ لأنَّه أبو البشرِ، ومَن خَلَقه فهو من صُلبِه.

ويجوزُ أن يرجعَ في ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ إليه أيضًا، كما يُقالُ: «نحنُ قتَلْناكُم»؛ أي: قتَلْنا سيِّدَكُم، وعلى هذا يستقيمُ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٥٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٢٧)، والحاكم في «المسدرك» (٤٠٠٠) وصححه، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قِبَلًا، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٤٢).

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ قيلَ: هو استثناءُ الشَّيءِ من غيرِ جنسِه، وقال قومٌ: منَ الجنسِ، وقد اختلفَ العلماءُ في أنَّه: هل كانَ من جُملةِ الملائكةِ أم لا؟ كما سبقَ.

* * *

(١٢) ـ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾.

قولُه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾: أيُّ شيءٍ منَعَكَ؟ وهذا سؤالُ توبيخٍ.

﴿أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ قال الفرَّاءُ: أي: ما منَعَكَ أن تسجُدَ؟ و(أنْ) في هذا الموضعِ يصحبُها (لا)، وتكونُ صلةً، وكذلك في قولِه: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، ويُذكَرُ للاستيثاقِ منَ الجحدِ، ومثلُه ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]؛ أي: ليعلَمَ[١].

وقال الزَّجّاجُ: (لا) لغوٌ[٢].

وقيلَ: معنى الآيةِ: من قال لكَ: لا تسجُدْ؟ وهذا لأنَّ في المنعِ طرفًا منَ القولِ، ثمَّ أُدخِلَ «أنْ» كما تقولُ: قد قلتُ لك أَنْ لا تفعَلْ كذا[٣].

وقيلَ: الممنوعُ عن الشَّيءِ كالمُضطرِّ إلى فعلِ غيرِه، فإبليسُ كان لِـمَا عَراه من الاستكبارِ منَ السُّجودِ لآدمَ كالمُضطرِّ إلى ألّا يسجُدَ، فقيلَ له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾؛ أي: ما اضْطَرَّكَ إلى أنْ لا تسجُدَ.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ أي: منَعَني منَ السُّجودِ فَضلي عليه، فهذا جوابٌ من حيثُ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٧٤)، و(٣/ ١٣٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٢٢).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٧) عن أحمد بن يحيى المعروف بثعلب. وانظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٤٤)، و«التيسير» لأبي حفص النسفي (٦/ ٢٩٩).

المعنى كما تقولُ: لِـمَن هذه الدّارُ؟ فيقولُ المُخاطَبُ: مالِكُها زيدٌ، فليس هذا عينَ الجوابِ، بل هو كلامٌ يرجعُ إلى معنَى الجوابِ.

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾؛ أي: أنـا خيـرٌ منه لأنَّكَ خلَقْتَنـي منَ النَّارِ، ومـن طَبعِها العلُوُّ والصُّعـودُ، وهـو مخلـوقٌ مـنَ الطِّينِ الـذي طبعُـه التسـفُّلُ، ولـم يَـدْرِ أنَّ الفضلَ بتفضيـلِ الله لا بتفـاوُتِ الأجناسِ[١].

ثمَّ في ظاهرِ الحالِ: القدرُ الذي كانَ في النّارِ منَ العُلوِّ قد يُجاوِزُ الحدَّ فتُورِثُ صاحبَها الطَّيشَ والخِفّةَ، وما في الطِّينِ منَ الثِّقلِ قد يُورِثُ الرَّزانةَ والحلمَ والثَّباتَ، فالنّارُ في إبليسَ أدَّتْه إلى البَوارِ، والطِّينيّةُ في آدمَ أدَّتْه إلى السَّعادةِ. ذكرَه القفّالُ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: كانتِ الطّاعةُ أولى بإبليسَ منَ القياسِ، فعصى ربَّه، وهو أوَّلُ مَن قاسَ برأيِه[٢]. والقياسُ في مخالفةِ النَّصِّ مردودٌ.

***

---

(١) وذهب بعضهم إلى تفضيل الطين على النار، وقد ذكر الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٩) خمسة وجوه لتفضيل الطين على النار، وأفاض ابن قيم الجوزية في ذلك فذكر خمسة عشر وجهًا لفضيل الطين على النار. انظر: «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٩).

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٤٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٨) بلفظ: «أول من قاس إبليس فأخطأ القياس، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله تعالى مع إبليس».
وروى الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٨٦) عن الحسن وابن سيرين قالا: «أول مَن قاس إبليس».
قال الطبري: يعنيان بذلك: القياس الخطأ.
قال ابن عطية في «تفسيره» (٢/ ٣٧٩): ولا يتأول عليهما إنكار القياس، وإنما خرج كلامهما نهيًا عما كان في زمنهما من مقاييس الخوارج وغيرهم، فأرادا حمل الناس على الجادة».

(١٣) ـ ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾؛ أي: منَ السَّماءِ ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنَّ أهلَها الملائكةُ المُتواضِعُونَ.

وقيلَ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾؛ أي: منَ الحجّةِ.

﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾؛ أي: مـنَ الأذِلّاءِ، بيَّـنَ بهذا أنَّ مَـن عصَى مولاه فهو ذليلٌ.

وقيلَ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾؛ أي: من صُورتِكَ التي أنتَ فيها؛ لأنَّه افتخرَ بأنَّه منَ النّارِ، فشُوِّهَتْ صورتُه بالإظلامِ وزوالِ إشراقِه. قالَه أبو رَوقٍ والبَجَليُّ.

وقيـلَ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾؛ أي: انتَقِـلْ مـنَ الأرضِ إلـى جزائـرِ البحارِ، كمـا يُقالُ: هبَطْنـا أرضَ كـذا؛ أي: انتقَلْنـا إليهـا من مـكانٍ آخرَ، فكأنّـه أُخرِجَ مـنَ الأرضِ إلى جزائـرِ البحـارِ، فسُـلطانُه فيهـا، فـلا يدخـلُ الأرضَ إلّا كهيئةِ السّـارقِ يخـافُ فيها حتّـى يخـرُجَ منها.

* * *

(١٤ ـ ١٥) ـ ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾؛ أي: أمهِلْني إلى يومِ البعثِ.

وقيلَ: أرادَ: أخِّرْ عُقوبَتي إلى يومِ القيامةِ، فأجابَه إلى ذلك استِدراجًا وزيادةً في العقوبةِ.

وقيل: أرادَ ألّا يذوقَ الموتةَ الأولى؛ لأنَّ يومَ البعثِ لا موتَ بعدَه، فإذَنْ طلبَ ألّا يموتَ، فقالَ الله:

﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾؛ أي: ممَّن يُؤخَّرُ موتُه لا إلى يومِ القيامةِ، ولكنْ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ

﴿ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨]؛ أي: لكَ يومٌ مُؤقَّتٌ معلومٌ عندي لا أُميتُكَ قبلَه، فأنتَ مُنظَرٌ إليه.

قال ابنُ عبّاسٍ: أنظَرَه إلى النَّفخةِ الأولى حيثُ يموتُ الخلقُ كلُّهم، وكانَ طلبُ الإنظارِ إلى النَّفخةِ الثّانيةِ حيثُ يقومُ النّاسُ لربِّ العالَـمين، فأبَى الله ذلك عليه[1].

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ أي: إنَّكَ مُنظَرٌ، وقد يُذكَرُ الجمعُ في مثلِ هذا الموضعِ والمُرادُ به المُخاطَبُ، وقال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ولـم يتقدَّمْ ذكرُ مَن يُبعَثُ؛ لأن القصّةَ[2] في آدمَ وذُرِّيَّته، فدلَّتِ القرينةُ على أنَّهم المبعوثُونَ، وهو كقولِه: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾؛ أي: منَ السَّماءِ، أو الجنّةِ، ولـم يجرِ لـها ذِكرٌ، ولكنْ دلَّتْ قرينةُ الحالِ.

***

(١٦) - ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: فبإغوائِكَ إيّايَ لأُغوِيَنَّهم، والباءُ بمعنَى اللّامِ، كما تقولُ: فعَلْتُ هذا معكَ لسُوءِ فعلِكَ، وبسُوءِ فعلِكَ.

وقيل: هذا قسَمٌ؛ أي: بإغوائِكَ إيّايَ وبقُدرتِكَ عليَّ لأقعُدَنَّ لهم على الطَّريقِ الذي يسلُكونَه إلى الجنّةِ، فأُزيِّنُ لهم الباطلَ، وأقطعُ عليهم الطَّريقَ.

وكأنَّ إبليسَ أعظَمَ[3] قَدْرَ إغواءِ الله إيّاه؛ لِـمَا فيه منَ التَّسليطِ على العبادِ، فأقسمَ به إعظامًا لقَدرِه عندَه.

---

(١) ذكر نحوه السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٠٥)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٧). وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٩) عن السدي.

(٢) في (أ): «لأن القضية».

(٣) في (أ): «قد عظم».

ويجوزُ أن يكونَ هذا على طريقِ العربِ؛ فإنَّهم قد يُقسِمُونَ بأشياءَ والقصدُ تأكيدُ الخبرِ؛ أي: حقًّا لأقعُدَنَّ لهم، وقد قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فهذا يدلُّ على أنَّه أرادَ الإقسامَ باللهِ وبقُدرتِه.

والإغواءُ: إيقاعُ الغيِّ في القلبِ، والغيُّ: هو المذمومُ منَ الفعلِ؛ أي: فبما أوقَعْتُ في قلبي منَ الغيِّ والعِنادِ والاستِكبارِ، وهذا لأنَّ كفرَ إبليسَ ليس كفرَ جهلٍ، بل هو كفرُ عنادٍ واستكبارٍ.

وقيلَ: الإغواءُ: الإهلاكُ، ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]؛ أي: هَلاكًا، ومنه: غَوِيَ الفصيلُ يَغْوَى غوًى؛ أي: أكثَرَ منَ اللَّبنِ حتَّى يفسُدَ جوفُه ويُشرِفَ على الهلاكِ.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أي: على طريقِكَ المُستقيمِ، ففيه حذفٌ، وهو كقولِك: «ضُرِبَ زيدٌ الظَّهرَ والبطنَ».

وقيل: أي: لأقعُدَنَّ لهم في طريقِكَ، فالمحذوفُ «في».

* * *

(١٧) - ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: لأصُدَّنَّهم عن الحقِّ بكلِّ حيلةٍ.

قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: آخِرَتِهم، فأُشكِّكُهم فيها وأُزيِّنُ لهم أنْ لا بعثَ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: أُرغِّبُهم في الدُّنيا وأُزيِّنُها لهم[1].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٥٢)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٤٤).

فمـا بيـنَ أيديهـم: الآخـرةُ؛ لأنَّهم يَـرِدُونَ عليهـا، وما خلفَهـم: الدُّنيـا؛ لأنَّهم يُخلِّفُونَهَا.

وقيلَ: ما بينَ أيديهم الدُّنيا، وما خلفَهم الآخرةُ.

﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: من قِبَلِ حسناتِهم أُنفِّرُهم عنها ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾؛ أي: أُزيِّنُ لهم السَّيِّئاتِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: عن أيمانِهم أُشبِّهُ عليهم أمرَ دينِهم، وعن شمائلِهم أُشهِّي لهم المعاصيَ[(١)].

وقيلَ: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: لأُغوِيَنَّهم حتَّى يُكذِّبوا بما تقدَّمَ من أمورِ الأممِ الماضيةِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ حتَّى يُكذِّبُوا بأمرِ البعثِ ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾؛ أي: لأُضِلَّنَّهم فيما يعمَلونَ؛ لأنَّ الكسبَ يُقالُ فيه: ذلك بما كَسَبَتْ يداكَ؛ لأنَّ اليدَينِ هما الأصلُ في التَّصرُّفِ والاكتِسابِ.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ لأنَّ مُعظَمَ الخلقِ عُصاةٌ.

* * *

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ أي: منَ الجنّةِ ﴿مَذْءُومًا﴾؛ أي: مذمومًا، والذَّأمُ: العَيبُ ﴿مَّدْحُورًا﴾: مطرودًا، والدَّحرُ: الطَّردُ.

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ الـلَّامُ لامُ القسـمِ، والجـوابُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛

---

(١) هذا تتمة خبر ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم، رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٩٦)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٤٤ ـ ١٤٤٦) مفرقًا.

أي: منكَ ومن بني آدمَ؛ لأنَّ ذكرَهم قد جرَى إذ قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ خاطَبَ ولدَ آدمَ.

قولُه: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا﴾ قال لآدمَ بعد إخراجِ إبليسَ من موضعِه منَ السَّماءِ: اسكُنِ الجنَّةَ أنتَ وحوّاءُ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أورَدَ عليهما الخواطرَ المُزيِّنةَ لهما أكلَ الشَّجرةِ.

والوَسْوَسةُ: الصَّوتُ الخفيُّ.

﴿لَهُمَا﴾؛ أي: إليهما ﴿لِيُبْدِىَ﴾؛ أي: ليُظهِرَ، واللّامُ لامُ العاقبةِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ لم يعلَمْ بُدُوَّ عورتِهما، بل قصَدَ حملَهما على المعصيةِ، وهو كقولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿مَا وُۥرِىَ﴾؛ أي: ما سُتِرَ عنهما، يُقالُ: وارَيتُه أُوارِيه مُواراةً.

والسَّوءةُ: الفَرجُ؛ لأنَّ ظُهورَه يسوءُ الإنسانَ، وهذا لأنَّهما لـمَّا عصَيا تهافتَ عنهما الثَّوبُ السّاترُ لهما.

ثمَّ؛ قيلَ: كانَ عليهما نورٌ لا تُرى عوراتُهما فزالَ النُّورُ.

وقيلَ: إنَّما بدَتْ سوآتُهما لهما لا لغيرِهما، وأشارَ إلى هذا قولُه: ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا﴾.

ثمَّ؛ يحتمِلُ أن تكونَ وسوسةُ إبليسَ بأن تكلَّمَ بكلامٍ خفيٍّ، فأوصلَه الله إلى

قلبِ آدمَ، ويحتملُ أن يكونَ إبليسُ تراءَى لآدمَ، وكانَ آدمُ وحوّاءُ يخرُجانِ منَ الجنّةِ إلى السَّماءِ.

وقيلَ: أدخلَتِ الحيّةُ إبليسَ الجنّةَ حتَّى كلَّمَه بهذا.

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ عند الكوفيِّينَ: لئلّا تكونا ملَكَينِ، وعند البصريِّينَ: إلّا كراهةَ أن تكونا، فحُذِفَ المُضافُ[(١)].

وطمِعَ آدمُ في الخلودِ لأنَّه علِمَ أنَّ الملائكةَ لا يموتُونَ إلى يومِ القيامةِ.

وقرأ ابنُ عبّاسٍ: (ملِكَينِ) بكسرِ اللّامِ[(٢)]، وقال[(٣)]: أتاهُما الملعونُ من جهةِ المُلكِ، ولهذا قالَ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠][(٤)].

* * *

(٢١) ـ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾؛ أي: حلَفَ لهما، يُقالُ: أقسَمَ إقسامًا؛ أي: حلَفَ، وقد تَرِدُ المُفاعلةُ ولا تقتَضي اثنَينِ.

---

(١) انظر: «البسيط» (٩/ ٦٣) وعنه نقل المصنف، وانظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٣٢٢)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ١٠٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٧).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن يحيى بن أبي كثير.

(٣) في (أ): «وقيل».

(٤) هذا الكلام هو كلام الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٨) استنبطه من قراءة ابن عباس السابقة، حيث قال: «وكأن ابن عباس ويحيى وجَّها تأويل الكلام إلى أن الشيطان قال لهما: (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلِكين) من الملوك، وأنهما تأولا في ذلك قول الله في موضع آخر: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾»، لكنه رجح قراءة الجمهور، وانظر كلامه في تعليل ذلك ثمة.

﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ قيلَ: قال لـهما: إنِّي خُلِقْتُ قبلَكما، وأنا أعلَمُ منكما، فاتَّبعاني أُرشِدْكما. ذكرَه قتادةُ[1].

* * *

(٢٢) ـ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾؛ أي: أوقعَهما في الهلاكِ، يُقالُ: دَلَّى فلانٌ الشَّيءَ، وتدَلَّى ذلك الشَّيءُ بنفسِه، والتَّدليةُ: التَّعليقُ.

وقال أبو عُبيدةَ: أي: خلَّاهما، من تدلِيةِ الدَّلوِ، وهي: إرسالُها في البئرِ[2].

وقيلَ: ﴿دلَّاهما﴾؛ أي: دلَّلهما، من الدَّالَةِ، وهي الجرأةُ؛ أي: جرَّأهما على المعصيةِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: غرَّهما باليمينِ، وكان آدمُ يظنُّ أنَّه لا يحلفُ أحدٌ بالله كاذبًا[3].

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ أي: أكَلَا أكلًا يسيرًا ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: تقلَّصَ النُّورُ[4] الذي كان لباسَهما، فصارَ أظفارًا في الأيدي والأرجُلِ[5].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٥١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٢)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٦٦).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٦٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٠٨).

(٤) في (أ): «الثوب».

(٥) ذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (٤/ ٢٣١٣)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٦٨).

وروى ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٣٠٨)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٣٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان لباسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما، وترك الظفر تذكرة».

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ ظنًّا أنَّ العورةَ ظهرَتْ لغيرِهما كما ظهرَتْ لهما، وقد قال قومٌ: ظهرَتْ للكلِّ، فأرادا سترَ العورةِ لئلَّا ترى الملائكةُ، أو لئلَّا يَرى كلُّ واحدٍ من صاحبِه عورتَه فطَفِقا يخصِفانِ، يُقالُ: طفِقَ؛ أي: أخذَ في الفعلِ، يخصِفانِ؛ أي: يُطبِقان على أبدانِهما الورقَ، والخَصَّافُ: الذي يُرقِّعُ النَّعلَ، والمِخْصَفُ: المِثْقَبُ.

وقيلَ: في الآيةِ دليلٌ على أنَّ الله أوجَبَ عليهما التَّستُّرَ حتَّى ابتَدَرا إلى سترِ العورةِ.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾؛ أي: قال لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّنُ العَداوةِ.

* * *

(٢٣) ـ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾؛ أي: نقَّصْناها ثوابَ الطّاعةِ ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: لم تستُرْ ذنوبَنا بقَبولِ التَّوبةِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: الهالكينَ.

ومعنى الآيةِ: أنَّهما اعترَفا بالخطيئةِ وتابا.

* * *

(٢٤) ـ ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾؛ أي: منَ الجنّةِ، والخطابُ لآدمَ وحوّاءَ وإبليسَ.

وقيلَ: تدخلُ فيه الحيّةُ.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أرادَ عداوةَ آدمَ وحوَّاءَ مع إبليسَ والحيّةِ، ولا عداوةَ بين

آدمَ وحوَّاءَ، وفي الخبرِ في أمرِ الحيَّاتِ: «ما سالَـمْناهُنَّ مذ حارَبْناهُنَّ»[1].

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: موضعُ استقرارٍ في الحياةِ، وقيلَ: في القبرِ.

وقيلَ: المُستقَرُّ: الاستقرارُ، كقولِه: ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]؛ أي: إدخالًا.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾؛ أي: انتفاعٌ.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: إلى وقتٍ معلومٍ عندي، وفي التَّفسيرِ: إلى حينِ الموتِ.

* * *

(٢٥) ـ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ لـم يذكرِ الواوَ، ولو ذكرَها لجازَ أيضًا، وهو كقولِكَ: قال زيدٌ لعمرٍو كذا، قالَ له كذا.

و﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرضِ المذكورةِ في قولِه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾.

ثـمَّ؛ قيـلَ: كانَـتْ معصيـةُ آدمَ قبـلَ النُّبـوَّةِ، ومـا قصـدَ الاسـتحلالَ بـل اعتَـدَّ بقـولِ إبليـسَ.

وقيلَ: أخطأَ بتأويلٍ؛ فإنَّه حمَلَ الخطابَ على شجرةٍ مُعيَّنةٍ، وإنَّما نُهِيَ عن جنسِ تلك الشَّجرةِ.

وقيل: نسِيَ قولَ الله تعالى.

﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ لمَّا تُوفِّيَ آدمُ غسَّلَتْه الملائكةُ، فكفَّنَته وحنَّطَتْه وصلَّوا عليه

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٠٣٧)، وأبو داود (٥٢٥٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٣٦٦)، وأبو داود (٥٢٤٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بمكّةَ، فتقَدَّمَهم جبريلُ عليه السَّلامُ ودفَنُوه بمسجدِ الخيفِ[١]. وقيلَ: بسَرَنْدِيبَ[٢].

وقالتِ الملائكةُ لبَنيهِ: مثلَ هذا فاصنَعُوا بمَوتاكُم، فإنَّكم لا ترَونَنا بعد هذا إلى يومِ القيامةِ[٣].

قُرِئَ: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بضمِّ التّاءِ و: ﴿تَخرُجونَ﴾ بفتحِها[٤].

***

(٢٦) - ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ لـمَّا أفضَتْ وسوسةُ إبليسَ إلى ظُهورِ عورةِ آدمَ وحوّاءَ بيَّنَ أنَّه جعلَ لذُرِّيَّتِه ما يسترُ به العورةَ، وأمرَهم بالتَّستُّرِ، وبيَّنَ أنَّ التَّقوى خيرُ لباسٍ، وإنزالُ اللِّباسِ بإنزالِ ما يكونُ عنه اللِّباسُ؛ أي: المطرُ الذي يُنبِتُ القطنَ، ويُقيمُ البهائمَ التي منها الأصوافُ والأوبارُ والأشعارُ.

وقيلَ: هذا الإنزالُ إنزالُ شيءٍ منَ اللِّباسِ مع آدمَ وحوّاءَ ليكونَ مثالًا لغيرِه، وفي الخبرِ: أنَّه أنزلَ بعضَ آلاتِ الحديدِ مع آدمَ.

---

(١) رواه الداقطني في «سننه» (١٨١٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٢٣١): «واختلفوا في موضع دفنه: فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط فيه في الهند...».

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٥٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩٩) عن أبي برزة، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه سوار بن مصعب وهو متروك.

(٤) قرأ بالفتح حمزة والكسائي وابن ذكوان، والباقون بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ٢٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٩).

وقيـلَ: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: أعطَيناكُـم، وسـمَّى ذلـك إنـزالًا لأنَّ الملـكَ مـنَ السَّـماءِ نـزلَ بإباحـةِ مـا أُبيـحَ للعبـدِ، ولهـذا قـالَ سـعيدُ بـنُ جُبيـرٍ: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: خلَقْنـا لكم[1]، كقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦]؛ أي: خلَقَ.

وقيلَ: أي: ألهَمْناكم كيفيّةَ صنعتِه.

﴿وَرِيشٗا﴾ وقُرِئَ: (ورياشًا)[2]، وهو الأثاثُ منَ المتاعِ.

وقيلَ: الرِّيشُ: المالُ ثوبًا كان أو غيرَه، ثمَّ قيلَ: الرِّيشُ بمعنى الرِّياشِ، مثلَ: لبسٍ ولباسٍ، وقيلَ: الرِّياشُ جمعُ الرِّيشِ، وريشُ الطّائرِ: ما ستَرَه الله به.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ على الاستئنافِ، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ صفةٌ، أو بدلٌ، أو عطفُ بيانٍ، وقيلَ: زيادةٌ.

وقُرِئَ: ﴿ولباسَ﴾ بالنَّصبِ[3]؛ أي: وأنزَلْنا لباسَ التَّقوَى، فقولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأٌ وخبرُه ﴿خَيۡرٞ﴾.

ثمَّ قيلَ: أرادَ بلباسِ التَّقوى: سترَ العورةِ في الطَّوافِ وغيرِه، وكانَ المُشرِكون يطُوفُونَ بالبيتِ عُراةً.

وقيلَ: لباسُ التَّقوى: الإيمانُ والعملُ الصّالحُ. وقيلَ: الحياءُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٧٣).

(٢) نسبت لعثمان وابن عباس رضي الله عنهم وعدد من القراء. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٨)، و«المحتسب» (١/ ٢٤٦)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٥١).

(٣) هي قراءة نافع وابن عامر والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٩).

وقالَ زيدُ بنُ عليٍّ: لباسُ التَّقوى: الدِّرعُ والمِغْفَرُ والسّاعدانِ والسّاقانِ يتَّقي بها في الحربِ(١).

وقيلَ: لباسُ التَّقوى: الخشِنُ منَ الثِّيابِ؛ فإنَّه أقربُ إلى التَّواضُعِ وتركِ الرُّعوناتِ(٢).

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنزالُ اللِّباسِ والرِّياشِ من آياتِ الله؛ أي: سترُ العورةِ ممّا أوجَبَه الله بآياتِه.

وقيل: خَلقُه اللِّباسَ ممَّا يدُلُّ على كمالِ قُدرتِه.

وقيلَ: لباسُ التَّقوى من أعلامِ الله التي نصَبَها لمعرفةِ المُتَّقين من عبادِه.

* * *

(٢٧) - ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: لا يصرِفنَّكم الشَّيطانُ عنِ الدِّينِ.

﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾؛ أي: كما فتَنَ أبوَيكم بالإخراجِ منَ الجنّةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٧).

(٢) وردَّ القرطبي هذا القول بأنه دعوى، فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول القوى، وقد اشرى تميم الداري حلة بألف درهم كان يصلي فيها. وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد. وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار. أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتان والصوف من الثياب، ويقول: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ هيهات! انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ١٨٦ و٢٠٣)

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا﴾؛ أي: كانَ سببَ ذلك.

﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ اللّامُ لامُ العاقبةِ.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾؛ أي: إبليسُ ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أعادَ ﴿هُوَ﴾ ليَحسُنَ العطفُ، كقولِه: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾؛ أي: جماعتُه وجندُه ومَن كانَ من نسلِه.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾؛ أي: أجرَى الله العادةَ بأنَّ بني آدمَ لا يرونَ الشَّياطينَ اليومَ، وفي الخبرِ: «إنَّ الشَّيطانَ يجري من ابنِ آدمَ مَجرَى الدَّمِ»(١)، وقالَ الله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكفرةِ زيادةً في عقوبتِهم، وسوَّينا بينَهم في الذَّهابِ عن الحقِّ.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾؛ أي: منَ التَّعرِّي في الطَّوافِ وغيرِه.

والفاحشةُ: ما نهَى الله عنه.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ أي: احتَجُّوا بتقليدِهم لأسلافِهم، وبأنَّ الله أمرَهم بها.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: لا يأمرُ بالمعصيةِ؛ لأنَّ الفحشاءَ ما يكونُ

(١) رواه البخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٥)، من حديث أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها، ورواه مسلم (٢١٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

قبيحًا، وما أمرَ الله به فليس بقبيحٍ، فبيَّنَ أنَّهم مُتحكِّمونَ، ولا[1] دليلَ لهم على أنَّ الله أمرَهم بما ادَّعَوا.

***

(٢٩) - ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قال ابنُ عباسٍ: بـ«لا إله إلا الله»[2].

وقيلَ: بالعدلِ.

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾؛ أي: قال: أقسِطُوا وأقيمُوا وجوهَكم؛ أي: توجَّهوا في الصَّلاةِ إلى القِبلةِ ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: في وقتِ كلِّ صلاةٍ.

وقيلَ: في أيِّ مسجدٍ كنتُم.

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: وحِّدوه ولا تُشرِكُوا به شيئًا.

وقيلَ: في الآيةِ إضمارٌ؛ أي: أمرَ ربِّي بالقسطِ، فأطيعُوه وأقيمُوا وجوهَكم.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ أي: كما خلقَكُم ولم تكونُوا شيئًا كذلك تعودونَ يومَ القيامةِ أحياءً، فليس بعثُكم بأشدَّ من ابتداءِ خلقِكم.

وقيل: كما بدأَكم عَرايا تعودُونَ إليه عَرايا[3]، قالَ الله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

***

---

(١) في (أ): «لا» بلا واو.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٣)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٨٩).

(٣) في (ف): «عرياناً» في الموضعين.

(٣٠) ـ ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾؛ أي: تعودُونَ مُختلفينَ سُعداءَ وأشقياءَ، فهو نصبٌ على الحالِ.

وقيلَ: أي: هَدَى فريقًا.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ نُصِبَ بما وقعَ على عائدِ ذكرِه منَ الفعلِ، كقولِه: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ [الإنسان: ٣١].

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾؛ أي: انقادُوا لوسوسةِ الشَّياطينِ، وإنْ كانتِ الهدايةُ والإضلالُ منَ اللهِ.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ هذا في قومٍ ليسُوا مُعانِدين، بل أخذُوا بالتَّقليدِ فظَنُّوا أنَّهم مُهتَدونَ، وهذا ردٌّ عليهم في قولِـهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

* * *

(٣١) ـ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

قولُه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: اِلبَسُوا الثِّيابَ في المسجدِ الحرامِ وغيرِه منَ المساجدِ، وكانُوا يتعَرَّونَ في الطَّوافِ وفي المسجدِ الحرامِ.

والزِّينةُ: ما وارَى العورةَ.

﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: للصَّلاةِ والطَّوافِ، وقد قامَ الدَّليلُ على وُجوبِ سترِ العورةِ في غيرِ المساجدِ أيضًا.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ كانَ أهلُ الجاهليّةِ لا يأكُلونَ دَسَمًا في أيّامِ حَجِّهم، ويكتَفُونَ باليسيرِ منَ الطَّعامِ، فبيَّنَ أنَّ الحلالَ والحرامَ ما يُتلقَّى من شرعِ محمَّدٍ ﷺ[1].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾؛ أي: لا تُجاوِزُوا أمرَ الله، وإنَّما كانُوا يتعرَّونَ في الطَّوافِ لقولِهم: لا نطوفُ في ثوبٍ عَصَينا الله فيه، أو للتَّفاؤلِ بالتَّجرُّدِ منَ الذُّنوبِ.

وفي الخبرِ: «لكلِّ شيءٍ زينةٌ، وزينةُ الصَّلاةِ رفعُ الأيدي فيها في ثلاثةِ مواطنَ: إذا تحرَّمْتَ بالصَّلاةِ، وإذا ركَعْتَ، وإذا رفَعْتَ رأسَكَ منَ الرُّكوعِ»[2]، فعلى هذا: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: ارفَعُوا أيديَكم في التَّكبيرِ عند التَّحرُّمِ بالصَّلاةِ، وعند الرُّكوعِ، وعند الارتفاعِ منه.

* * *

(٣٢) ـ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ ثمَّ أُمِرَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ بتَوبيخِهم في تحريمِ ما لـم يُحرِّمْه الله.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٧٧)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٦/ ٣٢٦) عن الكلبي، وانظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ١٠١).

(٢) رواه البخاري في «رفع اليدين في الصلاة» (٥٨)، والأثرم كما في «التمهيد» لابن عبد البر (٦/ ٣٦١)، عن النعمان بن أبي عياش، وروي نحوه مرفوعًا رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٤٧٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٨١)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي إسناده إسرائيل بن حاتم والأصبغ بن نباتة، قال الذهبي: «إسرائيل صاحب عجائب لا يعتمد عليه، وأصبغ شيعي متروك عند النسائي».

﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: اللِّباسَ الذي تُسترُ به العورةُ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ أي: الحلالَ.

يعني: ما حرَّمُوه منَ البَحيرةِ والسّائبةِ، وتحريمِ الأطعمةِ في الحجِّ، وليس يُريدُ به كلَّ زينةٍ، وكلَّ طيِّبٍ، بل أرادَ ما أباحَه وحلَّلَه، قال الله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]؛ أي: حلَّ.

ولو أجابُوا عن هذا السُّؤالِ لَـمَا نسَبُوا التَّحريمَ إلى تقليدِ الآباءِ، وليس ذلك حجّةً، والمعنى: لا أحدَ يقدرُ على أن يُحرِّمَ ما أحلَّه الله.

﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: هي للمُؤمنينَ في الدُّنيا مُشتركةٌ، وهي لهم في الآخرةِ خالصةٌ؛ لأنَّها في الآخرةِ ثوابٌ فتختَصُّ بالمُؤمنين، وفي الدُّنيا ابتلاءٌ فتشملُ المؤمنَ والكافرَ.

قال أبو عليٍّ: ﴿خَالِصَةً﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: هي ثابتةٌ للذين آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا في حالِ خُلوصِها لهم يومَ القيامةِ.

وقُرِئَ: ﴿خالصةٌ﴾ بالرَّفعِ[1]، وهي خبرٌ بعد خبرٍ؛ أي: هي ثابتةٌ للمؤمنينَ في الدُّنيا خالصةٌ لهم يومَ القيامةِ[2].

وقولُه: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾؛ أي: أظهرَ[3].

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كالذي فصَّلتُ لكم الحرامَ والحلالَ أُفصِّلُ لكم ما تحتاجُونَ إليه.

* * *

(١) قرأ بها نافع، والباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٩).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٤/ ١٤ ـ ١٧).

(٣) في (أ): «أظهره».

(٣٣) - ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ قال الكلبيُّ: لـمَّا لبِسَ المسلمونَ الثِّيابَ وطافُوا بالبيتِ عيَّرهم المُشركون فنزلَتْ هذه الآيةُ[١].

والفواحشُ: الأعمالُ المُفرِطةُ في القُبحِ، وسمَّى الله الزِّنا في مواضعَ منَ القرآنِ فاحشةً.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أي: سِرَّ الزِّنا وعلانيتَه[٢].

وقيلَ: أرادَ بـ﴿ما ظهرَ﴾: طوافَهم بالبيتِ وهم عُريٌّ[٣]، وبـ﴿ما بطَنَ﴾ طوافَ النِّساءِ باللَّيلِ عُراةً.

وقيلَ: ﴿مَا ظَهَرَ﴾: هو الظُّلمُ على النَّاسِ، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: السَّرقةُ والزِّنا.

﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟﴾ هذه الأشياءُ داخلةٌ في الفواحشِ، أفرَدَها بالذِّكرِ للبيانِ والتَّفصيلِ؛ أي: الفواحشُ التي منها البغيُ والشِّرْكُ.

ثمَّ قيلَ: الإثمُ ما لا يجبُ فيه الحدُّ.

وقيلَ: الإثمُ: الخمرُ؛ لقولِه: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والبغيُ: ظُلمُ النّاسِ.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: كتابًا فيه حجَّةٌ لكم بأنَّ معه شريكًا.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ١٠٦) عن الكلبي، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥١٢) دون نسبة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٦٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤١٦).

(٣) في (أ): «وهم عراة».

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ قولَهم: الملائكةُ بناتُ الله[1].

وهو عامٌّ في تحريمِ كلِّ قولٍ في الدِّينِ من غيرِ يقينٍ بغيرِ الحقِّ، إنَّما قال هذا لأنَّ البغيَ في الأصلِ: الاستِطالةُ، وقد يقعُ منها ما لا يُذَمُّ، وهذا كقولِه: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ لأنَّه قد يقعُ القتلُ على وجهٍ لا يحرُمُ.

وقولُه: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ لا يتضمَّنُ أن يكونَ منَ الشِّركِ ما نزلَ به سلطانٌ، بل معناه: لا شركَ إلَّا هكذا، كما تقولُ: اجتَنِبِ الخمرَ المُذهِبةَ للعقولِ؛ فإنَّها هكذا.

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ أي: لكلِّ أمةٍ مُشركةٍ أجلٌ عندَ الله في حلولِ العقابِ بهم، فلا يَضِقْ ذَرعُكَ يا محمَّدُ في تأخيرِ العذابِ عنهم، فإنَّه إمهالٌ لا إهمالٌ.

وقيلَ: أرادَ أجلَ العمرِ، فإذا انقطعَ ذلك الأجلُ لا يستأخِرونَ بعدَه ساعةً، وإنَّما قال: ﴿سَاعَةً﴾ لأنَّ السّاعةَ هي أقلُّ ما يُذكَرُ منَ الزَّمانِ باسمٍ، وإلّا فلا يستأخِرونَ ساعةً ولا أقلَّ من ساعةٍ.

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ١٠٩) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (٦/ ٣٣٣) عن عطاء.

(٣٥ - ٣٦) - ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أخبرَ أنَّه يُرسِلُ إليهم الرُّسلَ منهم لتكونَ إجابتُهم أقربَ.

﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾؛ أي: إنْ أتاكُم[1] رسلٌ منكم، و(ما) صلةٌ.

﴿يَقُصُّونَ﴾ القَصصُ: إتباعُ الحديثِ بعضِه بعضًا.

﴿ءَايَٰتِي﴾؛ أي: فَرائضي وأحكامي.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ أي: خافَني ﴿وَأَصۡلَحَ﴾؛ أي: ما بيني وبينَه ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: يومَ الفزَعِ الأكبرِ.

ثمَّ قيلَ: إنَّ المؤمنَ لا يلحقُه خوفٌ غدًا.

وقيلَ: قد تلحقُه أهوالُ[2] القيامةِ، ولكنَّ مآلَه الأمنُ.

وجوابُ قولِه: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ ما دلَّ عليه الكلامُ؛ أي: فأطيعُوهم.

وقال الزَّجّاجُ: جوابُه في الفاءِ في قولِه: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾[3].

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: التي يقُصُّ عليهم الرُّسلُ ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ أي: عنِ الانقِيادِ.

* * *

(١) في (أ): «أي: إن يأتيكم».

(٢) بعدها في (أ): «يوم».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٣٤).

(٣٧) ـ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾.

قولُـه: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ ﴾؛ أي: لا أحـدَ أظلَمُ مـمَّن اختلَـقَ ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾؛ أي: باطِلًا.

﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴾؛ أي: ما كُتِبَ لهم من رزقٍ وعُمرٍ وعملٍ.

وقيلَ: ما كُتِبَ لهم منَ العذابِ.

والكتابُ: القرآنُ؛ لأنَّ عذابَ الكفّارِ مذكورٌ فيه.

وقيلَ: الكتابُ: اللَّوحُ المحفوظُ.

وقيلَ: هو إشارةٌ إلى ما علِمَ الرَّبُّ منَ السَّعادةِ والشَّقاوةِ.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ على الأوَّلِ ﴿حَتَّىٰ ﴾ للغايةِ؛ أي: ينالُـهم ما كُتِبَ لهم من رزقٍ وعُمرٍ إلى وقتِ حُضورِ الموتِ.

وعلى الثّاني ليس ﴿ حَتَّىٰ ﴾ للغايةِ، بل هو ابتداءُ خبرٍ عنهم.

﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ هو سؤالُ توبيخٍ.

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾؛ أي: بطَلُوا وذهَبُوا ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ بالكفرِ عندَ مُعاينةِ الموتِ، وقيلَ: هذا يكونُ في الآخرةِ.

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾؛ أي: يتوفَّونَ عِدَّتَهم ولا يُغادِرُونَ منهم أحدًا.

* * *

(٣٨ ـ ٣٩) ـ ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾؛ أي: قالَ الله لهم، أو قال مالكٌ خازنُ النارِ لهم.

﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾؛ أي: في النّارِ مع أممٍ، فلا بدَّ من هذا الإضمارِ.

وقيلَ: أي: ادخُلوا في أُممٍ في النّارِ؛ أي: هم في النّارِ.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ﴾؛ أي: النّارَ ﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾؛ أي: التي سبقَتْها إلى النّارِ، وهي أختُها في الدِّينِ، وإنَّما اللَّعنُ لأنَّه ضلَّ بعضُهم باتِّباعِ بعضٍ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾؛ أي: تَدارَكُوا فيها ﴿جَمِيعٗا﴾؛ أي: مُجتَمعينَ ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾؛ أي: قالتِ الأتباعُ للقادةِ، وأُخراهُم دُخولًا لأُولاهُم دُخولًا، وهم القادةُ.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾؛ أي: زَيَّنوا لنا الشِّركَ، فأضعِفْ عليهم العذابَ، والضِّعفُ: مثلُ الشَّيءِ مرَّةً أو مرّاتٍ في اللُّغةِ؛ إذ الضِّعفُ زيادةٌ غيرُ محصورةٍ، قالَ الله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبأ: ٣٧].

﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ اللامُ لامُ «أَجْل»؛ لأنَّهم لـم يُخاطِبُوا أُولاهُم، ولكنْ قالوا في حقِّ أُولاهُم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾.

﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾؛ أي: للتّابعِ والمتبوعِ ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلمُ كلُّ فريقٍ ما بالفريقِ الآخرِ؛ إذ لو علمَ بعضُ مَن في النّارِ أنَّ عذابَ أحدٍ فوقَ عذابِه لكانَ

نوعَ سَلوةٍ له؛ قال الكلبيُّ: إنَّ أهوَنَهم عذابًا يرى أنَّه ليس في النّارِ أشدُّ عذابًا منه(١).

قولُه: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لأنَّكم كفَرْتُم كما كفَرْنا.

* * *

(٤٠) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كرَّرَ الإخبارَ عمَّا يفعلُه بالمُكذِّبِ والمُصدِّقِ، فذكرَ معانيَ لـم تدخُلْ فيما مضى؛ أي: إنَّ الذين كذَّبوا بالمُعجِزاتِ وبالقُرآنِ ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾؛ أي: ترَفَّعُوا عنِ الإيمانِ بها.

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قُرِئَ بالتّاءِ والتَّشديدِ، وقُرِئَ: ﴿تُفْتَحُ﴾ خفيفةً، وقُرِئَ بالياءِ خفيفةً(٢)؛ أي: لا تصعدُ أعمالُـهم إلى السَّماءِ؛ أي: لا تُقبَلُ أعمالُـهم.

وقيلَ: أي: لا تُفتَحُ لأرواحِهم أبوابُ السَّماءِ.

وفي الخبرِ: «إنَّ روحَ المؤمنِ يُعرَجُ بها إلى السَّماءِ فيُفتَحُ لـها فيُقالُ: مَرْحبًا بالنَّفسِ الطَّيِّبةِ التي كانَتْ في الجسدِ الطَّيِّبِ، فيُقالُ لـها ذلك حتَّى تنتهيَ إلى السَّماءِ

---

(١) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (٦/ ٣٤٢)، وروى مسلم (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا»، ورواه البخاري (٦٥٦٢) بلفظ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه».

(٢) قرأ أبو عمرو بتاء التأنيث مخفَّفًا، وحمزة والكسائي بياء التذكير مخفَّفًا، ونافعٌ وعاصمٌ وابن عامر وابن كثير بتاء التأنيث والتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٠)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

السّابعةِ، ويُستَفْتَحُ لروحِ الكافرِ فيُقالُ لـها: ارجِعي ذميمةً، فإنَّه لا تُفتَحُ لكِ أبوابُ السَّماءِ»(١).

وقيلَ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ إذا دَعَوا.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾؛ أي: حتَّى يدخُلَ ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ سَمُّ الخِياطِ وسُمُّه: ثُقبُ الإبرةِ، ومنه سُمِّيَ السُّمُّ القاتلُ؛ لأنَّه بلُطفِه يدخلُ في مسامِّ البدنِ حتَّى يصِلَ إلى القلبِ، فكلُّ ثُقبٍ لطيفٍ في البدَنِ يُسمَّى سُمًّا.

والخِيَاطُ: ما يُخاطُ به، يُقالُ: خِيَاطٌ ومِـخْيَطٌ، مثلُ إِزارٌ ومِئْزَرٌ، والمعنى: لا يدخُلونَ الجنَّةَ أبدًا، وذكرَ الجملَ لأنَّ العربَ لـم ترَ حيوانًا أكبرَ منه.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: مثلَ ما وصَفْنا نجزي المُجرمينَ.

والمُجرِمُ: مَن اكتَسَبَ لنفسِه النّارَ بارتكابِ الذَّنبِ.

* * *

(٤١) - ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

قولُـه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ أي: فِـراشٌ ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾؛ أي: نيـرانٌ تغشـاهُم، وهـي جمعُ «غاشـيةٍ».

جهنَّمُ: لا ينصرِفُ لاجتماعِ التَّعريفِ والتَّأنيثِ.

وقد قيلَ: اشتقاقُها منَ الـجُهومةِ، وهي الغِلَظُ، ومنه: رجلٌ جَهْمُ الوجهِ؛ أي: غَليظُه.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: مثلَ هذا نجزي مَن ظلَمَ نفسَه وأشركَ بالله.

* * *

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٦٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٥٠): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٤٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقُوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الأعمالَ الصّالحاتِ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾؛ أي: إلّا ما لا يَشُقُّ عليها، والوُسعُ: ما يقدرُ عليه، وهذا كلامٌ مُعترِضٌ؛ أي: والذين آمَنُوا وعمِلُوا الصّالحاتِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

وقيلَ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ رفعٌ لأنَّه خبرُ المُبتدأ؛ أي: والذينَ آمَنُوا لا نُكلِّفُ نفسًا منهم إلّا وُسعَها.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ النَّزعُ: الاستِخراجُ.

والغِلُّ: الحِقدُ الكامِنُ في الصَّدرِ، وهو الذي يَنْغلُّ في داخلِ القلبِ، والغُلولُ: الوُصولُ بالحيلةِ إلى دقيقِ الخيانةِ، ومنه: انغَلَّ في الشَّيءِ وتغَلْغَلَ فيه.

قال عليٌّ رضيَ الله عنه: إنِّي لأرجُو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطلحةُ والزُّبيرُ من هذه الجملةِ[1].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠١)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٠٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٨٢١)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٩٤)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ١٩٩).

والنَّزْعُ: الاستِلالُ والاستِخراجُ كما ذكَرْنا؛ أي: أذهَبْنا في الجنّةِ ما كانَ في قُلوبِهم مَن الغِلِّ في الدُّنيا.

وقيلَ: نَزْعُ الغِلِّ في الجنَّةِ ألّا يَحسُدَ بعضُهم بعضًا في تفاضُلِ منازِلِـهم.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾؛ أي: لـهذا الثَّوابِ بأنْ أرشَدَنا وخلَقَ لنا الهدايةَ.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: رأَينا عيانًا ما ذكرُوه لنا.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ أي: بأنّه تلكُم الجنّةُ.

وقيل: أي: قيلَ لهم: تلكَ الجنّةُ؛ لأنَّ النِّداءَ قولٌ، وقال: ﴿تِلْكُمُ﴾ لأنَّهم وُعِدُوا بها في الدُّنيا؛ أي: قيلَ لهم: هذه تلكُم التي وُعِدْتُم، أو يُقالُ لهم ذلك قبلَ دُخولِـها وقد عايَنُوها من بُعدٍ.

وقيلَ: ﴿تِلْكُمُ﴾ بمعنى: «هذه».

﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾؛ أي: صارَتْ إليكم كما يصيرُ الميراثُ إلى أهلِه.

وقيلَ: أهلُ الجنّةِ يرِثُونَ منازِلَ أهلِ النّارِ منَ الجنّةِ؛ وفي الخبرِ: «ليس من كافرٍ ولا مُؤمنٍ إلّا وله في الجنّةِ والنّارِ منزلٌ، فإذا دخلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ، رُفِعَت الجنّةُ لأهلِ النّارِ فنظَرُوا إلى منازلِـهم فيها، فقيلَ لهم: هذه منازِلُكم لو عمِلْتُم بطاعةِ الله، ثمَّ يُقالُ: يا أهلَ الجنّةِ رِثُوهُم بما كنتُم تعمَلُونَ، فتُقسَمُ بين أهلِ الجنّةِ منازِلُـهم»[١].

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: منَ الإيمانِ والطّاعاتِ، وفي الخبرِ: «لن يدخُلَ الجنّةَ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٠٢) عن السدي، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٨١).

أحدٌ بعملِه»(١)، وقد قالَ في هذه الآيةِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وجهُ الجمعِ: أنَّه لـم ينَلْ أحدٌ العملَ الصّالحَ إلّا برحمتِه، فإذا دخلُوها بأعمالِـهم فقد دخلُوها برحمتِه.

قُرِئَ: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ من غيرِ إدغامٍ، و: ﴿أُورِتُّموها﴾ بالإدغامِ(٢).

* * *

(٤٤) ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هذا سؤالُ تقريعٍ وتعييرٍ:

﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾؛ أي: أنَّه قد وجَدْنا.

وقيل: هو نفسُ النِّداءِ؛ أي: قد وجَدْنا.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: نـادَى وصـوَّتَ، يعنـي: مـنَ الملائكـةِ، وهو صاحبُ الصُّورِ.

﴿بَيْنَهُمْ﴾ هو ظرفٌ، كما تقولُ: أعلَمَ وسطَهم فعُلِمَ.

﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ بالتَّخفيفِ؛ أي: أنَّه لعنةُ الله، ويجوزُ أن يكونَ تفسيرَ النِّداءِ.

وقُرِئَ: ﴿أنَّ لعنةَ الله﴾ بالتَّشديدِ(٣).

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم (٢٨١٧) من حديث جابر رضي الله عنهما، ورواه البخاري (٦٤٦٧) ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وهشام بالإدغام، وباقي السبعة بلا إدغام. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨١)، و«التيسير» (ص: ٤٤).

(٣) قرأ بها البزِّي وابن عامر وحمزة والكسائيّ، والباقون بخفيف النون ورفع التاء. انظر: «السبعة» =

(٤٥) - ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: الذين كانُوا في الدُّنيا يصُدُّونَ النّاسَ عن الإسلامِ، فهو منَ الصَّدِّ الذي هو المنعُ، أو: يصُدُّونَ بأنفُسِهم؛ أي: يُعرِضُونَ، وهذا منَ الصُّدودِ.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: عن الإسلامِ.

وقيلَ: عن الطَّريقِ الذي يُؤدِّي إلى الجنَّةِ.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾؛ أي: لا يُؤمِنُونَ بها، ويذُمُّونَها ويطلُبونَ اعوِجاجَها.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾؛ أي: كانُوا بها كافِرين، فحُذِفَ «كانَ» وهو كثيرٌ في الكلامِ.

* * *

(٤٦) - ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾؛ أي: بينَ الجنَّةِ والنّارِ؛ لأنَّه جرَى ذِكرُهما ﴿حِجَابٌ﴾؛ أي: حاجزٌ وسورٌ.

قيلَ: هو السُّورُ المذكورُ في قولِه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ قيلَ: عنَى بالأعرافِ ذلك السُّورَ؛ فإنَّ السُّورَ مُرتفعٌ.

وقيلَ: أي: بينَهما سورٌ، وعلى الأعرافِ ذلك السُّورُ، وأعاليه رِجالٌ، والأعرافُ: جمعُ عُرْفٍ، وهو كلُّ عالٍ مُرتفعٍ، ومنه: عُرْفُ الفرسِ، وعُرْفُ الدِّيكِ، وكلُّ مُرتفعٍ منَ الأرضِ عُرْفٌ؛ لأنَّه بظُهورِه أعرَفُ منَ المُنخفِضِ.

= (ص: ٢٨١)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

وقال ابنُ عبَّاسٍ: الأعرافُ: شُرُفُ الصِّراطِ[(١)].

ثمَّ اختلَفُوا في هؤلاءِ الذين هم على الأعرافِ:

فقيلَ: هم ملائكةٌ مُوكَّلونَ بهذا السُّورِ يُميِّزون الكافرينَ منَ المُؤمنين قبلَ إدخالِـهم الجنّةَ والنّارَ، ذكرَه أبو مِـجْلَزٍ فقيلَ له: لا يُقالُ للملائكةِ رِجالٌ؟ فقال: إنَّهم ذكورٌ وليسوا بإناثٍ[(٢)]، فلا يبعدُ إيقاعُ لفظِ الرِّجالِ عليهم، كما أُوقِعَ على الجِنِّ في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، فهؤلاءِ الملائكةُ يعرِفُونَ المُؤمنين بعلاماتِهم والكفّارَ بعلاماتِهم، فيُبشِّرونَ المُؤمنينَ قبلَ دُخولِـهم الجنّةَ[(٣)] وهم لـم يدخلوها بعدُ، فيطمَعُونَ فيها، وإذا رأَوا أهلَ النّارِ دَعَوا لأنفُسِهم بالسَّلامةِ منَ العذابِ.

وقيلَ: أصحابُ الأعرافِ قومٌ من بني آدمَ عرَّفَهم الله أهلَ الجنّةِ والنّارِ، فيعرِفُونَ كلَّ فريقٍ بسيماهم، وعلى هذا قيلَ: هم قومٌ سافَرُوا من غيرِ إذنِ أبوَيهم إلى الغزوِ والجهادِ، فقُتِلُوا في سبيلِ الله، فلا يستَوجِبُونَ النّارَ لقتلِهم في سبيلِ الله، ولا الجنّةَ لخُروجِهم من غيرِ رِضَى الأبوَينِ، فهم آخرُ مَن يدخلُ الجنّةَ، وقد ورَدَ هذا في الخبرِ[(٤)].

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٩/ ١٥٠)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٨١)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢١٠) بلفظ: «الأعراف: هو الشيء المشرف».

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٩٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢١٩ ـ ٢٢٠)، وقال الطبري: «قول لا معنى له، والصحيح من القول في ذلك ما قاله سائر أهل التأويل».

(٣) بعدها في (أ): «بالسلامة».

(٤) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٩٥٤ ـ تفسير)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٢٣)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٨٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (ص: ١٠٦)، من طرق عن عبد الرحمن المزني رضي الله عنه. =

وقيلَ: هم قومٌ كانَتْ لهم صغائرُ لم تُكفَّرْ عنهم بالآلامِ والمصائبِ في الدُّنيا، وليست لهم كبائرُ فيُحبَسُونَ عن الجنّةِ مُدّةً لينالَهم بذلك غمٌّ، فيقعُ في مُقابلةِ صغائرِهم.

وقال ابنُ عبّاسٍ: هم قومٌ استَوَتْ حسناتُهم وسيِّئاتُهم، فيُبقَونَ على سورِ الجنّةِ مدّةً، ثمَّ يُدخَلونَ الجنّةَ(١).

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّهم إنْ كانوا مُؤمنينَ ترجَّحَتْ حسناتُهم، وإنْ لم يكونُوا مُؤمنين ترجَّحَتْ سيِّئاتُهم؛ لأنَّ رأسَ الحسناتِ الإيمانُ.

وقال ابنُ عبّاسٍ في روايةٍ: أصحابُ الأعرافِ: أولادُ الزِّنا(٢).

= ورواه البيهقي في «البعث والنشور» (ص: ١٠٦) أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
ومدارها كلها على أبي معشر نجيح المزني، وهو ضعيف، وقد اضطرب فيه كما في «الإصابة» (٤/ ٣١١).

ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٠٥٣)، و«المعجم الصغير» (٦٦٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه محمد بن مخلد الرعيني، وهو ضعيف».

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢١٨) عن رجل من بني هلال عن أبيه. لكنه ضعيف جدًا لتسلسله بالمبهمين.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠٥)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٨٥).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥١٧)، ورواه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٢٤) عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفيه نظر، فقد روى عبد الرزاق في «مصنفه» (١٣٨٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٠٥٣)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ليس على ولد الزنا من وزر أبويه شيء، قال الله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وسنده جيد، كما قال السخاوي. انظر: «تنزيه الشريعة» (٢/ ٢٢٨).

وقيلَ: هم قومٌ رضيَ عنهم آباؤُهم دونَ أمَّهاتِهم، أو على العكسِ.

وقيلَ: هم أولادُ المُشركينَ.

وقيلَ: الذين ماتُوا في الفترةِ، ولـم يُبدِّلوا دينَهم.

وقيلَ: هم فُضَلاءُ المُؤمنينَ والشُّهداءُ، فرَغُوا منَ شُغلِ أنفُسِهم، وتفرَّغُوا لمُطالعةِ حالِ النّاسِ، فإذا رأَوا أصحابَ النّارِ تعوَّذُوا باللهِ من أن يُرَدُّوا إلى النّارِ، فإنَّ في قُدرةِ اللهِ كلَّ شيءٍ، وخلافُ المعلومِ مقدورٌ، فإذا رأَوا أهلَ الجنّةِ وهم لـم يدخُلوها بعدُ يرجُونَ لـهم دُخولَـها.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾ المُؤمنَ بنُضرةِ الوجهِ، والكافرَ بسوادِ الوجهِ.

وقيلَ: أي: إذا نادَوا أصحابَ الجنّةِ قال أصحابُ الجنّةِ للخَزنةِ: ما لأصحابِنا على أعرافِ الجنّةِ لـم يدخُلوها وهم يطمَعونَ.

وقيلَ: يقولُ أهلُ الجنّةِ: ما لهم لـم يدخُلوا الجنّةَ؟ فتقولُ الملائكةُ: هم يطمَعُونَ، وهو طمعُ يقينٍ.

***

(٤٧) ـ ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ التِّلقاءُ: جهةُ اللِّقاءِ، وهي جهةُ المُقابلةِ، ولـم يأتِ مصدرٌ على «تِفعالٍ» غيرُ حرفَينِ: «تِبيانٌ» و«تِلقاءٌ»[1]، والباقي بالفتحِ مثلَ: «تَسيارٍ» و«تَهيامٍ» و«تَذكارٍ»، وأمَّا الاسمُ فـ«تِفعالٌ» بالكسرِ فيه كثيرٌ، مثلَ: «تِقصارٍ» و«تِمثالٍ».

(١) انظر: «ليس في كلام العرب» لابن خالويه (٣٠٨)، وزاد معها: تلفاق، ومعناه كما قال: التلفاق، من لفقت: الشيء، إذا لأمته مثل الثوبين يخاطان ويلاءم بينهما، لفقت لَفقاً وتلفاقاً، وتلافق القوم: إذا تلاءمت أمورهم.

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾؛ أي: يُنادُونَ رُؤَساءَ المُشركين قبلَ امتحاءِ صُوَرِهم بالنّارِ، فيقولونَ:

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ للدُّنيا واستِكبارُكم عنِ الإيمانِ، ثمَّ يرونَ في الجنّةِ جماعةً منَ الفُقراءِ، كبلالٍ وسلمانَ وعمَّارٍ وخبّابٍ، فيقولونَ للمُشركين: أهؤلاءِ الذين حلفتُم في الدُّنيا أنَّ الله لا ينالُهم برحمةٍ، وهذا التَّقديرُ يجري ليزدادَ خُسرانُهم.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ قيلَ: هو من تمامِ قولِ أصحابِ الأعرافِ؛ أي: قد قيلَ لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

وقيلَ: هذا من قولِ الله لأصحابِ الأعرافِ، يقولُ لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

وقيلَ: هذا [من قولِ][١] أصحابِ الأعرافِ، يقولُونَ للمُؤمنينَ المُشارِ إليهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

وقيلَ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ من كلامِ الملائكةِ المُوكَّلينَ بأصحابِ الأعرافِ، فإنَّ أهلَ النّارِ يحلفُونَ أنَّ أصحابَ الأعرافِ يدخُلونَ معَهم النّارَ، فتقولُ الملائكةُ لأصحابِ الأعرافِ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

***

(١) زيادة يقضيها السياق.

(٥٠) ـ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ قيلَ: إذا صارَ أهلُ الأعرافِ إلى الجنّةِ طمِعَ أهلُ النّارِ فقالوا: يا ربِّ، إنَّ لنا قراباتٍ في الجنّةِ، فَأْذَنْ لنا حتَّى نراهُم ونُكلِّمَهم، فأهلُ الجنّةِ لا يعرِفُونَهم لسوادِ وُجوهِهم، فيقولُ أهلُ النّارِ:

﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الطَّعامِ، فبيَّنَ أنَّهم لا يستَغنُونَ عن طعامٍ وشرابٍ، وإنْ كانوا في العقوبةِ.

فيقولُ أهلُ الجنّةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾؛ أي: حرَّمَ طعامَ الجنّةِ وشرابَها على أهلِ النّارِ، وهذا تحريمُ منعٍ لا تحريمُ تعبُّدٍ.

والإفاضةُ: التَّوسِعةُ، يُقالُ: أفاضَ عليه نعَمَه.

* * *

(٥١) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾؛ أي: اتَّبعُوا أهواءَهم.

﴿دِينَهُمۡ ﴾؛ أي: الدِّينَ الذي شُرِعَ لهم.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ ﴾؛ أي: نترُكُهم في جهنَّمَ ﴿كَمَا ﴾ ترَكُوا ﴿لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾؛ أي: كذَّبوا به.

وقيلَ: نُعامِلُهم مُعاملةَ مَن نسيَ فنترُكُهم في النَّارِ كما فعلُوا؛ فإنَّهم فعلُوا فعلَ مَن نسِيَ وغفِلَ.

﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: ولـجَحْدِهم.

ثـمَّ؛ قيـلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ مـن قـولِ أهـلِ الجنـةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾.

وقيلَ: هو من قولِ الله ابتداءً؛ أي: هؤلاءِ صفَتُهم أنّا نترُكُهم في العذابِ.

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾؛ أي: بالقرآنِ، وقد بيَّنّا معانيَه.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: لـم يقَعْ منّا فيه سهوٌ وغلَطٌ.

وقيلَ: على علمٍ في الكتابِ؛ أي: أودَعْنا فيه العلومَ والأحكامَ.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ أي: هادِيًا وذا رحمةٍ، وقيلَ: أي: وهو هُدًى.

* * *

(٥٣) ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ النَّظَرُ: الانتِظارُ؛ أي: هل ينتَظِرونَ إلّا القيامةَ، والتَّأويلُ: العاقبةُ، ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾؛ أي: تأويلَ الكتابِ، فالكنايةُ ترجعُ إلى الكتابِ، وعاقبةُ الكتابِ: ما وعدَ الله فيه منَ البَعثِ والحسابِ.

وقيلَ: أي: إلّا عاقبةَ ما وُعِدُوا على ألسنةِ الرُّسلِ.

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾؛ أي: تَبدُو العواقبُ يومَ تقومُ القيامةُ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾؛

أي: يقولُ يومَ يأتي تأويلُه الذين نسُوه؛ أي: تركُوا العملَ به: هل يشفَعُ لنا شافعٌ؟ ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ﴾ بالنَّصبِ؛ لأنَّه جوابُ الاستفهامِ بالفاءِ.

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: خسِرُوا النَّعيمَ وحظَّ أنفُسِهم منه.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: سقَطَ ﴿مَّا كَانُواْ﴾ يقولون من أنَّ مع الله إلـهًا آخرَ.

* * *

(٥٤) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بيَنَ أنَّه المُتفرِّدُ بقُدرةِ الإيجادِ، فهو الذي يجبُ أن يُعبَدَ.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أصلُ سِتَّة: «سِدْسَةٌ»، فأرادُوا إدغامَ الدّالِ في السِّينِ فالتَقَيا عندَ مخرجِ التَّاءِ، فغُلِّبَتْ عليها، فلهذا نقولُ في التَّصغيرِ: «سُدَيسةٌ»، وفي الجمعِ: «أسداسٌ»، ويُقالُ: «جاءَ فلانٌ سادِسًا وسادِتًا وساتًّا»، فمَن قالَ: «سادِتًا» أبدَلَ منَ السِّينِ تاءً.

ثمَّ قيلَ: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في مقدارِ ستَّةِ أيّامٍ؛ لأنَّ اليومَ من لدُنْ طُلوعِ الشَّمسِ إلى غُروبِها، فإذا لم يكُنْ شمسٌ فلا يومَ.

وذكرَ هذه المدَّةَ وإنْ قَدَرَ على خلقِها في لحظةٍ ليُعلِّمَ عبادَه الرِّفقَ والتَّثبُّتَ في الأمورِ، وليُرِيَ الملائكةَ كمالَ قُدرتِه فيما يُشاهدونَه، وهذا عند مَن يقولُ: خلَقَ الملائكةَ قبلَ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ.

وأيضًا: خلَقَهما في ستّةِ أيّامٍ؛ لأنَّ لكلِّ شيءٍ عنده أجلًا، وبيَّنَ بهذا أنَّ تركَ مُعاجلةِ العُصاةِ بالعقابِ لأنَّ لكلِّ شيءٍ أجلًا، وهذا كقولِه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ق: ٣٨ ـ ٣٩]، بعد أن قالَ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ [ق: ٣٦].

وقيلَ: أرادَ به أيّامَ الآخرةِ؛ أي: في ستَّةِ آلافِ سنةٍ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾؛ أي: أقبَلَ على خلقِه، وقصَدَ إليه بعد خلْقِ السَّماواتِ والأرضِ.

وقيلَ: استَوَى؛ أي: استَولى.

وخُصَّ العرشُ لأنَّه أعظَمُ المخلوقاتِ، فإذا ذكَرَه نبَّه به على ما دونَه.

وقيلَ: العرشُ عبارةٌ عن المُلْكِ، يُقالُ: ثُلَّ عرشُه؛ أي: ذهبَ ملكُه وعزُّه.

والعرشُ في اللُّغةِ: السَّريرُ الذي يجلِسُ عليه الملكُ، **ولا نُنكِرُ خلقَ عرشٍ عظيمٍ هو أعظَمُ المخلوقاتِ** تحتَفُّ به الملائكةُ، **فإنَّ كلَّ ما يُجوِّزُه العقلُ وورَدَ به الخبرُ فالأصلُ إجراؤُه على ظاهرِه إلّا أن يقومَ دليلٌ على تأويلٍ**، فأمَّا ما يُوهِمُ في حقِّ الرَّبِّ انتقالًا وزوالًا وتخصُّصًا بجهةٍ فيجبُ تأويلُه لاستِحالةِ أن يتطرَّقَ إلى حقِّه سُبحانَه وتعالى نقصٌ وآفةٌ[1]، وأن يجوزَ عليه مسافةٌ.

وقولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ ﴾؛ أي: قصَدَ إلى خلقِ العرشِ كما تقدَّمَ.

أو: ثمَّ أُخبِرُكم أنَّه استَولَى واستَعلَى على كلِّ مخلوقٍ.

---

(١) ينظر ما كُتب في مقدمة تحقيق هذا الكتاب عن منهج المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ﴾ فيُذهبُ نورَ النَّهارِ ليتِمَّ قِوَامُ الحياةِ في الدُّنيا بمجيءِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فاللَّيلُ للسُّكونِ، والنَّهارُ للمعاشِ.

قُرِئَ ﴿يُغَشِّى﴾ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ(١).

والتَّغشِيةُ والإغشاءُ: إلباسُ الشَّيءِ الشَّيءَ، ولم يذكُرْ في هذه الآيةِ دُخولَ النَّهارِ على اللَّيلِ؛ لأنَّ في الكلامِ دليلًا عليه، كقولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾؛ أي: يتبَعُه دائمًا من غيرِ فُتورٍ.

﴿حَثِيثًا﴾؛ أي: سريعًا، والحثُّ: الإعجالُ.

وقيلَ: أشارَ بالحثيثِ إلى سُرعةِ قطعِ الشَّمسِ للفَلَكِ.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾؛ أي: وخلَقَ هذه الأشياءَ مُذَلَّلاتٍ لأمرِه، والأمرُ هاهُنا: أمرُ التَّكوينِ.

وقُرِئَ: ﴿والشَّمسُ والقمرُ﴾ بالرَّفعِ على الابتداءِ(٢).

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: له التَّصرُّفُ في ملكِه بما يُريدُ، فـ﴿ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الذي هو أمرُ التَّكوينِ إشارةٌ إلى أنَّ الأمورَ تجري بقضائِه.

وقيلَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ فهو الذي خلَقَهم، وله أن يأمُرَهم بما أحبَّ، فهذا الأمرُ يقتَضي النَّهيَ.

---

(١) قرأ بالتشديد حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه، وقرأ باقي السبعة بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٢) هي قراءة ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

قال ابنُ عُيَينةَ: فرَّقَ بينَ الخلقِ والأمرِ، فمَن جمعَ بينَهما فقد كفرَ[١]؛ أي: مَن جعلَ الأمرَ الذي هو قولُه من جملةِ ما خلَقَه فقد كفرَ.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ارتفَعَ.

وقيلَ: أي: باسمِه يُتبرَّكُ في كلِّ شيءٍ.

وقيلَ: أي: ثبتَ، من: برَكَ الطَّيرُ على الماءِ، وبرَكَ الإبلُ.

* * *

(٥٥) ـ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

قولُه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ أي: هـو الخالقُ القادرُ على الكمالِ، فإيَّاه فادعُوا، وأدبُ الدُّعاءِ: التَّضرُّعُ والإخفاءُ؛ ليَبْعُدَ عنِ الرِّياءِ، يُقالُ: ضرعَ فلانٌ لفُلانٍ وضرعَ له؛ أي: تخشَّعَ، والـخُفيةُ: خلافُ العلانيةِ.

---

(١) رواه بهـذا اللفـظ الثعلبـي فـي «تفسيره» (١٢/ ٣٧٣)، وقـال الواحـدي فـي «البسيط» (٩/ ١٧٦): «واستخرج سـفيان بـن عيينـة مـن هـذا أن كلام الله لا يجـوز أن يكـون مخلوقـًا فقـال...» ثـم ذكره بلفـظ المصنـف والثعلبـي، وعلقه البخاري قبل حديـث (٧٥٥٥) بلفـظ: «بيَّن اللهُ الخَلْـقَ من الأمرِ، لقولـه تعالـى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾»، ورواه عنـه مـن طـرق عبـد الله بـن الإمـام أحمـد في «السـنة» (١٩٦)، وأبـو بكـر الخـلال فـي «السـنة» (١٧٤٢)، وابـن أبـي حاتـم فـي «تفسـيره» (٥/ ١٤٩٨)، والآجـري فـي «الشـريعة» (١٧١)، واللالكائـي فـي «اعتقـاد أهـل السـنة» (٣٥٨). وانظـر: «تغليق التعليـق» (٥/ ٣٨١). وجـاء فـي بعـض الروايـات: «﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخلق هـو الخلق والأمر هـو الـكلام»، وفـي رواية الآجـري واللالكائي أنه قـال: ما يقول هذا الدويه؟ يعني: بشـراً المريسـيَّ، قالـوا: يـا أبـا محمد يزعـم أن القـرآن مخلوق، قال: كـذب؛ قـال الله عز وجـل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخلـق خلـق الله والأمـر القرآن.

وفي الخبرِ: «خيرُ الدُّعاءِ ما خَفِيَ»(١).

وقال الزَّجَّاجُ: أي اعتَقِدُوا عبادتَه في أنفُسِكم؛ لأنَّ الدُّعاءَ معناه العبادةُ(٢).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: المُجاوِزينَ لِـما أُمِرُوا به.

* * *

(٥٦) ـ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نهَى عن الشِّركِ وسَفكِ الدِّماءِ والـهَرْجِ، وأمرَ بلُزومِ الشَّرائعِ.

﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾؛ أي: بعد إصلاحِ الله إيّاها ببعثةِ الرُّسلِ وبيانِ الشَّرائعِ.

وقيل: أي: لا تعصُوا فيُمسِكُ الله المطرَ ويُهلِكُ الحرثَ.

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الخوفُ: الانزِعاجُ لِـمَا لا يُؤمَنُ منَ المضارِّ، والطَّمعُ: توقُّعُ المحبوبِ.

---

(١) كذا ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ١٧٨) بهذا اللفظ دون راو ولا سند، ولم أجده هكذا، وروى الإمام أحمد في «المسند» (١٤٧٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٠٩) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «خير الذكر الخفي».

وروى البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنه معكم إنه سميع قريب تبارك اسمه وتعالى جده».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٤٤).

وقيلَ: تخوُّفًا[١] من عقابِه، وطمَعًا في ثوابِه.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: ثوابُه قريبٌ ممَّن أحسَنَ عمَلًا، وممَّن أحسنَ أملًا أيضًا.

يُقالُ في النَّسبِ: «إنَّها قريبةُ فلانٍ»، وإنْ لم يكُنِ القُربُ في النَّسبِ فيجوزُ التَّذكيرُ والتَّأنيثُ، يُقالُ: «دارُكَ منَّا قريبٌ»، و«فلانةٌ منَّا قريبٌ»؛ أي: في مكانٍ قريبٍ، قالَ الله تبارَكَ وتعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، هذا قولُ الفرَّاءِ[٢].

وقال الزَّجّاجُ: إنَّما قال الله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾؛ لأنَّ الرَّحمةَ بمعنى الغُفرانِ والعفوِ[٣].

وقال النَّضرُ بنُ شُمَيلٍ: الرَّحمةُ مصدرٌ، وحقُّ المصدرِ التَّذكيرُ، كقولِه: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥][٤]. وهذا قريبٌ من قولِ الزَّجّاجِ؛ لأنَّ الموعظةَ بمعنى الوعظِ.

* * *

---

(١) في (أ): «خوفاً».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٨٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٤٤).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٨١)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ١٨٤).

(٥٧) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله: ﴿وهُوَ الَّذِي يُرسِلُ الرِّياحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، ذكرَ شيئًا آخرَ من نعمِه.

﴿نُشُرًا﴾؛ أي: أحياها فنَشَرَتْ؛ أي: حيِيَتْ، وهي جمعُ «نَشُورٍ»، كرَسولٍ ورُسُلٍ، والنَّشورُ بمعنَى المُنشَرِ، كالرَّكوبِ بمعنَى المركوبِ؛ أي: وهو الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُنشَرةً[١].

وقُرِئَ: ﴿وهو الذي يُرسِلُ الرِّيحَ بُشُرًا﴾ والبُشُرُ جمعٌ فيرجعُ إلى الرِّيحِ؛ لأنَّ المقصودَ بالرِّيحِ الجمعُ، كقولِهم: «كثُرَ الدِّرهمُ والدِّينارُ»، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

وقُرِئَ: ﴿نُشْرًا﴾ بسكونِ الشِّينِ، كما يُقالُ: «كتْبٌ ورسْلٌ».

وقرأ حمزةُ: ﴿نَشْرًا﴾ بفتحِ النُّونِ وسكونِ الشِّينِ[٢]، والنَّشرُ مصدرُ «نشَرْتُ الشَّيءَ» فكأنَّها كانت مطويّةً فتُنشَرُ عندَ الهُبوبِ.

ويجوزُ أن يكونَ النَّشرُ بمعنَى الحياةِ، من: أنشرَ الله الميِّتَ فنَشَرَ.

---

(١) وعلى هذا فالنشور بمعنى المفعول، ويجوز أن كون بمعنى الفاعل؛ أي: ناشرا للغيم نَشرُه وبَسطُه في السماء بحركها. انظر: «الحجة» للفارسي (٤/ ٣٦ ـ ٣٧).

(٢) قرأ عاصم: ﴿بشراً﴾ بالباء مضمومة وإسكان الشين حيثُ وقع، وابن عامر بالنُّون مضمومة وإسكان الشين، وحمزة والكسائيّ بالنُّون مفتوحَة وإسكان الشين، والباقون بالنُّون مضمومة وضم الشين.

وقرأ: ﴿الريح﴾ ابن كثير وحمزة والكسائي، والباقون بالجمع.

انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٣)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

وقولُه: ﴿نَشْرًا﴾ نصبٌ على المصدرِ؛ أي: ينشرُ الرِّياحَ نشرًا، أو هو حالٌ، كما تقولُ: «أتاني ركْضًا»؛ أي: راكِضًا، أو أرادَ: ذواتِ نشرٍ.

وقرأ عاصمٌ: ﴿بُشْرًا﴾ بالباءِ، وهي جمعُ «بشيرٍ»؛ أي: مُبَشِّراتٍ بالرَّحمةِ والمطرِ.

﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: بينَ يدَي المطرِ الذي هو رحمتُه، واليدانِ تُذكَّرانِ بمعنَى التَّقدمةِ، تقولُ: «بينَ يدَي السّاعةِ فِتَنٌ»؛ أي: تتقدَّمُ عليها فِتنٌ؛ لأنَّ يدَي المرءِ تتقدَّمانِه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ يُقالُ: «أقَلَّ فلانٌ الشَّيءَ»؛ أي: حمَلَه، أي: حتَّى إذا حملَتْ هذه الرِّياحُ سحابًا ثِقالًا بما فيها منَ الماءِ.

﴿سُقْنَٰهُ﴾؛ أي: سُقْنا السَّحابَ، ولفظُه مُذكَّرٌ وإنْ كانَ جمعَ «سحابةٍ»، مثل: «تمرٍ وتمرةٍ».

﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾؛ أي: ليس فيه نباتٌ، يُقالُ: «سُقتُه لبلدِ كذا، وإلى بلد كذا».

وقيلَ: لأجلِ بلدٍ ميِّتٍ، فاللَّامُ لامُ «أَجْلٍ».

والبلدُ: كلُّ موضعٍ منَ الأرضِ عامرٍ أو غامرٍ، خالٍ أو مسكونٍ، والطّائفةُ منه: بلدةٌ.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾؛ أي: بالبلدِ.

وقيلَ: أي: أنزَلْنا بالسَّحابِ الماءَ؛ لأنَّ السَّحابَ آلةٌ لإنزالِ الماءِ.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: أخرَجْنا بالماءِ، وقيلَ: بالبلدِ ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الإخراجِ نُحيِي الموتَى.

وقيلَ: وجهُ التَّشبيهِ: أنَّ إحياءَهم من قُبورِهم يكونُ بمطرٍ يبعثُه الله على قُبورِهم، فتنشَقُّ عنهم القُبورُ، ثمَّ تعودُ إليهم الأرواحُ.

وقيلَ: يموتُونَ في النَّفخةِ الأولى فيبعثُ الله المطرَ أربعينَ يومًا بعد موتِهم بأربعينَ سنةً، فيُمطَرون كمنيِّ الرِّجالِ، فيَنبُتونَ في القُبورِ كما ينبُتونَ في بُطونِ أُمَّهاتِهم، ثمَّ تُنفَخُ فيهم الرُّوحُ، وهي النَّفخةُ الثّانيةُ.

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ ضرَبَ هذا مثلًا في إصرارِ الكفّارِ على كُفرِهم؛ أي: إنَّ الأرضَ ترابٌ، ثمَّ منه طيِّبٌ حرٌّ يُنبِتُ، ومنه خبيثٌ سَبْخٌ لا يتأثَّرُ بالمطرِ ولا يُنبِتُ، فكذلك القلوبُ، منها قاسٍ ينبُو عنِ الوعظِ، ومنها ما يَقبلُ الوعظَ، ثمَّ ما يُنبِتُ منَ الأرضِ فبإذنِ الله، كذلك مَن اهتَدَى فبإذنِ الله.

﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ النَّكِدُ: العَسِرُ المُمتنِعُ من إعطاءِ الخيرِ.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾؛ أي: كالذي صرَّفْنا منَ الآياتِ في إبطالِ الشِّركِ فكذلك نُصرِّفُ في كلِّ ما يحتاجُ إليه النّاسُ.

﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ إنَّما خصَّهم لأنَّهم المُنتَفِعُونَ بتلك الآياتِ.

وقُرِئَ ﴿نَكِدًا﴾ بخفضِ الكافِ ونصبِها[1]، وهما بمعنًى، كالدَّنِفِ والدَّنَفِ.

* * *

(١) قرأ أبو جعفر من العشرة بفتح الكاف، والباقون بكسرها. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٠).

(٥٩) ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ لمَّا بيَّنَ أنَّه الخالقُ القادِرُ على الكمالِ ذكرَ أقاصيصَ الأُممِ، وفيها تحذيرُ الكفّارِ.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾؛ أي: حقًّا أرسَلْنا، واللَّامُ في ﴿لَقَدْ﴾ للتَّأكيدِ المُنبِّه على القَسمِ.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرَّفعِ؛ أي: ما لكم إلهٌ غيرُه، على نزعِ ﴿مِّنْ﴾ منَ الكلامِ، فـ﴿مِّنْ﴾ مُؤكِّدةٌ.

وقُرِئَ ﴿غيرِه﴾ بالخفضِ[1] على أنَّه صفةُ الإلهِ.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: في شِركِكُم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾؛ أي: يومٍ من أيامِ دُنياكُم ﴿عَظِيمٍ﴾ الشَّأنِ؛ لأنَّه يستأصِلُكم.

وقيلَ: أي: عذابَ يومِ القيامةِ.

* * *

(٦٠) ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وهم الرُّؤُوساءُ الذين إليهم القيامُ بأمرِ مَن وراءَهم من قومِهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾؛ أي: في دُعائِنا إلى إلهٍ واحدٍ ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحقِّ.

* * *

---

(١) قرأ بها الكسائي، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٤)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٦١) ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ ﴾؛ أي: عدولٌ عن طريقِ الحقِّ ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ ﴾ من خالقِ الخلقِ ومُدبِّرِهم.

* * *

(٦٢) ـ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ منَ التَّبليغِ، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[1] منَ الإبلاغِ.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ النُّصحُ: إخلاصُ النِّيَّةِ من شوائبِ الفسادِ في المُعاملةِ، بخلافِ الغِشِّ، يُقالُ: نَصَحْتُه ونَصَحْتُ له نصيحةً ونَصاحةً ونُصحًا.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: أعلَمُ بتعليمِ الله إيّايَ أنَّكم إذا كذَّبتُم حلَّ بكم العذابُ، وإنْ آمنتُم فربِّي غفورٌ رحيمٌ.

* * *

(٦٣) ـ ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؛ أي: وَعْظٌ ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾؛ أي: مع رجلٍ، كما يُقالُ: «جاء الخيرُ على وجهِكَ» و«مع وجهِكَ».

وقيلَ: أي: على لسانِ رجلٍ.

وقيلَ: ذِكرٌ من ربِّكم مُنزَّلٌ على رجلٍ.

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو هنا في الموضعين، وفي الآية (٢٣) من سورة الأحقاف. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٤)، و«التيسير» (ص: ١١١).

﴿مِّنكُمۡ﴾؛ أي: تعرِفُونَ نسبَه، أو: على رجلٍ من جِنسِكُم ولو كانَ ملَكًا، فرُبَّما كان في اختلافِ الجنسِ تنافُرُ الطَّبعِ.

* * *

(٦٤) - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾؛ أي: حمَلْناهم في السَّفينةِ وأغرَقْنا الباقينَ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾؛ أي: عن معرفةِ الله وقُدرتِه، يُقالُ: «رجلٌ عمٍ بكذا»؛ أي: جاهلٌ.

* * *

(٦٥) - ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾؛ أي: أرسَلْنا إلى عادٍ أخاهُم هودًا.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: أي: ابنَ أبيهم(١).

وقيلَ: أخاهم في القبيلةِ.

وقيلَ: أي: بشرًا من بني أبيهم آدمَ، وفي الخبرِ: «إنَّ أخا صُداءٍ قد أذَّنَ»(٢)؛ أي: صاحِبَهم.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٠١).

(٢) رواه أبو داود (٥١٤)، والترمذي (١٩٩)، وابن ماجه (٧١٧)، من حديث زياد بن الحارث الصُّدَائي. وقال الترمذي: «وحديث زياد إنما نعرفه من حديث الإفريقي» والإفريقي هو ضعيف عند أهل الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد القطان وغيره، قال أحمد: لا أكتب حديث الإفريقي. ورأيت محمد بن إسماعيل يقوي أمره، ويقول: هو مقارب الحديث.

وعادٌ من ولدِ سامِ بنِ نوحٍ.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾؛ أي: يا قومي ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أي: وحِّدُوا الله[1].

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: أفلا تتَّقونَ نقمتَه في عبادتِكُم الأصنامَ.

* * *

(٦٦) ـ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: رُؤَساؤُهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾؛ أي: حُمقٍ وخِفَّةِ عقلٍ ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ أي: فيما جِئْتَ به، أو: في نزولِ العذابِ بنا إنْ خالَفْناكَ، أو: في دَعوَى النُّبوَّةِ.

ثمَّ قيلَ: ظنُّوا كذِبَه، وما استيقَنُوا. وقيلَ: عنَوا بالظَّنِّ العلمَ.

* * *

(٦٧) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾؛ أي: عن تحقيقٍ أقولُ: أنا رسولُ الله إليكم.

* * *

(٦٨) ـ ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

قولُه: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: أمينٌ على الرِّسالةِ، والأمينُ: الثِّقةُ، من: أَمِنَ يأمَنُ أَمْنًا، فهو آمِنٌ أمينٌ، وما كانَ فلانٌ أمينًا، ولقد أَمِنَ يأمَنُ أمانةً فهو أمينٌ. وقيلَ: ﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: معروفٌ بالصِّدقِ والأمانةِ فيما بينكم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٤٧)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٠٣).

(٦٩) ـ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ مَنَّ عليهم بأنْ جعلَهم سكّانَ الأرضِ بعد قومِ نوحٍ.

﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً﴾؛ أي: فضلةً في الطُّولِ وعِظَمِ الجسمِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: كانَ أطولُهم مئةَ ذراعٍ، وأقصرُهم ستِّينَ ذِراعًا[1].

﴿فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نِعَمَ الله، الواحدُ: إِلَى وأَلَى وإِلْوٌ وإِلْيٌ، كالإناءِ واحدُها: إِنًى وأَنًى وإِنْوٌ وإِنْيٌ.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لتسعَدُوا فتظفَرُوا بالجنَّةِ.

* * *

(٧٠) ـ ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ أنكرُوا تركَ عبادةِ الأصنامِ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ أي: منَ العذابِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في ذلك، أو: في نُبوَّتِكَ.

* * *

(١) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٢٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٩٢)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٠٦)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٦/ ٣٩٤)، عن الكلبي. فهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٧١) - ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾؛ أي: وجبَ، يُقالُ: وقَعَ القولُ والحكمُ؛ أي: وجبَ، ومثلُه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ [الأعراف: ١٣٤]؛ أي: نزلَ بهم.

﴿رِجْسٌ﴾؛ أي: عذابٌ، ويرجعُ معنَى الرِّجسِ إلى النَّجاسةِ التي تجتنِبُها الطِّباعُ.

وقيلَ: عنَى بالرِّجسِ: الرَّينَ على القلبِ بزيادةِ الكفرِ.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ﴾ يعني: الأصنامَ التي عبَدُوها وكان لها أسماءٌ مختلفةٌ ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: من حُجّةٍ لكم في عبادتِها ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ أي: العذابَ.

وهذه الأسماءُ مثلُ «العُزَّى» منَ العِزِّ، ولا عزَّ للصَّنمِ، ومثلُ «اللّات»، وليس لـها من الإلهيّةِ شيءٌ.

* * *

(٧٢) - ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾؛ أي: مَن آمنَ معه ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾؛ أي: أهلَكْنا المُكذِّبينَ ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أهلَكْناهُم لأنّهم لـم يُؤمِنُوا.

وقيلَ: وما كانُوا مُؤمنينَ لو ترَكْناهم؛ أي: ما كانُوا يُؤمِنُونَ.

وقَطعُ الدّابرِ: هو الاستِئصالُ؛ أي: لـم يبقَ لهم بقيّةٌ.

والدّابرُ: البقيّةُ، والمُتخلِّفُ عن الشَّيءِ.

وكانت مساكنُ عادِ الشِّحْرَ[1] من أرضِ اليمنِ وبلادِ حضرموتَ إلى عُمانَ.

***

(٧٣) - ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي: إلى بني ثمودَ، وهم من ولدِ سامِ بنِ نوحٍ، وصارَ ثمودُ اسمَ القبيلةِ، وسُمِّيَتْ ثمودَ لقِلّةِ مائِها.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: أُشيرَ إليها في حالِ كونِها آيةً، وهذه تتضمَّنُ معنى الإشارةِ؛ أي: أنَّها دالّةٌ، وكانت آيةً لهم ولغيرِهم، وإنَّما خصُّوا لأنَّهم كانُوا المُشاهدينَ لها.

وسببُ كونِها آيةً أنَّها خرجَتْ من حَجَرٍ صَلْدٍ تمخَّضَ واضطرَبَ كاضطِرابِ المرأةِ عندَ الوِلادةِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: كانت ناقةً من نُوقِهم، والآيةُ فيها: أنَّها كانت ترِدُ يومًا وتَغِبُّ[2] يومًا، فإذا وردَتْ شربَتْ جميعَ الماءِ، وتسقيهم

(١) الشحر: بكسر أوله وإسكان ثانيه: ساحل اليمن، وهو ممتد بينها وبين عمان. انظر: «معجم ما استعجم» (٣/ ٧٨٣).

(٢) الغين والباء أصل صحيح يدل على زمان وفترة فيه، من ذلك: الغب، هو أن ترد الإبل يومًا وتدع يومًا. والمغبَّبة: الشاة تحلب يوماً وتترك يوماً. وأغببت الزيارة من الغب أيضًا. انظر: «مقاييس اللغة» (مادة: غبب).

مثلَه لبنًا لم يُشرَبْ قطُّ ألَذُّ وأحلَى منه، وكانَ ذلك اللَّبنُ بقَدْرِ حاجتِهم على كثرتِهم[١].

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليس عليكم رِزقُها ومُؤنتُها.

* * *

(٧٤) ـ ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾؛ أي: تسكُنونَ الأرضَ.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه محذوفٌ؛ أي: بوَّأكُم في الأرضِ منازلَ.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾؛ أي: تبنُونَ القُصورَ بكلِّ موضعٍ.

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ منَ الجبالِ تسقُفونَها منها، فكانوا يسكُنونَها شتاءً، ويسكنُونَ القُصورَ في الصَّيفِ.

وقيلَ: كانتِ السُّقوفُ والأبنيةُ تَبلى قبلَ فَناءِ أعمارِهم؛ لطُولِ أعمارِهم، فكانُوا يحتاجُونَ إلى أن ينحِتُوا بيوتًا في الجبالِ.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾؛ أي: لا تُظهِرُوا الكُفرَ.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٠٩).

(٧٥ ـ ٧٦) ـ ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾؛ أي: الأشرافُ الذين تملأُ الصُّدورُ هَيبتُهم ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادةِ الله ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾؛ أي: المساكينِ ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ هو بدلٌ من قولِه: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾؛ لأنَّهم المُؤمنونَ.

* * *

(٧٧ ـ ٧٨) ـ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ العَقْرُ: كشفُ عُرقوبِ البعيرِ، ثمَّ قيلَ للنَّحرِ: عقرٌ؛ لأنَّ العقرَ سببُ النَّحرِ في الغالبِ.

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: استكبَرُوا، والعتُوُّ: الغُلوُّ في الباطلِ.

﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾؛ أي: من فَرْطِ التَّكذيبِ طلَبُوا العذابَ.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾؛ أي: الزَّلزلةُ الشَّديدةُ.

وقيلَ: كانت صيحةً شديدةً خلعَتْ قلوبَهم، وقد قال في سورةِ هودٍ في قصَّةِ ثمودَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣]، يُقالُ: رجَفَ الشَّيُء يرجُفُ رَجْفًا ورَجَفانًا، وأرجَفَتِ الرِّيحُ الشَّجرَ؛ أي: حرَّكَته.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾؛ أي: بلدِهم، كما تقولُ: «دارُ الحربِ»، وقال في موضعٍ آخرَ: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود: ٦٧]؛ أي: في منازِلهم.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: لاصِقينَ بالأرضِ كما يجثِمُ الطّائرُ؛ أي: صارُوا خامِدينَ من شـدّةِ العذابِ.

وقيلَ: احترَقُوا بالصّاعقةِ فأصبَحُوا ميِّتينَ.

* * *

(٧٩) ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي: عند اليأسِ منهم ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ يحتمِلُ أنّه قالَه قُبَيلَ موتِهم، ويحتمِلُ أنّه قالَه بعدَ موتِهم؛ كقولِه عليه السَّلامُ لقتلَى بدرٍ: «هل وجَدْتُم ما وعَدَ ربُّكم حقًّا؟»، فقيلَ: أتُكلِّمُ هؤلاءِ الجيَفَ؟ فقال: «ما أنتم بأسمَعَ منهم، ولكنَّهم لا يقدِرونَ على الجوابِ»[1].

﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ أي: لا تقبَلُونَ النُّصحَ.

وكانَتْ مساكنُ ثمودَ الحجازَ والشّامَ إلى وادي القُرى.

وقيلَ: إنَّ قومَ صالحٍ قالوا: لن نُؤمِنَ لك حتَّى تُخرِجَ من هذه الصَّخرةِ ناقةً عُشَراءَ[2]، تأتينا فتبرُكُ بينَ أيدينا، وتتمخَّضُ ثمَّ تلدُ سَقبًا[3] مثلَها في العِظَمِ، فجعَلَ

---

(١) روى نحوه البخاري (١٣٧٠)، ومسلم (٩٣٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وروى نحوه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) العُشَراءُ: النَّاقة التي قد أتى على حملها عشرةُ أشهر، وهي أنفس الأموال عند العرب، وجمعها: عشار، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤]. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٣٤٠).

(٣) السَّقْبُ: ولد الناقة الذكر. انظر: «معجم ديوان الأدب» (١/ ٩٤).

صالحٌ يتفكَّرُ، فأتاه جبريلُ وقال: صلِّ ركعتَينِ فسَلْ ربَّكَ، ففعَلَ فتمخَّضَتِ الصَّخرةُ، وخرجَتِ النّاقةُ وبركَتْ بين أيديهم، وتمخَّضَتْ ونُتِجَتْ سَقَبًا مثلَها في العِظَمِ، فكانُوا يشربُونَ من لبنِ[1] النّاقةِ يومانِ ومنَ الماءِ يومًا، وكانتِ النّاقةُ تشربُ ماءَ البئرِ يومًا وتسقيهم اللَّبنَ بدلَه بقَدْرِ ما يكفيهم.

وكانَ مُلكُهم إلى امرأةٍ، فحسَدَتْ صالحًا لـمَّا مالَ إليه النّاسُ، وقالَتْ لامرأتَينِ كان لهما خليلانِ يعشَقانِهما: لا تُطيعاهُما واسألاهُما عقرَ النّاقةِ، ففعَلَتا، وخرَجَ الرَّجلانِ، وألجأا النّاقةَ إلى مضيقٍ، ورَماها أحدُهما بسهمٍ وقَتلاها.

وقيلَ: راجَعا أقوامًا منَ الكفَّارِ، وفعَلا ذلك برِضاهُم، واقتَسَمُوا لحمَها، وجاءَ السَّقَبُ إلى الصَّخرةِ التي خرجَتِ النّاقةُ منها، فَرَغَا ثلاثًا، وانفجَرَتِ الصَّخرةُ فدخلَ فيها، فقال صالحٌ: إنَّه يقولُ: بقيَ من عُمرِكم ثلاثةُ أيَامٍ، ولهذا يُقالُ: لكلِّ قومٍ هلَكُوا: «رَغا فوقَهم سَقَبُ السَّماءِ»[2].

وقيلَ: قال صالحٌ لقومِه: يُولَدُ لكم العامَ مولودٌ يكونُ هلاكُكم على يدِه، فوُلِدَ لتسعةٍ منهم، فذبَحُوا أولادَهم إلّا رجلًا واحدًا، وكان غائبًا، فكان ذلك الولدُ إذا أتى عليه سنةٌ كانَ كمَن أتى عليه سنتانِ، فندمَ أولئك الذين ذبَحُوا أولادَهم وقالوا: لو ترَكْناهم كانوا يكونُونَ مثلَ هذا، فرصَدُوا لقتلِ صالحٍ تحتَ جبلٍ، فنزَلَ عليهم الجبلُ وماتُوا، فهو قولُه: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: ٤٨]، وقعدَ هذا الغلامُ مع قومٍ يشربُونَ فأعوَزَهم الماءُ ليمزُجوا شرابَهم، وكان يومَ لبنِ النّاقةِ، فقامَ الغلامُ وترصَّدَ النّاقةَ، وقالَ: لأُريحنَّ النّاسَ منها، فعقَرَها، فهو قولُه: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩].

---

(١) في (ف): «من ولد».

(٢) انظر: «المعارف» لابن قيبة (١/ ٢٩).

وقال صالحٌ: أدرِكُوا الفصيلَ قبلَ أن يرتفعَ إلى السَّماءِ، فلعلَّكم تنجُونَ، فوجَدُوه على أكَمةٍ، وطالَتِ الأكَمةُ حتَّى لـم يقدِرُوا عليه، وأوحَى الله إلى صالحٍ: مُرْهُم فليتمَتَّعوا في دارِهم ثلاثةَ أيَامٍ، وآيةُ هلاكِهم أن تصفرَّ وجوهُهم في يومٍ، ثمَّ تحمرَّ في الثّاني، ثمَّ تسوَدَّ في الثّالثِ[1].

وخرجَ صالحٌ من بينِهم، فلمَّا خرجَ التَفَتَ فرأى دُخانًا منهم يصعدُ في السَّماءِ، فأيقَنَ بهلاكِهم، فلمَّا هلَكُوا رجعَ بمَن آمنَ معَه، وملَكَ ديارَهم وأموالَـهم.

* * *

(٨٠) ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الفرَّاءُ[2]: (لوطٌ) مُشتقٌّ من قولِـهم: هذا ألوَطُ بقَلبي؛ أي: ألصَقُ، واللِّيطُ: القِشرُ.

وقال الزَّجَّاجُ: إنَّه اسمٌ أعجَميٌّ كإسحاقَ، فلا يُقالُ: إنَّه منَ السَّحقِ[3].

وإنَّما صُرِفَ لوطٌ لخفَّتِه؛ لأنَّه على ثلاثةِ أحرُفٍ وهو ساكنُ الوسطِ[4].

---

(١) روى نحو هذه القصة الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٦٩)، من طريق أبي بكر بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن عمرو بن خارجة رضي الله عنه مرفوعاً. قال الحاكم: هذا حديث جامع لذكر هلاك آل ثمود تفرد به شهر بن حوشب وليس له إسناد غيرها ولم يستغن عن إخراجه. وقال الذهبي: أبو بكر، واه، وهو ابن أبي مريم.

(٢) في كتاب «المصادر» كما ذكر الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢١٧). وذكره أيضاً الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٣٥١) عن بعض أهل اللغة وغلطه.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٥٢).

(٤) انظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٢١٨).

قولُـه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعنـي: إتيـانَ الذُّكـورِ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: لـم يفعَلْهـا أحـدٌ قبلَكـم، والمُلحِـدونَ يدَّعُـونَ أنَّ هـذا كانَ يجري قبـلَ قـومِ لـوطٍ، وهـذه دَعـوى، والصِّـدقُ مـا ورَدَ به القـرآنُ.

***

(٨١) ـ ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿أئنَّكم لتأتونَ الرِّجالَ﴾ قرأ المُعظَمُ بالاستفهامِ، وقرأ نافعٌ: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بغيرِ استفهامٍ(١).

﴿شَهْوَةً﴾ مصدرٌ، يُقالُ: شَهِيَ يَشْهَى شَهوةً، وشَها يشهُو؛ أي: اشتَهَى؛ أي: يشتَهُونَهم شهوةً، فهو نصبٌ على المصدرِ، أو مصدرٌ وقعَ موقعَ الحالِ.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ جمَعتُم إلى الشِّركِ هذه الفاحشةَ.

***

(٨٢) ـ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

قولُـه: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم﴾؛ أي: لوطًـا وأتباعَـه ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ عـنِ الإتيـانِ فـي هـذا المأتـى، يُقـالُ: تطَهَّـرَ الرَّجـلُ؛ أي: تنَـزَّهَ عـن الإثمِ.

قال قتادةُ: عابُوهم ـ واللهِ ـ بغيرِ عيبٍ(٢).

***

---

(١) وقرأ بها أيضاً حفص. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٥)، و«التيسير» (ص: ١١١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢١٧٢)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٧).

(٨٣) ـ ﴿ فَأَنجَيْنَهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَأَنجَيْنَهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ أهلُه: ابنَتاه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أي: زوجتَه، ولا يُقالُ: «امرُؤُها» بمعنى زوجِها؛ لأنَّ زوجَها بمنزلةِ المالكِ لها، وليسَتْ هي بمنزلةِ المالكةِ للرَّجلِ، فإذا أُضيفَتْ إلى الرَّجلِ بالاسمِ العامِّ عُرِفَتِ الزَّوجيّةُ، وإذا أُضيفَ الرَّجلُ إلى المرأةِ بالاسمِ العامِّ لـم تُعرَفِ الزَّوجيّةُ.

﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من غَبَرَ يغبُرُ غُبورًا؛ أي: بقِيَ ومكَثَ؛ أي: كانت منَ الباقينَ في عذابِ الله.

وقيلَ: أي: بقيَت في تلك القريةِ فحلَّ بها العذابُ.

وقيلَ: كانت منَ الغابِرين لطُولِ عُمرِها.

وقيلَ: أي: بقِيَتْ عنِ الإيمانِ بلُوطٍ فلم تُؤمِنْ به.

* * *

(٨٤) ـ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ يُقالُ: مطَرَتْنا السَّماءُ وأمطَرَتْنا، وأمطَرَهُم الله مطَرًا وعذابًا، وأمطَرَ عليهم.

ثمَّ قيلَ: أمطَرَ الله عليهم حجارةً منَ السَّماءِ.

وقيلَ: حجارةً من سجِّيلٍ.

﴿فَٱنظُرْ﴾؛ أي: فانظُرْ بعينِ قلبِكَ ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: المُشرِكين، ولـم يقُلْ: «كانت» لأنَّ تأنيثَ العاقبةِ لا يتمحَّضُ، والفعلُ مُقدَّمٌ.

وفي التَّفاسيرِ: أنَّهم كانوا أهلَ خصبٍ، فانتجَعَهم النّاسُ فتأذَّوا، فتمثَّلَ لهم

إبليسُ في صورةِ أمرَدَ، ودَعاهُم إلى نفسِه، وقال: هاكُموا[1] فافعَلُوا بالغُرَباءِ، فلمَّا حانَ العذابُ نزلَ جبريلُ عليه السَّلامُ في ملائكةٍ على أحسنِ صورةٍ، فقصَدُوهم فظَنُّوا أنَّهم غُرَباءُ، فحملَ جبريلُ المدائنَ بجناحِه وقلَبَها[2].

وكانت خمسَ مدائنَ أو ستَّ مدائنَ بينَ الشّامِ والمدينةِ.

* * *

(٨٥) - ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ مَديَنُ اسمُ ولدٍ لإبراهيمَ، وبُعِثَ شُعَيبٌ إلى أولادِ مَديَنَ، وصارَ مَديَنُ اسمًا للقبيلةِ، كما يُقالُ: بكرٌ وتميمٌ، ولم يُصرَفْ مَديَنُ لأنَّه اسمٌ للقبيلةِ، وهو اسمٌ أعجميٌّ، وكان هؤلاءِ يبخَسُونَ المكيالَ والميزانَ.

وشُعَيبٌ هو شُعَيبُ بنُ توبةَ بنِ مدينَ بنِ إبراهيمَ.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ قيل: البيِّنةُ شُعَيبٌ؛ أي: جئتُكم بالرِّسالةِ، ولم يُذكَرْ له مُعجزةٌ في القرآنِ.

وقيلَ: ﴿جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾؛ أي: مَوعِظةٌ.

---

(١) في (أ): «وقال هكذا».

(٢) انظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٦٠)، وقصة هلاكهم رواها الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١٥ - ٥٢١) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، وعن سعيد بن جبير وقتادة والسدي وشمر بن عطية ووهب بن منبه.

ورواها عن حذيفة أيضاً عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٦).

﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ... وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾؛ أي: بالبَخْسِ بعد إصلاحِ الله إيّاها ببعثةِ شُعَيبٍ، وبالأمرِ بالعدلِ.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: منَ الكفرِ؛ أي: لا خيرَ في الكُفرِ والظُّلمِ.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتُم ممَّن قَصْدُه الإيمانُ بالحقِّ إذا دُعِيَ إليه.

* * *

(٨٦) ـ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ كانوا يقعُدون بالطُّرقاتِ وينهَونَ النّاسَ عن الإيمانِ بشُعَيبٍ، ويتوعَّدُونَهم بالقتلِ إنْ آمنُوا.

وقيلَ: كانُوا عشَّارينَ[1].

وقيلَ: كانُوا يقطَعُون السُّبُلَ.

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تمنَعُونَ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالسَّبيلِ، أو بشُعَيبٍ، أو بالله تعالى ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: تلتَمِسُونَ لها الزَّيغَ، وتطلُبونَ هلاكَ أهلِها.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾؛ أي: كثَّرَ عدَدَكم، أو: كثَّرَكُم بالغِنَى بعد الفقرِ، أو القُدرةِ بعد الضَّعفِ.

* * *

(١) العشارون: جمع عشار، وهو صاحب المكس: الذي كان يأخذ من المسلمين عشر أموالهم لا على وجه الزكاة، بل على وجه التعدي. انظر: «شرح المشكل» لابن الجوزي (٢/ ٢٣).

(٨٧) - ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ ﴾؛ أي: إنْ لـم يُؤمِنْ مُعظمُكم بي فلا ينبَغي أن تغتَرُّوا به، فإنَّ العاقبةَ المحمودةَ لي، وسيَنزلُ العذابُ بمَن خالَفَني.

﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ هذا ليس أمرًا بالمُقامِ على الكفرِ، ولكنَّه وعيدٌ وتهديدٌ.

* * *

(٨٨ - ٨٩) - ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾؛ أي: الأشرافُ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾؛ أي: لتصيرُنَّ في ملَّتِنا، فالعَودُ بمعنى الابتداءِ، تقولُ: «عادَ إليَّ منه مكروهٌ»؛ أي: صارَ.

وقيلَ: كان أتباعُ شُعَيبٍ قبلَ الإيمانِ به على الكفرِ؛ أي: لتعودُنَّ إلينا كما كنتُم من قبلُ أو لنُخرِجَنَّكم.

﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾؛ أي: ولو كنَّا كارِهين تُجبِرونَنا عليه؛ أي: إنْ فعلتُم هذا أتيتُم عظيمًا.

ثمَّ قيلَ: أرادَ: أوَلَو كنّا كارِهينَ للعَودِ في ملَّتِكم.

وقيلَ: للخروجِ منَ الوطنِ.

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ آيَسُوهُم عن عَودِهم إلى ملَّتِهم.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾؛ أي: إلّا أن يُريدَ الله إهلاكَنا، ولا يقالُ: إلّا أن يشاءَ كُفرَنا؛ لأنَّه وإنْ شاءَ الكفرَ فليس للعبدِ أن يعودَ فيه.

ويحتملُ: وما يقعُ منَّا العَودُ إلى الكفرِ إلّا أن يشاءَ الله ذلك.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمًا﴾؛ أي: علِمَ ما كانَ وما يكونُ، وقولُه: ﴿عِلۡمًا﴾ نصبٌ على التَّمييزِ.

قيلَ: وما يكونُ لنا أن نعودَ في القريةِ بعد أنْ كرِهتُم مُجاورَتَنا، بل نخرجُ من قريتِكم مُهاجرينَ إلى غيرِها إلّا أن يشاءَ الله ردَّنا إليها.

وفيه بُعدٌ؛ لقولِه: ﴿إِنۡ عُدۡنَا فِى مِلَّتِكُم﴾، وأيضًا يُقالُ: عادَ للقريةِ، ولا يُقالُ: عادَ في القريةِ.

﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ﴾؛ أي: اقضِ، ويُسمَّى القاضي: الفتَّاحَ.

وقيلَ: ﴿ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا﴾؛ أي: أظهِرْ أمرَنا حتَّى ينفتحَ ما بينَنا وبينَهم؛ أي: أنزلِ العذابَ بالكافرينَ، والفتحُ بمعنَى الكشفِ.

* * *

(٩٠ ـ ٩٣) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِى دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٍ كَٰفِرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾؛ أي: قالوا لمَن دونَهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: هالِكُونَ.

قولُه: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾؛ أي: نزَلَ بهم العذابُ فأصبَحُوا موتَى ساقِطينَ، عُذِّبُوا بعذابِ يومِ الظُّلَّةِ، وهو ما أُرسِلَ عليهم منَ الحرِّ الذي لـم يُظِلَّهم منه كِنٌّ.

قـولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾؛ أي: أصبحَ الذين كذَّبُوا ﴿فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾، وقولُه: ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ مثلُ قـولِه: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]. قـالَه الجُرْجانيُّ[١].

وقيـلَ: هـذا كلامٌ مُستَأنفٌ؛ أي: الذين كذَّبوا شُـعَيبًا صاروا كأنَّهم لـم يزالُوا مَوتَى.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ أي: كأنْ لـم يُقيمُوا، يُقالُ: غَنِيَ القومُ في دارِهم؛ أي: طالَ مقامُهم فيها، والمَغْنَى: المنزِلُ.

وقيلَ: كأنْ لـم يجِدُوا مالًا وغِنًى، ولـم يستمتِعُوا بدُنيا.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾ ابتداءُ خِطابٍ، وهو مُبالغةٌ في الذَّمِّ والتَّوبيخِ، ولمَّا قالوا: مَن اتَّبعَ شُعَيبًا خاسرٌ، قال الله: الخاسِرُونَ هم الذين قالوا هذا القولَ.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾؛ أي: أدبرَ شُعَيبٌ عن قومِه؛ أي: خرَجَ من بينِ أظهُرِهم، وكانَ هذا قبلَ نُزولِ العذابِ بهم.

وقيلَ: أعرَضَ عنهم إعراضَ آيسٍ منهم.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾؛ أي: كيفَ أحزَنُ؟ يُقالُ: أَسِيْتُ عليه آسَى أَسًى: إذا اشتَدَّ حُزنُكَ عليه.

---

(١) هو أبو علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني صاحب كتاب «نظم القرآن»، تقدم النقلُ عنه مراراً، ونقل كلامه هنا الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٣٧).

وقيلَ: لمَّا هدَّدَهم بالعذابِ قالُوا: لا تحزَنْ علينا[1] ولا تأسَ، فقالَ: وكيفَ آسَى على قومٍ كافرِينَ.

* * *

(٩٤) ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

قولُه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ ﴾؛ أي: في مدينةٍ، وفيه إضمارٌ؛ أي: ما أرسَلْنا في قريةٍ من نبيٍّ فكُذِّبَ إلا أخَذْناهم قبلَ العذابِ المُستَأصِلِ ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾؛ أي: الفقرِ والأسقامِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾؛ أي: ليستكينُوا وليتنبَّهُوا[2].

* * *

(٩٥) ـ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

قولُه: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾؛ أي: أبدَلْناهم بالجدبِ خِصْبًا، وبالمصائبِ رَغائبَ.

والسَّيِّئةُ: كلُّ ما يسوءُ صاحبَه، والحسنةُ: ما يَحسُنُ عليه أثرُه.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾؛ أي: كثُروا، يُقالُ: عَفا الشَّعرُ يعفُو فهو عافٍ؛ أي: كثُرَ، وعفَيْتُ الشَّيءَ وأعفَيتُه؛ أي: كثَّرتُه، وأُمِرَ بإحفاءِ الشَّاربِ وإعفاءِ اللِّحَى.

﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾؛ أي: هذه التَّبدُّلاتُ عادةُ الدَّهرِ، وليستِ امتِحانًا لنشكرَ في حالٍ، ونَتَغبَّطَ في حالٍ.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾؛ أي: فجأةً ليكونَ أكثرَ حسرةً.

---

(١) «علينا» من (أ).

(٢) في (أ): «ولينهوا».

(٩٦) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾؛ أي: آمنُوا بالله واتَّقَوا الشِّركَ.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾؛ أي: لـمَا امتَحنَّاهم بالجدبِ وضَيقِ العيشِ، وهذا في أقوامٍ على الخصوصِ جرَى ذِكرُهم؛ إذ قد يُمتَحَنُ المُؤمنُ بضيقِ العيشِ ويكونُ تكفيرًا لذُنوبِه، ألا ترى أنَّه أخبرَ عن نوحٍ إذ قالَ لقومِه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١١]، وعن هودٍ: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]، فوعَدَهم المطرَ والخِصْبَ على التَّخصيصِ؟

﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي المطرُ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وهي النَّباتُ والثِّمارُ والمَواشي.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: كذَّبُوا الرُّسلَ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾؛ أي: بالقَحْطِ والبلاءِ.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ منَ الكفرِ والمعاصي.

وقد قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في مدائنَ معروفةٍ هلَكَتْ بالجدبِ(١).

* * *

(٩٧ ـ ٩٩) ـ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ، والفاءُ للعطفِ، والمُرادُ بالقُرى: مكّةُ وما حولَـها، وقيلَ: هو عامٌّ في جميعِ الأُممِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٤٩).

قولُه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ قُرِئَ بفتحِ الواوِ، وهو حرفُ عطفٍ دخلَتْ عليه همزةُ الاستفهامِ، كقولِه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقُرِئَ: ﴿أَوْأَمِنَ أَهْلُ﴾ ساكنةَ الواوِ[1]؛ أي: أفأَمِنُوا إحدى هذه العقوباتِ.

﴿ضُحًى﴾ أي: صدرَ النَّهارِ ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: هم في غيرِ شيءٍ يُجري عليهم خيرًا.

قولُه: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عذابَ الله بغتةً.

وقيلَ: مكرُ الله: جزاؤُهم على مكرِهم.

وقيلَ: هو الاستِدراجُ بالنِّعمةِ والصِّحّةِ.

* * *

(١٠٠) - ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾؛ أي: أوَلم يُبيِّن الله أنَّه لو يشاءُ.

وقيلَ: أي: أوَلم يهدِ لهم أنْ لو نشاءُ أصَبْناهم بذُنوبِهم؟ فكأنَّه قال: أوَلم يهدِ لهم مشيئَتُنا.

﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: ممَّن كان قبلَه، يعني: كفّارَ مكّةَ ومَن حولَهم.

﴿أَصَبْنَٰهُم﴾؛ أي: أخَذْناهم وعذَّبْناهم.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ونحنُ نطبَعُ على قُلوبِهم.

---

(١) قرأ بها ابن كثير ونافع وابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٦)، و«التيسير» (ص: ١١١).

وقيلَ: هو معطوفٌ على أصَبْنا؛ أي: نُصيبُهم ونَطبعُ، كقولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ [الفرقان: ١٠]؛ أي: يَجعلْ، فوُضِعَ الماضي موضعَ المُستقبلِ، ولهذا قال: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠].

* * *

(١٠١) - ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: هذه القُرى التي أهلَكْناها؛ أي: قُرَى نوحٍ وعادٍ وهودٍ وقومِ لوطٍ وشُعَيبٍ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾؛ أي: نتلُو عليكَ من أخبارِها، وهو تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ وللمُسلمينَ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾؛ أي: فما كانَ أولئك الكفّارُ ليُؤمِنُوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ يومَ الميثاقِ حينَ أخرجَهم من ظهرِ آدمَ، فآمَنُوا كَرْهًا لا طَوْعًا. قالَه ابنُ عبّاسٍ[١].

وقال مُجاهدٌ: ما كانوا لو أحيَيْناهُم بعد هلاكِهم ليُؤمِنُوا بما كذَّبُوا به قبلَ الإهلاكِ[٢].

وقيلَ: سألُوا المُعجِزاتِ فلمَّا رأَوها ما كانُوا ليُؤمِنُوا بما كذَّبُوا به من قبلِ رُؤيةِ المُعجِزاتِ، وهذا إخبارٌ عن قومٍ علِمَ أنَّهم لا يُؤمِنُونَ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٦)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٥٦)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥٧)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٠)، بلفظ: «﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قال: كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]».

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الطَّبعِ على قُلوبِ كفّارِ الأممِ الخاليةِ يطبعُ على قلوبِ الذين كتَبَ عليهم ألّا يُؤمِنُوا أبدًا.

* * *

(١٠٢) ـ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ قيلَ: أرادَ أنَّ الكفَّارَ مُنقَسِمُونَ، فالأكثَرُونَ منهم مَن لا أمانةَ له، ومنهم مَن له أمانةٌ مع كُفرِه وإنْ قَلُّوا.

وقيلَ: أي: ما وجَدْنا للكُفّارِ من عهدٍ، وهم الأكثَرون، فأمَّا المُؤمنونَ فهم الأقلُّونَ منَ الخلقِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ العهدَ المأخوذَ عليهم وقتَ الذَّرِّ[١].

ومَن نقَضَ العهدَ قيلَ له: إنَّه لا عهدَ له؛ أي: كأنَّه لـم يَعهَدْ.

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ دخلَ (إنْ) واللّامُ تأكيدًا.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾؛ أي: من بعدِ نوحٍ وثمودَ وصالحٍ ولوطٍ وشُعَيبٍ.

وقيلَ: ثمَّ بعَثْنا من بعدِ الأُممِ المُتقدِّمةِ.

﴿مُّوسَىٰ﴾؛ أي: مُوسى بنَ عمرانَ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: بمُعجِزاتِنا ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ لأنَّهم إذا كفَرُوا بالآياتِ فقد وضَعُوا الشَّيءَ في غيرِ موضعِه.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٥٨).

﴿فَانظُرْ﴾؛ أي: بعينِ قلبِكَ كيفَ كانَ عاقبتُهم.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ ذكرَهم وإنْ كانَ موسى مبعوثًا إلى الكلِّ؛ لأنَّ مَن عدا فرعونَ والأشرافَ كانُوا أتباعًا.

وأيضًا كانَ يدعُو فرعونُ ليُرسِلَ بني إسرائيلَ ليُخرِجَهم من أرضِ مصرَ، وكان بحضرةِ الملأِ منهم، فخُصُّوا بالذِّكرِ، ولـم يكُنْ كغيرِه منَ الأنبياءِ يخرجُ إلى العامّةِ فيدعُوهم إلى الله.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: رسولٌ إليكَ من خالقِ الخلقِ.

* * *

(١٠٥) ـ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قولُه: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: حقيقٌ بألّا أكذبَ على الله لمكاني من رسالتِه.

وقال الفرَّاءُ: أي: محقوقٌ على ألّا أقولَ، من قولك: حقَّ عليَّ أن أفعَلَ كذا، والمعنى: حقيقٌ بألّا أقولَ؛ كما تقولُ: رمَيتُ بالقوسِ، وعلى القوسِ، فـ﴿حَقِيقٌ﴾ على هذا بمعنى: محقوقٌ[1].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٨٦)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

وقرأ نافعٌ: ﴿حقيقٌ عليَّ﴾(١)؛ أي: واجبٌ عليَّ، أو: حقٌّ عليَّ؛ أي: حاقٌّ عليَّ، فحقيقٌ على هذا ابتداءٌ، وخبرُه: ﴿أَن لَّآ أَقُولَ﴾، وعلى القراءةِ الأولى ﴿حَقِيقٌ﴾ خبرُ الابتداءِ؛ أي: أنا حقيقٌ.

﴿إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾؛ أي: أنَّه لا إلهَ غيرُه؛ أي: واجبٌ عليَّ ألّا أقولَ في صفةِ الله إلّا ما هو الحقُّ، وهو توحيدُه.

﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ أي: بمُعجِزةٍ ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: خلِّهم، وكانَ استَسْخَرَهم في الأعمالِ الشَّديدةِ.

***

(١٠٦ ـ ١٠٧) ـ ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾.

قولُه: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ﴾؛ أي: قال فرعونُ: ما تلكَ البيِّنةُ؟ فألقَى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: العصا ﴿ثُعۡبَانٞ﴾ والثُّعبانُ: الحيَّةُ الضَّخمُ الذَّكرُ، وهو أعظَمُ الحيّاتِ.

﴿مُّبِينٞ﴾؛ أي: بيِّنٌ أنَّه حيَّةٌ لا لبسَ فيها.

***

(١٠٨) ـ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ نزعُ الشَّيءِ: قلعُه وإخراجُه عن مكانِه؛ أي: أخرَجَ يدَه من جيبِه أو من جناحِه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ﴾.

قال ابنُ عبّاسٍ: كان له نورٌ ساطعٌ يُضيءُ ما بين السَّماءِ والأرضِ(٢).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧)، و«التيسير» (ص: ١١١).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٦٥)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٦٠) بلفظ: =

وقيلَ: كان يُخرجُ يدَه فإذا هي بيضاءُ كالثَّلجِ تلوحُ، فإذا ردَّها عادَتْ إلى مثلِ سائرِ بدنِه[١]، وكان آدمَ شديدَ الأُدمةِ.

* * *

(١٠٩ ـ ١١٠) ـ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾؛ أي: الوُجوهُ من قومِ فرعونَ.

قولُه: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾؛ أي: من ملكِكُم معاشرَ القِبْطِ بتقديمِه بني إسرائيلَ عليكم.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾؛ أي: قال فرعونُ: فماذا تأمُرونَ؟

وقيلَ: هو من قَولِ الملأ أيضًا، كأنَّهم خاطَبُوا فرعونَ وخاصَّتَه؛ أو خاطَبُوا فرعونَ وحدَه، كما تقولُ للرَّئيسِ المُطاعِ: ما تَرونَ في كذا؟

* * *

(١١١) ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ ﴾ قُرِئَ: ﴿أرجِهُ﴾ و﴿أرجِئْهُ﴾، وهما لُغتانِ، يُقالُ: أرْجَأْتُه وأرْجَيْتُه؛ أي: أخَّرْتُه، وقُرِئَ ﴿أَرْجِهْ ﴾ بغيرِ همزٍ وبإسكانِ الهاءِ[٢].

= «فأدخل يده في جيبه فأخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار فخروا على وجوههم».

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٦٠) عن ابن إسحاق.

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١١١)، وفيه: «قرأ ابن كثير وهشام هنا وفي الشُّعراء بالهمز وضم الهاء ووصلها بواو، وأبو عمرو بالهمز والضَّم من غير صلة، وابن ذكوان بالهمز وبكسر الهاء ولا يصلها بياء، وقالون بغير همز ويختلس الكسرة، وورش والكسائيّ بغير همز ويصلان الهاء بياء، وعاصم وحمزة بغير همز ويسكِّنان الهاء». وانظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧ ـ ٢٨٩).

قال الفرَّاءُ: هي لغةٌ للعربِ، يقِفُونَ على الهاءِ المَكنيِّ عنها في الوصلِ إذا تحرَّكَ ما قبلَها، وهكذا تقول: «هذِهْ طلحَهْ قد أقبلَتْ»[١]، وأنكرَ البصريُّونَ هذا[٢].

﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ المدينةُ «فَعِيلةٌ»، وتُهمَزُ في الجمعِ لأنَّ الياءَ زائدةٌ، وهي من: مَدَنَ يمْدُنُ مُدُونًا؛ أي: أقامَ.

وقيلَ: إنَّها «مَفْعَلة»، وهو من دانَه يَدِينُه؛ أي: ساسَهُ، فالمدينةُ هي الأرضُ المملوكةُ التي ساسَها السُّلطانُ، وعلى هذا فالجمعُ «مَداينُ» غيرَ مهموزٍ، مثلَ: «مَعايِش».

وقال المُبرِّدُ: هي «مَدْيُونةٌ» من دانَه يدينُه؛ أي: قهَرَه وأذلَّه، فثَقُلَتِ الضَّمّةُ على الياءِ فنقَلُوا حركتَها إلى ما قبلَها، فاجتمَعَ ساكنانِ: الواوُ المزيدةُ في «مَفعُول»، والياءُ من نفسِ الكلمةِ، فحُذِفَتِ الواوُ لزيادتِها، ثمَّ كسَرُوا الدّالَ لتسلمَ الياءُ ولا تنقلبَ واوًا لانضمامِ ما قبلَها، فيختلطَ ذَواتُ الواوِ بذَواتِ الياءِ، وأصلُ المدينةِ: «مَديُونةٌ»[٣].

والتَّأنيثُ بمعنَى: الأرضِ المَدينةِ، ومَن قال بالقَولَينِ الآخَرينِ قال: إنَّ القُرَّاءَ إنَّما همَزُوا المدائنَ للتَّشبيهِ بالصَّحائفِ والقبائلِ، وقد همزَ قومٌ «المعائِش» أيضًا.

و﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾ هاهُنا: صعيدُ مصرَ؛ أي: أرسِلْ رجالًا يَحشُروا إليكَ[٤] السَّحَرةَ. وقيلَ: كانَ له سحرةٌ مُعدُّونَ لنَوائبِ الزَّمانِ.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٨٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٦٥)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٢٦٧).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٧١).

(٤) في (أ): «أولئك».

(١١٢) - ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾.

قولُه: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ قُرِئَ: ﴿سَحَّارٍ﴾[(١)].

وفرعونُ هو الوليدُ بنُ مصعبٍ، أبو العبّاسِ[(٢)].

وقال أهلُ الكتابِ: اسمُه بالسُّريانيّةِ: قابوسُ، وكانَ منَ القِبْطِ، وبلَغَ عمرُه أكثرَ من أربعِ مئةِ سنةٍ؛ لأنَّ فرعونَ موسى هو فرعونُ يوسفَ، ولـمَّا تُوفِّيَ يوسفُ وانقرَضَتِ الأسباطُ وكثُرَ نسلُهم غلَبَهم فرعونُ فاستعبَدَهم، فأنقَذَهم الله بموسى.

قال وَهْبٌ: بينَ اليومِ الذي دخَلَ يوسفُ فيه مصرَ وبينَ اليومِ الذي دخلَها موسى رسولًا أربعُ مائةِ عامٍ[(٣)].

وعصا موسى قيلَ: دفعَها إليه جبريلُ حينَ توجَّه إلى مديَنَ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: لـمَّا ألقاها في دارِ فرعَونَ ملأَتْ دارَ فرعَونَ، وكانت إذا فتحَتْ فاها صارَ شِدْقُها ثمانينَ ذراعًا ـ وقيلَ: أربعينَ ذراعًا ـ فقصَدَتْ فرعونَ لتبتلِعَه فوثَبَ من سريرِه، فهرَبَ منها، واستغاثَ فرعونُ بموسى، فأخَذَها فإذا هي عصاً كما كانت[(٤)].

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٦٤٢) عن ابن إسحاق، وذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (١/ ٦٣) عن الأكثرين.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٦٠).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٦٧)، وروى الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ألقى العصا فصارت حية، فوضعت فقماً لها أسفل القبة، وفقماً لها أعلى القبة ـ قال عبد الكريم: قال إبراهيم: وأشار سفيان بأصبعه الإبهام والسبابة هكذا شِبْهَ الطاق ـ فلما أرادت أن تأخذه، قال فرعون: يا موسى خذها، فأخذها موسى بيده، فعادت عصاً كما كانت أول مرة».

قال وَهْبٌ: ماتَ منهم من خوفِ العصا خمسٌ وعشرون ألفًا[(١)].

وقيلَ: كان عددُ السَّحَرةِ سبعين رجلًا.

وقيلَ: ثلاثًا وسبعين.

وقال ابنُ إسحاقَ: كانوا خمسةَ عشرَ ألفَ ساحرٍ[(٢)].

وقيلَ: كانوا اثنَي عشرَ ألفًا.

* * *

(١١٣ ـ ١١٤) ـ ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ فيه حذفٌ؛ أي: فأرسلَ الحاشِرينَ فحشَرُوا، وجاء السَّحَرةُ ﴿قالوا أئِنَّ لنا لأجراً﴾؛ أي: جائزةً ومالًا، ولـم يقُلْ: «فقالوا» بالفاءِ؛ لأنَّه أرادَ: لـمَّا جاؤوا قالوا.

وقُرِئَ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ على الخبرِ، وهي قراءةُ نافعٍ[(٣)]، ثمَّ على هذا الاستفهامُ ثابتٌ في المعنى، كقولِه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ ﴾ [الشعراء: ٢٢]؛ أي: أَوَتلكَ.

قولُه: ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ أجابَهم إلى بذلِ الأُجرةِ على الغلبةِ، ثمَّ قال: ولكم مع الأجرِ التَّقريبُ حتَّى تكونَ حوائجُكم مقضيَّةً عندي.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٦٣ ـ ٦٤) مطولًا، وذكر فيه من المبالغات ما لا يقبل، وما يدل على أن هذا الخبر من أباطيل بني إسرائيل.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٥٤) و(١٠/ ٣٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٦٧).

(٣) وقرأ بها أيضاً ابن كثير وعاصم في رواية حَفْص، وقرأ باقي السبعة على الاستفهام. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

قال ابنُ عبّاسٍ: أُشرِكُكُم في ملكي، وأُولِّيكُم على أرضي[(١)].

وقال الكلبيُّ: إنّكم أوَّلُ مَن يدخُلُ عليَّ، وآخرُ مَن يخرُجُ[(٢)].

* * *

(١١٥) - ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾؛ أي: لـمَّا اجتمَعُوا قالوا لموسى: إنْ شئتَ ابتَدِئْ أنتَ بإلقاءِ العصا، وإلّا ابتدأْنا نحنُ.

ثمَّ؛ قال هاهُنا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾، وقال: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٦]، فأدخلَ هاهُنا ﴿أَن ﴾، قال الفرّاءُ: لأنّه في موضعِ أمرٍ بالاختيارِ، وهو موضعُ نصبٍ، كقولِكَ: «اخترْ ذا أو ذا»، كأنّهم قالوا: «اخترْ أن تُلقِيَ أو نُلقِيَ»، فأمَّا قولُه: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ فليس فيه أمرٌ بالتَّخييرِ؛ لأنَّ الأمرَ لا يصلحُ هاهنا، فلم يكُنْ فيه «أن»[(٣)].

ومفعولُ ﴿تُلْقِيَ ﴾ محذوفٌ؛ أي: إمّا أن تُلقِيَ عصاكَ وإمَّا أن نكونَ نحنُ المُلقينَ ما معَنا منَ الحبالِ والعِصيِّ.

* * *

(١١٦) - ﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ هذا تهديدٌ؛ أي: ابتَدِئُوا بالإلقاءِ فستَرَونَ ما يحلُّ بكم منَ الافتِضاحِ؛ إذ لا يجوزُ على موسى أن يأمُرَهم بالسِّحرِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٧٧)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٥)، بلفظ: «أنتم قرابتي وحامتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٦٦)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٧٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٨٩ - ٣٩٠)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٢٧٧ - ٢٧٩).

وقيلَ: أي: ألقُوا إنْ كنتُم مُحقِّينَ.

وقيلَ: أمرَهم بذلك ليُبيِّنَ كذِبَهم وتـمويهَهُم.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾؛ أي: الحبالَ والعصيَّ ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: قلَبوها عن صحّةِ إدراكِها بما يُتخيَّلُ منَ التَّمويهِ الذي جرَى مَجرَى الشَّعوذةِ وخِفّةِ اليدِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: حسِبُوا أنَّها حيّاتٌ[١].

﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ لأنَّه كان كثيرًا، وخُيِّلَ إلى موسى أنَّها تسعى إليه فخافَ.

وقولُه: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ قال المُبرِّدُ: أي: أرهَبُوهم، فالسِّينُ زائدةٌ[٢].

وقال الزَّجّاجُ: استَدْعَوا رهبةَ النّاسِ بفعلِهم، حتَّى رهِبَهُم النّاسُ[٣].

والسِّحرُ: الخِداعُ، ومنه: صبيٌّ مُسَحَّرٌ؛ أي: مُعَلَّلٌ؛ لأنَّ العليلَ خدّاعٌ، وسحَرَ المطرُ الأرضَ؛ أي: قلَبَها وقطعَ نباتَها، ومنه أرضٌ مسحورةٌ، فالسّاحرُ هو الذي يُوهِمُ أنَّه يقلبُ الأعيانَ.

* * *

(١١٧) ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ قيلَ: هو وَحْيُ إلهامٍ، وقيلَ: وَحْيٌ بالملَكِ ﴿فإذا هِيَ تَلَقَّفُ ما يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: فألقاها فإذا هي تلقفُه.

---

(١) ذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٨٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٥٧) بلفظ: «ألقوا حبالًا غلاظًا طوالًا وخشبًا طوالًا قال: فأقبلت يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٨٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٦٦)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٢٨١).

وقُرِئَ: ﴿تَلْقَفُ﴾ مُخفَّفًا[1]، واللَّقْفُ مصدرُ لَقِفْتُ الشَّيءَ أَلْقَفُه؛ أي: ابتلَعْتُه، ومنه: رجلٌ ثَقْفٌ لَقْفٌ، وثَقِفٌ لَقِفٌ، وثَقِيفٌ لَقِيفٌ، بيِّنُ الثَّقافةِ واللَّقافةِ؛ أي: بصيرٌ بمواضعِ الضَّربِ، أو سريعُ الأخذِ.

وقيلَ: ﴿تَلْقَفُ﴾؛ أي: تَلْقَمُ.

وفي التَّفسيرِ: أنَّ موسى لـمَّا ألقَى العصا صارَتْ حيّةً عظيمةً، ثمَّ فتحَتْ فاها وابتلَعَتْ ما ألقَوا من حبالِـهم وعصِيِّهم.

وقيلَ: كانَ ما ألقَوه حبالًا من أدمٍ فيها زِئبقٌ.

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: يكذِبُونَ، من أفكَهُ؛ أي: قلَبَه عن وجهِه.

* * *

(١١٨) - ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قولُـه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾؛ أي: فجـاءَ الحـقُّ، أو: ظهـرَ الحـقُّ؛ لأنَّ السَّـحَرةَ رأَوا سـحرَهم قـد فُقِـدَ، ولـم يبـقَ منـه شـيءٌ، وعلِمُـوا أنَّه أمـرٌ من أمـرِ الله.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بطلَ عملُهم، وقيلَ: بطلَ الحبالُ والعِصيُّ.

* * *

(١١٩ - ١٢٢) - ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾؛ أي: فغُلِبَتِ السَّحرةُ فـي ذلك المـوضـعِ ﴿وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾؛ أي: انقلَبَ قومُ فرعونَ، فأمَّا السَّحرةُ فقد آمَنُوا، والصُّغْرُ: الذُّلُّ.

---

(١) قرأ بها حفصٌ، والباقون بفتح اللام وتشديد القاف، والبَزِّيُّ على أصله في تشديد التاء وصلاً. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٠)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

قولُه: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾؛ أي: إنَّ الله ألقاهُم سُجَّدًا؛ أي: سبَّبَ لهم منَ الهدى ما وقَعُوا به ساجدينَ له.

وقيلَ: من سُرعةِ ما سجَدُوا كانوا كأنَّهم أُلقوا.

وقيلَ: ألقاهُم ما رأَوا من عِظَمِ آياتِ الله للسُّجودِ له.

قولُه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تابُوا منَ الكفرِ وعبادةِ فرعونَ.

قولُه: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ خصَّهما بالذِّكرِ بعد دُخولِهما في العالَمين؛ لأنَّهما دَعَوَا إلى الله فرعونَ وقومَه.

وقيلَ: تشريفًا وتفضيلًا، كقولِه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة: ٩٨].

وقيلَ: لمَّا قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، قالَ فرعونُ: إيّايَ تعنُونَ؟ فقالوا: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

***

(١٢٣) ـ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾؛ أي: بمُوسى، أو: بربِّ موسى، من غيرِ إذني، وهذا إنكارٌ منه عليهم.

قُرِئَ: ﴿ءَامَنتُم ﴾ بلفظِ الخبرِ من غيرِ مدٍّ، كأنَّه أخبرَهم بإيمانِهم على وجهِ الإنكارِ عليهم.

وقُرِئَ بهمزةٍ بعدَها ألفٌ ممدودةٌ تكونُ في التَّقديرِ ألفَينِ: الهمزةُ للاستفهامِ، والأولى منَ الألفَينِ همزةُ «أفْعَلْتُم» حُقِّقَتْ، والثّانيةُ مُنقلبةٌ عن فاءِ الفعلِ.

وقُرِئَ: ﴿أَأَامَنْتُم﴾ بتحقيقِ الهمزتَينِ[1]، فإنَّ أصلَ «آمَنْتُم»: «أَأْمَنْتُم»، على: «أَفْعَلْتُم»، فإحدَى الهمزتَينِ همزةُ الإفعالِ، والثّانيةُ فاءُ الفعلِ، فخُفِّفَتِ الثّانيةُ، ودخلَتْ همزةُ الاستفهامِ، فاجتمَعَتْ مع همزةِ «أَفْعَلَ».

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ﴾؛ أي: جرَتْ بينكم وبينَ موسى مُواطأةٌ في هذا لتستَولوا على مصرَ.

﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ أي: جرَى هذا التَّواطؤُ منكم وأنتُم في مدينةِ مصرَ قبلَ أن تبرُزُوا إلى هذه الصَّحراءِ.

وقيلَ: تواطَأتُم على هذا لإخلاءِ المدينةِ عن أهلِها فكانَ مكرُكم في بابِ المدينةِ وشأنِها.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديدٌ لهم.

* * *

(١٢٤) - ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ، وكذا: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾.

وقُرِئَ فيهما بالتَّخفيفِ[2].

﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: اليدُ اليُمنَى والرِّجلُ اليُسرَى، أو اليدُ اليُسرَى والرِّجلُ اليُمنَى.

---

(١) قرأ حفص: ﴿آمنتم﴾ على الخبر، وأبو بكر وحمزة والكسائي على الاستفهام بهمزتين محققتين بعدهما ألف، والباقون - عدا قنبلاً - على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة بعدها في قدير ألفين، وقرأ قنبل وصلاً هنا بإبدال الهمزة واواً مفوحة ويمد بعدها مدة في تقدير ألفين. انظر: «التيسير» (ص: ١١٢)، وانظر: «السبعة» (ص: ٢٩٠).

(٢) قراءة السبعة بالتشديد في كلا الكلمتين، وقراءة التخفيف فيهما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠) عن مجاهد وحميد وابن محيصن.

(١٢٥) ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: هو يُثيبُنا على ما يُصيبُنا منَ المكروهِ.

وقيلَ: إنَّا إليه راجعون، فهو أحقُّ بأن نتَّقِيَ عذابَه منك.

وقيلَ: أي: نرجعُ إليه بقُلوبِنا، ونعلمُ أنَّه لا يكونُ إلّا ما يُريدُ.

وقيلَ: أي: ننقلبُ إلى ثوابِ ربِّنا، ففخَّمَ الأمرُ بالإضافةِ إلى الله.

* * *

(١٢٦) ـ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ يُقالُ: نقَمَ ينقِمُ، ونقِمَ ينقَمُ، إذا بالغَ في كراهيةِ الشَّيءِ؛ أي: لستَ تكرَهُ منّا سِوَى أنّا آمنَّا بالله، وهو الحقُّ.

﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾؛ أي: العصا واليدِ البيضاءِ.

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الإفراغُ: الصَّبُّ، ودرهمٌ مفروغٌ؛ أي: مصبوبٌ في قالبٍ؛ أي: أنزِلْ علينا صبرًا عندَ القطعِ والصَّلبِ ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مُخلِصين في العبادةِ.

وقد قيلَ: أخذَ فرعونُ السَّحرةَ وقطَّعَهم على شاطئِ النَّهرِ.

وقيلَ: كانوا من بني إسرائيلَ إلّا اثنَينِ منهم، وكان فرعونُ أكرَهَهم على تعلُّمِ السِّحرِ، وذلك قولُه: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣].

* * *

(١٢٧) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ ﴾ قيلَ: لمَّا غُلِبَ السَّحرةُ آمنَ بموسى من بني إسرائيلَ ستُّ مئةِ ألفٍ، فقال قومُ فرعونَ:

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بإيقاعِ الفُرقةِ وتشتيتِ الشَّملِ.

﴿وَيَذَرَكَ ﴾؛ أي: ليُفسِدُوا وليذَرَكَ.

وقيلَ: الواوُ نائبةٌ عن الفاءِ؛ أي: (فيذرك).

قرأ ابنُ عبّاسٍ: (وإلاهَتَكَ)[١]؛ أي: عبادَتَكَ؛ لأنَّ فرعونَ كان يُعبَدُ ولا يَعبُدُ؛ أي: ويتركُ عبادتَه لك.

وقرأ العامّةُ: ﴿وَءَالِهَتَكَ ﴾ على جمعِ «إلهٍ»، مثل «إِزارٍ وآزِرَةٍ»، وعلى هذا قيلَ: كان فرعونُ صنعَ لقومِه أصنامًا صِغارًا وأمرَهم بعبادتِها، وقال: أنا ربُّكم وربُّ هذه الأصنامِ، ولهذا قال: أنا ربُّكم الأعلى، وكان القومُ يعبُدون تلك الأصنامَ تقرُّبًا إلى فرعونَ.

وقال الحسنُ: كان لِفرعَونَ صنمٌ يعبُدُه ويسجُدُ له[٢].

وقيلَ: كان يعبُدُ بقرةً، وكان إذا استحسنَ بقرةً أمرَ بعبادتِها وقال: أنا ربُّكم وربُّ

---

(١) ونسبت أيضاً لابن مسعود وعلي رضي الله عنهما وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠)، و«المحتسب» (١/ ٢٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٢٥٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٣٨) بلفظ: بلغني أن فرعون كان يعبد إلهًا في السر. وقرأ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾. وعند ابن أبي حاتم: «آلهة» بدل «إلهاً».

هذه الأصنامِ، ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ [طه: ٨٨]. ذكرَه ابنُ عبّاسٍ[١].

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ أي: لا تخافُوا جانبَهم؛ فإنِّي أُعِدُّ لهم قتلَ الأبناءِ واسترقاقَ النِّساءِ، وأُشغِلُهم بالاستخدامِ عن المناكحِ ليقلَّ عددُهم، وكان قد أمرَ في حالِ ولادةِ موسى بقتلِ الأبناءِ واسترقاقِ النِّساءِ من بني إسرائيلَ، ثمَّ اندرَسَ ذلك، فأمرَ في هذا الوقتِ بإعادةِ القتلِ عليهم، وكان مُرادُ الملأ أن يُقتَلَ موسى، ولكنْ علِمَ فرعَونُ أنَّه لا يقدرُ عليه.

قُرِئَ: ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ بالتَّشديدِ، و﴿سَنَقْتُلُ﴾ بالتَّخفيفِ[٢].

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾؛ أي: نحنُ قادِرُونَ عليه.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: لمَّا بلَغَهم من فرعَونَ هذا قال لقومِه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ أطمَعَهم في أن يُورِّثَهم الله أرضَ مصرَ، والإِرثُ: أن يخلُفَ الإنسانُ غيرَه في شيءٍ.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الجنَّةُ لـمَن اتَّقى.

والعاقبةُ: مآلُ الأمرِ من خيرٍ أو شرٍّ، ولكنَّها إذا أُطلِقَتْ فقيلَ: «العاقبةُ لفُلانٍ» فُهِمَ في العُرفِ منه الخيرُ.

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٦٦)، وانظر: «تفسير الثعلبي» (١٢/ ٤٧١).

(٢) قرأ ابن كثير ونافع بالتخفيف، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٢)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

(١٢٩) - ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا ﴾؛ أي: في ابتداءِ ولادتِكَ بقتلِ الأبناءِ واسترقاقِ النِّساءِ، والآنَ أُعيدَ علينا ذلك.

وقيلَ: إنَّما قالوا ذلك لمَّا خرَجَ بهم موسى عن مصرَ وتبِعَهم فرعَونُ.

وقيلَ: كان فرعَونُ كلَّفَهم قبلَ موسى ضربَ اللَّبِنِ، فلمَّا جاءَهم موسى كلَّفَهم ضربَ اللَّبِنِ بالتِّبنِ من عندِهم.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ «عسى» منَ الله واجبٌ؛ لأنَّ الكريمَ إذا أطمَعَ حقَّقَ.

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾؛ أي: يرَى ذلك بوُقوعِ ذلك منكم؛ لأنَّ الله لا يُجازيهم على ما يعلَمُه منهم، إنَّما يُجازيهم على ما يقعُ منهم، ثمَّ حقَّقَ الله الوعدَ فغرِقَ فرعونُ وقومُه.

* * *

(١٣٠) - ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ ذكرَ تتابعَ الآياتِ لفرعَونَ وقومِه.

والآلُ: خاصَّةُ الرَّجلِ الذين يؤُولُ أمرُهم إليه.

﴿بِٱلسِّنِينَ ﴾: هي جمعُ السَّنةِ، والسَّنةُ هاهُنا بمعنى: الجَدْبِ، لا بمعنَى: الحولِ، ومنه: أسْنَتَ القومُ؛ أي: أجدَبُوا، أي: أخَذْناهم بالجوعِ والقَحْطِ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾؛ أي: ليتَّعِظُوا وترِقَّ قلوبُهم.

* * *

(١٣١) ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾؛ أي: الخِصْبُ والسَّعةُ ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: نحنُ مُستحِقُّونَ لهذه، ولـم يعترِفُوا بأنَّ النِّعمةَ منَ الله.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: قَحْطٌ ومرضٌ ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ﴾؛ أي: يتشاءَمُوا به، والأصلُ: «يتَطَيَّروا» فأُدغِمَت التّاءُ في الطّاءِ لأنَّهما من طرفِ اللِّسانِ وأصولِ الثَّنايا.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: شُؤمُهم؛ لأنَّه جاءَهم الشُّؤمُ بكُفرِهم.

وإنَّما قيلَ للشُّؤمِ: طائرٌ وطيرٌ وطِيَرةٌ؛ لأنَّهم كانوا على اعتقاداتٍ في عيافةِ الطَّيرِ وزَجرِها، ومنه ما ورَدَ في الخبرِ: «لا طِيَرةَ ولا هامَ»[1]، وقال عليه السَّلامُ: «أَقِرُّوا الطَّيرَ على مَكِنَاتِها»[2]؛ أي: دَعُوا التَّطيُّرَ، فقولُه: ﴿طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عندِه الخيرُ والشَّرُّ لا منَ الطّائرِ.

وقال أبو عُبيدةَ: ﴿طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما قدِّرَتْ لـهم وعليهم[3]، فطائرُ كلِّ واحدٍ: ما يطيرُ له؛ أي: ما يخصُّه.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٠٧)، ومسلم (٢٢٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر..». والهَام جمع هامة، وهو طائر كانت العرب تزعم أن عِظَام الميت تصير هامة فتطير، وكانوا يقولون: إن القتيل تخرج من هامته ـ أي: رأسه ـ هامة، فلا تزال تقول: اسْقُوني، اسْقُوني، حتى يُقْتل قاتله. انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (٧/ ٦٣٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧١٣٩)، وأبو داود (٢٨٣٥)، من حديث أم كُرْز رضي الله عنها. وإسناده ضعيف كما ذكر محققو «المسند»، وانظر: «علل الدارقطني» (١٥/ ٣٩٥) وما بعدها، وانظر الكلام على كلمة (مكناها) في «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٣/ ١٤٨٦ ـ ١٤٨٨).

(٣) في (أ): «أي: ما قدر عليهم»، وفي «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٢٦): «ومجاز طائرهم: حظهم ونصيبهم».

(١٣٢) - ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ﴾؛ أي: قال قومُ فرعونَ لمُوسى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا﴾.

قال الخليلُ: أصلُ ﴿مَهْمَا﴾: «ما ما»، الأولى «ما» للجزاءِ، والثّانيةُ زائدةٌ توكيدًا للجزاءِ، كما تُزادُ في سائرِ حروفِ الجزاء، مثل: «إمَّا» و«متى ما» و«كيفَ ما»، فأبدَلُوا من ألفِ «ما» الأولى هاءً كراهةً لتكرارِ اللَّفظِ[1].

وقال الكسائيُّ: أصلُه: «مَهْ»؛ أي: اكفُفْ، دخلَتْ على «ما» الجزاءِ؛ أي: اكفُفْ ما تأتِنا به من آيةٍ[2].

وقيلَ: هي كلمةٌ مُفردةٌ يُجازَى بها ليُجزَمَ ما بعدَها على تقديرِ «إنْ».

﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾؛ أي: لتصرِفَنا عمَّا نحنُ عليه.

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا من قولِ القِبْطِ.

وقد قيلَ: بقيَ موسى في القِبْطِ بعد إلقاءِ السَّحرةِ سُجَّدًا عشرينَ سنةً يُريهم الآياتِ إلى أن أغرَقَ الله فرعَونَ.

* * *

(١) انظر: «العين» (٣/ ٣٥٨)، و«الكتاب» (٣/ ٥٩)، و«المقتضب» (٢/ ٤٨)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (٢/ ١٥٩ - ١٦٠)، و«البسيط» (٩/ ٣٠٤) وعنه نقل المصنف.

(٢) انظر: «البسيط» (٩/ ٣٠٤)، وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٦٩)، و«تهذيب اللغة» (٥/ ٢٥٠). وقال سيبويه في «الكتاب» (٣/ ٦٠) بعد ذكر قول الخليل السابق: «وقد يجوز أن يكون مَهْ كإذ ضم إليها ما».

(١٣٣) ـ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾؛ أي: المطرَ الشَّديدَ، والسَّيلَ المُتَتابعَ.

وقيلَ: عنَى بالطُّوفانِ: الموتَ الذَّريعَ، روَتْه عائشةُ رضيَ الله عنها عن النَّبيِّ ﷺ[1].

وقد قيلَ: هو الطَّاعونُ بلغةِ اليمنِ[2]. وهذا مُوافقٌ للخبرِ[3].

وقيلَ: هو الـجُدرِيُّ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: هو أمرٌ منَ الله طافَ عليهم كما قال: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القلم: ١٩][4].

ثمَّ؛ قيلَ: الطُّوفانُ مصدرٌ كالرُّجحانِ والنُّقصانِ، فلا يُطلَبُ له واحدٌ.

وقيلَ: واحدُه «طُوفانةٌ».

قيلَ: إنَّ فرعَونَ عَتا وقومَه؛ قال موسى: يا ربِّ خُذهُم بعقوبةٍ، فأرسلَ الله

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٦٧). وقال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: وهو حديث غريب. وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٣٠٠): «وعند ابن مردويه بإسنادين ضعيفين عن عائشة مرفوعاً الطوفان الموت».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٧٩)، والجرجاني في «درج الدرر» (١/ ٦٩٢٦٨)، عن وهب.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٥) و(٩/ ٣٠٤٢)، عن مجاهد قال: «الطوفان: الماء والطاعون». وروى الإمام أحمد في «الزهد» (١٠٢١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٣٩)، عن طارق بن عبد الرحمن قال: «وقع الطاعون بالشام، فاستعر فيها، فقال الناس: ما هذا إلا الطوفان إلا أنه ليس ماء...».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٤٤).

السَّماءَ عليهم بالماءِ، فامتَلَأَتْ بيوتُهم حتَّى قاموا في الماءِ إلى تراقيهم، ولـم يدخُلْ بيوتَ بني إسرائيلَ قطرةٌ، ودامَ ذلك عليهم سبعةَ أيَّامٍ، وقيلَ: أربعينَ يومًا، فقالوا: يا موسى ادعُ لنا ربَّكَ يكشِفْ عنَّا فنُؤمِنَ لك، فدَعا ربَّه فرفعَ عنهم الطُّوفانَ فلم يُؤمِنُوا، فأنبتَ الله لهم في تلك السَّنةِ ما لـم يُنبِتْه قبلَ ذلك منَ الكلأِ والزَّرعِ، فقالوا: كان ذلك الماءُ نعمةً، فبعَثَ الله عليهم الجرادَ، وهو الحيوانُ المعروفُ ـ والـجَرْدُ في اللُّغةِ أخذُكَ الشَّيءَ عن الشَّيءِ سحتًا، يُقالُ للثَّوبِ الذي ذهبَ زِئْبِرُه: «جَرْدٌ»، وأرضٌ جَرْداءُ: لا نبتَ فيها ـ فأكلَتِ الجرادُ زُروعَهم وثيابَهم، حتَّى إنَّها كانت تأكلُ السُّقوفَ والأبوابَ حتَّى تنهدِمَ دُورُهم، ولـم يدخُلْ دُورَ بني إسرائيلَ منها شيءٌ، وبقيَ ذلك سبعةَ أيَّامٍ أو أربعينَ يومًا، فعاهَدوا موسى أن يُؤمِنُوا لو كشَفَ عنهم الجرادَ، فدَعا فكُشِفَ، وكانَ قد بقيَ من زُروعِهم شيءٌ فقالُوا: «يكفِينا ما بقيَ» ولـم يُؤمِنُوا، فبعثَ الله عليهم القُمَّلَ.

قيلَ: هو الدَّبَى الصِّغارُ التي لا أجنحةَ لـها[1].

وقيلَ: السُّوسُ الذي في الحِنطةِ.

وقيلَ: دوابُّ سودٌ صِغارٌ.

وقيل: هو الذَّرُّ الصِّغارُ.

وقيلَ: شيءٌ يقعُ في الزَّرعِ ليس بجرادٍ.

وقال أبو عُبيدةَ: القُمَّلُ: الـحَمْنانُ، وهي صِغارُ القِردانِ[2].

---

(١) أي: صغار الجراد قبل نبات أجنحتها. انظر: «تفسير الطبري» (١٠/ ٣٨٣).

(٢) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٦٦).

فأكلَتْ دوابَّهم[1] وأخذَتْ أشعارَهم وأبشارَهم، ولزِمَتْ جُلودَهم كأنَّها الجدريُّ عليهم، ومنعَهم النَّومَ والقرارَ ـ وقيلَ: القُمَّلُ: القَمْلُ ـ فتضرَّعُوا، فلمَّا كُشِفَ عنهم لم يُؤمِنُوا.

فأرسلَ الله عليهم الضَّفادعَ، فدخلَتْ طعامَهم وشرابَهم وفُرُشَهم، فكان الرَّجلُ يجلِسُ إلى ذقنِه في الضَّفادعِ، وإذا تكلَّمَ وثَبَ الضِّفدَعُ في فيه، فشكَوا إلى موسى، وقالوا: نتوبُ، فكُشِفَ عنهم ذلك فعادُوا لكُفرِهم، فأرسَلَ الله عليهم الدَّمَ فسالَ النِّيلُ عليهم دمًا، وكان الإسرائيليُّ يغتَرِفُ منه الماءَ، والقِبْطيُّ الدَّمَ، وكان الإسرائيليُّ يصُبُّ الماءَ في فمِ القِبْطِيِّ فيصيرُ دمًا، والقِبْطيُّ يصُبُّ الدَّمَ في فمِ الإسرائيليِّ فيصيرُ ماءً زُلالًا[2].

﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ قيلَ: كان العذابُ يبقَى منَ السَّبتِ إلى السَّبتِ، وبينَ النَّوعِ والنَّوعِ شهرٌ، فلهذا قال: ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾، وقيلَ: مُبيَّناتٌ ظاهِراتٌ.

وقيلَ: كانت مدَّةُ كلِّ آيةٍ أربعينَ يومًا، وبين كلِّ آيتَين أربعون يومًا.

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ أي: ترَفَّعوا عن الإيمانِ بالله تعالى.

* * *

(١٣٤) ـ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾؛ أي: حلَّ بهم العذابُ.

---

(١) في (أ): «ذوائبهم»، وفي «تفسير القرطبي» (٩/ ٣١٢): أكل دوابهم وزروعهم.

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٥) عن سعيد بن جبير.

قُرِئَ: ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ و(الرُّجزُ)، ومعناهما واحدٌ[1]، وقيلَ: بالضَّمِّ الإثمُ، وبالكسرِ العذابُ.

وقيلَ: أرادَ به الطّاعونَ، وهو العذابُ السَّادسُ، أصابَهم فماتَ فيه منَ القِبْطِ سبعونَ ألفَ إنسانٍ في يومٍ واحدٍ.

﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ أي: بما أوصاكَ أن تدعُوَه به، وبما استودَعَك منَ العلمِ، أو: بما اختصَّكَ به فنبَّأَكَ، فـ(ما) بمعنَى «الذي».

وقيلَ: هذا قسَمٌ؛ أي: بعهدِه عندَك، فـ(ما) صِلةٌ.

﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾؛ أي: بدُعائِكَ لإلـهِكَ حتَّى يكشِفَ عنا.

﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فإنَّهم كانوا أخذُوهم بالكدِّ الشَّديدِ.

* * *

(١٣٥) - ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ﴾؛ أي: العذابَ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾؛ أي: الأجَلُ الذي ضُرِبَ لـهم في التَّغريقِ ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾؛ أي: ينقُضونَ العهدَ.

* * *

(١٣٦) - ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: كافَيْناهُم ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾؛ أي: البحرِ.

---

(١) بالكسر قراءة الجمهور، وبالضم مجاهد وابن محيصن. انظر: «المختصر في شواذ القراء» (ص: ٥١).

﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ أي: عن النِّقمةِ، ودلَّ عليها قولُه: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾.

وقيلَ: عن الآياتِ؛ أي: لـم يعتَبِرُوا بها، والوعيدُ ليس للغفلةِ؛ فإنَّها ليست باختيارِ العبدِ، ولكن لتَركِهم التَّحفُّظَ عن الغفلةِ، أو عنَى بالغفلةِ: الإعراضَ عن الآياتِ بالاختيارِ حتَّى صارُوا كالغافلين.

وقيلَ: خرجَ موسى ببني إسرائيلَ ليلًا، فلمَّا أَتَى الشَّطَّ ضرَبَ بعصاه البحرَ فانفلَقَ، فظهرَ اثنا عشرَ طريقًا، فعبرَ في ستِّ مئةِ ألفٍ ونيِّفٍ، وجاءَ فرعونُ في أثرِه في ألفِ ألفٍ ومئةِ ألفٍ سوى كتيبتِه التي هو فيها، فلمَّا وافَوا الشَّطَّ ورأَوا الطَّريقَ يبسًا وتقدَّمَهم جبريلُ على فرسٍ وديقٍ[1] فتبِعُوه، فلما همَّ أوَّلُـهم بالخروجِ ودخلَ آخرُهم طبَّقَ الله عليهم البحرَ وغرَّقَهم[2].

* * *

(١٣٧) ـ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾؛ أي: مكنَّاهُم في الأرضِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ الاستِضعافُ: طلَبُ الضَّعفِ بالاستطاعةِ والقهرِ، وكثُرَ استعمالُه حتَّى قيلَ: استضعَفَه؛ أي: وجَدَه ضعيفًا.

---

(١) يقال: أتان ودوق ووديق: إذا أرادت الفحل. انظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٦٧٧).

(٢) روى نحوه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٣٩)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٧٤)، عن قيس بن عباد.

﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أرضَ الشّامِ ومصرَ ﴿وَمَغَٰرِبَهَا﴾؛ أي: جهاتِ الشَّرقِ والغربِ بها، فالأرضُ مخصوصةٌ.

وقيلَ: أرادَ جميعَ الأرضِ؛ لأنَّ من بني إسرائيلَ داودَ وسُليمانَ، وقد ملَكا الأرضَ.

﴿ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بإخراجِ الزُّروعِ والثِّمارِ والأنهارِ، فمَن قال: أرادَ أرضَ الشّامِ؛ قال: هي الموصوفةُ بكثرةِ النِّعمِ.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: كانَ وعدُ بني إسرائيلَ أرضَ الشّامِ، فهذا الوعدُ هو الكلمةُ الحُسنَى.

وقيلَ: الكلمةُ قولُه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥].

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنَّها وافقَتْ ما أحبُّوا.

﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾؛ أي: بصبرِهم على أذى فرعونَ، وعلى أمرِ الله بعد أن آمَنُوا بمُوسى.

﴿وَدَمَّرْنَا﴾؛ أي: أهلَكْنا، يُقالُ: دمَّرَه ودمَّرَ عليه.

﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ منَ الأبنيةِ والمصانعِ والمزارعِ ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ يُقالُ: عَرَشَ يعرِشُ ويعرُشُ؛ أي: بنَى، أرادَ: ما عرَشُوا منَ الكُرومِ.

وقيلَ: منَ البُيوتِ.

ثمَّ قيلَ: أتى الخرابُ على مساكنِهم.

وقيلَ: أرادَ بالخرابِ إهلاكَ أهلِها، فصارَ كالشَّيءِ الهالكِ في حقِّهم.

وقيلَ: أي: وأورَثْنا القومَ الذين كانُوا يُستَضعَفُونَ في مشارقِ الأرضِ، فلمَّا حُذِفَ «في» نُصِبَ ﴿مَشَـٰرِقَ﴾.

* * *

(١٣٨) ـ ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾؛ أي: سلَّمْناهُم مِنَ الغَرقِ، فجاوَزْنا بهم اليمَّ، يُقالُ: جاوَزَ الواديَ؛ أي: قطَعَه، وجاوَزَه بغَيرِه؛ أي: عبرَ به.

وقيلَ: عبرَ بهم موسى يومَ عاشوراءَ، وصامَ ذلك اليومَ شكرًا لله تعالى[1].

﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾؛ أي: يعبُدونَها مُقيمينَ عليها، يُقالُ: عكَفَ عليه يعكُفُ بالضَّمِ، ويعكِفُ بالكسرِ[2]؛ أي: لزِمَه.

قال قَتادةُ: كانَ أولئك القومُ من لَـخْمٍ[3]، وكانُوا نُزولًا بالرَّقَةِ.

وقيلَ: كانت أصنامُهم تماثيلَ بقرٍ، ولهذا أخرَجَ لهم السّامريُّ عِجلًا.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٣) عن الكلبي، وأصله في «البخاري» (٢٠٠٤)، و«مسلم» (١١٣٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قرأ حمزة والكسائي بكسر الكاف، والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٢)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥٣). ولخم: حي من اليمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهلية، وهم آل عمرو بن عدي ابن نصر اللخمي. انظر: «الصحاح» (مادة: لخم).

قال البلنسي في «تفسير مبهمات القرآن» (١/ ٤٨٦): «وأما أن يكونوا من لخم فبعيد جدًّا، لأن لخمًا يبعد أن يكون مخلوقًا في عهد موسى، فكيف بأن يكون من صلبه قبيلة في ذلك الوقت؟!».

﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾؛ أي: من دونِ الله.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: جهِلتُم نِعَمَ الله، وما صنَعَ بكم.

وقيلَ: جهِلتُم إذ اعتقَدْتُم أنَّه يجوزُ عبادةُ غيرِ الله.

* * *

(١٣٩) - ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُـه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾؛ أي: مُهلَـكٌ، والتَّتبيـرُ: الإِهـلاكُ، وكلُّ إنـاءٍ يُكسَرُ[1] مُتبَّـرٌ، والكِسارةُ: التِّبْـرُ.

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: لا ينفعُهم عملُهم.

* * *

(١٤٠) - ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ يُقالُ: بغَيتُه وبغَيتُ له.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: على عالَـمي زمانِكم.

وقيلَ: فضَّلَهم بإهلاكِ عدُوِّهم، وبما خصَّهم به منَ الآياتِ، وإنْ كان لغيرِهم فضلٌ عليهم في غيرِ هذه الأشياءِ.

* * *

(١٤١) - ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ذكَّرهم مِنَنَه.

---

(١) في (أ): «مكسر».

وقيلَ: هو خِطابٌ ليهودِ عصرِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ أي: واذكُروا إذ أنجَيْنا أسلافَكم.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ أي: يُذيقُونكم، والسَّومُ: مُجاوَزةُ الحدِّ.

والسَّومُ في البيعِ: تجاوُزُ الحدِّ في السِّعرِ إلى الزِّيادةِ، والسّائمةُ منَ البهائمِ تُجاوِزُ الزُّروعَ إلى نباتِ الصَّحراءِ.

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: ما ساءَكم منَ البلاءِ.

و(الإنجاءُ): الإلقاءُ إلى نَجْوةٍ، وهي المُرتفَعُ منَ الأرضِ.

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ[1].

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾؛ أي: وفي تلك المِحَنِ، أو: في إنجائِنا إياكم ﴿بَلَآءٌ﴾؛ أي: امتحانٌ لكم بالصَّبرِ والشُّكرِ.

***

(١٤٢) ـ ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ ثمَّ ذكرَ أنَّ ممَّا كرَّمَ به موسى هذا؛ أي: واعَدْنا موسى انقِضاءَ ثلاثينَ ليلةً، وكان وَعَدَه المناجاةَ إكرامًا له.

﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ فالشَّهرُ ذو القعدةِ، والعشرُ عشرُ ذي الحجّةِ، قالَه ابنُ عبّاسٍ[2].

---

(١) قرأ نافع بالتخفيف، وباقي السبعة بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٢)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥٦).

أمرَه الله أن يصومَ فيها ويتجرَّدَ للعبادةِ، فلمَّا انسلَخَ ذو القعدةَ استاكَ موسى يُريدُ إزالةَ الخَلوفِ لمُناجاةِ ربِّه ـ وقيلَ: أكلَ من لِحاءِ شجرةٍ ـ فأوحى الله إليه: يا مُوسى، لا أُكلِّمُك حتَّى يعودَ فُوكَ إلى ما كان عليه، أمَا علِمتَ أنَّ رائحةَ فمِ الصّائمِ أحبُّ إليَّ من ريحِ المسكِ؟ وأمرَه بصيامِ عشرةِ أيّامٍ(١).

فالثّلاثُونَ كانت مشروطةً بشرطٍ، فلمَّا تخلَّفَ الشَّرطُ زادَه الله عشرًا.

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً﴾ الميقاتُ: ما قُدِّرَ ليُعمَلَ فيه عملٌ من الأعمالِ، ومنه: مواقيتُ الحجِّ؛ أي: تمَّ الوقتُ الذي قدَّرَه الله لصومِ موسى أربعين ليلةً، وهذا كقولك: تمَّ القومُ عشرين رجلًا؛ أي: تمَّ القومُ معدودين هذا العددَ، وقد جاء الميقاتُ بمعنَى الميعادِ.

﴿أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً﴾ لئلّا يُتوَهَّمَ أنَّ المُرادَ أتـمَمْنا الثّلاثين بعشرٍ منها وكان الأصلُ عشرينَ.

﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ أضافَ إليه لأنَّه الذي وقَّتَها لمُوسى، وقال: ﴿وَٰعَدۡنَا﴾ لأنَّه كان من الله الوعدُ، ومن موسى القَبولُ والانتظارُ.

وقُرِئَ: ﴿ووَعَدْنا﴾(٢).

وقيلَ: وعدَه ثلاثين ليلةً ليصومَ في أيّامِها، وعشرًا لينتَظِرَ المُناجاةَ.

وقيلَ: على العكسِ.

---

(١) قطعة من خبر طويل عن ابن عباس رواه النسائي في «الكبرى» (١١٢٦٣)، ورواه عنه مختصراً بهذه القطعة ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥٦).

(٢) قرأ بالتخفيف أبو عمرو ويعقوب. انظر: «التيسير» (ص: ٧٣)، و«النشر» (٢/ ٢١٢).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى﴾؛ أي: كُنْ خليفةً لي في القومِ، يُقالُ: خلَفَ فلانٌ فلانًا.

﴿وَأَصْلِحْ﴾؛ أي: ارفُقْ بهم، أو: أصلِحْ أمرَهُم، أو: أصلِحْ في نفسِكَ؛ أي: كُنْ مُصلِحًا.

* * *

(١٤٣) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾؛ أي: في الوقتِ الموعودِ ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: أسمَعَه كلامَه من غيرِ واسطةٍ ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ أي: أرِني نفسَكَ، ولا يجوزُ الحملُ على أنَّه أرادَ: أرِني آيةً عظيمةً لأنظُرَ إلى قُدرَتِك؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَيْكَ﴾، وقال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، وقال: ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾، وأيضًا لو سألَ آيةً لأعطاهُ اللهُ ما سألَ كما أعطاه سائرَ الآياتِ؛ إذ لا معنى لإحالتِه على استقرارِ الجبلِ.

وأيضًا كان لمُوسى في الآياتِ التي شاهدَها مَقْنَعٌ عن طلبِ آيةٍ أُخرَى.

﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ هذا يدلُّ على جوازِ الرُّؤيةِ؛ لأنَّه لم يقُلْ: لا أُرى، ولو سألَ الرُّؤيةَ لقومِه ليُبيِّنَ لهم أنَّها لا تجوزُ لقالَ: لن تَروني، ولقالَ موسى: أرِهم، فقولُه: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ في الدُّنيا، وموسى لم يقُلْ: «أرِني في الآخرةِ» حتَّى يُحمَلَ قولُه: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ على الآخرةِ، والجوابُ يكونُ على وَفقِ السُّؤالِ.

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾؛ أي: اجعَلْ بيني وبينَك ما هو أقوى منك وهو الجبلُ، ﴿فَإِنِ﴾ ثبَتَ وسكنَ ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، وإنْ لم يسكُنْ فإنَّك لا تُطيقُ رُؤيَتي، كما أنَّ

الجبلَ لا يُطيقُ رُؤيَتي، ولـمَّا كان استقرارُ الجبلِ جائزًا في العقلِ كانت الرُّؤيةِ جائزةً.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: ظهرَ، من قولك: «جلَوتُ العروسَ»؛ أي: أبرَزتُها، و«جلَوتُ السَّيفَ»؛ أي: أبرَزْتُه من الصَّدأ.

﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ بالتَّنوينِ، و﴿دَكَّاءَ﴾ بغيرِ تنوينٍ[1]؛ أي: جعلَه مدقوقًا، من: دَكَكْتُ الشَّيءَ أدُكُّه؛ أي: دَقَقْتُه، والدَّكَّاءُ والدَّكَّاواتُ: الرَّوابي النّاشزةُ عن الأرضِ لا تبلغُ أن تكونَ جبلًا، والدَّكُّ مصدرٌ؛ أي: دكَّه دكًّا، وجَعَلَه ذا دكٍّ.

ومَن قرأ: ﴿دكّاءَ﴾ قالَ: أي: مثلَ: دكّاءَ، فحُذِفَ «مثلَ»، قالَه الأخفشُ[2].

والدَّكّاءُ: النَّاقةُ التي ذهبَ سَنامُها.

قال المُبرِّدُ: أي: جعَلَ الجبلَ أرضًا دكّاء، فلا حاجةَ إلى إضمارِ «مثل»[3].

وفي التَّفسيرِ: فساخَ الجبلُ في الأرضِ، فهو يذهبُ فيها حتّى الآنَ.

وقيلَ: صارَ الجبلُ ستَّةَ أجبُلٍ، وقعَتْ ثلاثةٌ منها بالمدينةِ: أُحُدٌ ووَرْقانُ ورَضْوَى، وثلاثةٌ بمكَّةَ: ثَورٌ وثَبيرٌ وحِراءٌ[4].

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: جعَلَه تُرابًا[5].

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٣)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٣٣٧)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٣٣٦).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ٣٢٤)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٣٣٧).

(٤) رواه ابن شبة في «أخبار المدينة» (٢٥٨)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٤١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٠)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢١١)، والثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٩ ـ ٥١١)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٠٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٧٧)، من حديث أنس رضي الله عنه. قال ابن حبان: موضوع لا أصل له.

(٥) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢١٢)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٢٧).

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ الصَّعْقُ مثلُ الغَشْيِ، يُقالُ: صَعِقَ الرَّجلُ فهو صَعِقٌ، وصُعِقَ فهو مَصعُوقٌ، ويُقالُ أيضًا: صَعِقَ؛ أي: ماتَ، ومنه: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

قال ابنُ عبَّاسٍ: خرَّ موسى مغشِيًّا عليه(١). وقال قتادةُ: ميِّتًا(٢).

﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهًا لك منَ السُّوءِ ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: من مسألةِ الرُّؤيةِ في الدُّنيا.

وقيلَ: سألَ من غيرِ استئذانٍ، فلذلك تابَ.

وأجمعَتِ الأمّةُ على أنَّ هذه التَّوبةَ ما كانت عن معصيةٍ؛ فإنَّ الأنبياءَ معصُومُون.

وأيضًا: عند أهلِ السُّنّةِ والجماعةِ الرُّؤيةُ جائزةٌ، وعند المُبتَدِعة سأل لأجلِ القومِ ليُبيِّنَ لهم أنَّها غيرُ جائزةٍ، وهذا لا يقتَضي التَّوبةَ.

وقيلَ: أي: تُبتُ إليك من قتلِ القِبْطيِّ(٣).

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: من قَومي.

وقيلَ: أوَّلُ المُؤمنين من بني إسرائيلَ في هذا العصرِ، أو: أوَّلُ المؤمنين بأنَّك لا تُرى في الدُّنيا لوعدِكَ السّابقِ بذلك.

ثمَّ؛ قيلَ: كلَّمَه الرَّبُّ على رأسِ الأربعين.

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢١٢)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٢٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٢٨) عن قتادة، ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢١١) من رواية قتادة عن أنس رضي الله عنه.

(٣) وهو قول مردود لا وجه له، فأين قتل القبطي من هذا وبينهما زمان طويل، وقد تاب عنه موسى في وقته فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾، فأي داع للاستغفار بعد غفران الله له؟!

وقيلَ: كلَّمه أربعينَ يومًا.

والتَّجلِّي للجبلِ: بأنْ أحدَثَ الله فيه آياتٍ تَدَكْدَكَ عندَها.

وقيلَ: أحيَى الله الجبلَ، وخلقَ فيه رُؤيةً حتَّى رأى اللهَ.

وقد قيلَ: في قولِه: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: إنَّ التَّوبةَ لا تقتَضي ذنبًا سبقَ، بل التَّوبةُ الرُّجوعُ إلى الله، فقال موسى: رجعتُ إليك، وهذا حقُّ العبدِ في كلِّ وقتٍ.

وقيلَ: جرَى هذا على عادةِ الصَّالحينَ؛ فإنَّهم إذا رأَوا آيةً عظيمةً جدَّدوا التَّوبةَ.

* * *

(١٤٤) ـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾؛ أي: اختَرتُكَ، وقيلَ: فضَّلتُكَ.

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لم يقُل: على الخلقِ؛ لأنَّ من هذا الاصطفاءِ أنَّه كلَّمه، وقد كلَّمَ الملائكةَ.

﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ وقُرِئَ: ﴿برسَالَتِي﴾[1]، والرِّسالةُ مصدرٌ، فيجوزُ إفرادُها في محلِّ الجمعِ.

﴿وَبِكَلَٰمِى﴾ أرادَ: أنَّه أسمَعَه كلامَه بلا واسطةٍ، وما كان بواسطةٍ يدخلُ في حدِّ الرِّسالةِ.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾؛ أي: ما فضَّلتُكَ به.

* * *

(١) قرأ بها ابن كثير ونافع. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٣)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(١٤٥) - ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾ أنزَلْنا عليه التَّوراةَ، وعرَّفَ الألواحَ لأنَّها كانت معروفةَ الذِّكرِ عند أهلِ الكتابِ؛ أي: كتَبْنا له في الألواحِ التي عرَفُوها[١].

وقيلَ: أي: كتَبْنا له في ألواحِه؛ كقولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]؛ أي: هي مأواهُ.

ثمَّ؛ قيلَ: كانتِ الألواحُ من خشبٍ نزلَ منَ السَّماءِ.

وقيلَ: من صخرةٍ صمَّاءَ ليَّنَها الله لمُوسى، فقطعَها بيدِه، وكتبَ الله له فيها التَّوراةَ.

وقال ابنُ جُرَيجٍ: كانت من زُمُرُّدةٍ أمرَ الله جبريلَ حتَّى جاءَ بها من عدَنٍ[٢].

وقيلَ: من زَبَرْجَدةٍ خضراءَ كتبَها جبريلُ بالقلمِ الذي كُتِبَ به الذِّكرُ، واستَمَدَّ منَ نهرِ النُّورِ.

وقيلَ: كانت من ياقُوتةٍ حمراءَ طولُها عشَرةُ أذرُعٍ.

وقال مُقاتلٌ: أي: كتَبْنا له في الألواحِ كنَقشِ الخاتمِ[٣].

وقال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: نزلَ التَّوراةُ، وهي سبعونَ وِقْرَ بعيرٍ[٤].

---

(١) في (أ): «عرفها».

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٣)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٤٤).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٢).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٥).

وقـال ابـنُ جُبَيرٍ: لمَّا ألقَى موسـى عليه السَّـلامُ الألـواحَ تكسَّـرَتْ فرُفِعَتْ إلّا سُدسَها[1].

وأضافَ الكتابةَ إلى نفسِه على جهةِ التَّشريفِ وتخصيصِ الذِّكرِ، والمعنَى: أنَّها كُتِبَتْ بأمرِه، أو هي كتابةٌ أظهرَها الله وخلقَها في الألواحِ.

﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مـمَّا يحتاجُ إليه في دينِه منَ الأحكامِ.

وقيلَ: هذه لفظةٌ تُذكَرُ تفخيمًا، ولا يُرادُ بها التَّعميمُ، تقولُ: «دخلتُ السُّوقَ واشترَيتُ كلَّ شيءٍ»، و: «عند فُلانٍ كلُّ شيءٍ»، و: «أيُّ شيءٍ حسنٍ لـم يكُ لك؟»، و: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، و: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: مُبيِّنًا للحلالِ والحرامِ.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: فقُلنا له: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجِدٍّ واقتِدارٍ ونشاطٍ.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾؛ أي: يُحِلُّوا حلالَـها ويُحرِّمُوا حرامَها ويتدَبَّروا أمثالَـها ومواعِظَها.

وقيلَ: هو كما أُمِرْنا؛ فإنَّ العفوَ أحسَنُ منَ الاقتصاصِ، والصَّبرَ أحسَنُ منَ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٧٠)، عن ابن عباس من طريق ابن جبير.
وروى الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٤٧) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله عز وجل أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا، ألقى الألواح فانكسرت».
ورواه أبو داود (١٤٥٩) بلفظ: «أوتي رسول الله ﷺ سبعاً من المثاني الطول، وأوتي موسى ستاً، فلما ألقى الألواح رفعت ثنتان، وبقين أربع».

الانتصارِ، وقد قالَ الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، وقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

وقال قُطرُبٌ: ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾؛ أي: بحَسَنِها.

وقيلَ: أحسَنُها: الفرائضُ والنَّوافلُ، وأدونُها: المباحُ.

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: جهنَّمَ، فلتكُنْ منكم على ذُكرٍ؛ ليحذَرُوا أن يكونُوا من أهلِ النّارِ؛ أي: سأرُدُّكم يومَ القيامةِ للحسابِ، وأُميِّزُ الفاسقَ منَ المُطيعِ، وأُريكُم منازلَ الفاسقين، وأُنزِلُكم منازلَ المُطيعينَ في الجنّةِ، وهذا وعدٌ ووعيدٌ.

وقيلَ: أي: أُدخِلُكم الشّامَ فأُريكم منازلَ الكافرين الذين كانُوا سكّانَها منَ العمالقةِ والجبابرةِ، وأُورِثُكم تلكَ الدِّيارَ.

وقيلَ: أرادَ به مصرَ؛ أي: سأُريكم ديارَ القِبْطِ ومساكنَ فرعونَ خاليةً عنهم.

وقيلَ: سأُريكم عاقبةَ المُصلحِ والمُفسدِ عن قريبٍ، كما قال في أهلِ الجنّةِ: ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقال في أهلِ النّارِ: ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، فهو عبارةٌ عنِ العاقبةِ.

* * *

(١٤٦) ـ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أهلَ العِنادِ، حتّى لا يُمكِنُهم الطَّعنُ فيها بكلامٍ يلزمُ.

أو: أصرِفُهم عن منعِكَ من تبليغِها ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] في التَّبليغ، كما قال في حقِّ محمَّدٍ عليه السَّلامُ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ... وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقيلَ: أي: سأصرِفُ الكافرين عن قَبولِ آياتي، أرادَ: مَن علِمَ أنَّه لا يُؤمِنُ، وهذا كقولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

فالآياتُ: المُعجِزاتُ، أو الكتُبُ المُنزَّلةُ.

وقيلَ: خَلقُ السَّماواتِ والأرضِ؛ أي: أصرِفُهم عن الاعتبارِ بها.

﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾؛ أي: يرونَ أنَّهم أفضَلُ الخلقِ، وهذا ظنٌّ باطلٌ، فلهذا قال: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾؛ أي: سبيلَ الهدى والبيانِ ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: دينًا.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾؛ أي: الكفرِ ﴿يَتَّخِذُوهُ﴾ دينًا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: فعلَ الله بهم ذلك بأنَّهم كذَّبوا بآياتِنا ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ أي: أعرَضُوا إعراضَ الغافلينَ.

* * *

(١٤٧) - ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: لقاءِ الدّارِ الآخرةِ، وهي موعدُ الثَّوابِ والعقابِ.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ أي: صارَتْ كأنَّها لم تكُنْ.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلّا بما كانُوا، أو: إلّا على ما كانُوا يعملون.

***

(١٤٨) - ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أي من بعدِ خُروجِه إلى الطُّورِ ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ الحُليُّ: جمعُ الحَلْيِ، وهو ما تحلَّى به المرأةُ.

وقُرِئَ: ﴿مِنْ حِلِيِّهم﴾ بكسرِ الحاءِ إتباعًا لكسرةِ اللّامِ(١).

وقُرِئَ: ﴿مِنْ حَلْيِهم﴾ بفتحِ الحاءِ وسُكونِ اللّامِ(٢).

وقيلَ: إنَّ جبريلَ جاء إلى موسى على فرسٍ ليذهبَ به إلى الميقاتِ فبصُرَ به السّامريُّ، وكان السّامريُّ وُلِدَ عامَ قَتلِ الأبناءِ، وأخفَتْه أمُّه في كهفِ جبلٍ فغذَّاه جبريلُ، فعرَفَه لذلك وقال في نفسِه: إنَّ هذا الفرسَ لَفرسُ الحياةِ، وليكونَنَّ له شأنٌ، فأخذَ قبضةً من أثرِ حافرِ الفرسِ.

وقيلَ: أخذَها يومَ نزلَ جبريلُ على فرسٍ وَدِيقٍ ليتقدَّمَ فرعونَ في البحرِ.

وكان موسى وعدَ قومَه ثلاثين يومًا، فلمَّا أبطأَ عنه في العشرِ الزّائدِ قال قومُه: لولا أنَّه ضلَّ لرجعَ.

وقيلَ: وعدَهم أربعين يومًا، فحسَبُوا اليومَ واحدًا واللَّيلَ واحدًا، فلمَّا مضى عشرون يومًا قالوا: قد تمَّ أربعون، فاتَّخذَ السّامريُّ عجلًا من الحُليِّ، وكان لبني

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٣)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٢) قرأ بها يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٢).

إسرائيلَ عيدٌ يتزيَّنون فيه، ويستَعيرون منَ القِبْطِ الـحُليَّ، فاستعارُوا لذلك اليومِ، فلما أخرجَهم الله من مصرَ وغرِقَ القِبْطُ بقيَتْ تلك الـحُليُّ في أيديهم، فجمَعَها السّامريُّ، فكانَ رجلًا مُطاعًا فيهم.

وقيلَ: قال لهم هارونُ: إنَّ الـحُليَّ غنيمةٌ، وهي لا تحلُّ لكم، فجمَعَها في حفيرةٍ حفرَها[1]، فأخذَها السّامريُّ.

وقيلَ: هذه الـحُليُّ ما أخذَ بنو إسرائيلَ من قومِ فرعونَ بعد الغَرقِ، وبعد أن أُلقوا بنجوةٍ منَ الأرضِ، حتَّى شاهدَهم بنو إسرائيلَ موتَى.

وقيلَ: استَعارُوا الـحُليَّ ليلةَ أرادُوا الخروجَ من مصرَ، وأوهَـمُوا القِبطَ أنَّ لهم عُرسًا أو مجتَمَعًا، وكان السّامريُّ سمعَ قولَـهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وكانت تلك الآلهةُ على مثالِ البقرِ، فصاغَ لـهم ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾؛ أي: مُصمَتًا، غيرَ أنَّهم كانوا يسمعُونَ منه خُوارًا.

وقيلَ: قلبَه الله لحمًا ودمًا.

وقيلَ: إنَّما خارَ مرّةً واحدةً.

والـخُوارُ: الصَّوتُ.

وكان السّامريُّ ألقى تلك القبضةَ منَ التُّرابِ على ما صاغَ منَ الـحُليِّ، ثمَّ قال للقومِ: هذا إلهكم وإله موسى نسِيَه هاهُنا وذهبَ يطلُبُه، وإنَّما لـم يَرجعْ لأنَّ إلـهَه ضلَّ عنه، فتعالَوا نعبُدْ هذا العجلَ.

وقال عطاءٌ: قال الله لموسى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ [طه: ٨٥]، فقال موسى: يا ربِّ هذا السّامِريُّ أخرَجَ لـهم عِجلًا من حُلِيِّهم، فمَن جعلَ له جسدًا ـ يُريدُ اللَّحمَ

---

(١) في (أ): «حرقها».

والدَّمَ ـ ومَن جعلَ له خُوارًا؟ فقال الله: أنا، فقال موسى: وعِزَّتِكَ وجلالِكَ ما أضلَّهم غيرُك، قال: صدَقْتَ يا حكيمَ الحكماءِ(١).

وقال القفَّالُ: كان السَّامرِيُّ احتالَ بأنْ جوَّفَ العجلَ، وكانَ قابَلَ به الرِّيحَ حتَّى جاء من ذلك ما يُحاكي الـخُوارَ، وأوهمَهم أنَّ ذلك إنَّما صارَ كذلك لـمَّا طرَحَ في الجسدِ منَ التُّرابِ الذي كان أخذَه من تُرابِ قوائمِ فرسِ جبريلَ.

وهذا كلامٌ مُتهافتٌ.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بيَّنَ أنَّ المعبودَ يجبُ أن يتَّصِفَ بالكلامِ.

﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾؛ أي: إلـهًا ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفُسِهم فيما فعلوا.

* * *

(١٤٩) ـ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقيلَ: وصارُوا ظالِمين؛ أي: مُشركينَ.

قولُه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بعد عَودِ موسى منَ الميقاتِ، يُقالُ: سُقِطَ في يدِ فُلانٍ، وأُسقِطَ أيضًا؛ أي: ندِمَ.

قال الأزهريُّ: أي: سقَطَ النَّدمُ في أيديهم(٢).

والنَّـدمُ يكـونُ في القلـبِ، ولكنَّه ذكرَ اليـدَ لأنَّه يُقـالُ لمَن يحصلُ على شـيءٍ: قـد حصـلَ في يدِه أمرُ كذا؛ لأنَّ مُباشـرةَ الأشـياءِ فـي الغالبِ باليدِ، قـال الله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وأيضًـا النَّـدمُ وإنْ حـلَّ القلـبَ فأثـرُه يظهرُ فـي اليدَينِ؛

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٥٩) عن عطاء، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٥٩١) إلى ابن مردويه عن وهب بن مالك.

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ٣٠١).

لأنَّ النّـادمَ يعـضُّ يـدَه، ويضـرِبُ إحدى يدَيه علـى الأُخرَى، قـال الله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهـف: ٤٢]؛ أي: نـدِمَ، وقـال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقـان: ٢٧]؛ أي: مـنَ النَّـدمِ، والنّـادمُ يضـعُ ذقنَـه فـي يـدِه، فمعنـى سُـقِطَ فـي يدِه: سَـقطَ لَحْياه فـي يدِه.

﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾؛ أي: علِمُوا أنَّهم قد ابتُلوا بمعصيةِ الله ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ أخذُوا في الاستغفارِ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿لَئِنْ لـم ترحَـمْنا ربَّنا وتغفِرْ لنا﴾ بالتّاءِ[1]؛ أي: يا ربَّنا.

* * *

(١٥٠) ـ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: رجعَ منَ الميقاتِ إلى بني إسرائيلَ ﴿غَضْبَٰنَ﴾؛ أي: مُتغيِّظًا ﴿أَسِفًا﴾؛ أي: مُتلهِّفًا حزينًا.

وقيلَ: الأسِفُ: الشَّديدُ الغضبِ، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥]؛ أي: أغضَبُونا.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾؛ أي: بئسَما عمِلتُم من بعدي، يُقالُ: خلفَه بما يكرَهُ؛ أي: عمِلَ ذلك العملَ، يُريدُ كُفرَهم بالله.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ العجَلةُ: التَّقدُّمُ بالشَّيءِ قبلَ وقتِه، وهي مذمومةٌ، والسُّرعةُ: عملُ الشَّيءِ في أوَّلِ أوقاتِه، وهي محمودةٌ.

﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: ميعادَ ربِّكم فلم تصبِرُوا له؛ أي: وعدَ أربعين ليلةً.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٤)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

وقيلَ: أوَتَعَجَّلتُم[1] سُخطَ ربِّكم؟

وقيلَ: أعجِلْتُم بعبادةِ العجلِ قبل أن يأتيَكم أمرٌ من ربِّكم.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾؛ أي: مـمَّا اعتَراه منَ الغضبِ والأسفِ عند مُعاينتِه ما صارَ إليه قومُه من عبادةِ العجلِ، ولـهذا قيلَ: «ليس الخبرُ كالمُعاينةِ»[2]، يعني: الألواحَ التي فيها التَّوراةُ.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ قيلَ: فعَلَ ذلك ليُناجيَه ويسألَه عن السَّببِ فيما صارَ إليه قومُه، وظنَّ هارونُ أنَّ ذلك لمَوجِدَتِه عليه، وخافَ أن يتخَطَّى ذلك إلى أخذِ لحيتِه لشِدّةِ الغضبِ فقال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ فيتوهَّمَ القومُ أنَّك عاقبتَني بغيرِ ذنبٍ، واسمَعْ عُذري.

وقيلَ: فعلَ ذلك توجُّعًا للمُصيبةِ بما فعلوا، وهو عادةُ كثيرٍ منَ النّاسِ، وهو أن يتعلَّقَ صاحبُ المُصيبةِ برقبةِ مَن يحلُّ محلَّ الخصوصيّةِ فيبكِيانِ معًا، يدُ كلِّ واحدٍ في رقبةِ صاحبِه.

وقيلَ: فعلَ ذلك لمَوجِدَتِه على هارونَ؛ إذ لـم يلحَقْ به فيُعرِّفَه ما جرَى ليرجعَ فيتَلافاهُم، ولهذا قال: ﴿يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ الآية، فبيَّنَ هارونُ أنّه إنَّما أقامَ خوفًا على نفسِه منَ القتلِ، وقال:

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ فلمَّـا سـمعَ عُـذرَه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾.

---

(١) في (أ): «وقيل أي تعجلتم».

(٢) حديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٤٢)، والبزار في «مسنده» (٥٠٦٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٥٠) وصححه، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيلَ: أخذَ بذُؤابةِ أخيه وشعرِه بيدِه اليُمنَى، ولحيتِه باليُسرَى.

﴿قال ابنَ أمِّ﴾ بكسرِ الميمِ[1]، كقولِه: «يا غُلامِ أقبِلْ»، فتُحذَفُ الياءُ لأنَّ النِّداءَ بابُ حذفٍ، والكسرةُ علامةُ المحذوفِ، ولكنَّ هذا في المُضافِ إلى نفسِك، فأمَّا المُضافُ إلى مضافٍ إليك فالوجهُ أن تقولَ: «يا غلامَ غلامي[2]»، و«يا ابنَ أبي وابنَ أخي»، وجوَّزوا «يابنَ أمِّ» و«يابنَ عمِّ»؛ لكثرتِهما في الكلامِ.

قال الزَّجَّاجُ: جُعِلَ الابنُ مع الأمِّ ومع العمِّ اسمًا واحدًا، فحُذِفتِ الياءُ كما حُذِفَتْ من «يا غلامِ»[3].

وقُرِئَ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ بفتحِ الميمِ[4].

قال البصريُّونَ: جُعِلَ ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ شيئًا واحدًا، نحوَ: «خمسةَ عشرَ».

وقال الكوفيُّونَ: هو كما يُنصَبُ المُفردُ في بعضِ الأحوالِ، نحو «يا حسرَتا»، و«يا وَيلتَا»، فكأنَّهم قالوا: «يا أُمَّاه»، و«يا عمَّاه»، ثمَّ تُرخَّمُ النُّدبة، فالفتحةُ في ﴿ٱبْنَ﴾ كالفتحةِ في المُنادى المضافِ، والفتحةُ في ﴿أُمَّ﴾ كالفتحةِ في «أُمَّاه وعمَّاه»[5].

---

(١) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وابن عامر وعاصمٌ في رواية أبي بكر، والباقون: ﴿ابنَ أمَّ﴾ بفتح الميم. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٥)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٢) في النسختين: «غلام»، والصويب من «البسيط» للواحدي (٩/ ٣٧١)، وأعقبه بقوله: «لا يجوز حذف الياء هاهنا».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٧٨)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٣٧١). قال الواحدي: وقد جاء: «يا ابن أمي» بإثبات الياء على الأصل.

(٤) انظر تخريج القراءة الأولى.

(٥) انظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، وانظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٩٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩).

وإنَّما قال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ فذكرَ الأمَّ وكان أخاه لأبيه وأمِّه؛ ليستعطِفَه عليه ويُرقِّقَه بذكرِ الأمِّ.

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾؛ أي: استذَلُّوني ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾؛ أي: همُّوا بقَتلي.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾؛ أي: أصحابَ العجلِ ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى﴾ معَهم.

وقيلَ: كان هارونُ أكبرَ من مُوسى بثلاثِ سنينَ، وكانَ أحبَّ إلى بني إسرائيلَ لحسنِ خلقِه ولينِ جانبِه، وكان في موسى حدَّةٌ.

وقيلَ: أخذَ برأسِه عِتابًا لا امتِهانًا.

* * *

(١٥١) - ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾؛ أي: ذَنبي وما صنَعْتُ إلى أخي من إظهارِ المَوجِدةِ، وهو بريءٌ ﴿وَلِأَخِى﴾ لأنَّه ظنَّه مُقصِّرًا في الإنكارِ عليهم وإنْ لم يقَعْ منه تقصيرٌ؛ أي: اغفِرْ لأخي إنْ قصَّرَ.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾؛ أي: جنَّتِكَ.

قال الحسَنُ: عبَدَ كلُّهم العجلَ غيرَ هارونَ[1]؛ إذ لو كانَ ثَمَّ مُؤمنٌ غيرُ موسى وهارونَ لَمَا اقتصَرَ على قولِه: ﴿ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾، ولَدعا لذلك المُؤمنِ أيضًا.

* * *

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٩)، والسمعاني في «تفسيره» (٢/ ٢١٦)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٩٥). وقال البغوي: وقيل: كلهم عبدوه إلا هارون مع اثني عشر ألف رجل، وهذا أصح.

(١٥٢) - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ ﴾؛ أي: اتَّخذوه معبودًا، هذا إنَّما ألقاه إليه قبلَ أن يتوبَ القومُ بقَتلِهم أنفُسَهم.

وقيلَ: هذا في غيرِ الذين تابُوا بقَتلِ أنفُسِهم، أو بقُوا تائبينَ بعد أن أمرَهم الله بالكفِّ عن القتلِ؛ فإنَّهم لـمَّا تابُوا وعفا الله عنهم بعد أن جرَى القتلُ العظيمُ، أخبرَهم أنَّ مَن ماتَ منهم قتيلًا فهو شهيدٌ، ومَن بقيَ حيًّا فهو مغفورٌ له، وكانَ ثمَّ طائفةٌ أُشرِبُوا في قلوبِهم العجلَ فلم يتُوبُوا فهم المعنيُّونَ بقولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ ﴾.

وقيلَ: أرادَ مَن ماتَ منهم قبلَ رُجوعِ موسى منَ الميقاتِ.

وقيلَ: أرادَ اليهودَ في عصرِ نبيِّنا عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم رضُوا بصنيعِ أسلافِهم، أو أرادَ: سينالُ أولادَهم ذِلَّةٌ، وهو ما جرَى على قُرَيظةَ والنَّضيرِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾؛ أي: مثلَ ما فعَلْنا بهؤلاءِ نفعلُ بالمُفتَرين.

وقيلَ: إنَّ موسى أمرَ بذبحِ العجلِ فجرَى منه دمٌ، وبرَدَه بالمِبْردِ وألقاه مع الدَّمِ في اليمِّ، وأمرَهم بالشُّربِ من ذلك الماءِ، فمَن عبدَ العجلَ ظهرَ ذلك الدَّمُ[1] على أطرافِ فمِه، فبذلك عُرِفَ عبدةُ العجلِ، وجعلَ الله توبتَهم القتلَ؛ لأنَّ مَن لـم يعبُدِ العجلَ قُتِلوا أيضًا؛ لأنَّهم لـم يُجاهِدُوا، فقتَلَ بعضُهم بعضًا، وبلغَ القتلى سبعينَ ألفًا، ثمَّ نزلَتْ توبتُهم[2].

* * *

(١) في المصدر: «الذهب».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٦٨٠) عن السدي مطولًا.

(١٥٣) ـ ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أي الشِّركَ[1]، كقولِه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [النساء: ١٨]؛ أي: الشِّركَ[2].

﴿ثُمَّ تَابُوا﴾؛ أي: رجَعُوا عنها قبلَ حُلولِ العذابِ، وقيلَ: الموتِ.

* * *

(١٥٤) ـ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾؛ أي: سكَنَ، وأصلُ السُّكوتِ: السُّكونُ والإمساكُ، ولا يُقالُ: صمَتَ عنه الغضبُ؛ لأنَّ «سكَنَ» بمعنى: سكَتَ، و«صمَتَ» بمعنى: سدَّ فاه عن الكلامِ، والغضَبُ لا يتكلَّمُ حتَّى يسكُتَ، ولكنَّه يدلُّ بفَورتِه على ما في النَّفسِ، فكان كالنّاطقِ بذلك، فإذا سكنَتْ تلك الفَورةُ كان ذلك كالسُّكوتِ.

وقال عكرمةُ: سكتَ موسى عنِ الغضبِ[3]، فهو منَ المقلوبِ، كقولك: أَدْخَلْتُ الإصبعَ الخاتمَ، والخاتمَ الإصبعَ.

و﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ النَّسخُ: نقلُ ما في كتابٍ إلى

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٨٠).

(٢) وهذا أيضاً مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، رواه عنه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٤٧٨)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٦٠٨).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٨٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ١٣) عن عكرمة. وهو في «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٧٩) بلا نسبة.

كتابٍ حرفًا بحرفٍ وإزالتُه[١]، ويُقالُ للأصلِ الذي كُتِبَت منه: نُسخةٌ، وللفرعِ أيضًا: نسخةٌ؛ أي: وفيما نُسِخَ له منها منَ اللَّوحِ المحفوظِ هُدًى.

وقد يُقالُ: انسَخْ ما يقولُ فلانٌ؛ أي: أثبِتْه في كتابِكَ، فعلى هذا يعني: وفيما كُتِبَ فيها، فلا يُحتاجُ إلى أصلٍ يُنقَلُ عنه.

وقيلَ: لـمَّا تكسَّرتِ[٢] الألواحُ صامَ موسى أربعينَ يومًا، فرُدَّتْ وأُعيدَتْ تلك الألواحُ، وفيها الذي في الأولى، ذكرَه ابنُ عبّاسٍ[٣]، فعلى هذا ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾؛ أي: وفيما نُسِخَ منَ الألواحِ المُتكسِّرةِ ونُقِلَ إلى الألواحِ الجديدةِ.

﴿هُدًى﴾؛ أي: منَ الضَّلالةِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ أي: منَ العذابِ.

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾؛ أي: للخائفينَ من ربِّهم، ولـمَّا تقدَّمَ المفعولُ حَسُنَ دخولُ اللّامِ، كقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

قال الكسائيُّ: هذا ممَّا ماتَ من العربيَّةِ، وكان يُقالُ: «لك أكرَمْتُ»، و«لك حدَّثْتُ»، ولو قُلتَ: «أكرمْتُ لك»؛ أي: «أكرَمْتُك» جازَ، وإنْ كانَ قبيحًا، كما تقولُ: «هو مُكرِمٌ لك»؛ أي: مُكرِمُكَ، و: «ضارِبٌ لك»؛ أي: ضارِبُك، فحَسُنَ في موضعٍ وقَبُحَ في موضعٍ، والأصلُ واحدٌ[٤]، والأثرُ للعُرفِ، وتقريرُه: أنَّ

---

(١) كذا في النسخين، ولعل الصواب: «أو إزالته» كما يفهم من كلام الواحدي في «البسيط» (٣/ ٢٢١) حيث قال: قال العلماء من أهل اللغة والتفسير: النسخ له معنيان:
أحدهما: تحويلُ الكتاب من حيث هو إلى نسخة أخرى، يقال: نسخ الكتاب، أي: كتب منه نسخة أخرى... والثاني: هو رفعُ الحكم وإبطالُهُ.

(٢) في (أ): «لما انكسر».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٣٩)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٨٢).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٨٣). وذكره الثعلبي مختصرًا في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٠).

المفعـولَ لمَّـا تقـدَّمَ ضعُفَ الفعـلُ فصارَ بمنزلـةِ ما لا يتعـدَّى فأُدخِـلَ اللّامُ.

وقال أبو عليٍّ: قد يُزادُ حرفُ الجرِّ في المفعولِ وإنْ كان الفعلُ مُتعدِّيًا، نحو: «قرأتُ السُّورةَ»، و«بالسُّورةِ»، و: «ألقَى يدَه»، و«ألقَى بيدِه»، و: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤][1].

وعلى هذا فاللّامُ صِلةٌ وتأكيدٌ، مثلَ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢].

وقيلَ: هي لامُ «أَجْل»؛ أي: لأجلِ ربِّهم يرهبون، لا رياءَ وسُمعةً.

وقيلَ: اللّامُ بمعنى «مِن»؛ أي: للَّذين من ربِّهم يرهَبُون.

* * *

(١٥٥) ـ ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ هذا مُتَّصلٌ بعبادةِ العجلِ، وذلك أنَّ الله كان قد وقَّتَ لمُوسى وقتًا يأتيه فيه بسبعينَ رجلًا يختارُهم ليعتَذِرُوا من عبادةِ العجلِ، وهذا غيرُ الميقاتِ المذكورِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والاختيـارُ: اِفتعـالٌ من لفـظِ الخيـرِ، يُقـالُ: «اختارَ الشَّـيءَ»؛ أي: أخـذَ خيرَه وخِيارَه.

وأصلُ اختارَ: اختَيَـرَ، فلمَّا تحرَّكتِ الياءُ وقبلَها فتحةٌ قُلِبَتْ ألفًا، نحو: «قال وباع»، والمعنى: اختارَ موسى من قومِه، فحُذِفَ «مِن» فوُصِلَ الفعلُ فنصَبَ.

---

(١) انظر: «الإيضاح العضدي» (ص: ١٧١).

وقال أبو عليٍّ: منَ الأفعالِ ما يتعدَّى إلى المفعولِ الثّاني بحرفِ جرٍّ، ثمَّ يُتَّسعُ فيه فيُحذَفُ حرفُ الجرِّ، تقولُ: «اخترْتُ الرِّجالَ زيدًا»، و«اخترْتُ منَ الرِّجالِ زيدًا»، و«أستغفِرُ الله ذنبي ومن ذَنبي»، و«أمرتُه الخيرَ وبالخيرِ»[1].

وقال الفرَّاءُ: جازَ ذلك لأنَّكَ تقولُ: «هؤلاءِ خيرُ القومِ، وخيرٌ منَ القومِ»[2].

﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ قيلَ: اختارَهم ليتُوبُوا إلى الله من صنيعِهم في عبادةِ العجلِ ويعتَذِروا عمَّن وراءَهم.

وقيلَ: إنَّهم لـم يُصدِّقُوا موسى في أنَّه سمعَ كلامَ الله فقالوا: يحضرُكَ طائفةٌ منّا حتَّى يُكلِّمَك، فيسمَعُوا كلامَه، فتذهبَ التُّهمةُ.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الرَّجفةُ: الحركةُ الشَّديدةُ؛ أي: رجَفَ بهم الجبلُ فماتوا.

قيل: أخذتهم الرَّجفةُ لقولِهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، قال الله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥].

وقيلَ: تحكَّمُوا بأشياءَ، وقالوا: لِيُعطِنا اللهُ ما لـم يُعطِ أحدًا، ولا يُعطي بعدَنا أحدًا.

وقيلَ: ادَّعَوا على مُوسى عندَ الله أنَّه قتلَ هارونَ.

وقيلَ: كانوا من عبَدةِ العجلِ، وكان مُوسى لا يعلمُ ذلك.

وقيلَ: ما عبَدُوا، ولكن لـم يُفارِقُوا العَبَدةَ، وما نَهَوا عن المُنكرِ.

---

(١) انظر: «الإيضاح العضدي» (ص: ١٧٤)، و«الحجة» (٢/ ٢١١)، كلاهما لأبي علي الفارسي، وانظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٣٨٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٩٥).

وقال وَهْبٌ: ما ماتُوا، ولكنْ أخذَتْهم منَ الهيبةِ الرَّجفةُ حتَّى كادَتْ أن تبينَ مفاصلُهم، وخافَ موسى عليهم الموتَ[١].

وفي الآثارِ: أنَّ موسى أمرَ باختيارِ سبعينَ رجلًا، فوجدَ ستِّينَ شيخًا، فقيلَ له: اخترْ منَ الشُّبَّانِ عشرةً، فاختارَهُم فأصبَحُوا شُيوخًا.

وقيلَ: اختارَ من كلِّ سبطٍ ستَّةً فبلغوا اثنَينِ وسبعينَ، فقال: ليتخلَّفْ اثنانِ، فإنَّما أُمِرْتُ بسبعينَ، فتشاحُّوا فيما بينَهم، وقال: مَن قعدَ فله مثلُ أجرِ مَن حضرَ، فقعَدَ كالوبُ بنُ يوقنا، ويوشعُ بنُ النُّونِ، فلما حضرُوا سفحَ الجبلِ أمرَهم موسى بالنُّزولِ في أسفلِ الجبلِ، وصَعِدَ هو فأخذَتْهم الرَّجفةُ لـمَّا عادَ موسى إليهم[٢].

وقيلَ: هؤلاءِ السَّبعونَ غيرُ مَن قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾، بل قالوا: نُريدُ أن نسمعَ كلامَ الله كما سمعْتَ أنتَ حتَّى تزولَ عنّا التُّهَمُ، فصَعِدَ بهم موسى، ونزَلَ الغمامُ، وأخذَتْهم منَ الهيبةِ الرِّعدةُ، فلمَّا عادَ موسى كشفَ الله عنهم، فسكنُوا وسمِعُوا كلامَ الله.

﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَ﴾؛ أي: لو شئتَ أمَتَّهم قبلَ هذا.

وقيلَ: قال: كيفَ أرجعُ إلى بني إسرائيلَ وقد أهلكتَ خِيارَهم؟ فما الذي يأمَنُوني عليه بعد هذا؟ فلو شئتَ أهلكتَهم وإيّايَ بمحضرٍ من بني إسرائيلَ حتَّى لا يتَّهِمُوني.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٧)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٣٨٩)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ١٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٤)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ١٥ ـ ١٦)، عن الكلبي.

﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ ظنَّ أنَّهم أُهلِكُوا بسببِ عبادةِ قومِ العجلَ، وإنَّما أُهلِكُوا بسببِ سؤالِ الرُّؤيةِ.

وقيلَ: علِمَ موسى أنَّ الله لا يُهلِكُ أحدًا بذنبِ غيرِه، ومقصودُ الاستفهامِ الجحدُ؛ أي: لستَ تفعلُ ذلك.

وقيلَ: هو استفهامُ استعطافٍ؛ أي: لا تُهلِكْنا.

ويجوزُ أن يُقالَ: لم يعلَمْ موسى أنَّهم عبَدُوا العجلَ، وكانُوا عبَدُوه، فقال هذا فعَرفَ أنَّهم من عبَدةِ العجلِ.

وقيلَ: أرادَ: هلاكُ هؤلاءِ هلاكٌ لي ولبني إسرائيلَ؛ أي: أتُهلِكُ بني إسرائيلَ بما فعلَ هؤلاءِ السُّفهاءُ في قولِهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾؟

وقولُه: ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ أضافَ إلى نفسِه والمُرادُ القومُ الذين ماتُوا منَ الرَّجفةِ في قولٍ، وبقيَّةُ بني إسرائيلَ في قولٍ.

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ ﴿هِيَ﴾ تعودُ إلى الفتنةِ؛ أي: عبادةُ العجلِ كانتِ امتحانًا منكَ لهم؛ كما قال: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ [طه: ٨٥]، أو أرادَ: هذه الرَّجفةُ امتحانٌ منكَ.

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ وهم الذين افتُتِنُوا ﴿وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ﴾ وهم الذين ثبَتُوا على الدِّينِ.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾؛ أي: تولَّيتَ أمرَنا ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ذُنوبَنا.

* * *

(١٥٦) - ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾؛ أي: وفِّقنا للأعمالِ الصّالحةِ التي تُكتَبُ لنا بها الحسناتُ.

وقيلَ: أوجِبْ لنا في هذه الدُّنيا حسنةً، وتُذكرُ الكتابةُ بمعنى الإيجابِ، وقد ذكَرْنا حسنةَ الدُّنيا وحسنةَ الآخرةِ في (البقرةِ).

﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: تُبْنا، والهَودُ: التَّوبةُ، وهذا عادةُ الأنبياءِ يرجِعُونَ إلى الله عندَ رُؤيةِ الآياتِ، وفي الخبرِ: «إنِّي أتوبُ إلى الله في اليومِ مئةَ مرّةٍ»[1].

وأصلُ الـهَودِ منَ اللِّينِ، يُقالُ: في فلانٍ هَوادةٌ؛ أي: لِينٌ، والتَّوبةُ انقِيادٌ ولينٌ.

وقال اللَّيثُ: التَّهويدُ في المشيِ كالدَّبيبِ، وفي المنطقِ: لِينُ الكلامِ[2].

ويجوزُ أن يكونَ هذا من موسى اعتذارًا إلى الله ممَّن عبدَ العجلَ ثمَّ تابُوا.

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾؛ أي: هذه الرَّجفةُ والصّاعقةُ عذابٌ منِّي أُصيبُ به مَن أشاءُ ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ أي: لا نهايةَ لـها ولكنَّها مشروطةٌ بالمشيئةِ.

﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾؛ أي: للمُؤمنين.

وقيلَ: رحمَتي وسِعَتْ كلَّ شيءٍ يستحقُّ الرَّحمةَ.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر بن يسار المزني، بلفظ: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة».

(٢) انظر: «العين» (٤/ ٧٦)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٢٠٥)، و«البسيط» للواحدي (٢/ ٦٠٨).

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ قيلَ: أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾؛ أي: الصَّدقاتِ.

وقيلَ: يُطهِّرونَ أنفُسَهم منَ الآفاتِ، فكانتِ الوفادةُ منَ السَّبعين، والجدوَى لأمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، ولهذا قال بعد هذه الآيةِ:

(١٥٧) ـ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ ﴿الْأُمِّيَّ﴾: مَن لا يكتُبُ ولا يقرأُ، نُسِبَ إلى الأمَّةِ؛ فإنَّ أمَّةَ العربِ لـم يعرِفُوا الكتابةَ، وكذلك مُعظَمُ الأُممِ.

وفي الخبرِ: «نحنُ أمَّةٌ أمِّيةٌ لا نكتُبُ ولا نحسُبُ»(١)، وقال الله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا﴾؛ أي: يجِدُونَه بنَعتِه في الكتابَينِ.

﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ هذا استئنافُ كلامٍ، وقيلَ: يجِدُونَه في التَّوراةِ بهذا الوصفِ، وهو أنَّه يأمرُهم بالمعروفِ؛ أي: بالتَّوحيدِ والتِزامِ الشَّرائعِ.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ أي: الشِّركِ، وفي التَّفاسيرِ: المُنكرُ ما لا يُعرَفُ في شريعةٍ ولا سنَّةٍ.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: ما حرَّمَ عليهم في التَّوراةِ والإنجيلِ من لحومِ الإبلِ وشحومِ الضَّأنِ والمعزِ والبقرِ، أو ما كانتِ العربُ تُحرِّمُه منَ البَحيرةِ والسّائبةِ.

---

(١) رواه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾؛ أي: الميتةَ والدَّمَ.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإِصرُ: العهدُ الثَّقيلُ الذي أُخِذَ على بني إسرائيلَ في العملِ بما في التَّوراةِ.

وقيلَ: شدَّةُ العبادةِ، والإِصرُ: مصدرٌ يقعُ على الكثرةِ.

وقيلَ: أي: يضَعُ عن كلِّ واحدٍ منهم إِصرَه، كما قال: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي: كلَّ واحدٍ منكم.

وقُرِئَ: ﴿ويَضَعُ عَنْهُمْ آصَارَهُم﴾[1].

﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: الشَّرائعَ الضَّيِّقَةَ كتحريمِ الصَّلاةِ في غيرِ المساجِدِ، وتحريمِ العملِ في السَّبتِ، وعتقِ المملوكِ بعد سبعِ سنين، وقطعِ أثرِ البولِ، وقتلِ النَّفسِ في التَّوبةِ، وغيرِها.

وقيلَ: كانُوا يلبَسُون المُسوحَ إذا قامُوا إلى الصَّلاةِ، ويَغُلُّونَ أيديَهم إلى أعناقِهم تواضُعًا لله تعالى.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: منَ اليهودِ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾؛ أي: وَقَّروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾؛ أي: على عدُوِّه ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: القرآنَ، وقيلَ: الهدَى والبيانَ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

* * *

---

(١) قرأ بها ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٥)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(١٥٨) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ ذكرَ أنَّ موسى بشَّرَ به، وأنَّ عيسى بشَّرَ به، ثمَّ أمرَه أن يقولَ بنفسِه: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ وأنا النَّبيُّ الأُمِّيُّ، فاتَّبِعُوني وإنْ كانَ فيه نسخُ بعضِ شرائعِكم.

﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ كلماتُ الله: كتبُه منَ التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ.

***

(١٥٩) ـ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أعلَمَ نبيَّه أنَّ من قومِ موسى مَن قد عمِلَ بأمرِ الله، وهم الذين آمَنُوا بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ.

﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يدعُونَ إلى الحقِّ ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ وفي التَّفسيرِ: أنَّ هؤلاءِ قومٌ وراءَ الصِّينِ، آمَنُوا بمحمَّدٍ، وترَكُوا السَّبتَ، يستقبِلُونَ قِبلَتَنا، لا يصِلُ إلينا منهم أحدٌ، ولا منّا إليهم أحدٌ، ذهبَ جبريلُ بالنَّبيِّ عليه السَّلامُ ليلةَ المعراجِ إليهم فآمَنُوا به[١].

---

(١) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (١/ ٥٥٧) عن ابن عباس، والثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٥٩) دون عزو. وذكر أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية بإسناد له من رواية الضحاك عن ابن عباس خبراً طويلاً في لقاء النبي ﷺ بهم وإيمانهم به، ولا يصح في ذلك شيء، والله أعلم.

وقد ذكر في هذه الآية أيضاً خبر: أن بني إسرائيل لمّا قتلوا أنبياءهم وكفروا ـ وكانوا اثني عشر سِبطاً ـ تبرَّأ =

وقيلَ: هم الذين آمَنُوا بنبِّينا من أهلِ الكتابِ كما سبقَ.

وقيلَ: هم قومٌ من بني إسرائيلَ تمسَّكُوا بشرعِ موسى قبلَ نسخِهِ، ولـم يُبدِّلُوا ولـم يقتُلوا الأنبياءَ.

= سِبْطٌ منهم مما صنَعوا واعذروا، وسألوا الله أن يفرِّق بينهم وبين إخوانهم، ففتح الله لهم نفَقاً في الأرض فساروا فيه سنةً ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، وهم هنالك حُنفاءُ مسلمون يستقبلون قبلتنا. رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٠١) عن ابن جريج، وبعضه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده منقطع. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٤)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٠٣)، عن ابن جريج والكلبي والربيع والضحاك وعطاء والسدي. وليس في الأخبار الواردة في هذه الحكاية ما يصح، قال الآلوسي في «روح المعاني» (٩/ ٤١٤): وضعَّف هذه الحكاية ابن الخازن [في «تفسيره» (٢/ ٣٠٠)] وأنا لا أراها شيئاً، ولا أظنك تجد لها سنداً يعول عليه ولو ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء. وقال أبو شهبة في «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ٢٠٧ـ٢٠٨) عن قصة الصين هذه: وهي من خرافات بني إسرائيل ولا محالة... ونحن لا نشك في أن ابن جريج وغيره ممن رووا ذلك إنما أخذوه عن أهل الكتاب الذين أسلموا، ولا يمكن أبدًا أن يكون متلقًّى عن المعصوم ﷺ...

قال: والذي يرجح عندي أن المراد بهم أناس من قوم موسى عليه الصلاة والسلام هدوا إلى الحق ودعوا الناس إليه، وبالحق يعدلون فيما يعرض لهم من الأحكام والقضايا، وأن هؤلاء الناس وجدوا في عهد موسى وبعده، بل وفي عهد نبينا ﷺ كعبد الله بن سلام وأضرابه... أما ما ذكروه فليس هناك ما يشهد له من عقل، ولا نقل صحيح، بل هو يخالف الواقع الملموس، والمشاهد المتقن، وقد أصبح الصين وما وراءها معلوماً كل شبر فيها، فأين هم؟ ثم أي فائدة تعود على الإسلام والمسلمين من التمسك بهذه الروايات التي لا خطام لها ولا زمام؟! وماذا يكون موقف الداعية إلى الإسلام في هذا العصر الذي نعيش فيه إذا انتصر لمثل هذه المرويا الخرافية الباطلة؟! إن هذه الروايات لو صح أسانيدها لكان لها بسبب مخالفتها للمعقول والمشاهد الملموس ما يجعلنا في حل من عدم قبولها، فكيف وأسانيدها ضعيفة واهية؟! وقد قلت غير مرة: إن كونها صحيحة السند فرضاً لا ينافي كونها من الإسرائيليات.

(١٦٠) ـ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ عدَّ نعمَه على بني إسرائيلَ؛ أي: جعَلْناهم أسباطًا ليكونَ أمرُ كلِّ سِبْطٍ مُتعرَّفًا من جهةِ رئيسِهم فيخِفَّ الأمرُ على موسى في تعرُّفِ أنسابِهم، والسِّبْطُ فيهم كالقبيلةِ في العربِ.

قال الفرَّاءُ: إنَّما قال: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ والسِّبْطُ ذكرٌ؛ لأنَّ بعدَه ﴿أُمَمًا﴾، فذهبَ التَّأنيثُ إلى الأممِ، ولو قال: «اثني عشرَ» لتذكيرِ السِّبطِ جازَ[1].

وقال الزَّجَّاجُ: أي: قطَّعناهُم اثنتَي عشرةَ فرقةً أسباطًا[2].

﴿أُمَمًا﴾ الأمَّةُ: القومُ المُجتَمِعون على شيءٍ واحدٍ.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: في التِّيهِ حين استسقاهُ قومُه منَ العطشِ ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ وهو حجرٌ كان يحمِلُه موسى في التِّيهِ، كلَّما ضربَه بالعصا انفجرَ له ما يكفي قومَه، وكان لكلِّ سِبطٍ عينٌ معروفةٌ.

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾؛ أي: انفجرَ منها الماءُ، والانبِجاسُ: خروجُ الماءِ بقِلَّةٍ، والانفِجارُ: خروجُه بكثرةٍ.

وقال عطاءٌ: كان يظهرُ على كلِّ موضعٍ منَ الحجرِ يضرِبُه موسى مثلَ ثَدْيِ المرأةِ، فيعرَقُ أوَّلًا ثمَّ يَسيلُ[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٩٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٨٢).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٦١)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٠٧).

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ أي: موضعَ شُربِهم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾؛ أي: في التِّيهِ من حرِّ الشَّمسِ ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ المَنُّ: خبزٌ لهم، والسَّلوى: طائرٌ يُشبِهُ السُّمَّانى.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾؛ أي: قُلنا لهم: كلُوا من طيِّباتِ ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: ما هيَّأنا للانتفاعِ به ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ أي: أنزَلْنا عليهم النِّعمَ فلم يشكُروا، وقالوا: أخرِجْ لنا ممّا تُنبِتُ الأرضُ، فعَصَوا بأنفُسِهم وما ظلَمُونا.

* * *

(١٦١) ـ ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾؛ أي: قُلنا لهم: اسكُنوا بيتَ المقدسِ ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾؛ أي: توسَّعُوا في البركاتِ التي جعَلْناها فيها، والأكلُ كنايةٌ عن وجوهِ الانتفاعِ ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾؛ أي: ادخلُوا البابَ سُجَّدًا، فإذا دخلتُم فقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾، وهي كلمةُ دعاءٍ منهم لأنفُسِهم.

* * *

(١٦٢) ـ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا﴾؛ أي: قالُوا: هطا؛ أي: حِنطةٌ، وإنَّما قالوا ذلك استِهزاءً.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾؛ أي: عذابًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قيلَ: مات في ساعةٍ واحدةٍ منهم أربعةٌ وعشرون ألفًا. وقيلَ: سبعونَ ألفًا.

(١٦٣) - ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ أُمرَ بأن يسألَ اليهودَ عن هذه القريةِ التي كانت على شاطئِ البحرِ ليعلَمُوا وُقوفَه عليه السَّلامُ على أخبارِ أسلافِهم، وكان ذلك علامةَ صدقِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ إذ أطلَعَه الله على تلك الأمورِ من غيرِ تعلُّمٍ.

وهذه القريةُ هي أيلَةُ.

وقيل: طَبريّةُ الشّامِ.

وقيلَ: قريةٌ بين أيلةَ والطُّورِ يُقالُ لـها: مَدْينُ، وكان اليهودُ يكتُمون هذه القِصّةَ لِـمَا فيها من السُّبّةِ عليهم.

﴿ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾؛ أي: كانَتْ بقُربِ البحرَ، تقولُ: «كنتُ بحضرةِ الدّارِ»؛ أي: بقُربِها.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ ﴾؛ أي: يصيدونَ الحيتانَ وقد نُهوا عنه، والعدوانُ: الظُّلمُ.

وهذا السُّؤالُ وقعَ عنِ الاعتداءِ لا عنِ القريةِ؛ لأنَّ التَّوبيخَ يقعُ بالاعتداءِ، والقريةُ كانت مكانَ الاعتداءِ.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾؛ أي: ظاهرةً على الماءِ، والشُّرَّعُ: جمعُ «شارعةٍ» و«شارعٍ»، قال شِمْرٌ: كلُّ شيءٍ دانٍ من شيءٍ فهو شارعٌ، ودارٌ شارِعةٌ؛ أي: دَنَتْ منَ الطَّريقِ، ونجومٌ شوارِعُ؛ أي: دَنَتْ منَ المغيبِ[1].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤١٠). وانظر: «تهذيب اللغة» (١/ ٢٧٣).

فكانتِ الحيتانُ تدنُو من القريةِ بحيثُ يُمكِنُهم صيدُها.

قال ابنُ عبّاسٍ: أُمِرَ اليهودُ باليومِ الذي أُمِرتُم به، يومِ الجمعةِ، فتَركوه واختارُوا السَّبتَ فابتُلوا به، وحُرِّمَ عليهم فيه الصَّيدُ، وأُمِرُوا بتعظيمِه، إنْ أطاعُوا لـم يُؤجَرُوا وإنْ عصَوا عُذِّبوا، فكانت الحيتانُ تدنُو منهم يومَ السَّبتِ، وإذا انقَضى السَّبتُ ذهبَتْ[1]. ولـهذا قال:

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ يُقالُ: سبَتَتِ اليهودُ؛ أي: قامُوا بأمرِ سبتِهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾؛ أي: مثلَ هذا الاختبارِ الشَّديدِ نختبِرُهم في كلِّ وقتٍ.

وقيلَ: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: لا تأتيهم شُرَّعًا، ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿نَبْلُوهُم﴾.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بعصيانِهم شُدِّدَتْ عليهم المِحنةُ.

* * *

(١٦٤) ـ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ قيل: افترَقُوا ثلاثَ فِرَقٍ: فرقةٌ صادَتْ وأكلَتْ، وفرقةٌ نهَتْ، وفرقةٌ أمسَكَتْ عن الصَّيدِ، وقالت للفرقةِ النّاهيةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وقد علِمتُم أنّه لا ينفعُ وَعظُهم؟ فقالتِ الفرقةُ النّاهيةُ:

﴿مَعْذِرةٌ إلى ربِّكُمْ﴾ قُـرِئَ بالرَّفـعِ؛ أي: موعظَتُنا معـذرةٌ، وقُرِئَ: ﴿مَعْذِرَةً﴾

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤١٠) بهذا اللفظ، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٩٨)، والحاكم في «المسدرك» (٣٢٥٤).

بالنَّصبِ[1]؛ أي: نعِظُهم معذرةً. والمعذِرةُ مصدرٌ كالعُذرِ، يُقالُ: عذَرَه عُذرًا ومعذِرةً وعُذْرَى، ويُقالُ: عذَرَه؛ أي: قبِلَ عُذرَه.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾؛ أي: ويجوزُ أن ينتَفِعُوا بالوعظِ.

وقيلَ: كانوا فرقتَينِ: فرقةٌ اعتدَتْ، وفرقةٌ نهتْ، فقالت المُعتديةُ: لِمَ تعِظُونَنا وعندَكم أنَّ الله يُهلِكُنا[2]؟!

قال الكلبيُّ: كانت المُعتديةُ نحوًا من سبعينَ ألفًا، أتاهم نحوٌ من اثنَي عشرَ ألفًا، فوعَظُوا وقالوا: إنَّه ينزلُ بكم العذابُ، فقالوا: إنْ علِمتُم ذلك فلِمَ تعِظُونَنا[3]؟

والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّه قال: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، فلو كانوا فرقتَينِ لقالوا: ولعلَّكم تتَّقون.

﴿مُهْلِكُهُمْ﴾؛ أي مُهلِكُهم في الدُّنيا و﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرةِ.

* * *

(١٦٥) ـ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾؛ أي: تركُوا ما وُعِظُوا به، وقيلَ: أعرَضُوا عنه إعراضَ النّاسي.

---

(١) قرأ بها حفص عن عاصم، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٦)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٤٦)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٢١)، عن الكلبي قال: هما فرقتان: الفرقة التي وَعَظ، والتي قال: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ قال: هي الموعوظة.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤١٥).

﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: الفرقةَ النّاهيةَ، فأمَّا الفرقةُ المُمسِكةُ غيرُ النّاهيةِ الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾:

قال ابنُ عبّاسٍ: أسمعُ الله يقولُ: أنجَيْنا الذين ينهَونَ عن السُّوءِ، فليتَ شِعري ما فعلَ بهؤلاءِ الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾[1]؟! فكأنَّه توقَّفَ في أمرِهم.

وقال في روايةٍ: ما نَجا من الفرقِ الثَّلاثِ إلّا الذين نَـهَوا، وهلكَتِ الفِرقتانِ[2].

وهذه الآيةُ أشدُّ آيةٍ في القرآنِ في تركِ النَّهيِ عن المُنكرِ.

وقال عِكرمةُ: دخلتُ على ابنِ عبّاسٍ وهو يقرأُ هذه الآيةَ ويبكي ويقولُ: نحنُ نرَى أشياءَ نُنكِرُها ولا نُغيِّرُها، فقلتُ: أولئك قد أنكَرُوا حينَ قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾، ولـم يقدِرُوا على تغييرِ سوَى هذا، فإنْ لـم يقُلِ الله: أنجَيتُهم، لـم يقُلْ أيضًا: أهلكتُهم، فلم أزَلْ به حتَّى عرَّفتُه أنَّهم نجَوا، فأعجَبَه ذلك من قَولي، وأمرَ لي ببُردَينِ فكسانيهِما[3].

وهذا يدُلُّ على أنَّه نجَتْ فرقتانِ، وهذا مذهبُ الحسنِ[4].

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ هـذا أيضًـا دليـلٌ علـى أنَّـه عـذَّبَ الفرقـةَ العاديَـةَ لا غيـر؛ لأنَّه وصفَهم بالفِسـقِ فـي ابتداءِ الـكلامِ إذ قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[5].

---

(١) رواه الطبري في «تفسره» (١٠/ ٥٢١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٠١).

(٣) رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٥٣)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٢٦)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٥٤)، وصححه.

(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٢١)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٤).

(٥) في (أ) زيادة: «فرئ».

قرئ: ﴿بَئِيسٍ﴾ على وزنِ «فَعيلٍ»، وقُرِئَ: (بَيْئَسٍ) على وزنِ «فَيْعِلٍ»[1]، والبَئِسُ والبَيْئَسُ: الشَّديدُ.

وقرأ نافعٌ: ﴿بعذابٍ بِيْسٍ﴾ فجعَلَ «بِيْسٍ» الذي هو فعلٌ اسمًا فوصَفَ به، كما رُوِيَ: «إنَّ الله نَهى عن قيلٍ وقالٍ»[2]، ورُوِيَ: «قيلَ وقالَ»[3]، ومثلُه: «مِن شُبَّ إلى دُبَّ»، و«مِن شُبٍّ إلى دُبٍّ»[4].

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿بِئْسٍ﴾ بكسرِ الباءِ كما قرأ نافعٌ، غيرَ أنَّه حقَّقَ همزةَ الياءِ[5].

وفي روايةٍ عن عاصمٍ: ﴿بِعَذَابٍ بَيْئَسٍ﴾[6]، وهو وَصفٌ مثلُ ضَيْغَمٍ وحَيْدَرٍ.

***

---

(١) عزاها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٢) لعاصم، وعزاها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٦٥) لطلحة بن مصرف.

(٢) رواه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (٥٩٣/ ١٢)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) هي رواية في الحديث السابق. انظر: «إكمال المعلم» (٥/ ٥٦٩)، و«شرح مسلم» للنووي (١٢/ ١١).

(٤) انظر: «الكتاب» (٣/ ٢٦٩)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٩)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص: ٢٨٠)، و«مجالس ثعلب» (ص: ٢٠)، وفيه: وقول: ما هو إلا على خُلُق واحد من شبَّ إلى دبَّ، ومن شبٍّ إلى دبٍّ. يعني: مذ كان شابًّا إلى أن دب على العصا.
ومن أمثال العرب: «أعييني من شب إِلَى دب» بالوجهين أيضاً. انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٢٢)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٥٣)، و«مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٧)، و«المستقصى» (١/ ٢٥٧). وذكر الزمخشري فيه أيضاً الضم والفتح في فاء الكلمتين.

(٥) انظر: «التيسير» (ص: ١١٤).

(٦) هي رواية أبي بكر عن عاصم بخلاف عنه، والوجه الآخر عنه: ﴿بَئِيسٍ﴾. انظر ما تقدم من قراءات «السبعة» (ص: ٢٩٦)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(١٦٦) ـ ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾؛ أي: عن تركِ ما نُهوا عنه، فحُذِفَ المُضافُ.

قيلَ: إنَّهم اعتَدَوا فصادُوا يومَ السَّبتِ.

وقيلَ: حفَروا حفائرَ يحتبِسُ فيها السَّمكُ يومَ السَّبتِ وأخَذوها[(١)] يومَ الأحدِ على التَّأويلِ، فمسَخَهم الله قِردةً وخنازيرَ، وبقُوا ثلاثةَ أيامٍ، وقيلَ: سبعةَ أيَّامٍ، وماتُوا ولـم يتَناسَلُوا.

وقال قومٌ: يجوزُ أن تكونَ هذه القِرَدةُ المُتوالدةُ من أصلِها منهم[(٢)]، والله أعلَمُ.

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾؛ أي: مُبعَدين.

* * *

(١٦٧) ـ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قـولُه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾؛ أي: أعلَمَ أسلافَهم أنَّهم إنْ غيَّروا ولـم يُؤمِنُوا بالنَّبيِّ الأمِّيِّ بعَثَ الله عليهم مَن يُعذِّبُهم إلى يومِ القيامةِ.

﴿تَأَذَّنَ﴾؛ أي: أذِنَ وأعلَمَ.

وقال أبو عليٍّ: آذَنَ بالمدِّ: أعلَمَ، وأذَّنَ بالتَّشديدِ: نادَى[(٣)].

---

(١) في (أ): «وأخذوه».

(٢) وهذا مردود بما رواه مسلم (٢٦٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله عز وجل لم يهلك قومًا، أو يعذب قومًا، فيجعل لهم نسلًا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك».

(٣) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٢/ ٤٠٤)، و«البسيط» (٩/ ٤٢٣). وهذا نقله أبو علي عن سيبويه، وما سيأتي هو من كلام أبي علي.

وقال قومٌ: آذَنَ وأذَّنَ بمعنَى أعلَمَ، فتأذَّنَ: تفعَّلَ من هذا، وليس بمنزلةِ «تشجَّعَ» بل بمنزلةِ «فعَلَ»، مثل «تكبَّرَ» فإنَّ المُتكبِّرَ بمعنى الكبيرِ في صفةِ الله، و«تفعَّلَ» قد يُرادُ به «فعَلَ» كقولِ القائلِ:

تعَلَّمْ أنَّ خيرَ النَّاسِ طُرًّا[1]

أي: اعلَمْ، فكذلك «أذَّنَ» أي: علِمَ، ويدلُّ عليه اللّامُ في قولِه: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ كما تقولُ: «علِمَ الله لأفعلَنَّ»[2].

والعلمُ قد يُستَعملُ بمعنى القَسمِ، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فكذا هاهُنا قال: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على اليهودِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: لَيبعَثَنَّ عليهم مَن يسومُهم سوء العذاب إلى يوم القيامة.

قيلَ: أرادَ بُختَنَصَّرَ.

---

(١) صدر بيت اختلف في قائله وفي عجزه، فنسب لسلمة بن عمرو بن الحارث كما في «أنساب الأشراف» (١٢/ ١١٠)، و«الأنوار ومحاسن الأشعار» للشمشاطي (ص: ٣٨)، و«معجم الشعراء» (ص: ٢٧٤). ونسب لعمرو بن معدي كرب. كما في ملحق «ديوانه» (ص: ١٩٨)، و«الصحاح» (مادة: علم). وعجزه:

قتيلٌ بين أحجارِ الكُلابِ

ونسب لقيس بن زهير في «الفاخر» (ص: ٢٢٧)، وللربيع بن زياد في «خزانة الأدب» (٨/ ٣٧٠). وعجزه:

على جفرِ الهباءة ما يريمُ

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٢/ ٤١١)، و«البسيط» (٩/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤) والكلام منه.

وقيلَ: العربَ وأمّةَ محمَّدٍ ﷺ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: إنْ أرادَ تعجيلَ عقابِه.

وقيلَ: هذا عطفٌ على قولِه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]؛ أي: وسَلْهم عن القريةِ إذ تأذَّنَ.

* * *

(١٦٨) ـ ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾؛ أي: وفرَّقْناهم في البلادِ، أرادَ به تشتُّتَ أمرِهم فلم تجتَمِعْ لهم كلمةٌ.

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ هم الذين آمَنُوا بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ، ومَن لـم يُبدِّلْ منهم وماتَ قبلَ نسخِ شرعِ موسى، أو هم الذين وراءَ الصِّينِ كما سبقَ.

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الذين كفرُوا.

﴿وَبَلَوْنَـٰهُم﴾؛ أي: عامَلْناهم مُعاملةَ المُختَبِرين ﴿بِٱلْحَسَنَـٰتِ﴾؛ أي: الخِصْبِ والعافيةِ ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: بالجدْبِ والشَّدائدِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كُفرِهم.

* * *

(١٦٩) ـ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني: أولادَ الذين فرَّقَهم في البلادِ.

قال الزَّجَّاجُ: يُقالُ للقرنِ الذي يجيءُ في إثرِ قرنٍ: خَلَفٌ وخَلْفٌ.

وقيلَ: يُقالُ: خَلَفُ صِدقٍ، وخَلْفُ سوءٍ[١].

وقيلَ: الخَلْفُ المُستعملُ في الذَّمِّ مأخوذٌ منَ الـخَلْفِ الذي هو الفسادُ، يُقالُ: خَلَفَ النَّبيذُ خَلْفًا وخُلُوفًا؛ أي: فسَدَ، ومنه: خَلُوفُ فمِ الصّائمِ.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ العَرَضُ بفتحِ الرّاءِ: جميعُ متاعِ الدُّنيا، والعَرْضُ بسكونِ الرّاءِ: ما سِوَى الدِّينارِ والدِّرهمِ؛ أي: يأخُذونَ ما أصابُوا منَ الدُّنيا حلالًا كان أو حرامًا.

﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ تذكيرُ «الدُّنيا»؛ أي: ضيَّعُوا العملَ بالتَّوراةِ فأخَذُوا الرُّشى وغيَّروا صفةَ رسولِ الله ﷺ في كتابِهم.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾؛ أي: تـمَنَّوا على الله المغفرةَ.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ يعلَمُون أنَّ الأوَّلَ مـمَّا يُحتاجُ فيه إلى المغفرةِ ثمَّ يأخُذون في المرَّةِ الثّانيةِ والثّالثةِ، والأدنَى على هذا عبارةٌ عن اليومِ الأدنَى الذي هم فيه؛ أي: يأخُذونَ اليومَ، ثمَّ يتمَنَّون المغفرةَ، ثمَّ إذا عرضَ لهم ذلك غدًا أخذوه أيضًا، بيَّنَ بذلك شدّةَ حِرصِهم على الدُّنيا.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ألـم نُبيِّنْ لهم في التَّوراةِ؟ وأضافَ الميثاقَ إلى الكتابِ لأنَّه ذُكِرَ في الكتابِ.

﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وقد قالوا الباطلَ، إذ قالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، والمغفرةُ لمن تابَ ولـم يُصِرَّ، فأمَّا مع الإصرارِ فلا، وقولُه:

﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾؛ أي: هم ذاكِرونَ لِـمَا قرؤُوه في التَّوراةِ.

وقيلَ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يُريدُ به النَّصارَى.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٣٥)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٤٢٧).

(١٧٠) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾؛ أي: بالتَّوراةِ، يُقالُ: مسَّكَ به وتمَسَّكَ به؛ أي: استَمْسَكَ به. وقُرِئَ: ﴿يُمْسِكُونَ﴾ بالتَّخفيفِ(١).

أرادَ به مُؤمني أهلِ الكتابِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: أرادَ أمَّةَ محمَّدٍ(٢)، و(الكتابُ) على هذا: القرآنُ، أو جنسُ الكتُبِ المُنزَّلةِ.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أفردَ الصَّلاةَ بالذِّكرِ تشريفًا لها.

ثمَّ؛ قيلَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ ﴾ خفضٌ عطفًا على قولِه: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ أي: والذين يُمسِّكُونَ.

وقيلَ: رفعٌ على الابتداءِ، ثمَّ فيه محذوفٌ؛ أي: نُعطيهم أجرَهم.

وقال الزَّجّاجُ: الخبرُ قولُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾، والعائدُ إلى المبتدأ محذوفٌ، وهو «منهم»(٣).

وقيلَ: أي: إنَّا لا نُضيعُ أجرَهم.

* * *

(١) قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٧)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٨١) عن عطاء، وذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٣٥) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٨٨)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٤٣٥).

(١٧١) ـ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾؛ أي: سَلْهم عن القريةِ، وسَلْهم عن هذا أيضًا، ثمَّ بيَّنَ تمرُّدَهم القديمَ.

﴿نَتَقْنَا﴾؛ أي: رفَعْنا؛ قيلَ: قلعَ جبلَ طورٍ من أصلِه، ورفعَه على بني إسرائيلَ، والنَّتقُ: الجذبُ إلى فوقُ.

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾؛ أي: كأنَّه لارتفاعِه ظُلّةٌ من ظُلَلِ الغمامِ، أو شيءٌ يُظِلُّهم، وكأنَّه قيلَ لهم: إنْ آمنتُم بالتَّوراةِ وإلّا نزلَ بكم الجبلُ.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾؛ أي: أيقنُوا، وقيلَ: قوِيَ في نُفوسِهم أنَّه يقعُ عليهم.

* * *

(١٧٢) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: واذكُرْ لهم مع ما سبقَ من تذكيرِ المواثيقِ في كتابِهم ما أخذتُ منَ الميثاقِ على العبادِ يومَ الذَّرِّ.

﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ هو بدلٌ من قولِه: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾؛ أي: إذ أخذَ ربُّكَ من ظُهورِ بني آدمَ؛ لأنَّه أخرجَ ذرِّيَةَ آدمَ بعضَهم من ظُهورِ بعضٍ، ولم يذكُرْ ظهرَ آدمَ؛ إذ منَ المعلومِ أنَّ كلَّهم بنوه؛ لأنَّه أخرَجَهم من ظهرِه.

قُرِئَ: ﴿ذريتَهم﴾ والذُّرِّيةُ تقعُ على الواحدِ والجمعِ، وقُرِئ: ﴿ذرياتهم﴾[1]، وجمعُ التَّكسيرِ قد يُجمَعُ.

---

(١) قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٧ ـ ٢٩٨)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

ثمَّ؛ جميعُ المُفسِّرين يُجرونَ الآيةَ على الظّاهرِ، قال عمرُ: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن هذه الآيةِ فقال: «إنَّ الله خلقَ آدمَ، ثمَّ مسحَ ظهرَه فاستخرَجَ منه ذرِّيةً، فقال: خلقتُ هؤلاءِ للجنّةِ، وبعملِ أهلِ الجنّةِ يعملون، ثمَّ مسحَ ظهرَه فاستخرَجَ منه ذرِّيةً، فقال: خلقْتُ هؤلاءِ للنّارِ، وبعملِ أهلِ النّارِ يعملون»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، ففيمَ العملُ؟ فقال عليه السَّلامُ: «إنَّ الله إذا خلَقَ العبدَ للجنّةِ استعمَلَه بعملِ أهلِ الجنّةِ حتَّى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ الجنّةِ فيُدخِلُه الجنّةَ، وإذا خلقَ العبدَ للنّارِ استعمَلَه بعملِ أهلِ النّارِ حتَّى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ النَّارِ فيُدخِلُه النّارَ»(١).

وفي الخبرِ: «مسَحَ ظهرَ آدمَ فسقَطَ من ظهرِه كلُّ نسمةٍ هو خالقُها من ذُرِّيتِه إلى يومِ القيامةِ»(٢).

قال ابنُ عبّاسٍ: أخرَجَهم من صُلبِه مثلَ الذَّرِّ، فقال: مَن ربُّكم؟ قالوا: الله ربُّنا، فأعادَهُم إلى صُلبِه(٣).

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٨ ـ ٨٩٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥) وحسنه، وصححه ابن حبان (٦١٦٦). لكن أعله ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٣) بجهالة الراوي عن عمر، ثم قال: لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها، من حديث عمر وغيره.

وقال أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٧/ ٥٧): وذَكر هذه القصةَ على البسطِ والاختصار والإقلالِ والإكثار: ابن عباس وابن مسعود وأبيٌّ بن كعبٍ والكلبيُّ والحسن وعطاءٌ وأبو العاليةِ وسعيد بن جبير وابن جريجٍ ومَعْمَرٌ وعبد العزيز بن يحيى والسدِّي وعوفٌ ومقاتلٌ ومجاهدٌ وأبو مسلمٍ الخَوْلانيُّ وعطاء بن يسارٍ وعكرمةُ وأبو قِلابةَ وداودُ بن أبي هندٍ رضي الله عنهم.

(٢) رواه الترمذي (٣٠٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٤)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٩٩٢).

وقال القُرَظيُّ: أقرَّ له بالإيمانِ الأرواحُ قبلَ خلقِ الأجسادِ(١).

وقال ابنُ جُرَيجٍ: خرَجَتْ كلُّ نفسٍ مخلوقةٍ للجنّةِ بيضاءَ نقيّةً، وكلُّ نفسٍ مخلوقةٍ للنّارِ سوداءَ أمثالَ الخردَلِ في صورةِ الذَّرِّ(٢).

قال الزَّجّاجُ: في قُدرةِ الله أن يخلُقَ للذَّرَّةِ فهمًا كما قال: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨]، وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وخاطَبَ الجبلَ فقال: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠](٣)، ثمَّ أهلُ السَّعادةِ قالوا: «بلى» طَوعًا، وأهلُ الشَّقاوةِ كَرْهًا.

وقال قومٌ: مَن ماتَ صغيرًا دخلَ الجنّةَ لإقرارِه في الميثاقِ الأوّلِ، ومَن بلغَ العقلَ لم يُغنِه الميثاقُ الأوّلُ، وهذا القائلُ يقولُ: أطفالُ المُشركين في الجنّةِ.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ قال الكلبيُّ: لمّا قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾، قال الله للملائكةِ: اِشهَدُوا، فقالوا: ﴿شَهِدْنَآ﴾(٤).

وقيلَ: أخبرَ الله عن نفسِه وملائكتِه بأنّهم شهِدُوا على إقرارِ بني آدمَ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٩٢٨)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٦٢)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٨/ ٨٠)، قال ابن منده في «الرد على الجهمية» (ص: ٣٢): «لا يثبت».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٤٦)، وروى نحوه الفريابي في «القدر» (٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٥٦)، والآجري في «الشريعة» (٤٤٢)، من طريق ابن جريج بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٩٠)، و«البسيط» للواحدي (٩/ ٤٤٧).

(٤) رواه الداني في «المكتفى في الوقف والابتدا» (ص: ٨٠)، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٦٧).

﴿أَن تَقُولُواْ﴾؛ أي: لئلّا تقولوا، أو: كراهيةَ[1] أن تقولوا، ويجوزُ أن يتعلَّقَ ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ بقولِه: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

وقيلَ: ﴿شَهِدْنَآ﴾ من كلامِ الذُّرِّيةِ، فقولُه: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ يتعلَّقُ بقولِه: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾.

قُرِئَ ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ بالياءِ والتّاءِ[2].

والاحتِجاجُ بميثاقٍ نسُوه صحيحٌ؛ لأنَّ الله أخبرَ بذلك على لسانِ الأنبياءِ، فقامَ مقامَ ما يذكرُه.

وقال قومٌ: هذا إشارةٌ إلى ما ركَّبَ الله في العقولِ منَ الدَّلالةِ على وُجودِه ووحدانيَّتِه؛ أي: اذكُرْ إذ أخرَجَ ربُّك بني آدمَ من أصلابِ الآباءِ إلى أرحامِ الأمَّهاتِ إلى أن بلَغُوا الحالةَ التي يصلُحونَ فيها للتَّكليفِ، فأشهَدَهم بما شاهَدُوه[3] من آثارِ الصَّنعةِ على أنَّه خالقُهم، وقال لهم مُقرِّرًا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟

وقد أطنَبَ القفَّالُ في تقريرِ هذه الطَّريقةِ[4].

فـ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: أشهَدَ بعضَهم على بعضٍ، وأشهَدَ كلَّ واحدٍ على نفسِه.

* * *

---

(١) في (أ): «كراهة».

(٢) قرأ أبو عمرو بالياء، وباقي السبعة بالتاء، وكذا في قوله: ﴿أو تقولوا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٨)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٣) في (أ): «شهدوه».

(٤) ذكر كلامه بتمامه أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٧/ ٥٦).

(١٧٣) ـ ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾؛ أي: ولئلّا تقولوا، أو: كراهةَ أن تقُولوا: إنَّما أشرَكَ آباؤُنا من قبلِ أن نُخلَقَ، وكنَّا ذُرِّيةً من بعدِهم اقتَدَينا بهم.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾؛ أي: لا عُذرَ في التَّقليدِ في التَّوحيدِ.

***

(١٧٤) ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾؛ أي: كما بيَّنَّا الميثاقَ نُبيِّنُ الآياتِ ليتدبَّرَها العبادُ وليرجِعُوا عن الكُفرِ.

***

(١٧٥) ـ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ ذكَّرَ أهلَ الكتابِ قصَّةً عرَفُوها في التَّوراةِ، وهذه السُّورةُ كلُّها في محاجَّةِ الكفَّارِ، والأمرِ بحفظِ الميثاقِ عن نَقضِه.

قال ابنُ عبّاسٍ وابنُ مسعودٍ: نزلَتِ الآيةُ في بلعامَ بنِ باعوراءَ، لـمَّا قصدَ موسى الجبابرةَ بأرضِ الشّامِ، مضى أهلُ تلك الأرضِ إلى بلعامَ وسألوه أن يدعُوَ على موسى وقومِه، وكان عندَه اسمُ الله الأعظَمُ، فقال: إنْ فعلتُ ذلك ذهَبَ دُنيايَ وآخِرَتي، فلم يزالُوا به حتَّى دعا عليهم[1].

---

(١) رواه مختصراً الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٦ ـ ١٦١٧)، =

وقال ابنُ عبّاسٍ في روايةٍ: نزلَتْ في رجلٍ كان له ثلاثُ دعواتٍ يُستَجابُ له فيها، وكانت له امرأةٌ يُقَالُ لها: البسوسُ، وكان له منها ولدٌ، فقالت: اجعَلْ لي منها دعوةً واحدةً، قال: لكِ واحدةٌ، فما تأمُرين؟ قالت: ادعُ الله أن يجعلَني أجملَ امرأةٍ في بني إسرائيلَ، فلمّا علِمَتْ أنَّه ليس فيهم مثلُها رغِبَتْ عنه، فدعا اللهَ عليها أن يجعلَها كلبةً نبّاحةً، فذهَبَ فيها دعوتانِ، فجاءَ بنُوها وقالوا: لا صبرَ لنا على هذا، وقد صارَتْ أمُّنا كلبةً يُعيِّرُنا الله بها، فادعُ الله أن يرُدَّها إلى مثلِ ما كانَتْ عليه، فدَعا فعادَتْ كما كانت، وذهبَتِ الدَّعواتُ فيها، فضُرِبَ بها المثَلُ، وقيلَ: أشأَمُ منَ البسوسِ[1].

وقال عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ العاصِ وزيدُ بنُ أسلَمَ: نزلَتْ في أُميّةَ بنِ أبي الصَّلتِ الثَّقفيِّ[2]، وكان قد قرأ الكتُبَ، وعلِمَ أنَّ الله مُرسِلٌ رسولًا في ذلك الوقتِ، وتمنَّى أن يكونَ هو ذلك الرَّسولَ، فلمَّا أُرسِلَ محمَّدٌ عليه السَّلامُ حسَدَه وكفَرَ به، وهو

= عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه مقتصرًا على ذكر اسم بلعام دون القصة. وانظر: «البسيط» للواحدي (٩/ ٤٦٠).

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٨)، والمعافى بن زكريا في «الجليس الصالح» (ص: ٢٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. والراوي عن عكرمة أبو سعد الأعور ـ واسمه سعيد بن المرزبان ـ وهو ضعيف.

وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢٧)، والكرماني في «غرائب الفسير» (١/ ٤٢٧) وعده من العجائب. وقال المعافى بن زكريا: المشهور عند أهل السير والأخبار أن البسوس التي يقال من أجلها: «أشأم من البسوس» الناقة التي جرى فيما جرى من أمرها حرب داحس والغبراء، والمعروف من قول جمهور أهل التأويل أن قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ عنى به بلعم بن باعوراء الذي دعا للجبارين على موسى وبني إسرائيل.

(٢) رواه إلى هنا دون ذكر القصة: عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٧١).

الذي قال رسولُ الله ﷺ فيه: «آمَنَ شِعرُه، وكفَرَ قلبُه»، وذكرَتْ فارعةُ أختُه للنَّبيِّ عليه السَّلامُ أحوالَه إلى وقتِ وفاتِه، فقال عليه السَّلامُ: «مثَلُه كالذي آتاهُ الله آياتِه فانسَلَخَ منها، فأتبَعَه الشَّيطانُ فكانَ منَ الغاوين»[1].

وقال عَمرُو بنُ الشَّريدِ عن أبيه: أنشدتُ رسولَ الله مئةَ قافيةٍ من شعرِ أميّةَ، فكان يقولُ لي عند كلِّ قافيةٍ: «هيه»، ثمَّ قال: «إنْ كادَ ليُسلِمُ»[2].

وقيلَ: قصَدَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ ليُسلِمَ، فرأى قتلَى بدرٍ، فانصرَفَ وقال: لو كان نبيًّا لَما قتَلَ أقارِبَه[3].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٩٤) مطولاً، وذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٨١٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢٧) مختصرًا، وذكره الكرماني في «غرائب الفسير» (١/ ٤٢٧) واستغربه.

وقول النبي ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه»: رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٩٧٣) عن هشام بن الكلبي عن أبيه مرسلًا، وابن عبد البر في «التمهيد» (٤/ ٧) عن عكرمة.

(٢) رواه مسلم (٢٢٥٥)، وفي رواية عنده: «فلقد كاد يسلم في شعره».

وروى البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

(٣) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٩٤)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٠٣)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ٧٤)، وليس في هذه المصادر الثلاثة أنه جاء ليسلم. وهو قطعة من خبر رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ٢٨٢) من طريق إسحاق بن بِشرٍ عن محمدِ بنِ إسحاقَ عن الزهريِّ عن سعيدِ بن المُسَيِّبِ، وعثمانَ بنِ عبدِ الرحمن عن الزُّهريِّ، عن سعيد بن المسيِّب، قال: قدمَ الفارِعةُ أخ أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلْت على رسولِ الله ﷺ بعدَ فتحِ مكَّةَ..، فذكره. وإسحاق بن بشر متروك والخبر مرسل. ورواه من طريق آخر عن ابن إسحاق ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٨٩٠) ولم يسقه بتمامه، وفي سنده إلى ابن إسحاق ضعف كما في «الإصابة» (٨/ ٥١).

ورواه صاحب «الأغاني» (٤/ ١٣٤) من طريق آخر عن الزهري، ولم يذكر ابن المسيب.

وقيلَ: نزلَتْ في راهبِ بنِ صيفيٍّ، وكان يلبَسُ المسوحَ في الجاهليّةِ، فكفرَ بالنَّبيِّ عليه السَّلامُ، فقصَدَ الشّامَ ومرَّ إلى قيصرَ، وكتبَ إلى المُنافقين: استَعِدُّوا فإنِّي آتيكم من عندِ قيصرَ بجُندٍ لنُخرِجَ محمَّدًا منَ المدينةِ، فماتَ بالشّامِ وحيدًا، وفيه نزَلَ: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٧][(١)]؛ أي: انتظارًا لمجيئه.

﴿ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾؛ أي: الآياتِ الدّالَّةَ على صدقِ موسى إنْ حُـمِلَتِ الآيةُ على بلعامَ، أو الدّالَّةَ على صدقِ محمَّدٍ ﷺ إنْ حُـمِلَتِ الآيةُ على غيرِه.

وقال عكرمةُ: كان بلعامُ نبيًّا، وأُوتيَ كتابًا، فقيلَ: لمَّا أرادَ أن يدعُوَ على قومِ موسى رأى في المنامِ: لا تَدْعُ عليهم، ثمَّ همَّ ثانيًا فكلَّمَتْه أتانٌ له قد ركِبَها، وقالت: ويـحكَ يا بلعامُ، أتدعُو على نبيِّ الله والمؤمنين؟ فلم ينزِعْ عن ذلك[(٢)].

وقيلَ: حمَلُوا زوجتَه على أنْ حمَلَتْه على تلك الدَّعوةِ[(٣)].

وقيلَ: الآياتُ اسمُ الله الأعظمُ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٩٧) وسماه أبا عامر الراهب، وهو أبو عامر بن صيفي بن النعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة، ويقال: بن صيفي بن زيد بن أمية بن ضبيعة، واسمه: عمرو، ويقال: عبد عمرو. انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (١/ ٣٨٠)
وروى ابن شبة في «تاريخ المدينة» (١/ ٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٧) عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هو بلعم بن باعورة رجل من بني إسرائيل، قال: وتقول ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت، وتقول الأنصار: هو الراهب الذي بني له مسجد الشقاق».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٦١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٩٣) عن مقاتل، وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٤ ـ ٧٥). وفي كونه نبيًّا نظر.

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٦٧)، والجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٨١٤)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ٧٣).

ولمَّا دعا حبسَ الله بني إسرائيلَ فـي التِّيهِ، فقال موسى: يا ربِّ، بأيِّ ذنبٍ بقينا في التِّيهِ؟ فقال: بدُعاءِ بلعامَ، قال: فكما سمعتَ دعاءَه عليَّ فاسمَعْ دُعائي عليه، فدَعا موسى أن ينزِعَ الله عنه الاسمَ الأعظمَ والإيمانَ، فسلَخَه الله ممّا كان عليه(١).

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾؛ أي: من معرفةِ الله تعالى إلى الكفرِ، يُقالُ: انسلَخَتِ الحيَّةُ عن جلدِها.

وقيلَ: هذا منَ المقلوبِ؛ أي: انسلَخَتِ الآياتُ منه.

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يُقالُ: أتبَعْتُ القومَ؛ أي: لحِقتُهم ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾؛ أي: منَ الضّالِّين.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٥٩٣) عن مقاتل، ورده أبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ٦٥)، وقال: وهذا كلامٌ مختلٌّ، واحتباسهم في التِّيه كان بقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] لا بدعاء بلعم، وكيف يُستجاب دعاءُ بلعم وقد انسلخ من الآيات، ولأنه قد دعا على موسى وقومه بالباطل، وكيف دعا موسى على بلعم بزوال الإيمان وكان مبعوثًا إلى الناس ليدعوَهم إلى الإيمان.

وقال الخازن في «تفسيره» (٢/ ٣١١ ـ ٣١٣): هذا من الإسرائيليات، ولا يلتفت إلى ما يسطره أهل الأخبار إذا خالف الأصول، وسبب وقوع بني إسرائيل في التيه عبادة العجل أو قولهم لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨] لا دعاء بلعم عليهم.

قلتُ: وقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٦) عن ابن عباس بسند جيد بسياقٍ لا إشكال فيه، ولفظه: هو رجل من مدينةِ الجَبَّارِين يقال له: بَلْعَمُ، وكان يَعْلَمُ اسمَ الله الأكبر، فلمَّا نَزَل بهم موسى أتاه بنو عمِّه وقومُه، فقالوا: إن موسى رجلٌ حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إنْ يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يردَّ عنَّا موسى ومن معه. قال: إني إنْ دعوت الله أن يردَّ موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي! فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله مما كان عليه، فذلك قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

وقيلَ: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: صيَّرَه تابعًا لنفسِه.

وقيلَ: نزلَتْ في اليهودِ والنَّصارى، انتَظَروا خروجَ محمَّدٍ ثمَّ كفَروا به[1].

***

(١٧٦) ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾؛ أي: لرَفَعْناه بعملِه بالآياتِ، أو: لو شئنا لعَصَمْناه عن المعصيةِ.

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ركَنَ إليها، والإخلادُ: اللُّزومُ، يعني: مالَ إلى الدُّنيا، فعبَّرَ عنها بالأرضِ لأنَّ متاعَ الدُّنيا على وجهِ الأرضِ.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ أي: ما زيَّنَ له الشَّيطانُ.

وقيلَ: كانَ هواه مع القومِ الكفّارِ.

وقيلَ: اتَّبعَ رِضا زوجتِه، وكانت رغِبَتْ في أموالٍ لو حملَتْه على الدُّعاءِ على موسى.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ يُقالُ: لهَثَ الكلبُ؛ أي: أدلَعَ لسانَه منَ الإعياءِ أو شدّةِ الحرِّ؛ أي: إنْ تحمِلْ عليه الحكمةَ لم يحمِلْها، وإنْ تترُكْه لم يهتَدِ لخيرٍ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦١٨) عن عكرمة بلفظ: هم من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاه الله الحق فتركه.

وقال الحسنُ: هو المُنافقُ، لا يرجعُ إلى الحقِّ دُعِيَ أو لـم يُدعَ، كالكلبِ يلهَثُ طُرِدَ أو تُرِكَ[١].

والمُرادُ: إنْ تحمِلْ عليه بالطَّردِ على هذا القولِ، وتحقيقُ التَّمثيلِ: أنَّ بلعامَ زُجِرَ عمّا همَّ به إمَّا في المنامِ، أو بكلامِ الأتانِ، أو بقَولِ ملَكٍ، فلم ينزَجِرْ.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ أي: هو مثَلُ جميعِ الكفّارِ.

***

(١٧٧) ـ ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يُقالُ: ساءَ الشَّيءُ؛ أي: قبُحَ، فهو لازمٌ، وساءَهُ يسوؤُه مَساءةً، فهو مُتعدٍّ؛ أي: قَبُحَ مثَلُهم، وتقديرُه: ساءَ مثلًا مثَلُ القومِ، فحُذِفَ المُضافُ، ونُصِبَ ﴿مَثَلًا﴾ على التَّمييزِ.

***

(١٧٨) ـ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾؛ أي: مَن يُرشِدْه يَرْشُدْ، والآيةُ ردٌّ على مَن قال: إنَّ الله هدَى جميعَ المُكلَّفين، ولا يجوزُ أن يُضِلَّ أحدًا.

***

(١٧٩) ـ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ بيَّنَ أنَّه خلقَ أهلَ النّارِ للنّارِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٦٠٢)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٨٧) بلفظ: «هو المنافق».

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ أي: لا يعقِلون ثوابًا، ولا يخافون عقابًا.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾؛ أي: سبيلَ الرُّشدِ.

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ المواعظَ؛ أي: أعرَضُوا عن آياتِ الله إعراضَ مَن لا يُدرِكُ شيئًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ أي: همُّهم الأكلُ والشُّربُ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنَّ الأنعامَ تحذَرُ المهالكَ، وهم لا يحذَرون.

وقال عطاءٌ: الأنعامُ تعرِفُ الله، والكافرُ لا يعرفُ[1].

وقيلَ: الأنعامُ مُطيعةٌ لله، والكافرُ غيرُ مُطيعٍ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾؛ أي: تركُوا التَّدبُّرَ وغفَلوا عن الجنَّةِ والنارِ.

* * *

(١٨٠) ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أمرَ بإخلاصِ العبادةِ لله، ومُجانبةِ المُشركينَ المُلحدينَ الذين يُسمُّونَ الأصنامَ باللّاتِ والعُزَّى مَصيرًا إلى أنَّها من اسمِ الله العزيزِ.

قيلَ: نزلتِ الآيةُ في رجلٍ منَ المسلمينَ كان يقولُ: يا رحمنُ يا رحيمُ، فقال المُشرِكونَ: إنَّه يدعو إلـهينِ اثنَينِ[2].

---

(١) ذكر نحوه الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٧٧).

(٢) لم أجده هكذا، وروى الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٣) في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ ساجداً يدعو: «يا رحمن يا رحيم» فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى =

وفي الخبرِ: «إنَّ لله تسعةً وتسعينَ اسمًا»[١]، فالآيةُ إشارةٌ إلى تلك الأسماءِ.

﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾؛ أي: عظِّموه بذِكرِها ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ هذا أمرُ تهديدٍ، كقولِه: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ [الحجر: ٣]، والإلحادُ: المَيلُ، فالمُلحِدُ: المائلُ عن الحقِّ، ومنه: اللَّحدُ الذي يُحفَرُ في جانبِ القبرِ.

قُرِئَ: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ بضمِّ الياءِ، وقرأ حمزةُ: ﴿يَلحَدُون﴾ بفتحِ الياءِ والحاءِ[٢].

﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: سيرَونَ جزاءَ أعمالِـهم.

***

(١٨١) - ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ في الخبرِ: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ قال: «هم هذه الأمَّةُ»[٣].

ورُوِيَ أنَّه قال: «هذه لكم، وقد أعطَى الله قومَ موسى مثلَها»، وقرأ عليه السَّلامُ هذه الآيَةَ[٤].

= مثنى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ الآية.

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة».

(٢) وقرأ بها الكسائي أيضاً، والباقون: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٥)، و«التيسير» (ص: ١٣٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٠) عن ابن جريج قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «هذه أمتي» قال: «بالحق يأخذون ويعطون ويَقضُون». وروى عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٣) عن معمر عن قتادة قال: «هذه الأمة يَهدون بالحقِّ وبه يَعدلون».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٠) من طريق سعيد عن قتادة يبلغ به النبي ﷺ.

وقال: «إنَّ من أمَّتي قومًا على الحقِّ حتَّى ينزلَ عيسى ابنُ مريمَ»[(١)].

ومعنى الآيةِ: لا يهولَنَّكم كثرةُ المُشرِكين، فلكم أيضًا أعوانٌ وأنصارٌ، وفي المؤمنينَ كثرةٌ.

* * *

(١٨٢) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: هم أهلُ مكّةَ كذَّبُوا بالقرآنِ[(٢)].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ هو الأخذُ بالتَّدريجِ منزلةً بعد منزلةٍ، والدَّرْجُ: لفُّ الشَّيءِ، يُقالُ: أَدْرَجْتُه ودَرَّجْتُه، ومنه: أُدرِجَ الميِّتُ في أكفانِه.

وقيلَ: هو منَ الدَّرَجةِ، فالاستِدراجُ: أن يُحَطَّ درجةً بعد درجةٍ إلى المقصودِ، وفي التَّفاسيرِ: يُزيِّنُ لـهم قبيحَ أعمالِـهم.

وقال الضَّحّاكُ: كلَّما جدَّدُوا لنا معصيةً جدَّدْنا لهم نعمةً[(٣)].

* * *

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٣) عن الربيع بن أنس عن النبي ﷺ مرسلًا، وله شاهد صحيح رواه مسلم (١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنهما، وفيه: «لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرِين إلى يومِ القيامة»، قال: «فينزلُ عيسى ابنُ مريمَ ﷺ... » الحديث.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٨٤) عن الكلبي، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٧٣) من طريق أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٦١٢)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٨٦)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ٨٦).

(١٨٣) - ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾؛ أي: أُمهِلُهم، ومنه: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾؛ أي: طويلًا.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾؛ أي: مكري شديدٌ، والمتينُ: القويُّ، من: مَتُنَ مَتانةً.

وقيلَ: نزلَتْ في المُستَهزِئينَ من قُريشٍ، قتلَهم الله في ليلةٍ واحدةٍ بعد أن أمهلَهم مُدّةً(١).

* * *

(١٨٤) - ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

قولُه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ عجَّبَ العبادَ من طولِ عنادِ الكَفرةِ، وقولِهم للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: إنَّه مجنونٌ، وقد عرَفوا أنَّه ليس به جنونٌ.

والتَّفكُّرُ: طلَبُ المعنى بالقلبِ؛ أي: أولَم يتفكَّروا ليعلَمُوا ما بصاحبِهم من جنَّةٍ، فحُذِفَ «ليعلَمُوا» لدلالةِ الحالِ، والجِنَّةُ: الحالةُ مِنَ الجنونِ، كالجِلسةِ والرِّكبةِ.

وقيل: سببُ نزولِ الآيةِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ ليلةً على الصَّفا يدعو قُريشًا فخِذًا فخِذًا، فيقولُ: «يا بني فُلانٍ، يا بني فُلانٍ»، يُحذِّرُهم بأسَ الله وعقابَه، فقال قائلُهم: إنَّ صاحبَكم هذا لَمجنونٌ، بات يُصوِّتُ حتَّى الصَّباحِ(٢).

* * *

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٦١٣) بلا نسبة، وذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ٨٦) عن عطاء.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٤)، عن قتادة.

(١٨٥) ـ ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ ﴾ عجَّبَ من إعراضِهم عن النَّظرِ في آياتِه ليعرِفُوا كمالَ قُدرتِه ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾؛ أي: وفيما خلَقَ الله من شيءٍ ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ ﴾؛ أي: وفي أنَّ آجالَهم لعلَّها قرُبَتْ، وإن لم يُؤمِنُوا ماتُوا على الكفرِ.

﴿وَأَنْ ﴾ في ﴿وَأَنْ عَسَىٰ ﴾ بمعنى «أنه»، فهو مُخفَّفٌ منَ الثَّقيلِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ باقترابِ الأجلِ يومَ بدرٍ ويومَ أُحدٍ[١].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾؛ أي: بأيِّ قرآنٍ غيرِ ما جاء به محمَّدٌ يُصدِّقونَ؟ أي: لا رسولَ بعدَه، والوحيُ ينقطعُ بعد القرآنِ.

* * *

(١٨٦) ـ ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ بيَّنَ له أنَّ إعراضَهم لأنَّ الله أضلَّهم.

﴿وَيَذَرُهُمْ ﴾ رفعٌ على الاستئنافِ، وقُرِئَ بالجزمِ لجوابِ الشَّرطِ[٢].

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤٩٢) بلفظ: «يريد: قتلهم يوم بدر، ويوم أحد»، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ٨٩) عن عطاء.

(٢) قرأ عاصم وأبو عمرو: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياءِ ورفع الرَّاء، وحمزة والكسائي بالياءِ وجزم الرَّاء، وباقي السبعة بالنُّون ورفع الرَّاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(١٨٧) - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ كانتِ اليهودُ تقولُ: إنْ كنتَ نبيًّا فأخبِرْنا عن السّاعةِ متى تقومُ؟ فإنَّا نحنُ نعلمُ أنَّها متى تقومُ[١]، وكان المُشركون يقولون: متى الساعةُ؟ لفَرطِ الإنكارِ[٢].

وكان من قولِ اليهودِ: أنَّ مدّةَ الدُّنيا سبعةُ آلافِ سنةٍ[٣].

قال أبو موسى: سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عن السّاعةِ، فقال: «لا يعلَمُها إلّا الله، لا يُجلِّيها لوقتِها إلّا هو، ولكنّي سأُحدِّثُكم بمشارطِها وما بينَ أيديها، إنَّ بين أيديها هَرْجًا»، فقيلَ: وما الهَرْجُ؟ قال: «هو بلسانِ الحبشةِ القتلُ، وأن تخِفَّ قلوبُ النّاسِ، وأن يُلقَى بينَهم التّناكرُ، فلا يكادُ أحدٌ يعرفُ أحدًا، ويُرفَعُ ذَوو الحِجا، ويبقَى رَجاجةٌ منَ النّاسِ لا يعرفُ معروفًا ولا يُنكِرُ مُنكَرًا»[٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٤) عن ابن عباس، قال: قال حمل بن أبي قشير وسموأل بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًّا كما تقول، فإنا نعلم متى هي، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٤) عن قتادة، قال: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسرَّ إلينا متى الساعة، فقال الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٧٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١١٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤١٧١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٧٢٢٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢٨)، وإسناده ضعيف، لكن له شاهد من حديث حذيفة رضي الله عنه رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٣٠٦) ورجاله ثقات لكنْ فيه انقطاع.

=

والرَّجاجُ ـ بفتحِ الرّاءِ ـ: الضُّعفاءُ منَ النّاسِ والإبلِ.

﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: السّاعةِ التي ليس بعدَها ساعةٌ. قالَه ابنُ عبّاسٍ[1].

وقيلَ: السّاعةُ التي قرُبَ منها الخلقُ، أو يُحشَرُ فيها الخلقُ.

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ﴿أَيَّانَ﴾ استفهامٌ عن الوقتِ، والمُرسَى مُفعَلٌ منَ الإرساءِ، وهو الإثباتُ، ورَسا الشَّيءُ يرسو؛ أي: ثبَتَ، وأرساه غيرُه، أي: متى يقعُ إثباتُها؟

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ لـم يُنبِّئها لأحدٍ، حتّى يكونَ العبدُ أبدًا على حذرٍ.

﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾؛ أي: لا يُظهِرُها في وقتِها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ والتَّجليةُ: إظهارُ الشَّيءِ.

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: خَفِيَ علمُها على مَن في السَّماءِ والأرضِ، وكلُّ ما خَفِيَ علمُه فهو ثقيلٌ على الفؤادِ.

وقيلَ: ثقُلَ مجيئُها على السَّماواتِ والأرضِ؛ لأنَّ السَّماءَ تنشَقُّ والنُّجومَ تتناثَرُ، والبحارَ تَنْضبُ.

وقيلَ: يستعظِمُ قيامَها أهلُ السَّماءِ والأرضِ، وأنتم تستعجِلُونَها لفرطِ غفلتِكم.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأةً.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾؛ أي: كأنَّك عالـمٌ بها قد استقصيتَ في تعرُّفِ وقتِها.

والإحفاءُ: الاستِقصاءُ، ومنه إحفاءُ الشّاربِ، ومنه الحافي؛ أي: حفِيَ قدمُه للاستقصاءِ في السَّيرِ.

= وفي باب الهرج الذين بين يدي الساعة روى البخاري (١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧)، عن أبي هريرةَ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حى يُقْبَضَ العلمُ، وَتكثُرَ الزلازلُ، ويَتقاربَ الزمانُ، وتظهرَ الفن، وَيَكثُرَ الهَرْجُ ـ وهو القتلُ القتلُ ـ حى يَكثُرَ فيكم المالُ فيَفيضَ».

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٦) بلفظ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ يعني: منتهاها.

وقيلَ: يسألونَك عنها كأنَّك حفِيٌّ بهم، وذلك لأنَّهم قالوا: بينَنا وبينَك قرابةٌ فأسِرَّ إلينا بوقتِ السّاعة(١).

ويُقالُ: «سألتُه سؤالًا حفِيًّا»؛ أي: بارًّا مُلْطِفاً، وعلى هذا ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ منَ الحفاوةِ واللُّطفِ، وعلى الأوَّلِ منَ الإحفاءِ والاستقصاءِ في السُّؤالِ، فالحفاوةُ تذكَرُ مع الباءِ، فإذا حُمِلَت على الحفاوةِ ففيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: يسألونَك عنها كأنَّك حفيٌّ بهم، و(عن) من صلةِ السُّؤالِ.

وقال أبو عليٍّ: قد تُوصَلُ الحفاوةُ بـ«عن»، كما تُوصَلُ بالباءِ، كما أنَّ السُّؤالَ يُوصَلُ بهما(٢)، ويُذكَرُ هذا في قولِه: ﴿وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩].

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أعادَ لأنَّه وصلَه الآنَ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلَمُونَ أنَّ علمَها عندَ الله.

* * *

(١٨٨) ـ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا أملِكُ أن أجلبَ إلى نفسي خيرًا ولا أدفعَ شرًّا، فكيف أملِكُ علمَ السّاعةِ؟ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يُملِّكَني ويُمكِّنَني منه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٠٤) عن قتادة، قال: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسرَّ إلينا متى الساعة، فقال الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٢/ ٢١٤).

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: من معرفتِه حتَّى أُجيبَ في كلِّ ما أُسأَلُ عنه.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ هذا استئنافُ كلامٍ؛ أي: ليس بي جنونٌ؛ لأنَّهم نسبوه إلى الجنونِ.

وقيلَ: ليس هذا كلامًا مُبتَدأً، بل المُرادُ: لو علِمتُ الغيبَ لَـمَا مسَّني سوءٌ ولحذِرْتُ.

وقيلَ: لا أملِكُ لنفسي الهدى والضَّلالةَ، ولو كنتُ أعلَمُ الغيبَ وأنِّي متى أموتُ لاستكثَرتُ منَ العملِ الصَّالحِ.

وقيلَ: هذه الآيةُ غيرُ مُتَّصلةٍ بما قبلَها.

قال ابنُ عبّاسٍ: قال أهلُ مكّةَ: يا محمَّدُ، ألا يُخبِرُكَ ربُّك بالسِّعرِ الرَّخيصِ قبلَ أن يغلُوَ فنشتريَ منَ الرَّخيصِ فنربحَ عليه عند الغلاءِ؟ وبالأرضِ الجدبِ فنرتحلَ منها؟ فنزلَتْ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾[1] بهذا الطَّريقِ ﴿وَلَا﴾ دفعَ ضرٍّ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ لَـمَا مسَّني ضرٌّ وفقرٌ.

* * *

(١٨٩) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هذا أيضًا تعجيبٌ من صنيعِ المُشركين؛

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٦١٩)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٥٠٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والسمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٧٣) عن الكلبي.

أي: علِمُوا أنَّ الله خلقَ الخلقَ من آدمَ وجعلَ منه زوجَه، وهو الذي يقدرُ على ما لا يقدرُ عليه غيرُه، فكيف تُشرِكُونَ به؟!

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ أي: تغشَّى الزَّوجُ المرأةَ ووطِئَها وحملَتْ، ثمَّ ثقُلَ الحملُ عليها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾ أن يكونَ الولدُ صالـحًا سويًّا ذكرًا، فلمَّا حصلَ مقصودُهما ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أشارَ إلى أنَّ العربَ كانُوا يُقرِّبون المولودَ إلى اللّاتِ والعُزَّى والأصنامِ تبرُّكًا[1]، فهم في الابتداءِ مُنقَطعون بأملِهم إلى الله في ابتداءِ خلقِ الولدِ إلى انفصالِه، ثمَّ يُشرِكون، فهذا هو العجبُ.

وقال مجاهدٌ: كانَ لا يعيشُ لآدمَ وحوَّاءَ ولدٌ، فقال لهما الشَّيطانُ: إذا وُلِدَ لكما ولدٌ فسمِّياه عبدَ الحارثِ، وكان اسمُ الشَّيطانِ قبلَ ذلك الحارثَ، فهذا قولُه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾[2].

---

(١) بعدها في (أ): «بها».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٢٦) عن مجاهد. وتسميته بعبد الحارث روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وسيأتي.

ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٠١١٧)، والترمذي (٣٠٧٧) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه مرفوعًا، ولفظ الترمذي: عن النبي ﷺ، قال: «لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث، فسمته عبد الحارث، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه».

وهذا التفسير مشكل، لأنه ينسب الإشراك لآدم وحواء، وإن قال بعضهم: إنه إشراك اسم لا إشراك عبادة، لكن الحديث معلول، قد أعله ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٧٥) من ثلاثة وجوه:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعًا، فالله أعلم. =

= الثاني: أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعًا، رواه الطبري.

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه.

فقد روى الطبري عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم.

ثم قال ابن كثير: «وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع».

ورجح ما فسر به الحسن الآية من أن المراد: ذرية آدم، وقال: «وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾».

وقبلَ ابنِ كثير ضعَّف هذا الروايات وهذا التفسير للآية ابنُ العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٣٥٥) فقال: «وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات، ولا يعوِّل عليها مَن له قلبٌ؛ فإن آدم وحواء وإن كان غرهما بالله الغرور فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وما كانا بعد ذلك ليقبلا له نصحًا ولا يسمعا منه قولًا».

وممن أسهب في ردها وبيان خطأ مَن تناولها من المفسرين العلامة أبو شهبة في «الإسرائيليات والموضوعات» (ص: ٢٠٩ ـ ٢١٥) ثم خلص إلى أن التفسير الصحيح لها على وجهين ـ أحدهما قول ابن كثير ـ فقال: والمحققون من المفسرين منهم مَن نحا منحى العلامة ابن كثير فجعل الآية الأولى في آدم وحواء، وجعل قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا﴾ الآيةَ في المشركين من ذريتهما؛ أي: جعل أولادهما شركاء لله فيما أتاهما، والمراد بهم الجنس؛ أي: جنس الذَّكَر والأُنثى، فمِن ثَمَّ حسُن قوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بالجمع، ويكون هذا الكلام من الموصول لفظاً المفصول معنى، ومنهم من جعل الآيتين في ذرية آدم وحواء؛ أي: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي نفس الذَّكَر ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا﴾؛ أي: من جنسها ﴿زَوۡجَهَا﴾ وهي: الأنثى، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا﴾؛ أي: بشراً سويًا =

وقولُه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: آدمَ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حوّاءَ.

وقيلَ: أي: جعَلَ من كلِّ نفسٍ زوجَها من طريقِ الجنسِ.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾؛ أي: ليأنَسَ بها، وإنَّما خُلِقَتْ حواءُ من ضلعِ آدمَ ليكونَ أميَلَ إليها.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ يُقالُ: غشِيَها وتغَشّاها، وهو كنايةٌ عن الوِقاعِ، ومثلُه: تجلَّلَها.

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾؛ أي: النُّطفةَ ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرَّتْ بذلك الحملِ الخفيفِ.

وقيلَ: هذا منَ المقلوبِ؛ أي: فاستمرَّ بها الحملُ.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾؛ أي دَنَتِ الولادةُ ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: بشرًا سوِيًّا مثلَنا، وقيلَ: غلامًا.

* * *

(١٩٠) ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: أعطاهما ما طلَبا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: سمَّياه عبدَ الحارثِ[1]. وعلى القولِ الآخرِ: قرَّبا المولودَ إلى الأصنامِ شكرًا لها.

= كاملاً، ﴿جَعَلَا﴾؛ أي: الزوجان الكافران ﴿لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وبذلك أبدلا شكر الله كفراناً به وجحودًا، وعلى هذا: لا يكون لآدم وحواء ذكر مّا في الآيتين.

وإنما أطلنا في هذا التعليق لأن كثيراً من كتب التفسير ذهبت إلى القول الأول، ومنهم شيخ المفسرين ابن جرير الطبري. وكأنّي بالمصنف ـ رحمه الله ـ هنا ينحو هذا المنحى، فإنه قال بعد: «وإنما أشرك آدم وحواء في الاسم لا في العبادة...»؟!

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٩٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٤).

وقُرِئَ: ﴿جَعَلَا له شِرْكًا﴾ بكسرِ الشِّينِ[1]، وهو من بابِ حذفِ المُضافِ؛ أي: جعَلا له ذا شِرْكٍ.

وقيلَ: أي: جعَلُوا بعضَه لله، وبعضَه للأصنام، فلا يُحتاجُ إلى إضمارٍ محذوفٍ.

وإنَّما أشركَ آدمُ وحوّاءُ في الاسمِ لا في العبادةِ؛ إذ لـم يذهَبا إلى أنَّ الحارثَ ربُّهما، لكنَّهما قصَدا أن تكونَ هذه التَّسميةُ سببَ سلامةِ الولدِ وسلامةِ الأمِّ.

وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: وسوَسَ إبليسُ إلى حوَّاءَ فقال: أخبريني عن الذي في بطنِكِ، أتلدينَه من عينِكِ أم من أنفِكِ؟ قالت: لا أعلَمُ، قال: فإنْ سألتُ الله أن يُسهِّلَ أمرَ الولادةِ عليكِ أتُسمينَه باسمي؟ قالت: نعم[2].

فعلى هذا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ معناه: جعلَ أحدُهما، فحُذِفَ المضافُ كقولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: عن إشراكِ الكفّارِ، ولو أرادَ آدمَ وحوّاءَ لقالَ: عما يُشرِكانِ.

وقيلَ: أي: فلمّا آتاهُما صالحًا جعلَ أولادُهما له شُركاءَ؛ يعني: الكفَّارَ منهم.

وقيلَ: مِن اتِّخاذِ الشَّريكِ نسبةُ الحوادثِ إلى النُّجومِ.

* * *

(١٩١ ـ ١٩٢) ـ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

قولُـه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾: أيعبُـدونَ مـا لا يقـدرُ علـى خلقِ شـيءٍ ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: الأصنـامُ مخلوقـةٌ، وقـال: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بالـواوِ والنُّـونِ؛ لأنَّهـم اعتقَـدوا

(١) قرأ بها نافع وعاصم في رواية أبي بكر. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٢٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣١٥).

أنَّ الأصنـامَ تضـرُّ وتنفعُ، فأُجرِيَتْ مُجـرَى النّاسِ، كقولِـه: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقولـه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: ١٨].

قولُه: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرًا﴾؛ أي: إنَّ الأصنامَ لا تنصُرُ ولا تنتَصِرُ.

* * *

(١٩٣) - ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَـٰمِتُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ خاطبَ المُؤمنين؛ أي: إنْ تدعوا المُشركين إلى الهدى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾، وإن تدعوا الأصنامَ لـم تفعَلْ شيئًا.

قُرِئَ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ بالتَّشديدِ وبالتَّخفيفِ[1].

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَـٰمِتُونَ﴾؛ أي: أدعَوتُـموهُم أم صمَتُّم، فقال: ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَـٰمِتُونَ﴾؛ لمُراعاةِ رُؤوسِ الآيِ.

* * *

(١٩٤) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ﴾.

قولُـه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ حاجَّهـم فـي عبـادةِ الأصنامِ.

﴿تَدۡعُونَ﴾؛ أي: تعبُـدونَ. وقيـلَ: تدعُونَهـا آلهـةً. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مـن غـيـرِ الله.

﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾؛ أي: مُسخَّرونَ.

---

(١) قرأ نافع بالتخفيف، وباقي السبعة بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

ولمَّا اعتقَدَ المشركونَ أنَّ الأصنامَ تضرُّ وتنفعُ أجراهُما مُجرى النّاسِ فقال: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾، ولم يقُلْ: فادعُوهُنَّ، وقال: ﴿عِبَادٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، ولم يقُلْ: التي.

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: فاعبُدوهم هل يُثيبُونكم[1]؟

وقيلَ: فاطلُبوا منهم النَّفعَ وكشفَ الضُّرِّ.

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ عندَ الأصنامِ نفعًا.

* * *

(١٩٥) ـ ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

قولُه: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ﴾؛ أي: مثلَ بني آدمَ.

والبَطشُ: التَّناوُلُ والأَخذُ الشَّديدُ؛ أي: مَن عبدَ شيئًا لا يدَ له ولا رِجلَ، ويستَيقِنُ أنَّه لا يضرُّ ولا ينفعُ، ألوَمُ ممَّن عبدَ مَن له جارحةٌ ويتوهَّمُ منه النَّفعَ والضرَّ.

وبيَّنَ بهذا أنَّ المشركين مُفضَّلونَ على الأصنامِ، فكيفَ يعبُدون مَن هم أفضَلُ منه؟ والغرضُ: بيانُ جهلِهم لا بيانُ أنَّ المعبودَ يتَّصِفُ بالجوارحِ.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾؛ أي: الأصنامَ ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتُم وشركاؤُكم.

قُرِئَ: ﴿كيدوني﴾ بالياءِ وبغيرِ الياءِ[2]، والإنظارُ: الإمهالُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٣١٥).

(٢) أثبت الياء في الوصل والوقف هشام بخلاف عنه، وأثبتها في الوصل خاصة أبو عمرو. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩ ـ ٣٠٠)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(١٩٦) ـ ﴿إِنَّ وَلِيِّـىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ وَلِيِّـىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الذي يتولَّى نُصرَتي هو الله الذي نزَّلَ القرآنَ ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: الذين يُطيعونَه.

* * *

(١٩٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أعادَه ليُبيِّنَ أنَّ معبودي يتولَّى أمري، ومَن تعبُدونَه لا ينفعُ ولا يضرُّ.

* * *

(١٩٨) ـ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ مضَى معناه.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: المُشركون ينظُرون إليكَ بأعيُنِهم ولا يُبصِرون بقلوبِهم.

وقيلَ: أي: الأصنامُ لـها أعيُنٌ مُصوَّرةٌ ولكنَّها جماداتٌ لا تُبصِرُ.

وقيلَ: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: يُقابلونَك، من قولِك: ديارُ بني فلانٍ تتناظَرُ.

وقيلَ: ﴿تَراهُمْ﴾؛ أي: تحسَبُهم.

* * *

(١٩٩) ـ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

قولُه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ لمَّا أمرَ بمُحاجَّةِ المشركين دلَّه على مكارمِ الأخلاقِ؛ فإنَّها سببُ جرِّ المشركينَ إلى الإيمانِ؛ أي: اقبَلْ منَ النّاسِ ما عفا لك من أخلاقِهم وتيسَّرَ، تقولُ: أخذْتُ حقِّي عفوًا صفوًا؛ أي: سهلًا.

ولـمَّا نزلتِ الآيةُ قال رسولُ الله ﷺ: «ما هذا العفوُ؟» قال: «أن تُعطِيَ مَن حرَمَكَ، وتصِلَ مَن قطعَكَ، وتعفُوَ عمَّن ظلمَكَ»[1].

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو ما عُرِفَ في الشَّرائعِ أنَّه الأَولى والأحسنُ، كالتَّقوى وصلةِ الأرحامِ وصَونِ اللِّسانِ عن الكذبِ وغضِّ الطَّرفِ عن المحارمِ.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قيلَ: هذا في حالِ اليأسِ من صلاحِهم، وهو إعراضُ استخفافٍ بهم.

وقيلَ: نزلَ هذا قبلَ الأمرِ بالجهادِ.

وقيلَ: هو أمرٌ بتركِ الإفحاشِ في القولِ، ولا يدخُلُ فيه تركُ القتالِ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقيلَ: أي: وأعرِضْ عن أفعالِ الجاهلين.

وقيلَ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾؛ أي: الفضلَ؛ أي: ما فضَلَ من أموالِـهم من قَدْرِ حاجتِهم.

وقيلَ: ما طابَتْ به أنفسُهم، وهو منسوخٌ بآيةِ الزَّكاةِ.

* * *

---

(١) ورواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٥٦٩٧) عن قيس بن سعد بن عبادة، ورواه ابن مردويه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٨).
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤٣) من طريق سفيان بن عيينة عن رجل قد سماه، ومن طريق سفيان عن أُميٍّ الصيرفي، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٨) من طريق سفيان عن أميٍّ عن الشعبي، وكل هذه مرسلات كما قال ابن كثير عند تفسير الآية، وزاد: (وقد روي له شواهد من وجوه أُخر). قلت: له شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند أحمد في «المسند» (١٧٤٥٢).

(٢٠٠) - ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ قيلَ: لـمَّا نزلَ قولُه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال عليه السَّلامُ: «كيفَ يا ربِّ، والغضبُ؟» فنزلَ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾[1].

ونَزْغُ الشَّيطانِ: وَساوِسُه، يُقالُ: نزَغَ بينَ القومِ؛ أي: أفسَدَ بينَهم.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: اطلُبِ النَّجاةَ من ذلك بالله.

* * *

(٢٠١) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾؛ أي: الكفرَ والمعاصيَ ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ﴾ الطَّيفُ: مصدرٌ، يُقالُ: طافَ الخيالُ يَطيفُ طَيْفًا؛ أي: أَلَـمَّ في المنامِ، وأطافَ بالقومِ يُطيفُ إِطافةً، وطافَ يَطوفُ طَوْفًا؛ أي: استدارَ بهم.

وقيلَ: أصلُه: طَيِّفٌ، فقيلَ: طَيْفٌ، مثلَ: ميِّتٍ وميْتٍ، ويُسمَّى الجنونُ والغضبُ والوسوسةُ: طيفًا؛ لأنَّه لَـمَّةٌ منَ الشَّيطانِ تُشبَّه بلَمَّةِ الخيالِ.

وقُرِئَ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾[2]، وهو بمعنى الطَّيفِ، كالعافيةِ والعاقبةِ مـمَّا يجيءُ المصدرُ منه على «فاعِلٍ وفاعِلةٍ».

وقيلَ: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾؛ أي: عارِضٌ من وَسوسةِ الشَّيطانِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤٦) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، مرسلاً.

(٢) هي قراءة نافع وعاصم وابن عامر وحمزة، وقرأ الباقون: ﴿طَيْفٌ﴾ بغيرِ ألفٍ. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠١)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

﴿تَذَكَّرُواْ﴾؛ أي: استَعاذُوا ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾؛ أي: مُنتَهون.

وقيلَ: فإذا هم على بصيرةٍ.

* * *

(٢٠٢) ـ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ يعني: الكفّارُ؛ فإنَّهم إخوانُ الشَّياطينِ؛ لاجتماعِهم على الضَّلالةِ، وقد سبقَ في هذه الآيةِ ذِكرُ الشَّيطانِ.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي: يدعُونَهم إلى الغيِّ، ويُطوِّلونَ لـهم الإغواءَ.

وقُرِئَ: ﴿يُمِدُّونَهم﴾ بضمِّ الياءِ منَ الإمدادِ[1].

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ الإقصارُ: الانتهاءُ عن الشَّيءِ.

ومعنى الآيةِ: أنَّ المؤمنَ إذا مسَّه طَيفٌ[2] منَ الشَّيطانِ تنبَّهَ عن قُربٍ، فأمَّا المشركون فيمدُّهم الشَّيطانُ فلا يُقصِرُونَ، ويرجعُ ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ إلى المُشركين، ويجوزُ أن يرجعَ إلى الشَّياطينِ، وقيلَ: إلى الجنسَينِ.

* * *

(٢٠٣) ـ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾؛ أي: كانُوا إذا أبطأَ الوحيُ على رسولِ الله ﷺ قالوا: «هلَّا اجتبَيْتَ شيئًا تقرؤُه علينا» ظنًّا منهم أنَّه يخترعُ القرآنَ، يُقالُ: اجتبَيْتُ الكلامَ؛ أي: ارتـجَلْتُه واختلَقْتُه.

---

(١) قرأ بها نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠١)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٢) في (أ): «طائف».

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾؛ أي: القرآنُ من عندِ الله لا من عندِ نفسي.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: هذا القرآنُ بصائرُ، والبصيرةُ: الثَّباتُ في الدِّينِ والعبرةُ.

* * *

(٢٠٤) - ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ أمرَ المؤمنينَ بالاستماعِ إلى القرآنِ ليتدَبَّروا معانيَه.

قال أبو هريرةَ: نزلَتْ في رفعِ الأصواتِ وهم خلفَ رسولِ الله ﷺ في الصَّلاةِ[1].

وقيلَ: نزلَتْ في فتًى منَ الأنصارِ كان رسولُ الله ﷺ كلَّما قرأَ شيئًا يقرؤُه[2].

وقيلَ: نزلَتْ في الإنصاتِ للخُطبةِ يومَ الجمعةِ[3].

والإِنصاتُ: تركُ رفعِ الصَّوتِ، ولا يدلُّ هذا على أنَّ المُقتَديَ لا يقرأُ، بل لا يرفعُ صوتَه.

وقيلَ: هذا أمرٌ بالإنصاتِ فيما عدا الفاتحةَ.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٣٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٤٥).

وقد روى أبو داود (٨٢٦)، والترمذي (٣١٢)، والنسائي (٩١٩)، وابن ماجه (٨٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: «هل قرأ معي أحد منكم آنفًا؟» قال رجل: نعم يا رسول الله. قال: «إني أقول ما لي أنازع القرآن؟!» قال: فانتهى الناس عن القراءة فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٥٩) عن الزهري.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٦٤) عن مجاهد.

وقال الأوزاعيُّ: أَمَرَ بالإنصاتِ عن الكلامِ، لا عن قراءةِ القرآنِ[١].

﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾؛ أي: اعمَلُوا بما فيه ﴿وَأَنصِتُواْ﴾؛ أي: لا تُجاوِزُوه إلى غيرِه، ذكرَه الزَّجَّاجُ[٢]. **فليستِ الآيةُ من تركِ القراءةِ في شيءٍ.**

* * *

(٢٠٥) - ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾؛ أي: اقرأ القرآنَ بتأمُّلٍ وتدبُّرٍ.

﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أصلُها: «خِوْفة»، فقُلِبَت الواوُ ياءً لانكسارِ ما قبلَها.

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾؛ أي: دونَ الرَّفعِ ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: أسمِعْ نفسَكَ، قيلَ: عنى به القراءةَ في الصَّلاةِ السِّرِّيةِ.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾؛ أي: بُكرةً وعشِيًّا.

وقيلَ: أرادَ الذِّكرَ في حالةِ الدُّعاءِ.

والغُدُوُّ مصدرٌ، يُقالُ: غَدَا غَدْوًا وغُدُوًّا، ثمَّ يُسمَّى وقتُ الغُدُوِّ: غُدُوًّا.

وقيلَ: الغُدُوُّ: جمعُ غَدوةٍ.

والآصالُ: واحدُها: «أُصُلٌ»، وواحدُ الأُصُلِ: «أصيلٌ»، وهو منَ الأصلِ، وهو أسفلُ كلِّ شيءٍ.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٩/ ٥٦٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٩٨).

(٢٠٦) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكةَ ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: قرُبوا من رحمتِه ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عنِ العبادةِ، فلِمَ تستكبرونَ أنتم؟

* * *

سُورَةُ الأَنفَالِ

تفسيرُ سورةِ الأنفالِ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وقعَ بينَ الصَّحابةِ كلامٌ في مغانمِ يومِ بدرٍ، فذكرَ الله أنَّها بحُكمِ الرَّسولِ يتصرَّفُ فيها كما يُريدُ، ثمَّ نزلَ بعد هذا: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية.

قال سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ: قتلتُ يومَ بدرٍ سعيدَ بنَ العاصِ، وأخذتُ سيفَه، وأتيتُ به النَّبيَّ عليه السَّلامُ، فقال: «اِطرَحْه في المغنَمِ»، فقلتُ: يا رسولَ الله، نفِّلْنيه، فقال: «اِطرَحْه في المغنمِ»، قال: فشَقَّ ذلك عليَّ، فما جاوَزْتُ إلّا قريبًا حتَّى نزلَتْ فاتحةُ سورةِ الأنفالِ، فقال لي رسولُ الله ﷺ: «اذهَبْ فخُذْ سيفَكَ»[1].

---

(١) رواه أبو عبيد في «الأموال» (٧٥٦)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢٦٨٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٠٨٥)، والإمام أحمد في «المسند» (١٥٥٦)، والبزار في «مسنده» (١٢٣٩)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١٦)، من طريق محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه به، ورجاله ثقات غير أن فيه انقطاعاً، محمد بن عبيد الله الثقفي لم يُدرك سعداً.
وأيضا في ذكر «سعيد بن العاص» في هذا الخبر وهم كما قال الشيخ أحمد شاكر في طبعته من «تفسير الطبري» (١٣/ ٣٧٤)، قال: فإن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي متأخر، قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وله تسع سنين، وهو لم يُشرك قط، وقُتل أبوه العاص بن سعيد يوم بدرٍ =

وقال عبادةُ بنُ الصّامتِ: اختلَفْنا يومَ بدرٍ في المغانمِ، وساءَتْ أخلاقُنا، فانتزَعَه الله من أيدينا فجعلَه إلى رسولِ الله ﷺ، فقسَّمه بالسَّواءِ[١].

وفي خبرِ سعدٍ أنَّه قال عليه السَّلامُ له: «إنَّكَ سألتَني السَّيفَ وليس لي، وإنَّه قد صارَ لي، فاذهَبْ فخُذْه»[٢].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾؛ أي: عن حُكمِها، ولهذا قالَ: ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

وقيلَ: سألوا لأنَّ المغانمَ كانت حرامًا على مَن كانَ قبلَ الرَّسولِ عليه السَّلامُ.

وقيلَ: ﴿عَنِ﴾ بمعنى: «من»، فهو سؤالُ استِعطاءٍ لا سؤالُ استِفتاءٍ، فكانوا يقولون: يا رسولَ الله، أعطِني كذا، أعطِني كذا.

وقيلَ: ﴿عَنِ﴾ زيادةٌ؛ أي: (يسألُونَكَ الأنفالَ)، وهكذا قراءةُ عبدِ الله[٣].

= كَافراً، أما جده سعيد بن العاص بن أمية فمات قبل بدرٍ مشركاً، ويكون الصواب كما قال ابن حجر في «الإِصابة» في ترجمة عمير بن أبي وقاص: العاص بن سعيد بن العاص، ويكون الاختلاف إذن في الذي قَتَله: أهو علي بن أبي طالب، أم سعد بن أبي وقاص؟

والصواب ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٥٣٨)، وأبو داود (٣٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، متصلاً من طريق مصعب بن سعد، عن أبيه قال: لما كان يوم بدر جئت بسيف، فقلت: يا رسول الله، إن الله قد شفى صدري من المشركين ـ أو نحو هذا ـ هب لي هذا السيف، فقال: «هذا ليس لي ولا لك» فقلت: عسى أن يعطى هذا من لا يبلي بلائي، فجاءني الرسول فقال: «إنك سألتني وليس لي، وإنه قد صار لي وهو لك»، قال: فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٧٤٧)، ورواه مطولاً ابن حبان في «صحيحه» (٤٨٥٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢٦٠٧)، و(٣٢٥٩)، وصححه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٣٨).

(٣) رواها عنه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٠٥)، والإمام أحمد في «المسند» (١٥٦٧)، وأبو داود في «المراسيل» (٢٨٤)، ونسبت لغيره، وهي قراءة شاذة. انظر: «المحتسب» لابن جني (١/ ٢٧٢).

و﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾: جمعُ النَّفَلِ، وهو الغنيمةُ، ونفَّلْتُه نفالًا؛ أي: أعطَيتُه شيئًا منَ المغنمِ، والأصلُ في الكلمةِ الزِّيادةُ، ومنه: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ أي: زيادة، فلمَّا فُضِّلَتْ هذه الأمّةُ على سائرِ الأُممِ بالغنائمِ سُمِّيَتْ أنفالًا.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أطيعُوه ولا تنازَعُوا ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾؛ أي: لا تختَلِفُوا.

﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾؛ أي: الحالةَ التي بينكم، والتَّأنيثُ للحالةِ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾؛ أي: حقيقةَ وَصْلِكم، والبَيْنُ: الوَصْلُ[1]، فـ﴿ذَاتَ﴾ عندَه بمعنى النَّفسِ[2].

وهذه الآيةُ منسوخةٌ بقولِه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[3].

وقال ابنُ زيدٍ: ليست منسوخةً؛ لأنَّ الأنفالَ وكلَّ شيءٍ لله، فالأنفالُ للرَّسولِ يضَعُها بإذنِ الله في الموضعِ الذي أمرَه به[4].

والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّ الله ملَّكَ الرَّسولَ جميعَ المغنمِ في قولِه: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ثمَّ نُسِخَ التَّمليكُ في الكلِّ.

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ قيلَ: أي: إذ كنتُم، وقيلَ: أي: إنَّ سبيلَ المُؤمنِ أن يمتَثِلَ ما ذكَرْنا.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٠٠)، و«البسيط» للواحدي (١٠/ ١٢).

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (١٠/ ١٢)، وزاد: كما يقال: ذات الشيء ونفسه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١ ـ ٢٢) عن مجاهد وعكرمة والسدي.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٢ ـ ٢٣)، ورجحه.

(٢ - ٤) - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هذا تحريضٌ على التزامِ طاعةِ الرَّسولِ فيما رأى من قسمةِ تلك الغنيمةِ، يُقالُ: وَجِلَ يَوْجَلُ وَجَلًا، فهو وَجِلٌ، وأوجَلَ؛ أي: أخافَ.

وقد قال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، فهذا يرجعُ إلى كمالِ المعرفةِ، وثِقةِ القلبِ، والوَجلُ في هذه الآيةِ: الفزَعُ من عذابِ الله، فلا تناقُضَ، وقد جمعَ بين المعنيَينِ في قولِه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ أي: تسكُنُ نفوسُهم من حيثُ اليقينُ إلى الله وإنْ كانوا يخافُونَ الله.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ أي: تصديقًا؛ فإنَّ إيمانَ هذه السّاعةِ زيادةٌ على إيمانِ أمسِ.

وقيلَ: مَن صدَّقَ بما نزلَ ثانيًا وثالثًا فهو زيادةُ تصديقٍ بالنِّسبةِ إلى ما تقدَّمَ.

وقيلَ: هو زيادةُ انشراحِ الصَّدرِ بكثرةِ الآياتِ والأدلّةِ.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أي: لا يرجُونَ غيرَه(١).

قولُه: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ أي: يُحافِظُونَ عليها، ويُنفِقُونَ في الطّاعاتِ.

قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ أي: صِدقًا.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٦).

وقيلَ: الذين حقَّقُوا أقوالَهم بأفعالِـهم(١).

وقيلَ: أي: أُخبِرُكم بذلك إخبارًا حقًّا.

وقيلَ: تـمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ثمَّ ابتدأ فقالَ: ﴿حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾.

والمُؤمنُ مؤمنٌ في الحالِ على الحقيقةِ، والاستِثناءُ في المآلِ(٢)؛ لأنَّ علمَ الغيبِ عندَ الله، والخلافُ في المسألةِ راجعٌ إلى اللَّفظِ.

﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾؛ أي: مـراتـبُ بعضُها عـلى بعضٍ ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾؛ أي: وسـترٌ للذنوبِ ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ أي: محمودٌ مُؤبَّدٌ شريفٌ.

* * *

(٥) ـ ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: يُجادِلُونكَ في المغانمِ إنْ حُرِمُوا مُرادَهم منها، ويكرَهُونَ ذلك، كما أنَّ الله لـمَّا أخرَجَك من بيتِك بالحقِّ جادَلوكَ فكرِهُوا الخروجَ، وذلك أنَّهم لـمَّا نُدِبُوا إلى الخروجِ كرِهَ أقوامٌ، وقالوا: نحنُ قليلٌ والعدوُّ كثيرٌ، وقال بعضُهم: إنَّما نَخرجُ على عمياءَ، ولا ندري أنخرُجُ إلى العيرِ أم إلى الرِّجالِ؛ لأنَّ الله وعدَه إحدى الطَّائفتَينِ، وقال بعضُهم: لـم يتقدَّمْ إلينا حتَّى نستَعِدَّ، وكان ذلك كراهيةَ طبعٍ لا كراهيةَ اعتراضٍ على النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وقد قال الله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

---

(١) في (أ): «وأفعالهم».

(٢) يعني بالاستثناء: الاستثناء في الإيمان، بأن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، وقوله: «في المآل» يعني: أن العبرة هي فيما يموت الإنسان عليه، فالمستثني لا يشك في إيمانه وإنما أراد عدم علمه بالعاقبة.

وقيلَ: أي: جادَلُوكَ في الأنفالِ كما جادَلُوكَ في الخروجِ.

وقيلَ: أي: امضِ لأمرِ الله في الغنائمِ كما مضَيتَ لأمرِه في الخروجِ وإنْ كرِهَه قومٌ.

وقولُه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالوحيِ والأمرِ الحقِّ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾: أمرَكَ بالخروجِ والهجرةِ من مكّةَ إلى المدينةِ، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يكرَهونَ تركَ مكّةَ وتركَ أموالِهم وديارِهم(١).

* * *

(٦) - ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ لـمَّا نُدِبوا إلى العيرِ وفاتَ العيرُ وأُمِرُوا بالقتالِ ولـم يكُنْ معَهم كثيرُ أُهبةٍ شقَّ عليهم، وقالوا: لو أخبَرْتَنا بالقتالِ لأَخَذْنا العُدّةَ.

﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: في القتالِ ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنّكَ لا تأمرُ بالشَّيءِ إلّا بإذنِ الله.

وقيلَ: أي: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أنَّ الله وعدَهم إمَّا الظَّفَرَ بأهلِ مكّةَ أو بالعيرِ، وإذ فاتَ العيرُ فلا بدَّ منَ الظَّفرِ.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: كراهةً للقاءِ القومِ.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: يعلمونَ أنّه واقعٌ بهم، قال الله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]؛ أي: يعلَمُ.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٢) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده تالف.

(٧) - ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ ﴾ بيَّنَ أنَّهم كرِهُوا القتالَ ثمَّ حمِدُوا عاقبتَه لطاعتِهم لله ولرسولِه، والطّائفتانِ: العِيرُ والنَّفيرُ.

﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ في موضعِ النَّصبِ بدَلًا من ﴿إِحْدَى﴾.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾؛ أي: التي ليس فيها قتالٌ؛ أي: تودُّونَ أنَّ الطّائفةَ غيرَ ذاتِ الشَّوكةِ تكونُ لكم، فلهذا أنَّثَ ﴿ذَاتِ﴾، والشوكةُ: السِّلاحُ، والشَّوكُ: النَّبتُ الذي له حدٌّ، ومنه: رجلٌ شائِكُ السِّلاحِ؛ أي: حديدُ السِّلاحِ، ثمَّ يُقلَبُ فيُقالُ: شاكي السِّلاحِ، مثل: «جُرُفٌ هائِرٌ» و«هارٍ».

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: أن يُظهِرَ الإسلامَ، والحقُّ حقٌّ أبدًا، ولكنَّ إظهارَه تحقيقٌ له من حيثُ إنَّه إذا لم يظهَرْ أشبَهَ الباطلَ في الظُّنونِ.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: وَعْدِه؛ فإنَّه وعدَ نبيَّه ذلك في سورةِ الدُّخانِ فقال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]؛ أي: من أبي جهلٍ، وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقيل: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: بأمرِه إيّاكم أن تُجاهِدُوهم.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: يُهلِكَهم، وكانَ يومَ بدرٍ مع المسلمين فَرَسانِ، ومع الكفَّارِ مئةُ فَرَسٍ وإبلٌ كثيرةٌ وسلاحٌ.

ولمَّا أشارَ أقوامٌ بالعيرِ وكرِهُوا القتالَ بعد مُرادَّاتٍ جرَتْ بينَهم؛ قال سعدُ بنُ عبادةَ: يا رسولَ الله، انظُرْ أمرَكَ وامضِ على ما تُريدُ، فواللهِ لو سِرْتَ إلى عَدَنٍ

مـا تخلَّفَ عنـك رجلٌ مـنَ الأنصارِ، ففـرحَ النَّبيُّ عليه السَّـلامُ حتَّى عُرِفَ السُّـرورُ في وجهِه[١].

وقال المِقدادُ: إنَّا لا نقولُ كما قالَتْ بنو إسرائيلَ: اذهَبْ أنتَ وربُّك فقاتِلا، بل نقولُ: امضِ لأمرِ ربِّكَ، فإنَّا بينَ يدَيكَ مُقاتلون ما دامَتْ منَّا عينٌ تطرِفُ[٢].

---

(١) ورد بهذا اللفظ في «تفسير مقاتل بن سليمان» (٢/ ٥)، ورواه مسلم (١٧٧٩) عن أنسٍ: أن رسولَ اللهِ ﷺ شاوَرَ حين بَلَغه إقبالُ أبي سفيانَ، قال: فتكلَّم أبو بكر فأَعْرَض عنه، ثُم تكلَّم عمرُ فأَعْرَض عنه، فقام سعدُ بنُ عبادةَ، فقال: إيَّانا تريدُ يا رسولَ الله؟ والذي نفسي بيده، لو أمَرْتنا أن نُخِيضها البحرَ لأَخَضناها، ولو أمَرْتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَادِ لَفعَلْنا، قال: فنَدَب رسولُ اللهِ ﷺ الناسَ، فانطلَقوا حتى نزلوا بدرًا... الحديث.

وذِكرُ سعدِ بن عبادة في هذه القصة فيه نظرٌ نبَّه عليه الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٨٨) قال: لأن سعد بن عبادة لم يشهد بدراً، وإن كان يعدُّ فيهم لكونه ممن ضرب له بسهمه...، قال: ووقع عند الطبراني أن سعد بن عبادة قال ذلك بالحديبية، وهذا أولى بالصواب.

قلت: وثمة إشكال آخر هنا، وهو ذكر كلام سعد بن عبادة قبل كلام المقداد، فهكذا وقع في «تفسير مقاتل» ثم تابع عليه المفسرون كالمصنف والزمخشري وأبي حفص النسفي والبيضاوي وأبي البركات النسفي وأبي السعود، وفي ذكره في هذا الموضع إخلال بتسلسل الأحداث، فإن سعد بن عبادة من قادة الأنصار وكبارهم، وقد تكلم باسم الأنصار، وصرح في كلامه بنصرتهم للنبي ﷺ إذا وقع اللقاء، وهذا يخالف ما رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤١) عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه ﷺ قال بعد أن تكلم المقداد: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وهو يريد الأنصارَ وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكأن رسول الله خاف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، قال: فلمَّا قال ذلك رسولُ الله ﷺ قال له سعد بن مُعاذٍ فقال: لكأنَّك تُريدنا يا رسول الله...، إلى آخر الحديث.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٨٢٧) بإسناد صحيح عن المقداد أنه قال يوم بدر: يا رسولَ اللهِ، =

فلمَّا ظفِرَ المسلمون قالوا: يا رسولَ الله، عليكَ بالعيرِ فليس معه أحدٌ، فقال العبّاسُ وهو في الأَسرِ: لا ينبَغي لك ذلك؛ لأنَّ الله وعَدَكَ إحدَى الطّائفتَينِ وقد أنجَزَ[1].

❊ ❊ ❊

(٨) ـ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: يقطعُ دابِرَهم ليُحِقَّ الحقَّ، ويُعِزَّ الإسلامَ، ويُهلِكَ الباطلَ، والكفرُ باطلٌ أبدًا، فمعنى إبطالِه: إعدامُه، كما أنَّ معنى إحقاقِ الحقِّ: إظهارُه.

❊ ❊ ❊

(٩) ـ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: ويُبطِلَ الباطلَ إذ تستَغيثُونَ.

وقيلَ: هو كلامٌ مُستأنَفٌ؛ أي: واذكُروا إذ.

والاستِغاثةُ: طلَبُ الغَوْثِ.

وذلك أنَّ المسلمينَ لـمَّا رأَوا قلَّةَ عددِهم طلَبُوا منَ الله النُّصرةَ، قال عمرُ: لـمَّا

= إنَّا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا، إنَّا معكم مقاتلون.

وبنحوه رواه البخاري (٣٩٥٢) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً، لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره».

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٢٢)، والترمذي (٣٠٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حديث حسن.

نظرَ رسولُ الله ﷺ إلى المُشركينَ وهم ألفٌ، وإلى أصحابِه وهم ثلاثُ مئةٍ ونيِّف، مئتانِ وسبعونَ منَ الأنصارِ، والباقُونَ منَ المُهاجرين؛ استقبلَ القِبلَةَ ومدَّ يدَيه يدعو ويقولُ: «اللَّهمَّ أنجِزْ لي ما وعدتَني، اللَّهمَّ إنْ تهلِكْ هذه العصابةُ من أهلِ الإسلامِ لا تُعبَدْ في الأرضِ»، فما زالَ يهتِفُ حتَّى سقطَ رِداؤُه، ورآه أبو بكرٍ فأخذَ رِداءَه وألقاه على منكِبَيه، ثمَّ التزَمَه من ورائِه وقال: يا نبيَّ الله، دَعْ مُناشدَتَكَ ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعدَكَ، فأنزلَ الله بعد بدرٍ هذه الآيةَ يُذكِّرُهم عظيمَ النِّعمِ[1].

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾؛ أي: أعلَمَكُم بالوحيِ إلى نبيِّه عليه السَّلامُ أنَّه مُمِدُّكم بالملائكةِ.

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: مُتتابعين تأتي فرقةٌ بعد فرقةٍ، وذلك أهيَبُ في العيونِ.

وقُرِئَ بفتحِ الدّالِ[2]؛ أي: اتَّبعَ بعضُهم بعضًا، يُقالُ: رَدِفْتُه وأَرْدَفْتُه؛ أي: اتَّبعْتُه، فهما بمعنًى.

وقيلَ: رَدِفْتُ الرَّجلَ؛ أي: اتَّبعْتُه، وأَرْدَفْتُه؛ أي: ركِبتُ خلفَه الدّابةَ.

وقيلَ: أَرْدَفتُه؛ أي: أركبتُه الدّابَّةَ خلفي.

وقيلَ: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ - بكسرِ الدّالِ - معناه: أنَّه يحمِلُ كلُّ ملَكٍ ملَكًا رَديفًا.

وقيلَ: أي: بألفٍ منَ الملائكةِ فرسانٍ معهم رَجّالةٌ؛ أي: مع كلِّ واحدٍ قومٌ منَ الرَّجَّالةِ.

---

(١) رواه بنحوه مسلم (١٧٦٣).

(٢) قرأ بها نافع، وباقي السبعة بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٤)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

وقيلَ: ﴿مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: بألفٍ يتَّبعُونَ المُؤمنينَ، وألفٍ منَ الملائكةِ يتَّبعُونَ ألفًا منَ الملائكةِ.

***

(١٠) ـ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي: ما جعَلَ الإمدادَ والإردافَ إلّا بُشرَى لكم.

قال ابنُ عبّاسٍ: كانَ رسولُ الله ﷺ في العريشِ يومَ بدرٍ قاعِدًا يدعُو، وأبو بكرٍ عن يمينِه ليس معه غيرُه، فخفَقَ رسولُ الله من نعسةٍ نعِسَها، ثمَّ ضرَبَ بيمينِه على فخِذِ أبي بكرٍ وقال: «أبشِرْ بنصرِ الله، فلقد رأيتُ في منامي بقَلبي ـ والأنبياءُ إذا ناموا لا تنامُ قلوبُهم، ينظُرون بها كما ينظُرونَ بأبصارِهم وهم مُستَيقِظُونَ ـ رأيتُ جبريلَ يَقدمَ الخيلَ»(١).

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾؛ أي: ولتسكُنَ قلوبُكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ أي: لولا نصرُه لَما انتفعَ بكثرةِ العددِ بالملائكةِ، والنَّصرُ من عندِ الله يكونُ بالسَّيفِ ويكونُ بالحجَّةِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٧)، وروى نحوه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٨٧٢) عن عبيد الله بن عبد الله، وللخبر شواهد، فقد روى البخاري (٣٩٩٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ قال يوم بدر: هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب». وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٠).

وما ذكره المصنف من أن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم، ورد في أحاديث منها ما رواه البخاري (٣٥٧٠) من حديث أنس في قصة الإسراء وفيه: «والنبي ﷺ نائمة عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم».

(١١) - ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

قولُه: ﴿إِذْ يَغْشَاكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ﴾؛ أي: وما جعلَه الله إلّا بُشرَى لكم إذ يغشاكُم، ولتطمَئِنَّ قلوبُكم إذ يغشاكُم، أو اذكُروا إذ يغشاكُم.

ثمَّ قيلَ: أرادَ به النَّومةَ في اللَّيلةِ التي كان القتالُ من غدِها، وكان النَّومُ عجيبًا مع ما بين أيديهم منَ الأمرِ المُهمِّ، ولكنَّ الله ربطَ جأشهم.

وقيلَ: هو نومٌ تغَشَّاهم في حالِ التقاءِ الصَّفَّينِ، وقد ذُكِرَ مثلُ هذا في يومِ أُحدٍ.

وقيلَ: أصابَ قومًا منهم الاحتلامُ في تلك اللَّيلةِ، وأَصْبحَوا على غيرِ ماءٍ؛ فإنَّ المُشركينَ سبقُوهم إلى الماءِ، وكانُوا في مكانٍ دَهْسٍ[١] لا تثبُتُ فيه الأقدامُ، فوَسْوَسَ لهم الشَّيطانُ بأنَّكم لو كنتم على الحقِّ لَما سبقَكم العدوُّ إلى المياهِ، ولَما ابتُليتُم بما ابتُليتُم به، فهذا رجزُ الشَّيطانِ، ومن رِجزِ الشَّيطانِ الاحتِلامُ؛ إذ في الخبرِ: «ما احتَلَمَ نبيٌّ قطُّ، إنَّما الاحتِلامُ تلَعُّبٌ منَ الشَّيطانِ»[٢]، فمنَّ الله على المُسلمينَ بالرَّبطِ على قلوبِهم، وإنزالِ النُّعاسِ عليهم، وإنزالِ المطرِ[٣] حتَّى صلُبَتِ الأرضُ، وثبتَتِ الأقدامُ، وزالَ العطشُ، واغتَسَلُوا[٤].

---

(١) الدهس: اللين الكثير التراب. انظر: «الإملاء المختصر» لأبي ذر الخشني (ص: ٣٨٤).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١١٥٦٤) و«الأوسط» (٨٠٦٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٦٧): فيه عبد العزيز بن أبي ثابت، وهو مجمع على ضعفه. وانظر: «الكامل» لابن عدي (٣/ ٥٦١).

(٣) في (أ): «وإنزال الماء».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤، ٦٧) عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما والضحاك، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٥ـ١٦٦٦) عن قتادة. ولفظ خبر ابن عباس عند الطبري: =

قُرِئَ: ﴿يَغْشاكُم﴾ من غَشِيَ، وقُرِئَ: ﴿يُغشِيكم﴾ من أَغْشى، و: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ من غَشَّى[1].

﴿أَمَنَةً﴾؛ أي: أمَّنَكم الله أمنًا.

والرِّجزُ: الأذَى والتَّعذيبُ، عنى أنَّه أزالَ بإنزالِ المطرِ وسوسةَ الشَّيطانِ وأذاهُ عنهم.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: بالتَّثبيتِ والنُّصرةِ ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ حتَّى لا تغُوصَ في المكانِ الدَّهْسِ، أو تثبُتَ بما رأَيتُم من لطيفِ الصُّنعِ أقدامُكم على الدِّينِ وفي القتالِ.

***

= «وذلك أن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ويقاتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنبين محدثين، حتى تعاظم ذلك في صدور أصحاب رسول الله ﷺ، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المسلمون وملؤوا الأسقية، وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً، وثبت الأقدام. وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله عليها المطر فضربها حتى اشتدت وثبتت عليها الأقدام».

(١) قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بضم الياء وتشديد الشين من التغشية، وقرأ نافع بضم الياء وتخفيف الشين من الإغشاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يغشاكم﴾ بفتح الياء والتخفيف وضمِّ سِين ﴿النعاسُ﴾ مرفوعاً. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٦)، و«جامع البيان في القراءات السبع» للداني (٣/ ١١٣٥)، و«النشر» (٢/ ٢٧٦)، وسقطت قراءة نافع من مطبوع «التيسير».

(١٢ ـ ١٣) ـ ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قولُه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾؛ أي: وليربطَ إذ يُوحي؛ أي: يُلقي إليهم من وجهٍ يخفَى، فهذا معنى الإيحاءِ.

﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾؛ أي: الذين أمدَّ بهم المسلمينَ.

﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالنَّصرِ ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: بشِّروهم بالنَّصرِ وادعوا لهم، فكانَ الملَكُ يسيرُ أمامَ الصَّفِّ في صورةِ الرَّجلِ ويقولُ: أبشِرُوا فإنَّ الله ناصِرُكم، ويظُنُّ المسلمونَ أنَّه منهم.

وقيلَ: كانَ منَ الملائكة البشارةُ، وكان الله يُوصِلُ ذلك إلى قلوبِ المُسلمين.

وقيلَ: كانَ هذا التَّثبيتُ بذكرِ رسولِ الله للمُؤمنينَ نزولَ الملائكةِ مدَدًا.

وقيلَ: ثبِّتُوا المُؤمنينَ؛ أي: اقتُلوا المُشركينَ وانقُضُوا صفُوفَهم، فيكونُ ذلك سببَ ثباتِ المسلمين.

وقيلَ: رأَوا ذلك اليومَ رُؤوسًا تندُرُ عن الأعناقِ من غيرِ ضاربٍ يرَونَه، وسمعَ بعضُهم قائلًا يُسمَعُ قولُه ولا يُرى شخصُه: أقدِمْ حَيزُومُ(١)، فكانَ هذا وأمثالُه سببَ التَّثبيتِ.

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣) ضمن حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: «قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً. فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط».

و«أقدم»: أمرٌ مِنَ (الإقدام)، يذكر زجراً للفرس. =

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾؛ أي: الخوفَ منَ المسلمين ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ هذا أمرٌ للملائكةِ، وقيلَ: للمُؤمنين.

قال ابنُ عبّاسٍ: كلَّ هامٍ وجُمْجُمةٍ(١).

وقيلَ: أي: ما فوقَ الأعناقِ، وهو الرُّؤوسُ، والضَّربُ على الرأسِ أبلَغُ؛ لأنَّ أدنى شيءٍ يُؤثِّرُ في الدِّماغِ.

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ أي: الأطرافَ منَ اليدَينِ والرِّجلَينِ، فالمقصودُ منَ البَنانِ وهو الأصابعُ: اليدُ والرِّجلُ.

قولُه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ﴾؛ أي: أولياءَه، والشِّقاقُ: أن يصيرَ كلُّ واحدٍ في شِقٍّ.

* * *

(١٤) - ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

قولُه: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ قال الزَّجّاجُ: «ذلكم» رفعٌ بإضمارِ الأمرِ والقصّةِ؛ أي: الأمرُ ذلكم فذوقُوه(٢).

ويجوزُ أن يكونَ نصبًا بـ(ذُوقُوه) كقولك: زيدًا فاضرِبْه.

= و«حيزوم»: علم فرس جبريل، وهو في الأصل: اسم لوسط الصدر، فلعله سمي به لغاية قوته. انظر: «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٣/ ٥٠٠).

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٤) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٧)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ١٦٠)، بلفظ: «فاضربوا الأعناق فما فوقها».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٠٨).

وهذا توبيخٌ للكفّارِ.

﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: والأمرُ أنَّ للكافرينَ ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

***

(١٥) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ أمرٌ بالصَّبرِ على القتالِ.

والزَّحفُ: الدُّنُوُّ قليلًا قليلًا، يُقالُ: زحَفَ إلى العدوِّ زحفًا، وأزحفَ القومُ؛ أي: مشَى بعضُهم إلى بعضٍ، ومنه: زِحافُ الشِّعرِ، وهو أن يسقُطَ ممَّا بينَ الحرفَينِ حرفٌ فيزحفَ أحدُهما إلى الآخرِ.

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾؛ أي: لا تنهزِمُوا.

***

(١٦) - ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قولُه: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ التَّحرُّفُ: الزَّوالُ عن جهةِ الاستواءِ، والتَّحيُّزُ: التَّنحِّي، وكذلك: التَّحوُّزُ، وأصلُه: الحوزُ، وهو الجمعُ، وتحوَّزَ وتحيَّزَ؛ أي: انضَمَّ واجتمَعَ.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يومَ لقاءِ الكفّارِ، والمُتحرِّفُ من جانبٍ إلى جانبٍ لمَكايدِ الحربِ غيرُ مُنهزمٍ، والمُتحيِّزُ إذا نوى التَّحيُّزَ إلى فئةٍ منَ المسلمينَ ليستعينَ[1] بهم فيرجعَ إلى القتالِ غيرُ مُنهزمٍ إذا نوَى، نعَم مَن انهزَمَ ولم ينوِ العودَ والاستمدادَ

---

(١) في (أ): «يستعين».

فإنْ كانَ العدوُّ أكثرَ من ضِعْفِ المسلمين فلا وعيدَ، وإنْ كانُوا ضِعْفَهم أو أقلَّ فهذا محلُّ الوعيدِ.

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ﴾؛ أي: استحقَّ الغضبَ.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ وهذا لا يدُلُّ على الخلودِ، وقد حملَ قومٌ هذا الوعيدَ على مَن انهزَمَ يومَ بدرٍ على التَّخصيصِ؛ لأنَّه قال في يومِ أُحدٍ: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقالَ في يومِ حُنَينٍ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ٢٧].

* * *

(١٧) ـ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾؛ أي: يومَ بدرٍ.

قال مُجاهدٌ: اختلفُوا يومَ بدرٍ فقال هذا: أنا قتلتُ، وقال هذا: أنا قتلتُ، فنزلَتْ هذه الآيةُ(١).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بأنْ شجَّعَ قلوبَ المُؤمنين، وأمدَّهم بالملائكةِ.

وقال البَجَليُّ: الجرحُ كانَ إليهم، وإزهاقُ الرُّوحِ إلى اللهِ(٢).

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ رَماهُم النَّبيُّ عليه السَّلامُ بقَبضةٍ من

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٢).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٥٢)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٦٨). والبجلي هو الحسين بن الفضل بن عمير أبو علي البجلي الكوفي، ثم النيسابوري. تقدمت ترجمته.

حصباءِ الوادي، وقال: «شاهَتِ الوُجوهُ»، فلم يبقَ عينُ مُشركٍ إلّا دخلَها منه شيءٌ، فهذا إشارةٌ إلى ذلك[(١)].

وقيلَ: نزلَ في حربِ أُحدٍ، قال سعيدُ بنُ المُسيّبِ عن أبيه: أقبلَ أُبيُّ بنُ خلَفٍ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ يومَ أُحدٍ فاعترَضَ له رجالٌ منَ المؤمنين، فأمرَهم رسولُ الله فخَلَّوا سبيلَه، فطعَنَه رسولُ الله بحَربتِه في فُرجةٍ بينَ البيضةِ والدِّرعِ من تَرْقُوَتِه، فسقَطَ أُبيٌّ من فرسِه، ولـم يخرُجْ من طَعنتِه دمٌ، فقال له أصحابُه وهو يخورُ خُوارَ الثَّورِ: ما أعجزَكَ! إنَّما هو خدشٌ، فقال: والذي نفسي بيدِه لو كان هذا الذي بي بأهلِ ذي المجازِ لَماتوا أجمعين، فماتَ قبلَ أن يقدَمَ مكّةَ، وفيه نزلَ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(٢)].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٨٥ـ٨٦) عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي وابن زيد، وروى نحوه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣١٢٨) عن حكيم بن حزام، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٤): «إسناده حسن».

ورواه بنحوه دون قوله: «شاهت الوجوه» الطبري في «تفسيره» (١١/ ٨٥ ـ ٨٧) عن ابن عباس والسدي وابن إسحاق، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٠٥٦) عن أبي أيوب الأنصاري، و(١١٧٥٠) عن ابن عباس. وانظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٢٥).

وروى مسلم (١٧٧٧) قوله: «شاهت الوجوه» عن سلمة بن الأكوع لكن في غزوة حنين.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٢٦٣)، وصححه، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣) بلفظ: «لما كان يوم أحد أخذ أبي بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول الله ﷺ، واعترض رجال من المسلمين لأبي بن خلف ليقتلوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «استأخروا»، فاستأخروا، فأخذ رسول الله ﷺ حربته في يده فرمى أبي بن خلف وكسر ضلعاً من أضلاعه، فرجع أبي بن خلف إلى أصحابه ثقيلاً فاحتملوه حتى ولّوا قافلين، فطفقوا يقولون: لا بأس، فقال أبيٌّ حين قالوا ذلك له: والله لو كانت بالناس لقتلتهم، ألم يقل: إني أقتلك إن شاء الله تعالى؟ فانطلق به أصحابه يتغشونه حتى مات ببعض الطريق، فدفنوه. قال ابن المسيب: وفي ذلك أنزل عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ الآية». =

وقيلَ: دَعا رسولُ الله ﷺ يومَ خيبرَ بقَوسٍ، فأُتِيَ بقوسٍ طويلةٍ، قال: جيئُوني بقوسٍ غيرِها، فجاؤُوه بقوسٍ كَبْداءَ، فرمى الحِصنَ، فأقبلَ السَّهمُ يهوي حتَّى قتلَ كنانةَ بنَ أبي الحُقيقِ وهو على فراشِه، ونزلَ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١).

ولا يبعُدُ أنَّه جرَى هذا التَّعريفُ في جميعِ هذه الأحوالِ.

وقيلَ: أي: وما رمَيتَ الرُّعبَ في قُلوبِهم إذ رمَيتَ الحصى(٢).

وقيلَ: أي: ما رمَيتَ بقُوَّتِك، بل رمَيتَ بقوَّةِ الله.

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾؛ أي: ليُنعِمَ عليهم نعمةً عُظمَى.

وقيلَ: اللَّامُ تتعلَّقُ بمحذوفٍ؛ أي: وليُبْلِيَ المُؤمنينَ فعلَ ذلك.

* * *

= وروى الطبري في «تفسيره» (١١/ ٨٧) نحوه عن الزهري.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٨): «وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جدًّا، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها لا أنها نزلت فيه خاصة».

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣) عن عبد الرحمن بن جبير، وعزاه ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٧) إلى الطبري وقال: «وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم والله أعلم».

وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «تفسير الطبري» (١٣/ ٤٤٧): «أخشى أن يكون في هذا الموضع من التفسير نقص، فإني وجدت ابن كثير قد ذكر في تفسير هذه الآية ما نسبه إلى ابن جرير».

(٢) في (أ): «الحصباء». وذكر هذا القول الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٧٣) عن أبي العباس ثعلب، ثم تعقبه بقوله: وهذا عدول عن الظاهر.

(١٨) ـ ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قُرِئَ: ﴿مُوهِنُ﴾ بالتَّخفيفِ، و﴿مُوَهِّن﴾ بالتَّشديدِ[١].

وتوهينُ كيدِهم: إلقاءُ الرُّعبِ في قلوبِهم، وإطلاعُ المؤمنينَ على عوراتِهم.

* * *

(١٩) ـ ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ ﴾ خاطبَ المُؤمنينَ؛ أي: إن سألتُم الفتحَ ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ ﴾ عن المُنازعةِ في الغنائمِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وإنْ عُدتُم إلى المُنازعةِ ﴿نَعُدْ﴾ إلى بيانِ الحكمِ فيها.

والصَّحيحُ: أنَّه خاطبَ الكفّارَ؛ فإنَّهم لـمَّا نفَرُوا لنُصرةِ العيرِ تعلَّقوا بأستارِ الكعبةِ وقالوا: اللَّهمَّ انصُرْ أهدَى الفئتَينِ وأفضلَ الدِّينَينِ.

وقال أبو جهلٍ وقتَ القتالِ: أيُّنا كان أقطعَ للرَّحمِ، وأتَى بما لا يُعرَفُ فأحِنْه الغَداةَ[٢].

---

(١) قرأ ابن عامرٍ وحمزةُ والكسائي وعاصمٌ في رواية أبي بكر مخفَّفاً منوَّناً، وابنُ كثير ونافع وأبو عمرو مشدَّداً منوَّناً، وروى حفصٌ عن عاصم مخفَّفاً مضافاً، وعلى القراءة بالتنوين (كيد) منصوبة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٧٤)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٣٦٦١)، وروى نحوه النسائي في «السنن الكبرى» (١١١٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٦٤) وصححه، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعير رضي الله عنه.

قال الأزهري في «تهذيب اللغة» (٤/ ٢٥٨): «سأل اللهَ أن يحكم بحَيْنِ مَن كان كذلك، فنصر النبيَّ ﷺ، وناله هو الحَيْنُ وأصحابَه».

وقال النَّضرُ بنُ الحارثِ: اللَّهمَّ إنْ كانَ هذا هو الحقَّ من عندِكَ فأمطِرْ علينا حجارةً منَ السَّماءِ أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ، وهو ممَّن قُتِلَ ببدرٍ[١].

والاستفتاحُ: طلبُ النَّصرِ؛ أي: قد جاءَكم الفتحُ، ولكنَّه كان للمسلمينَ عليكم.

وقيلَ: الاستِفتاحُ: الاستِقضاءُ، والفتحُ: القَضاءُ؛ أي: فقد جاءَكم ما بانَ به الأمرُ، وانكشَفَ لكم الحقُّ.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن الشِّركِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾؛ أي: إنْ تعُودوا لقتالِ محمَّدٍ نعُدْ لكم.

﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾؛ أي: جماعتُكم ﴿شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ في العددِ.

﴿وَإِنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بكسرِ الألفِ ابتداءً، وبفتحِها[٢] عطفًا على قولِه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ﴾، أو المعنَى: ولأنَّ الله مع المُؤمنينَ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أفرَدَهم بالخطابِ إجلالًا لهم.

﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ لم يقُلْ: «عنهما»؛ لأنَّ طاعةَ الرَّسولِ طاعةُ الله، وهو كقولِه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٩٩٠)، والطبري في «تفسير» (١١/ ١٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٥٤)، عن سعيد بن جبير، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسيذكر المصنف مزيد تفصيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

(٢) قرأ بفتح الهمزة نافع وابن عامر وحفص، وباقي السبعة بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٥)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

والتَّولِّي: الإعراضُ.

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾؛ أي: القرآنَ وقولَ الرَّسولِ.

وقيلَ: أي: ومعكم العقلُ والفهمُ.

والمُرادُ بالآيةِ: لا تُخالفوه أصلًا.

* * *

(٢١) ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾؛ أي: كاليهودِ.

وقيلَ: عنَى المنافقينَ.

وقيلَ: المُشركينَ؛ أي: هم بمنزلةِ مَن لم يسمَعْ؛ لأنَّهم لم يفهَمُوا.

* * *

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين لم يتدبَّروا الحقَّ شرُّ الحيواناتِ.

قولُه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾؛ أي: سبقَ علمُه بشَقاوتِهم.

﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سمْعَ تفهُّمٍ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾؛ أي: لو فهِمُوا أيضًا لَمَا آمَنُوا بعد علمِه الأزليِّ بكُفرِهم.

* * *

(٢٤) ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾؛ أي: صدَّقتُم فلا تُعرِضُوا في التَّفصيلِ عن شيءٍ ممَّا يأمرُ به. والاستِجابةُ: الإجابةُ.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ ﴾؛ أي: الرَّسولُ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ يعني: الإيمانَ، وفيه حياةُ القلوبِ.

وقيلَ: يعني: القرآنَ.

وقيلَ: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ هو الجهادُ؛ فإنَّه سببُ الحياةِ في الظَّاهرِ؛ لأنَّ العدوَّ إذا لم يُغزَ غَزا، وفيه الحياةُ الأبديَّةُ في النَّعيمِ.

وقيلَ: أي: إذا دَعاكُم للجنَّةِ، قال الله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقولُه: ﴿لِمَا ﴾؛ أي: إلى ما يُحييكُم.

وكانَ بُريدةُ يُصلِّي فدَعاه رسولُ الله ﷺ فأخَّرَ الإجابةَ إلى أن خرجَ منَ الصَّلاةِ، فقال عليه السَّلامُ: «ألَا أجَبْتَني»، فقال: كنتُ في الصَّلاةِ، فقالَ: «ألا تسمعُ الله يقولُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾»[1]، فدلَّ هذا على أنَّ الآيةَ على التَّعميمِ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ القلبُ: موضِعُ الفِكرِ، والقلبُ بيدِ الله، متى شاءَ حالَ بينَ العبدِ وبينَه بمرضٍ أو آفةٍ كيلا يعقِلَ؛ أي: بادِرُوا إلى الاستجابةِ قبلَ أن لا تتمكَّنوا منها بزوالِ العقلِ.

---

(١) لم أجده من حديث بريدة رضي الله عنه، وروي عن رجلين من الصحابة غيره:

الأول: أبو سعيد بن المعلى رضي الله عنه؛ رواه البخاري (٤٤٧٤).

والثاني: أبي بن كعب رضي الله عنه؛ رواه الترمذي (٢٨٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حسن صحيح.

وقال السُّدِّيُّ: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يستطيعُ أن يُؤمِنَ إلّا بإذنِه، ولا يكفرُ أيضًا إلّا بإذنِه[1]؛ أي: بمشيئَتِه.

وقيلَ: يحولُ بينَ المرءِ وبينَ ما يتمنَّاه بقلبِه من طولِ البقاءِ، والغرضُ: تركُ تسويفِ التَّوبةِ.

وقيلَ: خافَ المسلمونَ يومَ بدرٍ كثرةَ العدوِّ، فقال: الله يُبدِّلُ في قلوبِكم الخوفَ بالأمنِ، وفي قلوبِ الأعداءِ الأمنَ بالخوفِ.

* * *

(٢٥) ـ ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

قولُه: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً ﴾ الفِتنةُ: البليَّةُ، وأصلُها: الاختبارُ، ومقصودُ الآيةِ: واتَّقوا فتنةً تتعدَّى الظّالـمَ فتُصيبُ الصَّالحَ والطَّالحَ؛ أي: لا تُقرِّرُوا المُنكرَ بين أظهُرِكم فيعُمَّكم الله بالعذابِ.

قال الفرَّاءُ: هو كقولِكَ: «انزِلْ عنِ الدّابَّةِ لا تطرَحنَّكَ»، فهو جوابُ الأمرِ بلفظِ النَّهيِ؛ أي: إنْ تنزِلْ عنها لا تطرَحنَّكَ، ومثلُه: ﴿ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ﴾ [النمل: ١٨]؛ أي: إنْ تدخُلوا لا يحطِمَنَّكم[2].

وقيلَ: هو أمرٌ باتِّقاءِ فتنةٍ تُصيبُ الظّالـمَ على الخصوصِ.

وقال السُّدِّيُّ: نزلَتْ في أهلِ بدرٍ خاصَّةً، وأصابَتْهم الفتنةُ يومَ الجملِ فاقتَتَلُوا[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٦٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٠٧)، و«البسيط» للواحدي (١٠/ ٩٥ ـ ٩٦) وعنه نقل المصنف.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٦٦).

وقد قال الحسنُ: نزلَتْ في عليٍّ وعمّارٍ وطلحةَ والزُّبيرِ[١]، حتَّى قال الزُّبيرُ: لقد قرأناها زمانًا ولا ندري أنّا المعنيُّونَ بها[٢].

فكأنَّه قال: اتَّقوا فتنةً، ثمَّ قال: لا تُصيبَنَّ الظَّالمينَ هذه الفتنةُ، كقولِه: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أمرَتْهم بالدُّخولِ ثمَّ نهَتْهُم أن يحطِمَهم سليمانُ، فلفظُ النَّهيِ لسليمانَ ومعناه للنَّملِ، كما تقولُ: «لا أرينَّكَ هاهُنا»، لفظُ النَّهيِ لنفسِكَ، والمعنى: لا تكونَنَّ هاهُنا.

وقال الجرجانيُّ[٣]: اتَّقوا فتنةً تُصيبُ الذين ظلَمُوا خاصَّةً، فقولُه: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ نهيٌ في موضعِ وصفِ النَّكرةِ، وتأويلُه: الإخبارُ بإصابتِها الذين ظلَمُوا.

وفي قراءةِ عبدِ الله: (واتَّقُوا فتنةً أن تُصيبَ الذين ظلَمُوا)[٤].

ثمَّ؛ قيلَ: هذا إشارةٌ إلى فتنةٍ تُصيبُهم في الدُّنيا.

وقيلَ: إلى عذابِ الآخرةِ.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١٣).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤١٤)، والبزار في «مسنده» (٩٧٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧): «رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح».

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (١٠/ ١٠١). والجرجاني هو أبو علي الحسن بن يحيى الجرجاني صاحب «نظم القرآن»، وكلامه مُتعقَّبٌ بقول النبي ﷺ لما سئل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث». رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠)، من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٤) انظر: «البسيط» (١٠/ ١٠١)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٦). وقد ذكرها الواحدي تأييداً لكلام الجرجاني السابق.

(٢٦) - ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ قال الكلبيُّ: نزلَتْ في المُهاجرينَ[1]؛ يعني: حالَـهم قبلَ الهجرةِ وفي ابتداءِ الإسلامِ.

﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أرضِ مكّةَ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾؛ أي: إذا خرَجْتُم منها.

والنَّاسُ: العربُ، أو كفَّارُ قُريشٍ، أو فارسُ والرُّومُ.

﴿فَآوَاكُمْ﴾؛ أي: جعَلَ لكم مأوًى.

قال ابنُ عبَّاسٍ: أي: ضمَّكم إلى الأنصارِ فآواكُم إلى المدينةِ[2].

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾؛ أي: بقُوَّتِه، وقيلَ: بالأنصارِ. وقيلَ: بالملائكةِ يومَ بدرٍ.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: الغنائمِ.

***

(٢٧) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُـه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ نزلَـتْ فـي أبـي لُبابـةَ بـنِ عبـدِ المُنـذرِ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٠٣)، وبه فسر الآية مقاتل في «تفسيره» (٢/ ١٠٨)، والفراء في «معاني القرآن» (١/ ٤٠٧). وقد اقتصر المصنف على هذا القول، وفي الآية أقوال غيره ذكرها المفسرون، فقيل: الخطاب لأهل بدر، وقيل: للعرب عامة. انظر: «تفسير الطبري» (١١/ ١١٨)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٦).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٠٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٣) عن السدي.

الأنصارِيِّ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ حاصرَ يهودَ قُريظةَ فسألوا الصُّلحَ على ما صالحَ عليه بنو النَّضيرِ، على أن يسيروا إلى أرضِ أريحا من الشّامِ، فأبَى إلّا أن ينزلُوا على حكمِ سعدِ بنِ مُعاذٍ، فأبَوا وقالوا: أرسِلْ إلينا أبا لُبابةَ، وكان مُناصِحًا لهم؛ لأنَّ مالَه وعيالَه وولدَه كانت عندَهم، فبعثَه رسولُ الله فقالوا: ما ترَى؟ أننزِلُ على حُكمِ سعدٍ؟ فأشارَ أبو لُبابةَ بيدِه إلى حلقِه؛ أي: إنَّه الذَّبحُ فلا تفعَلُوا.

وقال أبو لُبابةَ: والله ما زالَتْ قدَمايَ حتَّى علِمْتُ أنِّي قد خُنْتُ الله ورسولَه، فنزلَتْ هذه الآيةُ، ثمَّ شدَّ أبو لُبابةَ نفسَه على ساريةٍ في المسجدِ وقالَ: والله لا أذوقُ طعامًا ولا شرابًا حتَّى أموتَ أو يتوبَ الله عليَّ، فمكثَ سبعةَ أيّامٍ حتَّى خرَّ مغشيًّا عليه، ثمَّ تابَ الله عليه، فبُشِّرَ به، فقالَ: لا والله، لا أحُلُّ نفسي حتَّى يكونَ رسولُ الله هو الذي يَحلُّني، فجاءَه فحلَّه بيدِه، فقال أبو لُبابةَ: من تمامِ توبَتي أنْ أهجُرَ دارَ قومي التي أصَبْتُ فيها الذَّنبَ، وأن أنخَلِعَ من مالي، فقال النَّبيُّ عليه السَّلامُ: «يُجزِئُكَ الثُّلثُ أن تتصدَّقَ به»[1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢١) عن الزهري، ورواه عبد بن حميد عن الكلبي كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤٨). ورواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٩٨٧) عن عبد الله بن أبي قتادة، و(٩٨٨) عن الزهري مختصراً.

وذكره مطولاً ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨)، ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٥) من طريق ابن إسحاق عن أبيه عن معبد بن كعب بن مالك، ثم قال: هكذا قال ابن إسحاقَ بإسناده، وزعَم سعيدُ بن المسيِّب أن ارتباطه بسارية التوبة كان بعد تَخلُّفه عن غزوةِ تبوكَ، حين أَعْرَض عنه رسولُ الله ﷺ وهو عليه عاتبٌ بما فَعل يومَ قريظةَ، ثُم تَخلَّف عن غزوة تبوكَ فيمَن تَخلَّف، والله أعلم. وفي رواية عليِّ بن أبي طلحةَ، وعطيَّةَ بنِ سعد، عن ابن عباس في ارتباطه حين تَخلَّف عن غزوة تبوكَ ما يؤكِّد قولَ ابن المسيِّب. اهـ. وروايتا علي بن أبي طلحة وعطية عن ابن عباس رواهما الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥١ ـ ٦٥٢). وأبو لبابة مختلف في اسمه، فقيل: مروان، وقيل: بشير، وقيل غير ذلك. انظر ترجمته في «الإصابة» في الكنى.

وقيلَ: نزلَتِ الآيةُ في أنَّهم كانُوا يسمَعُونَ الشَّيءَ منَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ فيُلقُونَه إلى المُشركين ويُفشُونَه، فنُهُوا عن ذلك(١).

وقيلَ: نزلَتْ في مُجادلتِهم في المغانمِ يومَ بدرٍ، وكراهةِ بعضِهم للخروجِ والقتالِ(٢).

والخيانةُ: الغَدرُ وإخفاءُ الشَّيءِ، ومنه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ جزمٌ على النَّهيِ.

وقيلَ: هو نصبٌ على الصرفِ(٣) مثلَ: «لا تأكلِ السَّمكَ وتشربَ اللَّبنَ».

والأماناتُ: الأعمالُ التي ائتَمَنَ الله عليها العبادَ.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّها أمانةٌ، أو: تعلمونَ أنَّ الإشارةَ إلى الخَلْقِ خيانةٌ لله ورسولِه.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٢٣) عن السدي.

(٢) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» (٧/ ١٨١).

(٣) في (ف): «الظرف»، والصواب المثبت، قال الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٣٣): فإن قلت: وما الصرف؟ قلت: أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عطف عليها، فإذا كان كذلك فهو الصرف.

وشرحه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٩٢) بقوله: أن يجتمع فعلان ببعض حروف النسق، وفي أوله ما لا يحسن إعادته مع حرف النسق، فينصب الذي بعد حرف العطف على الصرف؛ لأنه مصروف عن معنى الأول، ولكن يكون مع جحد أو استفهام أو نهي في أول الكلام، وذلك كقولهم: «لا يَسَعُني شيء ويضيقَ عنك»؛ لأن «لا» التي مع «يسعني» لا يحسن إعادتها مع قوله: «ويضيق عنك»، فلذلك نصب.

(٢٨) ـ ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ كانَ لأبي لُبابةَ أموالٌ وأولادٌ فيما بينَ بني قُريظةَ، وهو الذي حملَه على مُلايَنَتِهم، فهذا إشارةٌ إلى ذلك.

﴿فِتْنَةٌ﴾؛ أي: اختبارٌ امتُحِنتُم بها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فآثِرُوا حقَّه على المالِ والولدِ.

* * *

(٢٩) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾؛ أي: إنْ آثرتُم أمرَه ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾؛ أي: بيانًا ومخرجًا منَ الشُّبُهاتِ.

وقيلَ: نجاةً في الآخرةِ، وكانَ الله عالِمًا بأنَّهم يتَّقون أم لا يتَّقون، فذُكِرَ بلفظِ الشَّرطِ لأنَّه خاطبَ العبادَ بما يُخاطِبُ به بعضُهم بعضًا، وهذا معنى الامتحانِ والفتنةِ والابتلاءِ في القرآنِ، وهكذا قولُه: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، و﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

* * *

(٣٠) ـ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بيَّنَ أنَّهم أرادُوا قتلَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وهذا تحريكٌ على الجهادِ، فالمكرُ: التَّدبيرُ في الأمرِ خُفيةً، وذلك أنَّهم تآمَرُوا، فقال قومٌ: نحبِسُه، ثمَّ قالوا: لا يُخلِّيه قومُه في الحبسِ، وقال قومٌ: نَنفيه، فقيلَ:

إنَّـه يستَنزِلُ النّـاسَ ويجتمِـعُ عليـه قـومٌ، فدخـلَ عليهـم إبليـسُ فـي صورةِ شـيخٍ، وقـال: أنـا من أهـلِ نجـدٍ، رأَيتُكم حسـنةً وجوهُكـم طيِّبـةً رائحتُكم، فدخلـتُ أنظرُ إلـى رأيِكـم، فذَكَروا مـا رأَوا.

وقال أبو جهلٍ: نجمعُ من كلِّ حيٍّ قومٌ، ويقتُلونَه، فيفتَرِقُ دمُه في القبائلِ، ونُعطي ديتَه، ولا يتمكَّنُ قومُه من قتلِ جميعِ قُريشٍ، فقال إبليسُ: الرَّأيُ ما رأى الفَتى، وتفرَّقُوا على ذلك، وأخبرَ الله نبيَّه فخرجَ إلى الغارِ، وبيَّتَ عليًّا مكانَه، وأخبرَه أنَّه لا يُصيبُه منهم آفةٌ؛ ليرُدَّ الودائعَ التي كانت عندَ رسولِ الله، وكان يُودِعُ الودائعَ عندَه، وعُرِفَ بالأمينِ[1].

﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾؛ أي: ليَحبِسُوكَ، فلا تقدرُ على الحركةِ.

وقيلَ: أي: ليُثبِتُوكَ في بيتٍ، فحُذِفَ المحلُّ.

﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ بأجمَعِهم ﴿أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ من مكّةَ.

﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ المكرُ منَ الله: جزاؤُهم على مكرِهم، وذلك أنَّه أهلَكَ أولئك القومَ.

* * *

---

(١) ذكره مطولاً الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٧٧) عن ابن عباس وغيره من المفسرين، ورواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٨٠) وما بعدها ـ فقال: حدثني مَن لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبر وغيره ممن لا أتهم، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فذكره.

ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٨٨)، من طريق ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، دون قوله: «وبيَّت عليًّا...».

(٣١) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ نزلَتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ، كان خرجَ إلى الحيرةِ في التِّجارةِ فاشترى أحاديثَ «كليلةَ ودِمْنَةَ»، وكان يقصدُ فيما بين قُريشٍ ويقرأُ عليهم أحاديثَ كِسرَى وقيصرَ، وأخبارَ «كليلةَ ودِمْنَةَ»، فلمَّا قصَّ رسولُ الله ﷺ أخبارَ مَن مضى قال النَّضرُ: لو شئتُ لقُلتُ مثلَ هذا[1].

وكانَ هذا وقاحةً وكذبًا؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ تحدَّاهم في سنينَ كثيرةٍ، فطلبَ منهم مُعارضةَ سورةٍ واحدةٍ فما قَدَروا، واشتَغَلوا بالقتالِ، وكانَتِ الدَّبْرَةُ عليهم في أغلبِ الأحوالِ، فعلِمَ كلُّ عاقلٍ عجزَهم عن مُعارضتِه.

***

(٣٢) ـ ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ قالَه النَّضرُ بنُ الحارثِ[2].

وقيلَ: قالَه أبو جهلٍ[3].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٨٤) مطولًا عن ابن عباس، ورواه الطبري بنحوه في «تفسيره» (١١/ ١٤٢) عن ابن جريج والسدي. وورد في «تفسير مقاتل» (٢/ ١١٢ ـ ١١٣).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٩٩٠)، والطبري في «تفسير» (١١/ ١٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٥٤)، عن سعيد بن جبير، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٤٦٤٨)، ومسلم (٢٧٩٦)، عن أنس رضي الله عنه. قال ابن حجر في «فتح الباري» =

ثمَّ يجوزُ أن يُقالَ: قالوا هذا لشُبهةٍ كانت في صدورِهم.

ويجوزُ أن يُقالَ: قالوه عِنادًا وإيهامًا للنّاسِ أنَّهم على بصيرةٍ، ثمَّ حلَّ بهم يومَ بدرٍ ما سألوا، وكان النَّضرُ بنُ الحارثِ ممَّن قُتِلَ ذلك اليومَ صبرًا.

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يُقالُ: مطَرَتْنا السَّماءُ وأمطَرَتْنا، بمعنًى واحدٍ.

وقال أبو عُبيدةَ: ما كانَ منَ العذابِ يُقالُ فيه: «أمطَرَ»، وما كانَ منَ الرَّحمةِ يُقالُ فيه: «مَطَرَ»[1].

وأمثالُ هذا منَ التَّحكُّمِ، إلّا أن يستَنِدَ إلى توقيفٍ، أو عُرفٍ مُطَّرِدٍ.

* * *

(٣٣) ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أخبرَ أنَّه لا يُعذِّبُ أمَّةَ العذابَ

= (٨/ ٣٠٩): قوله: قال أبو جهل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا...﴾ إلخ ظاهر في أنه القائل ذلك، وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة، فلعله بدأ به ورضي الباقون فنسب إليهم. وقد روى الطبراني من طريق ابن عباس أن القائل ذلك هو النضر بن الحارث، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، وكذا قال مجاهد وعطاء والسدي، ولا ينافي ذلك ما في الصحيح لاحتمال أن يكونا قالاه، ولكن نسبته إلى أبي جهل أولى. وعن قتادة قال: قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها. وروى ابن جرير من طريق يزيد بن رومان أنهم قالوا ذلك، ثم لما أمسوا ندموا فقالوا: غفرانك اللهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (١/ ٢٤٥)، ونقله عنه ابن قتيبة في «أدب الكاتب» (ص: ٣٥٠)، ثم قال: «وغيره يجيز: مطرنا وأمطرنا في كل شيء».

العامَّ ونبيُّها فيهم، قال ابنُ عبَّاسٍ: لـم يُعذِّبْ أهلَ قريةٍ حتَّى يخرُجَ النَّبيُّ منها والمُؤمنونَ فيلحقُوا بحيثُ أُمِرُوا[١].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ أي: وفيهم المُؤمنونَ يستَغفِرون.

قـال ابـنُ عبَّـاسٍ: أي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ﴾؛ أي: المُؤمنـونَ منهـم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٢].

وقال مجاهدٌ: أي: وفي أصلابِهم مَن يستغفِرُ[٣]، فوُصِفُوا بصفةِ أولادِهم.

وقال قتادةُ: وما كانَ مُعذِّبَهم لو استغفَروا؛ لأنَّهم إذا استغفَروا كانوا مُؤمنين[٤]، ولهذا قيلَ: الاستِغفارُ هاهُنا: الإسلامُ[٥].

وقيلَ: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ أي: فيهم مَن سبقَ علمُ الله بأنَّه يُؤمنُ، كأبي سفيانَ بنِ حربٍ، وأبي سفيانَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ، وحكيمِ بنِ حزامٍ، وغيرِهم[٦].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤٦٤)، بلفظ: «ما كان الله سبحانه يعذب قومًا وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٠ ـ ١٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٢).

(٣) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ١٥١)، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٥٣)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٢٥).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٣)، وذكره النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤٦٧) عن قتادة والسدي وابن زيد، ورجحه فقال: «هذا أبين ما قيل في الآية، ولا تعسف فيه؛ كما تقول: لا أسيء إليك وأنت تحسن إليَّ؛ أي: لو أحسنت إلي ما أسأت إليك، فيكون المعنى: وما كان الله معذبهم وهذه حالهم؛ أي: لو استغفروا من الكفر وتابوا».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٤) قولًا عن عكرمة ومجاهد.

(٦) انظر: «البسيط» للواحدي (١٠/ ١٢٦).

والمُرادُ بهذا العذابِ: عذابُ الاستِئصالِ في الدُّنيا.

***

(٣٤) - ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ولِمَ لا يُعذِّبُهم الله وصنيعُهم كذا وكذا؟!

قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ: مَن أصرَّ على الشِّركِ حتَّى قُتِلَ ببدرٍ، أو ماتوا[١]، فلا يدخُلُ فيهم مَن تناوَلَه قولُه: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

ثمَّ هذا العذابُ لحِقَهم يومَ بدرٍ أو يومَ فتحِ مكّةَ.

وعند ابنِ عبّاسٍ: هو عذابُ الآخرةِ، والذي في الآيةِ الأولى عذابُ الدُّنيا[٢].

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: يصُدُّونَ المُؤمنينَ والنَّبيَّ عليه السَّلامُ منَ الطَّوافِ ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾؛ أي: أولياءَ المسجدِ الحرامِ، بل أولياؤُه المُتَّقونَ الذين اتَّقوا الشِّركَ.

وقيلَ: لا يُعذِّبُهم عذابَ الاستئصالِ، فأمَّا هذا فهو العذابُ بالسَّيفِ والجهادِ.

وقيلَ: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾؛ أي: أولياءَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

وقيلَ: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾؛ أي: أولياءَ الله.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلَمونَ ما سبَقَ به القضاءُ، أو: لا يتأمَّلون ليدفَعُوا الحقَّ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٢٩) من رواية عطاء عن ابن عباس، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩٠٣٧).

ثمَّ، قال قومٌ: نَسَخَتْ هذه الآيةُ الآيةَ الأولى[١]. **وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنَّ النَّسخَ في الأمرِ والنَّهي**

وقال الزَّجَّاجُ: أي: لا يُعذِّبُهم وهم يستغفِرون، وإنْ كانوا مُستَحقِّين للعقابِ بصدِّهم المؤمنينَ عن المسجدِ الحرامِ واتِّباعِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، ولو أرادَ الله بهم خيرًا لَـمَا فعَلُوا ذلك[٢].

وقيلَ: المعنى: لا أُعذِّبُهم وأنت فيـهم، ولا أُعذِّبُهم حتَّى يُؤمِنَ منهم ومن أولادِهم مَن علمتُ أنَّه يُؤمنُ، فإذا لـم يبقَ أحدٌ أعلَمُ أنَّه يُؤمنُ فحينئذٍ أُعذِّبُهم بصدِّهم عن المسجدِ الحرامِ.

وقيلَ: ما عُذِّبَ قريشٌ حتَّى خرجَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ إلى المدينةِ، وحتَّى هاجرَ من مكَّةَ منَ المسلمينَ، فالآيةُ تُشيرُ إلى هذا.

* * *

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٧) عن الحسن وعكرمة القول بالنسخ، وذكر النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤٦٥) عن الحسن قوله: نسخ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قولُه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾. ثم رده بأن النسخ هاهنا محال لأنه خبرٌ خبَّر الله تعالى به، قال: ولا نعلم أحداً روي عنه هذا إلا الحسن، وسائر العلماء على أنها محكمة.

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (١٠/ ١٢٩)، وهذا كما ذكر الواحدي هو معنى كلام الزجاج كما فهمه منه الواحدي، أما عبارة الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٤١٢) فهي: «﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ أي: وما كان الله ليعذبهم ومنهم من يؤول أمره إلى الإسلام ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ المعنى: أي شيء لهم في ترك العذاب، أي: في دفعه عنهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ المعنى: وهم يصدون عن المسجد الحرام أولياءَه وما كانوا أولياءه ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المعنى: ما أولياؤه إلا المتقون، فأعلم الله النبي ـ ﷺ ـ أنَّه لم يكن ليعذِبَهم بالعذاب الذي وقع بهم من القتل والسبي وهو بيْن أظهُرِهم، ولا لِيُوقع ذلك العذاب بمن يؤول أمْرُه إلى الإسلام منهم».

(٣٥) ـ ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾؛ أي: ليسُوا أولياءَ المسجدِ والقائمينَ بحفظِهِ، وليست صلاتُهم بما يُعتَدُّ به.

والمُكاءُ: الصَّفيرُ، يُقالُ: مَكا يمكُو مَكْوًا ومُكاءً: إذا جمعَ يدَيه ثمَّ صفَّرَ فيهما.

والتَّصدِيةُ: التَّصفيقُ، يُقالُ: صَدَّى يُصَدِّي؛ أي: صَفَّقَ، وأصلُه: الصَّدَى، وهو الصَّوتُ الذي يرُدُّه الجبلُ عليكَ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: كانت قريشٌ تطوفُ بالبيتِ عُراةً، يُصفِّرون ويُصفِّقُون، فكانَ ذلك عبادةً في ظنِّهم[1].

وقال قومٌ: كانوا يُعارِضُونَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ في الطَّوافِ استِهزاءً به، وتخليطًا عليه في صلاتِه وطوافِه؛ أي: إنَّهم جعلُوا ذلك بدَلًا منَ الصَّلاةِ، وهو كقولِك: «ما عيبُه إلَّا السَّخاءُ»؛ أي: لا عيبَ له، وكذا: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ... إِلَّا مُكَآءً ﴾؛ أي: لا صلاةَ لهم.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ هو أمرُ إخبار؛ أي: فذاقُوا العذابَ يومَ بدرٍ.

وقيلَ: يُقالُ لهم غدًا: ذُوقُوا العذابَ.

وقيلَ: قالتِ الملائكةُ لهم يومَ بدرٍ: ذُوقُوا العذابَ.

* * *

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٦).

(٣٦) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ ذكرَ من مَقابِحِهم أيضًا: إنفاقَهم المالَ عند الخروجِ إلى حربِ أُحدٍ، وإلى العيرِ، فإنَّهم صرَفُوا ما كانَ في العيرِ إلى القتالِ أيضًا.

قال مُقاتلٌ والكلبيُّ: نزلَتْ في المُطعِمينَ يومَ بدرٍ، وكانُوا اثنَي عشرَ رجلًا من قريشٍ، كان ينحرُ كلَّ يومٍ واحدٌ منهم عَشْرَ جُزُرٍ على البدلِ(١).

وقيلَ: استأجرَ أبو سُفيانَ يومَ أُحدٍ ألفَينِ منَ الأحابيشِ في قتالِ المسلمين سِوَى مَن استجاشَ منَ العربِ(٢).

وقيلَ: أنفقَ أبو سفيانَ على المُشركينَ أربعينَ ألفَ أوقيّةٍ يومَ أُحدٍ(٣).

﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن إظهارِ الإسلامِ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾؛ أي: تذهبُ الأموالُ وينهزِمُونَ ويُقتَلونَ ويُظهِرُ الله الإسلامَ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ خصَّ الكفّارَ لأنَّه كان في القومِ مَن أسلَمَ.

***

(١) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٩٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٣٦)، وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١١٤)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٦٤ ـ ٦٦٦)، و«المغازي» للواقدي (١/ ١٤٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٧٠ ـ ١٧١) عن سعيد بن جبير وابن أبزى، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٧) عن سعيد بن جبير.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٧)، عن الحكم بن عتيبة.

(٣٧) - ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾؛ أي: الكافرَ منَ المُؤمنِ؛ أي: يميزُ غدًا للملائكةِ ولأوليائِه مَن سبقَتْ له السَّعادةُ ممَّن سبقَتْ له الشَّقاوةُ إذا حُشِرَ الكفّارُ إلى جهنَّمَ، ويجعلُ الخبيثَ بعضَه على بعضٍ؛ أي: يُلحقُ بعضَهم ببعضٍ في جهنَّمَ.

والرَّكْمُ: جمعُكَ شيئًا فوقَ شيءٍ كرُكامِ الرَّملِ والسَّحابِ.

وقيلَ: أي: أخَّرَ عذابَ كفَّارِ هذه الأمَّةِ إلى يومِ القيامةِ ليستخرِجَ المُؤمنينَ من أصلابِ الكافرينَ. فهذا هو التَّمييزُ في هذه الآيةِ.

وقيلَ: الخبيثُ: نفقةُ الكافرِ على عداوةِ الإسلامِ، والطَّيِّبُ: نفقةُ المُؤمنِ في الجهادِ؛ أي: يَميزُ العملَ الخبيثَ منَ العملِ الطَّيِّبِ، فيُثيبُ على هذا النّارَ وعلى ذلك الجنّةَ، فيجعلُ نفقاتِ الكفّارِ في قعرِ جهنَّمٍ، ويُقالُ لهم: الحقُوا بها، وإنَّما تُلقَى أموالُـهم في النّارِ ليُعذَّبوا بها كما قال: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ٣٥].

وقيلَ: الخبيثُ: أعمالُهم الخبيثةُ تُجمَعُ معهم في جهنَّمَ؛ أي: يُطوَّقُونَ أعمالَهم.

قُرِئَ ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ﴾ بالتَّشديدِ والتَّخفيفِ[١]، يُقالُ: مِزْتُه ومَيَّزْتُه، فهما لغتانِ.

وقيلَ: التَّشديدُ للمُبالغةِ.

* * *

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بالتشديد، وباقي السبعة بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ٩٢).

(٣٨) ـ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ ﴾ أمَرَه أن يُنذِرَ بقايا قُريشٍ: إن ينتَهوا عن تكذيبِكَ وعن الشِّركِ بي ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾؛ أي: تقدَّمَ، يُقالُ: سلَفَ يسلُفُ سُلُوفًا، وأسلَفَ في الشَّيءِ؛ أي: قدَّمَ الثَّمنَ، ومنه: «السّالفةُ» للعُنُقِ؛ لتقدُّمِها على البدنِ، والسُّلافةُ: الصَّافيةُ منَ الخمرِ؛ لتقدُّمِها بالتَّحلُّبِ من غيرِ عصرٍ.

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾؛ أي: إلى التَّكذيبِ ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ في التَّعذيبِ.

* * *

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

قولُه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾؛ أي: واظِبُوا على قتالِـهم حتَّى لا يبقَى مُشركٌ وشِركٌ يَفْتِنُ المؤمنَ عنِ الدِّينِ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؛ أي: الدِّينُ الحنيفيُّ الذي بُعِثَ به رسولُه عليه السَّلامُ.

وقيلَ: حتَّى يكونَ الدِّينُ كلُّه لله في جزيرةِ العربِ. والصَّحيحُ التَّعميمُ.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾؛ أي: عن الشِّركِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ يتقبَّلُ منهم الإيمانَ.

﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ أي: عـن الإيمـانِ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾؛ أي: ناصِرُكم أيُّها المُؤمنونَ.

* * *

(٤١) ـ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وصلَ بالأمرِ بالقتالِ حكمَ المغانمِ، وهو ما استقرَّ عليه أمرُ الغنائمِ، والغُنْمُ: الفوزُ بالشَّيءِ، وهو في الشَّرعِ: ما حصلَ في أيدينا من أموالِ الكفّارِ بإيجافِ خيلٍ ورِكابٍ، وأُخِذَ قَهرًا.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ بالنَّصبِ ردًّا على قولِه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا﴾، وأربعةُ أخماسِ الغنيمةِ للغانِمين؛ للفارسِ ثلاثةُ أسهُمٍ عندَ الشّافعيِّ، وللرَّاجلِ سهمٌ، وإنْ حضرَ صبيٌّ أو عبدٌ أو امرأةٌ بإذنِ الإمامِ فلهم الرَّضْخُ[1]، والظّاهرُ أنَّه من رأسِ المغنَمِ، وأمَّا الخمُسُ فكانَ لرسولِ الله؛ أي: هو المُعيَّنُ لوُجوهِ القُرَبِ، وكلُّ شيءٍ فللَّهِ ملكًا، ولكن أُضيفَ الخمسُ إلى الله والرَّسولِ، والمُرادُ: أنَّه للرَّسولِ، وفي الخبرِ: «ما لي مـمَّا أفاءَ الله عليكم إلّا الخمُسُ، والخمُسُ مردودٌ فيكم»[2]، فبانَ أنَّ سهمَ الله وسهمَ الرَّسولِ واحدٌ.

وجعَلَ رسولُ الله خمُسَ الخمُسِ لنفسِه، وخمُسًا لذَوي القُربى: بني هاشمٍ، وبني المُطَّلبِ لغنيِّهم وفقيرِهم؛ لأنَّ قرابَتَهم منَ النَّبيِّ ﷺ لا تختلفُ بالفقرِ والغِنى، وخمُسًا لليتامى، وهم الذين لا آباءَ لهم، ويُعتبَرُ الفقرُ؛ لأنَّ هذا قامَ لهم مقامَ الأبِ، والأبُ إنَّما يُنفِقُ على الولدِ إذا كان فقيرًا، وخمُسًا للمساكينِ، وهم الذين لا كَسْبَ

(١) الرضخ: العطاء ليس بالكثير. انظر: «الصحاح» (مادة: رضخ).

(٢) رواه أبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي (٤١٣٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ورواه أبو داود (٢٧٥٥) عن عمرو بن عبسة، ورواه النسائي (٤١٣٨) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنهم. وحَسَّن ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٢٤١) إسناد حديث ابن عمرو وحديث عبادة.

لهم، أو لهم كَسْبٌ لا يفي بكفايتِهم، وخمُسًا لابنِ السَّبيلِ، وهو عابرُ السَّبيلِ إذا كان مُحتاجًا.

ثمَّ كانَ رسولُ الله ﷺ يصرِفُ سهمَه إلى كفايتِه لنفسِه وعيالِه، فما فَضَلَ إلى مصالحِ الأمَّةِ، ثمَّ الآنَ ما كانَ له عليه السَّلامُ يُصرَفُ في مصالحِ المُسلمينَ.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ يتعلَّقُ هذا بقولِه: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ إنْ كنتُم شاهدتُم من نصرِه ما شاهدْتُم، أو: اعلَمُوا أنَّما غنِمتُم من شيءٍ فأنَّ لله خمسَه إنْ كنتُم آمنتُم بالله ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾؛ أي: اليومَ الذي فرَّقْتُ فيه بينَ الحقِّ والباطلِ، وهو يومُ بدرٍ ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾: حزبُ الله وحزبُ الشَّيطانِ.

* * *

(٤٢) - ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: أنزَلْنا إذ أنتُم على هذه الصِّفةِ، أو: اذكُروا إذ أنتُم كذا.

والعُدْوةُ والعِدْوةُ: جانبُ الوادي، وقُرِئَ بهما(١).

و﴿الدُّنْيَا﴾: تأنيثُ الأدنَى، وهي من: «دَنا يدنُو».

و﴿الْقُصْوَىٰ﴾: تأنيثُ الأقصَى من: «قصَا يقصُو».

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر العين، وباقي السبعة بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ١١٦). وقرئ أيضًا في الشاذ بفتح العين فنسبت إلى الحسن وزيد بن علي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥)، و«المحتسب» (١/ ٢٨٠)، و«البحر المحيط» (١١/ ١١٤).

وما كانَ منَ النُّعوتِ مثلَ «العُليا» و«الدُّنيا» [فإنَّه يَأْتِي] مضمومَ الأوَّلِ وبالياءِ؛ لاستِثقالِ الواوِ مع ضمَّةِ أوَّلِه، [وليس فيه اختلافٌ] غيرَ أنَّ أهلَ الحجازِ قالُوا: «قُصوَى» بالواوِ [وهو نادرٌ، أخرجوهُ على القياسِ إذ سَكَن ما قبلَ الواوِ، وتميمٌ] وغيرُهم يقولُ: «القُصيا»، وجاءَ في بعضِ اللُّغاتِ: «الفُتْوَى» في «الفُتيا»[1].

﴿إِذْ أَنتُم﴾ نزولٌ بشفيرِ الوادي بالجانبِ الأدنَى إلى المدينةِ، وعدوُّكم بالجانبِ الأقصَى.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ الرَّكبُ: أصحابُ الإبلِ؛ يعني: أصحابَ العيرِ، كانوا في موضعٍ أسفلَ منهم إلى ساحلِ البحرِ.

﴿أَسْفَلَ﴾: أي: مكانًا أسفلَ.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ﴾ لكثرَتِهم وقلَّتِكُم؛ فإنَّكم لو عرفتُم كثرتَهم لتأخَّرتُم عنهم ﴿وَلَـٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾؛ أي: ولكنْ جمعَكم الله ليقضيَ أمرًا ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ وهو عزُّ الإسلامِ.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾؛ أي: فعلَ ذلك ليقضيَ أمرًا كانَ مفعولًا ليهلِكَ مَن هلَكَ ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ والهلاكُ: الكفرُ، والحياةُ: الإيمانُ؛ أي: ليكونَ المؤمنُ على بصيرةٍ، ولتقومَ الحجّةُ على الكافرِ.

وقيلَ: عنَى بالهلاكِ الموتَ.

قُرِئَ ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ﴾ بياءَينِ، وبياءٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ[2].

---

(١) انظر: «البسيط» (١٠/ ١٦٧)، وما بين معكوفتين منه، وقد نقل بعضه عن ابن السكيت والبعض الآخر عن الخليل مع شيء من التصرف. وانظر: «العين» (مادة: قصو) (٥/ ١٨٧).

(٢) قرأ نافع والبزي وأبي بكر: ﴿حَيِيَ﴾ بياءين الأولى مكسورة والثانية مفتوحة، وباقي السبعة: ﴿حيَّ﴾ =

﴿عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾؛ أي: مِن بعدِ بيِّنةٍ قامَتْ عليه.

* * *

(٤٣) ـ ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قولُه: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗا﴾ قيلَ: أَرَى الله رسولَه في نومِه قلّةَ عددِ المُشركينَ، فأخبرَ بذلك أصحابَه فقوِيَتْ قلوبُهم، والرُّؤيا: تخيُّلُ الشَّيءِ من غيرِ قطعٍ.

وقيلَ: عَنَى بالمنامِ محلَّ النَّومِ، وهو العينُ؛ أي: في موضعِ منامِك، فحُذِفَ الموضعُ.

﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا﴾ فأخبَرْتَ أصحابَكَ لجبُنوا عنِ الحربِ.

وقيلَ: رأى النَّبيُّ عليه السَّلامُ في المنامِ ما تأويلُه ضَعفُ العدوِّ، لا أنَّه رأى الشَّيءَ على غيرِ وجهِه؛ إذ رُؤيا الأنبياءِ ـ فيما قيلَ ـ وحيٌ[1].

ورُوِيَ أنَّه خرجَ إلى أصحابِه فقال: «أُريتُ مصارعَ القومِ غدًا»، وعيَّنَ مصرعَ كلِّ واحدٍ من الكفّارِ[2].

= بياء واحدة مشددة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

(١) قوله: «رؤيا الأنبياء وحيٌ» رواه البخاري (٨٥٩)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٨٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٢٠)، من قول عبيد بن عمير، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢٣٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦١٣) وصححه، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما موقوفًا.

وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٠٤) لابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٢) رواه بنحوه مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس عن عمر رضي اللّه عنه أنه قال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يُرينا مَصارعَ أهلِ بدرٍ بالأمسِ، يقولُ: «هذا مَصْرَعُ فلانٍ غدًا إنْ شاءَ اللّهُ»، قال: فقال عمر: فوالذي =

﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ التَّنـازعُ: الاختِـلافُ، كأنَّ كلَّ واحـدٍ ينـزِعُ صاحبَـه عمّـا هـو عليه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾؛ أي: سلَّمَكم منَ المُخالفةِ.

وقيلَ: ﴿سَلَّمَ﴾؛ أي: أتمَّ أمرَ المسلمين بالظَّفرِ.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: علِمَ ما في صدورِكم منَ اليقينِ والإخلاصِ.

* * *

(٤٤) ـ ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾ الأُولى كانت في المنامِ، وهذه في اليقظةِ.

ويجوزُ حملُ الأُولى على اليقظةِ أيضًا إذا قلتَ: المنامُ موضعُ النَّومِ، وهو العينُ، وعلى هذا فالأُولى كانت للنَّبيِّ خاصّةً، وهذه للجميعِ.

قال ابنُ مسعودٍ: قُلِّلوا في أعيُنِنا حتَّى قلتُ لرجلٍ إلى جنبي: تراهُم سبعين؟ قال: أراهُم مئةً، فأسَرْنا رجلًا فقلنا: كم كنتُم؟ قال: ألفًا[1].

﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ وسببُ ذلك أنْ لا ينهَزِمُوا، حتَّى قال أبو جهلٍ في

= بَعَثَه بالحقِّ ما أَخطؤوا الحدودَ التي حَدَّ رسولُ الله ﷺ. وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٨٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٠).

ذلك اليومِ: إنَّما هم أكَلةُ جزورٍ[(١)]، خذُوهم أخذًا فاربِطُوهم بالحبالِ[(٢)].

وقيلَ: قلَّلَ المسلمينَ في أعيُنِ الكفّارِ لئلا يَجِدُّوا في القتالِ وليتَهاوَنُوا بهم، وكان هذا في ابتداءِ القتالِ، فلمَّا أَخذُوا في القتالِ عظُمَ المسلمون في أعيُنِهم فكثُروا كما قال: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾؛ أي: في اللَّوحِ المحفوظِ إذ كانَ كائنًا في علمِ الله تعالى، وهو إتمامُ النِّعمةِ على المسلمين، وإحلالُ النِّقمةِ بالمُشركينَ.

***

(٤٥) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾؛ أي: إذا رأيتُم فئةً كافرةً فاصبِرُوا في القتالِ؛ يعني: في سائرِ الغزواتِ ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فإنَّ ذكرَ الله يُعينُ على الثُّبوتِ في الشَّدائدِ.

وقيلَ: أرادَ بهذا الذِّكرِ: الدُّعاءَ بالنَّصرِ، كما أخبرَ عن قومٍ قالوا في تلك الحالةِ: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وقومٍ قالُوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧].

***

---

(١) قوله: «أكلة جزور» يُضرب في القلة والأمر الذي لا يُعبأ به، قال الجوهري: قولهم: هم أكلة رأس؛ أي: قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل. انظر: «الصحاح» (مادة: أكل).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٦٣) عن السدي، ورواه بنحوه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٣٥٥) عن عكرمة.

(٤٦) ـ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾؛ أي: فتضعُفُوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ أي: قُوَّتُكم، يُقالُ: هَبَّتْ ريحُ فلانٍ؛ أي: جرَى أمرُه على ما يُريدُ.

وقال قتادةُ وابنُ زيدٍ: أي: ريحُ النَّصرِ؛ فإنَّه لـم يكُنْ نصرٌ قطُّ إلّا بريحٍ يبعثُها الله يضربُ بها وجوهَ الكفّارِ[١]، ولهذا قال عليه السَّلامُ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهلِكَ عادٌ بالدَّبورِ»[٢].

قُرِئَ ﴿وَتَذْهَبَ﴾ بالنَّصبِ وبالجزمِ[٣].

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾؛ أي: لا تُقاتِلُوا للرِّياءِ والسُّمعةِ، بل قاتِلُوا لوجهِ الله.

نزلَتْ في قُريشٍ لـمَّا خرجُوا لنُصرةِ العيرِ خرجُوا بالقِيَانِ والمُغنِّياتِ والمعازِفِ يشربُونَ الخمورَ ويَعزفُ عليهم القِيَانُ، فلما ورَدُوا الجُحفةَ بعثَ خُفافُ الكِنانيُّ ـ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٢)، عن ابن زيد، ورويا عن قتادة قال: «ريحكم: ريح الحرب».

(٢) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قرأ العشرة بالتاء والنصب، والجزمُ روي عن عاصم في غير المشهور عنه، انظر: «جامع البيان» للداني (٣/ ١١٣٨)، وقرأ عيسى بن عمر بالياء والجزم ورفع (ريحكم). انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٣٦)، و«البحر المحيط» (١١/ ١٢٤).

وكانَ صديقًا لأبي جهلٍ ـ بهدايا إليه مع ابنٍ له، وقال: إنْ شئتَ أمدَدْتُكَ بالرِّجالِ، وإنْ شئتَ أمدَدْتُكَ بنفسي مع مَن خَفَّ من قَرابَتي، فقال أبو جهلٍ: إنْ كنَّا نُقاتلُ الله كما يزعمُ محمَّدٌ فوالله ما لنا بالله طاقةٌ، وإنْ كنَّا نُقاتلُ النَّاسَ فوالله إنَّ بنا على النَّاسِ لقوَّةً، واللهِ لا نرجعُ عن قتالِ محمَّدٍ حتَّى نرِدَ بدرًا فنشربَ فيها الخمورَ، وتعزِفَ علينا القِيانُ، فإنَّ بدرًا موسمٌ من مواسمِ العربِ، وسوقٌ من أسواقِهم، حتَّى تسمعَ العربُ بمخرَجِنا فتهابَنا آخرَ الأبدِ، فوَرَدُوا بدرًا، ولكنْ جرَى ما جرَى من هلاكِهم[1].

والبطَرُ: تركُ الشُّكرِ، يُقالُ: بطِرَ نعمةَ الله.

والرِّياءُ: إظهارُ الجميلِ وإبطانُ القبيحِ.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وصدُّوا عن سبيلِ الله، فأُقيمَ المُستقبلُ مُقامَ المصدرِ، كما تقولُ: «أتيتُه ماشيًا» و«مشيًا» و«أمشي».

وقيلَ: أي: خرَجُوا بطِرينَ مُرائينَ صادِّين، فهو حالٌ.

وقيلَ: أي: خرَجُوا يبطَرُون ويُراؤُونَ ويصُدُّونَ، وصَدُّهم: إضلالُ النَّاسِ.

***

(٤٨) ـ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قيلَ: تَصوَّرَ لهم إبليسُ بصورةِ سُراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعْشُمٍ، وهو من بني بكرِ بنِ كنانةَ، وكانت قُريشٌ تخافُ من بني بكرٍ أن

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١٧ ـ ٢٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعروة بن الزبير ومحمد بن إسحاق. وانظر: «المغازي» للواقدي (١/ ٤٤)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩٠).

يأْتُوهم من ورائِهم؛ لأنَّهم كانوا قتَلُوا رجلًا منهم، فقال إبليسُ وقد تبَدَّى لهم في جُندٍ منَ الشَّياطينِ وراءَه وقالَ: ﴿إِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾؛ أي: أدفعُ عنكم قومي(١).

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾؛ أي: التَقَى الجمعانِ ﴿نَكَصَ﴾؛ أي: أحجَمَ، ينكُِصُ(٢) نُكوصًا ونَكيصًا ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: رجعَ القَهْقَرى مُولِّيًا.

قال ابنُ عبّاسٍ: وقفَ إبليسُ في صورةِ سُراقةَ في صفِّ المُشركينَ آخِذًا بيدِ الحارثِ بنِ هشامٍ، فرأى الملائكةَ تنزلُ منَ السَّماءِ فنكَصَ، فقال الحارثُ: يا سُراقُ، أفِرارًا من غيرِ قتالٍ؟ فقال: إنِّي أرى ما لا ترونَ، وانطلَقَ وانهزَمَ النّاسُ(٣).

وقد قيلَ: صدَقَ إبليسُ في قولِه: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وكذَبَ في قولِه: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، ولكنْ علِمَ أنَّه لا قوّةَ له.

وقيلَ: خافَ أن يأخُذَه جبريلُ ويُعرِّفَهم حاله فلا يُطيعُوه.

وقيلَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أن يُهلِكَني.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٢٢) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٢١) عن ابن عباس والسدي وعروة بن الزبير وابن إسحاق، وانظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٢٢).

(٢) ضبطت الكاف في (ف) بالكسر والضم وكتب فوقها: «معاً».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ١٩٠) عن الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو من رواية ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما كما ذكر ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٧٣).

ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٥)، من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس دون تسمية الحارث.

وكانَ تحوُّلُ إبليسَ في صورةِ سُراقةَ منَ الجائزاتِ، لا سيَّما في زمنِ النُّبوّةِ، وكان ذلك آيةً للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، وقد قال سُراقةُ: أنتم تقولون: إنِّي انهزَمْتُ بالنّاسِ، وواللهِ ما شعرتُ بمسيرِكم حتَّى بلَغَني انهِزامُكم[1].

وقالَ قومٌ: إنَّما كانَ هذا منَ الشَّيطانِ بالوسوسةِ، وسوَسَ إليهم ثمَّ خنَسَ.

وقولُه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ كقولِكَ: «جمعتَ بين الفريقَينِ وزيَّنتَ لهم القتالَ، حتَّى إذا التحَمَ القتالُ نفضْتَ كفَّكَ»؛ أي: حقَّقْتَ هذا بالفعلِ.

وقيلَ: لا، بل ظهرَ لهم سُراقةُ على التَّحقيقِ، ثمَّ انهزَمَ، وسُمِّيَ شيطانًا لتمرُّدِه.

* * *

(٤٩) ـ ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾؛ أي: جرَى هذا حينَ قال المُنافقون كذا، فـ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾: المُعلِنون بالنِّفاقِ.

﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أقوامٌ حديثٌ عهدُهم بالإسلامِ، وفيهم بعدُ ضعفُ نيّةٍ، قالوا عندَ الخروجِ إلى القتالِ وعندَ التِقاءِ الصَّفَّينِ: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾: قومٌ منَ الأوسِ والخزرَجِ، ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: قومٌ من قُريشٍ، أسلَمُوا ولم يُهاجِروا، فلمَّا خرجَتْ قريشٌ خرَجُوا معهم، وقالوا: إنْ كان محمَّدٌ في كثرةٍ صِرْنا إليه، وإلّا أقَمْنا في قومِنا، وهم

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١١٩)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٥) عن ابن عباس، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ١١٨)، عن الكلبي.

الذين قالَ الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧][١]، فقُتِلُوا مع المُشركينَ يومَ بدرٍ[٢].

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ إذ قاتلُوا مع قلَّةِ عددِهم هؤلاءِ الجمعَ مع كثرةِ عددِهم.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: يُسلِمْ أمرَه إليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُمانَعُ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعلُ.

* * *

(٥٠) - ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيلَ: أرادَ: مَن بقيَ ولم يُقتَلْ يومَ بدرٍ، وقيلَ: هي فيمَن قُتِلَ ببدرٍ.

وقيلَ: فيمَن تركَ الهجرةَ إلى رسولِ الله ﷺ مع إمكانِ المُهاجَرةِ.

وجوابُ (لو) محذوفٌ؛ أي: لرأيتَ أمرًا فظيعًا.

﴿يَتَوَفَّى﴾؛ أي: يقبِضُ أرواحَهم على استيفائِها ﴿يَضْرِبُونَ﴾ هو في معنى الحالِ؛ أي: ضارِبينَ ﴿وُجُوهَهُمْ﴾.

قيلَ: مَن أقبلَ منَ الكفّارِ يومَ بدرٍ ضربَتِ الملائكةُ وجهَه، ومَن انهزَمَ ضرَبُوا ظهرَه، فقالَ رجلٌ: رأيتُ بظهرِ أبي جهلٍ مثلَ الشِّراك، فقالَ عليه السَّلامُ: «ذلك ضَربُ الملائكةِ»[٣].

---

(١) إلى هنا ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ١٩٣) عن ابن إسحاق.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٣٠) عن الحسن مرسلًا.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: ويقولُونَ: ﴿ذُوقُوا﴾؛ أي: بعد الموتِ.

وقيلَ: يومَ بدرٍ، فكان معَهم مقامعُ كلَّما ضُرِبُوا التهبَتِ النّارُ في الجِراحاتِ.

* * *

(٥١) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: تقولُ الملائكةُ لهم هذا؛ أي: ذلك جزاؤُكم بما قدَّمَتْ أيديكُم، و﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى: «هذا»؛ أي: هذا العذابُ بما كنتُم اكتسَبْتُم منَ الآثامِ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وبأنَّ الله ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ إذ قد أوضَحَ السُّبُلَ، وبعَثَ الرُّسُلَ، فلِمَ خالَفْتُم؟

* * *

(٥٢) ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قولُه: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: جُوزِيَ هؤلاءِ بالقتلِ والسَّبْيِ كما جُوزِيَ آلُ فرعونَ بالغرقِ؛ أي: دأبُهم كدأبِ آلِ فرعونَ، والدَّأبُ: العادةُ، وأصلُه: إدامةُ العملِ، وفلانٌ يدأَبُ في كذا؛ أي: يُواظِبُ عليه.

* * *

(٥٣) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾؛ أي: هذا العقابُ لأنَّهم غيَّروا وبدَّلوا.

﴿لَمْ يَكُ﴾ حُذِفَت النُّونُ لأنَّها تُشبِهُ لِغُنَّتِها حروفَ اللِّينِ ووقعَتْ طرَفًا فحسُنَ

حذفُها؛ كقولِك: «لـم يَرْمِ»، و«لـم يَدْعُ»، ويرِدُ على هذا «لـم يَزِنْ» و«لـم يَخُنْ»، فالأحسنُ أن نقولَ: كثُرَ استعمالُه فاحتَمَلَ هذا الحذفَ.

ونعمةُ الله على قُريشٍ: الخِصْبُ والسَّعةُ.

وقيلَ: نعمةُ الله عليهم محمَّدٌ عليه السَّلامُ، فكفَروا به فنُقِلَ إلى المدينةِ وحلَّ بالمُشركينَ العقابُ.

* * *

(٥٤) ـ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: دأبُهم كدأبِ آلِ فرعونَ، ففيه محذوفٌ.

وقيلَ: كدأبِ آلِ فرعونِ: كدأبِ أهلِ مكّةِ[1].

* * *

(٥٥) ـ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُـه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾؛ أي: شـرَّ مَـن يَـدِبُّ علـى وجـهِ الأرضِ فـي علـمِ الله وحكمِـه الكفّـارُ، فهـم لا يُؤمِنُونَ.

---

(١) قولـه: «كـدأب أهل مكة» كذا في النسـختين، ولعل الصواب: «كذب أهـل مكة»، يعني: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ متعلـق بمـا بعـده ـ على خـلاف الوجـه الأول حيث تعلقـت الكاف بمحـذوف قبلها ـ وهـو قولـه: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ يعنـي: أهل مكـة كذبوا بآيات ربهـم كصنيع آل فرعـون في التكذيب بمـا جـاء بـه موسـى، ثـم قـال: ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ فذكـر عقوبـة الفريقيـن لما شـبّه فعـل أحدهما بفعـل الآخر، ثـم قـال: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ يعني: آل فرعـون وأهل مكـة. انظر: «البسيط» (١٠/ ٢٠٤).

نزلَتْ في قومٍ علِمَ الله أنَّهم لا يُؤمِنُونَ. وقيلَ: في يهودِ قُريظةَ[1].

* * *

(٥٦) ـ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: عاهَدْتَهم، فـ(مِن) صِلةٌ.

وقيلَ: دخلَتْ (مِنْ) لأنَّ المعنى: أخَذْتَ منهم العهدَ.

وقيلَ: (مِن) للتَّبعيضِ؛ لأنَّ العهدَ إنَّما كان يجري مع أشرافِهم.

﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ عنَى قُريظةَ والنَّضيرَ، نقَضُوا العهدَ فأعانُوا مُشرِكي مكّةَ بالسِّلاحِ، ثمَّ اعتَذَرُوا وقالُوا: نَسِينا، فعاهَدَهم رسولُ الله ثانيةً، فنقَضُوا يومَ الخندقِ.

﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لا يخافُونَ الانتِقامَ.

* * *

(٥٧) ـ ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾؛ أي: إنْ تَظفَرْ بهم في الحربِ ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾؛ أي: افعَلْ بهم فعلًا تُفرِّقُ به مَن خلفَهم، وهذا هو التَّنكيلُ.

وقيلَ: اقتُلْهم ليخافَكَ غيرُهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ هذا يرجعُ إلى ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ لأنَّ مَن قُتِلَ لا يَتذكَّرُ.

* * *

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٢٢)، وروى سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (٥/ ٢٢٢) عن أيوب عن سعيد بن جبير قال: ستة رهط من اليهود، قال أيوب: سماهم، منهم ابن تابوت.

(٥٨) ـ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: الخوفُ بمعنَى العلمِ[١].

وقيلَ: عنَى غلبةَ الظَّنِّ.

﴿خِيَانَةً ﴾؛ أي: نقضًا للعهدِ.

﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾؛ أي: عهدَهم، ثمَّ حارِبْهم؛ لئلّا يقولوا: نقضَ العهدَ بنصبِ الحربِ.

وهذا إذا لم يعرفِ الإمامُ نقضَهم العهدَ إلّا بأمارةٍ من غيرِ يقينٍ، فأمَّا إذا علمَ باليقينِ فيستغني عن نبذِ العهدِ إليهم.

والعلمُ الذي ذكرَه ابنُ عبّاسٍ في معنى الخوفِ هو غلبةُ الظَّنِّ.

وقد سارَ النَّبيُّ ﷺ إلى أهلِ مكّةَ عامَ الفتحِ لمَّا اشتَهرَ منهم نقضُ العهدِ من غيرِ أن ينبذَ إليهم عهدَهم.

* * *

(٥٩) ـ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ﴾؛ أي: مَن أفلَتَ من وقعةِ بدرٍ لا يُعجِزُ الله.

قُرِئَ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ بالتّاءِ والياءِ[٢].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره دون نسبة الماتريدي وابن أبي زمنين والثعلبي والكرماني في تفسير هذه الآية.

(٢) قرأ بالياء حمزة وحفص وابن عامر، ومن العشرة أبو جعفر، والباقون بالتَّاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٧)، و«التيسير» (ص: ١١٧)، و«النشر» (٢/ ٢٧٧).

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بالكسرِ، وبالنَّصبِ[١]؛ أي: لأنَّهم.

***

(٦٠) ـ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ السِّلاحَ والقِسِيَّ[٢].

وقرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآيةَ على المنبرِ فقال: «ألا إنَّ القوّةَ الرَّميُ» ثلاثًا[٣].

وتعلُّمُ الفروسيّةِ واستعمالِ الأسلحةِ فرضُ كفايةٍ.

﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾؛ أي: من مُرابطةِ الخيلِ، وهي ارتباطُها بإزاءِ العدوِّ.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾؛ أي: تُخوِّفُونَ ﴿بِهِ﴾؛ أي: بما أعدَدْتُم.

﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ عنَى بالعدوِّ مُشركي مكّةَ وكفّارَ العربِ، وبالذين من دونِهم قُريظةَ والنَّضيرَ، ويدخُلُ فيه المُنافقون وأهلُ فارِسَ والرُّومُ وغيرُهم.

﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لأنَّ المُنافقَ كان يُظهِرُ الإسلامَ، وكان المسلمونَ لا يعلَمُونَهم.

قال الحسَنُ: وليس كلُّ مُنافقٍ علِمَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ نِفاقَه، ولهذا قال:

---

(١) قرأ ابن عامر بفتح الهمزة، وباقي السبعة بكسر الهمزة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٢٩) عن الكلبي.

(٣) رواه مسلم (١٩١٧) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١][(١)].

وقيلَ: عنَى بالذين من دونِهم كفَّارَ الجِنِّ[(٢)]؛ لأنَّ المسلمينَ كانُوا عالِـمينَ بأهلِ فارِسَ وقُرَيظَةَ والنَّضيرِ.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من آلةٍ وسلاحٍ ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: يُخلَفْ لكم أجرُه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يُنقَصُ ثوابُكم.

* * *

(٦١) ـ ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ جنَحَ إلى فلانٍ؛ أي: مالَ إليه وخضَعَ له ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾؛ أي: للجَنْحةِ والفَعْلةِ، ولهذا قال: ﴿لَهَا﴾ كقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣]؛ أي: من بعدِ فَعْلتِهم.

وقيلَ: (السَّلْمُ) مُؤنَّثٌ في لغةٍ، فقولُه: «لـها» أي: للسَّلْمِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٢٠).

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٦٥٢ ـ زوائد)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٩/ ٤٣٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٦٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٣)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٦٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٨٩)، عن عريب يرفعه. قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٨٢): «وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧): «فيه مجاهيل».

قال البلنسي في «مبهمات القرآن» (١/ ٥٢٧): «ولا ينبغي أن يقال فيهم شيء، لأن الله سبحانه قال: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فكيف يدعي أحد علمًا بهم مع هذا، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول الله ﷺ...».

ثمَّ، قيلَ: هذا منسوخٌ بقولِه: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥][(١)].

وقيلَ: ليس بمنسوخٍ، بل أرادَ قَبولَ الجزيةِ من أهلِ الجزيةِ، أو أرادَ الصُّلحَ إذا كان الصَّلاحُ فيه، وإذا كانت القوّةُ للمُسلمينَ فينبَغي ألّا تبلُغَ المُهادَنةُ سنةً فتخلُوَ السَّنةُ عن الجهادِ، وإذا كانتِ القوّةُ للكفّارِ جازَ مُهادَنتُهم عشرَ سنينَ، ولا تجوزُ الزِّيادةُ، وقد هادَنَ النَّبيُّ عليه السلام أهلَ مكّةَ عشرَ سنينَ.

* * *

(٦٢) ـ ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾؛ أي: بإظهارِ الجنوحِ إلى السَّلمِ ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يتولّى كِفايتَكَ.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾؛ أي: قوّاكَ وأعانَكَ يومَ بدرٍ ﴿بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الأنصارِ.

* * *

(٦٣) ـ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: جمعَ بينَ قُلوبِ الأوسِ والخزرجِ، وكانَ تأليفُ القلوبِ مع العصبيَّةِ الشَّديدةِ في العربِ من آياتِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ،

---

(١) رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٣٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٤٦٨)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٥٢) عن قتادة.

فـإنَّ الله ألَّـفَ بالإيمـانِ بينَهـم حتَّى قاتـلَ الرَّجـلُ أباه وأخـاه بسـببِ الدِّينِ.

وقيلَ: أرادَ التَّأليفَ بينَ المُهاجرينَ والأنصارِ.

* * *

(٦٤) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ قالَ فيما سبقَ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢]، وهاهُنا أرادَ التَّعميمَ؛ أي: حسبُكَ الله في كلِّ حالٍ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلَتْ في إسلامِ عمرَ[1]؛ فإنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ كانَ أسلَمَ معه ثلاثةٌ وثلاثونَ رجلًا، وسِتُّ نسوةٍ، وأسلَمَ عمرُ فصاروا أربعينَ، والآيةُ مكِّيَّةٌ كُتِبَتْ بأمرِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ في سورةٍ مدَنيَّةٍ[2].

وقيلَ: نزلَتِ الآيةُ في غزوةِ بدرٍ قبلَ القتالِ.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٢٤٩٥ ـ كشف) من طريق النضر أبي عمر عن عكرمة عن ابن عباس، والنضر هو بن عبد الرحمن الخزاز، وهو متروك كما في «التقريب».

وذكره أبو حفص النسفي في «التيسير» عند هذه الآية من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا الإسناد أضعف من الذي قبله، فالكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، وروي عن ابن عباس أيضًا من طريق آخر ليس بأصلح من هذين. انظر التعليق الآتي.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٤٧٠)، والآجري في «الشريعة» (١٣٥٣)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨): «فيه إسحاق بن بشر الكاهلي، وهو كذاب». ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٢٨) عن سعيد بن جبير.

وقال القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٦٧) تعقيباً على هذا الخبر: «وقع في السيرة خلافه...»، وانظر كلامه ثمة، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٤٢).

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: وحَسبُكَ المُهاجرون والأنصارُ، ومنهم عمرُ رضي الله عنهم.

وقيلَ: أي: يكفيكَ الله، ويكفي مَن تبعَكَ.

* * *

(٦٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ قال الزَّجَّاجُ: التَّحريضُ: أن تحُثَّ المرءَ على شيءٍ حثًّا تعلَمُ معه أنَّه حارِضٌ لو قصَّرَ، يُقالُ: «ثوبٌ حريضٌ وحارِضٌ»؛ أي: هالكٌ[1].

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ «عشرونَ» و«ثلاثونَ» و«أربعونَ»، كلُّ واحدٍ منها اسمٌ موضوعٌ على صورةِ الجمعِ لهذا العددِ، ويجري هذا الاسمُ مَجرى فِلَسْطِينَ[2].

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ﴾ قُرِئَ: ﴿يَكُن﴾ بالياءِ؛ لأنَّه أرادَ المُذكَّرَ؛ لأنَّهم رجالٌ في المعنى، ولهذا قال: «يغلِبُوا». وقُرِئَ بالتاءِ للَفظِ «المئةِ»[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢٣)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٣٥) واستبعده فقال: «وذكر أبو إسحاق في اشتقاقه وجهًا بعيدًا».

(٢) أي: جار مجرى «فلسطين» في أنه اسم موضوع على صورة الجمع لهذا العدد، فليس هو جمع «عشر» ولا «ثلاثون» جمع «ثلاث»، وكذلك القول في «أربعين» و«خمسين» إلى «التسعين». انظر: «البسيط» (١٠/ ٢٣٧).

(٣) قرأ الكوفيون بالياء في الموضعين: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾، و﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ﴾، وقرأ =

قال أبو عليٍّ: «مِئةٌ» وزنُها: فِعَلَة، وأصلُها: مِئَيةٌ، فحُذِفَتِ اللّامُ منه، وجُمِعَ بالواوِ والنُّونِ للنَّقصِ الذي لحِقَه، ومثلُه «رِئةٌ» في حذفِ اللّامِ، ومنه: «رأيتُ الرَّجُلَ»؛ أي: أصَبْتُ رِئتَه، والجمعُ: «الرِّئونَ»[1].

ثمَّ، قيلَ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ خبرٌ؛ أي: أصحابُك في الجرأةِ بهذا الوصفِ لشِدّةِ يقينِهم، فحرِّضْهم على القتالِ.

ثمَّ؛ أخبرَ أنَّ هذا كانَ حالَـهم في ابتداءِ الإسلامِ، فلمَّا كثُرَ المسلمونَ وخالَطَهم مَن ليس في اليقينِ مثلَهم صارُوا بحيثُ يُقاوِمُ الواحدُ اثنَينِ، ولكنْ أجمعَ المُفسِّرون على أنّه أمرٌ لا خبرٌ، فكان يجبُ في ابتداءِ الإسلامِ أن يُقاوِمَ الواحدُ عشرةً، ثمَّ خُفِّفَ عنهم وعادَ الأمرُ إلى أنّه يجبُ ألّا يفِرَّ الواحدُ من اثنَينِ، ويجوزُ الفِرارُ من ثلاثةٍ، وصيغةُ الخبرِ قد تردُ والمقصودُ الأمرُ، كقولِه: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: إنَّما يذُبُّونَ عن الدُّنيا، وأنتم تذُبُّونَ عن الدِّينِ على بصيرةٍ.

* * *

(٦٦) - ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ هذا ناسخٌ لِـما تقدَّمَ، ونزلَ بعدَه بمدّةٍ، والضَّعْفُ

= أبو عمرو في الأول بالياء، وقرأ الباقون بالتاء فيهما. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(١) انظر: «الحجة» (٥/ ١٣٧)، و«المسائل الحلبيات» (ص: ٦١)، كلاهما لأبي علي الفارسي، وانظر: «البسيط» للواحدي (١٠/ ٢٤٠)، وعنه نقل المصنف.

ما أشَرْنا إليه من ضَعْفِ الرَّغبةِ في الجهادِ، أو الضَّعْفِ بالبدنِ والمالِ، ومهما[1] كانَ في مُقابلةِ كلِّ مسلمٍ أكثرُ من اثنَينِ فيجوزُ الانهِزامُ، والصَّبرُ أحسنُ، وقد وقفَ جيشُ مُؤتَةَ وهم ثلاثةُ آلافٍ في مُقابلةِ مئتَي ألفٍ منَ المُشركينَ، منهم مئةُ ألفٍ منَ الرُّومِ، ومئةُ ألفٍ منَ المُستعرِبةِ، من لَـخْمٍ وجُذامٍ.

والضَّعْفُ والضُّعْفُ: لُغتانِ[2].

وقيلَ: «إنْ يكُنْ منكم مئةٌ صابرةٌ» شرطٌ وجزاءٌ، فكلُّ مئةٍ انهزَمَتْ عن ألفٍ فلأنَّها ليسَتْ بصابرةٍ، وهذا قولُ مَن يحملُ الآيةَ على الخبرِ، ويقولُ: تحريمُ الفِرارِ مُتلَقَّى من قولِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

والصَّحيحُ: أنَّ الآيةَ للأمرِ؛ إذ خَبرُ الله لا يقعُ مُخبَرُه بخلافِه.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هزيمةُ العدُوِّ ليست بثباتِ المُسلمين وحدَهم بل بإذنِ الله وقَضائِه ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالعَونِ والثَّوابِ.

* * *

(٦٧) ـ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لـمَّا أَسَروا الأُسارَى يومَ بدرٍ قال رسولُ الله ﷺ: «ما ترَونَ فيهم؟»، فقال أبو بكرٍ: بنو العمِّ والعشيرةِ، أرى أن تأخُذَ منهم فديةً تتقَوَّى بها على الكفَّارِ، فربَّما يُؤمِنُونَ، فقال عمرُ: أرى أن تُـمَكِّننا

---

(١) في (أ): «وفيهما».

(٢) قرأ حمزة وعاصم بفتح الضاد، والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

منهم، فتُمكِّنَ عليًّا من عقيلٍ حتَّى يضرِبَ عنُقَه، وحمزةَ منَ العبَّاسِ، وتُـمَكِّنني من فلانٍ - نسيبٍ له - فأضرِبَ عنُقَه؛ فإنَّ هؤلاءِ أئمَّةُ الكفرِ، حتَّى يعلَمَ ربُّنا أنَّه ليس في قلوبِنا للكفّارِ هَوادةٌ، ومالَ رسولُ الله ﷺ إلى ما قالَ أبو بكرٍ(١).

وقال: «أنتم اليومَ عالةٌ، فلا يفلِتَنَّ أحدٌ منكم إلّا بفداءٍ أو ضربِ عُنقٍ»(٢)، «فإنْ فادَيتُموهم استُشهِدَ منكم في وقتٍ آخرَ بعدَّتِهم»، وكانت الأَسرَى سبعينَ، فقالوا: بل نأخُذُ الفِداءَ، ويُستَشْهَدُ منّا بعدَّتِهم، فقُتِلَ منهم يومَ أُحدٍ سبعونَ(٣).

وكانُوا فادَوهم بأربعةِ آلافٍ أربعةِ آلافٍ(٤).

---

(١) رواه بنحوه مسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد في آخره قول عمر: «فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة» شجرة قريبة من نبي الله ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم».

(٢) إلى هنا رواه الترمذي (٣٠٨٤) من حديث أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال الترمذي: «هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه».

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٢)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٠٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٦٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٧٩)، عن عبيدة السلماني مرسلاً، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٦٨٧)، والترمذي (١٥٦٧) وحسنه، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٠٨)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٢١٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٦١٩) وصححه، من طريق عبيدة السلماني عن علي رضي الله عنه قال: «جاء جبريلُ يومَ بدرٍ إلى النبيِّ ﷺ فقال: خَيِّرْ أصحابك في الأُسارى... »، الحديث. قال الدارقطني في «العلل» (٤/ ٣١): المرسل أشبه بالصواب.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ١٤١)، ومكي بن أبي طالب في «الهداية» (٤/ ٢٨٨١)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٥٢)، عن قتادة.

ومعنى الآيةِ: ما كان للنَّبيِّ أن يحبِسَ كافرًا قدَرَ عليه من عَبَدةِ الأوثانِ ليمُنَّ عليه أو ليُفادِيَه قبلَ الإثخانِ في الأرضِ، وما كانَ جرَى إثخانٌ فيهم لأنَّ يومَ بدرٍ كان أوَّلَ قتالٍ مع المشركين.

قُرِئَ ﴿أَن يَكُونَ﴾ بالتَّاءِ والياءِ(١).

﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: يغلِبَ على كثيرٍ منَ الأرضِ، ويُبالغَ في قتلِ أعدائِه.

والإثخانُ: قوَّةُ الشَّيءِ وشِدَّتُه، وأثخَنَه المرَضُ؛ أي: اشتَدَّتْ قوَّتُه عليه.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي: مالَ الدُّنيا.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ لكم الجنَّةَ(٢).

ولـمَّا كثُرَ المسلمون وغلَبُوا نزلَ قولُه: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤](٣).

وقال عليه السَّلامُ لأبي بكرٍ في قصَّةِ أُسارَى بدرٍ: «مثَلُكَ مثَلُ إبراهيمَ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثَلُكَ يا عمرُ مثَلُ نوحٍ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ومثَلُ موسى قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]»(٤).

---

(١) قرأ أبو عمرو بالتاء، وباقي السبعة بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٥٦).

(٣) رواه أبو عبيد في «الأموال» (٣١٣)، وابن زنجويه في «الأموال» (٥٣٠)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٧١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٩٠)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٧٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٢٥٧)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، من طريق ابنه أبي عبيدة، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.

وقيلَ: رأى عمرُ رسولَ الله ﷺ يبكي وأبو بكرٍ، فسألَ عنه، فقال عليه السَّلامُ: «أبكي على أصحابِكَ في أخذِهم الفداءَ، ولقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشَّجرةِ»(١).

وكانَ ذلك العذابُ: أنَّهم عُوقِبُوا يومَ أُحدٍ بما صنَعُوا يومَ بدرٍ فقُتِلَ منه سبعُونَ.

وكان الأَولى قتلُ الأَسرى وإنْ كانَ أخذُ الفداءِ جائزًا، إلّا أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ معصومٌ، **والصَّحيحُ جوازُ الاجتهادِ للأنبياءِ**، فاجتَهَدَ عليه السَّلامُ، والمُجتهدُ قد يُخطِئُ وقد يُصيبُ.

* * *

(٦٨) ـ ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾؛ أي: لولا أنَّه كتَبَ لكم على نفسِه الرَّحمةَ ـ أي: قضى وقدَّرَ ـ لحلَّ بكم العقابُ.

وقيلَ: لولا أنَّ الله حكمَ أنَّ الغنائمَ حلالٌ لهذه الأمةِ وكذلك الفِداءُ.

أو(٢): ولولا كتابٌ سبقَ في أنِّي لا أُعذِّبُ إلّا بعد النَّهيِ ولم يسبِقْ نهيٌ عن أخذِ الفداءِ.

أو: لولا أنَّه سبقَ الحكمُ بأنِّي لا أُعذِّبُ أحدًا ممَّن شهِدَ بدرًا مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في النسختين: «أي»، والصواب المثبت. انظر: «البسيط» (١٠/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) ونسب هذا القول الآتي لابن مسعود، ونَسَب القيل الذي قبله لابن عباس من رواية عطاء ولسعيد بن جبير.

وفي الخبرِ: أنَّه قال لعمرَ: «لو نزلَ العذابُ لَما نجا غيرُك»[١]؛ لأنَّه كرِهَ إلّا القتلَ.

وفي الخبرِ: لو نزلَ عذابٌ منَ السَّماءِ لم ينجُ منه إلّا سعدُ بنُ معاذٍ؛ لأنَّه قال: يا رسولَ الله، إنَّه أوَّلُ وقعةٍ لنا مع المشركينَ، فكان الإثخانُ أحبَّ إليَّ[٢].

* * *

(٦٩) ـ ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾؛ أي: حلالًا لكم، وكانت مُحرَّمةً على غيرِكم، وكانت غنائمُ بدرٍ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ فامتَنَّ بها عليهم، والمُرادُ بهذه الآيةِ المغانمُ.

وقيلَ: مالُ الفِداءِ.

وقيلَ: إنَّما عُوقِبُوا لأنَّهم أخذوا الفِداءَ من غيرِ إذنٍ وإنْ كانَ أخذُ الفِداءِ مُباحًا لهم في سابقِ علمِ الله، على معنًى: أنَّه لا حكمَ قبل ورودِ الشَّرائعِ، فكان الأولى طلبُ البيانِ من جبريلَ.

* * *

(٧٠) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ ﴾ أمرَ باستمالةِ مَن أُخِذَ منه الفِداءُ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧٣٥) عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم مرسلاً، ورواه ابن مردويه مرفوعاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٣) عن ابن إسحاق مرسلاً. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٧٠): رواه الواقدي في «المغازي» من وجه آخر منقطع بمعناه.

قيلَ: نزلَتْ في العبّاسِ وعقيلٍ ونَوفلِ بنِ الحارثِ، وكان العبّاسُ أُسِرَ يومَ بدرٍ ومعه عشرون أوقيَّةً منَ الذَّهبِ كان خرجَ بها ليُطعِمَ بها النّاسَ، وكان أحدَ العشرةِ الذين ضمِنُوا طعامَ أهل بدرٍ، ولـم تنتَهِ النَّوبةُ إليه بعدُ حتَّى أُسِرَ، فأرادَ أن يحسُبَ ذلك المالَ منَ الفداءِ، فقال عليه السَّلامُ: «أمَّا شيءٌ خرَجْتَ تستَعينُ به علينا فلا»، قال العبَّاسُ: فكلَّفَني فداءَ ابنِ أخي عقيلٍ عشرينَ أوقيّةً من فضَّةٍ، فقلتُ: تركتَني والله أسألُ قُريشًا بكفِّي والناسَ ما بقيتُ، قال: «فأينَ الذَّهبُ الذي دفعتَ إلى أمِّ الفضلِ مخرجَكَ إلى بدرٍ؟ وقلتَ: إنْ حدَثَ بي حدَثٌ في وجهي فهو لكِ ولعبدِ الله والفضلِ وقُثَم»، فقلتُ: وما يُدريكَ؟ قال: «أخبَرني الله بذلك»، فقلتُ: أشهدُ أنَّك صادقٌ؛ فإنَّه شيءٌ لـم يطَّلِعْ عليه إلّا اللهُ وأنا، وأسلَمْتُ.

قال: فأعطاني الله خيرًا مـمّا أُخِذَ منِّي كما قال: عشرينَ عبدًا كلُّهم يضرِبُ بمالٍ كثيرٍ مكانَ العشرينَ أوقيّةً، وأنا أرجو المغفرةَ من ربِّي[1].

﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾؛ أي: إسلامًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾؛ أي: منَ الفِديةِ؛ قيلَ: في الدُّنيا، وقيلَ: في الآخرةِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٤١). وروى نحوه الإمام أحمد في «مسنده» (٣٣١٠) عن ابن إسحاق عمن سمع عكرمة عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، والحاكم في «المستدرك» (٥٤٠٩) ـ وصححه ـ من حديث عائشة رضي الله عنها، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٤٢) من طريق ابن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة، عن الزهري وجماعة سماهم. وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٩) عن ابن إسحاق مرسلًا، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤٠٩) عن ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن مقسم عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما.
وروى قول العباس في آخره: «فأبدلني الله...» أيضا الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧) من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال العبّاسُ: وأعطاني زمزمَ وما أُحِبُّ أنَّ لي بها جميعَ أموالِ أهلِ مكّةَ[1].

* * *

(٧١) ـ ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ﴾؛ أي: إنْ خانُوكَ بما أَخبروا به من إيمانِهم.

وقيلَ: وإنْ كفَرُوا فقد كفَرُوا من قبلُ فأمكنَ الله منهم ببدرٍ، فسيُمكِّنُ منهم مرّةً أُخرَى إنْ خانوا.

وقيلَ: كانوا عاهَدُوا بعدَ الأسرِ على أنْ لا يُقاتِلُوه بعد ذلك، فقال الله: إنْ خانُوكَ وعادُوا عُدْنا لهم.

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ مفعولُه محذوفٌ؛ أي: فأمكَنَ المؤمنينَ منهم.

* * *

(٧٢) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ختمَ السُّورةَ بذكرِ المُوالاةِ بين المسلمين ليعلَمَ كلُّ فريقٍ وليَّه الذي يستعينُ به ﴿وَهَاجَرُواْ﴾؛ أي: ديارَهم وقومَهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ يعني: الأنصارَ.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٣) من طريق الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ١٤٩)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٦٢).

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ قال قومٌ: هذا في الميراثِ، وكانَ لا يـرثُ مَن آمنَ ولـم يُهاجِرْ مَن هاجرَ.

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ بفتحِ الواوِ وكسرِها[١]؛ أي: مـن نُصرتِهم ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ فتُطلَقُ الوَلايةُ والوِلايةُ بمعنَى الإمارةِ[٢].

ثمَّ نُسِخَ حكمُ الميراثِ بقولِه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ [الأنفال: ٧٥][٣].

﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ أي: لـو اسـتنصرَكم المؤمنـونَ الذيـن لـم يُهاجِـروا فـلا تخذُلوهـم إلّا أن يسـتنصِرُوكم علـى قـومٍ بينكـم وبينَهـم عهـدٌ، فلا تنقُضُـوا العهـدَ، وكان رسـولُ الله ﷺ آخَـى بيـنَ الصَّحابـةِ فضمَّ إلـى كلِّ واحدٍ منَ المُهاجريـنَ واحـدًا مـنَ الأنصارِ وآخَـى بينَهـم، فشـاطَرُوهم الأموالَ والمسـاكنَ، وكان الرَّجـلُ تحتَـه زوجتـانِ[٤] فيقولُ لصاحبِـه: أيتُهما أحبُّ إليك حتَّـى أنزلَ عنها لك[٥]؟ فكانَ هذا معنى قولِه: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾، والوليُّ على الجملةِ: المُعِينُ.

---

(١) قرأ حمزة بالكسر وباقي السبعة بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط» (١١/ ١٧٢): قال الزجاج: بالفتح من النصرة والنسب، وبالكسر بمنزلة الإمارة، ويجوز الكسر لأنَّ في تولي بعض القوم بعضاً جنساً من الصناعة والعمل وكل ما كان من جنس الصناعة مكسورٌ؛ مثلَ القِصارة والخياطة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٩ - ٢٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعبد الله بن كثير وقتادة وعكرمة والحسن.

(٤) في (أ): «الزوجتان».

(٥) هذا الأمر عممه المصنف رحمه الله، والذي ورد فيه حادثة واحدة رواها البخاري (٢٠٤٨) عن عبد الرحمن بن عوف قال: لما قدمنا المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، قال: فقال عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ =

(٧٣) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾؛ أي: لا تُوالوا الكفّارَ فليسوا بأوليائِكم، وهم مُجتَمِعُونَ في التألُّبِ عليكم وإن اختلَفُوا فيما بينَهم.

وقيلَ: أي: الكافرُ يرِثُ الكافرَ، والكفرُ في الميراثِ ملّةٌ واحدةٌ.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ يُريدُ: تولِّيَ المسلمِ للمُسلمِ، وبراءتَه منَ الكافرِ.

﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شركٌ؛ أي: يُؤدِّي ذلك إلى الكفرِ إن لم يتعاضَدِ المسلمون.

* * *

(٧٤) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾؛ أي: حقَّقُوا إيمانَهم بالهجرةِ والنُّصرةِ، وحقَّقَ الله إيمانَهم بالبشارةِ في قولِه: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾؛ أي: ثوابٌ عظيمٌ في الجنّةِ.

وقيلَ: الرِّزقُ الكريمُ: طعامُ الجنّةِ يصيرُ كالمسكِ ريحًا[1] ولا يتغيَّرُ.

= قال: سوق قينقاع، قال: فغدا إليه عبد الرحمن، فأتى بأقط وسمن، قال: ثم تابع الغدو، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة، فقال رسول الله ﷺ: تزوجت، قال: نعم، قال: ومن، قال امرأة من الأنصار، قال: كم سقت، قال: زنة نواة من ذهب، أو نواة من ذهب، فقال له النبي ﷺ: «أولم ولو بشاة». وهذا يدل على أنه لم يفعل ما عرض عليه سعد من الزواج بإحدى زوجاته.

(١) في (ف): «رشحاً».

(٧٥) - ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا ﴾ المذكورُ من قبلُ بالهجرةِ هم السّابقون، ثمَّ بيَّنَ أنَّ مَن آمنَ وهاجرَ من بعدُ يلتحِقُ بهم، ولكنْ ليس مَن أسلمَ قبلَ الفتحِ كمَن أسلَمَ بعد الفتحِ، والمُؤاخاةُ إنَّما ثبتَتْ بينَ الأنصارِ والسّابقينَ بالهجرةِ، دون مَن أسلَمَ بعدَ سنينَ وهاجرَ.

وقيلَ: أرادَ بالمُهاجرةِ في هذه الآيةِ: مَن هاجرَ بعد الحديبيةِ، وهي الهجرةُ الثّانيةُ التي فيها الصُّلحُ.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ كان المسلمُ يُورِّثُ المسلمَ الذي آخَى بينَهما رسولُ الله ﷺ دون ذَوي الأرحامِ، فلما فُتِحَتْ مكّةُ ردَّ الله المواريثَ إلى أولي الأرحامِ.

﴿فِي كِتَٰبِ اللَّهِ﴾؛ أي: في فرائضِ الله، وقيلَ: في اللَّوحِ المحفوظِ.

وقيلَ: فيما أنزلَ الله منَ القرآنِ؛ أي: استقرَّ الأمرُ على هذا، فإذنْ عند قومٍ هذه الولايةُ هي الإرثُ، فنُسِخَ الإرثُ بقولِه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾، وعند قومٍ هي التَّناصرُ لا الإرثُ، وقولُه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ حكمٌ آخرُ في بيانِ الإرثِ، وليس ثَمَّ نسخٌ.

* * *

سُورَةُ التَّوبَةِ

تفسيرُ سورةِ التَّوبةِ

هذه السُّورةُ في غزوةِ تبوكَ، ونزلَتْ بعدَها، وفي أوَّلِها نبذُ عهودِ الكفَّارِ إليهم، وفي السُّورةِ كشفُ أسرارِ المُنافقين، وتُسمَّى: الفاضِحةَ، والبَحُوثَ؛ لأنَّها بحثَتْ عن أسرارِ المُنافقينَ، وتُسمَّى المُبَعثِرةَ، والبَعْثَرةَ: البَحْثَ[1].

قال ابنُ عبَّاسٍ: قلتُ لعثمانَ: ما حملَكُم على أنْ قرنتُم بينَ الأنفالِ وهي منَ المثاني، وبراءةَ وهي منَ المئينَ، ولـم تكتُبوا بينَهما تسميةً، ووضعتُموها[2] في السَّبعِ الطِّوالِ؟ فقال: نزلَتْ بالمدينةِ، وبراءةُ في أواخرِ ما نزلَ، وكانتِ القِصَّةُ يُشبِهُ بعضُها بعضًا، وقُبِضَ رسولُ الله ولـم يتقدَّمْ إلينا فيها بشيءٍ، فقَرَنَّا بينَهما ولـم نكتُبِ التَّسميةَ، وكانا يُدعَيانِ القرينتَينِ[3].

---

(١) وذكر لها العلماء أسماء كثيرة. انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٥٩)، و«زاد المسير» (٢/ ٢٣٠).

(٢) في (أ): «ووضعتهما».

(٣) رواه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦). وهو حديث تفرد بروايته يزيد الفارسي، ويكاد يكون مجهولاً كما ذكر الشيخ أحمد شاكر في «المسند» (٣٩٩) وقال: فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك، فلا علينا إذا قلنا: إنه حديث لا أصل له، تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث.

وقال ابنُ عبّاسٍ أيضًا: سألتُ عليًّا عن تركِ التَّسميةِ في براءةَ فقال: بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ أمانٌ، وبراءةُ نزلَتْ بالسَّيفِ، ليس فيها أمانٌ[١].

وقال أُبيُّ بنُ كعبٍ: كان رسولُ الله يأمُرُني أوَّلَ كلِّ سورةٍ بالتَّسميةِ، ولم يأمُرْ بها في براءةَ[٢].

وكانَ قتادةُ يقولُ: إنَّ الأنفالَ والتَّوبةَ سورةٌ واحدةٌ[٣].

والصَّحيحُ: أنَّ التَّسميةَ لم تُكتَبْ لأنَّ جبريلَ ما نزلَ بها في هذه السُّورةِ.

* * *

(١) ـ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿بَرَآءَةٌ﴾؛ أي: تبرَّؤُوا إلى الذين بينكم وبينَهم عهدٌ منَ المُشركينَ، فهي مصدرٌ بمعنَى الأمرِ.

وقيلَ: أي: هذه براءةٌ منَ الله، والبراءةُ: انقِطاعُ العِصمةِ، وبرِئْتُ من فلانٍ أبرَأُ؛ أي: انقطَعْتُ عنه، وبرِئتُ منَ الدَّينِ أبرَأُ أيضًا، وكانَ المُشرِكونَ ينقُضونَ عهودَهم، فأمرَ الله نبيَّه عليه السَّلامُ أن ينبِذَ إليهم العهودَ.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ وإنَّما عاهدَ رسولُ الله ﷺ، ولكنَّ الصَّحابةَ رضُوا به، فأُضيفَ إليهم.

* * *

---

(١) رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (٥٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٧٣).

(٢) ذكره بنحوه الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٤٢٧)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٧٩). ولم أجده مسنداً.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٧٩).

(٢) ـ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: فقُلْ لهم: سِيحُوا، أو هو رجوعٌ منَ الغيبةِ إلى الخطابِ، وكقولِه: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الإنسان: ٢١]، ثمَّ قال: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ [الإنسان: ٢٢].

والسِّياحةُ: الضَّربُ في الأرضِ مع قلَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ، ومنه سُمِّيَ الصّائمُ سائحًا.

وهذا تأجيلٌ لهم أربعةَ أشهُرٍ، ومَن كانَتْ مدَّتُه دونَ أربعةِ أشهرٍ رُفِعَتْ مدَّتُه إلى أربعةِ أشهرٍ، ومَن لم يكُنْ له مدّةٌ أُثبتَ له خمسونَ يومًا. ذكرَه ابنُ عبّاس، أي: من يومِ النَّحرِ إلى انسلاخِ المُحرَّمِ[1].

قال[2] الزُّهريُّ: نزلَتِ الآيةُ في شوّالٍ، فالأشهرُ الأربعةُ: شوّالٌ وذو القَعْدةِ وذو الحِجّةِ والمُحرَّمُ[3].

---

(١) رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٣٦٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «حدّ الله عز وجل للذين عاهدوا رسول الله ـ ﷺ ـ أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاؤوا، وأجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم خمسين ليلة، وقال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ قال: وأمره إذا انسلخ الأشهر الحرم أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام ونقض ما سمى لهم من العهد والميثاق فأذهب الشرط الأول ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني أهل مكة، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾».

(٢) في (أ): «وقال».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٤١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٧).

وهذا فيمَن نقَضَ عهدَه، ضُرِبَتْ له هذه المدّةُ، ثمَّ ليس بعدَه إلّا وضعُ السَّيفِ فيهم حتَّى يُسلِمُوا، وأمَّا مَن لم ينقُضْ عهدَه فقد قال: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تفوتُونه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الدُّنيا بالقتلِ، وفي الآخرةِ بالعذابِ. والإخزاءُ: الإذلالُ فيما فيه الفضيحةُ.

* * *

(٣) ـ ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿وَأَذَٰنٞ﴾؛ أي: براءةٌ وأذانٌ، والأذانُ: الإعلامُ، يُقالُ: آذنَه يُؤذِنُه إيذانًا وأذانًا.

﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: للنّاسِ، كما يُقالُ: «هذا إعلامٌ من فلانٍ لك» و«إليك»؛ أي: ليُعلِمْ بعضُكم[1] بعضًا أنَّ الله بريءٌ منَ المُشركينَ.

﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾؛ أي: يومَ النَّحرِ[2]؛ لأنَّ مُعظمَ أعمالِ الحجِّ تقعُ فيه، من إراقةِ الدِّماءِ والحلقِ ورَمْيِ الجمرةِ، وفيه يَحلُّ المُحرِمُ، وأذَّنَ عليٌّ بالبراءةِ يومَ النَّحرِ[3].

---

(١) في (أ): «بعضهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢٤ ـ ٣٣٥) عن علي وابن عباس وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم. ورواه الترمذي (٩٥٧ ـ ٩٥٨) عن علي رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً ثم قال: والموقوف أصح.

(٣) روى البخاري (٣٦٩) من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر نؤذن بمنى: «أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»، قال حميد: ثم أردف رسول الله ﷺ عليًا، فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو =

وقيلَ: إنَّه يومُ عرفةَ[١]؛ لقولِه عليه السَّلامُ: «الحجُّ عرفةَ»[٢].

وفي روايةٍ: أنَّ عليًّا أذَّنَ بعرفاتٍ[٣].

وخطَبَ رسولُ الله ﷺ عشيَّةَ عرفةَ وقال: «هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ»[٤].

وقيلَ: يومُ الحجِّ الأكبرِ أيامُ مِنى كلُّها[٥]، وهو كما يُقالُ: يومُ صِفِّينَ، ويومُ الجملِ، ويومُ بُعاثٍ، فيُرادُ به الحينُ والزَّمانُ.

والمعنى: ليكُنْ منكم إعلامٌ للنّاسِ الذين حضَرُوا للحجِّ بأمرِ الله على لسانِ رسولِه في حالِ اجتماعِ النّاسِ بعرفاتٍ أو مِنًى، وهذا لا يمنعُ منَ الإعلامِ في يومٍ قبلَ ذلك اليومِ، أو يومٍ بعدَه، وقد يتكرَّرُ الإعلامُ في أيّامٍ، وإنَّما نبَّهَ على أَولى الأوقاتِ.

= هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر: «لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان».
وزاد البخاري في رواية (٤٦٥٧): فكان حُميدٌ يقول: يومُ النَّحر يومُ الحجِّ الأكبر، مِن أَجْل حديث أبي هريرة.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢١ ـ ٣٢٤) عن علي وعمر وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وجماعة.

(٢) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٩٠٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢١) عن علي رضي الله عنه.

(٤) رواه أبو داود في «المراسيل» (١٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢٣)، عن محمد بن قيس بن مخرمة.
وهذا مرسل، وهو مخالف لما روى ـ بإسناد صحيح ـ أبو داود (١٩٤٥)، وابن ماجه (٣٠٥٨). وعلقه البخاري بعد الحديث (١٧٤٢)، عن ابنِ عمر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ وقف يومَ النحر بين الجمرات في الحجَّة التي حَجَّ، فقال: «أيُّ يومٍ هذا؟» قالوا: يومُ النحرِ، قال: «هذا يومُ الحج الأكبر».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦) عن مجاهد.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾؛ أي: بأنَّ الله بريءٌ فابرَؤُوا أنتم أيضًا.

وقُرِئَ: (إنَّ الله) بالكسرِ[1]؛ لأنَّ الأذانَ قولٌ، وما بعد القولِ مكسورٌ.

و﴿رسولُه﴾ رفعٌ بالابتداءِ، وخبرُه مُضمَرٌ؛ أي: ورسولُه بريءٌ أيضاً، وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: أنَّ الله بريءٌ من عهدِ المُشركينَ، فحُذِفَ المُضافُ.

وفي الشَّواذِّ: (ورسولَه) بالفتحِ[2]؛ لقولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾.

وفي الشَّواذِّ: (ورسولِه) أيضًا[3]؛ أي: وحقِّ رسولِه، على القَسَمِ.

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾؛ أي: رجعتُم أيُّها المشركونَ عنِ الشِّركِ ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ أي: أنفَعُ لكم.

﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾؛ أي: عن الإيمانِ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنَّه قادرٌ على إحلالِ العقابِ بكم.

ولـمَّا فُتِحَتْ مكَّةُ وخرجَ رسولُ الله ﷺ إلى تبوكَ أَرْجفَ المنافقون ناسًا، وجعلَ المُشركون ينقُضونَ العهدَ، فلمَّا كانت سنةُ تسعٍ أرادَ عليه السَّلامُ الحجَّ، ثمَّ قال: إنَّه يحضرُ المشركون فيطوفونَ عُراةً، فلا أُحِبُّ أن أحُجَّ، فبعثَ أبا بكرٍ أميرًا على الموسمِ، وبعثَ معه بأربعين آيةً من صدرِ براءةَ ليقرأَها على أهلِ الموسمِ.

فلمّا سارَ دعا عليًّا وقال: اخرُجْ بهذه الآياتِ من صدرِ براءةَ وأذِّنْ بذلك في

---

(١) نسبت للحسن ويحيى وإبراهيم وعيسى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٦).

(٢) نسبت لابن عباس وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٣/ ١٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٧).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٣/ ١٩٣) عن الحسن. قال السمين في «الدر المصون» (٦/ ٩): هذه القراءة يبعد صحتها عن الحسن للإبهام.

النّاسِ، فخرجَ عليٌّ على ناقةِ رسولِ الله ﷺ العَضْباءِ، وأدرَكَ أبا بكرٍ بذي الـحُلَيفةِ، فرجعَ أبو بكرٍ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وقال: بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ الله، أنزَلَ في شأني شيءٌ؟ فقال عليه السَّلامُ: «لا، ولكِنْ لا يُبلِّغُ عنِّي غيري، أو رجلٌ منِّي، أما ترضَى يا أبا بكرٍ أنَّك كنتَ معي في الغارِ، وأنَّك صاحبي على الحوضِ؟» قال: بلى، فصارَ أبو بكرٍ أميرًا على الحجِّ، وأقامَ للنّاسِ الحجَّ[1].

---

(١) هذا ملفق من عدة أحاديث:

حديث جابر عند الدارمي في «سننه» (١٩١٥)، والنسائي (٢٩٩٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٦٤٥).

وحديث ابن عباس عند الترمذي (٣٠٩١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٥).

وحديث أبي هريرة عند أحمد (٧٩٧٧)، والنسائي (٧٩٧٧).

وحديث علي عند أحمد (٥٩٤)، والترمذي (٣٠٩٢).

وحديث أنس عند أحمد (١٣٢١٤)، والترمذي (٣٠٩٠)، والنسائي في «الكبرى» (٨٤٠٦).

وحديث أبي سعيد الخدري عند ابن حبان في «صحيحه» (٦٦٤٤).

وأصل القصة عند البخاري (٤٦٥٥)، ومسلم (١٣٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أما قوله ﷺ: «لا يؤدِّي عنِّي إلَّا رجلٌ منِّي»، فقد ورد نحوه ضمن بعض الأحاديث التي ذكرناها، وهو مما ضعفه بعض العلماء واستنكروه، فقد أورده الجوزقاني في «الأباطيل» (١/ ١٣١) من عدة روايات، وقال: فهذه الروايات كلها مضطربة مختلفة منكرة، واستنكره أيضاً ابن تيمية في «منهاج السنة» (٥/ ٦٣)، ونقل عن الخطابي قوله في كتاب «شِعَارِ الدِّينِ»: وقولُه: «لَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ أَهلِ بَيْتِي» هو شيءٌ جاء به أهلُ الكوفةِ عن زيد بنِ يُثيع، وهو متَّهم في الرواية منسوبٌ إلى الرفض، وعامَّةُ مَن بَلَّغَ عنه غيرُ أهل بيته، فقد بَعث رسولُ الله ﷺ أسعد بنَ زُرارةَ إلى المدينة يدعو الناسَ إلى الإسلام ويُعلِّم الأنصار القرآن ويُفقِّهُهم في الدِّين، وبَعث العلاءَ بنَ الحضرميِّ إلى البحرين في مثل ذلك، وبَعث معاذًا وأبا موسى إلى اليمن، وبَعث عَتَّابَ بنَ أَسِيدٍ إلى مكة، فأين قولُ مَن زعم أنه لا يُبلِّغُ عنه إلَّا رجلٌ من أهل بيته؟

فلمَّا كان يومُ النَّحرِ قامَ عليٌّ فأذَّنَ في النّاسِ بما أُمِرَ، فقال المشركون: نحنُ نبرَأُ من عهدِك وعهدِ ابنِ عمِّك إلّا منَ الطَّعنِ والضَّربِ[(١)].

قال الزَّجّاجُ: عادةُ العربِ أنَّ مُقدَّمَ القبيلةِ إذا عقدَ عهدًا لا يتولَّى نقضَه إلا هو أو رجلٌ من رَهْطِه كأخٍ أو عمٍّ، فلو كان نقضُ العهودِ من أبي بكرٍ كان ذلك خلافَ عادتِهم[(٢)].

وإلّا فأبو بكرٍ كانَ الإمامَ والخطيبَ، وعليٌّ المأمورَ[(٣)] والمُؤتَمَّ به، وتحتَ رايتِه، والمُستَمَعَ عنه منه، وكان أبو بكرٍ الدّافعَ بالموسمِ[(٤)].

* * *

(٤) - ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾؛ أي: العِصمةُ باقيةٌ للمُعاهَدِ منهم ما دامَ على عهدِه، ثمَّ قال: إن الله بريء من المشركين إلّا منَ المُعاهَدينَ مدَّةَ عهدِهم.

وقيلَ: الاستثناءُ مُنقطعٌ؛ أي: إنَّ الله بريءٌ منهم، ولكنَّ الذين عاهَدتُم فثبَتُوا على العهدِ فكُفُّوا عنه بقيَّةَ المدَّةِ وفاءً بعهدِهم، وهؤلاءِ قومٌ مخصوصونَ أمرَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ بإتمامِ عهدِهم، وهم: بنو ضَمْرةَ وبنو كِنانةَ، وكان بقيَ لهم من مدَّتِهم تسعةُ أشهرٍ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣١٧) عن السدي.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢٨).

(٣) في (أ): «المأموم».

(٤) انظر: «البسيط» (١٠/ ٢٩١).

﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾؛ أي: ما كان منهم نُقصانٌ في شروطِ العهدِ من طعنٍ في المسلمين واطِّلاعٍ على عوراتِهم.

وفي الشَّواذِّ: (ثمَّ لـم ينقُضُوكم) بالضّادِ المُعجمةِ[1].

﴿وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾؛ أي: لـم يُعاوِنوا عليكم عدوًّا.

﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾؛ أي: إلى انقضاءِ مُدَّتِهم، والمدّةُ: زمانٌ مديدُ الفُسحةِ.

* * *

(٥) ـ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾؛ أي: خرَجَ، يُقالُ: أهلَلْنا شهرَ كذا؛ أي: دخَلْنا فيه، ويمتدُّ هذا إلى مُنتصفِ الشَّهرِ، ثمَّ[2]، يُقالُ: سلَخْناه عن أنفُسِنا جزءًا فجزءًا إلى آخرِ الشَّهرِ، فينسلخُ الشَّهرُ.

وليس يُريدُ بالأشهرِ الحرمِ الأشهرَ المعروفةَ، بل مَن كان عهدُه مُقيَّدًا إلى مدَّةٍ ولـم ينقُضِ العهدَ أُمِرَ النَّبيُّ بإتمامِ عهدِه، ومَن كان العهدُ معه مُطلقًا أُمِرَ بنبذِ العهدِ إليه، ولكنْ أُجِّلُوا أربعةَ أشهرٍ من وقتِ هذا الإعلامِ، وهو يومُ النَّحرِ إلى تمامِ أربعةِ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٦) عن عطاء بن يسار، و«المحتسب» (١/ ٢٨٣) عن عكرمة.

(٢) «ثم» ليست في (أ).

أشهرٍ، فالأشهرُ الحرُمُ هذه الأشهرُ التي حُرِّمَ فيها قتلُهم، هذا قولُ مجاهدٍ(١).

وقيلَ: مَن كان له عهدٌ مُطلقٌ نُبِذَ إليه عهدُه، وصُرِفَ له مهلةُ أربعةِ أشهرٍ من وقتِ النِّداءِ، فيمتدُّ إلى متوسِّطِ ربيعِ الآخرِ، ومَن لم يكنْ له عهدٌ أصلًا أُمهِلَ إلى انسلاخِ المُحرَّمِ، فكانَ أجلُه من وقتِ النِّداءِ خمسينَ يومًا، فيرجعُ قولُه: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ إلى هؤلاءِ، والأشهرُ الحرُمُ على هذا هي المعروفةُ، ولعلَّ هذا جرَى إذ كان القتالُ مُحرَّمًا في الأشهرِ الحرُمِ، والآنَ فهو منسوخٌ.

وقيلَ: مَن كان له عهدٌ مُطلقٌ أُمهِلَ أربعةَ أشهرٍ من وقتِ نزولِ براءةَ، وإنَّما نزلَتْ في أوائلِ شوّالٍ، ومَن لم يكُنْ له عهدٌ أُمهِلَ من وقتِ النِّداءِ خمسينَ يومًا، ففي انقِضاءِ المحرَّمِ حلولُ الأجلَينِ، قالَه الزُّهريُّ(٢).

﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ أي: في الحلِّ والحرمِ، وفي الشَّهرِ الحرامِ وغيرِه، فـ﴿حَيْثُ﴾ بمعنى المكانِ والزَّمانِ.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾؛ أي: بالأسرِ ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ الحصرُ: المنعُ عن الخروجِ من محيطٍ؛ أي: إن تحصَّنُوا فاحصُرُوهم.

وقيلَ: حصرُهم: منعُهم منَ البيتِ الحرامِ.

وقيلَ: تُضييقُ المسالكِ عليهم إرهاقًا إلى الإيمانِ.

﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ المرصدُ: الموضعُ الذي يُرقَبُ فيه العدوُّ، يُقالُ: «رَصَدْتُ فلانًا أرصُدُه»؛ أي: ترقَّبتُه؛ أي: اقعُدوا لهم كلَّ طريقٍ تأخُذونَه إلى المسجدِ

---

(١) رواه أبو عبيد في «الأموال» (٤٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٤٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٤١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٧).

الحرامِ أو إلى تجارةٍ، فيجوزُ أن يكونَ ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ ظرفًا عند الزَّجّاجِ، تقولُ: ذهبتُ طريقًا، و: ذهبتُ كلَّ طريقٍ[1].

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: على كلِّ طريقٍ، فيُجعَلُ المرصدُ اسمًا للطَّريقِ، وهذا كقولِك: «ذهبتُ إلى زيدٍ».

وخطَّأَ أبو عليٍّ الزَّجَّاجَ في جعلِه الطَّريقِ ظرفًا، وقال: الطَّريقُ مكانٌ مخصوصٌ كالبيتِ والمسجدِ، وليس بظرفٍ؛ فلا يجوزُ حذفُ حرفِ الجرِّ منه إلّا فيما ورَدَ فيه الحذفُ سماعًا، كما حكى سيبويهِ: «ذهبتُ الشَّامَ»، و: «دخلتُ البيتَ»[2]، وكما قيلَ:

كما عسَلَ الطَّريقَ الثَّعلبُ[3]

﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ أي: منَ الشِّركِ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دلَّ هذا على أنَّ تارِكَ الصَّلاةِ يُقتَلُ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٣٠)، و«البسيط» للواحدي (١٠/ ٢٩٥)، وعنه نقل المصنف.

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (١٠/ ٢٩٥). وانظر: «التعليقة على كتاب سيبويه» لأبي علي الفارسي (١/ ٦٠ـ٦٣).

(٣) انظر: «الكتاب» (١/ ٣٥ و٤١٤)، و«الإغفال» لأبي علي الفارسي (ص ٨٤٨ـ٨٥٢)، و«البسيط» للواحدي (١٠/ ٢٩٥). وهذه قطعة من بيت لساعدة بن جؤية الهذلي. انظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٩٠)، و«الكتاب» (١/ ٢١٤)، ودون نسبة في «الكامل» للمبرد (١/ ٢٨٩). وتمامه:

لَدْنٌ بِهَزِّ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ ... فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

وقال الطيبي في حاشيته على «الكشاف» المسماة: «فتوح الغيب» (٦/ ٣٤٣): يصف الرمح، (لدن)؛ أي: لين، عَسَل الذئبُ يَعسِلُ عَسَلاً وعَسَلاناً؛ أي: أسرع. وعسل الرمح: اهتزَّ واضطرب. والضمير في (فيه) للهز أو الكف.

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ظاهرُ هذا يقتَضي أن يُقتَلُ تاركُ الزَّكاةِ أيضًا، ولكن تُرِكَ هذا الظّاهرُ في الزَّكاةِ بدليلِ الإجماعِ.

﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾؛ أي: إلى البيتِ الحرامِ، والتَّقلُّبِ في التِّجاراتِ وغيرِها؛ فإنَّهم الآنَ مُسلمونَ مثلُكم.

* * *

(٦) - ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾؛ أي: طلَبَ أن يكونَ جارًا لك من وُثوبِ المسلمينَ عليه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فأجِبْه إلى ذلك.

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: القرآنَ.

وقيلَ: ما أعدَّ الله لعبادِه منَ الثَّوابِ والعقابِ وما أوجَبَ عليهم.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ يعني: إذا لم يُؤمِنْ.

* * *

(٧) - ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾؛ أي: كيف يكونُ لهم عهدٌ عند الله يأمَنُونَ به عذابَه غدًا؟ وكيف يكونُ لهم عند الرَّسولِ عهدٌ يأمَنُونَ به عذابَ الدُّنيا؟

وقيلَ: أي: كيفَ يكونُ لهم عند الرَّسولِ عهدٌ يأمَنُونَ به عذابَ الدُّنيا، فيُضافُ عهدُ الرَّسولِ إلى الله؛ لأنَّه يكونُ بأمرِه، قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

و﴿كَيْفَ﴾ هاهُنا للتَّعجيبِ، كما تقولُ: «كيف يسبِقُني فلانٌ؟»؛ أي: لا ينبَغي أن يسبقَني.

وقيلَ: في الآيةِ إضمارٌ؛ أي: كيف يكونُ للمشركين عهدٌ مع إضمارِ الغدرِ فيما وقعَ منَ العهدِ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾؛ أي: ليس العهدُ إلّا لهؤلاءِ الذين لـم ينقُضوا.

وقيلَ: أي: كيفَ يكونُ للمشركين عهدٌ من غيرِ عهدٍ معقودٍ لهم منَ الرَّسولِ والمسلمين كالذين عاهَدْتم عند المسجدِ الحرامِ فأجَّلتُموهم أربعةَ أشهرٍ، فاستقيموا لهؤلاءِ ما استقامُوا لكم في الأشهرِ الأربعةِ، فأمَّا مَن لا عهدَ له فقاتلوه حيثُ يوجَدُ إلّا أن يتوبَ.

* * *

(٨) ـ ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

قولُه: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أعادَ التَّعجيبَ من أن يكونَ لهم عهدٌ مع خُبثِ[١] أعمالِـهم، يُقالُ: «ظهرتُ على فلانٍ»؛ أي: غلَبتُه.

﴿لَا يَرْقُبُوا﴾؛ أي: لا يَحفَظُوا[٢]، والرَّقيبُ: الحافِظُ[٣]، والرَّقْبةُ: الانتِظار.

﴿إِلًّا﴾؛ أي: عهدًا، وقيلَ: الإِلُّ: القرابةُ، وقيلَ: الحِلفُ والجِوارُ.

وقيلَ: الإِلُّ: اسـمٌ من أسـماءِ الله، وسـمعَ أبو بكرٍ أسـجاعَ مُسـيلمةَ فقال: «إنَّ

---

(١) في (أ): «خبيث».

(٢) في (ف): «يحافظوا».

(٣) في (أ): «الحفيظ».

هـذا الكلامَ لـم يخرُجْ عـن إلٍّ»[١]؛ أي: ليس من جهـةِ الله تعالى.

وأنكـرَ الزَّجَّـاجُ هـذا، وقال: لـم يُسـمَعْ في الدُّعـاءِ: يـا إلُّ، فـالإلُّ عندي منَ الحِـدَّةِ، ومنـه: «الألَّـة» للحربةِ، ومنـه: «أذنٌ مؤلَّلـة»؛ أي: محدَّدة، فإذا قيـلَ للعهدِ والجِـوارِ والقرابـةِ: «إلٌّ» فمعنـاه: أنَّ الأذنَ تُصـرَفُ إلـى تلـك الجهـةِ؛ أي: يُحـدَّدُ لـها[٢].

وقال الأزهري: «إيل» هو اسمُ الله بالعِبرانيّةِ، فلعلَّه عُرِّبَ فقيلَ: «إلّ»[٣].

وقيلَ: الألُّ: اللَّمعانُ، يُقالُ: ألَّ يئِلُّ ألًّا؛ أي: صَفا ولـمَعَ، والعهدُ يُسمَّى «إلًّا» لصفائِه وظهورِه.

﴿وَلَا ذِمَّةً﴾؛ أي: عهدًا، وهي كلُّ حرمةٍ يلزمُكَ إذا ضيَّعْتَها ذنبٌ، وتذَمَّمَ فلانٌ؛ أي: ألقَى عن نفسِه الذَّمَّ، والإلُّ والذِّمَّةُ يتقارَبانِ في المعنى، فكُرِّرَ للتَّأكيدِ.

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: يقولونَ بألسنتِهم ما يُرضيكم ظاهرُه.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾: ناقِضُونَ للعهدِ، فكلُّ كافرٍ فاسقٌ، ولكنَّه أرادَ هاهُنا: المُجاهرين بالقبائحِ ونقضِ العهدِ.

* * *

---

(١) ذكره أبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ٢٣٠) عن ابن إسحاق، وأورده الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٩٨)، والماوردي في «أعلام النبوة» (ص: ٨٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢١١)، والباقلاني في «إعجاز القرآن» (ص: ١٥٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٣٣)، و«البسيط» للواحدي (١٠/ ٣٠٧_٣٠٨).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٣١٤)، و«البسيط» للواحدي (١٠/ ٣٠٨) وعنه نقل المصنف.

(٩) ـ ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: استبدَلُوا بالقرآنِ متاعَ الدُّنيا ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: أعرَضُوا، منَ الصُّدودِ، أو: منَعُوا عن سبيلِ الله؛ منَ الصَّدِّ.

* * *

(١٠) ـ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾.

قولُه: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾؛ أي: لا يُراعونَ العهدَ.

﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾؛ أي: المُجاوِزونَ للحلالِ إلى الحرامِ بنقضِ العهدِ.

* * *

(١١) ـ ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾؛ أي: عن الشِّركِ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: التزَموا أحكامَ الإسلامِ ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾؛ أي: فهم إخوانُكم ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾.

قال ابنُ عبّاسٍ: حرَّمت هذه الآيةُ دماءَ أهلِ القبلةِ(١).

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾؛ أي: نُبيِّنُها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ خصَّهم لأنَّهم المُنتفِعون بها.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٦٢)، من طريق رجل مبهم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٢) - ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ ﴾؛ أي: لو[١] نكثَ هؤلاءِ الذين قُلنا: ﴿أتِمُّوا إليهم عهدَهم إلى مدَّتِهم﴾ عهودَهم فقاتِلُوهم.

والنَّكثُ: النَّقضُ، والأيمانُ: جمعُ اليمينِ، وهي بمعنى الحلفِ، ويُسمَّى الحلفُ يمينًا لأنَّهم كانوا يبسُطُونَ اليدَ إذا حلَفُوا.

وقيلَ: بل ليُمنِ البرِّ فيه.

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾؛ أي: اغتابُوكم وأساؤُوا القولَ في دينِكم، يُقالُ: طعنَه بالرُّمحِ، وطعنَ بالقولِ السَّيِّئِ فيه، يطعُنُ، بضمِّ العينِ فيهما.

وقيلَ: يطعُنُ بالرُّمحِ بالضَّمِّ، ويطعَنُ بالقولِ بالفتحِ.

وأهلُ الذِّمَّةِ إذا طعنُوا في دينِنا ينتقِضُ عهدُهم.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ أرادَ: صناديدَ قُريشٍ ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ ﴾؛ أي: ليسَتْ عهودُهم صادقةً وإنْ ثبتَ لهم أيمانٌ كما قال: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم ﴾، والمعنى: أنَّهم لا يَفُونَ بها.

وقُرِئَ: ﴿لا إيمانَ لهم﴾ بكسرِ الهمزةِ[٢]، أي: لا إسلامَ لهم، أو: لا تُؤْمِنوهم، من آمَنْتُه[٣] إيمانًا؛ أي: أجرتُه، فلهذا قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾.

---

(١) في (أ): «أي: إن».

(٢) قرأ بها ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٢)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٣) في (أ): «أأمنته».

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾؛ أي: عنِ الشِّركِ؛ أي: قاتِلُوهم مُؤمِّلينَ أن ينتَهوا، فـ(لعلَّ) هذا يرجعُ إلى المُقاتِلين.

* * *

(١٣) ـ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ نزلَ في كفَّارِ مكَّةَ؛ نكَثُوا أيمانَهم بعدَ عهدِ الحديبيَةِ، وأعانُوا بني بكرٍ ـ وهم حلفاءُ قريشٍ ـ على بني خُزاعةَ حلفاءِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ[1].

﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: كانَ منهم سببُ الخروجِ، فأُضيفَ الإخراجُ إليهم.

وقيلَ: أي: أخرَجُوا الرَّسولَ عليه السَّلامُ عن المدينةِ لقتالِ أهلِ بدرٍ للنَّكثِ الذي كانَ منهم.

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: نقَضُوا العهدَ وأعانُوا بني بكرٍ على خُزاعةَ، أو: بدؤُوكم بالقتالِ يومَ بدرٍ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ خرجَ للعيرِ، ولمَّا أحرَزُوا عيرَهم كانوا يُمكِنُهم الانصرافُ، فامتَدُّوا إلى بدرٍ، وقالوا: نأتي بدرًا ونشربُ الخمورَ لتتحدَّثَ العربُ.

﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾؛ أي: تخافُوا عقابَه في تركِ قتالِهم، وقولُه: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾؛ أي: أتخافُونَ أن ينالَكم في قتالِهم مكروهٌ.

---

(١) ستأتي القصة قريباً.

وقيلَ: إخراجُهم الرَّسولَ عليه السَّلامُ: منعُهم إيّاه منَ الحجِّ والعمرةِ والطَّوافِ، وهذا ابتِداؤُهم، فلا جرَمَ مُنِعُوا عن دخولِ المسجدِ الحرامِ.

* * *

(١٤) - ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: قاتلوهم فإنَّكم إن فعلتُم ذلك عذَّبَهم الله تبارَكَ وتعالى بأيديكم، وهذا وعدُ النَّصرِ.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يعني: في الآخرةِ، وقيلَ: يُذِلُّهم بالقهرِ والأسرِ.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: خُزاعةَ؛ لأنَّ قُريشًا أعانَتْ بني بكرٍ عليهم، فكانت خُزاعةُ حلفاءَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، فأنشدَ رجلٌ من بني بكرٍ هجاءَ رسولِ الله ﷺ، فقال له بعضُ خُزاعةَ: لَئِنْ أعدتَه لأكسِرَنَّ فمَك، فأعادَه فكسرَ فاه، وثارَ بينَهم قتالٌ فقتَلوا من الخزاعيِّينَ أقوامًا، فخرجَ عمرُو بنُ سالمٍ الخزاعيُّ في نفرٍ إلى النَّبيِّ ﷺ وأخبرَه به، فدخلَ منزلَ ميمونةَ وقال: اسكُبُوا لي ماءً، فجعلَ يغتسلُ وهو يقولُ: «لا نُصِرْتُ إنْ لم أنصُرْ بني كعبٍ»، ثمَّ أمرَ عليه السَّلامُ بالتَّجهُّزِ، وخرجَ إلى مكّةَ، فكان الفتحُ[1].

---

(١) كذا ذكره المصنف، ونقله عنه القرطبي في «تفسيره» (٨/ ٨٧).

والمشهور في قصة نقض العهد باختصار: أنه دخلت خزاعة في عقد محمد ﷺ ودخلت بنو بكر في عقد قريش، فمكثوا في الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر الذين دخلوا في عقد قريش وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ ليلاً بماء يقال له: الوتير، قريب من مكة، وقالت قريش: هذا ليل وما يعلم بنا محمد ولا يرانا أحد، فأعانوا بني بكر بالكراع والسلاح، وقاتلوا خزاعة معهم للضغن على رسول الله ﷺ، فركب عمر بن سالم الخزاعي إلى رسول الله ﷺ =

(١٥) ـ ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي: كَرْبَها.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ ابتداءُ كلامٍ، ولهذا لم يقُلْ: «ويتُبْ»، والذين تابَ عليهم مثلُ أبي سفيانَ، وعكرمةَ بنِ أبي جهلٍ، وسُهَيلِ بنِ عمرٍو؛ فإنَّهم أسلَمُوا.

***

= عند ذلك يخبره الخبر فلما قدم عليه أنشده:

يا ربِّ إنِّي ناشدٌ محمدا ... حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
فهم أذل وأقل عددا ... وجعلوا لي في كَدَاء رُصَّدا
هم بيَّتونا بالوتير هُجَّدا ... فقتَّلونا ركَّعاً وسجدا
فانصر هداك الله نصراً أيَّدا ... وادعوا عباد الله يأتوا مددا

فقال رسول الله ﷺ «نصرت يا عمرو بن سالم».

انظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٧٨٠) من رواية هشام بن خالد الكعبي، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٩٤) من رواية ابن إسحاق، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦٩٠٠) من رواية أبي سلمةَ ويحيى بن عبد الرحمن بنِ حَاطِبٍ، و(٣٦٩٠٢) من رواية عكرمة، و«أخبار مكة» للفاكهي (٢٩١٤) من رواية خالد بن عبد العزيز، و«المعجم الكبير» ٢٣/ (١٠٥٢) من حديث ميمونة رضي الله عنها، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٧) من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة.

ولفظ المرفوع في «السيرة» و«الدلائل»: «نصرت يا عمرو بن سالم»، وفي حديث ميمونة: «نصرت» ثلاثاً، أو: «لبيك لبيك»، وفي رواية أبي سلمةَ ويحيى بن عبد الرحمن: فمَرَّت سحابةٌ فرعدَتْ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إن هذه لترعَدُ بنصرِ بني كعب».

(١٦) - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾؛ أي: لا يُخْلي اللهُ المؤمنينَ عن الأمرِ بالجهادِ.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾؛ أي: ولـم يعلَمِ الله، فأدخلَ (ما) تأكيدًا، كقولِه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠]؛ أي: لـم يَعلمِ العلمَ الذي يُجازي عليه؛ لأنَّه يُجازي على ما عملوا[١].

والوَليجةُ: البِطانةُ وخاصَّةُ الرَّجلِ، منَ الوُلوجِ، وهو الدُّخولُ.

* * *

(١٧) - ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

قولُـه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ قيـلَ: أرادَ: ليـس لهم الحجُّ بعـد مـا نُـودِيَ فيهـم بالمنعِ عن المسـجدِ الحـرامِ، وكانـت أمـورُ البيتِ كالسِّـدانةِ والسِّـقايةِ والرِّفـادةِ إلـى المشـركين، فبيَّـنَ أنَّهـم ليسـوا أهـلًا لذلـك، بـل أهـلُ المسـجدِ المؤمنـون.

ولـمَّا أُسِرَ العبَّاسُ وعُيِّـرَ بالكفرِ وقطيعةِ الرَّحـمِ قال: تذكرون مساوِئَنا ولا تذكرون محاسِنَنا، فقال عليٌّ: أَلَكُم محاسنُ؟ قال: نعم، إنَّا لنَعمرُ المسجدَ الحرامَ، ونحجُبُ الكعبةَ، ونسقي الحاجَّ، ونفكُّ العانيَ، فنزلَتْ هذه الآيةُ ردًّا عليه[٢].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٧٢).

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ١٦٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣١٥). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٢٥)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٢٨) وفي «أسباب النزول» (ص: ٢٤٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فيجبُ إذن على المسلمين تولِّي أحكامَ المسجدِ، ومنعُ المشركينَ من دخولِه.

والعمارةُ هاهُنا: دخولُ المسجدِ، والطَّوافُ، والصَّلاةُ فيه، ورمُّ ما استرمَّ منه.

ثمَّ؛ قُرِئَ: ﴿مسجدَ الله﴾؛ أي: المسجدَ الحرامَ، وقُرِئَ: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾(١)، فهو على التَّعميمِ.

ويجوزُ أن يُرادَ باللَّفظِ العامِّ المسجدُ الحرامُ، كقولك: «خرجَ فلانٌ إلى الحجِّ على البغالِ»، فهو إشارةٌ إلى الجنسِ، والمُرادُ واحدٌ.

قولُه: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾؛ أي: في حالِ إقرارِهم بالكفرِ، وشهادتُهم: إقرارُهم بالكفرِ وسجودُهم لأصنامِهم، وقولُهم في التَّلبيةِ: «لبَّيكَ لا شريكَ لك إلّا شريكٌ هو لك، تملِكُه وما ملَكَ»(٢)، وكانُوا لا يعترِفُونَ بأنَّهم كفّارٌ، ولكنَّ أحوالَهم دلَّتْ على كُفرِهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ أي: أعمالُهم لغيرِ الله.

* * *

ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، دون كلام علي رضي الله عنه.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب الأولَ على التوحيد، وباقي العشرة على الجمع، ولا خلاف على الجمع في الثاني بينهم، إلا رواية ذكرها ابن مجاهد عن ابن كثير في غير المشهور عنه أنه قرأ بتوحيد الثاني. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٣)، و«التيسير» (ص: ١١٨)، و«النشر» (٢/ ٢٧٨).

(٢) روى مسلم (١١٨٥) تلبيتهم هذه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٨) - ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: إنَّما يعمُرُها بحقِّها ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ ولـم يذكرِ الرَّسولَ صريحًا، ولكنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ إنَّما يصحُّ من المُؤمنِ بالرَّسولِ، فلهذا لـم يُفرِدْه بالذِّكرِ.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾؛ أي: لـم يـخَفْ في بابِ الدِّينِ إلّا الله.

﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾؛ أي: أولئك المُهتَدون، وذكرَ لفظَ (عسى) ليكونُوا على رجاءٍ وحذرٍ.

وقيلَ: (عسى) بمعنى: «خليقٌ»؛ أي: فخليقٌ أن يكونُوا منَ المُهتَدين.

* * *

(١٩) - ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قولُـه: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾ كانُوا يتباهَونَ بسَـقْيِ الحجيجِ وعمارةِ ما تشـعَّبَ مـنَ المسـجدِ، فبيَّـنَ أنَّ هذا لا يعـدِلُ الإيمانَ بالله، بـل لا يُعتَدُّ به إلّا مـع الإيمانِ.

نزلَتْ في العبّاسِ؛ إذ قال: كنَّا نعمرُ المسجدَ ونسقي الحجيجَ[1].

وقيـلَ: نزلَـتْ فـي علـيٍّ والعبّـاسِ وطلحـةَ بنِ شـيبةَ، قـال طلحةُ: أنـا صاحبُ

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٦٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

البيتِ، بيدي مفتاحُه، ولو أشاءُ بِتُّ فيه، وقال العبّاسُ: أنا صاحبُ السِّقايةِ، وقال عليٌّ: ما أدري ما تقولانِ، لقد صلَّيتُ ستّةَ أشهرٍ قبلَ النّاسِ، وأنا صاحبُ الجهادِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ(١).

والسِّقايةُ: الموضعُ الذي يُتَّخذُ فيه الشَّرابُ في المواسمِ وغيرِها؛ أي: أجعلتُم أهلَ سقايةِ الحاجِّ كإيمانِ مَن آمنَ.

وقيلَ: يجوزُ أن تكونَ السِّقايةُ مصدرًا، كالرِّعايةِ والحمايةِ، أي: أجعَلْتُم ساقيَ الحاجِّ وعامرَ المسجدِ كمَن آمنَ؟!

وقيلَ: من عمارةِ المسجدِ التَّجمير والتَّخليقُ؛ أي: هذه الأشياءُ لا تنفعُ مع الشِّركِ.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٨٠) عن محمد بن كعب القرظي، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٦١) مختصرًا عن الحسن.

والصحيح في نزولها ما رواه مسلم (١٨٧٩) عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم.

فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ـ وهو يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية إلى آخرها.

(٢٠) - ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً﴾؛ أي: مِنَ الذين افتَخَروا بالسَّقي والعمارةِ، وليس للكافرِ درجةٌ عند الله حتَّى يُقالَ: المؤمنُ أعظمُ درجةً، والمُرادُ: أنَّهم قدَّرُوا لأنفُسِهم الدَّرجةَ بالعمارةِ والسَّقيِ، فخاطبَهم على ما قدَّرُوه في أنفُسِهم وإنْ كانَ التَّقديرُ خطأً كقولِه: ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا ﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقيلَ: أعظمُ درجةً من كلِّ ذي درجةٍ؛ أي: لهم المزيَّةُ.

* * *

(٢١) - ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم﴾؛ أي: يُعلِمُهم في الدُّنيا ما لهم في الآخرةِ.

والنَّعيمُ: لينُ العيشِ في[1] النِّعمةِ.

* * *

(٢٢) - ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾.

قولُه: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾؛ أي: مُقيمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ معنى ﴿عِندَهُۥٓ﴾: أنَّه الذي أعدَّ لهم ذلك الثَّوابَ.

* * *

(١) في (أ): «من».

(٢٣) - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ قطعَ الولايةَ بين المؤمنِ والكافرِ، وأمَرَ بالبراءةِ منَ المُشركينَ، ولـمَّا أرادَ المسلمون الهجرةَ كان فيهم مَن تعلَّقَ به زوجتُه وأولادُه، فنزلتِ الآيةُ أن لا تُقيموا بين أظهُرِ الكفَّارِ بعد الأمرِ بالهجرةِ[١].

﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ﴾؛ أي: أحبُّوا، كما يُقالُ: «استجابَ»؛ أي: أجابَ.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: هو مشركٌ مثلُهم[٢]؛ لأنَّ مَن رضيَ بالشِّركِ فهو مشركٌ.

* * *

(٢٤) - ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ ﴾ عشيرةُ الرَّجلِ: أهلُه الأدنونَ، وهم الذين يُعاشِرُونَه.

وقُرِئَ: ﴿وعشيراتكم﴾[٣].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٤١) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو في «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٥).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٤١).

(٣) قرأ بها شعبة عن عاصم. انظر: «السبعة» (ص: ٢١٣)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتُموها.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾؛ أي: فأقيمُوا فيهم، وهذا تهديدٌ لهم؛ أي: ليس لكم ثوابٌ[1].

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بفتحِ مكّةَ، فحينَئذٍ يسقطُ فرضُ الهجرةِ.

* * *

(٢٥ـ٢٦)ـ ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ ذكَّرهم نصرَه في مواضعَ وفي يومِ حنين؛ أي: لا تُفكِّروا في قراباتِكم؛ فإنَّهم خذَلُوكم في كلِّ موضعٍ وقاتلوكم، وإنَّما نصَرَكم الله.

والمواطِنُ جمعُ: المَوطِنِ.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: هو وادٍ بينَ مكّةَ والطّائفِ جرَى فيه القتالُ مع هوازِنَ وثقيفٍ، وحُنَينٌ ينصرِفُ؛ لأنّه اسمٌ مذكَّرٌ سُمِّيَ به مذكَّرٌ، وفي العربِ مَن لا يَصرِفُه، ويقولُ: إنَّه اسمٌ للبلدةِ والبقعةِ، وهكذا الكلامُ في بدرٍ وأُحُدٍ وحِراءٍ.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ قيلَ: كانوا اثنَي عشرَ ألفًا، عشرةُ آلافٍ قدِمُوا مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وألفانِ من أهلِ مكّةَ.

وقيلَ: كانوا أحدَ عشرَ ألفًا وخمسَ مئةٍ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٤١) عن ابن عباس بلفظ: «فتربصوا بما تحبون فليس لكم عند الله ثواب في إيمانكم».

وقيلَ: ستةَ عشرَ ألفًا(١).

فقال بعضُهم: «لن نُغلَبَ اليومَ عن قلَّةٍ»(٢)، فوُكِلُوا إلى هذه الكلمةِ، فكانت الهزيمةُ في الابتداءِ إلى أن تراجَعُوا.

---

(١) جمع الآلوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) ما روي في عددهم من أقوال فقال: وكان المسلمون على ما روي عن الكلبي عشرة آلاف، وعلى ما روي عن عطاء ستة عشر ألفاً، وقيل: ثمانية آلاف، وصحّح أنهم كانوا اثني عشر ألفاً: العشر الذين حضروا مكة وألفان انضموا إليهم من الطلقاء.

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٨٩) عن السدي: أن القائل هو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يعيِّنه، وكذا روى عن قتادة أنه قال: (وذكر لنا أن رجلاً قال...)، ومثله روى البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٢٣) عن الربيع.

وكذا رواه دون تعيين البزار (١٨٢٧ ـ كشف) من حديث أنس رضي الله عنه، وفيه: (قال غلام منا من الأنصار...).

ثم الظاهر أن قائل هذه العبارة ليس ممن شهد المشاهد مع النبي ﷺ، لأن المسلمين في كل الغزوات والسرايا التي سبقت تلك المعركة ما هزموا في واحدة منها من قلة، فلا يخطر ببال مَن هذا حاله أن يقول تلك العبارة أو يعتقد بها، وإنما من يفكر بمثل هذا أولئك الذين لم يشهدوا المشاهد من حديثي الإسلام وممن لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، والذين لا يزالون يعتقدون أن الغلبة تتعلق بالكثرة، كما هو معتقد أهل الجاهلية.

وقد ذكر الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٤٦)، وفي «الوسيط» (٢/ ٤٨٧)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤١٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قائل ذلك هو سلمة بن سلامة، وهذا بعيد لأن هذا صحابي كبير شهد العقبتين وبدراً وأحداً والمشاهد، فلا يظن به ذلك، ولا يخبر عنه بلفظ: (غلام من الأنصار)، علماً أن خبر ابن عباس الذي ورد فيه ذلك قد ذكره الواحدي في تفسيريه من رواية عطاء عن ابن عباس، وهذا الطريق كثير الدوران عند الواحدي، وإسناده ساقط.

وأبعد منه ما ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٤٩١) فقال: «وقيل: قائلُها رسول الله ﷺ، وقيل: أبو بكر» كذا نقل هذين القولين، وهما قولان مردودان لا يحتاجان إلى عناء البحث عنهما.

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لـم تُغنِكُم كثرتُكم شيئًا تنتَفِعونَ به، وبيَّنَ الله بهذا أنَّ الغلبةَ بنصرِ الله لا بالكثرةِ.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ أي: مـع رُحْبِهـا، فالبـاءُ بمعنـى «مع».

وقيلَ: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ أي: على رُحْبِها؛ لشدّةِ الخوفِ.

وخرجَ رسولُ الله ﷺ إلى حُنَينٍ في أواخرِ رمضانَ أو بعدَما أفطرَ، وكانت هوازنُ جمعَتْ له جمعًا كثيرًا، واستعارَ أدرُعًا من صفوانَ، فقال: أغصبًا يا محمَّدُ، فقال: «لا، ولكن عاريةٌ مضمونةٌ مُؤدّاةٌ»، قال: فلا بأسَ إذن[1].

وكانت هوازِنُ أخرَجُوا معهم النِّسوانَ، وكان لهم كمينٌ، وصارَ ذلك سببَ انهزامِ المسلمينَ في ابتداءِ النَّهارِ، فلم يبقَ مع رسولِ الله إلا تسعةٌ فيهم العبّاسُ، وما ولَّى عليه السَّلامُ ظهرَه قطُّ، فقال للعبّاسِ: نادِ يا معشرَ الأنصارِ، يا معشرَ المُهاجرينَ، وكان صيِّتًا، فنادى فتراجعَ النّاسُ، فقال عليه السَّلامُ: الآنَ حمِيَ الوطيسُ[2].

وقتَل عليٌّ رضيَ الله عنه يومَ حُنَينٍ أربعينَ رجلًا بيدِه، وسبَى رسولُ الله ﷺ يومَ حُنَينٍ أربعةَ آلافِ رأسٍ، واثنَي عشرَ ألفَ ناقةٍ، سِوَى ما لا يُعلمُ منَ الغنائمِ[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٣٠٢)، وأبو داود (٣٥٦٢)، عن صفوان بن أمية رضي الله عنه.

(٢) روى نحوه مسلم (١٧٧٥) و(١٧٧٧)، من حديث ابن عباس وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهم.
الوطيس: شبهُ التنور يُخبز فيه، ويُضرب هذا مَثَلاً لشدة الحرب، فيُشبّه حرُّها بحرِّه، أو للأمر إذا اشتد، وذكر الجاحظ وابن دريد أن هذه الكلمة لم تُسمع قبل النبي ﷺ، ولم توجد في متقدم كلامها، ثم صارت مثلًا سائرًا. انظر: «البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ١٢)، و«جمهرة اللغة» لابن دريد (٢/ ٨٣٩)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ٩٦)، و«غريب الحديث» للخطابي (١/ ٦٥).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١٤٦).

وقال سعيدُ بنُ المسيّبِ: كانَ السَّبْيُ ستَّةَ آلافِ رأسٍ، فجاؤُوا مسلمين، وقالوا: يا رسولَ الله، إنَّكَ خيرُ النّاسِ وأبرُّهم، قد أخذتَ أبناءَنا ونساءَنا وأموالَنا، فقال: «إنَّ عندي ما ترَون، وإنَّ خيرَ القولِ أصدقُه، واختاروا إمَّا ذَرارِيَّكم، وإمّا أموالَكم»، فقالوا: ما نعدلُ بالأحسابِ شيئًا، فقامَ خطيبًا، وقال: «هؤلاءِ جاؤُونا مسلمين، وقد خيَّرناهُم فلم يعدِلُوا بالأحسابِ شيئًا»، فرَضُوا بردِّ الذُّرِّيةِ(١).

قال ابنُ عبَّاسٍ: رأى رسولُ الله ﷺ يومَ أوطاسٍ امرأةً تعدُو وتصيحُ ولا تستقرُّ، فسألَ عنها، فقيلَ: فقدَتْ ابنًا لـها، ثمَّ رآها وقد وجَدَتْ ابنَها، وهي تُقبِّلُه وتُدْنيه، فدَعاها وقال لأصحابِه: «أطارحةٌ هذه ولدَها في النّارِ؟»، قالوا: لا، قال: «لِـمَ؟»، قالوا: لشفَقَتِها، فقالَ: «الله أرحمُ بكم منها»(٢).

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ السَّكينةُ: ما سكَنَ إليه القلبُ والنَّفسُ، يُريدُ بهذا عودَ المسلمينَ بعدَ الهزيمةِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٦٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٥٥)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٩١)، من طريق الزهري عن ابن المسيب، لكن في رواية عبد الرزاق وقع قوله: «فجاؤوا مسلمين...» إلى آخر الخبر من رواية الزهري عن عروة.

ورواه بنحوه البخاري (٢٣٠٧ ـ ٢٣٠٨)، والإمام أحمد في «المسند» (١٨٩١٤)، من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما. وبنحوه أيضاً رواه النسائي (٣٦٨٨)، والإمام أحمد في «المسند» (٦٧٢٩) و(٧٠٣٧)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ١٥٢)، ولعله أخذه من المصنف، ولم أجده مسندا من حديث ابن عباس. لكن رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤)، من حديث عمر رضي الله عنه، بلفظ: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾؛ أي: رحمتَه[1]؛ أي: إنَّما نزلَتْ عليهم السَّكينةُ من رحمةِ الله.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ أي: الملائكةَ، ولم تُقاتِلِ الملائكةُ إلّا يومَ بدرٍ[2].

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: بأسيافِكم.

* * *

(٢٧) ـ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يتوبُ الله على مَن شاءَ فيهديه إلى الإسلامِ، أو: يتوبُ الله على مَن انهزَمَ. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمَن اهتدَى ﴿رَّحِيمٌ﴾ بمَن آمنَ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٤٩).

(٢) قوله: «ولم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر». رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٨٥)، والطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٥)، عن مجاهد، ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩١٢٥) عن ابن عباس بلفظ: «لم تقاتل الملائكة مع النبي ﷺ إلا يوم بدر، وكانت تكون فيما سوى ذلك إمداداً...». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٣): وفيه عبد العزيز ابن عمران وهو ضعيف
ورواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٤٠٧) بلفظ: «ولم تقاتل الملائكة يوماً إلا يوم بدر، إنما كانوا يكثرون عدداً ومددا لا يضربون». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٣): وفيه عمار بن أبي مالك الجنبي ضعفه الأزدي.
قلت: وقد روى مسلم (٢٣٠٦) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لقد رأيت يوم أحد، عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد».
وروى البخاري (٤١١٧)، ومسلم (١٧٦٩)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما رجع النبي ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال: هاهنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم».

(٢٨) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾؛ أي: قذَرٌ، قيلَ: إنَّه صفةٌ جُـمِعَتْ على لفظِ الواحدِ تشبيهًا بالمصدرِ؛ أي: إنَّهم أنجاسٌ.

وقيلَ: يُقالُ: رجلٌ نَجَسٌ، وامرأةٌ نَجَسٌ، وقومٌ نَجَسٌ، مثلَ: دَنَفٍ، فلا يُثنَّى ولا يُجمَعُ ولا يُؤنَّثُ، وهذه النَّجاسةُ: خبثُ عقائدِهم وأعمالِـهم.

وقيلَ: هم نَجَسٌ؛ لأنَّهم يُجنِبون ويُحدِثون ولا غُسلَ ولا وضوءَ.

﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: امنَعُوهم منَ الحجِّ بعد هذا العامِ، ومن دخولِ الحرَمِ، فإنَّ مَن دخلَ الحرمَ فقد قرُبَ من المسجدِ الحرامِ.

وقيلَ: يُطلَقُ لفظُ المسجدِ الحرامِ على جميعِ الحرمِ؛ لقولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، وإنَّما رُفِعَ من بيتِ أمِّ هانئٍ[١].

وقد قال عطاءٌ: الحرمُ كلُّه قِبلةٌ ومسجدٌ، وتلا هذه الآيةَ[٢].

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: بعد العامِ الذي حجَّ أبو بكرٍ بالنّاسِ.

وقيلَ: بعد عامِ الفتحِ. قالَه ابنُ عبّاسٍ[٣].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾؛ أي: فقـرًا، ومنـه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]؛ أي: فقيـرًا، يُقـالُ: عـالَ يَعيـلُ عَيلـةً؛ أي: افتقَـرَ، وهذا لأنَّهـم كانوا ينقُلـونَ الميرةَ،

---

(١) انظر ما سيأتي في تفسير أول سورة الإسراء.

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٩٨١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٩٨).

(٣) لم أجده.

فخافَ المسلمون أن يضيقَ العيشُ عليهم، فنزلَتِ الآيةُ[١]؛ أي: إنَّ الله يتفضَّلُ عليكم بالنِّعمةِ.

قيلَ: أغناهُم بالجزيةِ المأخوذةِ من أهلِ الكتابِ.

وقيلَ: بأنْ أسلَمَ أهلُ جُدَّةَ وصنعاءَ وجُرَشَ[٢]، وحملوا الطَّعامَ إلى مكّةَ.

﴿إِن شَآءَ﴾ علَّقَ بالمشيئةِ لينقَطِعُوا بآمالِهم إلى الله.

فإذن يحرُمُ تمكينُ المُشركِ من دخولِ الحرَمِ، وإذا جاءَنا رسولٌ منهم خرجَ الإمامُ إلى الحلِّ ليسمعَ ما يقولُ، ولو دخلَ مشركٌ الحرمَ مستورًا وماتَ نُبِشَ قبرُه وأُخرِجَتْ عِظامُه، فليس لهم الاستيطانُ ولا الاجتيازُ، وأمَّا جزيرةُ العربِ، وهي: مكَّةُ والمدينةُ واليمامةُ [واليمنُ][٣] ومخاليفُها، ففي الخبرِ: «لا يدخُلُ الحرمَ إلّا أهلُ الجزيةِ أو عبدُ رجلٍ منَ المُسلمينَ»[٤]؛ يعني: العبدَ الكافرَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٠٠ ـ ٤٠٣) عن ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم.

(٢) «جُرش» بضم الجيم وفتح الراء: من مخاليف اليمن، وبفتحهما: بلد في الشام، والمخلاف في اليمن كالرستاق في العراق.

(٣) ما بين معكوفتين من «تفسير القرطبي» (١٠/ ١٥٤) حيث نقل كلام المصنف هنا.

(٤) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٦٨)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٥٤) عن جابر رضي الله عنهما مرفوعاً دون سند، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٦٩)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٠٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٣٢٩)، عن جابر رضي الله عنهما موقوفاً بلفظ: «إلا أن يكون عبدًا أو أحدًا من أهل الذمة»، وفي رواية للطبري: «أو أحداً من أهل الجزية». وإسناده صحيح.

وقد روي نحو هذا عن جابر مرفوعاً بسند ضعيف؛ رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٦٤٩) من طريق شَرِيك، عن أشعثَ بن سَوَّارٍ، عن الحسن، عن جابر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا =

قالَ: «وأمّا جزيرةُ العربِ فلو عشتُ إلى قابلٍ لأُخرِجَنَّ اليهودَ والنَّصارَى من جزيرةِ العربِ»[1]، فأجلاهُم عنها عمرُ رضيَ الله عنه لوصيةِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ[2]، فيُمنَعُونَ من استيطانِها، ويُمكَّنُونَ منَ الاجتيازِ بشرطِ ألّا يُقيمَ المُجتازُ في موضعٍ أكثرَ من ثلاثةِ أيّامٍ.

***

(٢٩) ـ ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ هذا في أهلِ الكتابِ، ولمَّا منعَ المُشركينَ عبدةَ الأصنامِ من دُخولِ الحرمِ ذكرَ حكمَ كفَّارِ أهلِ الكتابِ أيضًا، وأنَّهم يُقاتَلون حتَّى يُسلِمُوا أو يقبَلُوا الجِزيةَ، ثمَّ وصفَهم أنَّهم لا يُؤمنونَ باللهِ؛ لأنَّ مَن فرَّقَ بينَ الأنبياءِ فآمَنَ ببعضٍ دونَ بعضٍ فليس بمُؤمنٍ، كما أنَّ مَن آمنَ ببعضِ القرآنِ دونَ بعضٍ فليس بمُؤمنٍ، فبعضُ الكفرِ كفرٌ، وليس بعضُ الإيمانِ إيمانًا.

= يدخل مسجدنا هذا مشرك بعد عامنا هذا، غير أهل الكتاب وخدمهم»، والحسن لم يسمع من جابر، وشريك بن عبد الله النخعي وأشعث بن سوار ضعيفان.
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٣١): «تفرد به أحمد مرفوعًا، والموقوف أصح إسنادًا».

(١) رواه مسلم (١٧٦٧) من حديث عمر رضي الله عنه بلفظ: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا»، وليس فيه: «لئن عشت إلى قابل»، ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٩)، والترمذي (١٦٠٦) بلفظ: «لئن عشت ـ إن شاء الله ـ لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أترك فيها إلا مسلمًا».

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وأيضًا هم ما آمَنُوا بالله الذي بعَثَ محمَّدًا بالحقِّ إلى الخلقِ، ولا باليومِ الآخرِ؛ فإنَّ اليهودَ قالُوا: لن تمسَّنا النّارُ إلّا أيامًا معدوداتٍ، فأنكرَتِ النَّصارى نعيمَ الجنّةِ منَ المطاعمِ والمشاربِ والمناكحِ، فهم كافِرونَ بالثَّوابِ والعقابِ.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ لأنَّهم لم يُؤمِنُوا بمحمَّدٍ فما حرَّمُوا ما حرَّمَه الله على لسانِه، وأيضًا استحَلُّوا التَّحريفَ والتَّبديلَ، وقتلَ الأنبياءِ، وأكلَ السُّحتِ، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ هو الله تعالى، ودينُه الإسلامُ.

وقيلَ: أي: لا يدينُونَ دينَ أهلِ الحقِّ؛ أي: طاعةَ أهلِ الإسلامِ، فحُذِفَ المُضافُ، والدِّينُ: الطّاعةُ.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: اليهودِ والنَّصارَى، ثمَّ المجوسُ يُسَنُّ بهم سنَّةُ أهلِ الكتابِ في أخذِ الجزيةِ منهم.

وقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ لتمييزِ الكفّارِ منهم ممَّن أسلَمَ، كابنِ سلامٍ وسلمانَ والنَّجاشيِّ.

﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾؛ أي: حتى يقبَلُوها، وهو كما تقولُ في المُناظرةِ: «أنا أُعطيكَ ما تقولُ»؛ أي: أُسلِمُه لك، والجِزيةُ: ما يُعطي المُعاهَدُ على عهدِه، وهي «فِعْلة»، من جزَى يجزِي؛ أي: قضَى ما عليه.

﴿عَن يَدٍ﴾ أرادَ النَّقْدَ[1].

وقيلَ: عن قهرٍ وذُلٍّ، كما يُقالُ: «اليدُ في هذا لفلانٍ»؛ أي: الأمرُ النّافذُ له.

وقيلَ: أي: عن إنعامٍ منكم عليهم؛ إذ حقَنْتُم دماءَهم بالجزيةِ.

---

(١) أي: نقداً ليس بنسيئة. ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٦١) عن عثمان بن مقسم البري أحد فقهاء المدينة.

وقيلَ: ﴿عَن يَدٍ﴾؛ أي: [عن][1] جماعةٍ، فلا يُعفَى عن ذي فضلٍ منهم لفضلِه، تقولُ: «هم يدٌ واحدةٌ»؛ أي: مُجتمِعُونَ، ومنه: «وهم يدٌ على مَن سِواهُم»[2].

وقيلَ: ﴿عَن يَدٍ﴾؛ أي: عن ظهورٍ عليهم وغلَبةٍ، من قولك: «لا يدَ لي به»؛ أي: لا قوّةَ.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾؛ أي: إذ لا تجري عليهم أحكامُ الإسلامِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: يأتُونَ بها مُشاةً لا رُكبانًا، ولا يُرسِلُون بها، بل يُتلتَلُونَ بها تلتَلةً[3]، ويجرُّونَ إلى الموضعِ الذي تُقبَضُ منهم فيه بالعُنفِ.

وقيلَ: يُعطي الجزيةَ وهو قائمٌ على رأسِ مَن يقبضُ.

---

(١) ما بين معكوفتين من «البسيط» (١٠/ ٣٦٣) والكلام منه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٥٩)، وأبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي في «الكبرى» (٦٩١٠)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٧٩٧)، وأبو داود (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢٦٨٥)، والخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٥٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٨٥)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٦١)، وما بعده من قول الواحدي يشرح به كلام ابن عباس.
وذكره الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٠٨)، بلفظ: «بأيديهم يمشون بها وهم كارهون»، وقال: وذلك قول روي عن ابن عباس من وجه فيه نظر.
قلت: وهذا الذي ذكروه من المشي والتلتلة أو الصفع على القفا ـ كما سيأتي ـ لم أقف فيه على أثر يحتج به من مرفوع أو موقوف، وقد بالغ بعض العلماء فيه، ولعل الصواب ما قاله ابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص: ١٨٤): «﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ يقال: أعطاه عن يد وعن ظهر يَدٍ: إذا أعطاه مبتدئاً غير مُكافئ». أو العكس كما قال الواحدي؛ أي: «عن غير مكافأة منكم إياهم بما أعطوا من المال».

وقال الكلبيُّ: هو أنَّه إذا أعطى الجزيةَ صُفِعَ في قَفاه(١).

وأقلُّ الجزيةِ دينارٌ، ولا يُزادُ عليه إلّا بالتَّراضي.

***

(٣٠) - ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

قولُه: ﴿وقالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: قال قومٌ منَ اليهودِ، سلامُ بنُ مشكمٍ، والنُّعمانُ بنُ أوفى، وشاسُ بنُ قيسٍ، ومالكُ بنُ الصَّيف: كيف نتَّبِعُك وقد تركتَ قِبلتَنا، وأنتَ لا تزعمُ أنَّ عُزَيرًا ابنُ الله؟ فنزلَتِ الآيةُ(٢).

وقيلَ: إنَّما قال هذا رجلٌ واحدٌ منَ اليهودِ، اسمُه فِنْحاصُ بنُ عازوراءَ، فأُضيفَ إليهم(٣)، كما تقولُ: «ركبتُ البغالَ»، وإنَّما ركبتَ واحدًا، وربَّما كان لهذا القائلِ أتباعٌ يرونَ رأيَه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: إنَّ اليهودَ أضاعُوا التَّوراةَ وعمِلُوا بغيرِ الحقِّ، فأنساهُم الله التَّوراةَ، فدَعا اللهَ عُزَيرٌ أن يرُدَّ إليهم ما نُسِخَ من صدورِهم، فنزلَ نورٌ منَ السَّماءِ ودخلَ جوفَه، فعادَ إليه الذي كان ذهبَ من قلبِه منَ التَّوراةِ، فأخذَ يُعلِّمُهم التَّوراةَ،

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٨٥)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٢٦٤). وانظر التعليق السابق.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٠٩)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٨٨)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٥٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٠٨) عن عبد الله بن عبيد بن عمير.

ثمَّ إنَّ التَّابوتَ نزلَ إليهم بعد أن رُفِعَ عنهم، وفيه التَّوراةُ، فعرَضُوا ما كانَ فيه على ما تعلَّمُوا من عُزَيرٍ فوجدوه مثلَه، فقالوا: عُزَيرٌ ابنُ الله[١].

وقيلَ: قتلَ بُخْتَنَصَّرُ علماءَهم، وذهبَتِ التَّوراةُ عنهم، ثمَّ كان عُزَيرٌ سببَ إحياءِ التَّوراةِ[٢].

قُرِئَ: ﴿عُـزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بالتَّنوينِ[٣]؛ لأنَّ ﴿ٱبْنُ﴾ خبرٌ، وإنَّما يُحذَفُ التَّنوينُ في الصِّفةِ، تقولُ: «جاءَ زيدُ بنُ عبدِ الله»؛ لأنَّ الوصفَ والموصوفَ كالشَّيءِ الواحدِ، فإذا كان خبرًا فيجبُ التَّنوينُ.

وقُرِئَ بغيرِ تنوينٍ كما قُرِئَ: (قل هو الله أحدُ اللهُ الصَّمدُ) بحذفِ التَّنوينِ[٤]؛ لسُكونِه وسكونِ اللَّامِ.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: كانَ في اليهودِ رجلٌ يُقالُ له: بُوْلَسُ، قتلَ جمعًا منَ النَّصارى، ثمَّ قال: لأَحتالَنَّ بحيلةٍ في إضلالِ النَّصارى، فعرقَبَ فرسَه[٥]، وقال: قد نُودِيتُ منَ السَّماءِ: لا توبةَ لك إلَّا أن تتَنَصَّرَ، وقد تُبْتُ،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨١)، من رواية عطية العوفي عن ابن عباس. وإسناده ضعيف.

(٢) رواه عبد الرزاق بنحوه في «تفسيره» (٣١١) عن وهب، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٦) عن الكلبي.

(٣) قرأ بها عاصم والكسائي، والباقون بترك التنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٣)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨٣).

(٥) عرقب الدابة: قطع عرقوبها، وعرقوب الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها، قال الأصمعي: كل ذي أربع عرقوباه في رجليه وركبتاه في يديه. انظر: «الصحاح» (باب: عرقب).

فقَبِلَه النَّصارَى، وأدخَلُوه الكنيسةَ، وبقيَ سنةً لا يخرُجُ، وتعلَّمَ الإنجيلَ وأحبُّوه، ثمَّ مضَى إلى بيتِ المقدسِ، واستخلَفَ عليهم رجلًا يُقالُ له: نُسْطُورُ، وعلَّمَه أنَّ عيسى ومريمَ والإلهَ ثلاثةُ آلـهةٍ.

ثمَّ توجَّهَ إلى الرُّومِ وعلَّمَهم اللّاهوتَ والنّاسُوتَ، وقال: عيسى لـم يكُنْ بإنسيٍّ ولا جسمٍ، ولكنَّه ابنُ الله، وعلَّمَ ذلك رجلًا يُقالُ له يعقوبُ.

ثمَّ دَعا رجلًا يُقالُ له: مَلكًا، فقال: إنَّ الإلهَ لـم يزلْ، ولا يزالُ عيسى.

وقال لكلِّ واحدٍ: أنتَ خالصَتي، فادعُ النّاسَ إليَّ بحيلتِكَ، ولقد رأيتُ عيسى في المنامِ قد رضيَ عنِّي، وإنِّي غدًا أذبحُ نفسي لمرضاةِ عيسى، ثمَّ دخلَ المذبحَ فذبحَ نفسَه.

ودعا كلُّ واحدٍ من هؤلاءِ إلى نِحلَتِه، واختلفَ النَّصارَى، وجميعُهم منَ الفِرقِ الثَّلاثِ[1].

وقد قيلَ في سببِ تفرُّقِهم: إنَّ إبليسَ دسَّ إليهم ثلاثةً منَ الشَّياطينِ في هيئةِ الإنسِ حتَّى دَعا كلُّ واحدٍ إلى مذهبٍ من هذه المذاهبِ، وانتشرَ ذلك الخلافُ فيما بينَهم.

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي: لا بُرهانَ لهم فيه ولا حجَّةَ، مع اعترافِهم بأنَّ الله لـم يتَّخِذْ صاحبةً، وإذا لـم يكُنْ ثَمَّ صاحبةٌ فكيف يُتصَوَّرُ الولدُ؟

﴿يُضَاهُونَ قولَ الَّذين كَفروا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: اليهودَ في قولِهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٩٧)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٧٧).

وقيلَ: يُضاهُونَ قولَ المشركينَ في قولِهم: الملائكةُ بناتُ الله، أو قولِهم: إنَّ اللّاتَ والعُزّى بناتُ الله.

وقيلَ: شبَّهَ كفرَهم بكفرِ مَن قبلَهم.

وقيلَ: ضاهَوا في عبادةِ ثلاثةِ آلهةٍ المشركينَ في عبادةِ الأصنامِ.

وقيلَ: أي: أهلُ عصرِكَ يا محمَّدُ يُضاهُونَ أسلافَهم في الكفرِ.

والمُضاهاةُ: المُشابهةُ، وامرأةٌ ضَهياءُ: إذا كانت لا تحيضُ، أو لا ثَدْيَ لها؛ أي: أشبهَتِ الرِّجالَ.

وقيلَ: المُضاهاةُ: المُتابعةُ.

وقرأ عاصمٌ: ﴿يُضَاهِئُونَ﴾[1]؛ يُقالُ: ضَاهى وضَاهَأَ، مثلَ: أرجَيْتُه وأرجَأْتُه.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ كلمةُ تعجيبٍ؛ أي: لعنَهم الله[2]؛ لأنَّ مَن لعنَه فهو بمنزلةِ المقتولِ.

وقال ابنُ جُرَيجٍ: أي: قتلَهم الله[3].

وقيلَ: علَّمَنا الدُّعاءَ عليهم؛ أي: قولوا: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾.

﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: أنَّى يُصرَفُونَ، وهذا تعجيبٌ لا تعجُّبٌ.

---

(١) والباقون بغير همز. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٤)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما وزاد: وكل شيء في القرآن قتلٌ فهو لعنٌ.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٠١)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٣٨٢)، بلفظ: «قتلهم الله بمعنى التعجب»، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤١٥) بلفظ: «﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني النصارى، كلمة من كلام العرب»، ثم عقبه الطبري بقوله: «فأما أهل المعرفة بكلام العرب فإنهم يقولون معناه: قتلهم الله».

(٣١) ـ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الأحبارُ: العلماءُ، الواحدُ: حَبْرٌ وحِبْرٌ، وسُمِّيَ به لأنَّه يُحبرُ المعانيَ بحُسنِ البيانِ عنها.

والرُّهبانُ: المُتعبِّدُ منهم.

قال عديُّ بنُ حاتمٍ: انتهَيتُ إلى رسولِ الله ﷺ وهو يقرأُ هذه الآيةَ، وكان عديٌّ نصرانيًّا في الابتداءِ، فقلتُ: إنَّا لسنا نعبُدُهم، فقال: «أليس يُحرِّمُونَ ما أحلَّ الله فتُحرِّمُونَه، ويُحِلُّونَ ما حرَّمَ الله فتستَحِلُّونَه؟» فقلتُ: بلى، قال: «فتلك عبادتُهم»[١].

والآيةُ في النَّصارى؛ لقولِه: ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾، ويحتملُ أن يكونَ اتِّخاذُ الأحبارِ أربابًا منَ الفريقَينِ، ثمَّ قال: واتَّخذَ بعضُهم المسيحَ ابنَ الله.

* * *

(٣٢) ـ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾؛ أي: أن يُخمِدُوا دينَ الله بتكذيبِهم.

والنُّورُ: الإسلامُ. وقيلَ: القرآنُ. وقيلَ: حجَّةُ الله.

﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾؛ أي: إلّا أن يُظهِرَ دينَه؛ أي: يأبَى الله كلَّ شيءٍ إلّا

(١) رواه بنحوه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٤١٧ ـ ٤١٨). قال الترمذي: حديث غريب... وغطيفُ بن أَعْيَنَ ـ أحد رواته ـ ليس بمعروف في الحديث.

أن يُظهِرَ دينَه، وهذا الحذفُ مستعملٌ مع الإباءِ، ولا يُقالُ: «ضربْتُ إلّا أخاك»؛ لأنَّ هذا الحذفَ مع غيرِ لفظِ الإباءِ ليس بمُستعملٍ.

* * *

(٣٣) ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾؛ أي: محمَّدًا ﴿بِالْهُدَىٰ﴾؛ أي: بالقرآنِ، أو بالبيانِ ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾؛ أي: الحنيفيّةِ.

﴿لِيُظْهِرَهُ﴾؛ أي: ليُظهِرَ الرَّسولَ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾؛ أي: على شرائعِ الدِّينِ حتَّى لا يخفَى عليه شيءٌ منها.

وقيلَ: أي: ليُظهِرَ هذا الدِّينَ الذي هو الإسلامُ على كلِّ دينٍ.

ثمَّ؛ قيلَ: هذا عند نُزولِ المهديِّ عيسى عليه السَّلامُ.

وقيلَ: أرادَ: بالحجَّةِ.

وقيلَ: أرادَ: في جزيرةِ العربِ، وقد فعَلَ.

* * *

(٣٤) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ﴾ ثمَّ بيَّنَ أنَّ مُنتَهاهُم استِجلابُ طُعمةٍ منَ الدُّنيا، والصَّدُّ عن سبيلِ الله.

﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ يعني: أخذَ الرُّشَى وما كانوا يأخُذونَه من عوامِّهم.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن الإسلامِ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ قيلَ: عنَى به اليهودَ والنَّصارَى، وقد وصفَ الله اليهودَ بالبُخلِ وجمعِ المالِ.

أو: إنَّ كثيرًا منَ الأحبارِ والرُّهبانِ وهم الذين يكنِزُونَ ليأكُلون أموالَ النّاسِ بالباطلِ.

وقيلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ عامٌّ في أهلِ الكتابِ والمُؤمنينَ.

وقيلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، وهو رفعٌ على الابتداءِ، وهو فيمَن لا يُزكِّي من هذه الأمّةِ.

قال السُّدِّيُّ: عنَى أهلَ القِبلةِ(١).

والكَنزُ: الجمعُ، وهو أيضًا اسمٌ للمالِ إذا أُحرِزَ في وعاءٍ.

وقال ابنُ عمرَ: كلُّ مالٍ أُدِّيَ زكاتُه فليس بكنزٍ وإن كان تحتَ سبعِ أرضينَ، وكلُّ مالٍ لم تُؤدَّ زكاتُه فهو كنزٌ وإنْ كانَ فوقَ الأرضِ(٢).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٩).

(٢) رواه الإمام الشافعي في «مسنده» (ص: ٨٧)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٧١٤٠) و(٧١٤١)، عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفًا.

ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٨٣) من طريق محمد بن جبير عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعًا بلفظ: «كل ما أدي زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونًا تحت الأرض، وكل ما لا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرًا» قال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفًا.

=

وقال قومٌ: المُرادُ به جمعُ المالِ وإنْ أُدِّيَتِ الزَّكاةُ؛ قال عليٌّ: كلُّ مالٍ زادَ على أربعةِ آلافٍ فهو كنزٌ، أُدِّيَتْ منه الزَّكاةُ أو لم تُؤَدَّ(١).

ولمّا نزلَتِ الآيةُ قال عليه السَّلامُ: «تبًّا للذَّهبِ، تبًّا للفِضّةِ»، يقولُها ثلاثًا، فقيلَ: يا رسولَ الله، فأيَّ المالِ نتَّخِذُ؟ [فقال عمر: أنا أعلمُ لكم ذلك، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ أصحابَكَ قد شقَّ عليهم وقالوا: فأيَّ المالِ نتخذُ؟] قال: «لسانًا ذاكِرًا، وقلبًا شاكرًا، وزوجةً مُؤمنةً تُعينُ أحدَكم على دينِه»(٢).

= ورواه الطبراني في «الأوسط» (٨٢٧٩) وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٤٢٦) من طريق سويد بن عبد العزيز عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا، ولفظه: «كل مال وإن كان تحت سبع أرضين يؤدى زكاته فليس بكنز، وكل مال لا يؤدى زكاته وإن كان ظاهرًا فهو كنز»، قال ابن عدي: رفعه سويد إلى النبي ﷺ وغيره يرويه موقوفًا.

وفي الباب عن أم سلمة قالت: «كنتُ ألبَسُ أوضاحاً مِنْ ذَهَبٍ، فقلت: يا رسولَ الله، أكنزٌ هو؟ قال: «ما بلغ أن تُؤَدَّى زكاتُه، فزُكِّيَ، فليس بكَنزٍ» أخرجه أبو داود (١٥٦٤) واللفظ له، والحاكم في «المستدرك» (١٤٣٨)، من طريق عطاء عن أم سلمة. ورجاله ثقات إلا أن عطاء ـ وهو ابن أبي رباح ـ لم يسمع من أم سلمة فيما قاله علي بن المديني. ومع ذلك فقد صححه ابن القطان، وجوَّد إسناده الحافظ العراقي، فيما نقله عنهما الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٣/ ٢٧٢).

وروى البخاري في «صحيحه» (١٤٠٤): عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سئل عن هذه الآية فقال: من كنزها فلم يؤدِّ زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهرًا للأموال. وقد ترجم له البخاري بقوله: (باب ما أدي زكاته فليس بكنز).

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٧٥)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٨٨)، بلفظ: «أربعة آلاف فما دونها نفقة وما فوقها كنز».

(٢) رواه الطبريُّ في «تفسيره» (١١/ ٤٢٨) وما بين معكوفتين منه. وهذا بعضه مرسل عن سالم، وبعضه ـ وهو المروي عن عمر ـ منقطع، وسالم بن أبي الجعد روى عن عمر لكنه لم يدركه، وهو ثقة روى له الجماعة. =

والقولُ الأوَّلُ أصحُّ؛ إذ لا وعيدَ على مَن لا يُنفِقُ بعد إخراجِ الواجبِ[1].

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾؛ أي: الكنوزَ، أو الأموالَ، أو الفِضّةَ، ثمَّ الذَّهبُ داخلٌ فيها اكتِفاءً بذكرِ أحدِهما عن الآخرِ، كقولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، وقولِه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿فَبَشِّرْهُم﴾ البِشارةُ: الإخبارُ بما يظهرُ على البشرةِ أثرُه من فرحٍ أو غمٍّ.

وقيلَ: أي: ضعِ الوعيدَ بالعذابِ موضعَ البُشرى بالنَّعيمِ.

* * *

(٣٥) - ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يُقالُ: أحمَيتُ الحديدةَ في النّارِ؛ أي: أوقَدْتُ عليها، ويُقالُ: أحمَيتُه، ولا يُقالُ: أحمَيتُ عليه، وهاهُنا قال: ﴿عَلَيْهَا﴾؛ لأنَّه جعلَ (على) من صلةِ معنى الإحماءِ، ومعنى الإحماءِ: الإيقادُ؛ أي: يُوقَدُ عليها.

= ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٩٢)، والترمذي (٣٠٩٤)، وابن ماجه (١٨٥٦)، من طريق سالم عن ثوبان به، وهو منقطع أيضاً، قال الترمذي: هذا حديث حسن، سألت محمد بن إسماعيل (البخاري) فقلت له: سالم بن أبي الجعد سمع ثوبان؟ فقال: لا.

ويشهد له ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣١٠١) من طريق سلم بن عطية الفقيمي عن عبد الله بن أبي الهذيل عن صاحب له: أنه انطلق مع عمر فقال: يا رسول الله، قولك: «تبًّا للذهب والفضة» ماذا؟ فقال ﷺ: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تُعين على الآخرة» ورجاله ثقات غير سلم بن عطية فقد ليَّنه الحافظ ابن حجر في «التقريب».

(١) قال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٣/ ١٧٤): وسائر العلماء من السلف والخلف على ما قاله ابن عمر في الكنز.

﴿فَتُكْوَىٰ﴾ الكيُّ: إلصاقُ الحارِّ منَ الحديدةِ أو النّارِ بالعضوِ حتّى يحترِقَ الجلدُ.

﴿جِبَاهُهُمْ﴾: هي جمعُ الجبهةِ، وهو مُستَوى ما بين الحاجبِ إلى النّاصيةِ، وجَبَهْتُ فلانًا بكذا؛ أي: استقبلتُه به، وضربتُ جبهتَه، والجُنوبُ: جمعُ الجنبِ.

والكيُّ في الوجهِ أشهرُ وأشنَعُ، وفي الجنبِ والظَّهرِ آلَمُ وأوجَعُ.

وقيلَ: خصَّ هذه الأعضاءَ لأنَّ الغنيَّ إذا رأى الفقيرَ زَوَى ما بينَ عينَيه، وقبضَ جبهتَه، وطوى عنه كَشْحَه، وولَّى ظهرَه.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾؛ أي: يُقالُ لهم: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾.

﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾؛ أي: عذابَ ما كنتُم تكنِزُونَ.

* * *

(٣٦) - ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ﴾ كانتِ العربُ تُقدِّمُ وتُؤخِّرُ الحجَّ على سبيلِ النَّسيءِ، فلمَّا حجَّ رسولُ الله ﷺ حَجَّةَ الوداعِ اتَّفقَ الحجُّ في ذي الحجّةِ، واتَّفقَ الحجُّ عامَ حجَّ أبو بكرٍ أميرًا على النّاسِ في ذي القعدةِ[1].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٨٥)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٥٤)، عن معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٥٢): «وهذا الذي قاله مجاهد فيه نظر أيضاً، وكيف تصح حجة =

وفي بعضِ الرِّواياتِ: حجَّ أبو بكرٍ رضيَ الله عنه سنةَ تسعٍ، وقد عادَتْ نوبةُ الحجِّ إلى ذي الحجّةِ(١).

ثمَّ لمَّا حجَّ النَّبيُّ عليه السَّلامُ حجّةَ الوداعِ قالَ: «ألا إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهيئةِ يومَ خلقَ الله السَّماواتِ والأرضَ»(٢).

وذكرَ الله تعالى ما يتَّصِلُ بتأخيرِ الحجِّ، وأبطلَ حكمَ النَّسيءِ، وحقَّقَ به ما تقدَّمَ من أنَّ المشركينَ نجسٌ؛ إذ بيَّنَ ما أقدمُوا عليه من تأخيرِ وقتِ الحجِّ وتقديمِه على حسبِ أهوائِهم.

﴿عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾: عددَها ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا﴾ بيَّنَ أنَّ سِنِيْ المسلمين على الأهلّةِ.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمِ الله، وفيما كُتِبَ في اللَّوحِ المحفوظِ، وكذلك قولُه: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

قُرِئَ: ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ﴾ بفتحِ الشِّين، وقُرِئَ بسكونِها(٣).

= أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة؟ وأنى هذا وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية؟ وإنما نودي بذلك في حجة أبي بكر، فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾.

(١) رواه السرقسطي في «الدلائل في غريب الحديث» (٤٦) من رواية سفيان بن حسين قال: حدثني أبو بشر عن مجاهد قال: حج أبو بكر في ذي الحجة. وذكره عنه ابن بطال في «شرح صحيح البخاري» (٦/ ١٦).

(٢) رواه البخاري (٣١٩٧)، ومسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) فتح الشين قراءة الجمهور، وقرأ بسكونها طلحة بن سليمان كما في «تفسير الثعلبي» (١٣/ ٣٤٩). وقال الداني في «جامع البيان» (٣/ ١١٥٢): وروى لي الفارسي عن أبي طاهر، عن علي بن أحمد =

فأعادَ قولَه: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ بعد أن قالَ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ كثيرًا منَ الأشياءِ يُوصَفُ بأنَّه عندَ الله، ولا يُقالُ: إنَّه في كتابِ الله، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

فقولُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقُ المصدرِ الذي هو العِدَّةُ، وهو العاملُ فيه، وقولُه: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أي: اثنا عشرَ شهرًا مكتوبًا، أو تقديرُه: منها أربعةٌ حرُمٌ فيما كتبَ الله يومَ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، أي: الحرُمُ منها أربعةُ أشهرٍ، فلِمَ تُغيِّرون بالنَّسيءِ؟

وهذه الأشهرُ الحرُمُ حرَّمَ الله فيها القتالَ وعظَّمَ حُرمتَها، فكانت العربُ تُعظِّمها؛ حتَّى لو لقيَ الرَّجلُ قاتلَ أبيه لـم يُهِجْه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: الحسابُ المُستقيمُ، أو: الشَّرعُ الذي يُدانُ الله به.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: تحفَّظُوا فيها؛ فإنَّ الحسابَ فيها يُضعَّفُ، والسَّيِّئاتِ يعظُمُ عقابُها[1]، فقولُه: ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في الأشهرِ الحرُمِ.

= العجلي، عن أبي هشام، عن يحيى، عن أبي بكر: (اثنا عشر شهراً) يسكن الشين، وأظنه وهماً من أبي هشام، ولم يذكر هذا الحرفَ أحد من أصحاب أبي بكر إلا ابن أبي أمية وحده، فإنه قال: بنصب العين. وقرأ أبو جعفر من العشرة بسكون العين وهي رواية هبيرة عن حفص، والباقون بفتحها. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٩).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٤٤) من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وروى عن قتادة قال: أما قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فإن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن الله يعظم من أمره ما شاء وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه؛ اصطفى من الملائكة رسلًا ومن الناس رسلًا، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله =

وقيلَ: في جميعِ الشُّهورِ(١).

واختيارُ الفرَّاءِ: أنَّ الكنايةَ ترجعُ إلى الأشهرِ الحرمِ؛ لأنَّه قال: ﴿فِيهِنَّ﴾ ولم يقُلْ: «فيها»، والعربُ تقولُ لِـما دونَ العشرةِ: «لثلاثِ ليالٍ خلَوْنَ» «لأربعِ ليالٍ خلَوْنَ»، فإذا جاوَزُوا العشرةَ قالوا: «خلَتْ»، هذا هو الغالبُ(٢).

وقيلَ: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا تُغيِّروا هـذه الأربعةَ كما غيَّرَها المشركونَ.

﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾؛ أي: لا تُحابُوهم(٣) وقاتِلُوهم جميعًا كما يستحِلُّون قتالَكم جميعًا.

و﴿كَآفَّةً﴾ نصبٌ على الحالِ، ولا يُثنَّى ولا يُجمَعُ، كقولِـهم: «قاتِلُوهم عامَّةً، أو خاصَّةً».

***

(٣٧) - ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ يُقالُ: نسَأْتُ الإبلَ عن الحوضِ أنسَؤُها نَسْأً؛ أي: أخَّرتُها، وأنسَأْتُه الدَّينَ إنساءً؛ أي: أخَّرتُه عنه، وأنسَأَ الله فلانًا أجلَه، ونسأَ

= عند أهل الفهم وأهل العقل.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٤٤) من رواية يوسف بن مهران عن ابن عباس.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٣٥)، و«البسيط» للواحدي (١٠/ ٤١١).

(٣) في (أ): «تخافوهم».

في أجلِه؛ أي: أخَّرَه، والنَّسيءُ هاهُنا بمعنى المصدرِ، وهو الإنساءُ، وهو كالنَّذيرِ والنَّكيرِ؛ أي: تأخيرُ الشُّهورِ على ما كانتِ العربُ تفعلُه زيادةٌ في الكفرِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿إنما النَّسْءُ﴾، علـى وزنِ «النَّسْعِ»، وهو المصدرُ الحقيقيُّ، ورُوِيَ عنه: ﴿إنَّما النَّسْيُ﴾ مخفَّفةَ الياءِ، ولعلَّه لغةٌ في النَّساءِ، مثلَ «أرجَيتُ وأرجَأْتُ»، ورُوِيَ عنه: ﴿إنَّما النَّسِيُّ﴾ مشدَّدةَ الياءِ من غيرِ همزٍ[١].

وكانتِ العربُ تُعظِّمُ الشُّهورَ الأربعةَ، وكان ذلك أمرًا مُعتادًا لهم من وقتِ إبراهيمَ، وكانُوا يُحرِّمُونَ فيها القتالَ، فشَقَّ ذلك عليهم أن يمكُثوا ثلاثةَ أشهرٍ مُتوالياتٍ لا يُغِيرُونَ فيها، فكانُوا يُؤخِّرُونَ تحريمَ المُحرَّمِ إلى صفرَ، فيُحرِّمُونَه ويستحِلُّونَ المُحرَّمَ، ويقُولونَ للمُحرَّمِ: هو[٢] أحدُ الصَّفَرَينِ، وعليه حُمِلَ قولُه: «لا صفَرَ»[٣]، وكان يُنادي المُنادي في الموسمِ بما يُريدونَ[٤] من ذلك.

قال ابنُ عبّاسٍ: أوَّلُ مَن نسأَ النَّسيءَ عَمرُو بنُ لُـحَيٍّ[٥].

وفي روايةٍ: [بنو] مالكُ بنُ كنانةَ[٦].

---

(١) الروايات الثلاث ذكرها عن ابن كثير ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٣١٤): والمشهور عنه: ﴿النسيء﴾ وهي قراءة السبعة عدا ورشاً، فإنه قرأ: ﴿النَّسِيُّ﴾ بوزن النديِّ، ووافقه حمزة وهشام وقفاً. انظر: «التيسير» (ص: ١١٨).

(٢) في (أ): «هذا».

(٣) رواه البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (أ): «يرون».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٥)، من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٥٤) عن قتادة، وما بين معكوفتين منه.

وكان الذي يلي النَّسيءَ يظفرُ بالرِّياسةِ؛ لتَرئيسِ العربِ إيّاه.

ثمَّ؛ قيلَ: كان هذا النَّسيءُ في تأخيرِ المُحرَّمِ إلى صفرَ.

وقيلَ: ربَّما كانُوا يحتاجُونَ إلى تأخيرِ صفرَ إلى شهرِ ربيعٍ الأوَّلِ، فيمكُثونَ بذلك ما شاء الله، ثمَّ يحتاجُونَ إلى مثلِه، فتَتَدافعُ الشُّهورُ حتَّى يستديرَ التَّحريمُ على السَّنةِ كلِّها، فلمَّا كانت حجّةُ الوداعِ كان الحجُّ رجعَ إلى ذي الحجّةِ.

وقال قُطربٌ: النَّسيءُ: الزِّيادةُ[1]، ونسأَ الله في أجلِه وأنسأَ؛ أي: زادَ فيه، وأنسَأْتُ الإبلَ؛ أي: زجَرْتُها ليزدادَ سيرُها.

قال قتادةُ: إنَّهم عمَدوا إلى صفرَ فزادُوه في الأشهُرِ الحرُمِ، وقرَنُوه بالمُحرَّمِ في التَّحريمِ[2].

وهذا بعيدٌ؛ لأنَّه لـم يُنقَلْ أنَّهم جعلوا الأشهرَ الحرُمَ خمسةً.

﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ لأنَّهم ابتَدَعُوها في أصلِ الدِّينِ وفُروعِه.

= وذكر ابن هشام في «السيرة» (١/ ٣٨) عن ابن إسحاق قال: «وكان أول من نسأ الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم: القلمس، وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة»، ثم ذكر قيام ذريته بذلك إلى أن وصل إلى أبي ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم وعليه قام الإسلام.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٤)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٢٦).

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (١٠/ ٤٢٦)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٥٤)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٠)، عن قتادة بلفظ: «عمد أناس من أهل الضلالة، فزادوا صفرا في الأشهر الحرم، فكان يقوم قائمهم في الموسم، فيقول: ألا إن آلهتكم قد حرمت العام المحرم، فيحرمونه ذلك العام. ثم يقول في العام المقبل فيقول: ألا إن آلهتكم قد حرمت صفر، فيحرمونه ذلك العام. وكان يقال لهما: الصفران».

﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: كُبَراؤُهم يُضِلُّونَهم، أو: يُضِلُّ الشَّيطانُ الذين كفَرُوا، أو: يُضِلُّ اللهُ به الذين كفروا.

وقُرِئَ: ﴿يُضَلُّ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الضَّادِ؛ أي: كُبَراؤُهم، أو الشَّيطانُ، أو الله تعالى= يُضِلُّونَهم[1]، كما قال: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

وقُرِئَ: ﴿يَضِلُّ﴾ بفتحِ الياءِ[2]؛ لأنَّهم كانوا ضالِّينَ به؛ أي: بالنَّسيءِ.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾؛ أي: يُحلُّونَ فيه القتالَ مرَّةً ويُحرِّمُونَ مرَّةً، والهاءُ في ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ترجعُ إلى النَّسيءِ.

﴿لِّيُوَاطِـُٔوا﴾؛ أي: ليُوافِقُوا، وتواطَأَ القومُ على كذا؛ أي: اجتَمَعُوا عليه، كان كلُّ واحدٍ يطَأُ حيثُ يطَأُ صاحبُه؛ أي: لـم يُحِلُّوا شهرًا إلّا حرَّمُوا شهرًا لتبقَى الأشهرُ الحرمُ أربعةً، وهذا هو الذي يدُلُّ على فسادِ قولِ قُطربٍ وقتادةَ.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ﴾؛ أي: زيَّنَ اللهُ لهم.

وقيلَ: زيَّنَ الشَّيطانُ.

وفي روايةِ الكلبيِّ: أنَّهم كانوا يُؤخِّرونَ المُحرَّمَ إلى صفر، ثمَّ إلى شهرِ ربيعٍ الأوَّلِ، فكان يستديرُ الأمرُ في كلِّ عشرة سنة[3]، فلما فُتِحَ مكَّةُ سنةَ ثمانٍ، واستعملَ رسولُ الله ﷺ عتَّابَ بنَ أَسِيدٍ، وقعَ الحجُّ في تلك السَّنةِ في ذي القعدةِ، فلما كانت

---

(١) في (أ): «يضلهم».

(٢) قرأ حمزة والكسائيُّ وحفصٌ وخلف: ﴿يُضَلُّ﴾ بضم الياء وفتح الضاد، وقرأ يعقوب: ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء وكسر الضاد، وباقي العشرة: ﴿يَضِلُّ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٤)، و«التيسير» (ص: ١١٨)، و«النشر» (٢/ ٢٧٩).

(٣) كذا في النسختين، وفي المصدر: «... حتى يستدير الحج في كل أربع وعشرين سنة إلى المحرم الذي ابتدأوا منه الإنساء...». انظر التعليق الآتي.

سنةُ تسعٍ وقعَ الحجُّ في ذي الحجّةِ، وبعثَ رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ ليحُجَّ بالنّاسِ، فلما كانت سنةُ عشرٍ حجَّ رسولُ الله ﷺ حجّةَ الوداعِ وقال: «إنَّ الزَّمانَ قد استدارَ على هيئتِه، فلا شهرَ يُنسَأُ، وإنَّ الحجَّ في ذي الحجّةِ إلى يومِ القيامةِ»[1].

* * *

(٣٨) - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

قولُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ عُوتِبُوا في تثاقُلِهم في غزوةِ تبوكَ، فكانَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ ندَبَهم إليها وقال: «لِينفِرْ من كلِّ رجلَينِ رجلٌ»[2]، وكان ذلك وقتَ إدراكِ الثِّمارِ وشدَّةِ الحرِّ، فأحبُّوا الظِّلالَ والثِّمارَ.

---

(١) رواه عن الكلبي مطولًا الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٨١ - ١٨٦)، والمرفوع منه تقدم تخريجه قريبًا من الصحيحين.

(٢) ذكره في غزوة تبوك الإمام الشافعي في «الأم» (٤/ ١٧٦ و١٧٨)، ولم أجده مسنداً هكذا، لكن رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٢٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٨٦٣)، والإمام أحمد في «المسند» (١١١١٠)، ومسلم (١٨٩٦)، وأبو داود (٢٥١٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٦٢٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني لحيان: «ليخرج من كل رجلين رجل»، ثم قال للقاعد: «أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير، كان له مثل نصف أجر الخارج». ومعناه: بعث إِلَى بني لحيان بعثاً ثمَّ قَالَ للْمُسلمين: ليخرج فِي الْبَعْث من كل رجلَينِ رجل، وبَنُو لحيان هم الكفَّار المَبْعُوث إِلَيْهِم وليسوا بالذين قيل لهم: «ليخرج من كل رجلَيْنِ رجل». انظر: «مشارق الأنوار» (٢/ ٤٠٣). قلت: ويؤيد هذا التأويل ما جاء في رواية للإمام أحمد على شرط مسلم (١١٤٦١) بلفظ: أنَّ رسول الله ﷺ بَعَثَ بَعْثًا إلى بني لحيانَ من هُذَيلٍ، فقال: «لِينبعثْ مِن كلِّ رجلين أحدُهما والأجرُ بينهما».

والنَّفْرُ: الخروجُ إلى مكانٍ لأمرٍ حُمِلَ عليه، واسمُ القومِ الذين يخرجُونَ: النَّفيرُ.

﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾؛ أي: تثاقلتُم إلى الإقامةِ بأرضِكم.

وقيلَ: اثَّاقلتُم إلى شهواتِ الدُّنيا والأرضِ، كقولِه: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: قدَّمتُم الدُّنيا على الآخرةِ؛ أي: الجنّةِ.

وقولُه: ﴿مِنَ﴾ يتضمَّنُ معنى البدلِ؛ أي: رضيتُم بالحياةِ الدُّنيا بدلًا منَ الآخرةِ، كقولِه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً﴾ [الزخرف: ٦٠]؛ أي: بدَلًا منكم.

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لأنّه ينقطعُ سريعًا.

***

(٣٩) ـ ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾؛ أي: إنْ لم تنفِرُوا مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ إلى الجهادِ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قيلَ: يحبسُ عنكم المطرَ.

وقيلَ: هدَّدَهم بعذابٍ شديدٍ.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قيلَ: أبناءَ فارسَ. وقيلَ: أهلَ اليمنِ.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾؛ أي: لا تضُرُّوا الله، أو: لا تضُرُّوا الرَّسولَ، والتَّثاقُلُ عن الجهادِ مع إظهارِ الكراهةِ حرامٌ على كلِّ أحدٍ، فأمَّا من غيرِ كراهةٍ فمَن عيَّنَه النَّبيُّ عليه السَّلامُ حرُمَ عليه التَّثاقلُ، وإنْ أُمِنَ منهما فالفرضُ فرضُ كفايةٍ.

***

(٤٠) ـ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ عاتبَهُم بعدَ انصرافِ رسولِ الله ﷺ من تبوكَ.

﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بمكّةَ لـمّا همُّوا بإخراجِه.

وقولُه: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾؛ أي: هَـمُّوا بقتلِه فصارَ ذلك سببَ خروجِه، فأُضيفَ الإخراجُ إليهم لوجودِ السَّببِ منهم، وقد قال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ [الأنفال: ٥]؛ أي: أمرَكَ بالخروجِ إلى بدرٍ.

﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: أحدَ اثنينِ، وهو نصبٌ على الحالِ؛ أي: نصرَه مُنفردًا إلّا من أبي بكرٍ رضيَ الله عنه.

و﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ مضافٌ من غيرِ تنوينٍ، وكذلك «ثالثُ ثلاثةٍ»؛ أي: هو أحدُ الاثنَينِ، وأحدُ الثَّلاثةِ، وإنْ أردتَ الفعلَ ـ بمعنى أنَّه كانَ واحدًا فثَنَّاه ـ قُلتَ: «ثاني واحدٍ»، وكذلك: «ثالثُ اثنَينِ».

﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ الغارُ: ثَقْبٌ في الجبلِ؛ يعني: غارَ ثورٍ، وقد مكَثا ثلاثةَ أيّامٍ، وكان عامرُ بنُ فُهَيرةَ يروحُ عليهما بغنمٍ لأبي بكرٍ(١).

وكان عبدُ الرَّحمنِ بنُ أبي بكرٍ(٢)..................................

(١) رواه البخاري (٣٩٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها ضمن حديث الهجرة الطويل.

(٢) تابع المصنف في ذكر «عبد الرحمن بن أبي بكر» هنا الثعلبيَّ في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٦)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٣٨)، كلاهما عن قتادة، وكذا ذكره أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٣٠) في =

يختلفُ إليهما، ثمَّ أتاهما بأمرِ أبي بكرٍ بناقتَينِ فركِباهما.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ﴾؛ أي: أبي بكرٍ، وكانت هذه الصُّحبةُ بأمرِ الله؛ لأنَّ جبريلَ لمَّا أمرَه بالخروجِ، قال: مَن يخرُجُ معي؟ قال: أبو بكرٍ.

وقال البَجَليُّ: مَن أنكرَ أن يكونَ أبو بكرٍ أو عمرُ أو عثمانُ صاحبَ رسولِ الله ﷺ فهو كافرٌ؛ لأنَّه ردَّ نصَّ الكتابِ[1].

ولمَّا خرجَ الكفَّارُ في طلبِه، واقتَصُّوا الأثرَ إلى الغارِ؛ حزِنَ أبو بكرٍ رضيَ الله عنه وقال: أُتِينا يا رسولَ الله، فقال: «اللَّهمَّ أعمِ أبصارَهم»[2]، فعمِيَتْ أبصارُهم، ودارُوا حولَ الغارِ وانصرَفُوا.

= حديث الهجرة عن عائشة رضي الله عنها، وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٢).

لكن الوارد في الأخبار الصحيحة أن الذي كان يبيت في الغار مع النبي ﷺ وأبي بكر هو عبد الله بن أبي بكر لا عبد الرحمن، فقد جاء في حديث عائشة عند البخاري (٣٩٠٥): «ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكث فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب، ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام».

ومما يرجح كونه عبد الله أنه جاء في ترجمة عبد الرحمن أنه تأخر إسلامه إلى أيام الهدنة، وقيل: إنما أسلم يوم الفتح. ويقال: إنه شهد بدرًا مع المشركين. انظر: «الإصابة» (٤/ ٢٧٤).

(١) في «التفسير الكبير» للرازي (١٦/ ٥١): «قال الحسين بن فضيل البجلي: من أنكر أن يكون أبو بكر صاحب رسول الله ﷺ كان كافرًا».

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ١٧١)، والثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٨)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٣٩). قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٧٧): «لم أجده»، وكذا قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٧٦).

وقال أبو بكرٍ: لو أنَّ أحدَهم نظرَ إلى قدمَيه لأبصَرَنا، فقال عليه السَّلامُ: «يا أبا بكرٍ، ما ظنُّك باثنَينِ الله ثالثُهما؟»(١).

وكان رسولُ الله ﷺ في مسيرِه مرَّ بيمامةٍ، فأمرَ أبا بكرٍ بأخذِها ثمَّ وضعِها في ممرِّ الغارِ، فقال القومُ: لو كان فيه أحدٌ لزالَتِ اليمامةُ(٢).

وقيلَ: نَسَجَ العنكبوتُ على بابِ الغارِ في تلك الحالةِ، وقيَّضَ الله حمامةً باضَتْ هناك(٣).

﴿لَا تَحْـزَنْ﴾: كان أبو بكرٍ يقولُ: لو قُتِلْتُ فأنا رجلٌ واحدٌ، ولو قُتِلْتَ هلَكَتِ الأمَّةُ، فقال: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(٤).

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في الغار فرأيتُ آثار المشركين، قلتُ: يا رسول الله، لو أنَّ أحدَهم رَفَع قَدَمَه رآنا، قال: «ما ظَنُّكَ...».

(٢) لم أجده بهذا السياق، وانظر التعليق الآتي.

(٣) رواه مطولًا ومختصراً ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٢٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٤٤٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣)، من طريق عون بن عَمرٍو القَيسيِّ، عن أبي مُصعبٍ المكِّيِّ قال: أدركْتُ زيدَ بنَ أَرْقَمَ وأنَسَ بن مالكٍ والمغيرةَ بنَ شعبةَ فسمعْتُهم يتحدَّثون: أنَّ النبيَّ ﷺ ليلةَ الغارِ...، فذكره، وعون ـ ويقال: عوين ـ بن عمرو القيسي، أعله العقيلي به وقال: لا يتابع عليه، وأبو مصعب المكي مجهول. وانظر: «نصب الراية» (١/ ١٢٣). وقصة نسج العنكبوت رواها أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٥١) بإسناد ضعيف كما ذكر محققوه، لكن قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/ ٤٥١) عنه: «هذا إسنادٌ حَسَنٌ، وهو من أَجودِ ما رُوِي في قصةِ نَسْجِ العنكبوتِ على فمِ الغارِ».

(٤) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ١٧١)، والثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٤)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٤٠).

وكانَ حزنُ أبي بكرٍ شفقةً على النَّبيِّ ﷺ.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ قيلَ: على النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

وقيلَ: على أبي بكرٍ؛ فإنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ كان ساكنَ القلبِ بوعدِ الله حفظَه.

وقيلَ: أي: أنزلَ الله رحمتَه عليهما، فاكتفَى بذكرِ أحدِهما، كقولِه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾؛ أي: مِنَ الملائكةِ، يدعونَ الله له، ويَصرِفُونَ وجوهَ الكفّارِ عنه، ويُلقونَ البشارةَ في قلبِه.

وقيلَ: أرادَ: أيَّدَه يومَ بدرٍ بالملائكةِ.

والكنايةُ في قولِه: ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ ترجعُ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰ﴾؛ أي: كلمةَ الشِّركِ، والكلمةُ العُليا: لا إلهَ إلّا اللهُ، أو وعدُ النَّصرِ.

قُرِئَ: ﴿وكَلِمَةَ اللهِ﴾: بالرَّفعِ وبالنَّصبِ(١)، والرَّفعُ أحسَنُ؛ إذ لا يُقالُ: «أعتَقَ أبوكَ غلامَ أبيك»، بل يُقالُ: «أعتَقَ أبوكَ غلامَه».

وخرجَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ منَ الغارِ، وكانوا في الطَّريقِ هو عليه السَّلامُ وأبو بكرٍ وعامرُ بنُ فُهَيرةَ وعبدُ الله بنُ أُرَيقطٍ اللَّيثيُّ(٢).

---

(١) قرأ يعقوب من العشرة بالنصب، وباقي العشرة بالضم. انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٩٦)، و«الطبقات الكبرى» (١/ ١٩٦)، و«تاريخ الطبري» (١١/ ٥٧٧)، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦٥١٠) من طريق محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري، عن أبيه، عن جده، والحاكم في «المستدرك» (٤٢٧٢) عن عائشة رضي الله عنها، و(٤٢٧٤) عن هشام بن حبيش بن خويلد رضي الله عنه، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

ولحِقَهم سُراقةُ بنُ جُعْشُمٍ طالبًا له، فلمَّا دنا منه ساخَتْ قوائمُ فرسِه في الأرضِ، فقال: يا محمَّدُ، قد عرفتُ أنَّ هذا من عمَلِكَ، وسألَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ أن يدعُوَ الله له بالخلاصِ على شرطِ ألّا يدُلَّ عليه أحدًا، ولا يُخبِرَ بمكانِه مَن وراءَه، فدَعا، فخرجَتْ قوائمُ فرسِه منَ الأرضِ، وانصرَفَ عنهم(١).

وقيلَ: لـمَّا دخلَ أبو بكرٍ الغارَ انبطَحَ فيه وألقَى نفسَه، وقال: إنْ كان فيها شيءٌ منَ الهوامِّ أقي رسولَ الله منه بنفسي، وكان عليه بُردٌ ثمينٌ فمزَّقَه وحشا الحجرةَ في جهادِ الأعداءِ، وبقيَ جُحْرانِ فسَدَّهما بعقبَيه(٢).

***

(٤١) - ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ أي: خِفُّوا في جهادِ الأعداءِ على كلِّ حالٍ.

قال ابنُ عبّاسٍ: شبابًا وكُهولًا(٣).

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٣٩٠٦) من حديث سراقة، ورواه البخاري (٥٦٠٧)، ومسلم (٢٠٠٩) مختصرًا من حديث البراء رضي الله عنهما.

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٢٢٣٨)، واللالكائي في «الاعتقاد» (٢٤٢٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٧٧)، عن ضبة بن محصن العنزي يحدث عن عمر رضي الله عنه، وضعف إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ٨٢٣).

ورواه بنحوه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٦٨) عن ابن سيرين، وقال الذهبي: صحيح مرسل.

(٣) لم أقف عليه عن ابن عباس، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٦٨) عن الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان ومجاهد وغيرهم.

وروى أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٣٧٠)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٥٠٧)، عن أنس رضي الله عنه: أن أبا طلحة قرأ هذه الآية، فقال: أرى الله يستنفرنا شيوخنا وشبابنا، جهزوني.

وقيلَ: رُكبانًا ورِجَّالةً[١].

وقيلَ: نُشَّاطًا وغيرَ نُشَّاطٍ[٢].

وقيلَ: فقراءَ وأغنياءَ.

وقيلَ: الخِفافُ: ذوو العُسرةِ، والثِّقالُ: أولو العيلةِ والميسرةِ.

وقيلَ: نُسِخَتِ الآيةُ بقولِه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١][٣].

والصَّحيحُ: أنَّها ليست بمنسوخةٍ، ولكنَّه عنَى: انفِرُوا على كلِّ حالٍ عند الإمكانِ اللّائقِ بتلك الحالةِ[٤].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: منَ التَّثاقُلِ إلى الأرضِ.

وقيلَ: ليس يُريدُ المُفاضلةَ، بل يُريدُ الخيرَ في هذا لا في تركِه.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٧٢) عن أبي عمرو، وهو أبو عمرو الأوزاعي كما جاء عند مكي في «الهداية» (٤/ ٣٠٠٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٦٥)، وابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٨٥) عن عطية العوفي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٣) عن السدي. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن الناسخ لها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ الآية [التوبة: ١٢٢]، رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٣٨٥)، ومن طريقه ابن المنذر في «تفسيره» (١٩٨٥).

(٤) وكذا صحح ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٥١٧) أنها غير منسوخة، ثم قال: «وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل إذا تعين الجهاد على الأعيان بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر؛ فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج إليه؛ فإن قصروا عصوا».

(٤٢) - ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قولُـه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾: لمَّـا رجـعَ عليه السَّـلامُ من غزوةِ تبـوكَ أظهرَ الله نفـاقَ قـومٍ، وقال: لـو كانَ المدعـوُّ إليه عرَضًـا قريبًا، فحُـذِفَ اسـمُ ﴿كَانَ﴾ لدلالةِ ما تقـدَّمَ عليه.

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾؛ أي: عرَضَ الدُّنيا؛ أي: غنيمةً قريبةً.

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾؛ أي: سـهلًا معلـومَ الطُّـرقِ، والقصـدُ: الاسـتقامةُ، ويُقـالُ للعـدلِ: قصـدٌ؛ لأنَّـه مـمَّا ينبغـي أن يُقصَدَ.

وقيلَ: قاصدًا؛ أي: ذا قصدٍ؛ أي: ذا اعتدالٍ.

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾؛ أي: المسافةُ إلى الشَّامِ، وهي القِطعةُ منَ الأرضِ يَشُقُّ ركوبُها.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: لو قدَرْنا وكانَ لنا سعةٌ في المالِ، وهذا إخبارٌ عن الغَيبِ، فكان كما أخبرَ.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: بالكذبِ والنِّفاقِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في الاعتِلالِ.

* * *

(٤٣) - ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

قولُه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ قيلَ: لِـمَ أذِنتَ لهم في الخروجِ معكَ وفي خروجِهم بلا عُدَّةٍ ونيَّةٍ صادقةٍ فسادٌ وتخذيلٌ؟

وقيلَ: لِـمَ أذِنَ لهم في القُعودِ لـمَّا اعتَلُّوا بأعذارٍ؟ وهذا عتابُ تَلَطُّفٍ[1] إذ قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، وكانَ عليه السَّلامُ أذِنَ من غيرِ وحيٍ نزلَ فيه.

وقيلَ: المُرادُ: أنتَ معفُوٌّ لك في تركِ الأَولى لـمَّا أذِنَ لهم، فهذا خبرٌ لا دعاءٌ.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ أي: حتَّى تعرِفَ مَن له العذرُ في التَّخلُّفِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ لـم يكُنْ يعرِفُ يومَئذٍ المنافقين، وإنَّما عرفَهم بعد نزولِ سورةِ التَّوبةِ[2].

* * *

(٤٤) ـ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قولُـه: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: إنَّ المُؤمـنَ لا يسـتأذِنُ فـي الخـروجِ ولا فـي القُعـودِ، بـل إذا أمـرتَ بشـيءٍ ابتَدَره، فـكان الاستِئذانُ في ذلك الوقـتِ علامـةَ النِّفاقِ.

﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾؛ أي: في أن يُجاهِدوا، فحُذِفَ «في».

وقال قومٌ: الاستِئذانُ منَ الإمامِ في الجهادِ محمودٌ، فلا بدَّ في الآيةِ من إضمارٍ؛ أي: لا يستأذِنُكَ هؤلاءِ أنْ لا يُجاهِدُوا، أو: لا يستأذِنُك هؤلاءِ كراهةَ أن يُجاهِدُوا، ويدُلُّ عليه: أنَّ الذَّمَّ وقعَ على مَن يستأذنُ في القعودِ عن الجهادِ لا على الاستئذانِ، وإنَّما جازَ هذا الحذفُ لدلالةِ الحالِ عليه.

ونظيرُه: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]، الظَّاهرُ يُوهِمُ أنَّهم يرغبون في

---

(١) في (ف): «بلطف».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٥٥).

نكاحِهنَّ، وليس المعنى على ذلك، بل الآيةُ وردَتْ في عَضْلِ الوليِّ عنِ التَّزويجِ وامتناعِه من أن يَتزوَّجَها، وتقولُ: «رغبْتُ أن أفعَلَ كذا»؛ أي: رغبتُ عن أن أفعَلَ كذا، وتقولُ[1]: «رغبْتُ أن أفعَلَ كذا»؛ أي: رغبْتُ في أن أفعَلَ، وإنَّما يتميَّزُ أحدُهما لقرائنِ الحالِ[2].

* * *

(٤٥) ـ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾: قيلَ: في الخروجِ؛ فإنَّه قولُ مُرضٍ[3]، ولو صدَقُوا لجدُّوا في الخروجِ كما قال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقيلَ: أي في القعودِ عن الجهادِ، وهذا هو الظَّاهرُ.

﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾: أي: شكُّوا في الدِّينِ.

﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي: يتمادَونَ.

* * *

(٤٦) ـ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾.

وقولُه: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ أي: لو أرادُوا الجهادَ لأعدُّوا

---

(١) في (ف): «أو تقول».

(٢) انظر: «البسيط» (١٠/ ٤٥٩).

(٣) في (أ): «ممرض».

الـزّادَ والمركـوبَ، فتركُهم الاسـتعدادَ دليلٌ علـى إرادتِهـم التَّخلُّفَ.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾؛ أي: انطِلاقَهـم، يُقـالُ: «بعثـتُ البعيـرَ فانبعَـثَ»؛ أي: كـرِهَ الله خروجَهم معك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ أي: خذَلَــهم ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ أي: مـع أُولـي الضَّررِ والعُميـانِ والزَّمْنَى والنِّسـوانِ والصِّبيانِ.

وقيلَ: قال لهم النَّبيُّ ﷺ: «اقعُدُوا مع القاعِدينَ» غَضَبًا[1]، فأخَذُوا بظاهِرِ لفظِه، وقالوا: قد أُذِنَ لنا.

وقيلَ: قولُه: ﴿ٱقْعُدُواْ﴾ عبارةٌ عن الـخُذلانِ؛ أي: أوقعَ الله في قُلوبِهم القعودَ.

ويجوزُ أن يكونَ بعضُهم قال لبعضٍ: ﴿ٱقْعُدُواْ﴾.

* * *

(٤٧) ـ ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم﴾: هو تسليةٌ للمؤمنينَ في تخلُّفِ المُنافقينَ عنهم.

والـخَبالُ: الفسادُ؛ يعني به النَّميمةَ وإيقاعَ الاختلافِ والأراجيفِ.

وهذا استثناءٌ مُنقطِعٌ؛ أي: ما زادُوكم قوّةً، ولكنْ طلبُوا الخبالَ.

وقيلَ: لا يزيدُوكم فيما يتردَّدونَ فيه منَ الرَّأيِ إلّا خَبالًا، فلا يكونُ الاستثناءُ مُنقطِعًا.

﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾: يُقالُ: وضعَ البعيرُ؛ أي: عدَا، وأوضَعْتُه؛ أي: حملتُه على العَدْوِ.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٦٨)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٦٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٢٦٤). ولعله لا يراد به الرواية، بل هو مستنبط من لفظ القرآن.

وقيلَ: الإيضاعُ: سيرٌ مثلُ الـخَبَبِ.

﴿خِلَٰلَكُمْ﴾؛ أي: فيما بينكم، والخلَلُ: الفُرجةُ بينَ الشَّيئَينِ، والجمعُ: الخِلالُ، يعني: إسراعَهم بالتَّضريبِ فيما بينَهم.

﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ هذا حالٌ لـهذا الإيضاعِ.

وقيلَ: لأوضَعُوا خلالَكم؛ أي: أسرَعُوا في الهربِ.

في خطِّ المُصحفِ (ولاأوْضَعُوا) بزيادةِ ألفٍ[1].

قال الفرَّاءُ: هو من هجاءِ الأوَّلينَ، وهكذا ذكرَ الزَّجَّاجُ[2].

وقيلَ: يبغُونكم الفتنةَ؛ أي: يبغُونَ لكم.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: عيونٌ لهم ينقُلون إليهم ما يسمعون منكم.

وقيلَ: أي: وفيكم مَن يسمعُ كلامَهم، أو: وفيكم مَن يُطيعُهم.

ولـمَّا خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى تبوكَ ضربَ عسكرَه على ثنيَّةِ الوداعِ، وضربَ عبدُ الله بنُ أُبيٍّ عسكرَه على ذي جُدَّةَ[3] أسفلَ من ثنيَّةِ الوداعِ، ولـم يكُنْ بأقلِّ

---

(١) انظر: «المصاحف» لابن أبي داود (ص: ٢٦٣)، و«المحكم في نقط المصحف» (ص: ١٧٤)، وقال أبو عمر الداني في «المقنع» (ص: ٥١): قال في الإمام: (ولا أوضعوا) في التوبة، و﴿أولا أذبحنه﴾ في النمل بألف، وقال نصير: «اختلفت المصاحف في الذي في التوبة واتفقت على الذي في النمل». وقال في «النقط» (ص: ١٤٣): «كأن تلك الألف زيدت تقوية للهمزة لبعدها ولخفائها، وأصحاب المصاحف على خلاف ذلك».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٣٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٥١).

(٣) قوله: «على ذي جدة» كذا وقع عند الثعلبي والواحدي، والذي في «تفسير الطبري» و«تاريخه»: «وضرب عبد الله بن أبي عسكره على حِدَةٍ أسفلَ منه بحذاء ذباب جبلٍ بالجبانة أسفل من ثنية الوداع». وفي «السيرة»: «وضَرَب عبدُ الله بنُ أُبيٍّ معه على حِدَةٍ عسكرَه أسفلَ منه، نحوَ ذبابٍ». =

العسكرَينِ، فلمّا سارَ رسولُ الله ﷺ تخلَّفَ ابنُ أُبيٍّ فيمَن تخلَّفَ منَ المُنافقين[1]، فأنزلَ الله هذه الآياتِ[2].

* * *

(٤٨) ـ ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

قولُه: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ قالَ ابنُ جُرَيجٍ: أرادَ أنَّ اثنَي عشرَ رجلًا منَ المُنافقين وقفُوا على ثنيّةِ الوداعِ ليلةَ العقبةِ ليفتِكُوا بالنَّبيِّ عليه السَّلامُ، أو يُنفِّرُوا بعيرَه[3].

وقيلَ: هو إشارةٌ إلى انصرافِ ابنِ أُبيٍّ يومَ أُحدٍ بثُلُثِ النّاسِ.

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾؛ أي: انتقَلُوا من حيلةٍ إلى حيلةٍ، ومنه: «فلانٌ حُوَّلٌ قُلَّبٌ».

= وذُباب: جبل صغير يقع في شمال المدينة بالقرب من ثنية الوداع من جهة الشمال.

(١) بعدها في (أ): «وقفوا على ثنية الوداع» وليست في المصادر.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥١٩)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٢٨٥ـ٢٨٦) ط محمود شاكر، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٨٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٣/ ٣٩٢)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٧).

(٣) ذكره عن ابن جريج الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٧٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٣١).
ورواه مطولاً دون ذكر الآية الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٧٩٢) عن أبي الطفيل، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) عن حذيفة. قال أبو العباس القرطبي في «المفهم» (٧/ ٤١١): ليست هذه العقبة عقبة بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ في أول الإسلام، وإنما هي عقبة بطريق تبوك وقف له فيها قوم من المنافقين ليقتلوه، كما قد رواه أحمد بن حنبل من طريق أبي الطفيل.

﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قَبْلِ هذه الكرَّةِ؛ أي: من قبلِ أن يكثُرَ أنصارُكَ.

والآيةُ نزلَتْ في الذين انصرفُوا مع ابنِ أُبيٍّ عن غزوةِ تبوكَ لـمَّا ضربَ رسولُ الله ﷺ عسكرَه على ثنيّةِ الوداعِ[1].

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: أظهرَ الله الإسلامَ.

***

(٤٩) - ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ قال محمَّدُ بنُ إسحاقَ: قالَ رسولُ الله للجَدِّ بنِ قيسٍ أخي بني سلَمةَ: «يا جَدُّ، هل لكَ في جِلَادِ بني الأصفرِ تتَّخِذُ منهم سرارِيَّ ووُصَفاءَ؟» فقال الـجَدُّ: قد عرَفَ قومي أنِّي مُغرَمٌ بالنِّساءِ، وإنِّي أخشى إنْ رأيتُ نساءَ بني الأصفرِ ألّا أصبرَ عنهُنَّ، فلا تفتِنِّي بهنَّ، وَأْذَنْ لي في القُعودِ وأُعينُكَ بمالي، فأعرَضَ عنه رسولُ الله ﷺ، وقال: «قد أذِنْتُ لك»، فنزلَتْ هذه الآيةُ[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٩٠ - ٤٩١) عن الحسن.

(٢) رواه ابن إسحاق - ومن طريقه الطبري - عن الزهري وجماعة من أشياخه مرسلًا، ورواه ابن أبي حاتم متصلاً من طريق ابن إسحاقَ ثنا سعيدُ بنُ عبد الرحمن بنِ حسانَ بنِ ثابتٍ عن جابر بن عبد الله قال: سمعْتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقول لجَدِّ بنِ قيسٍ.. فذكره بنحوه. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٥١٦)، و«تفسير الطبري» (١١/ ٤٩٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٠٩) و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٦). وحديث جابر رجاله ثقات من رجال «التهذيب» عدا سعيد بن عبد الرحمن، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» (٦/ ٢٤٩) وقال: يروي عن أبيه روى عنه أهل المدينة وكان شاعراً. قلت: وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث عنه. =

(لا تَفْتِنِّي)؛ أي: بصَباحةِ وُجوهِهنَّ، ولـم يكُنْ به علَّةٌ إلَّا النِّفاقُ.

وقيلَ: (لا تَفتِنِّي) بأن أرغبَ فيهنَّ فأدخُلَ في دينِهم.

وقيلَ: (لا تَفتِنِّي)؛ أي: لا تشغَلْني عن ضيعَتي ومالي بالخروجِ معك.

وقيلَ: أي: إنْ لـم تأذَنْ لي عصَيْتُ وافتَتَنْتُ.

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾: وهي النِّفاقُ والإثمُ والتَّخلُّفُ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مصيرُهم إلى النّارِ، فهي تُحدِقُ بهم.

* * *

(٥٠) ـ ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾؛ أي: يحزنُونَ بما يتَّفِقُ لك من ظَفَرٍ.

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾؛ أي: هزيمةٌ ونِكايةٌ ﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: احتَطْنا لأنفُسِنا إذ تخلَّفْنا عن القتالِ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ هذه المُصيبةِ.

﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾؛ أي: عن الإيمانِ ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾؛ أي: مُعجَبُونَ بذلك.

* * *

= ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢٦٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده يحيى الحماني وهو ضعيف كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٠).

(٥١) - ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ أي: في اللَّوحِ المحفوظِ، والمعنى: كلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدَرٍ.

وقيلَ: ما كتَبَ الله لنا وبيَّنَه في القرآنِ من أنَّا إمَّا أنْ نَظْفَرَ فيكونَ الظَّفَرُ حُسنى لنا، وإمَّا أن نُقتَلَ فتكونَ الشَّهادةُ حُسنَى لنا.

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ أي: ناصِرُنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١) التَّوكُّلُ: تفويضُ الأمرِ إليه.

* * *

(٥٢) - ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾؛ أي: تنتَظِرونَ، يُقالُ: تربَّصَ بالطَّعامِ؛ أي: انتظرَ به إلى حينِ الغلاءِ.

و(الحسنَى): تأنيثُ الأحسَنِ؛ أي: الغنيمةُ أو الشَّهادةُ.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ كما أصابَ الأممَ الخاليةَ ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾؛ أي: يأذنُ لنا في قتالِكم.

﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾؛ أي: انتظِرُوا مواعدَ الشَّيطانِ، وهذا أمرُ تهديدٍ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾(٢) مواعدَ الله.

---

(١) في النسختين: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، والصواب المثبت.

(٢) في النسختين: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، والصواب المثبت.

(٥٣) ـ ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلَتْ في الجدِّ بنِ قيسٍ إذ قال: ائذَنْ لي في القُعودِ، وهذا مالي أُعينُكَ به[1].

ومعنى هذا الأمرِ: الشَّرطُ والجزاءُ؛ أي: إن أنفقتُم طائعين أو مُكرَهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ والأمرُ قد يقعُ موقعَ الخبرِ، كما أنَّ الخبرَ قد يقعُ موقعَ الأمرِ، كقولِكَ: «غفرَ الله له».

﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾؛ أي: لا ثوابَ لكم ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾؛ أي: كافِرينَ، ولا ثوابَ للكافرِ.

* * *

(٥٤) ـ ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ ﴾ قُرِئَ: ﴿تُقْبَلَ ﴾ و﴿يُقبَل﴾ بالتّاءِ والياءِ[2]، وما عمِلَه الكافرُ منَ الحسناتِ لا يُثابُ عليه إنْ لـم يُسلِمْ؛ فإنْ أسلمَ أَمكَنَ أن يُثابَ عليه، قال عليه السَّلامُ لحكيمِ بنِ حِزامٍ: «أمَّا أنتَ فقد أسلَمْتَ على ما قدَّمْتَ منَ الخيرِ»[3].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٩٩) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع.

(٢) قرأ حمزة والكسائي بالياء والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٥)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٣) رواه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣)، من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه بلفظ: قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت أشياء، كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبي ﷺ: «أسلمتَ على ما سَلَفَ مِنْ خير».

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾: قال ابنُ عبَّاسٍ: إنْ كانَ في جماعةٍ صلَّى، وإن انفرَدَ لـم يُصلِّ[١]. وهو الذي لا يرجُو على الصَّلاةِ ثوابًا، ولا يخشَى في تركِها عقابًا، والنِّفاقُ يُورِثُ الكسلَ في العبادةِ لا محالةَ.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾؛ أي: لمُراءاةِ النّاسِ.

* * *

(٥٥) ـ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾؛ أي: لا تستحسِنْ ما أعطيناهُم، ولا تـمِلْ إليه؛ فإنَّه استدراجٌ.

وقيـلَ: لا تُعجِبْكَ أموالُـــهم التي يُنفِقُونَها فإنَّهـا لا تُقبَلُ منهم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ المسـلمون، مثـلَ عبـدِ اللهِ بـنِ عبـدِ الله بـنِ أُبـيٍّ وغيـرِه؛ فإنَّهـم لا ينفعُـونَ آباءهـم المنافقين[٢].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق عطاء.

(٢) ذكر هذا الوجه في الآية الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٩١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ هو أن كثيراً من المنافقين كان لهم أولاد أتقياء كحنظلة بن أبي عامر غسلته الملائكة، وعبد الله بن عبد الله بن أبيّ شهد بدرًا وكان من الله بمكان، وهم بشرٌ كثيرٌ صالحون أبرياء من النفاق.

كذا ذكره، ولم أجده مسنداً، ولعله من رواية عطاء عن ابن عباس، وهي روايات ساقطة لا تصح كما ذكرنا غير مرة، والمتبادر من الآية هو الوجه الأول، وأن المعنى: لا ينبغي أن تعجبوا بأموال هؤلاء المنافقين والكافرين، ولا بأولادهم ولا بسائر نِعَمِ الله عليهم، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. انظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ٧١).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾؛ أي: يُملي لهم في الدُّنيا ليُعذِّبَهم، فهي لامُ العاقبةِ، وقيلَ: هي بمعنى «أنْ».

ثمَّ؛ قيلَ: ليُعذِّبَهم بها في الآخرةِ[1].

وقيلَ: في الدُّنيا بالمصائبِ فيها، وهي لهم عذابٌ وللمؤمنين أجرٌ.

وقيلَ: يُعذِّبُهم بالتَّعبِ في الجمعِ والحفظِ.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: بموتٍ، يُقالُ: زهَقَتْ نفسُه وزهِقَتْ؛ أي: ذهبَتْ ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، الآيةُ نصٌّ في أنَّ الله يُريدُ أن يموتُوا كافرينَ.

* * *

(٥٦) ـ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ بيَّنَ أنَّ من أخلاقِ المنافقين الحَلِفَ

---

(١) الآية صريحة أنها في الدنيا والمؤلف ـ رحمه الله ـ قد اختصر الكلام اختصاراً شديداً فغمض المراد منه، وتصحيح هذا الوجه: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والتقدير: فلا تعجبك أموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، وهذا يروى عن بعض السلف منهم قتادة وابن عباس، فقد روى الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٠)، عن ابن عباس قوله: «إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة»، وعن قتادة قال: «هذه من تقاديم الكلام، يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة».

ولم يعجب هذا التأويل إمام المفسرين الطبري رحمه الله، فقد روى عن الحسن قوله: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله»، ثم قال: «وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا: التأويلُ الذي ذكرنا عن الحسن؛ لأن ذلك هو الظاهر من التنزيل، فصرْفُ تأويله إلى ما دلَّ عليه ظاهره أولى من صرفه إلى باطنٍ لا دلالةَ على صحته...» إلى آخر كلامه.

بالله بأنَّهم مُؤمِنُون ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾؛ لأنَّهم يُبطِنُونَ الكفرَ، وهو كقولِه: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿يَفْرَقُونَ﴾؛ أي: يخافُونَ أن يُظهِرُوا ما هم فيه فيُقتَلُوا.

* * *

(٥٧) - ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

قولُه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾؛ أي: موضِعًا يتحصَّنُونَ فيه، يُقالُ: لجأَ إليه يلجَأُ لجأً، والتجأَ إليه ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾: هي جمعُ «مغارةٍ»، وهي الموضعُ الذي يغورُ فيه المرءُ؛ أي: يستتِرُ، ومنه: غارَ الماءُ، وغارَتِ العينُ.

قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾؛ أي: سراديبَ[1].

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾: هو مُفْتَعَلٌ منَ الدُّخولِ؛ أي: مسلَكًا يُخفي[2] بالدُّخولِ فيه.

﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: لرَجَعُوا إليه، يُقالُ: ولَّى إليه بنفسِه؛ أي: انصرَفَ، وولَّى غيرَه؛ أي: صرَفَه.

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: يُسرِعُون لا يرُدُّ وجوهَهم شيءٌ، من جمحَ الفرسُ: إذا لم يردَّه اللِّجامُ؛ أي: لو وجَدُوا مهربًا من المسلمين لأسرَعُوا إليه.

* * *

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨١٤)، ولفظ ابن أبي حاتم: «الأسراب في الأرض المخفية»، وفي رواية: «الغيران في الجبال».

(٢) في (ف): «نختفي».

(٥٨ ـ ٥٩) ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ هذا وصفُ قومٍ منَ المُنافقين زعَمُوا أنَّهم فقراءُ ليُعطِيَهم رسولُ الله ﷺ من صدقاتِ المسلمين.

قال أبو سعيدٍ الخدريُّ: بينا رسولُ الله ﷺ يقسمُ مالًا إذ جاءَه حُرْقُوصُ بنُ زُهيرٍ أصلُ الخوارجِ، ويُقالُ له: ابنُ ذي الخُوَيصِرةِ التَّميميُّ، فقال: اعدِلْ يا رسولَ الله، فقال: «ويلَكَ، ومَن يعدِلُ إذا لم أعدِلْ؟»، فنزلتِ الآيةُ[١].

وقيلَ: نزلَتْ في قومٍ قالوا: لم تقسِمْ بالسَّويَّةِ[٢].

وقالوا: والله لا يُعطيها محمَّدٌ إلَّا مَن أحبَّ[٣].

﴿يَلْمِزُكَ﴾؛ أي: يعيبُكَ في وجهِكَ، ورجلٌ لُمَزةٌ؛ أي: يعيبُكَ في وجهِكَ، وهُمَزةٌ؛ أي: يعيبُكَ بظهرِ الغيبِ، يُقالُ: لمَزَه يلمُزُه ويلمِزُه بالضَّمِّ والكسرِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٠) و(٦١٦٣)، ومسلم (١٠٦٤/ ١٤٨). ووردت تسميته في إحدى روايات البخاري (٦٩٣٣) من طريق معمر: «عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي». قال ابن تيمية في «الصارم المسلول» (ص: ٢٢٦): «وتسميته ذي الخويصرة هو المشهور في عامة الحديث كما رواه عامة أصحاب الزهري عنه، والأشبه أن ما انفرد به معمر وهم منه فإن له مثل ذلك، وقد ذكروا أن اسمه حرقوص بن زهير». وتوقف ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٣٤٣) في ذكره في الصحابة، وانظر: «فتح الباري» (١٢/ ٢٩٢).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤١٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (٢٤٩)، عن الكلبي، وسمى القائل: أبا الجواظ.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٨) عن ابن زيد.

﴿فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾؛ أي: في تفريقِ الصَّدقاتِ.

قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟﴾؛ أي: لكانَ خيرًا لهم، فالجوابُ محذوفٌ.

* * *

(٦٠) - ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ﴾ ثمَّ بيَّنَ مصارِفَ الصَّدقاتِ:

﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ الفقرُ: شدَّةُ الحاجةِ، والمسكنةُ قريبةٌ منه مع ذلٍّ في صاحبِها ترِقُّ له القلوبُ لأجلِه، وقد عدَّهما الشَّارعُ صنفَينِ، فيجبُ التَّمييزُ بينَهما:

فقال قومٌ: الفقيرُ: الذي له ما يأكلُ، والمسكينُ: الذي لا شيءَ له، منَ السُّكونِ الذي صاحبُه ممنوعٌ منَ الحركةِ في أمرِ نفسِه، وهذا مذهبُ أهلِ العراقِ.

وقال قومٌ: الفقيرُ أشدُّ حاجةً منَ المسكينِ، وهو مكسورُ فقارِ الظَّهرِ، وهو المرميُّ بالفاقرةِ في حالِه، وهذا قولُ الشّافعيِّ رضيَ الله عنه، فالفقيرُ: مَن لا حِرفةَ له، أو لا تقعُ حرفتُه من حاجتِه موقعًا، والمسكينُ: مَن له حرفةٌ أو مالٌ يقعُ من حاجتِه موقعًا ولكنْ ليس له ما يكفيه وعيالَه.

وقد تعوَّذَ رسولُ الله ﷺ منَ الفقرِ[١].

ورُوِيَ أنَّه قال: «أحيِني مسكينًا وأمِتْني مسكينًا»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٨)، ومسلم (٥٨٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «وأعوذ بك من فتنة الفقر».

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب. =

فلو كان المسكينُ أسوأَ حالًا لتناقَضَ الخبرانِ؛ إذ يستحيلُ أن يتعوَّذَ منَ الفقرِ ثمَّ يسألَ ما هو أسوأُ منه، وقد استجابَ الله دُعاءَه، وقبضَه وله مالٌ مـمَّا أفاءَ الله عليه، ولكنْ لـم يكُنْ معه تمامُ الكفايةِ.

﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ يعني: الجباةَ والسُّعاةَ، يُقالُ: فلانٌ عاملٌ على بلدِ كذا؛ أي: هو والٍ عليه، ثمَّ هؤلاءِ يُعطَونَ على قَدْرِ عملِهم، فإنْ فضلَ شيءٌ من نصيبِهم عن أُجرةِ عملِهم رُدَّ على الأصنافِ الباقينَ، وإنْ لـم يفِ نصيبُهم أُكمِلَتْ أجرتُهم من سهمِ المصالحِ.

والأظهرُ: أنَّ الهاشميَّ والمُطَّلبيَّ لا يجوزُ أن يكونَ عاملًا على الصَّدقاتِ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أبى أن يبعَثَ أبا رافعٍ عاملًا على الصَّدقاتِ، وقال: «أمَا علِمْتَ أنَّ مولى القومِ منهم؟»(١).

= ورواه ابن ماجه (٤١٢٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٤٩٩) عن حديث الترمذي: وفي إسناده ضعف، وفي متنه نكارة. وقال عن حديث ابن ماجه: حديث ضعيف لا يثبت من جهة إسناده؛ لأن فيه يزيد بن سنان أبا فروة الرهاوي، وهو ضعيف جدًّا.

(١) رواه أبو داود (١٦٥٠)، والترمذي (٦٥٧)، والنسائي (٢٦١٢)، من حديث أبي رافع رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، ورواه البخاري (٦٧٦١) عن أنس رضي الله عنه، دون ذكر أبي رافع.
قال ابن الأثير في «جامع الأصول» (٤/ ٦٦٠): «الظاهر من المذاهب والمشهور: أن موالي بني هاشم وبني عبد المطلب لا يحرم عليهم أخذ الزكاة، وفي ذلك على مذهب الشافعي وجهان، أحدهما: لا يحرم عليهم؛ لانتفاء النسب الذي به حرم على بني هاشم والمطلب، ولانتفاء نصيب الخمس الذي جعل لهم عوضاً عن الزكاة. والثاني: يحرم؛ لهذا الحديث، وهو قوله ﷺ: «مولى القوم منهم». ووجه الجمع: أنه إنما قال له هذا القول تنزيهاً له وبعثاً له على سبيل التشبه بهم في الاستنان بسنتهم والاقتداء بسيرتهم من اجتناب مال الصدقة التي هي أوساخ الناس، ولأن =

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: منهم أقوامٌ مُسلمون مُطاعُونَ في عشائِرِهم يُعطَونَ من الصَّدقاتِ لأنَّهم يُحرِّضُونَ قومَهم على إخراجِ الصَّدقةِ، ويُخرِجُونَ ما عليهم حتَّى يقتديَ بهم غيرُهم، كعدِيِّ بنِ حاتمٍ، والزِّبْرِقانِ بنِ بدرٍ، وأثرُهم أظهرُ من أثرِ العاملينَ.

ومنهم قومٌ كفَّارٌ[1] تألَّفَهم النَّبيُّ عليه السَّلامُ ليرُدُّوا عنه قومَهم، مثلَ عبّاسِ بنِ مِرداسٍ، وعُيَينةَ بنِ حصنٍ، والأقرعِ بنِ حابسٍ، والحارثِ بنِ هشامٍ، وأبي سفيانَ بنِ حربٍ، واليومَ قد أغنَى الله عنهم، فيجوزُ صرفُ شيءٍ منَ الزَّكاةِ إلى الفريقِ الأوَّلِ، ولا يجوزُ إلى الثّاني.

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: هم المُكاتَبون يُصرَفُ إليهم شيءٌ في أداءِ نجومِ الكتابةِ، وفيه إضمارٌ؛ أي: في فكِّ الرِّقابِ، **ثمَّ الأحوطُ** أن يُدفعَ إلى السَّيِّدِ بإذنِ المُكاتَبِ.

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾: وهم الذين لزِمَهم دَينٌ لأنفُسِهم لضَعْفِ حالِـهم، وقد يدخلُ في الاستحقاقِ مَن يستَدينُ لإصلاحِ ذاتِ بينٍ في حَمَالةٍ يتحمَّلُها أو نحوِها، ومَن استقرَضَ في معصيةٍ فلا يُعانُ على المعصيةِ.

والغُرْمُ في اللُّغةِ: لُزوم ما يتعَذَّرُ ويَشُقُّ، والغرامُ: العذابُ اللَّازمُ، وفلانٌ مُغرَمٌ بالنِّساءِ؛ أي: مُوْلَعٌ بهنَّ.

= رسول الله ﷺ كان يكفي أبا رافع مولاه مؤونة ما يحتاج إليه، فقال له: إذا كنت مستغنياً من جانبي فلا تأخذ أوساخ الناس».

(١) أي: كانوا كفاراً عندما رضخ لهم النبي ﷺ، ثم أسلموا، فإن من سيذكر كلهم من الصحابة ممن أسلم وحسن إسلامه عدا عيينة بن حصن فإنه ارتد أيام الردة ثم عاد إلى الإسلام. انظر: «الإصابة» (٤/ ٦٣٩).

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هم الغُزاةُ، يُعانُونَ إذا أرادوا[١] الخروجَ بما يحتاجُونَ إليه من زادٍ ومركوبٍ وإنْ كانوا أغنياءَ.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو عابرُ السَّبيلِ الذي ليس معه شيءٌ، وإنْ كانَ غنيًّا في بلدِه.

ثمَّ مَن أخذَ بسببِ الغزوِ والكتابةِ والدَّينِ والسَّفرِ إنْ لم يصرِفْ ما أخذَ في هذه الوجوهِ يُستَردُّ منه، والفقيرُ والمسكينُ والعاملُ يملِكُونَ ما يأخُذونَ ملكًا تامًّا.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: نصبٌ على التَّأكيدِ؛ أي: فَرَضَ الله الصَّدقاتِ لهؤلاءِ فريضةً.

وقد بطَلَ سهمُ المُؤلَّفةِ والعاملينَ الآنَ.

فلْيَقسِمِ المرءُ صدقتَه على ستَّةِ أقسامٍ مُتساويةٍ، ولْيَصْرِفْ كلَّ قسمٍ إلى صنفٍ، ولا أقلَّ من ثلاثةٍ من كلِّ صنفٍ، وتجوزُ المُفاضَلةُ بينَهم، والزِّيادةُ عليهم[٢].

---

(١) في (أ): «إذا رأوا».

(٢) قال ابن المنذر في «الإشراف» (٢/ ٩٦ ـ ٩٧): «أجمع أهل العلم على أن من فرق صدقته في الأصناف التي ذكرها الله في سورة براءة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أنه مؤديها فيما فرض عليه، واختلفوا فيمن فرق ذلك في بعض الأصناف دون بعض:

فقالت فرقة: في أيها وضعتها أجزأ عنك، روي هذا القول عن حذيفة وابن عباس، وبه قال الحسن البصري والنخعي وعطاء بن أبي رباح والضحاك وسعيد بن جبير والثوري وأبو عبيد وأصحاب الرأي.

وقال أحمد: يفرق أحب إليّ، ويجزيه في صنف واحد.

وقال مالك: يكون ذلك على وجه الاجتهاد من الإمام فأي الأصناف كانت فيه الحاجة والعدد أوثر ذلك الصنف.

وقال أبو ثور: إذا قسم الإمام قسمه على من سمى الله عَزَّ وَجَلَّ أنه له، وإذا قسمه الناس عن أمولهم فإن أعطاه الرجل بعض الأصناف رجوت أن يجزئ عنه. =

(٦١) - ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ ثمَّ ذكرَ أنَّ فيهم مَن كان يبسُطُ لسانَه بالوقيعةِ في النَّبيِّ ﷺ ويقولُ: «إنْ عاتَبَني حلفتُ له بأنِّي ما قلتُ هذا، فيقبَلُه فإنَّه أُذُنٌ سامعةٌ».

قيلَ: نزلَتْ في نَبْتَلِ بنِ الحارثِ، وكانَ رجلًا أدلمَ(١)، أحمرَ العينَينِ، أسفَعَ الخدَّينِ، مُشوَّهَ الخِلقةِ، وهو الذي قال النَّبيُّ عليه السَّلامُ فيه: «مَن أرادَ أن ينظُرَ إلى الشَّيطانِ فلينظُرْ إلى نَبْتَلِ بنِ الحارثِ»، وكان ينقُلُ أخبارَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ إلى المنافقينَ، فقيلَ له: لا تفعَلْ، فقال: إنَّما محمَّدٌ أُذُنٌ، مَن حدَّثَه شيئًا صدَّقَه، فنقولُ ما نشاءُ، ثمَّ نأتيه فنحلفُ له فيُصدِّقُنا(٢).

وقيلَ: اجتَمَعَ قومٌ منَ المُنافقين، منهم الجُلَاسُ بنُ سُوَيدٍ، ووديعةُ بنُ ثابتٍ، وفيهم غلامٌ منَ الأنصارِ يُدعَى عامرَ بنَ قيسٍ، فحقَّروه فتكلَّموا وقالوا: إنْ كانَ ما يقولُه محمَّدٌ حقًّا لنحنُ شرٌّ منَ الحميرِ، فغضِبَ الغلامُ، وقال: والله إنَّ ما يقولُه

= وقد روينا عن النخعي قولاً رابعاً: قال: إذا كان المال كثيراً فرقه بين الأصناف، وإذا كان قليلاً أعطاه صنفاً واحداً. وفي قول خامس: وهو إيجاب الصدقة أن يفرقها في الأصناف التي سمى الله عز وجل، هكذا قال عكرمة والشافعي».

(١) الأدلم: الطويل الأسود، والشديد السواد من الناس. انظر: «معجم متن اللغة» (مادة: دلم).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٢١)، و«تفسير الثعلبي» (١٣/ ٤٥٠)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٣٥) عن ابن إسحاق دون المرفوع، وكذا وصله ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٦) من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمدٍ عن عكرمةَ أو سعيد بن جبيرٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

محمَّدٌ حقٌّ، وأنتم شرٌّ منَ الحميرِ، وأخبرَ النَّبيَّ ﷺ بقولِهم، فحلفُوا أنَّ عامرًا كاذبٌ، فقال عامرٌ: هم الكذَبةُ، وحلَفَ على ذلك، وقال: اللَّهمَّ لا تُفرِّقْ بينَنا حتَّى تُبيِّنَ صدقَ الصّادقِ من كذِبِ الكاذبِ، فأنزلَ الله هذه الآياتِ، وفيها: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾[1].

قُرِئَ ﴿أُذُنٌ﴾ بضمِّ الذّالِ وبسُكونِها[2]، فقولُك: «هو أُذنٌ» كقولك: «هو عينُ القومِ» للطَّليعةِ، فأُجرِيَ لفظُ الأُذُنِ على الجملةِ، والمُرادُ: كثرةُ استعمالِه لـها في الإصغاءِ بها.

وقيلَ: هو «فُعُلٌ» من: أذِنَ يأذَنُ؛ أي: استمَعُ؛ أي: أنَّه كثيرُ الاستماعِ.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾؛ أي: مُستمعُ خـيرٍ لا مُستمعُ شرٍّ؛ أي: إنَّه وإنْ كانَ يقبلُ فليس يقبلُ إلّا ما أتاه به الخبرُ عن الله منكم، أو يشهدُ به عليكم المُؤمنونَ، فلا يَضرُّ أحدًا كونُه أُذنًا.

وفيه بيانُ أنَّهم إنْ قالوا أشياءَ على مَلأ منَ النّاسِ نقلَه المسلمونَ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وإنْ قالوا في خلوةٍ أخبرَه به جبريلُ.

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يُصدِّقُهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يُريدُ: المُخلِصينَ؛ إذ لا رحمةَ على مُنافقٍ إلّا ما كانَ من إمهالٍ في الدُّنيا.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٣٠٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٦)، عن عروة بن الزبير.
وذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٥٧) عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٥٧)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٧٠)، عن الكلبي. وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٧٨)، «تفسير الثعلبي» (١٣/ ٤٤٩).

(٢) قرأ نافع بسكون الذال في الموضعين، وباقي السبعة بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٥)، و«التيسير» (ص: ٩٩).

وقُرِئَ: (قل أُذُنٌ خيرٌ) بالتَّنوينِ[1]، ثمَّ قيلَ: هو نصبٌ على الحالِ؛ أي: قُلْ هو أذُنًا خيرٌ لكم؛ أي: إذا كانَ أُذُنًا؛ كما تقولُ: هو حافظٌ خيرٌ لك[2]، وإضمارُ «هو» كثيرٌ كقولِه: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ ﴾ [الكهف: ٢٢]؛ أي: هو ثلاثةٌ.

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾: فيه قولانِ:

أحدُهما: يُصدِّقُ المُؤمنين؛ أي: المُنافقَ والمُخلِصَ؛ أي: هو قريبًا منكم مُسامحًا لكم خيرٌ لكم.

والثّاني: يُؤمنُ للمُؤمنينَ المُخلِصينَ، فأمَّا المُنافقُ فلا يخفَى عليه تلبيسُه.

ويُقالُ: آمنَه، وآمنَ به، وآمنَ له؛ أي: صدَّقَه، وهذه اللَّامُ كاللَّامِ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]؛ أي: يرهَبُونَ ربَّهم.

---

(١) نسبت لجمع منهم علي رضي الله عنه والحسن والسلمي وقتادة وابن أبي إسحاق وأشهب العقيلي والأعشى والبرجمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٣/ ٤٥٣)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣)، و«البحر المحيط» (١١/ ٣٣٤).

(٢) قوله: «هو نصب على الحال...» يحتاج إلى توضيح، وهو ما ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٢٥) عن الجرجاني صاحب «النظم»: أن من قرأ بترك الإضافة فقوله: (أُذُنٌ) رفع بالابتداء في الظاهر، وموضعه في الباطن نصب على الحال؛ لأن تأويله: قل هو أذنًا خير لكم، أي: إذا كان أذنًا خير لكم، ويكون قوله: (هو) ـ لو ظهر ـ مبتدأ، وقوله تعالى: (أذنًا) بعده حال، وقوله تعالى: (خَيْرٌ لَكُمْ) خبر للمبتدأ، كما تقول في الكلام: هو حافظًا خير لك؛ أي: في حال الحفظ خير لك، فلما كف عز وجل ذكره (هو) وضع ما بعده من الحال موضعه فصار مبتدأ، كما تقول في الكلام: هو حافظ خير لك...، إلى آخر ما ذكره المصنف.

وذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٥٧)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٧٠)، عن الكلبي. وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٧٨)، «تفسير الثعلبي» (١٣/ ٤٤٩).

وقال أبو عليٍّ: هو كقولِه: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢][1]، أو الإيمانُ بمعنى التَّصديقِ، ويُقالُ: صدَّقَ له، وقالَ الله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧][2].

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأنَّه كانَ سببَ إيمانِهم.

وقرأ حمزةُ: ﴿ورحمةٍ﴾؛ أي: وأُذُنُ رحمةٍ[3].

* * *

(٦٢) ـ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾؛ أي: يحلفُ المنافقونَ أنَّا ما قُلنا شيئًا يُؤذي رسولَ الله ﷺ والمُؤمنينَ.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾؛ أي: أن يُرضوهما، فحُذِفَ تخفيفًا.

* * *

(٦٣) ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: نزلَتْ في المُنافقينَ الذين تخلَّفُوا عن غزوةِ تبوكَ[4].

---

(١) أي: هي صلة وتوكيد؛ كما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٠٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٥)، و«التيسير» (ص: ٩٩).

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٢٩) عن ابن عباس والكلبي، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٥) عن مقاتل والكلبي في سبب نزول الآية السابقة.

﴿أَنَّهُۥ﴾ الهاءُ كنايةٌ عن القِصَّةِ والشَّأنِ، وما بعدَها مبتدأٌ وخبرٌ، والمُحادَّةُ: وقوعُ هذا في حدٍّ، وذاكَ في حدٍّ، كالمُشاقّةِ.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: فله نارُ جهنَّمَ، فلمَّا طالَ الكلامُ أُعيدَ (أنَّ) للتَّأكيدِ.

* * *

(٦٤) - ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾؛ أي: يحذَرُونَ من نُزولِ القرآنِ بما يفضَحُهم.

قال السُّدِّيُّ: قال بعضُ المُنافقينَ: والله لوَدِدْتُ أنِّي قُدِّمْتُ فجُلِدْتُ مئةً، ولا ينزلُ فينا شيءٌ يفضَحُنا، فنزلَتِ الآيةُ(١).

﴿يَحْذَرُ﴾؛ أي: يتحَذَّرُ، وهذا إخبارٌ، قال الزَّجَّاجُ: ويجوزُ أن يكونَ أمرًا؛ أي: ليحذرِ المُنافقونَ(٢).

﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على المُؤمنينَ ﴿سُورَةٌ﴾ في شأنِ المُنافقينَ.

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ هذا أمرُ وعيدٍ وتهديدٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾؛ أي: مُظهِرٌ ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ ظُهورَه.

قال ابنُ عبَّاسٍ: أنزلَ اللهُ أسماءَ المُنافقين، وكانوا سبعينَ رجلًا، ثمَّ نسَخَ تلك الأسماءَ منَ القرآنِ رأفةً منه ورحمةً؛ لأنَّ أولادَهم كانُوا مسلمينَ، والنَّاسُ يُعيرُ

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٥٠). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٦) عن السدي لكن في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التوبة: ٦١].

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٥٩).

بعضُهم بعضًا، فعلى هذا قد أنجزَ الله وعدَه بإظهارِ ذلك إذ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤][1].

وقيلَ: إخراجُ الله: أنَّه عرَّفَ نبيَّه عليه السَّلامُ أحوالَـهم وأسماءَهم؛ لا أنَّها أُنزِلَتْ في القرآنِ، وقد قالَ الله: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [محمد: ٣٠] فهو نـوعُ إلهامٍ، وكان في المُنافقينَ مَن يتردَّدُ، ولا يقطعُ بتكذيبِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، ولا يُصدِّقُه، وكان فيهم مَن يعرِفُ صدقَه ويُعانِدُ.

* * *

(٦٥) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ﴾ قال قتادةُ: قال قومٌ منَ المُنافقين في غزوةِ تبوكَ: إنَّ هؤلاءِ يرجُونَ أن يفتَحُوا قصورَ الشّامِ وحصونَها، وهيهاتَ من ذلك، فأَطْلَعَ الله نبيَّه عليه، فقال: احبِسُوا على الرَّكبِ، ثمَّ أتاهُم فقال: «قلتُم كذا وكذا؟»، فقالوا: إنَّما كنّا نخوضُ ونلعبُ لنقطعَ الطَّريقَ[2].

وقيـلَ: قالـوا: مـا رأينا مثـلَ قُرّائِنـا هؤلاءِ أرغَـبَ بُطونًـا، ولا أكذَبَ ألسُـنًا، ولا أجبَـنَ عنـدَ اللِّقاءِ، فقـال عوفُ بنُ مالـكٍ لهذا القائـلِ: كذَبْتَ، ولكنَّك منافـقٌ، فجاءَ إلـى النَّبـيِّ عليـه السَّـلامُ ليُخبِـرَه، فوجدَ القـرآنَ قد سـبقَه به، فقالـوا: إنَّما كنّـا نقطعُ الطَّريـقَ باللَّعبِ[3].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٣٣) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣٠).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٠)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٤٣٥)، ورواه الطبري في =

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: لا يجوزُ اللَّعبُ والاستهزاءُ بآياتِ الله، فهذا العذرُ شرٌّ منَ الجُرمِ.

وقال عبدُ الله بنُ عمرَ: رأيتُ عبدَ الله بنَ أُبيٍّ يشتدُّ قُدَّامَ رسولِ الله والحجارةُ تنكبُه، وهو يقولُ: يا رسولَ الله، إنَّما كنَّا نخوضُ ونلعبُ، ورسولُ الله يقولُ: «أبالله وآياتِه ورسولِه كنتُم تستهزِئُونَ؟»، يُكرِّرُه ولا يزيدُ على ذلك، ولا يلتفتُ إليه[1].

وقيلَ: إنَّما قال عليه السَّلامُ هذا لوديعةَ بنِ ثابتٍ، وكانَ منَ المُنافقين، وكان في غزوةِ تبوكَ[2].

والخوضُ: الدُّخولُ في الماءِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ دخولٍ فيه تلويثٌ وأذًى.

* * *

(٦٦) - ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ الاعتِذارُ: مَحوُ أثرِ المَوجِدةِ، يُقالُ: اعتَذَرَتِ المنازلُ؛ أي: درَسَتْ.

وقال ابنُ الأعرابيِّ: أصلُه القطعُ، واعتذَرْتُ إليه؛ أي: قطَعْتُ ما في قلبِه منَ

= «تفسيره» (١١/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، دون تسمية عوف بن مالك.

(١) رواه الهروي في «ذم الكلام» (٤/ ٩٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٥١)، من طريق نافع عن ابن عمر. ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩)، عن زيد بن أسلم عن ابن عمر دون ذكر اسم الرجل.

(٢) ذكره ابن هشام في «السيرة» (٢/ ١٢٢) عن ابن إسحاق، ورواه عنه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٢).

المَوجِدةِ، ومنه «عُذْرةُ الغلامِ» وهو ما يُقطَعُ عند الخِتانِ، ومنه «عُذْرةُ الجاريةِ»؛ لأنَّه يقطَعُ خاتم عُذْرَتِها[(١)].

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾؛ أي: ظهرَ كفرُكم بعد إظهارِكم الإيمانَ.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾: قيل: كانوا ثلاثةَ نفرٍ، هزِئَ اثنانِ وضحكَ واحدٌ[(٢)]، فالمعفوُّ عنه هو الذي ضحِكَ ولـم يتكلَّمْ.

والطّائفـةُ: الجماعـةُ تُطِيفُ بشـيءٍ، ويجوزُ أن يُقـالَ للواحدِ: طائفـةٌ؛ أي: نَفْسٌ طائفةٌ.

وقال ابنُ الأنباريِّ: يُطلَقُ لفظُ الجمعِ على الواحدِ، كقولك: «خرجَ فلانٌ على البغالِ»، وقال الله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ أي: نُعَيمُ بنُ مسعودٍ.

قال: ويجوزُ أن تكونَ الطّائفةُ إذا أُريدَ بها الواحدُ طائفًا، والهاءُ للمُبالغةِ[(٣)].

وقيلَ: الرَّجلُ المعفوُّ [عنه][(٤)] مَـخْشِـيُّ بنُ حميرٍ ـ أو: ابنُ جهيرٍ ـ الأشجَعيُّ، وكان أنكرَ عليهم بعضَ ما سمعَ، فلمَّا نزلَتِ الآيةُ تبرَّأ منَ النِّفاقِ[(٥)].

---

(١) ذكر عن ابن الأعرابي بنحوه الأزهري في «تهذيب اللغة» (٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٥٩).

(٣) انظر: «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لابن الأنباري (ص: ٤٣٧)، و«البسيط» (١٠/ ٥٣٩).

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٤٦) عن ابن إسحاق قال: «كان الذي عفي عنه فيما بلغني مخشي بن حمير الأشجعي حليف بني سلمة، وذلك أنه أنكر منهم بعض ما سمع».
ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣١) عن كعب بن مالك ضمن خبر، وسيأتي لفظه قريباً.
أما قوله: «أو ابن جهير» فقد ورد في هذه القصة عند ابن الجوزي في «زاد المسير»: «الجهير بن =

وقيلَ: كان المُنافقون صنفَينِ، منهم مَن أمرَ الله بجهادِه، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وهم رُؤَساؤُهم، وهم المُعلِنُونَ بالأراجيفِ والتَّعذيبِ، ومنهم الضَّعَفةُ المُظهِرونَ للإيمانِ وإنْ أبطَنُوا الكفرَ، فهؤلاءِ المعفُوُّ عنهم في الدُّنيا، والطّائفةُ المُعذَّبةُ هم الذين أخرجَهم النَّبيُّ عليه السَّلامُ منَ المساجدِ، وانكشَفَ مُعظَمُ أحوالِـهم.

ثمَّ قيلَ: العذابُ في هذه الآيةِ: القتلُ في الدُّنيا.

وقيلَ: عذابُ الآخرةِ.

وقرأ عاصمٌ: ﴿نَّعْفُ﴾ بالنُّونِ ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ بالنَّصبِ.

وقُرِئَ: ﴿إنْ يُعْفَ﴾ بالياءِ ﴿تُعَذَّبْ طائفةٌ﴾(١).

وقيلَ: الطّائفةُ المعفوُّ عنها: مَن علِمَ الله أنَّهم سيحلِفُونَ ويترُكونَ النِّفاقَ.

وقيلَ: وقفَ له على العقبةِ عند رُجوعِه من تبوكَ اثنا عشرَ رجلًا ليفتِكُوا به في ليلةٍ مُظلمةٍ، فأخبرَه جبريلُ، فقالَ عليه السَّلامُ لحذَيفةَ: «اضرِبْ وُجوهَ رواحلِهم»، فضرَبَها حتَّى نحّاهُم، فقال عليه السَّلامُ: «هم فلانٌ وفلانٌ»، فقال حُذيفةُ: ألا تبعَثُ إليهم فتقتُلَهم؟ فقال: «أكرَهُ أن تقولَ العربُ: لـمَّا ظفِرَ بأصحابِه أقبلَ يقتُلُهم، بل

= خمير»، وذكره في «المنتظم» (٣/ ٣٦٥) من رواية أبي صالح عن ابن عباس وفيه: «الجهير بن جمير»، وفي «تنوير المقباس» (ص: ١٦١): «جهير بن حمير»، ولعل الأخير هو الصواب لموافقته للرواية التي فيها: «مخشي بن حمير»، ويكون الخلاف بين كون الاسم: «جهير» وكونه: «مخشي» والثاني هو الوارد في أكثر المصادر، ولعل الأول محرف عنه.

(١) الأولى قراءة عاصم، والثانية قراءة باقي السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٦)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

يكفينا الله بالدُّبَيلةِ»، فقيلَ: وما الدُّبَيلةُ؟ قال: «شهابٌ من جهنَّمَ يضعُه على نياطِ فؤادِ أحدِهم حتَّى تزهقَ نفسُه».

ثمَّ لمَّا أصبحَ رسولُ الله ﷺ وصلَّى قالَ: «إنَّ اثني عشرَ رجلًا منَ المُنافقينَ ائتَمَرُوا بأمرٍ لم ينالُوه، فَلْيقُومُوا وَلْيستَغْفِرُوا فأستغفرَ لهم»، فلم يقُمْ واحدٌ، فقال: «قُمْ يا فلانُ، قُمْ يا فلانُ»، حتَّى أتَى على آخرِهم، فقالوا: يا رسولَ الله، نستغفِرُ الله ونتوبُ إليه، فقال: «آلآنَ؟ ولـم تُجيبُوني أوَّلًا، اخرُجُوا عنِّي»، فخرجُوا مُفتَضَحينَ[1].

وقيلَ: إنَّ مخشِيًّا هذا الذي ذكرْناه سألَ الله في الشَّهادةِ وألَّا يُعلَمَ مكانُه، فقُتِلَ يومَ اليمامةِ، ولـم يُوجَدْ له أثرٌ[2].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٥٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٦٩) عن ابن كيسان، وروى نحوه إلى آخر تفسير الدبيلة الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨١٠٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

وروى نحو هذه القصة لكن دون ذكر الدبيلة أحمد في «المسند» (٢٣٧٩٢) عن أبي الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه.

وحديث الدبيلة ورد عند مسلم (٢٧٧٩) عن حذيفة رضي الله عنه، وفيه: «في أُمتي اثنا عَشَر منافقًا لا يدخلون الجنة، ولا يَجِدون رِيحها حتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاطِ ثمانيةٌ منهم تكْفِيكهم الدُّبَيْلةُ، سِرَاجٌ من النَّارِ يَظْهَر في أكتافهم حتى يَنْجُمَ من صدورِهم».

أما باقي الخبر فروى الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٩٢) عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ قال: قام النبي ﷺ خطيباً يوم جمعة فقال: «يا فلان اخرج فإنك منافق، يا فلان اخرج فإنك منافق»، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤): فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٣١) عن كعب بن مالك ضمن خبر، وفيه: «فكان الذي =

(٦٧) - ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾؛ أي: هم كالشَّيءِ الواحدِ في الخروجِ عن الدِّينِ ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: بالنِّفاقِ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: عن الإخلاصِ في الإسلامِ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: عنِ الإنفاقِ في سبيلِ الله، وعن جميعِ الخيراتِ، وعن حملِ السِّلاحِ على الأعداءِ.

وقيلَ: عنِ الدُّعاءِ.

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾؛ أي: تركُوا ما أمرَهم الله به فتركَهم في الشَّكِّ.

وقيلَ: تركُوا أمرَه حتَّى صارَ كالمنسيِّ فصيَّرهم بمنزلةِ المنسيِّ من ثوابِه ورحمتِه.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارِجُونَ عن طاعةِ الله.

* * *

(٦٨) - ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يُقالُ: وعدَه بالخيرِ وعدًا، ووعدَه بالشَّرِّ وعيدًا.

﴿خَٰلِدِينَ﴾ نصبٌ على الحالِ، والعاملُ محذوفٌ؛ أي: أن يصلَوها خالدينَ.

= عفا الله عنه: مخشي بن حمير، فتسمى: عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم بمقتله، فقتل يوم اليمامة لا يعلم مقتله ولا من قتله ولا يرى له أثر ولا عين».

﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾؛ أي: هي كفايةٌ[١] ووفاءٌ لجزاءِ عملِهم، ويُقالُ: حَسْبُ فلانٍ ما نزلَ به؛ أي: هو على قَدْرِ فعلِه.

* * *

(٦٩) ـ ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ثـمَّ خاطبَ المُنافقين؛ أي: فعلتُم كأفعالِ[٢] الذين من قبلِكم في الأمرِ بالمُنكرِ والنَّهيِ عنِ المعروفِ، فحُذِفَ المُضافُ.

وقال الزَّجَّاجُ: أي: وعدَكم الله على الكفرِ كما وعدَ الذين من قبلِكم[٣].

وقيـلَ: أي: أنتـم كالذين من قبلِكـم، فالكافُ في محـلِّ الرَّفعِ لأنَّه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ.

﴿فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾؛ أي: بنصيبِهم منَ الدُّنيا؛ أي: رَضُوا به عن الآخرةِ.

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾؛ أي: كخَوضِهم الذي خاضُوا، فـ(الذي) صفـةُ مصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه الفعلُ؛ أي: خُضتُم في الباطلِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ أي: حسناتُهم؛ فإنَّها لا تُقبَلُ منهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾: خسِرُوا أنفُسَهم ومنازِلَهم في الجنَّةِ، ووَرِثَها المؤمنون.

---

(١) في (أ): «كافية».

(٢) في (أ): «كما فعل».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٦٠).

(٧٠) - ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾؛ أي: ألـم يسمَعُوا إهلاكَنا الكفَّارَ من قبلُ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾؛ أي: نُمروذَ بنِ كنعانَ.

﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾: مَديَنُ اسمُ البلدِ الذي كانَ فيه شُعَيبٌ، أُهلِكُوا بعذابِ يومِ الظُّلَّةِ.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾؛ أي: قُرى قومِ لوطٍ؛ أي: المُنقلِباتِ؛ فإنَّها انقلَبَتْ فصارَ أعلاها أسفَلَها؛ أي: وأصحابِ المُؤتفِكاتِ.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ قيلَ: عنى جميعَ الأممِ.

وقيلَ: أتَتْ أصحابَ المُؤتفكاتِ رسلُهم، فعلى هذا رسولُـهم لوطٌ وحدَه، ولكنَّه بَعثَ في كلِّ قريةٍ رسولًا.

وقيلَ: أُريدَ بالرُّسلِ الواحدُ، كقولِه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [المؤمنون: ٥١]، ولـم يكُنْ في عصرِه رسولٌ غيرُه.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾؛ أي: ليُهلِكَهم حتَّى بعثَ إليهم الأنبياءَ، ولكنْ ظلَمُوا أنفُسَهم بعدَ قيامِ الحجّةِ عليهم.

* * *

(٧١) - ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾؛ أي: بالتَّعاوُنِ في أمرِ الدِّينِ.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾؛ أي: يدعُونَ إلى شهادةِ أنْ لا إلهَ إلا الله ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾؛ أي: عن الشِّركِ.

وقيلَ في المُنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾؛ لأنَّ قلوبَهم مختلفةٌ، ولكن يُضَمُّ بعضُهم إلى بعضٍ في الحكمِ، وقالَ في المُؤمنينَ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾؛ لأنَّ قلوبَهم متَّحدةٌ في التَّوادِّ والتَّعاطُفِ.

* * *

(٧٢) - ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

قولُه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾؛ أي: نعيمَ الجنّةِ.

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾؛ أي: قصورَ الدُّرِّ والياقوتِ، يفوحُ طِيبُها من مسيرةِ خمسِ مئةِ عامٍ.

﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ العَدْنُ: الإقامةُ، يُقالُ: عَدَنَ يعدِنُ عُدُونًا، ومنه: المَعْدِنُ؛ لأنَّ الجواهرَ عدَنَتْ فيه؛ أي: ثبتَتْ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: جناتُ عَدْنٍ: قَصَبةُ الجنّةِ، وسقفُها عرشُ الرَّحمنِ[1].

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٥٠) من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٧٥) عن عطاء الخراساني.

وقال ابنُ مسعودٍ: هي بُطْنانُ الجنّةِ(١)، وهو وسَطُها.

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ أي: أكبرُ مـمَّا يُوصَفُ، أو: أكبرُ مـمَّا هم فيه منَ النَّعيمِ؛ إذ لا يُوجَدُ شيءٌ منَ النَّعيمِ إلّا بالرِّضوانِ.

* * *

(٧٣) - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

قولُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ ﷺ والمُرادُ هو والأمّةُ.

وقيلَ: أي: جاهِدْ بالمُؤمنينَ الكفّارَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أمرَ بالجهادِ مع الكفّارِ بالسَّيفِ، ومع المُنافقينَ باللِّسانِ وشدَّةِ الزَّجرِ والتَّغليظِ(٢).

وقال ابنُ مسعودٍ: يُجاهِدُ الكافرَ والمنافقَ بيدِه، فإنْ لـم يقدِرْ فبِلسانِه، فإنْ لـم يقدِرْ فبقلبِه، وإذا رآه فليكفَهِرَّ في وجهِه(٣).

وقيلَ: مجاهدةُ المُنافقِ بالحجَّةِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٧٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٦٧)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٠)، وروى الإمام أحمد في «المسند» (٢٦٤٠٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٤١)، عن أبي عبيدة بن عبد الله قال: قلت لعائشة: ما الكوثر؟ قالت: «نهر أعطيه النبي ﷺ في بطنان الجنة، قال: قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: وسطها، حافتاه در مجوف».

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤١).

﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ غِلَظُ القولِ: خُشونتُه.

وهذه الآيةُ نسخَتْ كلَّ شيءٍ منَ العفوِ والصُّلحِ والصَّفحِ[١].

* * *

(٧٤) ـ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قولُه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾: قال الضَّحَّاكُ: كان المنافقونَ في غزوةِ تبوكَ إذا خلَوا سبُّوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه، فنقلَ حُذيفةُ ذلك إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال عليه السَّلامُ: «يا أهلَ النِّفاقِ، ما هذا الذي بلَغَني عنكم؟» فحلَفُوا أنَّهم ما قالوا شيئًا من ذلك، فنزلَتِ الآيةُ[٢].

﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾؛ أي: سبَّ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، والطَّعنَ في الإسلامِ.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾؛ أي: ليلةَ العقبةِ.

وقيلَ: همُّوا بعقدِ التَّاجِ على رأسِ ابنِ أُبيٍّ ليجتَمِعُوا عليه.

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: أغناهُم بالغنائمِ.

وقيلَ للبَجَليِّ: أتجِدُ في كتابِ الله: «اتَّقِ شرَّ مَن أحسَنْتَ إليه»؟ قال: نعم ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٣].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٧٨)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٧٤)، عن عطاء.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٨٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٥١).

(٣) ذكره عبد القاهر الجرجاني في «درج الدرر» (١/ ٧٨٣).

=

وقيلَ: قُتِلَ للجُلاسِ بنِ سُوَيدِ بنِ الصّامتِ ـ وهو الذي قال: إنْ كانَ ما يقولُ محمَّدٌ حقًّا فنحنُ شرٌّ منَ الحميرِ ـ مولًى، فأخذَ له النَّبيُّ عليه السَّلامُ دِيَةَ مولاه اثني عشرَ ألفَ درهمٍ، فهَمَّ الجُلَاسُ بقتلِ الأنصاريِّ الذي سمِعَه يقولُ ذلك القولَ حتَّى لا يُفشِيَه، فتخلَّصَ الرَّجلُ وأخبرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بذلك، ونزلَتِ الآيةُ، فلمَّا سمعَ قولَه: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قال الجُلَاسُ: أسمعُ الله يعرِضُ عليَّ التَّوبةَ، وأنا أستغفِرُ الله وأتوبُ إليه مـمّا قلتُه، فقبِلَ رسولُ الله توبتَه[1].

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: يُعرِضُوا عن الإيمانِ ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدُّنيا بالقتلِ، وفي الآخرةِ بالنّارِ، والكفرُ بعد الإسلامِ: كُفرهُم بعد استِسلامِهم، وإنْ لـم يكُنِ المُنافقُ مُؤمنًا في الحقيقةِ، ويحتملُ أنَّهم كفَرُوا بعد الحكمِ بإسلامِهم.

* * *

= قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٦٠): «حديث: اتق شر من أحسنت إليه، لا أعرفه، ويشبه أن يكون من كلام بعض السلف، وليس على إطلاقه، بل هو محمول على اللئام غير الكرام».

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٣٠٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٩ و٥٧٤ و٥٧٦) عن عروة بن الزبير. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٣) عن كعب بن مالك وابن عباس رضي الله عنهم.

ورواه ابن شبة في «أخبار المدينة» (٧٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٥٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أما قصةُ هَمِّ الجلاس بقتل الذي سمعه يقول ذلك فرواها الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧١ و٥٧٣) عن مجاهد.

(٧٥) - ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

قولُـه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ هـؤلاءِ مـن جملةِ المُنافقيـنَ أيضًا.

قيلَ: نزلَتْ في ثعلبةَ بنِ حاطبٍ.

وقيلَ: ثعلبةَ بنِ مالكِ بنِ سُعَيرٍ[1].

وكانَ منَ الأنصارِ، قالَ: يا رسولَ الله، ادعُ الله أن يرزُقَني مالًا، فقالَ عليه السَّلامُ: «ويحكَ[2] يا ثعلبةُ، قليلٌ تُؤدِّي شُكرَه، خيرٌ من كثيرٍ لا تُطيقُه»، فسألَه مرّةً أُخرَى، فقالَ: «أما ترضَى أن تكونَ مثلَ نبيِّ الله، فوالذي نفسي بيدِه لو شِئتُ أن تسيلَ معيَ الجبالُ ذهبًا وفضّةً لسالَتْ»، فقال: والذي بعثَكَ بالحقِّ لَئِنْ دعَوتَ الله أن يرزُقَني مالًا لَأوتِيَنَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فقال عليه السَّلامُ: «اللَّهمَّ ارزُقْ ثعلبةَ مالًا».

فاتَّخذَ غنمًا فنمَتْ كما ينمُو الدُّودُ، فضاقَتْ عليه المدينةُ، فتنَحَّى عنها، فنزلَ

---

(١) المشهور في هذه القصة: ثعلبة بن حاطب، وذكر الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٥٠٣): ثعلبة بن مالك.
وقد ميز ابن حجر بين رجلين اسمهما ثعلبة بن حاطب، الأول ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري، ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق في البدريين، وكذا ذكره ابن الكلبيّ، وزاد أنه قتل بأحد.
والثاني: ثعلبة بن حاطب: أو ابن أبي حاطب الأنصاري. ذكره ابن إسحاق فيمن بنى مسجد الضرار.
وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لا يدخل النّار أحد شهد بدراً والحديبية»، وحكى عن ربّه أنه قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه، وينزل فيه ما نزل؟ فالظاهر أنه الذي غير البدري إن صح الخبر ولا أظنه يصح. انظر: «الإصابة» (١/ ٥١٦).

(٢) في (أ): «ويلك».

وادِيًا من أوديتِها، حتَّى جعَلَ يُصلِّي الظُّهرَ والعصرَ في الجماعةِ، ويترُكُ ما سواهما، ثمَّ نمَتْ فكثُرَتْ حتَّى تركَ الصَّلواتِ إلّا الجمعةَ، وهي تنمُو كما ينمُو الدُّودُ، حتَّى تركَ الجمعةَ أيضًا، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «ما فعَلَ ثعلبةُ؟»، فقالوا: اتَّخذَ غنمًا وضاقَتْ عليه المدينةُ، وأخبرُوه بخبرِه، فقالَ: «يا ويحَ ثعلبةَ» ثلاثًا.

ثمَّ نزلَ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ فبعَثَ عليه السَّلامُ رجلَينِ على الصَّدقةِ، وقال لهما: «مُرّا بثعلبةَ وبفُلانٍ ـ رجلٍ من بني سُلَيمٍ ـ فخُذا صدقاتِهما»، فأَتَيا ثعلبةَ، وأقرآه كتابَ رسولِ الله، فقال: ما هذه إلّا أُخيَّةُ الجِزيةِ، انطلِقا حتَّى تفرُغا ثمَّ تعودا إليَّ، فانطلَقا وأخبَرا السُّلَميَّ، فنظرَ إلى خيارِ أسنانِ إبلِه فعزَلَـها للصَّدقةِ، فقالا: ما يجبُ هذا عليكَ، وما نُريدُ أن نأخُذَ هذا منكَ، قال: بلى خُذوه؛ فإنَّ نفسي بذلك طيِّبةٌ، وإنَّما هي لي، فأخذاها منه.

فلمّا فرَغا من أمرِهما رجَعا إلى ثعلبةَ، فقال: ما هذه إلّا أُخيَّةُ الجِزيةِ، انطَلِقا حتَّى أرى رَأيي، فانطلَقا فأَتَيا النَّبيَّ عليه السَّلامُ فقال قبلَ أن يُكلِّمَهما: يا ويحَ ثعلبةَ، ودَعا للسُّلَميِّ بالبركةِ، وأخبرُوه الخبرَ، فنزَلَ: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾.

فسمعَ بعضُ أقاربِ ثعلبةَ ذلك، فأتَى ثعلبةَ وقال: ويحكَ يا ثعلبةُ، أنزلَ الله فيكَ كذا وكذا، فخرجَ ثعلبةُ إلى النَّبيِّ ﷺ فسألَه أن يقبَلَ منه صدقَتَه، فقالَ: «إنَّ الله منَعَني أن أقبلَ منكَ صدَقَتَك»، فجعَلَ يحثُو التُّرابَ على رأسِه، فقال عليه السَّلامُ: «هذا عملُكَ، قد أمرتُكَ فلم تُطِعْني».

فلمّا أبى أن يقبلَ منه شيئًا رجعَ إلى منزلِه، فقُبِضَ رسولُ الله ﷺ، فأتى أبا بكرٍ بصدقتِه فقال: لـم يقبَلْها رسولُ الله فلا أقبَلُها، فقُبِضَ أبو بكرٍ ووليَ عمرُ، فأتاه بصدَقَتِه فقالَ: لـم يقبَلْها منكَ رسولُ الله ولا أبو بكرٍ فلا أقبلُها، فلما وليَ عثمانُ

سألَه أن يقبلَ صدقتَه، فقال: لـم يقبَلْها رسولُ الله ولا أبو بكرٍ ولا عمرُ فلا أقبَلُها، وهلَكَ ثعلبةُ في خلافةِ عثمانَ[١].

والمُعاهَـدةُ: مُعاقـدةٌ بعزيمةٍ تُحقِّقُ بذكـرِ الله، كقولِكَ: «عليَّ عهـدُ الله لأفعلَنَّ كذا».

وقيلَ: سببُ غِنَى ثعلبةَ أنَّه ورِثَ ابنَ عمٍّ له[٢].

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: أعطانا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ أي: لنَتَصدَّقَنَّ، فأُدغِمَتِ التّاءُ في الصَّادِ.

والمُتصدِّقُ: المُعطي للصَّدقةِ.

﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: نعملُ ما يعملُه أهلُ الصَّلاحِ من صلةِ الرَّحمِ والصَّدقةِ والحجِّ وغيرِها.

* * *

(٧٦) ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

قولُـه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: أعطاهُـم ﴿بَخِلُواْ﴾ بإعطـاءِ الصَّدقـةِ وبإنفـاقِ المالِ فـي الخيرِ، وبالوفاءِ بمـا ضمِنُوا ﴿وَتَوَلَّواْ﴾؛ أي: عـن طاعةِ الله ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: عـن الإسـلامِ؛ أي: مُظهِـرُونَ للإعـراضِ عنـه.

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٢٥٣)، والطبري في «التفسير» (١١/ ٥٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٧٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، قال البيهقي: هذا حديث مشهور فيما بين أهل التفسير، وإنما يروى موصولًا بأسانيد ضعاف. وقال الذهبي في «تجريد أسماء الصحابة» (ص: ٦٦): منكرٌ بمرَّة، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٢٦٦): حديث ضعيف لا يحتج به.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٤٩٢) عن ابن عباس وابن جبير وقتادة.

(٧٧) ـ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي: أعقبَهم البُخلُ نفاقًا، ولهذا قال: ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾؛ أي: يلقَونَ بُخلَهم، كما يُقالُ: «أنتَ تلقَى غدًا عملَكَ»، وقالَ الله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧]، ويُقالُ: «أعقَبْتُ فلانًا ندامةً»؛ أي: صيَّرْتُ عاقبةَ أمرِه إلى ذلك.

وقيلَ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾؛ أي: يلقَونَ الله، ودلَّتِ الآيةُ على أنَّه ماتَ مُنافقًا.

﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ كذِبُهم: نقضُهم العهدَ، وقولُ ثعلبةَ: هذه أُخيَّةُ الجِزيةِ.

* * *

(٧٨) ـ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.

قولُه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ هذا توبيخٌ؛ أي: أنَّ الله علِمَ ما أسَرُّوه في أنفُسِهم يومَ عاهَدُوه، وإذا كان عالِـمًا فإنَّه سيُجازِيهم.

* * *

(٧٩) ـ ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا أيضًا من صفاتِ المُنافقينَ، وهو استِهزاؤُهم بمَن قلَّتْ صدقَتُه.

قال أبو مسعودٍ البدرِيُّ: لَـمَّا نزلَتْ آيةُ الصَّدقةِ جاء رجلٌ يتصدَّقُ بصاعٍ، فقالوا: إنَّ الله لَغنيٌّ عنِ صاعِ هذا، فنزلَتِ الآيةُ(١).

وقيـلَ: لمَّـا حـثَّ علـى الصَّدقـةِ جـاءَ ابـنُ عـوفٍ بأربعـةِ آلافِ درهـمٍ، وقيلَ: أربعـةِ آلافِ دينـارٍ، وقال: يا رسـولَ الله، جئـتُ بنصفِ مالي، فاجعَلْها في سـبيلِ الله، فقـال عليه السَّـلامُ: «بارَكَ الله لـك فيما أعطَيْتَ وفيما أمسَـكْتَ»، فبـارَكَ الله في مالِه حتَّـى إنَّـه خلَّـفَ امرأتَينِ يـومَ مـاتَ، وبلغَ ثُمُـنُ مالِـه لهما مئةً وسـتِّينَ ألـفَ درهمٍ، وقيـلَ: أكثرُ مـن ذلك.

وتصدَّقَ يومَئذٍ عاصمُ بنُ عديٍّ بمئةِ وَسْقٍ من تـمرٍ، وجاء أبو عقيلٍ الأنصاريُّ بصاعٍ من تمرٍ، وقال: يا رسولَ الله، بِتُّ ليلَتي أجُرُّ بالجريرِ الماءَ حتَّى نِلْتُ صاعَينِ من تـمرٍ، فأمسكْتُ أحدَهما لأهلي وأتيتُكَ بالآخرِ، فأمرَه رسولُ الله أن ينثُرَه في الصَّدقاتِ، فلَمَزَهم المُنافقون، وقالُوا: ما أعطى عبدُ الرَّحمنِ إلّا رياءً، وإنْ كانَ الله ورسولُه غنيَّينِ عن صاعِ أبي عقيلٍ، ولكنَّه أحبَّ أن يذكُرَ نفسَه، فنزلَتِ الآيةُ(٢).

وهذا متَّصلٌ بقولِه: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ ﴾ إلى قولِه: ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ... ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾.

---

(١) رواه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨).

(٢) رواه أبو الشيخ في «تفسيره» عن الحسن مرسلًا مطولًا كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٥٢)، وللقصة شواهد رواها مفرقة الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٨ ـ ٥٩٦). ومن شواهده حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار (٢٢١٦ ـ كشف الأستار). وانظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٥٤). وأصل الخبر عند مسلم (١٠١٨/ ٧٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: «أُمِرنا بالصَّدقة» قال: «كنَّا نُحامِلُ، قال: فتصدَّقَ أبو عقيلٍ بنصفِ صاعٍ، قال: وجاء إنسانٌ بشيءٍ أكثرَ منه، فقال المنافقون: إنَّ الله لَغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فَعلَ هذا الآخَرُ إلَّا رياءً، فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾».

والمُطَّوِعُونَ: المُتطوِّعُونَ، والتَّطوُّعُ: التَّنفُّلُ بما ليسَ بواجبٍ.

﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ يعني: أبا عقيلٍ.

والـجُهدُ: شيءٌ قليلٌ يعيشُ به المُقِلُّ، والـجُهْدُ والـجَهْدُ: بمعنًى واحدٍ.

وقيلَ: الـجُهْدُ: الطّاقةُ، والـجَهْدُ: المشقّةُ.

وقيلَ: الـجُهْدُ: في القُوتِ، والـجَهْدُ: في العملِ.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: يسخرُ منهم المُنافقونَ ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾: هذا دعاءٌ عليهم.

وقال ابنُ عبّاسٍ: هو خبرٌ؛ أي: سخِرَ منهم حيثُ صارُوا إلى النّارِ[1]، ومعنى ﴿سَخِرَ اللَّهُ﴾: جازاهُم على سُخرِيَتِهم.

* * *

(٨٠) ـ ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: نهاه عنِ الاستغفارِ لهم، وبيَّنَ أنَّه وإن استغفرَ لهم لـم ينفَعْهم ذلك، وكانَ المُنافقون يتصنَّعُونَ ويقولونَ في الوقائعِ: استغفِرْ لنا يا رسولَ الله، كما قال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١].

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾؛ أي: إنِ استكثَرْتَ منَ الاستغفارِ لـم ينفَعْهم، ولـم

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٦٩). وجملة: «هو خبر» ليست من كلام ابن عباس، وإنما هي من المصنف في إشارة إلى مؤدى قول ابن عباس.

يثبُتْ ما يُروَى أنَّه قال: «لأزيدَنَّ على السَّبعينَ»(١)، بل المقصودُ اليأسُ(٢)، وذِكرُ السَّبعينَ وِفاقٌ جرَى، أو هو عادتُهم في العبارةِ عنِ الكثرةِ.

وقال الحسَنُ وقتادةُ وعُروةُ: هذا تخييرٌ؛ أي: إنْ شئتَ استغفِرْ وإنْ شئتَ لا تستغفِرْ(٣).

ولهذا لـمَّا أرادَ أن يُصلِّيَ على ابنِ أُبيٍّ قال عمرُ: أتُصلِّي على عدوِّ الله القائلِ يومَ كذا كذا، فقالَ: «إنِّي خُيِّرتُ فاخترْتُ»(٤).

قالوا: ثمَّ نُسِخَ هذا لـمَّا نزلَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [المنافقون: ٦](٥).

---

(١) كيف لم يثبت، وقد روى البخاري (٤٦٧٠) و(٤٦٧٢)، ومسلم (٢٤٠٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فأعطاه قميصه وأمره أن يكفنه فيه، ثم قام يصلي عليه، فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه، فقال: تصلي عليه وهو منافق، وقد نهاك الله أن تستغفر لهم، قال: «إنما خيرني الله ـ أو: أخبرني ـ فقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾» فقال: «سأزيده على سبعين»، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ وصلينا معه، ثم أنزل الله عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، وسيذكر المصنف رواية نحوه قريبًا.

(٢) أي: أن معنى صيغة الأمر والنهي في هذه الآية: المبالغة في اليأس من المغفرة، بأنه لو طلبها طلب المأمور بها، أو تركها ترك المنهي عنها، لكان ذلك سواء في أن الله لا يوقعها. ذكره الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٧٠) عن أهل المعاني.

(٣) ذكره عنهم الواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٧٤)، ورواه عن عروة وقتادة الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٩ـ٦٠١).

(٤) رواه البخاري (١٣٦٦) و(٤٦٧١) عن عمر رضي الله عنه.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٩) عن عروة، و(١١/ ٦٠١) عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص: ٧٥)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾؛ أي: لا يَغفرُ الله لهم لكُفرِهم.

* * *

(٨١) - ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ المُخلَّفُ: المتروكُ خلفَ مَن مضى؛ أي: خلَّفَهم الله وثبَّطَهم، أو خلَّفَهم الرَّسولُ والمُؤمنون لـمَّا عِلِمُوا تثاقُلَهم عن الجهادِ؛ أي: فرِحُوا بقُعودِهم، فالمَقعَدُ بمعنَى المصدرِ، كقولِه: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥]؛ أي: طُلوعِه.

وقيلَ: المَقعَدُ: موضعُ القُعودِ، كالمدخلِ والمخرجِ لموضعِ الدُّخولِ والخروجِ؛ أي: فرِحُوا بالمدينةِ وأوطانِهم.

﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾؛ أي: خلفَ رسولِ الله، وقيلَ: خلافًا لرسولِ الله؛ أي: مُخالفةً له، وعلى الأوَّلِ فيه إضمارٌ؛ أي: خلفَ خروجِ رسولِ الله.

﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾؛ أي: استثقَلُوا[1] الجهادَ في الحرِّ الشَّديدِ والسَّفرِ البعيدِ، وقالوا للنافرينَ[2]، أو قالَ بعضُهم لبعضٍ: لا تنفِرُوا في الحرِّ إلى تبوكَ مع محمَّدٍ.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ ومَن تركَ أمرَ الرَّسولِ تعرَّضَ لتلك النَّارِ.

* * *

= (ص: ٤٠). وجاء في الحديث أن الناسخ لها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]، كما تقدم في حديث البخاري ومسلم السابق ذكره.

(١) في (أ): «استقبلوا».

(٢) في (ف): «للباقين».

(٨٢) - ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا ﴾؛ أي: إنْ فرِحُوا بتخلُّفِهم عن الجهادِ وضحِكُوا، فهو أمرٌ قليلٌ، وتمتُّعٌ بالبساتينِ والظِّلالِ في مدَّةٍ يسيرةٍ، وبينَ أيديهم العذابُ المديدُ.

وقيلَ: أرادَ: مدَّةُ الدُّنيا قليلةٌ، فليضحَكُوا فيها ما شاؤُوا، فإذا صارُوا إلى الآخرةِ بكَوا بكاءً كثيرًا شديدًا.

وقيلَ: هذا أمرٌ بمعنى الخبرِ؛ أي: إنَّهم سيضحَكُون قليلًا ويبكُونَ كثيرًا.

﴿جَزَآءَۢ﴾؛ أي: ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ للجزاءِ.

***

(٨٣) - ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: ردَّكَ الله إلى المدينةِ ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: المُنافقينَ، وإنَّما قالَ: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ لأنَّ جميعَ مَن أقامَ بالمدينةِ ما كانوا مُنافقينَ، بل كانَ فيهم معذَّرونَ، وفيهم مَن لا عُذرَ له ثمَّ عُفِيَ عنه.

﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾؛ أي: عاقِبْهم بأنْ لا تصحَبَهم أبدًا، وهو كما قالَ في سورةِ الفتحِ: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح: ١٥].

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾؛ أي: في غزوةِ تبوكَ ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾؛ أي: المُتخلِّفينَ القاعِدينَ، فالخالفونَ: جمعُ خالِفٍ، كأنَّهم خلَفُوا الخارِجينَ.

قال الحسَنُ: يعني: مع النِّساءِ والصِّبيانِ[1].

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٨٨)، وهو في «البسيط» (١٠/ ٥٨١) عن الحسن والضحاك وقتادة.

وقيلَ: أي: فاقعُدوا مع المُخالفينَ، يُقالُ: «عبدٌ خالفٌ»؛ أي: مُخالفٌ لمولاه.

وقيلَ: أي: فاقعُدوا معَ الفاسِدينَ، من قولِـهم: «فلانٌ خالِفَةُ أهلِ بيتِه» إذا كانَ فاسدًا فيهم، من خُلوفِ فمِ الصّائمِ، ومن قولهم: «خَلَفَ اللَّبنُ»؛ أي: فسدَ بطُولِ المكثِ في السِّقاءِ، فعلى هذا يعني: فاقعُدوا مع الفاسِدينَ.

وهذا يدُلُّ على أنَّ استِصحابَ المُخَذِّلِ في الغزواتِ لا يجوزُ.

* * *

(٨٤) ـ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ قال ابنُ عمرَ: لـمَّا ماتَ عبدُ الله بنُ أُبيٍّ جاء ابنُه إلى النَّبيِّ ﷺ وقال: أعطِني قميصَكَ حتَّى أُكفِّنَه فيه، وصلِّ عليه، واستغفِرْ له، فأعطاه قميصَه، فلمَّا أرادَ أن يُصلِّيَ عليه جذَبَه عمرُ، وقال: أتُصلِّي عليه مع العلمِ بنفاقِه، فقال: أنا بينَ خيرتَينِ، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، فصلَّى عليه، فنزلَتْ هذه الآيةُ، فتركَ الصَّلاةُ عليهم بعد ذلك. قال عمرُ: فعجِبْتُ من جُرأتي على النَّبيِّ عليه السَّلامُ[1]، واللهُ ورسولُه أعلَمُ.

ثمَّ كُلِّمَ عليه السَّلامُ فيما فعلَ بعبدِ الله بنِ أُبيٍّ، فقالَ: «وما يُغني عنه قميصي وصلاتي منَ الله؟ واللهِ إنِّي كنتُ أرجُو أن يُسلِمَ به ألفٌ من قومِه»، وكان رسولُ الله شهدَ دفنَه ودلَّاه في قبرِه[2].

---

(١) روى البخاري (١٣٦٦) و(٤٦٧١) عن عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٤) عن قتادة مرسلاً.

وقيلَ: أسلَمَ ألفٌ منَ الخزرجِ لـمَّا رأَوه يطلُبُ الاستشفاءَ بثوبِ رسولِ الله ﷺ(١).

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ كان عليه السَّلامُ إذا دُفِنَ الميِّتُ وقفَ على قبرِه ودعا له.

وقيلَ: أي: لا تتوَلَّ دفنَه وتقبيرَه، ولا تنزِلْ في قبرِه.

ثمَّ بيَّنَ سببَ المنعِ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

* * *

(٨٥) - ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ﴾: كرَّرَ هذا المعنى تأكيدًا، ويُقالُ: كلُّ آيةٍ في فريقٍ، وكان ابنُ أُبيٍّ انصرَفَ عن غزوةِ تبوكَ ولـم يخرُجْ مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وأمَّا قولُه: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فقد جرَى في غزوةٍ أُخرَى.

* * *

(٨٦) - ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾.

قولُـه: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يبتـدِرُ المؤمنـون إلـى الإجابـةِ ويتعلَّـلُ المنافقـون.

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾؛ أي: بأن آمِنُوا، والأمرُ للمُؤمنينَ بالإيمانِ أمرٌ باستِدامةِ الإيمانِ.

---

(١) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٤٦٣)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٨٣).

﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾؛ أي: أُولـو الغِنَـى؛ أي: اسـتأذَنُوا فـي التَّخلُّـفِ، وخَـصَّ أولي الطَّـولِ لأنَّ مَـن لا مـالَ لـه فلا يحتـاجُ إلـى إذنٍ؛ لأنَّـه معذورٌ.

﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾؛ أي: مع العاجِزين والنِّساءِ والصِّبيانِ.

***

(٨٧) - ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

قولُه: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ أي: معَ النِّساءِ اللّاتي تخلَّفْنَ في البيتِ.

وقيلَ: هو جمعُ «خالفةٍ» منَ الرِّجالِ، وهم الأدنِياءُ والخِساسُ، يُقالُ: «فلانٌ خالفةُ أهلِ بيتِه»؛ أي: أخَسُّهم.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفرِ.

***

(٨٨) - ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قـولُـه: ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ﴾؛ أي: والذيـن آمَنُـوا بالإخـلاصِ.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ قيلَ: هي جمعُ خَيْرةٍ، يُقالُ: هي خَيْرةُ النِّساءِ، وأصلُ الخَيْرةِ: «خَيِّرةٌ» فخُفِّفَتْ؛ مثلَ: هَيْنةٌ وهَيِّنةٌ، فالـخَيْراتُ: الجوارِي الفاضِلاتُ الحِسانُ.

وقيـلَ: ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾: جمـعُ خيرٍ، وهي المنافـعُ في الدّاريـنِ، ويدخلُ فيه جميعُ النِّعمِ.

***

(٨٩) ـ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قولُه: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتينَ، وهي الجنّةُ المعروفةُ، وكلُّ مكانٍ منها جنّةٌ.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: من تحتِ أشجارِها.

* * *

(٩٠) ـ ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾: قُرِئَ ﴿المُعذِرُونَ﴾ بالتَّخفيفِ(١)؛ أي: المُبالِغونَ في العُذرِ، وقال ابنُ عبّاسٍ: هم الذين تخلَّفُوا بعُذرٍ، فأذِنَ لهم النَّبيُّ عليه السَّلامُ(٢).

وقيلَ: هم رَهطُ عامرِ بنِ الطُّفَيلِ، قالوا: يا رسولَ الله، لو غزَوْنا معكَ أغارَتْ أعرابُ طَيِّئٍ على حلائِلِنا وأولادِنا ومَواشينا، فعذَرَهُم رسولُ الله(٣).

وقُرِئَ: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ بالتَّشديدِ(٤)، وفيه قولانِ:

أحدُهما: أنَّ أصلَه: المُعتَذِرونَ، فنُقِلَتْ فتحةُ التّاءِ إلى العَينِ، وأُبدِلَتِ

---

(١) قرأ بها يعقوب من العشرة كما في «النشر» (٢/ ٢٨٠)، ورواية عن الكسائي ـ في غير المشهور عنه ـ كما في «جامع البيان» للداني (٢/ ١٨٢).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٥٢٢)، والواحدي في «البسيط» (١٠/ ٥٨٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٠)، عن الضحاك بلفظ: كان ابن عباس يقرأ: (وجاء المعذرون) مخففة، ويقول: هم أهل العذر.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٥٢٢)، عن الضحاك.

(٤) هي قراءة العشرة عدا يعقوب كما تقدم.

الـذَّالُ مـنَ التّـاءِ، وأُدغِمَـتْ فـي الـذّالِ التـي بعدَهـا، فصارَتـا ذالًا مُشـدَّدةً.

وقيلَ: هو منَ التَّعذيرِ الذي هو التَّقصيرُ، يُقالُ: «عَذَّرَ فلانٌ في أمرِ كذا تعذيرًا»؛ أي: قصَّرَ ولـم يُبالغْ فيه، والمعنَى على هذا: أنَّهم اعتَذَرُوا بالكذبِ.

وفي التَّفسيرِ: أنَّهم أعرابٌ مـن غِفارٍ، اعتَذَروا فلم يعذُرْهم الله(١)، وأُفرِدُوا بالذِّكرِ لأنَّهم اعتَذَرُوا بعُذرٍ باطلٍ، وقعدَ أقوامٌ بغيرِ عُذرٍ أظهَرُوه جراءةً على رسولِ الله، وهم الذين أخبرَ عنهم فقالَ: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لـم يَصدُقوا الله، لا أنَّهم اعتَذَرُوا وكذَبُوا في العُذرِ؛ فإنَّهم قومٌ لـم يعتَذِرُوا بعُذرٍ، فالمُرادُ كذِبُهم في قولـهم: إنَّا مُؤمِنُونَ.

وقيلَ: المُعذِّرونَ منَ الأعرابِ اعتَذَروا في التَّخلُّفِ تعريضًا لا تصريحًا، فلم يأذَنْ لهم النَّبيُّ عليه السَّلامُ، والصِّنفُ الثّاني قالوا: ننصرِفُ إلى أهلينا، ونستعِدُّ ونلتَحِقُ بكم، فرجَعُوا إلى أهاليهم وقعَدُوا، والوعيدُ مُلحَقٌ بمَن كذَبَ في عُذرِه، وبمَن قعَدَ ولـم يخرُجْ ولـم يعتَذِرْ.

* * *

(٩١) ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾: بيَّنَ أنَّه لا حرَجَ على المعذورينَ، وهم قومٌ عُرِفَ عُذرُهم، كأربابِ الزَّمانةِ والهرمِ والعمَى والعرَجِ، وأقوامٌ لـم يجِدُوا مـا يُنفِقُونَ،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢١) عن مجاهد، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٠) عن أبي إسحاق.

فقال: ليس على هؤلاءِ حرَجٌ ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ﴾؛ أي: إذا عرَفُوا الحقَّ وأحبُّوا أولياءَه وأبغَضُوا أعداءَه.

والنُّصحُ: إخلاصُ العملِ منَ الغِشِّ، ومنه: التَّوبةُ النَّصوحُ.

* * *

(٩٢) ـ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ يعني: مَن لم يجِدْ ما يُنفِقُه، وهؤلاءِ البكّاؤُونَ سبعةٌ: مَعقِلُ بنُ يسارٍ، وصَخْرُ بنُ خنساءَ، وعبدُ الله بنُ كعبٍ الأنصاريُّ، وسالمُ بنُ عُمَيرٍ، وثعلبةُ بنُ عَنَمةَ، وعبدُ الله بنُ مُغَفَّلٍ، وآخرُ، قالوا: يا نبيَّ الله، قد ندَبَنا الله للخُروجِ معَكَ، فاحمِلْنا على الخِفافِ المرقُوعةِ، والنِّعالِ المخصوفةِ، نغزُ معكَ، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، فتولَّوا وهم يبكُونَ[(١)].

وقال ابنُ عبّاسٍ: سألُوا أن يحمِلَهم على الدَّوابِّ[(٢)]. وكان الرَّجلُ يحتاجُ إلى بعيرَينِ: بعيرٍ يركبُه وبعيرٍ يحملُ ماءَه وزادَه لبُعدِ الطَّريقِ.

وقيلَ: نزلتِ الآيةُ في أبي مُوسى وأصحابِه، أتَوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ يستحمِلُونَه، ووافَقَ ذلك منه غضَبًا، فقال: «والله ما أحمِلُكم، ولا[(٣)] أجِدُ ما أحمِلُكم عليه»، فتوَلَّوا يبكُونَ، فدَعاهُم رسولُ الله وأعطاهُم ذَوْدًا، فقال أبو موسى: حلفْتَ يا رسولَ الله!

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨٩ ـ ١٩٠)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥١٨)، و«تفسير الثعلبي» (١٣/ ٥٢٤)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٥٧)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٦) عن محمد بن كعب. واختلفت الروايات والمصادر في تعيينهم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٣).

(٣) في (أ): «وما».

فقالَ: «أما إنِّي إنْ شاءَ الله لا أحلِفُ يمينًا فأرَى غيرَها خيرًا منها إلّا أتيتُ الذي هو خيرٌ، وكفَّرْتُ عن يميني»[1].

وقال الجُرجانيُّ: أي: ولا على الذينَ إذا ما أتوكَ لتحمِلَهم، وقلتَ: لا أجِدُ، فهو مُبتدأٌ منسوقٌ على ما قبلَه بغيرِ واوٍ، والجوابُ: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ﴾[2].

﴿حَزَنًا﴾؛ أي: منَ الحزنِ.

* * *

(٩٣) - ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ كرَّرَ ذِكرَ المُنافقين للتَّأكيدِ في التَّحذيرِ من سوءِ أفعالِهم.

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٤٤١٥ـ٥٥١٨ـ٦٦٤٩ـ٦٧٢١)، ومسلم (١٦٤٩)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) ذكره عن الجرجانيِّ صاحبِ «النظم»: الواحديُّ في «البسيط» (١٠/ ٥٩٦) بلفظ: «جاء قوله: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ﴾ مجيء الخبر لقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ﴾ وليس بخبر، وإنما هو منسوق على ما قبله، وتأويله: ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم وقلت لا أجد ما أحملكم عليه، فهو مبتدأ منسوق على ما قبله بغير واو، والجواب في قوله: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ﴾.

وجاء في هامش (ف): «وقال الزَّمخشريُّ: يجوزُ أن يكونَ قولُه: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ﴾ مُستأنفًا مُعترضًا، كأنَّه قيلَ: إذا ما أتوكَ لتحمِلَهم تولَّوا باكينَ، فقيلَ: ما بالُهم تولَّوا باكينَ؟ فقيلَ: قلتُ لهم: لا أجدُ ما أحمِلُكم عليه، إلّا أنَّه توسَّطَ بينَ الشَّرطِ والجزاءِ كالاعتِراضِ، وإنَّما أمرَ به اعتراضًا للاهتمامِ بإقامةِ عُذرِهم، وقالَ قبلَ ذلك: إنَّ الجملةَ في موضعِ نصبٍ على الحالِ منَ الكافِ في «أتوكَ»، و«قد» معها مُقدَّرةٌ كما في قولِه تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾، وهذا أحسنُ الوجوهِ المذكورةِ، والله أعلَمُ».

(٩٤) - ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: المُنافقين.

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ أي: لن نُصدِّقَكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾؛ أي: أخبرَنا بسرائرِكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فيما تستأنِفُونَ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾؛ أي: للجزاءِ.

* * *

(٩٥) - ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: من تبوكَ، والمحلوفُ عليه محذوفٌ؛ أي: يحلِفُونَ أنَّهم ما قدَرُوا على الخروجِ.

﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾؛ أي: لتصفَحُوا ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن لَومِهم.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: لا تُكلِّمُوهم[1]، وفي الخبرِ أنَّه قالَ عليه السَّلامُ لـمَّا قدِمَ من تبوكَ: «لا تُجالِسُوهُم ولا تُكلِّمُوهم»[2].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥) بلفظ: «يريد: تركَ الكلام والسلام والموالاة».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٥)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٨٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٥) عن السدي مرسلًا، وهو معارض بحديث كعب بن مالك عند البخاري (٤٦٧٧)، وفيه: ونهى النبي ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا.

والجملةُ: أنَّ القومَ طلبُوا إعراضَ الصَّفحِ فأُعطُوا إعراضَ العنَتِ.

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾؛ أي: عمَلُهم رِجسٌ، والتَّقديرُ: إنَّهم ذَوُو رِجسٌ؛ أي: هو عملٌ قبيحٌ.

وقيلَ: أي: فأعرِضُوا عنهم إنَّهم رِجسٌ وقذَرٌ، هم نجسٌ عن المُعاينةِ، والمُرادُ: إعراضُ القلبِ.

* * *

(٩٦) - ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾: حلَفَ عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ألّا يتخلَّفَ عن رسولِ الله بعدَ ذلك، وطلَبَ أن يرضى عنه[1]؛ أي: لا ترضَوا عنهم بقُلوبِكم ولا تغتَرُّوا بيمينِهم؛ فإنَّها كاذِبةٌ.

ويجوزُ أن يكونَ هذا أمرًا بتكذيبِهم جهرًا وسرًّا.

والأوَّلُ أظهَرُ؛ لأنَّ المنافقينَ ما كُوشِفُوا بالكلِّيةِ، وكان يجري عليهم أحكامُ المسلمينَ.

* * *

(٩٧) - ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾: لـمَّا ذكرَ أحوالَ المُنافقين بالمدينةِ ذكرَ

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٩١). وعن مقاتل ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٦).

مَن حولَ المدينةِ منَ الأعرابِ فقال: كفرُهم أشدُّ؛ لأنَّهم كانوا أبعدَ عنِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ وعن سماعِ العلمِ، والجفاءُ غالبٌ عليهم.

ويُقالُ: «رجلٌ عربيٌّ»؛ أي: نسيبٌ منَ العربِ، و«أعرابيٌّ»؛ أي: بدَويٌّ سواءٌ كان من العربِ أو من مَواليهم، وجمعُ العربيِّ: العربُ، وجمعُ الأعرابيِّ: أعرابٌ وأعاريبُ.

والأعرابيُّ إذا قيلَ له: «يا عربيُّ» فرِحَ، والعربيُّ إذا قيلَ له: «يا أعرابيُّ» غضِبَ له، والمُهاجِرونَ والأنصارُ عربٌ لا أعرابٌ.

وسُمِّيتِ العربُ عربًا لأنَّ ولدَ إسماعيلَ نشأَ في عربةَ، وهي من تِهامةَ، فنُسِبُوا إليها، وأقامَتْ قُريشٌ بعربةَ، وهي مكّةُ، وانتشرَ سائرُ العربِ في جزيرتِها.

وقولُه: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرًا﴾ عامٌّ والمُرادُ به الخصوصُ؛ أي: بعضُ الأعرابِ أشدُّ كفرًا من أهلِ الحضرِ.

﴿وَأَجۡدَرُ﴾؛ أي: أخلَقُ وأحرَى، وأصلُه: جَدْرُ الحائطِ، وهو رفعُه بالبناءِ له، فقولُك: «هو أجدَرُ بكذا»؛ أي: أقرَبُ إليه.

﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾؛ أي: بأنْ لا يعلَمُوا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فرائضَ[1] الشَّرعِ.

وقيلَ: حُجَجَ الله في الرُّبوبيّةِ وبعثةِ الرُّسلِ؛ لقلّةِ نظرِهم.

* * *

(٩٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾؛ أي: ومنهم مَن يجمعُ إلى الجهلِ سوءَ الدِّخلةِ وخُبثَ القلبِ، فإذا أنفقَ شيئًا للصَّدقةِ شقَّ عليه.

---

(١) في (أ): «أي: من الفرائض».

والمغرمُ: الغُرمُ، وهو لُزومُ تأتِّيه في المالِ من غيرِ جنايةٍ، فيثقلُ ذلك على الإنسانِ؛ أي: يرى ما يُنفِقُه في جهادٍ وصدقةٍ غُرمًا لا يرجو عليه ثوابًا.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾: هي جمعُ دائرةٍ، وهي الحالةُ المُنقلبةُ عن النِّعمةِ إلى البليَّةِ.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الدّائرةُ: واحدةُ الدَّوائرِ.

وقيلَ: هي مصدرٌ كالعافيةِ والعاقبةِ.

قُرِئَ: ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ وهي مصدرُ ساءَ يسوءُ، وقُرِئَ: ﴿السُّوء﴾ بالرَّفعِ[1]، وهو اسمٌ، وهو كقولك: عليهم دائرةُ البلاءِ.

* * *

(٩٩) - ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يعني: مَن أسلَمَ منهم ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾؛ أي: يتقرَّبُ به إلى الله.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ أي: يرجُو دعاءَ الرَّسولِ.

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾؛ أي: تقرِّبُهم من رحمةِ الله.

وقرأ نافعٌ ﴿قُرُبَةٌ﴾ بضمِّ الرّاءِ[2]، وهي الأصلُ، ثمَّ خُفِّفَتْ مثلَ «كُتُب ورُسُل».

* * *

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٦)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٢) هي قراءة ورش عن نافع. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٧)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(١٠٠) - ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: لمَّا ذكرَ أصنافَ الأعرابِ ذكرَ المُهاجرين والأنصارَ، وبيَّنَ أنَّ منهم السَّابقينَ إلى الهجرةِ، وأنَّ منهم التَّابعينَ، وأثنى على الجميعِ.

وكان النَّبيُّ عليه السَّلامُ قال في غزوةِ تبوكَ: «لِيَخرُجْ من كلِّ رجلَينِ رجلٌ»[١]، وكان السَّفرُ بعيدًا، وأرادَ أن يبقَى بالمدينةِ أقوامٌ منَ المُؤمنينَ يدفَعُونَ عن البلدةِ شرَّ الأعداءِ، ولهذا خلَّفَ عليًّا، حتَّى قال المُنافقونَ: خلَّفَه بُغضًا له، فخرَجَ خلف النَّبيِّ عليه السَّلامُ وأخبَره[٢]، فقال عليه السَّلامُ: «أمَا ترضَى أن تكونَ منِّي بمنزلةِ هارونَ

---

(١) ذكره في غزوة تبوك الإمام الشافعي في «الأم» (٤/ ١٧٦ و١٧٨)، ولم أجده مسنداً هكذا، لكن رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٢٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٨٦٣)، والإمام أحمد في «المسند» (١١١١٠)، ومسلم (١٨٩٦)، وأبو داود (٢٥١٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٦٢٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني لحيان: «ليخرج من كل رجلين رجل»، ثم قال للقاعد: «أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج». ومعناه: بعث إِلَى بني لحيان بعثاً ثُمَّ قَالَ لِلْمُسلمين: ليخرج في البَعْث من كل رجلَينِ رجل، وبنو لحيان هم الكفَّار المبعوث إليهم وليسوا بالذين قيل لهم: «ليخرج من كل رجلَيْنِ رجل». انظر: «مشارق الأنوار» (٢/ ٤٠٣). قلت: ويؤيد هذا التأويل ما جاء في رواية للإمام أحمد على شرط مسلم (١١٤٦١) بلفظ: أنَّ رسول الله ﷺ بَعَثَ بَعْثًا إلى بني لحيانَ من هُذَيلٍ، فقال: «لِينبعثْ مِن كلِّ رجلين أحدُهما والأجرُ بينهما». وتقدم الحديث عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

(٢) في (أ): «فخرج حلفاء النبي عليه السلام وأخبروه».

من موسى؟»[١]، وبيَّنَ أنَّ قُعودَه بأمرِه عليه السَّلامُ يُوازي في الأجرِ[٢] خُروجَه معه؛ لأنَّ المدارَ على أمرِ الشّارعِ.

قُرِئَ: ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ بكسرِ الرّاءِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ[٣]، وعلى هذا فليسوا منَ السَّابقينَ.

ثمَّ قيلَ: السّابقون هم الذين صلَّوا إلى القبلتَينِ[٤].

وقيلَ: هم الذين شهِدُوا بدرًا[٥].

وقيلَ: مَن شهدَ بيعةَ الرِّضوانِ[٦].

وقيلَ: السَّابقُونَ منَ الأنصارِ: الذين شهِدُوا بيعةَ العقبةِ الأولى وكانوا سبعةً، والثانيةِ وكانوا سبعينَ، والذين آمنُوا بالمدينةِ لـمَّا قدِمَ عليهم مصعبُ بنُ عُميرٍ فعلَّمَهم القرآنَ.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾؛ أي: في الإسلامِ، يعني: إلى قيامِ السّاعةِ.

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف عليًّا، فقال: أتخلِّفني في الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي».

(٢) في (ف): «في الآخرة».

(٣) قرأ يعقوب من العشرة بالرفع، والباقون بالجر. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٨ ـ ٦٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٨)، عن أبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن سيرين وقتادة. وزاد ابن أبي حاتم نسبته للشعبي ـ في إحدى الروايات عنه ـ والحسن.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٩٥)، عن عطاء.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٦٨)، عن الشعبي.

وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ: السَّابقونَ: جميعُ أصحابِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وأمَّا التَّابعونَ فهم الذين لـم يلقَوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ، ولكن اتَّبعُوا أصحابَه[1].

﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾؛ أي: اقتَدُوا بهم في أعمالِـهم الحسنةِ.

* * *

(١٠١) ـ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

قولُـه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ يعني: مُزَينـةَ وأسـلَمَ وجُهَينـةَ وأقوامًـا منهم نافقُـوا ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا﴾؛ أي: ممَّن حولكـم ومن أهلِ المدينةِ مُنافقـونَ مرَدُوا.

وقيلَ: ومن أهلِ المدينةِ قومٌ مرَدُوا على النِّفاقِ، يقال: مرَدَ يمْرُدُ مُرُودًا ومَرَادةً ومَرَدًا، وأصلُ الكلمةِ منَ اللِّينِ والملاسةِ، ومنه: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ [النمل: ٤٤]، و«غلامٌ أمرَدُ»، فقولُه: ﴿مَرَدُوا﴾؛ أي: مرَنُوا.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾: هو كقولِه: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٥ ـ ٢٦)، وروى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٥/ ١٤٦ ـ ١٤٧) عن أبي صخر حميد بن زياد أنه قال: قلت يوماً لمحمد ابن كعب القرظي: ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما كان بينهم، وإنما أريد الفتن، فقال لي: إن الله ـ عز وجل ـ قد غفر لجميع أصحاب النبي ﷺ وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له: وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة؟ قال: سبحان الله! ألا تقرأ قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ إلى آخرها، فأوجب الله لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطًا لم يشرطه عليهم، قلت: وما ذلك الشرط؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان، يقول: فاقتدوا بأعمالهم الحسنة ولا تقتدوا بهم في غير ذلك.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: يُريدُ: الأمراضَ في الدُّنيا وعذابَ الآخرةِ، فمرضُ المؤمنِ كفّارةٌ، ومرضُ الكافرِ عقوبةٌ(١).

وقيلَ: العذابُ الأوَّلُ أنّه فضَحَهم؛ فإنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ قامَ خطيبًا يومَ الجمعةِ ثمَّ قال: «اخرُجْ يا فلانُ فإنَّك منافقٌ، اخرُجْ يا فلانُ فإنَّك منافقٌ»، فأخرجَ أقوامًا فافتُضِحُوا(٢).

وقيلَ: العذابُ الأوَّلُ عذابُ القبرِ.

وقيلَ: إنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ أسَرَّ إلى حُذيفةَ باسمِ اثنَي عشرَ رجلًا منَ المنافقين، وقال: «ستّةٌ يكفيهمُ الله بالدُّبيلةِ؛ سراجٌ من نارٍ يأخذُ أحدَهم حتَّى يخرُجَ من صدرِه، وستّةٌ يموتُونَ موتًا»(٣)، والعذابُ(٤) الأوَّلُ هذا.

وقيلَ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: بالزَّكاةِ تُؤخَذُ من مالِـهم، وبعذابِ الآخرةِ.

وقيلَ: بالغيظِ منَ المسلمين، ثمَّ بعذابِ الآخرةِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق عطاء، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣١) عن عطاء.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٩٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤): فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٦ ـ ٦٤٧) عن قتادة، وفيه بعض مخالفة لما رواه مسلم (٢٧٧٩) عن حذيفة رضي الله عنه، وفيه: «في أُمتي اثنا عَشَر منافقًا لا يدخلون الجنة ولا يَجِدون رِيحها حتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاطِ، ثمانيةٌ منهم تَكْفِيكهم الدُّبَيْلَةُ، سِرَاجٌ من النَّارِ يَظْهَر في أكتافهم، حتى يَنْجُمَ من صدورِهم».

(٤) في (أ): «بالعذاب».

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: قعرِ جهنَّمَ والخلودِ فيها.

وقيلَ: ليس ثَمَّ ثلاثةُ أنواعٍ، ولكنْ لهم عذابُ الدُّنيا، وعذابُ الآخرةِ، ثمَّ عذابُ الآخرةِ أشدُّ.

وقيلَ: أحدُ العذابَينِ: ما قالَ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

والغرَضُ في الآيةِ: إتباعُ العذابِ العذابَ، أو تضعيفُ العذابِ عليهم.

* * *

(١٠٢) - ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: ومن أهلِ المدينةِ وممَّن حولَهم قومٌ اعتذَرُوا عن ذنوبِهم، وآخَرُونَ مُرجَونَ لأمرِ الله يحكمُ فيهم بما يُريدُ، فالصِّنفُ الأوَّلُ يحتمِلُ أنَّهم كانُوا مُنافقين فتابُوا وما مَرَدُوا على النِّفاقِ، ويحتملُ أنَّهم كانوا مُؤمنين وتخلَّفوا عن غزوةِ تبوكَ لنوعِ كسلٍ، ثمَّ تابُوا.

﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أقرُّوا، والاعتِرافُ بالذَّنبِ أمامَ منَ التَّوبةِ، كقولك: «أسأتُ فيما فعَلتُ وها أنا أتوبُ منه».

﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: هو سائرُ الأعمالِ الصَّالحةِ ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾: هو تخلُّفُهم عنِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ في تلك الغزوةِ.

وقيلَ: العملُ الصَّالحُ هاهُنا التَّوبةُ.

* * *

(١٠٣) - ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾: قال ابنُ عبَّاسٍ: تخلَّفَ ثمانيةٌ - وفي روايةٍ: عشَرةٌ - فلمَّا عادَ رسولُ الله ﷺ ربطُوا أنفُسَهم على السَّواري، وحلَفُوا أنْ لا يَحلُّوا أنفُسَهم، فمرَّ بهم النَّبيُّ عليه السَّلامُ فذُكِرَ له حالُـهم، فقال: وأنا أُقسِمُ لا أُطلِقُهم حتَّى أُومرَ بذلك، فلمَّا نزلتِ الآيةُ أطلقَهم، فقالوا: يا رسولَ الله، هذه أموالُنا التي خلَّفَتْنا عنكَ فتصدَّقْ بها، وطهِّرْنا واستغفِرْ لنا، فقال: «ما أُمِرْتُ أن آخُذَ من أموالِكم شيئًا»، فنزلَ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[١].

قيلَ: أخذَ رسولُ الله ثُلثَ أموالِهم[٢]، ولم يكُنْ هذا منَ الزَّكاةِ المفروضةِ في شيءٍ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٧١)، وابن مردويه كما في «الكافي الشاف» (ص: ٨٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٧/ ٤٥٩) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أما الخلاف في عددهم فذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٥)، فقال: روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا عشرة رهط منهم أبو لبابة. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية منهم: هلال، وأبو لبابة، وكردم، ومِردَاس، وأبو قيس، وقال قتادة والضحاك: كانوا سبعة، منهم جَدّ بن قيس، وأبو لبابة، وجذام، وأوس، كلهم من الأنصار، وقال عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا خمسةً أحدهم أبو لبابة، وقال آخرون: نزلت في أبي لبابة خاصة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٧)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٣).

وفي «مسند الإمام أحمد» (١٦٠٨٠) عن ابن شهاب: أن الحسين بن السائب بن أبي لبابة، أخبره أن أبا لبابة بن عبد المنذر، لما تاب الله عليه قال: يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أهجر دار قومي وأساكنك، وأن أنخلع من مالي صدقة لله عز وجل ولرسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يجزئ عنك الثلث». =

وقال عِكرمةُ: هي صدقةُ الفرضِ[1].

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾؛ أي: تُطهِّرُهم يا محمَّدُ منَ الذُّنوبِ.

وقيلَ: هو وصفُ الصَّدقةِ؛ أي: صدقةٌ مُطهِّرةٌ لهم مُزكِّيةٌ.

﴿وَتُزَكِّيهِم﴾؛ أي: ترفعُهم من مقامِ المُنافقين إلى مقامِ المُخلِصينَ.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أُدعُ لهم، والإمامُ يدعو للمُتصدِّقِ فيقولُ: «آجرَكَ الله فيما أعطَيْتَ، وبارَكَ لك فيما أبقَيتَ».

﴿إنَّ صَلَوَاتِكَ﴾ وقُرِئَ: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾[2].

﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ السَّكَنُ: ما سكنْتَ إليه؛ أي: نفوسُهم تسكُنُ إلى دُعائِكَ.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قيلَ: قال الذين لم يتوبُوا منَ المُتخلِّفينَ: هؤلاءِ كانُوا معَنا بالأمسِ لا يُكلَّمونَ ولا يُجالسونَ، فما لهم الآنَ؟ فنزلتِ الآيةُ[3]؛ أي: إنَّ الله قبِلَ توبتَهم. ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يقبلُها.

= وروى البخاري (٢٧٥٧) عن كعب بن مالك قال: قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٩٨)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٣).

(٢) قرأ بالثانية حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٧)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٦)، عن ابن زيد.

(١٠٥) - ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾: هذا خطابٌ للجميعِ ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ سيرَى ﴿رَسُولُه والمُؤْمِنُونَ﴾ بإطلاعِه إيَّاهم على عملِكم.

وفي الخبرِ: «لو أنَّ رجلًا عمِلَ في صخرةٍ لا بابَ لـها ولا كُوَّةَ؛ لـخرَجَ عملُه إلى النّاسِ كائنًا ما كانَ»[١].

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: يُوقِفُكُم على أعمالِكم فيُثيبُ المُحسِنَ ويُعاقِبُ المُسيءَ.

* * *

(١٠٦) - ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أخبرَ عن قومٍ مَوقُوفين على ما سيتبيَّنُ من أمرِهم.

والإرجاءُ: التَّأخيرُ، ومنه: المُرجِئةُ؛ لأنَّهم يُؤخِّرونَ العملَ منَ الإيمانِ[٢].

نزلَتْ في الثَّلاثةِ الذين تيبَ عليهم: كعبِ بنِ مالكٍ، وهلالِ بنِ أميَّةَ، ومُرارةَ بنِ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١٢٣٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٣٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٧٧) وصححه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٥): رواه أحمد وأبو يعلى، وإسنادهما حسن. قلت: فيه ابن لهيعة ودراج بن سمعان وقد تكلم فيهما، ولذلك ضعفه محققو «المسند».

(٢) ذكر هذا التعريف للمرجئة الواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٢) نقلًا عن الأوزاعي، وقال هو في تعريفهم: لأنهم لا يجزمون القول بمغفرة التائب ولكن يؤخرونها إلى مشيئة الله تعالى.

الرَّبيعِ[1]، كانوا تخلَّفُوا عن تبوكَ، وكانوا مياسيرَ، ولـم يتَّسِعْ لهم عذرٌ كما اتَّسعَ للَّذين ذُكِروا قبلَ هذا، ولـم يربِطُوا أنفُسَهم على السَّواري، فخلطَ المسلمونَ أمرَ أولئك المُتقدِّمين بأنفُسِهم، وبقيَ أمرُ هؤلاءِ الثّلاثةِ موقوفًا مُؤخَّرًا.

ثمَّ؛ قيلَ: هذا الإرجاءُ كان منَ النّاسِ، فكان قومٌ يقولون: إنَّ الله يتوبُ عليهم، وقومٌ يقولونَ: يُعذِّبُهم.

وقيلَ: مـن جهةِ الله، كقولِه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٢]، فذكر حالَ مَن اعترفَ بذنبِه، وأخَّرَ بيانَ حكمِ الثَّلاثةِ إلى أن نزلَ قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨]، وإنَّما نزلَ بعد خمسينَ ليلةً، وكان النَّبيُّ عليه السَّلامُ نهى عـن مُخالطتِهم ومُكالمتِهم.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾: اتَّـخذَ بنو عَمرِو بـنِ عـوفٍ مسجدَ قباءٍ، وبعَثُوا إلى رسولِ الله ﷺ أن يأتيَهم، فأتاهم فصلَّى فيه، فحسَدَتهم إخوتُهم بنو غَنْمِ بنِ عوفٍ، وقالوا: نبني مسجدًا، ونُرسِلُ إلى رسولِ الله ليُصلِّيَ فيه، ثمَّ لْيُصلِّ فيه أبو عامرٍ الرّاهبُ إذا قدِمَ منَ الشّامِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٢٦) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والضحاك وقتادة ومجاهد وابن إسحاق. وانظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٥٤)، وهؤلاء الثلاثة روى حديثهم مطولًا البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

وأبو عامرٍ هو الذي ترهَّبَ في الجاهليّةِ، وتنصَّرَ ولبسَ المُسوحَ.

ولمَّا قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ أنكرَ أبو عامرٍ دينَه وعاداه، وخرجَ إلى الشّامِ ليستمدَّ منَ الرُّومِ، وسمَّاه النَّبيُّ عليه السَّلامُ أبا عامرٍ الفاسقَ، وكان أرسلَ إلى المُنافقين وقال: استعِدُّوا بما استطعتُم من قوّةٍ وسلاحٍ، وابنُوا لي مسجدًا؛ فإنِّي ذاهبٌ إلى قيصرَ فآتٍ بجُندٍ منَ الرُّومِ لأُخرِجَ محمَّدًا منَ المدينةِ، فبنَوا مسجدًا إلى جنبِ مسجدِ قَباءٍ.

والذين بنَوا ذلك المسجدَ اثنا عشرَ رجلًا، أوَّلُهم خِذَامُ بنُ خالدٍ، ومن دارِه أُخرِجَ المسجدُ، وثعلبةُ بنُ حاطبٍ، ومُعَتِّبُ بنُ قُشيرٍ، وأبو حبيبةَ بنُ الأزعرِ، وعبَّادُ بنُ حنيفٍ، وجاريةُ بنُ عامرٍ ـ وقيلَ: حارثةُ ـ وابناه مُجَمِّعٌ وزيدٌ، ونَبْتَلُ بنُ الحارثِ، وبحزج، وبِجَادُ بنُ عثمانَ، ووديعةُ بنُ ثابتٍ[1].

فلمَا فرَغُوا منه قالوا: يا رسولَ الله، إنَّا بنَينا مسجدًا لذي العلّةِ والحاجةِ، واللَّيلةِ المطيرةِ، واللَّيلةِ الشّاتيةِ، وإنَّا نُحِبُّ أن تُصلِّيَ لنا فيه. فدَعا عليه السَّلامُ بقميصِه ليلبَسَه ويأتيَهم، فنزلَ عليه القرآنُ، وأخبرَه الله خبرَ مسجدِ الضِّرارِ وما هموا به، فدَعا رسولُ الله ﷺ مالكَ بنَ دُخْشُمٍ، ومَعْنَ بنَ عدِيٍّ، وعامرَ بنَ السَّكنِ، والوحشيَّ قاتلَ حمزةَ، وقال: «انطلِقُوا إلى هذا المسجدِ الظّالـمِ أهلُه فاهدِمُوه وأحرِقُوه»، ففعَلُوا، وأمرَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ أن يُتَّخَذَ ذلك الموضعُ كناسةً يُلقَى فيها الجِيَفُ والقمامةُ، وماتَ أبو عامرٍ بالشّامِ وحيدًا غريبًا، وفي هذا المسجدِ نزلَ: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾[2].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٤/ ٤٨)، و«النكت والعيون» للماوردي (٢/ ٤٠٠)، وذكر أسماء الذين بنوه ابن هشام في «السيرة» (٢/ ٥٣٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٤) عن قتادة، وذكرته كتب السيرة والتفسير وفي عدِّ أسمائهم خلاف.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٤٧ ـ ٥٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٥٩)، ونسبوه =

وقيلَ: بنَوه قبلَ خُروجِه عليه السَّلامُ إلى تبوكَ، فلمَّا انصرَفَ وقرُبَ منَ المدينةِ أمرَ بهدمِ ذلك المسجدِ[١].

والضِّرارُ: محاولةُ الضُّرِّ.

﴿ضِرَارًا﴾؛ أي: للضِّرارِ، فهو مفعولٌ له، وقيلَ: هو مصدرٌ؛ أي: ضَرُّوا به ضِرارًا.

﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: بالنَّبيِّ عليه السَّلامُ وما جاءَ به.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يُفرِّقُونَ به جماعتَهم ليتخلَّفَ أقوامٌ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: أبا عامرٍ الرّاهبَ؛ فإنَّه كان قد قال

= للمفسرين. وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٨١): «لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد، وليس صدره بصحيح، فإن مسجد قُباءٍ كان قد أسس والنبي ﷺ بقباء أول ما هاجر، وبني مسجد الضرار وكان في غزوة تبوك فبينهما تسع سنين».

وباقي الخبر مجموع من آثار رواها الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٢) وما بعدها عن ابن عباس والزهري ويزيد بن رومان وعاصم بن عمر بن قتادة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد وغيرهم. وهو في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٣٠) عن ابن إسحاق. وفي عد أسماء الذين بنوه خلاف في كتب السير والتفاسير.

(١) ورد هذا في رواية الطبري (١١/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣) من طريق ابن إسحاق عن الزهري وغيره من أشياخ ابن إسحاق، وفيه: «.. وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلّة والحاجة والليلة المطِيرة والليلة الشاتية..»، وما جاء في الرواية الأولى ورد في رواية الطبري (١١/ ٦٧٨) عن قتادة قال: «عمد ناسٌ من أهل النفاق فابتنوا مسجدًا بقباء، ليضاهوا به مسجد رسول الله ﷺ، ثم بعثوا إلى رسول الله ليصلِّي فيه، ذكر لنا أنه دعا بقميصه ليأتيهم، حتى أطلعه الله على ذلك...».

للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: لا أجِدُ قومًا يُقاتِلونَك إلَّا قاتلتُكَ معهم، فلم يزَلْ يُقاتِلُه إلى يومِ حُنَينٍ، فلمَّا انهزمَتْ هوازِنُ خرجَ إلى الرُّومِ ليتَنَصَّرَ.

والإرصادُ: الانتِظارُ، وقيلَ: الإعدادُ.

﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ بناءِ مسجدِ الضِّرارِ.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: ما أرَدْنا ببنائِه إلَّا الفعلةَ الحسنى، وهي الرِّفقُ بالمسلمين ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: يعلمُ خُبْثَ ضمائرِهم.

* * *

(١٠٨) - ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

قولُه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾؛ أي: لا تقُمْ فيه للصَّلاةِ، وقد يُعبَّرُ عن الصَّلاةِ بالقيامِ، يُقالُ: فلانٌ يقومُ اللَّيلَ؛ أي: يُصلِّي اللَّيلَ، ومنه قولُه عليه السَّلامُ: «مَن صامَ رمضانَ وقامَه إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِه وما تأخَّرَ»[١].

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: بُنيَتْ حدودُه ورُفِعَت من قواعدِه على التَّقوى أحقُّ بالصَّلاةِ فيه، والتَّقوى: الخِصالُ التي يُتَّقَى بها العقوبةُ، وهي «فَعْلَى» من «وَقَيْتُ».

---

(١) رواه بهذا اللفظ الإمام أحمد في «المسند» (١٠٥٣٧)، والترمذي (٦٨٣)، وابن ماجه (١٣٢٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وهي رواية عند أبي داود عقب الحديث (١٣٧١)، ورواه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩) بلفظ: «مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تَقدَّم مِن ذنبه»، ورواه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠) بلفظ: «مَن صام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تَقدَّم مِن ذنبه، ومَن قام ليلةَ القَدْر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه».

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ﴾؛ أي: أحقُّ بأن تقومَ ﴿فِيهِ﴾، ولم يكُنْ في القيامِ في المسجدِ الآخرِ حقٌّ، ولكنَّه أرادَ: لو كانَ فيه حقٌّ لكانَ هذا أحقَّ.

وفي المسجدِ الذي أُسِّسَ على التَّقوى قولانِ:

أحدُهما: أنَّه مسجدُ الرَّسولِ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾؛ أي: منَ الذُّنوبِ والنِّفاقِ(١).

والقولُ الثَّاني: أنَّه مسجدُ قباءٍ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾؛ أي: الأنصارُ.

ورُوِيَ أنَّه قال عليه السَّلامُ لأهلِ مسجدِ قباءٍ: «إنَّ الله قد أثنَى عليكم في الطُّهورِ، فما طُهورُكم؟» قالوا: نُتْبِعُ الماءَ الحجرَ، قال: «فعلَيكُموه»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٣٩٨) والترمذي (٣٠٩٩)، والنسائي (٦٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١١٠٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٨٤) وصححه، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٤٨٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٨٣)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٤٨)، من حديث عويم بن ساعدة الأنصاري رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢١٢): «رواه أحمد والطبراني في الثلاثة، وفيه شرحبيل بن سعد، ضعفه مالك وابن معين وأبو زرعة، ووثقه ابن حبان». وقال الحافظ في «التقريب»: «وفي سماعه من عويم نظر».

وروى نحوه أيضًا ابن ماجه (٣٥٥)، والدارقطني في «السنن» (١٧٤) من حديث أبي أيوب وأنس وجابر رضي الله عنهم. قال الدارقطني: عتبة بن أبي حكيم ـ أحد رجال الإسناد ـ ليس بقوي. وضعفه الحافظ في «التلخيص الحبير» (١/ ١١٣).

وأصل استنجاء أهل قباء بالماء عند أبي داود (٤٤)، والترمذي (٣١٠٠)، وابن ماجه (٣٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. =

وكان مسجدُ قباءٍ بُنِيَ قبلَ مسجدِ رسولِ الله، فهذا قولُه: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾؛ أي: من أوَّلِ وُرودِكَ المدينةَ.

* * *

(١٠٩) - ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾: البُنيانُ مصدرٌ كالغُفرانِ، والمُرادُ به: المبنيُّ، كما يُقالُ: «هذا نسجُ اليمنِ»، و: «ضَربُ الأميرِ».

وقيلَ: البُنيانُ: جمعُ بُنيانةٍ.

قرأ نافعٌ: ﴿أُسِّسَ﴾ بضمِّ الهمزةِ ﴿بُنيانُه﴾ بالرَّفعِ، وقرأ الباقونَ بالفتحِ(١)، وأجمعُوا على الفتحِ في قولِه: ﴿مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾(٢).

= وقد رام بعض العلماء كالسهيلي والسمهودي الجمع بين القولين كما ذكر الآلوسي في «روح المعاني» (١٠/ ٥٠٩)، فنقل كلامهم ثم استبعده بقوله: ولا يخفى بعدُ هذا الجمع، فإن ظاهر الحديث الذي أخرجه الجماعة عن أبي سعيد الخدري بمراحل عنه، ولهذا اختار بعض المحققين القول الأول، وأيده بأن مسجد النبي ﷺ أحق بالوصف بالتأسيس على التقوى من أول يوم، وبأن التعبير بالقيام عن الصلاة في قوله سبحانه: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ يستدعي المداومة، ويعضده توكيد النهي بقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ ومداومة الرسول عليه الصلاة والسلام لم توجد إلا في مسجده الشريف ﷺ.

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٨٢): ويليق القول الثاني بالقصة، إلا أن القول الأول روي عن رسول الله ﷺ، ولا نظر مع الحديث.

(١) قرأ نافعٌ وابنُ عامر على ما لم يسمَّ فاعلُه في الموضعين، والباقون على البناء للفاعل فيهما. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٨)، و«التيسير» (ص: ١١٩)، و«النشر» (٢/ ٢٨١).

(٢) كذا قال، والصواب ما أوردناه في التعليق السابق من أن الخلاف في الموضعين لا في الأول فقط.

﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾؛ أي: طلَبُوا رِضَى الله في بنائِه[١].

﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ هذا ضربُ مثَلٍ لهم؛ أي: مَن أسَّسَ بُنيانَه على الإسلامِ خيرٌ ممَّن أسَّسَ بُنيانَه على الشِّركِ والنِّفاقِ، وبيَّنَ أنَّ بناءَ الكافرِ كبناءٍ على حرفِ جهنَّمَ يهُوْرُ بأهلِه فيها.

والشَّفا: الشَّفيرُ، وأشفَى على كذا؛ أي: دَنا منه.

والجرفُ: ما ينجرفُ بالسُّيولِ منَ الأوديةِ، وهو جوانبُها التي تنحفرُ بالماءِ، وأصلُه منَ الجَرفِ والاجتِرافِ، وهو اقتلاعُ الشَّيءِ من أصلِه.

قُرِئَ ﴿جُرُفٍ﴾ و﴿جُرْفٍ﴾ بالتَّثقيلِ والتَّخفيفِ[٢]، مثلَ «السُّعُلِ» و«السُّعْلِ».

﴿هَارٍ﴾: منَ الهَوْرِ، يُقالُ: هارَ الجُرفُ يَهورُ؛ أي: انصَدَعَ من حرفِه وهو ثابتٌ بعدُ في مكانِه، فإذا سقطَ فقد انهارَ وتهوَّرَ.

وقال الزَّجَّاجُ: هذا منَ المقلوبِ؛ أي: هائِرٍ، ومثلُه: «لاثَ الشَّيءُ به» إذا دارَ، فهو «لاثٍ»؛ أي: لائثٌ[٣].

فانهارَ؛ أي: انهارَ الجرفُ بالباني.

***

(١) في (أ): «بنيانه».

(٢) قرأ ابن عامر وعاصمٌ في روايةِ أبي بكر وحمزةُ بسكون الراء، وقرأ الباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٨)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٧٠)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٥٥).

(١١٠) - ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾؛ أي: شكًّا في قلوبِهم، أي: يحسَبُونَ أنَّهم يُحسِنُون، فتردُّدُهم يبقَى إلى الموتِ، وهذا في قومٍ علِمَ الله أنَّهم يموتُونَ على النِّفاقِ.

وقولُه: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ يُريدُ به الموتَ.

قُرِئَ: ﴿تُقطَّعَ﴾ بضمِّ التّاءِ: إلّا أن تُفتَّتَ قلوبُهم بالموتِ، وقُرِئَ: ﴿تَقَطَّعَ﴾ بفتحِ التّاءِ[1]؛ أي: تنقَطِع.

وقال المُبرِّدُ: في الآيةِ تقديرُ حذفِ المُضافِ[2]؛ أي: لا يزالُ هدمُ بنيانِهم حزازةً وغيظًا في قلوبِهم، إلّا أن يتُوبُوا توبةً تتقَطَّعُ بها قلوبُهم ندمًا[3].

فالرِّيبةُ على هذا القولِ بمعنَى الشَّحناءِ والعداوةِ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالِ خلقِه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقضي به عليهم.

* * *

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة وحفص بفتح التاء، والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

(٢) في (أ): «حذف مضاف».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٦٨).

(١١١) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ ذكرَ حالَ مَن تخلَّفَ عن الجهادِ، ثمَّ رغَّبَ المؤمنينَ في الجهادِ، وبيَّنَ ثوابَ المُجاهدينَ.

قال محمَّدُ بنُ كعبٍ: لـمَّا بايعتِ الأنصارُ ليلةَ العقبةِ بمكّةَ ـ وهم سبعونَ رجلًا ـ قال عبدُ الله بنُ رواحةَ: يا رسولَ الله، اشترِطْ لربِّكَ ولنفسِكَ ما شئتَ، فقال: «أشترِطُ لربِّي أن تعبُدوه ولا تُشرِكُوا به شيئًا، وأشترِطُ لنفسي أن تمنَعُوني بما تمنَعُون منه أنفُسَكم»، قالوا: فإذا فعَلْنا ذلك فماذا لنا؟ قال: «الجنّةُ» قالوا: رَبِحَ البيعُ، لا نُقيلُ ولا نَستَقِيلُ، ونزلتِ الآيةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾[1].

وهذا ضربُ مثَلٍ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ فهو[2] ملكُ الله، ولكنْ تَلطّف في الدُّعاءِ إلى الطّاعةِ، فمنَ العبدِ تسليمُ النَّفسِ والمالِ، ومنَ الله الثَّوابُ، فسمَّى هذا شراءً.

﴿وَأَمْوَٰلَهُم﴾: التي يُنفِقُونَها في الطّاعةِ على أنفُسِهم وأهاليهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦ ـ ٧). وذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٥٨٩) وقال: «وهذا مما لا يوجد صحيحًا». ومراده والله أعلم: أنه لم يرد في حديث متصل، أو أنه لم يصح سبباً للنزول؛ لأنه أعقبه بنحوه عن الشعبي دون ذكر نزول الآية ثم قال: وهذا وإنْ كان مقطوعًا فإنَّ معناه ثابتٌ مِن طرقٍ.
قلت: وخبر الشعبي رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٤/ ٢٣٢)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (١/ ٣٣)، وليس فيه ذكر نزول الآية.

(٢) في (ت): «شيء هو في».

﴿فَيَقْتُلُونَ﴾؛ أي: أعداءَ الله ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾؛ أي: في الجهادِ.

وقُرِئَ ﴿فيُقتَلونَ﴾ بضمِّ الياءِ ﴿ويَقتُلونَ﴾[١].

﴿وَعْدًا﴾؛ أي: وعدَهم الله الجنّةَ وعدًا ﴿حَقًّا﴾؛ أي: لا خُلفَ فيه.

﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾؛ أي: ذكرتُ هذا الثَّوابَ في هذه الكتبِ.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: لا أحدَ أوفَى منه.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾؛ أي: كونُوا مسرورينَ[٢] بهذه المُبايعةِ.

* * *

(١١٢) - ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿التَّائِبُونَ﴾ قيلَ: هو نعتُ المُؤمنينَ المذكورينَ في قولِه: ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وإنَّما رُفِعَ كما رُفِعَ قولُه: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾[٣] [النبأ: ٣٦ - ٣٧]، وفي قراءةِ عبدِ الله: (التّائبينَ)[٤].

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي، والأولى قراءة الباقين. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٩)، و«التيسير» (ص: ٩٣).

(٢) في (أ): «مستبشرين».

(٣) قرأ: ﴿ربُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهما الرحمنُ﴾ برفعهما ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وقرأ عاصم وابن عامر بالجر فيهما، وحمزة والكسائي بجر الأول ورفع الثاني. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٦٩)، و«التيسير» (ص: ٢١٩).

(٤) وكذا ما بعدها إلى آخر الآية بالياء: (التائبين العابدين الحامدين...). انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٩٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٣٦)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٠٤).

وقال الزَّجَّاجُ: أي: هؤلاءِ التّائبونَ، أو: هم التّائبونَ؛ أو[1]: هو ابتداءٌ، وخبرُه مُضمَرٌ؛ أي: التّائبونَ العابدونَ لهم الجنّةُ أيضًا وإنْ لـم يُجاهِدُوا إذا لـم يكُنْ منهم عِنادٌ وقصدٌ إلى تركِ الجهادِ[2].

وهذا حسَنٌ؛ إذ لو كانَ هذا صفةً للمُؤمنين المذكورين في قولِه: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لكانَ الوعدُ خاصًّا للمُجاهِدينَ.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾: الرّاجِعُونَ عنِ الذَّنبِ.

﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾: الذين عبَدُوا الله وحدَه.

﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾: الذين يحمَدُونَ الله على كلِّ حالٍ.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: الصّائمونَ؛ لأنَّ السّائحَ يسيحُ في الأرضِ بلا زادٍ، والصّائمُ يتخلَّى عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ أيضًا.

قال ابنُ عبّاسٍ: كلُّ ما في القرآنِ منَ السِّياحةِ فهو الصِّيامُ[3].

وفي الخبرِ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «سياحةُ أمَّتي الصِّيامُ»[4].

---

(١) في النسختين: «أي»، والصواب المثبت، فقد جاء في «معاني القرآن» بعد ذكر الوجهين السابقين وغيرهما: «قال أبو إسحاق: والذي عندي ـ والله أعلم ـ أن قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ رفع بالابتداءِ...». وهكذا نقل عنه الواحدي.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٧١)، و«البسيط» (١١/ ٦٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٣).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٣١٧)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. وقال العقيلي: فيه حكيم بن خذام كان يرى القدر، منكر الحديث. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥) عن عائشة رضي الله عنها موقوفاً بلفظ: «سياحة هذه الأمة الصيام».

=

ثمَّ قيلَ: هو صومُ الفرضِ، وقيلَ: الفرضِ والنَّفلِ.

وقيلَ: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: الذين يُسافِرُونَ لطلَبِ الحديثِ والعلمِ.

وأصلُ السِّياحةِ: الاستِمرارُ على السَّيحِ في الأرضِ كما يسيحُ الماءُ.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾: هم المُصلُّونَ.

﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بالإسلامِ وبفرائضِ الله وحدودِه.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: عن الشِّركِ والمعاصي، ودخلتِ الواوُ في قولِه: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾ كما دخلَتْ في قولِه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ١ ـ ٣]، فذكرَ البعضَ بالواوِ والبعضَ بغيرِها، وهذا سائغٌ مُعتادٌ في الكلامِ، ولا يُطلَبُ لمثلِه علّةٌ وحكمةٌ.

وقال القفَّالُ: أدخلَ الواوَ لأنَّ الأمرَ بالشَّيءِ نهيٌ عن ضِدِّه تَبَعًا وضِمنًا لا مقصودًا، فلو قال: (النّاهونَ) من غيرِ واوٍ لأَشْبَهَ أن يُريدَ النَّهيَ الذي هو تبعٌ، فلمَّا ذكرَ الواوَ بيَّنَ أنَّ المُرادَ: الآمرونَ بالمعروفِ قصدًا إليه، والنّاهونَ عنِ المُنكرِ قصدًا.

وكذلك دخلَ الواوُ في قولِه: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾؛ إذ لو لم يُذكَرِ الواوُ لأوهَمَ أنَّ المعنَى: يحفَظُونَ حدودَ الله في الأشياءِ التي تقدَّمَ ذِكرُها، فإنَّ كلَّ شيءٍ حدٌّ لله تعالى، فقال: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ﴾ ليكونَ إخبارًا بحفظِهم للحدودِ في هذه الأشياءِ وفي غيرِها، ولم يدخُلْ هذا الإشكالُ في النُّعوتِ الأُخَرِ فاستغنَى عن الواوِ.

= ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١) عن أبي هريرة موقوفاً، وصوب وقفه ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وقد روي هذا القول عن جمع من الصحابة والتابعين، فقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١ ـ ١٥) عن أبي هريرة وعائشة كما تقدم، وعن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وعن سعيد بن جبير ومجاهد والحسن والضحاك وعطاء.

وهذا تكلُّفٌ بعيدٌ.

والحدُّ: المنعُ، ومنه: «رجلٌ محدودٌ»؛ أي: ممنوعٌ منَ الرِّزقِ الواسعِ.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: وهم الذينَ قال لـهم: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾.

* * *

(١١٣) ـ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قولُه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أمرَ بقطعِ مُوالاةِ الكفّارِ حيِّهم وميِّتِهم؛ أي: لـم يجعلِ الله للمُؤمنينَ أن يستغفِرُوا للمُشركينَ، فطلَبُ غُفرانِ المشركِ ممَّا لا يجوزُ؛ لأنَّه طلبُ ما أخبرَ الله تعالى أنَّه لا يفعلُه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: سألَ رسولُ الله ﷺ جبريلَ عن قبرِ أبيه وأمِّه، فأرشدَه، فذهبَ إليهما، وكانَ يدعُو لهما وعليٌّ رضي الله عنه يُؤَمِّنُ، فنزلَتْ هذه الآيةُ[1].

---

(١) بهذا السياق ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (١١/ ٧٤).

وروى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٣) بإسناد ضعيف جدًّا عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أنَّ رسولَ الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمِّه، فنهاه عن ذلك، فقال: «وإنَّ إبراهيم خليلُ الله قد استغْفر لأبيه» فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إِلَى: ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

وروى مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى مَن حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت». وليس فيه أن الآية نزلت في ذلك، لكن روي عن ابن مسعود نحو هذه القصة على أنها سبب نزول الآية، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٩٢)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٨٩).

وقيلَ: قال: «لأستَغفِرَنَّ لأبي كما استغفَرَ إبراهيمُ لأبيه»، فنزلَتِ الآيةُ وما بعدَها(١).

* * *

(١١٤) ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: كان أبو إبراهيمَ وعَدَ إبراهيمَ أن يُؤمِنَ بالله ويخلعَ الأندادَ، فلمَّا ماتَ على الكفرِ علِمَ أنَّه عدوٌّ لله فتركَ الدُّعاءَ له(٢)، فالكنايةُ في قولِه: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ ترجعُ إلى إبراهيمَ، والواعدُ أبوه.

وقيلَ: الواعدُ إبراهيمُ؛ أي: وعدَ إبراهيمُ أباه أن يستغفرَ له، فلمَّا ماتَ مُشركًا تبرَّأَ منه، وكانَ على هذا الوعدِ قولُه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ الأوَّاهُ: الخاشعُ المُتضرِّعُ، وقيلَ: الدَّعَّاءُ. ووَرَدَ بهما الخبرُ(٣).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٤) عن قتادة.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٧٥) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١١٥٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٩٥)، ولفظ ابن المبارك: عن شهر بن حوشب قال: حدثني عبد الله بن شداد، قال: قال رجل: يا رسول الله، ما الأواه؟ قال: «الأواه: الخاشع الدَّعَّاء المتضرع»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾. وهذا مرسل.

ورواه بهذا اللفظ أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٥٣) من طريق شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد، عن ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ، وفيه قصة ورد اللفظ المذكور في آخرها. وشهر بن حوشب ضعيف.

وفي «البسيط» للواحدي (١١/ ٧٦): ويروى أن عمر سأل رسول الله ﷺ عن الأواه فقال: «الأواه الدَّعَّاء». ولم أجده مسنداً.

وروى الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٤٥٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٢٩٥) عن =

وقيلَ: الأوَّاهُ: المُؤمنُ التَّوَّابُ.

وقيلَ: الذي يتأوَّهُ منَ الذُّنوبِ.

﴿حَلِيمٌ﴾ لم يُعاقِبْ أحدًا إلّا في الله، وقد صحَّ في الأخبارِ أنَّ القومَ نُهُوا عن الاستغفارِ للكفَّارِ، فقال بعضُهم: قد قال إبراهيمُ: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ [الشعراء: ٨٦][1]. فعرَّفَهم الله أنَّه ظنَّ منه الإيمانَ في السِّرِّ، أو جرَى منه وعدٌ بالإيمانِ، فلمَّا تحقَّقَ شركَه تبرَّأَ منه.

وفي «الصِّحاحِ»: أنَّه لمَّا حضرَ أبا طالبٍ الوفاةُ دخلَ عليه رسولُ الله وعندَه أبو جهلٍ وجماعةٌ منَ المُشركينَ، فقالَ عليه السَّلامُ: «أَخلُوا إليَّ وجهَ عمِّي»، فقالوا: لستَ أولَى به منَّا، فقالَ: «أي عمِّ؛ قُلْ: لا إلهَ إلّا الله كلمةً أُحاجُّ لك بها عندَ الله»، فقالَ القومُ: أترغَبُ عن ملّةِ عبدِ المُطَّلبِ؟ فكان آخرَ ما كلَّمَهم به أن قالَ: على ملَّةِ عبدِ المُطَّلبِ، فقالَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ: «لأستغفِرَنَّ لك ما لم أُنهَ عنه»، فنزلَتْ هذه الآياتُ[2].

﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ﴾؛ أي: إلّا بعدَ مَوعِدةٍ، كقولك: «كسوتُكَ عن عُريٍّ»؛ أي: بعدَه ومِن أجْلِه.

= عقبة بن عامر: أن النبي ﷺ قال لرجل يقال له: ذو البجادين: «إنه أواه»، وذلك أنه كان رجلاً كثير الذكر لله عز وجل في القرآن، ويرفع صوته في الدعاء.

(١) رواه الترمذي (٣١٠١)، والنسائي (٢٠٣٦) عن علي رضي الله عنه ولفظه: قال علي: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

(١١٥ - ١١٦) - ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ كانُوا قد استغفَرُوا لأمواتِهم المُشركين، فلمَّا نُهوا خافُوا أن يكونُوا قد ضَلُّوا، فبيَّنَ أنَّ الضَّلالَ أن يفعلَ المرءُ ما لا يجوزُ قصدًا وعمدًا مع العلمِ بالتَّحريمِ.

﴿لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾؛ أي: ليُوقِعَ الضَّلالةَ في قلوبِ قومٍ بعد الأمرِ بالهدى.

وقيلَ: ليحكُمَ عليهم بالضَّلالِ، وهذا بعيدٌ.

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ فلا يتَّقُونَه، فعند ذلك يضِلُّونَ، وحُذِفَ ما حُذِفَ لدلالةِ الحالِ عليه.

قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: فالتزِمُوا أمرَه.

* * *

(١١٧) - ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: التَّوبةُ على النَّبيِّ لإذنِه للمُنافقينَ في القُعودِ[1].

وقيلَ: ذُكِرَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ تشريفًا للمُهاجرينَ والأنصارِ[2]، وأمَّا التَّوبةُ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٨٠).

(٢) قال الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٠٤): قال أهل المعاني: هو مفتاح كلام، لما كان هو سببَ توبتهم =

علـى المؤمنيـن فمن ميلِ قلـوبِ بعضِهـم إلى التَّخلُّـفِ عنه.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾، هذا كانَ في غزوةِ تبوكَ، وقولُه: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾؛ أي: في وقتِ العُسرةِ، يعني: جميعَ أوقاتِ تلكَ الغزوةِ.

وقيلَ: ساعةُ العُسرةِ: أشدُّ السّاعاتِ التي مرَّتْ بهم في تلك الغزوةِ، والعُسرةُ: صعوبةُ الأمرِ وتعذُّرُه.

قال جابرٌ: هي عُسرةُ الماءِ والزَّادِ والظَّهرِ[1].

وكانَ العشرةُ منَ المسلمينَ يعتَقِبُونَ بعيرًا واحدًا بينَهم[2].

وربَّما مصَّ التمرةَ الواحدةَ منهم جماعةٌ يتناوبُونَه[3].

وقال عمرُ وقد سُئِلَ عن ساعةِ العسرةِ: خرَجْنا في قَيظٍ شديدٍ، فنزَلْنا منزلًا أصابَنا فيه عطشٌ، حتَّى ظنَنَّا أنَّ رقابَنا ستنقطعُ، وحتَّى إنْ كانَ الرَّجلُ لَينحَرُ بعيرَه فيَعصرُ فَرْثَه فيشربُه، ويجعلُ ما بقيَ على كبدِه، فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ الله، إنَّ الله قد عوَّدَكَ في الدُّعاءِ خيرًا، فادعُ الله لنا، قال: «نعم»، فرفعَ يدَيه فلم يَرجِعْهما حتَّى أظلمَتِ السَّماءُ ثمَّ سكبَتْ، فملَؤُوا ما معَهم، ثمَّ ذهَبْنا ننظرُ فلم نجِدْها جازَتِ العسكرَ[4].

= ذُكر معهم؛ كقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] ونحوِه.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٠٥)، والواحدي في «تفسيره» (١١/ ٨١)، عن الحسن.

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠) عن مجاهد قال: «أصابهم جهد شديد حتى إن الرجلين ليشقان التمرة بينهما وإنهم ليمصون التمرة الواحدة ويشربون عليها الماء»، وروى (١٢/ ٥١) عن قتادة قال: «وكان النفر يتناولون التمرة بينهم؛ يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها».

(٤) رواه البزار في «مسنده» (٢١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» =

وخرجَ رسولُ الله في غزوةِ تبوكَ في رجبٍ، وأقامَ بتبوكَ شعبانَ وأيّامًا من رمضانَ، وبثَّ سراياه، وصالحَ أقوامًا على الجزيةِ، فلما أرادَ أن يرتحلَ قال المسلمونَ: كيفَ نرحلُ معَ هذا الجهدِ الشَّديدِ؟ فقالَ عليه السَّلامُ: «اجمَعُوا ما عندَكم منَ الأزوادِ»، فجعَلَ الرَّجلُ يجيءُ بالصّاعِ والصّاعَينِ، حتَّى حَزَرْتُ بضعةً وعشرينَ صاعًا، فقالَ عليه السَّلامُ: «اكتالُوا ولا تَنْتَهِبُوا»، فكالُوا في الجُرُبِ والـجوالِقاتِ، حتَّى جعلَ الرجلُ يعقِدُ قميصَه ويكتالُ فيه، وبقيَ نحوٌ من بضعةٍ وعشرينَ صاعًا[1].

= (١٣٨٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٠١)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٥٦٦) وصححه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٥): رواه البزار والطبراني في «الأوسط» ورجال البزار ثقات.

(١) رواه بنحوه دون تحديد الغزوة أبو يعلى في «مسنده» (٢٣٠) من حديث عمر رضي الله عنه، وزاد: ثم قال النبي ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يأتي بهما عبد محق إلا وقاه الله حر النار».
قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٣/ ٩٠): «ثم رواه أيضًا عن إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، عن جرير، عن يزيد بن أبي زياد، فذكره، وسمى الغزوة تبوك».
وروى نحو هذه القصة مسلم (٢٧) عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أو عن أبي سعيد ـ شك الأعمش ـ قال: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ: افعلوا، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال: فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم. قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم، قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة».

وشكَوا إليه العطَشَ في بعضِ الطَّريقِ، فقال: «ما فعَلَ الحجرُ الذي عليه الماءُ الوَشَلُ[١]؟» قالوا: ننزلُ به اللَّيلةَ، فبعثَ رسولُ الله ﷺ معاذَ بنَ جبلٍ ليحُولَ بينَه[٢] وبينَ النّاسِ، ثمَّ وضعَ يدَه على الحجَرِ وفارَ الماءُ من بينِ أصابعِه، وإنَّما كان يرشَحُ رَشْحًا، فقال عليه السَّلامُ: «استَقُوا، واسقُوا رِكابَكم، وتزَوَّدُوا»، ففعَلُوا، وكانتِ الرِّكابُ نحوَ اثنَي عشرَ ألفَ بعيرٍ، والنّاسُ نيِّفٌ وثلاثونَ ألفًا، فهي تفورُ إلى اليومِ[٣].

﴿بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: يميلُ عنِ الدِّينِ.

وقيلَ: يميلُ عن الخروجِ مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ لعلمِهم بشدّةِ الوقتِ والحرِّ وقلّةِ الزّادِ والماءِ.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾: كرَّرَ تأكيدًا.

وقيلَ: أرادَ بالتَّوبةِ بعد التَّوبةِ الرَّحمةَ بعد الرَّحمةِ.

وقيلَ: التَّوبةُ في أوَّلِ الآيةِ للنَّبيِّ والمُهاجرينَ والأنصارِ، وفي هذا الموضعِ ترجعُ إلى الفريقِ الذين كادُوا تزيغُ قلوبُهم.

---

(١) الوشل: الماء القليل الذي يقطر. والمراد السؤال عن مكان ذاك الحجر لينزل فيه.

(٢) أي: بين الحجر.

(٣) لم أقف عليه هكذا، وروى نحوه البخاري (٣٤٤) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه ضمن حديث طويل وفيه: «ثم سار النبي ﷺ فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً ـ كان يسميه أبو رجاء نسيه عوف ـ ودعا عليًّا فقال: «اذهبا فابتغيا الماء»، فانطلقا، فتلقيا امرأة بين مزادتين ـ أو سطيحتين ـ من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة، ونفرنا خلوفاً، قالا لها: انطلقي إذاً، قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ، قالت: الذي يقال له الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين فانطلقي، فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث، قال: فاستنزلوها عن بعيرها. ودعا النبي ﷺ بإناء، ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو سطيحتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق العزالي، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا، فسقى من شاء واستقى من شاء».

وقيلَ: تابَ عليهم أوَّلًا فوفَّقَهم للتَّوبةِ، ثمَّ تابَ عليهم بأنْ قبِلَ توبتَهم.

* * *

(١١٨) ـ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي: وتابَ على الثَّلاثةِ الذين خُلِّفُوا.

قال كعبُ بنُ مالكٍ: لمَّا رجعَ رسولُ الله ﷺ جلَستُ بينَ يدَيه، فقال: «قُمْ بعُذرٍ»، فقلتُ: والله ما لي عُذرٌ، فقال: «قُمْ، يُحدِثُ الله فيكَ ما أحَبَّ»، فقُمْتُ، فقال النّاسُ: لقد وضَعْتَ نفسَكَ موضِعًا صَعْبًا، فارجِعْ وكذِّبْ نفسَكَ واحلِفْ له كما حلَفَ المُنافقونَ، فأبَيْتُ، قال: فوالله إنْ كنتُ لأُسلِّمُ على ابنِ عمِّي فما يرُدُّ عليَّ، فأغدُو إلى رسولِ الله ﷺ وأسلِّمُ عليه، وأرمقُ شفتَيه فما أراهما تتحرَّكانِ، وضاقَتْ والله عليَّ الأرضُ بما رحُبَتْ، وبعثَ رسولُ الله إلى نسائِنا يأمرُهُنَّ بالاجتِنابِ، وما زِلْنا على هذه الحالةِ خمسينَ، وقيل: ستِّينَ يومًا، حتَّى نزلَتْ توبتُنا، فجاءَ مَن يُبشِّرُني بذلك، فخرَرْتُ ساجدًا لله، وتصدَّقْتُ بجميعِ مالي، واستغفَرْتُ وجئتُ إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ والمسلمونَ يستقبِلُونَني يُهنِّؤوني بالتَّوبةِ، وقال رسولُ الله ﷺ: «أبشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك، قد تابَ الله عليكَ»، فقلتُ: يا رسولَ الله، لم يُنَجِّني الله إلا بالصِّدقِ، وقد تصدَّقْتُ بجميعِ ما أملِكُ شكرًا لله تعالى، فقالَ: «تصدَّقْ ببعضٍ واملِكْ بعضًا»[1].

وقد ذكَرْنا أنَّ هؤلاءِ الثَّلاثةَ: كعبُ بنُ مالكٍ، وهلالُ بنُ أميَّةَ، ومُرارةُ بنُ الرَّبيعِ.

---

(١) رواه بنحوه مطولًا البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وقيلَ: كانَ المُنافقونَ استقبَلُوا رسولَ الله ﷺ وقتَ مقدَمِه، فما التفَتَ إليهم، وأخرَجَ خمسينَ منهم منَ المسجِدِ، وقال: لا تُجالِسُونا[1].

﴿الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾؛ أي: أُرجِئُوا حتَّى حكمَ فيهم، وذلك أنَّ المنافقينَ لـم تُقبَلْ توبتُهم، واعتذَرَ أقوامٌ فقَبِلَ عُذرَهم، وأخَّرَ عليه السَّلامُ أمرَ هؤلاءِ الثَّلاثةِ حتَّى نزلَ فيهم القرآنُ.

قال كعبُ بنُ مالكٍ: ما هذا من تخلُّفِنا، إنَّما هو تأخيرُ رسولِ الله أمرَنا حتَّى نزلَ فينا الوحيُ[2].

وقيـلَ: خُلِّفوا عنِ الغـزوِ لتخَلُّفِهم عنه، كما قـال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: ضاقَتْ صدورُهم بالهمِّ والوحشةِ.

﴿وَظَنُّوا﴾؛ أي: أيقَنُوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾؛ أي: لا مُعتَصَمَ من عذابِ الله إلّا به.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وفَّقَهم للتَّوبةِ ليتُوبوا، أو تابَ عليهم لينتَفِعُوا بالتَّوبةِ.

* * *

(١١٩) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ خاطبَ جميعَ المُؤمنينَ؛ أي: اتَّقُوا مُخالفةَ أمرِ الله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: مع الذينَ خرَجُوا مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ لا مع المُنافقين؛ أي: كونُوا على مذهبِ الصّادقينَ وسبيلِهم.

وقيلَ: أرادَ بالصّادقينَ الأنبياءَ؛ أي: كونُوا بالأعمالِ الصّالحةِ معَهم في الجنَّةِ.

---

(١) انظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥].

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وقيلَ: اتَّقُوا الله في الدُّنيا لتكونُوا في الآخرةِ مع الصّادقينَ، وهو كما تقولُ: «أُحضُرْني وخُذْ كذا»؛ أي: تأخُذْ كذا.

* * *

(١٢٠) ـ ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: مَن حولَهم منَ الأعرابِ: مُزَينةُ وجُهَينةُ وأشجَعُ وأسلَمُ وغِفارٌ(١).

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؛ أي: لا يرضَوا لأنفُسِهم بالخَفْضِ والدَّعَةِ ورسولُ الله ﷺ في المشقَّةِ، يُقالُ: «رغِبْتُ عن كذا»؛ أي: ترفَّعْتُ عنه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ﴾؛ أي: ذلك النَّهيُ لِمَا يحصلُ منَ الأجرِ في مُقاساةِ كُلْفةِ الجهادِ. والظَّمأُ: شدّةُ العطشِ. والنَّصَبُ: الإعياءُ، منَ العَناءِ. والمَخمصةُ: المجاعةُ.

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: في طاعتِه.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾: من غاظَه يَغيظُه؛ أي: أغضَبه.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾؛ أي: أسرًا وقَتْلًا وهزيمةً.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٨٨)، وانظر: «مغازي الواقدي» (٣/ ١٠٧٥)، وذكره بلا نسبة الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٢٦).

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ وكان قُربةً عند الله.

ثمَّ قيلَ: كان هذا خاصًّا في حقِّ النَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ فكان إذا غَزا بنفسِه لم يكُنْ لأحدٍ أن يتخلَّفَ عنه إلّا بعُذرٍ.

وقيلَ: كانَ هذا أيضًا حين كانَ المسلمون في قلّةٍ، فلمَّا كثُروا نسخَها الله بقولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾.

وقيلَ: أي: ما كانَ لهم أن يتخلَّفُوا إذا دعاهُم أو أمرَهم، وكذلك غيرُه منَ الوُلاةِ إذا ندَبُوا وعيَّنُوا، فليس للمُعيَّنِ أن يتقاعَدَ من غيرِ عذرٍ؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى التَّواكلِ وتعطيلِ الجهادِ.

* * *

(١٢١) ـ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: تمرةً فما فوقَها وما دونَها[١].

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ الوادي: مسلكُ السَّيلِ، والجمعُ: الأوديةُ.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾؛ أي: خُطاهُم وآثارُهم، ليُجازِيَهم الله بها.

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٩١).

(١٢٢) - ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ أمرَ بالجهادِ، ثمَّ بيَّنَ أنَّه فرضُ كفايةٍ، ولو نفرَ الكلُّ لضاعَ مَن وراءَهم منَ العيالِ، فليخرُجْ فريقٌ منهم للجهادِ، وليقُمْ فريقٌ يتفقَّهونَ في الدِّينِ ويحفَظُونَ الحريمَ، حتَّى إذا عادَ النّافرون أعلَمَهم المُقيمونَ ما تعلَّمُوه من أحكامِ الشَّرعِ، وما تجدَّدَ نزولُه على النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

واللَّفظُ لفظُ الخبرِ والمُرادُ به الأمرُ كقولِه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾؛ أي: ليتعلَّمُوا القرآنَ والسُّنَنَ.

وقال الحسنُ: التَّفقُّهُ والإنذارُ يرجِعانِ إلى الفِرقةِ النَّافرةِ؛ أي: ليتبصَّرُوا ويتيقَّنُوا بما يُريهم الله من نُصرةِ الدِّينِ[1].

﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ منَ الكفَّارِ إذا رجَعُوا إليهم منَ الجهادِ.

* * *

(١٢٣) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ عرَّفَهم كيفيَّةَ الجهادِ، وأنَّ الابتداءَ بالأقربِ فالأقربِ منَ العدوِّ، ولهذا بدأ رسولُ الله ﷺ بالعربِ، فلمَّا فرغَ قصدَ الرُّومَ، وكانوا بالشَّامِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٨٢)، بلفظ: «ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم».

وقيلَ: كان عليه السَّلامُ ربَّما يتخَطَّى الأقربَ ليكونَ أهيَبَ له، فأُمرَ بقتالِ مَن يَليه.

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ أي: شجاعةً وشدّةً.

* * *

(١٢٤) ـ ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ أخبرَ أنَّ منَ المنافقين مَن يقولُ عند نزولِ القرآنِ استخفافًا واستِهزاءً: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ﴾ السُّورةُ ﴿إِيمَانًا﴾؟ ثمَّ أُجيبُوا بأنَّها زادَتِ المؤمنين إيمانًا دونَ المُنافقينَ والكفّارِ ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: المُؤمنونَ يفرَحُونَ بنُزولِ السُّورةِ، وبالنَّعيمِ الدّائمِ الذي بُشِّروا به.

* * *

(١٢٥) ـ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: نفاقٌ؛ لأنَّ النِّفاقَ فسادٌ في القلبِ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؛ أي: كُفرًا إلى كُفرِهم.

والرِّجسُ: النَّجَسُ، وقيلَ: الأذى.

والمنافقُ في أذًى وعذابٍ في المُصانعةِ والمُداراةِ، ثمَّ في الآخرةِ له العذابُ العظيمُ.

* * *

(١٢٦) - ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾: عجَّبَ المُؤمنينَ منَ المُنافقينَ؛ أي: أَوَلا يرونَ ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ في كلِّ وقتٍ، وتَتَوالى عليهم المِحَنُ، ثمَّ لا يتَّعِظُونَ.

﴿يَرَوْنَ﴾ قُرِئَ بالياءِ والتّاءِ[1]، والرُّؤيةُ بمعنَى العلمِ، ويجوزُ أن تكونَ من رُؤيةِ العينِ.

﴿يُفْتَنُونَ﴾: يُمتَحَنُونَ بالمرضِ.

﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ فلا يتَّعِظُونَ، والأمراضُ تُذكِّرُ بالموتِ؛ أي: لا يُقدِّمُونَ عملًا صالحًا مع تعرُّضِهم للموتِ.

وقيلَ: يُفتَنُونَ بالقَحْطِ والجوعِ.

وقيلَ: بالغزوِ والجهادِ.

وقيلَ: بإظهارِ نِفاقِهم وإخراجِهم منَ المسجدِ.

* * *

(١٢٧) - ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾؛ أي: إذا حضَرُوا الرَّسولَ وهو يتلو قرآنًا نزلَ عليه ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يتعرَّفُ هل يراهُم أحدٌ؟ فإذا وجَدُوا غفلةً منَ المُؤمنينَ انصَرَفُوا كراهيةً[2] لِما يسمَعُونَ منَ القرآنِ، وخوفًا من أن يسمَعُوا ما يفضَحُهم.

---

(١) قرأ حمزة بالتاء والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

(٢) في (أ): «كراهة».

وقيلَ: ثمَّ انصرَفُوا عن قَبولِ ذلك بالقلبِ.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: نظرَ بعضُهم إلى بعضٍ وقال: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؟

وقيلَ: نظَرُوا وتغامَزُوا فيما بينَهم استِخفافًا.

﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: إنْ خرجتُم.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ قيلَ: هو دعاءٌ، كقولِه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقيلَ: خبرٌ؛ أي: صرَفَ الله قلوبَهم عن كلِّ خيرٍ.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ختَمَ السُّورةَ بوصفِ النَّبيِّ ﷺ.

قال ابنُ عبّاسٍ: ما من قبيلةٍ منَ العربِ إلّا ولدَتِ النَّبيَّ ﷺ، فكأنَّه قال: يا معشرَ العربِ، لقد جاءَكُم رسولٌ من بني إسماعيلَ(١).

وقيلَ: أي: هو بشرٌ مثلُكم لتفهَمُوا منه، فهو أوكَدُ للحجّةِ.

وقرأ ابنُ عبّاسٍ وفاطمةُ رضيَ الله عنهما: (من أنفَسِكُم)(٢)؛ أي: من أشرَفِكُم.

﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: قد عرفتُم نسبَه وتوسُّطَه في قومِه، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: يُهِمُّه أمرُكم.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٤٤)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ١٠٥)، ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «قد ولدتموه يا معشر العرب».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٠)، ونسبها في «المحتسب» (١/ ٣٠٦) لعبد الله بن قسيط المكي.

وقيلَ: أي: يَعِزُّ عليه مشقَّتُكم، يُقالُ: عَنِتَ الرَّجلُ يَعْنَتُ عَنَتًا؛ إذا وقعَ في مشقَّةٍ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: على إيمانِكُم، فحُذِفَ.

وقال الفرَّاءُ: أي: شحيحٌ بأن تدخُلوا النّارَ[1].

والحِرصُ على الشَّيءِ: الشُّحُّ عليه أن يضيعَ ويتلفَ.

* * *

(١٢٩) - ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: إنْ أعرضَ الكفّارُ عنكَ يا محمَّدُ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: الذي يكفيني اللهُ تعالى.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا نصبٌ على الحالِ؛ أي: حسبيَ الله مُستحِقًّا لإخلاصِ العبادةِ.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ خصَّ العرشَ لأنَّه أعظمُ المخلوقاتِ، فيدخلُ فيه ما دونَه إذا ذكرَه.

قُرِئَ ﴿الْعَظِيمِ﴾ بالخفضِ، فيكونُ نعتًا للعرشِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ[2] فيرجعُ إلى الله.

قال أُبيُّ بنُ كعبٍ: هذه آخرُ آيةٍ نزلَتْ منَ القرآنِ[3].

* * *

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٥٧).

(٢) بالجر قراءة الجماعة، وقراءة الرفع شاذة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١)، ونسبها لأهل مكة.

(٣) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على «المسند» (٢١١١٣) و(٢١٢٢٦)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥٣٣)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص: ٥٦ و١١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٩)، والضياء في «المختارة» (١١٥٥). وقد تقدم الخلاف في آخر ما نزل عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

سُورَةُ يُونُسَ

تفسيرُ سورةِ يونُسَ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

قولُه: ﴿الٓر﴾: قُرِئَ ﴿الٓر﴾ من غيرِ إمالةٍ، وقُرِئَ بالإمالةِ[١]، لئلَّا يُشبِهَ «ما» و«لا» منَ الحروفِ؛ إذ لا إمالةَ في الحرفِ، وألفْ لامْ را: أسماءٌ لِمَا يُلفَظُ به منَ الأصواتِ، فالإمالةُ علامةٌ لها في أنَّها أسماءٌ.

وعُدَّ ﴿طه﴾ آيةً لمُشاكلتِها رُؤوسَ الآيِ بعدَها، ولم يُعَدَّ ﴿الٓر﴾ آيةً؛ لأنَّه لا يُشاكِلُ رؤوسَ الآيِ بعدَها.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: تلك الآياتُ التي سبقَ ذِكرُها، أو هذه الآياتُ في هذه السُّورةِ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وأراد بالكتابِ الحكيمِ: القرآنَ.

وقال مجاهدٌ: أرادَ التَّوارةَ والإنجيلَ[٢].

وقيلَ: أرادَ بالكتابِ الحكيمِ: أصلَ الكتابِ الذي هو مخزونٌ مكتوبٌ عندَ الله، ومنه نُسِخَ كلُّ كتابٍ؛ كما قالَ: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]؛ أي: هذا القرآنُ منه نُسِخَ، فلا يتطرَّقُ إليه تحريفٌ وخللٌ.

---

(١) قرأ ابن كثير وقالون وحفص بالفتح، وورش بين اللفظين والباقون بالإمالة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٥).

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ أي: المُحكَمُ، كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١].

وقيلَ: الحكيمُ بمعنى الحاكمِ؛ أي: أنّه حاكمٌ بالحلالِ والحرامِ، وحاكمٌ بينَ النّاسِ بالحقِّ.

وقيلَ: الحكيمُ بمعنى المحكومِ فيه؛ أي: حكمَ الله فيه بالعدلِ والإحسانِ، وبالجنّةِ لمَن أطاعَ، وبالنّارِ لمَن عصى.

* * *

(٢) ـ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾: سببُ النُّزولِ: أنَّ الكفّارَ قالوا لـمَّا بُعِثَ محمَّدٌ: إنَّ الله أعظمُ من أن يكونَ رسولُه بشرًا[١].

وقيلَ: قالوا: ما وجَدَ رسولًا إلّا يتيمَ أبي طالبٍ[٢]؟!

وقيلَ: إنَّما تعجَّبُوا من ذكرِ البعثِ[٣].

والنّاسُ هاهُنا: أهلُ مكّةَ.

﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾؛ أي: أكانَ إيحاؤُنا عجبًا للنّاسِ؟

وقولُه[٤]: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعني: محمَّدًا ﷺ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٥)، والنحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٢٧٦) دون نسبة.

(٣) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٥).

(٤) «وقوله» ليس في (أ)، وفي (ف): «وقيل وقوله».

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لِـمَ يتعجَّبُونَ من بعثةِ محمَّدٍ وقد عرَفُوه بالصِّدقِ والأمانةِ؟

والإنذارُ: الإعلامُ بموضعِ المخافةِ.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: أخبِرْهم بما يظهرُ أثرُه على بشرَتِهم.

والقَدَمُ: السَّابقةُ، وما قدَّمَه المرءُ من خيرٍ، وهو كنايةٌ عن السَّعيِ في العملِ الصَّالحِ؛ لأنَّ السَّعيَ يقعُ بالقَدَمِ، والقدَمُ في الآيةِ: الثَّوابُ والمنزلةُ الرَّفيعةُ؛ أي: لهم ثوابُ قدَمِ صدقٍ، فحُذِفَ المُضافُ، أو أرادَ: لـهم الأعمالُ الصّالحةُ المُدَّخرةُ عند الله حتَّى يُثابوا عليها، فعلى هذا لا حذفَ في الآيةِ.

وقيلَ: أي: سبقَتْ لهم السَّعادةُ منَ الله، وما سبقَ فهو قدمٌ ومتقدِّمٌ.

وقيلَ: هو محمَّدٌ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه شفيعٌ مُطاعٌ يتقدَّمُهم، كما قال: «أنا فَرَطُكم على الحوضِ»(١).

وقيلَ: هو تقديمُ الله هذه الأمَّةَ في الحشرِ منَ القبرِ، وفي إدخالِ الجنّةِ، كما قال عليه السَّلامُ: «نحنُ الآخِرونَ السّابقونَ»(٢).

وقيلَ: القدَمُ بمعنَى التَّقدُّمِ، يُقالُ: هؤلاءِ أهلُ القدمِ في الإسلامِ؛ أي: أهلُ التَّقدُّمِ، فأُضيفَ القدمُ إلى الصِّدقِ، وهو من نعتِه، كما يُقالُ: «مسجدُ الجامعِ».

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: قالوا مُتعجِّبينَ: ﴿إنَّ هذا لَسِحْرٌ﴾؛ أي: إنَّ هذا القرآنَ لَسحرٌ.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧٥)، ومسلم (٢٢٩٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه البخاري (٦٥٨٩)، ومسلم (٢٢٨٩)، من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه، ورواه البخاري (٧٠٥٠)، ومسلم (٢٢٩٠)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقُرِئَ: ﴿لَسَاحِرٌ﴾(١)، فيرجعُ إلى محمَّدٍ ﷺ.

﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهرٌ، أو: مُظهِرٌ، يُقالُ: بانَ؛ أي: ظهَرَ، وأبانَ؛ أي: أظهَرَ.

* * *

(٣) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: عرَّفَ الخلقَ بنفسِه بأنَّه خالقُهم، وأنَّ له أن يُرسِلَ إليهم الرُّسلَ، وأن يُميتَهم ويُحييَهم ويُجازيَهم.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في مقدارِ ستّةِ أيّامٍ.

قيلَ: كلُّ يومٍ كانَ مقدارَ ألفِ سنةٍ ممَّا تعدُّونَ، وكان قادرًا على أن يخلقَها في لحظةٍ، ولكن إذا أُفرِدَ كلُّ شيءٍ بوقتٍ كانَ أَهْيبَ وأحسنَ وأبعدَ من أن يُقالَ: وقعَ ما وقعَ اتِّفاقًا أو طبعًا.

ثمَّ قيلَ: بدأ خلقَ الأرضِ في يومَينِ: الأحدِ والإثنينِ، وقدَّرَ أقواتَها في يومَينِ: الثُّلاثاءِ والأربعاءِ، وخلقَ السَّماواتِ في يومَينِ: الخميسِ والجمعةِ(٢)، لتعتبرَ الملائكةُ إذا شاهَدُوا الخلقةَ.

---

(١) قرأ بها ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي، والأولى قراءة باقي السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٦٤)، والآجري في «الشريعة» (٤٣٤)، عن عبد الله بن سلام. ويغني في الاستدلال عنه ما رواه مسلم (٢٧٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل».

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: قد مضى معناه في سورةِ الأعرافِ.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾؛ أي: يُنزِّلُ الأمورَ في مراتِبها، والأمرُ اسمٌ لجنسِ الأمورِ.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾؛ أي: إنَّ الأصنامَ لا تشفَعُ؛ لأنَّها جماداتٌ، والأنبياءُ أيضًا لا يشفَعُونَ إلّا بإذنِه.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾؛ أي: هذا الذي عرفتُم صفتَه هو الله ربُّكم ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: أفلا تتذكَّرون لتَقبَلُوا منَ الله ما يُذكِّرُكم به؟

* * *

(٤) - ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ أي: رُجوعُكم، ومعنى الرُّجوعِ إلى الله: الرُّجوعُ إلى جزائِه.

﴿جَمِيعٗا﴾: نصبٌ على الحالِ؛ أي: في حالِ اجتماعِكم.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ أي: وعدَكُم الله ذلك وعدًا حقًّا؛ أي: أحَقَّ ذلك حقًّا.

﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قُرِئَ ﴿إِنَّهُۥ﴾ بالكسرِ للاستئنافِ، وقُرِئَ: ﴿أَنَّه﴾ بالنَّصبِ[1]؛ أي: إلى الله مرجِعُكم أنَّه يبدأُ الخلقَ.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ أي: بالعدلِ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: ابتداءٌ، وجوابُه: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ﴾.

---

(١) هي قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٢).

وقيلَ: أي: ليجزِيَ الذين آمنُوا والذين كفَرُوا جميعًا، ثمَّ قال: للَّذين كفرُوا ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ هو الذي أُسخِنَ بالنَّارِ حتَّى انتهى حرُّه، يُقالُ: حَمَمْتُ الماءَ أَحُمُّه فهو حميمٌ؛ أي: سخَّنتُه، ومنه: الحمَّامُ.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: يَخلُصُ وجعُه إلى قلوبِهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بكُفرِهم، وكان مُعظَمُ قُريشٍ يعترِفُونَ بأنَّ الله خالقُهم، فاحتَجَّ عليهم بهذا، فقال: مَن قَدَرَ على الابتداءِ قدرَ على الإعادةِ بعد الإفناءِ، أو بعد تفريقِ الأجزاءِ.

* * *

(٥) - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾؛ أي: إنَّه على كمالِ القُدرةِ، ومن قُدرتِه أنَّه جعلَ الشَّمسَ ضياءً، والضِّياءُ: جمعُ ضوءٍ، كالسِّياطِ والحِياضِ: جمعُ سَوطٍ وحَوضٍ.

وقيلَ: الضِّياءُ مصدرٌ، يُقالُ: ضاءَ يضُوءُ ضياءً، كما يُقالُ: قامَ قيامًا، وصامَ صيامًا، والمُضافُ محذوفٌ؛ أي: جعلَ الشَّمسَ ذاتَ ضياءٍ، والقمرَ ذا نورٍ.

﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾؛ أي: القمرَ؛ لأنَّ الحسابَ به يُعلَمُ.

وقيلَ: أي: وقدَّرهما، فاختُصِرَ كقولِه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

ومعنَى قدَّرَ: هيَّأَ ويسَّرَ؛ أي: قدَّرَه ذا منازِلَ، أو: قدَّرَ له منازلَ، فحُذِفَ الجارُّ.

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾: قال ابنُ عبَّاسٍ: لو جعلَ شمسَينِ شمسًا

بالنَّهارِ وشمسًا باللَّيلِ ليسَ فيها ظُلمةٌ ولا ليلٌ لـم يُعلَمْ عددُ السِّنينَ وحسابُ الشُّهورِ[1].

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما تقدَّمَ ذِكرُه، و«ذلك» يُشارُ به إلى الواحدِ والجمعِ.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: للحقِّ، وهو كقولِه: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقيلَ: إلّا بالحكمِ الحقِّ؛ أي: له أن يفعلَ ما يشاءُ.

﴿نُفَصِّلُ الآياتِ﴾؛ أي: نُبيِّنُها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: للمُؤمنينَ المُستَدلِّينَ.

قُرِئَ ﴿نُفصِّلُ﴾ بالنُّونِ وبالياءِ[2].

* * *

(٦) - ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: سببُ النُّزولِ: أنَّهم سألُوا آيةً فردَّهم إلى تأمُّلِ مصنوعاتِه؛ فإنَّها أدلَّةُ التَّوحيدِ وجوازِ البعثِ، وإنَّما سألُوا للدَّلالةِ على أمرِ البعثِ.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: علاماتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ الشِّركَ، فأمَّا مَن أشركَ ولـم يستدِلَّ فليستِ الآيةُ له آيةً.

وقيلَ: لقومٍ يتَّقُونَ الإعراضَ عن النَّظرِ والاستدلالِ.

* * *

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٢٦).

(٢) بالياء أبو عمرو وابن كثير وحفص، والباقون بالنون. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٧ ـ ٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الرَّجاءُ: الخوفُ؛ أي: إنَّ الذين لا يخافونَ البعثَ.

وقيلَ: أي: إنَّ الذين لا يطمَعُونَ في ثوابِنا.

وجعلَ لقاءَ العذابِ أو الثَّوابِ لقاءَ الله تفخيمًا لهما.

وقيلَ: يجري اللِّقاءُ على ظاهِرِه، وهو الرُّؤيةُ؛ أي: لا يطمَعُونَ في رُؤيتِنا.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ فلا يتفكَّرونَ فيما أنزَلْنا منَ الشَّرائعِ.

قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ﴾؛ أي: مَثواهُم ﴿ٱلنَّارُ﴾.

* * *

(٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: صدَّقُوا وعمِلُوا الأعمالَ الصّالحاتِ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: يزيدُهم اليومَ هدايةً، كقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وقيلَ: يهديهم غدًا إلى الجنّةِ، وفي التَّفاسيرِ: «يُصوَّرُ للمُؤمنِ عملُه في صورةٍ حسنةٍ، فيقولُ له: مَن أنتَ؟ فيقولُ: عملُكَ، فيكونُ له نورًا وقائدًا إلى الجنّةِ»، والكافرُ على الضِّدِّ منه[1].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٢٩) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن =

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾؛ أي: يهديهم غدًا إلى مكانٍ تجري فيه من تحتِهم الأنهارُ.

وقيلَ: في الكلامِ واوٌ محذوفةٌ؛ أي: يهديهم ربُّهم بإيمانِهم، وتجري من تحتِهم الأنهارُ؛ أي: تجري من تحتِ بساتينِهم.

وقيلَ: بينَ أيديهم، كقولِه: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]؛ أي: بينَ يدَيكَ.

﴿فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: في بساتينِ النِّعمةِ.

* * *

= عن النبي ﷺ مرسلاً. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٣) من طريق سعيد عن قتادة قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره...».

وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٨٤): روى ابن أبي شيبة من طريق عمرو بن قيس عن عطية عن ابن عمر قال: «يستقبل المؤمنَ عند خروجه من قبره عملُه في أحسن صورة...» فذكر نحوه بتمامه.

قلت: رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٦٣٢) من الطريق المذكور عن ابن عمرَ بلفظ: «يَستقبِلُ المؤمنَ عندَ خروجه من قبره أحسنُ صورةٍ رآها قطُّ، فيقول لها: مَن أنتِ؟ فتقولُ له: أنا التي كنت معك في الدُّنيا، لا أفارقُ حتى أُدخلك الجنةَ».

وفي الباب حديث البراء المشهور في نعيم القبر وعذابه، رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٧٨٩)، والإمام أحمد في «المسند» (١٨٥٣٤)، والطبراني في «الأحاديث الطوال» (٢٥)، والحاكم في «المستدرك» (١٠٧)، وفيه بيان أن هذا التمثُّل يكون في القبر، ولفظه: «ويمثل له عمله في صورة رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول: أبشر بما أعد الله عز وجل لك، أبشر برضوان الله وجنات فيها نعيم مقيم، فيقول: بشرك الله بخير، من أنت؟ فوجهك الوجه الذي جاء بالخير، فيقول: هذا يومك الذي كنت توعد والأمر الذي كنت توعد، أنا عملك الصالح، فوالله ما علمتك إلا كنت سريعًا في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله، فجزاك الله خيرًا».

(١٠) ـ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُـه: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾: والدَّعـوَى مصـدرُ دَعا يدعُو، كالشَّـكوى مصـدرُ شـكا يشـكُو؛ أي: دُعاؤُهـم فـي الجنّـةِ أن يقولُـوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾؛ أي: يُسـبِّحُونَ الله ويحمَدونَه.

وقيلَ: إذا أرادُوا أن يسألُوا الله شيئًا أخرجُوا السُّؤالَ بلفظِ التَّسبيحِ، ويختمُونَ بالحمدِ، والله عالـمٌ بما يتمنَّونَه، والتَّسبيحُ والحمدُ والتَّهليلُ قد يُسمَّى دُعاءً.

وفي الخبرِ: «مَن شغَلَه ذِكري عن مسألَتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السّائلينَ»[١].

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١١٥)، وفي «خلق أفعال العباد» (ص: ١٠٩)، والبزار في «مسنده» (١٣٧)، من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً، وحسنه ابن حجر في «أماليه» كما في «تنزيه الشريعة» (٢/ ٣٢٣)، وخطأ ابن الجوزي في إيراده إياه في «الموضوعات» (٢/ ٣٤٨) استناداً لقول ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٧٦) بوضعه بسبب صفوان بن أبي الصهباء، قال الحافظ: ولم يستَمرَّ ابن حبان على ذلك بل رجع فذكره في «الثِّقَات»، وكذا ذكره في الثِّقَات: ابنُ شاهين وابنُ خلفون، وقال ابن خلفون: إن ابن مَعِين وَثَّقه، وذكره البخاريّ في «التَّارِيخ» فلم يحكِ فيه جرحاً.

وله شاهد بلفظه رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٢٧٣) عن عمرو بن مرة رفعه. وهو مرسل. ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٢٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣١٩٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٢٧١)، عن مالكِ بن الحارثِ قال: «يقولُ اللهُ: إذا شغل عبدي ثناؤه علي عن مسألتي أعطيتُه...». وهو أيضاً مرسل كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٥).

وليس معنى الحديث أن الانشغال بالثناء والذكر هو ترك للدعاء كما قد يتوهم متوهم، فقد قال القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٤٦٠) عند تفسير الآية (١٠) من سورة يونس: التسبيح والحمد والتهليل قـد يسمَّى دعاء؛ روى مسلم [(٢٧٣٠)] والبخاري [(٦٣٤٥)] عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، =

وقيلَ: الدَّعوَى بمعنَى التَّمنِّي، قال الله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧]؛ أي: ما يتمنَّونَ.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾؛ أي: تحيةُ الله لهم، وتحيَّةُ الملَكِ لهم، وتحيَّةُ بعضِهم لبعضٍ سلامٌ.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيلَ: إذا مرَّ بهم الطَّيرُ واشتهَوه قالُوا: «سُبحانَكَ اللَّهمَّ» فيأتيهم الملَكُ بما اشتهَوه، فإذا أكلُوا حمِدُوا الله، وسُؤالُهم بلفظِ التَّسبيحِ، والختمُ بلفظِ الحمدِ.

﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿أَنْ﴾ هي الخفيفةُ منَ الشَّديدةِ، وقيلَ: ﴿أَنْ﴾ زائدةٌ.

* * *

(١١) ـ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين لا يرجُونَ لقاءَنا

= لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم». قال الطبري: كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب.

وقال ابن عيينة وقد سئل عن هذا فقال: أما علمت أن الله تعالى يقول: «إذا شغل عبدي ثناؤه عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

قال القرطبي: والذي يقطع النزاع ـ وأن هذا يسمى دعاء وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هو تعظيم لله تعالى وثناء عليه ـ ما رواه النسائي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لن يدعو بها مسلم في شيء إلا استجيب له». رواه النسائي في «الكبرى» (١٠٤١٦)، والترمذي (٣٥٠٥)، وأحمد (١٤٦٢).

إذا أُنذِرُوا استعجَلُوا العذابَ لفَرْطِ إنكارِهم، وسُمِّيَ عذابُ الآخرةِ شرًّا لأنَّه شرٌّ للكفَّارِ؛ أي: لو عجَّلْنا لـهم ما هم بصددِه منَ العذابِ لَـهلكوا؛ لأنَّ تركيبَهم في الدُّنيا لا يحتملُ ذلك.

وقيلَ: هو دعاءُ الإنسانِ على نفسِه ومالِه وولدِه إذا غضِبَ.

والاستعجالُ: طلبُ العجلةِ.

وقولُه: ﴿ٱسۡتِعۡجَالَهُم﴾: نصبٌ بوقوعِ الفعلِ عليه، كقولِه: «ضربتُه ضربَك».

وقيلَ: أي: لو يُعجِّلُ الله للنّاسِ الشَّرَّ تعجيلًا مثلَ استعجالِـهم بالخيرِ؛ أي: لو استُجيبَ لهم في الشَّرِّ كما يُحبُّونَ أن يُستجابَ لهم في الخيرِ لَـهَلَكوا، فالتَّعجيلُ منَ الله، والاستِعجالُ منَ العبدِ.

وقال أبو عليٍّ: هما منَ الله؛ أي: لو يُعجِّلُ الله لهم العذابَ كما يُعجِّلُ لهم الرِّزقَ والرَّحمةَ، فقولُه: «استِعجالَـهم»؛ أي: استعجالَه إيّاهم بالخيرِ، فأُضيفَ المصدرُ إلى المفعولِ به، وحُذِفَ الفاعلُ[1].

﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ﴾ لم يُذكَرِ الفاعلُ لأنَّه سبقَ ذكرُه؛ إذ قال: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾.

﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ إنَّما قالَه لأنَّ «قَضى» بمعنَى: فرَغَ، ويُقالُ: «فرَغْتُ من كذا إلى كذا»[2].

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يُعجِّلُ لـهم الشَّرَّ، فربَّما يتوبُ منهم تائبٌ، ويخرُجُ من أصلابِهم مُؤمنٌ.

والطُّغيانُ: العلُوُّ والارتفاعُ، والعَمَهُ: التَّحيُّرُ.

---

(١) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ١٣٥).

(٢) في (أ): «أي لهذا البيان».

(١٢) - ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾ عنَى بالإنسانِ المُشركَ. والضُّرُّ: البلاءُ.

﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ ﴾؛ أي: مُضطَجعًا على جنبه ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾.

وقيلَ: أي: إذا مسَّه الضُّرُّ في حالِ كونِه مُضطجِعًا أو قائمًا أو قاعدًا دَعانا.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ ﴾؛ أي: استمرَّ على كُفرِه ولم يشكُرْ، ولم يتَّعِظْ بما أصابَه.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ ﴾؛ أي: كأنَّه لم يدعُنا، فخُفِّفَتْ.

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾؛ أي: كما زُيِّنَ لهذا الكافرِ الدُّعاءُ عندَ البلاءِ، والإعراضُ عند الرَّخاءِ؛ زُيِّنَ للمُسرفينَ عملُهم، وأرادَ بالمُسرفينَ: المُشركينَ.

وقيلَ: أي: كهذا البيان زُيِّنَ للمُسرفينَ أعمالُهم، وهذا التَّزيينُ هو الإِضلالُ، فيجوزُ أن يكونَ منَ الله، ويجوزُ أن يكونَ منَ الشَّيطانِ، وإِضلالُه: دعاؤُه إلى الكفرِ.

* * *

(١٣) - ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يعني: كفَّارَ الأُممِ السَّابقةِ.

﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾؛ أي: أهلَكْناهم لعِلمِنا أنَّهم لا يُؤمِنُونَ، ونحنُ قادِرون على إهلاكِ هؤلاءِ، ولكنْ نُمهِلُهم لعِلْمِنا بأنَّ فيهم مَن يُؤمِنُ.

* * *

(١٤) - ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: جعَلْناكم سكّانَ الأرضِ.

﴿لِنَنظُرَ﴾؛ أي: لنختبِرَ أعمالَكم حتَّى تتبيَّنَ للخلقِ تلك الأعمالُ، لا لنستفيدَ علمًا.

وقيلَ: يُعامِلُكم مُعاملةَ المُختبِرينَ إظهارًا للعدلِ.

﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ نصبٌ بقولِه: ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ ﴿كَيْفَ﴾ استفهامٌ، فلا يعملُ فيه ما قبلَه.

* * *

(١٥) - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ نزلَتْ في مُشركي مكَّةَ، ومن جَهالاتِ هؤلاءِ المُنكرين للبعثِ المُستَعجِلين للعقابِ قولُـهم: ائتِ بقُرآنٍ ليس فيه سبُّ آلـهتِنا أو بدِّلْ منه ما نكرَهُه، وهذا منهم توهُّمُ أنَّ الأمرَ موقوفٌ على شهوتِهم واقتراحِهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يرجُونَ ثوابًا ولا يخشَونَ عقابًا، أو: لا يرجُونَ الرُّؤيةَ.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾؛ أي: مـا ينبَغي لي أن أُغيِّرَه من قِبَلِ نفسي، والتِّلقاءُ: جِهةُ مُقابَلةِ الشَّيءِ.

وأجابَ عن سؤالِ التَّبديلِ لأنَّه قريبٌ من قولِـهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾؛ أي: لا أتَّبعُ.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: عذابَ يومِ القيامةِ.

* * *

(١٦) ـ ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لو شاءَ الله ما تلوتُ عليكم القرآنَ.

﴿وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾؛ أي: ولا أعلَمَكم الله ولا أخبرَكُم به، يُقالُ: دَرَيتُ الشَّيءَ وأَدْراني اللهُ به، ودَرَيتُه ودَرَيتُ به، وفي الدِّرايةِ معنَى الخَتْلِ، ومنه: «داريتُ الرَّجلَ»؛ أي: ختَلتُه، ولهذا لا يُطلَقُ الدّاري في حقِّ الله تعالى، وأيضًا عُدِمَ فيه التَّوقيفُ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿ولأَدْراكُم به﴾[1]؛ أي: لأعلَمَكُم دونَ قراءَتي عليكُم، فهي لامُ التَّأكيدِ دخلَتْ على ألفِ «أفعلَ».

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أقمْتُ فيكم أربعينَ سنةً لا أُحدِّثُكم شيئًا[2].

---

(١) هي قراءة قنبل ورواية أبي ربيعة ـ وهو محمد بن إسحاق بن وهب الربعي المكي أنبل أصحاب البزي في وقته ـ عن البزي عن ابن كثير. انظر: «التيسير» (ص: ١٢١)، و«معرفة القراء الكبار» للذهبي (١/ ٤٥٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٤٧)، وروى البخاري (٣٨٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين، فمكث ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة، فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين، ثم توفي ﷺ».

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّه أمرٌ من جهةِ الله لا من قَبلي.

وقيلَ: لبِثْتُ فيكم عُمرًا لا أخُطُّ بيميني ولا أتلُو كتابًا، أفما يدُلُّكم إخباري بأقاصيصِ الأوَّلينَ من غيرِ كتابٍ ولا تعلُّمٍ على صِدْقي؟!

وقيلَ: فقد لبثْتُ فيكم مدّةَ شبابي ولـم أعصِ الله، أفتُريدونَ منِّي الآنَ ـ وقد بلغتُ أربعينَ ـ أن أُخالِفَ أمرَ الله وأُغيِّرَ ما يُنزِلُه عليَّ؟!

* * *

(١٧) ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا استفهامٌ بمعنَى الجحدِ؛ أي: لا أحدَ أظلَمُ مـمَّن افترى على الله الكذبَ وبدَّلَ كلامَه وأضافَ شيئًا إليه مـمَّا لـم يُنزِلْه، وكذلك لا أحدَ أظلَمُ منكم إذا أنكرتُم القرآنَ وافترَيتُم على الله الكذبَ، وقلتُم: ليس هذا كلامَه، وهذا مـمَّا أُمِرَ به الرَّسولُ أن يقولَه لهم.

وقيلَ: هو من قولِ الله ابتداءً؛ أي: لا أحدَ أظلَمُ منَ الكفّارِ في تكذيبِهم محمَّدًا ﷺ وقولِـهم: الأصنامُ شركاءُ الله، والملائكةُ بناتُه.

وقيل: المُفتَري: المُشرِكُ

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ أي: وكذَّب بآياته[1]، والمُكذِّبُ بالآياتِ: أهلُ الكتابِ.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: لا يفوزُ الكافرُ بخيرٍ.

* * *

---

(١) «أي وكذب بآياته» من (أ).

(١٨) - ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾؛ أي: لا يضرُّهم إنْ لـم يعبُدوه، ولا ينفعُهم إنْ عبَدُوه؛ أي: يعبُدونَ الأصنامَ وهي جماداتٌ.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: الأصنامُ تشفعُ لنا عند الله في إصلاحِ معايِشِنا في الدُّنيا؛ فإنَّهم ما كانوا مُعترفينَ بالبعثِ.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾؛ أي: أتُخبِرُونَه بما يعلَمُ خلافَه في السَّماواتِ والأرضِ؟ فإنَّ صفاتِ الذَّاتِ لا يجري فيها النَّفيُ.

وقيلَ: أي: أتُخبِرُونَ الله بما لا يعلَمُه موجودًا في السَّماواتِ والأرضِ؟ فكيفَ يصِحُّ وجودُ ما لا يعلَمُه الله؟ وهو كما يُقالُ للرَّجلِ: قد قلتَ كذا؟ فيقولُ: ما عَلِمَ الله هذا منِّي؛ أي: ما كانَ هذا قطُّ؛ إذ لو كانَ لعلِمَه الله.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ ﴾: تنزيهًا له عن أن يكونَ له شريكٌ.

قُرِئَ: ﴿يُشْرِكُونَ ﴾ بالياءِ والتاءِ[١].

***

(١) قرأ حمزة والكسائي بالتاء والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٢١).
ووقع في النسختين بدل «يشركون»: «أتنبئون»، والخلاف في الياء والتاء إنما هو في كلمة: ﴿يُشْرِكُونَ ﴾، أما كلمة: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ﴾ فلا خلاف فيها أنها بالتاء، وإنما قرئ في الشواذ: (أَتُنْبِئون) خفيفة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن بعضهم، وعزاها الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٨٤) لأبي السمال.

(١٩) ـ ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ في تأخيرِ العذابِ عمَّن كفرَ به، والأمَّةُ: الجماعةُ التي اجتمَعُوا على أمرٍ[1] واحدٍ، والنَّاسُ أمَّةٌ، والطَّيرُ أمَّةٌ؛ أي: كان النّاسُ على دينٍ واحدٍ؛ أي: كانُوا مُجتَمِعينَ على الإيمانِ إلى أن قتلَ أحدُ ابنَي آدمَ أخاه، أو: في زمانِ نوحٍ لـمَّا خرجُوا منَ السَّفينةِ ثمَّ اختلَفُوا، أو: كانُوا مُجتَمعين على قولِ ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] يومَ الذَّرِّ، أو: من وقتِ إبراهيمَ إلى أنْ غيَّرَ الدِّينَ عمرُو بنُ لحيٍّ، والمُرادُ بالنّاسِ: العربُ على هذا.

وقيلَ: أي: كانُوا مُجتَمعين في الكفرِ في وقتِ إبراهيمَ، فآمنَ بعضُهم، أو عندَ مَبعثِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، فآمنَ بعضُهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لفُصِلَ بينَهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أو: لفُصِلَ بينَهم بنُزولِ العذابِ، أو بإقامةِ السّاعةِ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قيلَ: سألُوا آيةً تَضطرُّهم إلى المعرفةِ، ولـم يَقنَعُوا بما يحتاجُ إلى الاستدلالِ.

وقيلَ: طلَبُوا آيةً غيرَ القرآنِ.

---

(١) في (ف): «على معنى».

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: وقتُ نزولِ الآيةِ، وهل ينزلُ أم لا؟ غيبٌ، وإنَّما الغَيبُ لله لا يعلمُه أحدٌ، والغيبُ: ما غابَ علمُه عن البشرِ.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما يكونُ منَ الله من إنزالِ الآياتِ، أو إنزالِ العقوبةِ.

وقيلَ: فانتظروا مواعيدَ الشَّيطانِ، فكانَ يَعدِهُم ويُمنِّيهم.

﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ مواعيدَ(١) اللهِ.

* * *

(٢١) ـ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ قيلَ: أرادَ بالنّاسِ: كفّارَ مكّةَ؛ أي: إذا أَذَقْناهم سعةً وخصبًا بعد ضيقٍ وجَدْبٍ فكان من حقِّهم الشُّكرُ.

﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾؛ أي: تكذيبٌ بالقرآنِ، والمكرُ: صرفُ الشَّيءِ عن وجهِه على طريقِ الحيلةِ فيه.

وقيلَ: أي: استِهزاءٌ.

وقيلَ: يقولُونَ: سُقينا بنَوءِ كذا، أو: جرَى هذا طبعًا، أو لسَيرِ الفلَكِ.

وقيلَ: هو قولُهم: هذا باستحقاقٍ، كقولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؛ أي: جزاءً على المكرِ.

---

(١) في (أ): «بوعيد».

وقيلَ: أي: ما يأتيهم منَ العذابِ أسرعُ في إهلاكِهم مـمَّا أتوه منَ المكرِ.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ يعني بالرُّسلِ: الحفظةَ.

* * *

(٢٢) - ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾؛ أي: يُشخِصُكُم من بلدةٍ إلى بلدةٍ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿يَنْشُرُكُم﴾[١]؛ أي: يبُثُّكم ويُفرِّقُكم.

﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: فتسيرُونَ حتَّى إذا كنتُم ﴿فِي الْفُلْكِ﴾؛ أي: في السَّفينةِ، والفُلكُ يصلُحُ للواحدِ والجمعِ.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ لوَّنَ الكلامَ منَ الخطابِ إلى المُغايبةِ، وهو كثيرٌ في الكلامِ.

﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾؛ أي: بالرِّيحِ الطَّيِّبةِ ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾؛ أي: جاءتِ الفُلكَ، أو: جاءَتِ الرِّيحَ الطَّيِّبةَ ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، يُقالُ: ريحٌ عاصِفٌ وعاصِفةٌ، ومُعْصِفٌ ومُعْصِفةٌ؛ أي: شديدةٌ، والتَّذكيرُ لأنَّ لفظَ الرِّيحِ مُذكَّرٌ.

والعَصْفُ: السُّرعةُ، وناقةٌ عاصِفٌ وعصُوفٌ؛ أي: سريعةٌ، والمُرادُ: ريحٌ ذاتُ عُصوفٍ، كما يُقالُ: لابِنٌ وتامِرٌ.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ المَوجُ: ما ارتفَعَ منَ الماءِ.

﴿وَظَنُّوا﴾؛ أي: غلَبَ على قُلوبِهم ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾؛ أي: أشرَفُوا على الهلاكِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: تركُوا الشِّركَ، وبيَّنَ بهذا أنَّ الخلقَ جُبِلُوا على الرُّجوعِ إلى الله في الشَّدائدِ.

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾؛ أي: قائلين: لَئِنْ أنجَيْتَنا ﴿مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: من هذه الرِّيحِ، أو: من هذه الشِّدّةِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنِعَمِكَ.

* * *

(٢٣) - ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾؛ أي: خلَّصَهم ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: لمَّا أنجاهُم بغَوا، والبغيُ: الفَسادُ والشِّركُ، وأصلُه الطَّلبُ؛ أي: يطلُبونَ الاستِعلاءَ بالفسادِ.

﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالتَّكذيبِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾؛ أي: وَبالُه عائدٌ إليكم، ثمَّ ابتدأَ وقالَ:

﴿متاعُ الحياةِ الدُّنيا﴾؛ أي: هو متاعُ الحياةِ الدُّنيا ولا بقاءَ له.

وقيلَ: أي: بغيُكم الذي يعودُ وَبالُه إليكم متاعُ الحياةِ الدُّنيا؛ أي: شيءٌ تتمتَّعُونَ به لا بقاءَ له.

وقُرِئَ: ﴿مَّتَٰعَ﴾ بالنَّصبِ[1]؛ أي: تُـمَتَّعونَ متاعَ الحياةِ الدُّنيا، أو هو نصبٌ على الظَّرفِ؛ أي: في متاعِ الحياةِ الدُّنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ أي: في الآخرةِ ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ أي: نُجازيكُم.

* * *

(١) هي قراءة حفص عن عاصم، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٢٤) - ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ المثَلُ: قولٌ يُشبَّه فيه حالُ الثّاني بالأوّلِ؛ أي: القولُ في تشبيهِ حالِ الحياةِ الدُّنيا كالقولِ في ماءٍ[1] أنزَلْناه منَ السَّماءِ.

وقيلَ: أي: صفةُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزَلْناه منَ السماءِ؛ يعني: المطرَ.

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: اختلَطَ بسببِ الماءِ الذي أنزَلْنا نباتُ الأرضِ.

والاختِلاطُ: تداخلُ الشَّيءِ بعضِه في بعضٍ.

﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ منَ الحبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ منَ الكلأِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾؛ أي: حُسنَها وزينتَها، والزُّخرُفُ: كمالُ حسنِ الشَّيءِ.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾؛ أي: تزيَّنَتْ، فأُدغِمَتِ التّاءُ في الزّايِ، وسُكِّنت الزّايُ، واجتُلِبَتْ ألفُ الوصلِ؛ أي: تزيَّنت بالحبوبِ والثِّمارِ والأزهارِ.

وقُرِئَ: (وأَزْيَنَتْ)[2] على وزنِ: «أَفعِلَتْ»؛ أي: أتتْ بزينتِها، كما يُقالُ: «أَحمَدَ الرَّجلُ» و«أَذَمَّ»؛ أي: أتى بما يُحمَدُ ويُذَمُّ عليه.

---

(١) في (أ): «كالقول فيما».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن مالك بن دينار وجماعة، و«المحتسب» (٢/ ٣١١) عن الأعرج ونصر بن عاصم وأبي العالية والحسن بخلاف وقتادة وأبي رجاء بخلاف والشعبي وعيسى الثقفي.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾؛ أي: أهلُ تلك الأرضِ ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾؛ أي: على حصادِها والانتفاعِ بها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾؛ أي: عذابُنا أو أمرُنا بهلاكِها.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ الحصيدُ: المحصودُ؛ يعني: الأرضَ التي حُصِدَ نبتُها.

وقيلَ: المرادُ بالحصيدِ النّباتُ، قال أبو عُبيدةُ: الحصيدُ: المُستَأصَلُ[1].

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: كأنْ لم تكُنْ، من قولِهم: غنيَ القومُ بالمكانِ؛ أي: أقاموا به، وعلى هذا فالمُرادُ به النّباتُ والغَلّةُ.

وقيلَ: أرادَ: كأنْ لم تكُنْ عامرةً بالأمسِ، وعلى هذا فالمُرادُ بالحصيدِ الأرضُ.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: كما بيَّنّا هذا المثلَ نُبيِّنُ آياتِ القرآنِ.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لمّا ذكرَ وَصْفَ هذه الدّارِ ـ وهي دارُ الدُّنيا ـ وَصَفَ الآخرةَ فقال: إنَّ الله لا يدعوكم إلى جمعِ الدُّنيا، بل يدعوكم إلى الطّاعةِ لتصيروا إلى دارِ السَّلامِ.

﴿يَدْعُوٓا۟﴾؛ أي: بواسطةِ الرُّسلِ ﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ أي: الجنّةِ.

ثمَّ قيلَ: السَّلامُ اسمٌ من أسماءِ الله؛ لأنّه سلِمَ من الآفاتِ والتَّغيُّرِ، أو لأنّه ذو السِّلمِ؛ أي: يملكُ السَّلامَ الذي هو التَّخليصُ منَ المكارِهِ، وعلى هذا فهو من بابِ حذفِ المُضافِ؛ أي: دارُ ذي السِّلمِ.

وقيلَ: يدعو إلى دارِ السَّلامةِ، فالسَّلامُ والسَّلامةُ بمعنًى، كالرَّضاعِ والرَّضاعةِ.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٧)، و(٢/ ٣٦).

وقيلَ: تُسمَّى الجنّةُ دارَ السَّلامِ لأنَّ أهلَها ينالون منَ الله التَّحيةَ والسَّلامَ، وكذلك منَ الملائكةِ.

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ الدَّعوةُ عامّةٌ، والهدايةُ خاصّةٌ.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: دينٍ قويمٍ؛ أي: دينِ الإسلامِ.

* * *

(٢٦) - ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قولُه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ في الخبرِ: «﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ العملَ في الدُّنيا، ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنّةُ»[1]، والحسنَى: تأنيثُ الأحسَنِ.

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيفُ الحسناتِ، الواحدةُ بعشرٍ إلى سبعِ مئةٍ.

وقيلَ: الزِّيادةُ: المغفِرةُ والرِّضوانُ.

وقيلَ: الزِّيادةُ الرُّؤيةُ، وفي الخبرِ: «الحسنَى الجنّةُ، والزِّيادةُ النَّظرُ إلى وجهِ الله الكريمِ»[2].

---

(١) رواه ابن عرفة في «جزئه» (٢٣)، والدارقطني في «الرؤية» (٥٧)، والثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٠٠)، من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٥٣٧): «هذا حديث منكر، انفرد به سلم بن سالم البلخي وهو ضعيف باتفاق، عن نوح الجامع شيخ مرو، وليس بثقة بل تركوه».

(٢) هذا تتمة حديث أنس رضي الله عنه المتقدم. وقد صح عن النبي ﷺ أن الزيادة في الآية هي الرؤية، على ما رواه مسلم (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار. قال فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» =

وهـذا قـولُ أبـي بكـرٍ، وحُذَيفـةَ، وأبـي موسـى، وصُهَيـبٍ، وأُبـيٍّ بـنِ كعبٍ، وعبـادةَ بـنِ الصّامـتِ، وابـنِ عبّـاسٍ في روايـةٍ[1].

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾؛ أي: لا يغشى، يُقالُ: رهِقَه كذا؛ أي: غشِيَه، والرَّهَقُ: لَحاقُ الأمرِ، وراهَقَ الغلامُ؛ أي: لحقَ حالَ الرِّجالِ.

﴿قَتَرٌ﴾؛ أي: غُبرةٌ؛ يعني: سوادَ الوجهِ منَ الكآبةِ والحزنِ.

وقيلَ: يُريدُ: دخانَ جهنَّمَ.

﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: مذلَّةٌ كما يُصيبُ أهلَ النّارِ.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: عمِلُوا المعاصيَ.

وقيلَ: الشِّركَ، كقولِه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [النساء: ١٨].

﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: فلهم جزاءُ السَّيِّئةِ بمثلِها.

وقيلَ: أي: جزاءُ سيِّئةٍ منهم بمثلِها، فيُضمَرُ «منهم»، ويرتفعُ «الجزاءُ» بالباءِ في ﴿بِمِثْلِهَا﴾، كما تقولُ: «رأيتُ القومَ صائمٌ وقائمٌ»؛ أي: منهم صائمٌ وقائمٌ.

= وزاد في رواية: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾.

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٤/ ٢٠١)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ١٧١)، و«التيسير» لأبي حفص النسفي (٨/ ٥٣)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٥ ـ ١٦٢) عن أبي بكر وعامر بن سعد وحذيفة وأبي موسى الأشعري وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن أبي ليلى والحسن وقتادة وغيرهم.

وقال البصريُّونَ: الباءُ زائدةٌ؛ أي: جزاءُ سيِّئةٍ مثلُها، كقولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠][1]، ويُقالُ: «بحَسْبِكَ كذا»؛ أي: حَسْبُكَ، وعلى هذا فلا بدَّ من إضمارٍ أيضًا؛ أي: لهم جزاءُ سيِّئةٍ مثلُها، وجزاءُ سيِّئةٍ منهم مثلُها.

ثمَّ أمدُ العقابِ يزيدُ على أمدِ الذَّنبِ لا سيَّما في حقِّ الكافرِ، فمعنَى هذه المثليَّةِ: أنَّ ذلك الجزاءَ ممَّا يُعَدُّ مماثلًا لذنوبِهم؛ أي: هم غيرُ مظلومينَ، وفعلُ الرَّبِّ غيرُ مُعلَّلٍ بعلَّةٍ.

﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾؛ أي: هَوانٌ وخِزْيٌ ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾؛ أي: ما لهم من عذابِ الله من مانعٍ ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾؛ أي: أُلبِسَتْ ﴿وجوههم قِطْعًا﴾ بسكونِ الطّاءِ؛ أي: بعضًا منَ اللَّيلِ، والقِطْعُ: اسمُ ما قُطِعَ فسقَطَ.

وقال ابنُ السِّكِّيتِ: القِطْعُ: طائفةٌ منَ اللَّيلِ[2].

وقُرِئَ: ﴿قِطَعًا﴾ بفتحِ الطّاءِ[3]، وهي جمعُ «قِطعةٍ»، وعلى هذا ﴿مُظۡلِمًا﴾ حالٌ من اللَّيلِ؛ أي: أُغشِيَتْ وجوهُهم قِطَعًا منَ اللَّيلِ في حالِ ظُلمتِه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الصُّحبةُ تُشيرُ إلى الخلودِ.

* * *

---

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٧)، وابن جني في «سر صناعة الإعراب» (١/ ١٤٩). ورد هذا الوجه أبو هلال العسكري في «الوجوه والنظائر» (ص: ٢٥٩) وينظر كلامه ثمة.

(٢) انظر: «إصلاح المنطق» (ص: ١٥).

(٣) قرأ ابن كثير والكسائيُّ بسكون الطاء، والباقون بفتح الطَّاء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ الحشرُ: الجمعُ من كلِّ أَوْبٍ إلى الموقفِ.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ ﴾؛ أي: اثبُتوا أنتم وآلهتُكم ولا تفترِقُوا، والزَمُوا شركاءَكم اليومَ كما عبدتُموهم في الدُّنيا، وانظُروا هل ينفعونَكم؟

عنَى بالشُّركاءِ: الشَّياطينَ والملائكةَ.

وقيلَ: الأصنامَ أيضًا، فيُنفَخُ فيها الرُّوحُ وتجري بينَهم هذه المُجاوزةُ.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾؛ أي: نُزَيِّلُ، وهو مُنتَظَرٌ، فهو كائنٌ في علمِ الله، ومعنَى زَيَّلْنا: فرَّقْنا، يُقالُ: زِلْتُ الشَّيءَ عن مكانِه أَزيلُه؛ أي: فرَّقتُ، والمصدرُ: الزَّيلُ، والتَّزييلُ للكثرةِ، وقُرِئَ: (فزايَلْنا)[١].

وهذا حين يتبرَّأُ كلُّ معبودٍ من دونِ الله ممَّن عبدَه، فالملائكةُ في مقامِهم، والشَّياطينُ في النَّارِ، وعبَدَتُها في درجةٍ أُخرى منَ النَّارِ، والأصنامُ التي نُفِخَ فيها الرُّوحُ تعودُ ترابًا، أو يَفعلُ الله بها ما يشاءُ.

﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس: ٢٨] فيُنكِرُونَ عبادتَهم.

قال مجاهدٌ: يُنطِقُ الله الأوثانَ فتقولُ: ما كنَّا نشعرُ بأنَّكم إيَّانا تعبُدون، وما أمرناكُم بعبادتِنا[٢].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٦٢). ونسبت لابن أبي عبلة في «الكامل في القراءات» لليشكري (ص: ٥٦٧).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٨٣)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧١)، وابن =

وإنْ حملَ الشُّركاءُ على الشَّياطينِ فالمعنى: أنَّهم يقولون ذلك دَهَشًا، أو يقولونَه كذبًا منهم احتيالًا للخَلاصِ، وقد يجري مثلُ هذا غدًا وإن صارتِ المعارفُ ضروريّةً.

***

(٣٠) ـ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾؛ أي: تختبرُ وتعرفُ جزاءَ ما كسبَتْ.

وقُرِئَ: ﴿هُنالك تتلو﴾[(١)]؛ أي: تقرأُ كلُّ نفسٍ كتابَها الذي كُتِبَ عليها، أو: تَتْبعُ كلُّ نفسٍ ما[(٢)] قدَّمت.

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: رجَعُوا إلى الله بعد ذهابِهم عن أمرِه ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾؛ أي: الذي يتولَّى أمرَهم، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ من صفةِ الله تعالى، وهو كوصفِه بالعدلِ؛ أي: كلُّ عدلٍ وحقٍّ فمِن قِبَلِه.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: الذي يُجازيهم بالحقِّ[(٣)].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: يَضِلُّ.

= أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٤٨).

(١) هي قراءة حمزة والكسائي، وباقي السبعة بالباء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٢) في النسختين: «بما»، ولا يستقيم، والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ١٧٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٧)، و«تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٦/ ٣٧)، و«معاني القراءات» للأزهري (٢/ ٤٤)، و«الحجة» للفارسي (٤/ ٢٧٢)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٣٣١)، و«الهداية» لمكي (٥/ ٣٢٥٩)، و«البسيط» (١١/ ١٨٥).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ١٨٦).

(٣١) - ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مساقُ الكلامِ الرَّدُّ على المشركينَ، فقرَّرَ عليهم الحجَّةَ بهذا، فمَن اعترفَ بأنَّ الله هو الخالقُ الرّازقُ فالحجّةُ ظاهرةٌ عليه، ومَن لم يعترِفْ فيُقرَّرُ عليه أنَّ هذه السَّماواتِ والأرضَ لا بدَّ لها من خالقٍ، ولا ينبَغي أن يتمارَى في هذا عادلٌ، وهو قريبٌ من مرتبةِ الضَّرورةِ، فكأنَّه قال: قرِّرْ عليهم هذه الحجَّةَ: مَن قَدَرَ على هذا قَدَرَ على الإعادةِ.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ أي: بالمطرِ ﴿وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: بالنَّباتِ.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾؛ أي: خلقَ السَّمعَ والأبصارَ.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾؛ أي: النَّباتَ منَ الأرضِ، والإنسانَ منَ النُّطفةِ، والسُّنبلةَ منَ الحبِّ، والطَّيرَ منَ البيضةِ، والمُؤمنَ منَ الكافرِ.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾؛ أي: النُّطفةَ منَ الإنسانِ، والبيضةَ منَ الطّائرِ، والكافرَ منَ المُؤمنِ.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾؛ أي: الأمورَ.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ لأنَّهم كانوا يعتَقِدونَ أنَّ الخالقَ هو الله، أو: فسيقولون الله إنْ فكَّروا وأنصَفُوا.

﴿فَقُلْ ﴾ لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ من تعجيزِكم إيّاه عن إعادةِ الموتَى.

* * *

(٣٢) ـ ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي: هذا الذي رزقكم وهذا كلُّه فعلُه هو الحقُّ ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الذي تَحِقُّ له الإلهيَّةُ.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؛ أي: فما بعد عبادتِه إذا عبدتُم غيرَه إلّا الضَّلالُ عن الحقِّ ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ أي: كيف تُصرَفُ عقولُكم إلى عبادةِ ما لا يَرزُقُ ولا يُحيي.

* * *

(٣٣) ـ ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾؛ أي: مثلَ أفعالِـهم جازاهم ربُّك، فالكافُ في ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ في محلِّ النَّصبِ؛ أي: حقَّت الكلمةُ مثلَ ذلك الصَّرفِ.

﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: وعدُ ربِّك بأنَّه يُعذِّبُ الكفّارَ.

نزلَتْ في قومٍ علِمَ الله أنَّهم لا يُؤمنون.

وقيلَ: نزلَ هذا في الذين قُتِلُوا يومَ بدرٍ.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾؛ أي: كذَّبوا وتمرَّدوا في الكفرِ.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يُصدِّقون، وفيه إضمارٌ؛ أي: بأنَّهم، أو: لأنَّهم.

* * *

(٣٤) ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾؛ أي: هل في آلهتِكم ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ والله قادرٌ على ابتداءِ الخلقِ، إمَّا تسليمًا من جهتِهم، أو بتقريرِ الحجَّةِ الظّاهرةِ عليهم،

وقادرٌ على الإعادةِ لأنَّها كالابتداءِ، فإذا لم يكُنْ في أصنامِكم مَن يقدرُ على هذا ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: تُصرَفونَ عن الحقِّ إلى الباطلِ.

* * *

(٣٥) ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ﴾ يُقالُ: «هداهُ إلى الطَّريقِ» و«للطَّريقِ» بمعنًى واحدٍ؛ أي: هل مِن آلهتِكم مَن يُرشِدُ إلى دينِ الإسلامِ.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ﴾؛ أي: أفمَن يهدي ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ أم الأصنامُ التي لا تهدي أحدًا ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾، وما ذلك إلّا بيدِ الله.

ثمَّ؛ الأصنامُ لا تهتَدي لأنَّها جماداتٌ، وقال مُقاتلٌ: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ هذا الذي يعبدُ الوثنَ(١)، فالهدايةُ لا ترجعُ إلى الوثنِ، وإنَّما ترجعُ إلى عابدِ الوثنِ، والمعنى: أم مَن لا يهدي أحدًا، ثمَّ قال: لكنْ إذا هُدِيَ ذلك العابدُ اهتَدى، فأمَّا الصَّنمُ فلا هدايةَ عندَه ولا درايةَ له.

وقيلَ: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ ترجعُ إلى الصَّنمِ، ويُتصوَّرُ منه أن يهتديَ إن خُلِقَ فيه الحياةُ والهدايةُ.

وقيلَ: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾؛ يعني: رُؤساءَهم وقادتَهم؛ أي: لا يرشُدونَ إلّا أن يُرشَدوا، فالشُّركاءُ هم المتبوعُونَ الذين اتَّخذوا رُؤساءَهم، أو الجنُّ والشَّياطينُ والملائكةُ.

---

(١) انظر: «البسيط» (١١/ ١٩٣).

ثمَّ قيلَ: ﴿أَفَمَن يَهِدِّىٓ﴾ هو اللهُ تعالى؛ لأنَّه الهادي إلى الحقِّ.

وقيلَ: هو محمَّدٌ عليه السَّلامُ، قال الله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ [الشورى: ٥٢].

***

(٣٦) ـ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أرادَ به رُؤساءَهم؛ فإنَّهم لا يتَّبعُونَ إلَّا الظَّنَّ، ولا حجَّةَ معهم، وأمَّا أتْباعُهم فيتَّبعونَهم تقليدًا.

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا يُغني من عذابِ الله، فالحقُّ هو الله تعالى، وقيلَ: الحقُّ هاهُنا: اليقينُ؛ أي: ليس الظَّنُّ كاليقينِ.

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّه لا يُكتَفَى بالظَّنِّ في العقائدِ.

***

(٣٧) ـ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا متَّصلٌ بقولِه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ [يونس: ١٥]؛ فـ﴿أَن﴾ مع ﴿يُفْتَرَىٰ﴾ مصدرٌ؛ أي: ما كان هذا القرآنُ افتراءً من دونِ الله.

وقيلَ: ﴿أَن﴾ بمعنى اللّامِ؛ أي: ما كان هذا القرآنُ ليُفترَى من دونِ الله.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ منَ الكتبِ؛ فإنَّها قد بشَّرت به فجاء مُصدِّقًا لها في تلك البشارةِ وفي الدُّعاءِ إلى التَّوحيدِ والإيمانِ بالقيامةِ.

وقيلَ: أرادَ: وكان القرآنُ تصديقَ الشَّيءِ الذي تقدَّمَه القرآنُ؛ أي: يدلُّ على البعثِ؛ أي: تصديقَ البعثِ الذي القرآنُ بينَ يدَيه.

وقيلَ: ولكنْ تصديقَ النَّبيِّ الذي بينَ يدَي القرآنِ، وهو محمَّدٌ عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم شاهَدُوه قبلَ أنْ سمِعُوا منه القرآنَ.

﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: تبيينَ ما في كتبِ الله المُتقدِّمةِ؛ إذ في القرآنِ تفصيلُ ما أُجمِلَ في التَّوراةِ والإنجيلِ من ذكرِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ ووقتِ خروجِه، و﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اسمُ الجنسِ.

وقيلَ: أرادَ بتفصيلِ الكتابِ ما بيَّنَ في القرآنِ منَ الأحكامِ، والتَّفصيلُ: التَّبيينُ.

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شكَّ فيه؛ أي: في نُزولِه من قِبَلِ الله تعالى.

* * *

(٣٨) ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ هذا احتجاجٌ بعد احتجاجٍ، فالآيةُ الأولى دلَّتْ على كونِ القرآنِ من عندِ الله لأنَّه مُصدِّقُ الذي بين يدَيه منَ الكتبِ وموافقٌ لها من غيرِ أن يتعلَّمَ محمَّدٌ عليه السَّلامُ عن أحدٍ، وهذه الآيةُ إلزامُ أن يأتُوا بسورةٍ مثلِه إنْ كان مُفترًى، والتَّقديرُ: بل أيقولونَ افتراه؟

وقيلَ: تقديرُه: هذا كتابٌ تصديقُ الذي بينَ يدَيه وتفصيلُ الكتابِ، أفتعترفون بهذا أم تقولونَ: افتراه؟ فإنَّ لفظَ «أم» يقتَضي استفهامًا تقدَّمَ.

﴿مِّثۡلِهِۦ﴾؛ أي: مثلِ القرآنِ.

﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من سائرِ خلقِه، ومنَ الأصنامِ.

* * *

(٣٩) ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾؛ أي: كذَّبوا بالقرآنِ لـمَّا لـم يعلَمُوه.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾؛ أي: ولـم يأتِهم حقيقةُ ما يَؤُولُ إليه عاقبةُ التَّكذيبِ من نزولِ العذابِ بهم إذ كذَّبوا بما في القرآنِ من ذكرِ البعثِ والجنّةِ والنّارِ ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾؛ أي: حقيقةُ ما وُعِدُوا في الكتابِ.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: بالقيامةِ.

وقيلَ: بل كذَّبوا بما لـم يعلَمُوه بالضَّرورةِ.

***

(٤٠) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾؛ أي: من أهلِ مكّةَ.

وقيلَ: من أهلِ الكتابِ.

وقيلَ: من جميعِ الكفّارِ.

﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾؛ أي: بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ؛ وقيلَ: بالقرآنِ.

وقيلَ: ومنهم مَن يُؤمنُ به بقلبِه، ولكنَّه يُعانِدُ بلسانِه، ومنهم مَن لا يُؤمِنُ به أصلًا.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: المُكذِّبين، وهذا تهديدٌ لهم.

***

(٤١) ـ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قولُـه: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي﴾؛ أي: لـي عمَلـي فـي التَّبليـغِ والإنـذارِ والطّاعـةِ لله تعالـى ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ الذي تُؤثِرُونـه ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾؛ أي: لا يُؤاخَـذُ أحـدٌ منّـا بذنـبِ الآخـرِ، وهـذه الآيـةُ منسـوخةٌ بآيـةِ الجهادِ.

* * *

(٤٢) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: يستمعون استهزاءً وتكذيبًا فلا ينتفعون باستماعِهم لبُغضِهم وشدّةِ عداوتِهم.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾؛ أي: لا تقدرُ على هدايتِهم وإسماعِهم إسماعًا ينتفعون به، كما لا تقدرُ على إسماعِ الصُّمِّ وتفهيمِهم، لا سيَّما مع عدمِ العقلِ.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾.

قولُـه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ينظُـرونَ مُتعجِّبيـن منـك، أو ينظُـرونَ ولا يـرَونَ فـي أحوالِـكَ تناقُضًـا وفـي أقوالِـكَ كذبًا، ولكـنْ عُدِمُـوا التَّأمُّـلَ فكانُوا لا يُبصِـرون.

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾؛ أي: إنَّ الله أعمـى قلوبَهـم، والغـرضُ: أنَّك لا تقدرُ على خلـقِ الإيمانِ فـي قلوبِهم.

* * *

(٤٤) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بيَّنَ أنَّ تقديرَ الشَّقاءِ عليهم وسَلْبَ سمعِ القلبِ وبصرِه ليس ظُلْمًا منه؛ لأنَّه تصرُّفٌ منه في ملكِه بما شاء ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إذا خالفُوا أمرَ خالقِهم، وقضاءُ الله وتقديرُه: علمُه وإرادتُه وخبرُه، ولا يكونُ ذلك حجَّةً لهم.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: كأنَّهم لم يلبثُوا، فخُفِّفَ؛ أي: كأنَّهم لم يلبثُوا في قُبورِهم إلا ساعةً منَ النَّهارِ من هَولِ ما يرَونَ من أمرِ البعثِ، كما قال: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

وقيلَ: إنَّما قصُرَتْ مدّةُ لُبثِهم في الدُّنيا لا مُدّةُ كونِهم في القبرِ.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يعرفُ بعضُهم بعضًا كما عرفوا في الدُّنيا، ثمَّ تنقطعُ المعرفةُ فلا يعرفُ أحدٌ أحدًا من شدّةِ الأهوالِ، كما قال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]، وإنَّما يجري ما ذكرنا في حالتَين، والتَّعارُفُ سببُ التَّوبيخِ والافتِضاحِ، فيقولُ كلُّ واحدٍ لصاحبِه: أنتَ حمَلْتَني على الكفرِ، وليس تعارُفَ شفقةٍ وعطفٍ.

وقيلَ: يبقَى تعارُفُ التَّوبيخِ، فأمّا قولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ معناه: لا يسألُه سؤالَ رحمةٍ وشفقةٍ.

وقيلَ: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾؛ أي: يتساءَلون: كم لبثْتُم؟ كما قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧].

و﴿يومَ﴾ نصبٌ على الظَّرفِ؛ أي: تعارَفُوا(١) في ذلك اليومِ.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: خسِرُوا ثوابَ الجنّةِ.

وقيلَ: قد خسِرُوا بلقاءِ الله؛ أي: في حالِ لقاءِ الله؛ لأنَّ الخسرانَ إنَّما كان في تلك الحالةِ، وهي الحالةُ التي لا يُرجَى فيها إقالةٌ، ولا تنفعُ توبةٌ.

* * *

(٤٦) ـ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾؛ أي: لو حلَّ بهم بعضُ الوعيدِ كما اتَّفقَ يومَ بدرٍ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ ذلك، فلا فوتَ علينا، فنُعذِّبهم في الآخرةِ.

والمقصودُ: إن لـم ننتقِمْ منهم عاجلًا انتقَمْنا منهم آجِلًا.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من مُحاربتِك وتكذيبِك، فيشهدُ عليهم غدًا بما فعلُوا.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم﴾؛ أي: في القيامةِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: يُنكِرُ الكفّارُ غدًا مجيءَ الرُّسلِ إليهم، فيُؤتَى بالرَّسولِ فيقولُ: قد أبلَغْتُهم الرِّسالةَ، فحينَئذٍ يُقضَى عليهم بالعذابِ، ودليلُه قولُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣](٢).

---

(١) في (أ): «يتعارفوا».

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢١٧)، وذكر الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٤٣٧) =

وقيلَ: لكلِّ أمَّةٍ رسولٌ، فإذا جاءَ رسولُهم قُضِيَ بينَهم في الدُّنيا؛ أي: مَن آمنَ فازَ، ومَن لم يُؤمِن استحقَّ العقابَ.

والقِسطُ: العدلُ، ومنه: العقوبةُ في الدُّنيا والآخرةِ للكفّارِ.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لأنَّ ما فعلَه الرَّبُّ تعالى فهو عدلٌ منه.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: لِفَرْطِ إنكارِهم يستعجِلون العذابَ.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: متى العقابُ؟ أو: متى القيامةُ؟ وبيَّنَ أنَّ كلَّ أمَّةٍ كذَّبت رسولَها قالت: متى هذا الوعدُ؟

* * *

(٤٩) ـ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾؛ أي: ليس العذابُ إليَّ فلا أملكُ منَ الله شيئًا لنفسي ولا لغيري، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ أي: لعذابِهم وقتٌ مضروبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، أو في

= في هذه الآية ثلاثة أوجه فقال: «أحدها: فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم ليكون رسولهم شاهداً عليهم، قاله مجاهد.

الثاني: فإذا جاء رسولهم يوم القيامة وقد كذبوه في الدنيا قضى الله تعالى بينهم وبين رسولهم في الآخرة، قاله الكلبي. الثالث: فإذا جاء رسولهم في الدنيا واعيًا بعد الإذن له في الدعاء عليهم قضى الله بينهم بتعجيل الانتقام منهم، قاله الحسن».

علـمِ الله وإرادتِـه وخبـرِه، فـإذا جـاءَ ذلك الوقـتُ كان مـا قضى.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ أي: لا يُمكِنُهم أن يستأخِرُوا باقينَ في الدُّنيا ساعةً، ولا أن يستقدِمُوا في المصيرِ إلى الآخرةِ، فانتَظِرُوا ذلك الأجلَ.

* * *

(٥٠) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ هذا جوابُ قولِهم: متى هذا الوعدُ؟ وتسفيهُ آرائِهم في استعجالِ العذابِ؛ أي: إن أتاكُم العذابُ فما نَفْعُكُم فيه ولا ينفعُ الإيمانُ حينئذٍ؟

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أعلِمتُم ﴿بَيَٰتًا﴾؛ أي: باللَّيلِ، وهو منصوبٌ على الوقتِ.

﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا﴾ (ما) استفهامٌ، و(ذا) بمعنى «الذي»؛ أي: ما الذي يستعجِلُ منه المُجرِمون؟

وقيلَ: ﴿مَّاذَا﴾ اسمٌ واحدٌ؛ أي: أيُّ شيءٍ يستعجلُ المُجرِمون؟

وقيلَ: معنى هذا الاستفهامِ: التَّهويلُ والتَّفظيعُ؛ أي: ما أعظمَ ما يستعجِلون به! كما يُقالُ لمن يطلبُ أمرًا تُستَوخَمُ عاقبتُه: ماذا تجني على نفسِكَ؟

﴿مِنْهُ﴾ يرجعُ إلى العذابِ، وقيلَ: إلى الله تعالى.

* * *

(٥١) ـ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾؛ أي: قُل يا محمَّدُ: أثمَّ تُؤمِنون بالعذابِ بعد أن نزلَ بكم؟ أي: أحينَئذٍ إذا ما وقعَ تُؤمنون؟ فدخولُ الألفِ على (ثمَّ) توبيخٌ.

﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾؛ أي: يُقالُ: آلآنَ ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ العذابَ منَ الملائكةِ استهزاءً بهم.

وقيلَ: هو من قولِ الله.

* * *

(٥٢) - ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ أي: يقولُ لهم خزنةُ جهنَّمَ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾؛ أي: الذي لا ينقطعُ ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾؛ أي: جزاءَ كُفرِهم.

* * *

(٥٣) - ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؛ أي: يستخبِرونَك أحقٌّ ما تقولُ منَ الوعدِ والوعيدِ؟

﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾؛ أي: نَعَم وربِّي ﴿إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ أي: لستُم ممَّن يعجزُ عن مُجاراتِه.

* * *

(٥٤) - ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ ﴿ظَلَمَتۡ﴾؛ أي: أشرَكَتْ؛ أي: لو ملَكَ المشركُ جميعَ ما في الأرضِ لبذلَه لدفعِ العذابِ لو قُبِلَ ذلك منه.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾؛ أي: أخفَوها؛ يعني: رُؤساؤُهم؛ أي: أخفَوا ندامتَهم عن أتباعِهم.

ثمَّ هذا قبلَ الإحراقِ بالنّارِ، فإذا وقعوا في النّارِ أَلْهَتْهُم النّارُ عن التَّصنُّعِ، وبدليلِ أنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فبيَّنَ أنَّهم لا يكتُمونَ ما بهم.

وقيلَ: ﴿أسرُّوا﴾؛ أي: أظهَرُوا، والكلمةُ منَ الأضدادِ، ويدلُّ عليه أنَّ الآخرةَ ليست دارَ تجلُّدٍ وتصبُّرٍ.

والنَّدامةُ: الحسرةُ لوقوعِ شيءٍ أو فواتِ شيءٍ، وأصلُها: اللُّزومُ، ومنه: النَّديمُ؛ لأنَّه يُلازِمُ المجلسَ، وفلانٌ نادِمٌ سادِمٌ، والسَّدَمُ: اللَّهَجُ بالشَّيءِ، ونَدِمَ وسدِمَ بالشَّيءِ؛ أي: اهتَمَّ به.

وقيلَ: النَّدمُ مقلوبُ الدَّمَنِ، والدَّمَنُ: اللُّزومُ، ومنه: فلانٌ مُدمِنٌ للخمرِ، والدِّمْنُ: ما اجتمعَ في الدّارِ وتلبَّدَ منَ الأبوالِ والأبعارِ، سُمِّي به للُزومِه، والدِّمْنةُ: الحقدُ اللّازمُ للصَّدرِ.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بينَ الرُّؤساءِ والسَّفِلِ بالعدلِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

* * *

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «ألا» كلمةُ تنبيهٍ تُزادُ في أوَّلِ الكلامِ؛ أي: انتَبِهوا لِمَا أقولُ لكم، إنَّ لله ما في السَّماواتِ والأرضِ، فلا يملكُ أحدٌ يومَ القيامةِ شيئًا فيفتديَ به لو قبلَ الفداءَ؛ إذ له ما في العالَـمِ، وهو القادرُ على إفناءِ السَّماواتِ والأرضِ فتنبَّهوا.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞ﴾ بإحياءِ النّاسِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: المُشركون لا يعلمون.

قولُه: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: يُبقي مَن يشاءُ في الدُّنيا مدّةً ثمَّ يُميتُهم، وهو الذي يُحييهم للحشرِ.

* * *

(٥٧) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني: قُريشًا ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾؛ أي: القرآنُ وما يقولُه محمَّدٌ ﷺ، والموعظةُ: الإنابةُ عمَّا يدعو إلى الصَّلاحِ بطريقِ الرَّغبةِ والرَّهبةِ.

﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: دواءٌ لداءِ الجهلِ، فالقرآنُ يُزيلُ عمى القلبِ.

﴿وَهُدٗى﴾؛ أي: بيانٌ ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: نعمةٌ منَ الله للمُؤمنينَ، وخصَّ المؤمنين لأنَّهم المُنتفِعون بالإيمانِ.

* * *

(٥٨) ـ ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾؛ أي: هذا الشِّفاءُ وهذه الموعظةُ بفضلِ الله، فحُذِفَ الاسمُ وأُبقِيَ خبرُه، فالباءُ خبرٌ لاسمٍ مُضمرٍ، ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ أعادَ حرفَ الجرِّ على الأصلِ، فإنَّ الأصلَ أن تقولَ: «مررتُ بأبيكَ وبأخيكَ»؛ أي: جاءتكُم هذه الموعظةُ وهذا الشِّفاءُ بفضلِ الله عليكم وبرحمتِه، أو بإفضالِ الله، كما أنَّ النَّباتَ يُذكَرُ بلفظِ الإنباتِ.

﴿فَبِذَٰلِكَ﴾؛ أي: فبالقرآنِ فافرَحُوا، أو: بهذا الفضلِ فافرَحُوا.

وقيلَ: معنى الآيةِ: قل يا محمَّدُ لهؤلاءِ الذين همُّهم جمعُ الدُّنيا: بفضلِ الله وبرحمتِه فافرَحُوا لا بالدُّنيا التي تفنَى، فعلى هذا (فضلُ الله): الإسلامُ، و(رحمتُه): القرآنُ.

وقيلَ: (فضلُ الله): القرآنُ، و(رحمتُه): أنْ جعلَكم من أهلِه.

وقيلَ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ إنْ كانوا يُدِلُّون برئاسةِ الدُّنيا ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾؛ أي: بفضلِ الله وبرحمتِه فليفرَحْ كلُّ عاقلٍ.

والفرحُ: لذَّةٌ في القلبِ بإدراكِ المحبوبِ، وقد ذُمَّ الفرحُ في مواضعَ كقولِه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، ولكنَّه مُطلَقٌ، فإذا قُيِّدَ الفرحُ لـم يكُنْ ذمًّا؛ لقولِه: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وهاهُنا قال تباركَ وتعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾؛ أي: بالقرآنِ والإسلامِ فليفرَحُوا، فقُيِّدَ.

وقرأ يعقوبُ: ﴿فلتَفْرَحُوا﴾ بالتّاءِ(١)، وكذا رُوِيَ عن زيدِ بنِ ثابتٍ: ﴿فلتَفْرَحُوا﴾(٢) أي: فلتَفْرَحُوا أيُّها المؤمنونَ.

وقد قال عليه السَّلامُ في بعضِ المشاهدِ: «لتأخُذوا مصافَّكم»(٣)، فقال مُعظَمُ

---

(١) هي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٣٣٣)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٨٥).

(٢) ذكرها الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٤٦٩).

(٣) هـذا الحديث بلفظ: «لتأخذوا مصافكم» قد تناقلته كتب النحو والتفسير والقراءات، منها: «الجمل في النحو» للخليل (ص: ٢٦٧)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٠)، و«اللامات» للزجاجي (ص: ٩٣)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١٥/ ٢٩٥)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٣٣٣)، =

أهلِ العربيّةِ: أمرُ المخاطبِ باللّامِ وإنْ كان جائزًا في الأصلِ فقد صار منسيًّا مرفوضًا مُستغنًى عنه كما أنّه لا يُستعمَلُ الماضي من «يدَعُ» و«يذَرُ».

* * *

(٥٩) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ يخاطبُ كفّارَ مكّةَ: أرأيتُم الذي أنزلَ الله لكم؟ ﴿أَنزَلَ﴾؛ أي: خلقَ كقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]؛ أي: خلقَ، وكلُّ رزقٍ فمُنزَّلٌ منَ السَّماءِ، فيجوزُ أن يُعبَّرَ بالإنزالِ عن الخلقِ.

ووجهُ النَّظمِ: أنَّ القرآنَ شفاءٌ وهدًى، فيجبُ اتِّباعُ أحكامِه، وقد أحلَّ فيه الطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ، فلِمَ تُحرِّمونَ وتُحلِّلون على خلافِ القرآنِ؟!

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ يعني: ما تحكَّموا به منَ البَحِيرةِ والسَّائبةِ.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذه التَّحكُّمات ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: بل على الله ﴿تَفْتَرُونَ﴾.

وقولُه: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ﴾ بعد أن قالَ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ.

* * *

= و«تفسير الثعلبي» (١٤/ ٢٢٦)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٢٣٣)، و«أمالي ابن الشجري» (٢/ ٣٥٤)، و«الإنصاف في مسائل الخلاف» لابن الأنباري (٢/ ٤٢٧).

والذي صح في كتب الحديث المعتبرة هو ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥) وصححه، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه بلفظ: «على مصافكم كما أنتم»، ولا شاهد فيه.

(٦٠) ـ ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ هذا استفهامٌ بمعنَى التَّوبيخِ؛ أي: ما الذي يظُنُّونَ أنَّ الله يفعلُ بهم يومَ القيامةِ؟

وتقديرُ الكلامِ: وما ظَنُّهم بالله؟ فحُذِفَ؛ أي: ينبَغي أن يستَيقِنُوا العذابَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بالإمهالِ.

وقيلَ: أرادَ أهلَ مكّةَ حين جعلَهم في حرمٍ وأمنٍ، كما قالَ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ قيل: لا يُوحِّدونَ، وقيل: لا يشكُرونَ تأخيرَ العذابِ عنهم.

* * *

(٦١) ـ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾؛ أي: إنَّ الله لذو فضلٍ على النّاسِ، أخَّرَ عنهم العذابَ ورزَقَهم وعافاهُم على علمٍ منه بحالِـهم، لا أنّه استترَتْ عليه معاصيهم.

و(ما) للجحدِ؛ أي: لستَ في شأنٍ إلّا والرَّبُّ مُطَّلعٌ عليه.

والشَّأنُ: الـخَطْبُ، وجمعُه: شؤونٌ؛ أي: ما تكونُ في خَطبٍ.

ويجوزُ أن يكونَ مصدرًا، فيكونُ بمعنَى القصدِ؛ أي: ما تكونُ في قصدٍ.

﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾؛ أي: ما تتلو منَ القرآنِ، فأعادَ تفخيمًا كقولِه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

وقيلَ: أي: وما تتلو من جميعِه من شيءٍ، وبعضُ القرآنِ يُسمَّى قرآنًا أيضًا، وقد جرَى ذكرُ القرآنِ في قولِه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧].

وقيلَ: أي: وما تتلو من قرآنٍ منَ اللهِ؛ أي: مُنزَّلٍ[١] منَ اللهِ.

وقيلَ: ترجعُ الكنايةُ إلى الشَّأنِ؛ أي: وما تتلو منَ الشَّأنِ من قرآنٍ؛ أي: ما تتلو فيما تعملُ من شأنِكَ من قرآنٍ، قالَه الزَّجَّاجُ[٢].

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ خاطبَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ والأمَّةَ، وقولُه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ خطابٌ له والمُرادُ هو وأمَّتُه، وقد يُخاطَبُ الرَّئيسُ والمُرادُ هو وأتباعُه.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾؛ أي: بعلمِه، ونظيرُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: حينَ تدخُلونَ فيه، يُقالُ: أفاضَ في الحديثِ؛ أي: اندفعَ.

﴿فِيهِ﴾؛ أي: في العملِ، وقيلَ: في القرآنِ.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾؛ أي: وما يبعُدُ وما يغيبُ، يُقالُ: كلأٌ عازبٌ؛ أي: بعيدُ المطلَبِ، وعزُبَ الشَّيءُ عن علمي - أي: ذهبَ - يعزُبُ، مثلَ: نصرَ ينصُرُ، ويعزِبُ، مثلَ: ضرَبَ يضرِبُ، وهو قراءةٌ[٣].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٦)، و«البسيط» (١١/ ٢٤٠) وعنه نقل المصنف.

(٢) في (ف): «أي من منزل».

(٣) قرأ الكسائي بكسر الزاي، والباقون بضمها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: من وزنِ ذرَّةٍ، والمِثقالُ والمِثقَلُ واحدٌ، والذَّرُّ: صغارُ النَّملِ، واحدُها: ذرَّةٌ، وقيلَ: الذَّرَّةُ: ما يتراءَى من أجزاءِ الـهَباءِ.

﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ بالنَّصبِ على إرادةِ الخفضِ إتْباعًا للمثقالِ والذَّرّةِ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ فيهما[1]؛ أي: لا يعزُبُ مثقالُ ذرّةٍ ولا أصغرُ ولا أكبرُ منه؛ فإنَّ «من» يُمكِنُ إلغاؤُه في الكلامِ، تقولُ: «ما أتاني من أحدٍ عاقلٍ وعاقلٌ» و﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] و﴿غيرِه﴾[2].

قال أبو عليٍّ: وإنْ عطفتَ ﴿وَلَآ أَصْغَرَ﴾ على ﴿ذَرَّةٍ﴾ فلا يجوزُ إلّا الجرُّ؛ إذ لا موضعَ للذرَّةِ غيرُ لفظِها، وإنْ عطفتَ على المثقالِ فيجوزُ الجرُّ والرَّفعُ حملًا على الموضعِ، ومثلُ الحملِ على الموضعِ قولُ القائلِ:

فلسنا بالجبالِ ولا الحديدا[3]

---

(١) قرأ بها حمزة، والباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

(٢) بالكسر قرأ الكسائي والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٤)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٣) عجز بيتٍ صدره:

معاويَ إننا بشرٌ فأسجِحْ

نسب لعقيبة الأسدي في «الجمل في النحو» (ص: ١٠١)، و«الكتاب» (١/ ٦٧).

وقال ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (٦/ ٢٣٧): «كذا رواه سيبويه على النصب، وزعم أن إعرابه على معنى الخبر الذي في «ليس»، وإنما قاله الشاعر على الخفض، والشعر كله مخفوض، فما كان يضطره أن ينصب هذا البيت ويحتال على إعرابه بهذه الحيلة الضعيفة».

وقال البطليوسي في «الحلل»: «وزعم من احتج لسيبويه: أن هذا البيت من شعر منسوب لعبد الله بن الزبير الأسدي، ويقال: إنه للكميت بن معروف الأسدي ـ وذكر القصيدة ـ وليس ينكر أن يكون البيت من الشعرين جميعاً؛ لأن الشعراء قد يستعير بعضهم كلام...». وانظر: «خزانة الأدب» (٢/ ٢٦٠) وما بعدها.

وإنْ عطفتَ على المثقالِ أو الذرّةِ فهو حرفُ جرٍّ لكنَّكَ تنصبُه لأنَّه لا ينصرفُ[١].

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في اللَّوحِ المحفوظِ.

وقيلَ: إلّا وهو مُثبَتٌ عند الله على أيدي ملائكتِه بالكتابِ الذي كتبَتْه الملائكةُ.

وقال الجُرْجانيُّ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى واوِ النَّسَقِ؛ أي: وهو في كتابٍ مُبينٍ؛ لأنَّك إذا قلتَ: «ما يغيبُ عنّي زيدٌ إلّا في بيتِه» فالغيبةُ في البيتِ كائنةٌ ممكنةٌ[٢]، فلو كانَ الاستثناءُ لوجبَ أن يعزُبَ عنه شيءٌ، وهذا محالٌ، فإذاً تمَّ الكلامُ عند قولِه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ [يونس: ٦١]، ثمَّ قال: وهو في كتابٍ مُبينٍ، وهو كقولِه: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠]؛ أي: ومَن ظلمَ، وقولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ أي: والذين ظلَمُوا، فـ﴿إِلَّا﴾ بمعنَى واوِ النَّسقِ، وأُضمِرَ «هو» بعدَه كقولِه: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]؛ أي: هي حِطّةٌ، وقولِه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾؛ أي: هم ثلاثةٌ، ونظيرُ ما نحنُ فيه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ أي: وهو في كتابٍ مُبينٍ[٣].

وقال الزَّجَّاجُ: (ولا أصغرُ ولا أكبرُ) رفعٌ على الابتداءِ؛ أي: ولا أصغرُ ولا أكبرُ إلّا في كتابٍ مُبينٍ، فقولُه: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ خبرُ المُبتدأ[٤].

---

(١) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

(٢) في «البسيط»: «فالغيبة واجبة بهذا الحال»، وفي «غرائب التفسير» للكرماني: «فالغيبة ثابتة».

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (١١/ ٢٤٥) عن الجرجاني، وذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ٤٨٨) بنحوه مختصراً دون عزو.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٦).

ثمَّ ما في الكتابِ فهو ممَّا اندرجَ في علمِ الله[١]. فهذا يُغني عمَّا ذكرَه الجرجانيُّ، ولكنَّ مَن قرأ ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ﴾ بالنَّصبِ فلا بدَّ له ممّا ذكرَه الجرجانيُّ[٢].

* * *

(٦٢) ـ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ وجهُ النَّظمِ: لا يخفَى على الله استِهزاؤُهم بكَ، ونحن نُجازيهم يومَ القيامةِ الذي إنَّما يأمَنُ فيه[٣] أولياءُ الله.

والأولياءُ: جمعُ الولي، وهو الذي تولَّى الله أمرَه وهدايتَه.

﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من عذابِ الله ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على فواتِ ثوابِ الله.

* * *

(٦٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ هذا صفةُ أولياءِ الله.

وقيلَ: هو ابتداءٌ وخبرُه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾.

﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: الشِّركَ والمعاصيَ.

وقيلَ: (كانوا) صلةٌ؛ أي: وهم يتَّقونَ، كقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

* * *

---

(١) قوله: «ثم ما في الكتاب فهو...» أي: على ما ذهب إليه الزجاج.

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (١١/ ٢٤٧).

(٣) في (أ): «يأمن به».

(٦٤) - ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قولُه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ رَوى أبو الدَّرداءِ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في هذه الآيةِ: «هي الرُّؤيا الصَّالحةُ يراها المسلمُ أو تُرى له»(١).

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: الجنَّةُ.

وقيلَ: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تأتيهم ملائكةُ الرَّحمةِ عند قَبضِ الرُّوحِ بالبُشرى، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ إذا خرجَتِ الرُّوحُ تُبشَّرُ تلك الرُّوحُ برضوانِ الله.

وقيلَ: هو ما بشَّرَ به في القرآنِ منَ الجنَّةِ والثَّوابِ إذ قال: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ [التوبة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا خُلفَ لمواعيدِه، وذلك لأنَّ مواعيدَه بكلماتِه.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: ما يصيرُ إليه أولياؤُه، فهو الفوزُ العظيمُ.

* * *

(٦٥) - ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾؛ أي: إنكارُهم وقولُهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨]، وهذا افتراءٌ؛ أي: لا تَعْبأْ بهم؛ فإنَّك إنْ بالَيتَ بقولِهم أحزَنَك ذلك، وهذا كقولِك: «لا أرينَّكَ هاهُنا»؛ أي: لا تكُنْ هاهُنا، فإنَّ مَن كان هاهُنا رأيتَه.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ هذا ابتداءُ خبرٍ منَ الله؛ أي: إنَّ الغلَبةَ لله، وهو ناصرُك،

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٧٣) وقال: حديث حسن. ورواه الترمذي أيضاً (٢٢٧٥)، وابن ماجه (٣٨٩٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

وقولُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] لا يُناقِضُ هذه الآيةَ؛ لأنَّ العزَّةَ التي للرَّسولِ عليه السَّلامُ وللمُؤمنينَ لله تعالى.

* * *

(٦٦) ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يحكمُ فيهم بما يُريدُ.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ (ما) للنَّفيِ؛ أي: لا يتَّبعونَ شركاءَ على الحقيقةِ، بل يظنُّونَ أنَّها تشفعُ أو تنفعُ.

وقيلَ: (ما) استفهامٌ؛ أي: أيَّ شيءٍ يتَّبعُ الذين يدعُونَ من دونِ الله شركاءَ؛ تقبيحًا لفعلِهم، ثمَّ أجابَ فقال:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: يكذِبُون.

* * *

(٦٧) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ بيَّنَ أنَّ الواجبَ عبادةُ مَن يقدرُ على خلقِ اللَّيلِ والنَّهارِ، لا عبادةُ مَن لا يقدرُ على شيءٍ.

﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾؛ أي: مع أزواجِكم وأولادِكم ليزولَ التَّعبُ والكلالُ بالسُّكونِ فيه.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتهتَدوا به في حوائجِكم، والمُبصِرُ: الذي يُبصِرُ، والنَّهارُ يُبصَرُ فيه، وقال: ﴿مُبْصِرًا﴾ تجوُّزًا وتوسُّعًا.

وقال قُطربٌ: يُقالُ: «أظلَمَ اللَّيلُ»؛ أي: صارَ ذا ظُلمةٍ، و«أضاءَ النَّهارُ وأبصرَ»؛ أي: صارَ ذا ضياءٍ وبصرٍ(١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: سماعَ اعتبارٍ.

***

(٦٨ ـ ٧٠) ـ ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾؛ أي: زعمَ المُشركون أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وتارةً قالوا: الأصنامُ بناتُ الله، وقالت اليهودُ: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقالت النَّصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، فهذا تعجيبٌ من قبيحِ قالَتِهم.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهًا وتعظيمًا له عن ذلك ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن أن يكونَ له ولدٌ وصاحبةٌ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾؛ أي: قل لهم يا محمَّدُ: ما عندكُم من حجّةٍ ﴿بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من إثباتِ الولدِ له، والولدُ يقتَضي المُجانسةَ، وهو لا يُجانِسُ شيئًا.

قولُه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لا يفوزُونَ بالجنّةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٥٠).

قولُه: ﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ هو خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ؛ أي: ذلك متاعٌ في الدُّنيا، أو: لهم متاعٌ في الدُّنيا، أو: افتراؤُهم متاعٌ في الدُّنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ﴾؛ أي: رجوعُهم ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ أي: الغليظَ الذي لا ينقطِعُ.

***

(٧١) - ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾.

قولُـه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أَمَـرَه عليـه السَّـلامُ أن يذكـرَ لهـم مـن أقاصيـصِ المُتقدِّميـن مـا يعرِفُـونَ بـه حلـولَ العقـابِ بمَـن كفرَ.

أي: اقرأ عليهـم خبرَ نـوحٍ ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي ﴾؛ أي: عظُمَ، يُقـالُ: «كبِـرَ يكبَرُ» مثلَ: «سـمِعَ يسـمَعُ» في السِّـنِّ، و«كبُـرَ يكبُرُ» مثلَ عظُـمَ يعظُمُ؛ أي: ثَقُلَ.

والمُقامُ بضمِّ الميمِ: الإقامةُ، وبفتحِ الميمِ: الموضعُ الذي يقومُ فيه.

أي: إنْ ثقُلَ عليكم لبثي وإقامَتي ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: وَعظي وتخويفي إيّاكُم عقوبةَ الله ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ هذا جوابُ الشَّرطِ، وكان مُتوكِّلًا على الله في كلِّ حالٍ، ولكن بيَّنَ أنَّه مُتوكِّلٌ في هذا على الخصوصِ ليعرِفَ قومُه أنَّ الله يكفيه أمرَهم؛ أي: إنْ لـم تنصُروني فإنِّي أتوكَّلُ على مَن ينصُرُني.

وقيلَ: هذا كلامٌ مُعترِضٌ في جوابِ الشَّرطِ.

قولُه: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ وهو كما تقولُ: «إنْ كنتَ أنكرتَ عليَّ شيئًا فالله حسبي فاعمَلْ ما تُريدُ».

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾، يُقالُ: «أجمَعَ أمرَه»؛ أي: جعلَه جميعًا بعد أن كان مُتفرِّقًا، فمَن ردَّدَ وقال: «أفعلُ كذا أو كذا»، ثمَّ عزمَ على شيءٍ واحدٍ يُقالُ: أجمعَ أمرَه.

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ قيلَ: وادعُوا شُركاءَكم دعاءَ استغاثةٍ بهم، كما قال: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٨]، فأظهَرَ ما رأينا إضمارَه هاهُنا.

وقيلَ: الواوُ بمعنى «مع»؛ أي: مع شُركائِكم، كقولك: «استوى الماءُ والخشبةَ».

وقُرِئَ: ﴿وشُركاؤُكم﴾ بالرَّفعِ[1] عطفًا على الضَّميرِ المرفوعِ في قولِه: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾، ولم يقُلْ: فأجمِعُوا أنتم وشركاؤُكم؛ لأنَّه تَخلَّلَ هاهُنا قولُه ﴿أَمْرَكُمْ﴾، وهو فاصلٌ بين الضَّميرِ وبين المنسوقِ، وهذه القراءةُ فيها بُعدٌ، ولم يُرَ في المصاحفِ واوٌ في قولِه: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، وليس للأصنامِ أيضًا فعلٌ حتَّى يُجمَعَ.

وفي روايةٍ عن نافعٍ ﴿فاجمَعُوا أمرَكم﴾[2] من جمَعَ يجمَعُ؛ أي: اجمَعُوا كيدَكم؛ أي: اجمَعُوا رُؤساءَكم وذَوي الأمرِ منكم، فحُذِفَ المُضافُ؛ أي: لا تُبقُوا مجهودًا في الحيلةِ.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾؛ أي: ليكُنْ أمرُكم ظاهرًا مُنكشِفًا، والنَّهيُ وإن وقعَ على الأمرِ فالمُرادُ: صاحبُ الأمرِ؛ كقولِه: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقعَ النَّهيُ على العينَينِ، والمُرادُ: صاحبُ العينَينِ.

---

(١) هي قراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٥).

(٢) ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص:٣٢٨) من رواية نصر بن علي عن الأصمعي عن نافع، ثم قال: «وروى غير الأصمعي عن نافع مثل ما قرأ سائر القراء».

وهي رواية رويس عن يعقوب على اختلاف فيه. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٥).

وقيلَ: ﴿ثُمَّ﴾ زائدةٌ؛ أي: فأجمِعُوا أمرَكم وشُركاءَكم لا يكُنْ أمرُكم عليكم غمَّةً، فهو جزمٌ على جوابِ الأمرِ.

والغُمَّةُ منَ الالتِباسِ، يُقالُ: غُمَّ علينا الهلالُ.

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾؛ أي: اقضُوا إليَّ ما في نفوسِكُم.

وقيلَ: ثمَّ اقضُوا إليَّ مكروهَكم[1].

وقيلَ: ثمَّ افعَلُوا ما تُريدونَ.

وقيلَ: ثمَّ افرُغوا من أمرِكم وأمضُوا ما في نفوسِكم.

وقُرِئَ: (ثمَّ أفضُوا إليَّ) بالفاءِ[2]؛ أي: توجَّهوا، يُقالُ: أفضَت الخلافةُ إلى فلانٍ.

﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: لا تُمهِلوني؛ أي: افعَلُوا ما شئتُم فإنَّكم لا تقدِرُونَ على مُساءَتي، فإنَّ لي ربًّا يمنعُني عنكم، أو يُثيبُني في الآخرةِ على ما يُصيبُني.

***

(٧٢) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: أعرَضتُم عن عبادةِ الله ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ ليثقُلَ عليكم مكاني فإعراضُكم عجبٌ.

---

(١) وعلى هذا يكون ﴿ٱقْضُوٓا۟﴾ بمعنى: امضوا، كما نقله الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٧٠) عن ابن الأنباري: أن معناه: ثم امضوا إليّ بمكروهكم وما تُوعدونني به، كما تقول العرب: قد قضى فلان، يريدون: مات ومضى. وهذا معنى قول الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٤٧٤): فأما قوله ﴿ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ فمعناهُ: امضوا إليّ، كما يُقال: قد قضى فلان، يُراد: قد مات ومضى.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«المحتسب» (١/ ٣١٥)، عن السري بن ينعم.

وقيلَ: أي: إنْ أعرضتُم فلا يضُرُّني؛ لأنَّه ليس يتخلَّفُ عنِّي طمعٌ.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: ثوابي مُعَدٌّ عندَه آمنتُم أو كفرتُم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: أنا مُنقادٌ لِـمَا أُمرتُ به، فلا يضُرُّني كفرُكم وإنَّما يضرُّكم.

* * *

(٧٣) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: خلَّصناهُم منَ الكفرِ ومنَ الغرقِ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾؛ أي: سكَّانَ الأرضِ وخلفًا ممَّن غرقَ.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: قومَ نوحٍ منَ الكفَّارِ.

* * *

(٧٤) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعدِ نوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كهودٍ وصالحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وشُعَيبٍ.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمُعجِزاتِ ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ وإنْ علِمُوا إهلاكَ الله لقومِ نوحٍ؛ أي: فما آمنُوا بما كذَّبَ به قومُ نوحٍ.

وقيلَ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ يومَ الذَّرِّ؛ فإنَّه كان فيهم مَن كذَّبَ بقلبِه وإنْ قالَ الجميعُ: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقيلَ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ في اللَّوحِ المحفوظِ، وفي علمِ الله.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ الطَّبعُ: المنعُ منَ الإيمانِ بخلقِ الكفرِ في قلوبِهم.

(٧٥) ـ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم ﴾؛ أي: بعدَ مهلكِهم ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾؛ أي: قومِه بالآياتِ التِّسعِ.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ عن قبولِ الحقِّ ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾؛ أي: مُشركينَ.

* * *

(٧٦) ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

قولُه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي: الرِّسالةُ المُؤيَّدةُ بالمُعجزةِ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ ﴾؛ أي: حملُوا المُعجزاتِ على السِّحرِ.

* * *

(٧٧) ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾؛ أي: تقولون: إنَّه سحرٌ، فأدخلَ الألفَ على جهةِ تفظيعِ الأمرِ.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾؛ أي: أهذا سحرٌ وقد أفلحَ مَن أتى به، ولا يُفلحُ السّاحرُ، والسِّحرُ يُمكِنُ مُقابلتُه بسحرٍ، ولن يُعدَمَ مَن يأتي بمثلِه، فأمَّا المُعجِزاتُ فيعجزُ عنها البشرُ.

* * *

(٧٨) ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا ﴾؛ أي: لترُدَّنا، واللَّفْتُ: الصَّرفُ، ولفَتَ عنقَه؛ أي: لواها، و[من هذا يقالُ]: التفَتَ [إليه؛ أي: عَدَلَ وَجْهَه وأَمالَهُ إليه][1].

وقيلَ: «لَفَتَ» مقلوبُ «فتَلَ».

﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾؛ أي: عن عبادةِ الأصنامِ.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: الملكُ والعزُّ في أرضِ مصرَ، ويُقالُ للمُلكِ: الكبرياءُ؛ لأنَّه أكبرُ ما يُطلَبُ في الدُّنيا.

* * *

(٧٩ ـ ٨١) ـ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ إنَّما قالَه لمَّا رأى العصا واليدَ البيضاءَ واعتَقَدَ أنَّهما سحرٌ.

قولُه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ قيلَ: كان رُؤوسُهم اثنَين وسبعين ساحرًا.

وقيلَ: أكثرَ من ذلك.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ ﴾؛ أي: اطرَحُوا على الأرضِ ما معكم من حبالِكم وعِصيِّكم، فهذا أمرُ إلزامٍ ليظهرَ عجزُهم، لا أنَّه أمرَهم بالسِّحرِ.

---

(١) انظر: «البسيط» (١١/ ٢٧٠) وما بين معكوفتين منه.

قولُه: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾؛ أي: الذي جئتُم به.

وقُرِئَ: ﴿آلسِّحرُ﴾[1]، و﴿مَا﴾ للاستفهامِ على هذا، أي: أيُّ شيءٍ جئتُم به؟ ثمَّ قال توبيخًا: آلسِّحرُ؟ كقولِه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾؛ أي: سيُهلِكُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: لا يجعلُه بحيثُ ينفعُ.

* * *

(٨٢) ـ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

قولُه: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: يُظهِرُه بدلائلِه.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: بوعدِه.

وقيلَ: بأمرِه؛ فإنَّه إذا قال للشَّيءِ: «كُنْ» كانَ.

وقيلَ: بكلماتِه التي سبقَتْ؛ أي: بحُكمِه في اللَّوحِ المحفوظِ.

وقيلَ: الباءُ بمعنى اللّامِ، كما تقولُ: «فعلتُ هذا بما وعدتُك»، و«لِما وعدتُك»؛ أي: يُحِقُّ الحقَّ بكلماتِه، يعني: قولَه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ [القصص: ٨٢]، وقولَه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص: ٣٥].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾؛ أي: وإن رغمَ فرعونُ وقومُه، والمُجرمُ: المُكتسبُ، وشاعَ استعمالُه في اكتسابِ المعاصي.

* * *

---

(١) هي قراءة أبي عمرو، والباقون بغير مد. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

(٨٣) - ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ قيلَ: إلّا قليلٌ.

والذُّرِّيةُ: أعقابُ الإنسانِ، وقد يكثُرونَ، فيحتملُ أن ترجعَ الكنايةُ إلى موسى؛ أي: من قومِ موسى، والذُّرِّيةُ كانوا ستَّ مئةِ ألفٍ من بني إسرائيلَ، وهم ذُرِّيةُ يعقوبَ.

ويحتملُ: من قومِ فرعونَ، والذُّرِّيةُ قومٌ آمنُوا من قومِ فرعونَ، منهم آسيةُ، وماشطةُ ابنتِه، ومُؤمنُ آلِ فرعونَ، ونفرٌ يسيرٌ، وهم أولادُ قومٍ سبقُوا كافرين فسُمُّوا ذُرِّيةً.

وقيلَ: هم أقوامٌ آباؤُهم منَ القبطِ وأمَّهاتُهم من بني إسرائيلَ، فسُمُّوا ذُرِّيةً كما يُسمَّى أولادُ الفرسِ الذين توالَدوا باليمنِ وبلادِ العربِ الأبناءَ، وعلى هذا فالكنايةُ في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ ترجعُ إلى موسى للقرابةِ من جهةِ الأمَّهاتِ، ويُمكِنُ أن ترجعَ إلى فرعونَ؛ إذ كانوا منَ القبطِ.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ لأنَّه كان مُسلَّطًا عليهم عاتيًا ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ ذُكِرَ بلفظِ الجمعِ لأنَّ الملأَ يُعبَّرُ عنه بعبارةِ الجمعِ؛ لأنَّه لا يخلو من أتباعٍ، وإنْ قلنا: الكنايةُ في قولِه: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ ترجعُ إلى فرعَونَ فيرجعُ قولُه: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ إلى فرعونَ.

وقيلَ: هو من بابِ حذفِ المُضافِ؛ أي: على خوفٍ من آلِ فرعَونِ وملَئِهم؛ أي: رُؤسائِهم.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾؛ أي: يصرِفَهم عن دينِهم بالعقوباتِ.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: عاتٍ مُطاولٍ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: منَ المُجاوزينَ الحدَّ في الكفرِ.

* * *

(٨٤) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ﴾؛ أي: يا قومي، ويجوزُ حذفُ ياءِ الإضافةِ، والكسرةُ في الميمِ تدلُّ على تلك الياءِ.

﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾؛ أي: صدَّقتُم ﴿بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ كرَّرَ الشَّرطَ تأكيدًا، وبيَّنَ أنَّ كمالَ الإيمانِ بتفويضِ الأمرِ إلى الله.

* * *

(٨٥) ـ ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾؛ أي: فوَّضْنا أمرَنا إليه ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا تنصُرْهم علينا فيكونَ ذلك سببَ فتنتِهم، أو يكونَ سببَ إحراقِهم غدًا بالنّارِ، يُقالُ: فتنتُ الذَّهبَ على النّارِ؛ أي: عرَضْتُه عليها.

وقيلَ: أي: لا تنصُرْهم علينا فنَفتَتِنَ نحنُ عن الدِّينِ، أو: لا تـمتَحِنَّا بأن تُعذِّبَنا على أيديهم.

* * *

(٨٦) ـ ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَنَجِّنَا﴾؛ أي: خلِّصْنا مـن فرعونَ وقومِه؛ لأنَّهم كانوا يأخذونَهم بالأعمالِ الشّاقّةِ.

* * *

(٨٧) ـ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ التَّبوُّءُ: اتِّخاذُ المكانِ.

﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ اللَّامُ فيه كاللّامِ في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، يُقالُ: تبوَّأْتُ زيدًا مكانًا، وتبوَّأْتُ لزيدٍ مكانًا.

﴿بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾؛ أي: مساجدَ، ولم يُرِد المنازلَ المسكونةَ.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾؛ أي: مساجدَكم إلى القبلةِ، قال ابنُ عبّاسٍ: أي إلى الكعبةِ[1]، قال: وكانت الكعبةُ قبلةَ موسى ومَن معه[2].

وقيلَ: خرَّبَ فرعونُ مساجدَ بني إسرائيل ومنَعَهم منَ الصَّلاةِ، فأُمِروا أن يتَّخِذُوا مساجدَ في بيوتِهم ويُصلُّوا سرًّا، فقولُه: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾؛ أي: صلُّوا في بيوتِكم لتأمَنُوا منَ الخوفِ.

وكانَ الله وعدَ موسى أن يُورِثَه أرضَ الشّامِ، وهمَّ موسى بأن يخرُجَ ببني إسرائيلَ، فمنَعَهم فرعونُ، فأُمِرُوا بالصَّبرِ واتِّخاذِ المساجدِ في البيوتِ والإقدامِ على الصَّلاةِ والدُّعاءِ إلى أن يُنجِزَ الله وعدَه.

* * *

(٨٨) - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ ﴿آتَيْتَ﴾؛ أي: أعطَيتَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٧)، من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٦٥)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٨٩)، من رواية ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا إسناد منقطع.

﴿زِينَةً﴾؛ أي: مالَ الدُّنيا، وكان لهم من فسطاطِ مصرَ إلى أرضِ الحبشةِ جبالٌ فيها معادنُ الذَّهبِ والفِضّةِ والزَّبرجَدِ والياقوتِ.

﴿ربنا لِيَضِلُّوا عَنْ سبيلِكَ﴾ اللّامُ لامُ «كي»؛ أي: لكي يَضِلُّوا ويَبْطَرُوا.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أَيِسَ موسى من إيمانِهم بإخبارِ الله إياه بذلك فدَعا عليهم.

وقيلَ: اللّامُ لامُ العاقبةِ كقولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]؛ أي: أصارَهم ما آتيتَهُم إلى الضَّلالِ.

وقُرِئَ: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضمِّ الياءِ منَ الإضلالِ[1].

وقيلَ: اللّامُ للدُّعاءِ؛ أي: ابتَلِهم بالضَّلالِ عن سبيلِكَ واطمِسْ على أموالِـهم.

والطَّمْسُ: المسخُ.

قال ابنُ عبّاسٍ: صارت أموالُهم ودراهِمُهم ودنانيرُهم حجارةً منقوشةً كهيئتِها صحاحًا[2]، فلم يبقَ لهم معدنٌ إلّا طمَسَ الله عليه، فلم ينتفِعْ به أحدٌ بعدُ.

وقيـلَ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ أي: أهلِكْهـا حتَّـى لا تُـرَى، يُقـالُ: عيـنٌ مطموسـةٌ.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أي: امنَعْهُم الإيمانَ فلا يُؤمِنُوا[3].

---

(١) قرأ ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو ونافع بفتح الياء وكسر الضاد من الثلاثي، وقرأ باقي السبعة: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء من الرباعي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٦٩)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٦) عن الضحاك، ولفظه: «جعلها الله حجارة منقوشة على هيئة ما كانت».

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٩٥)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩٧٩)، بلفظ: «واطبع على قلوبهم».

قيلَ: هو عطفٌ على قولِه: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾؛ أي: آتيتَهم النِّعمَ ليَضِلُّوا ولا يُؤمِنُوا، وقولُه: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾ كلامٌ مُعترِضٌ.

وقيلَ: هو دعاءٌ عليهم؛ أي: اللَّهمَّ فلا يُؤمِنُوا.

ومَن قال: ﴿لِيَضِلُّوا﴾ دعاءٌ؛ أي: ابتَلِهم بالضَّلالِ، قال: عطفَ عليه ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾.

وقيلَ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ نصبٌ لأنَّه جوابُ الأمرِ؛ أي: واشدُدْ على قُلوبِهم فلا يُؤمِنُوا حتَّى يذوقُوا العذابَ الأليمَ، الغرقَ أو في النّارِ.

***

(٨٩) ـ ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: كان موسى يدعُو وهارونُ يُؤمِّنُ[1]، فأضافَ إليهما الدُّعاءَ، فقولُك: «آمين» دعاءٌ؛ أي: يا ربِّ استَجِبْ.

وقيلَ: دَعا هارونَ مع موسى أيضًا.

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾؛ أي: على الرِّسالةِ والدَّعوةِ.

قال ابنُ جُرَيجٍ: لبثَ فرعونُ بعد هذه الإجابةِ أربعينَ سنةً[2].

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ موضِعُه جزمٌ، ودخلتِ النُّونُ الثَّقيلةُ تأكيدًا، وكُسِرَتْ لسكونِها وسكونِ النُّونِ التي قبلَها.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٢٩٧) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٢) عن عكرمة والربيع بن أنس وأبي العالية ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي صالح وابن وهب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٣).

وقرأ ابنُ عامرٍ[1] ﴿ولا تَتْبعانِ﴾ بتخفيفِ النُّونِ[2]، فهو خبرٌ بمعنى الأمرِ كقولِه: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقيلَ: هو حالٌ من (استقيما)؛ أي: استقيما غيرَ مُتَّبعَينِ، والمعنى: لا تسلُكا طريقَ مَن لا يعلمُ حقيقةَ وَعْدي ووَعِيدي.

* * *

(٩٠) ـ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: أجابَ دُعاءَهما وأهلَكَ أعداءَهما؛ أي: أمرتُ بني إسرائيلَ بالخروجِ ويسَّرتُ لهم ذلك في وقتٍ معلومٍ، ولم يعلَمْ فرعونُ به، قيلَ: شغلَهم الله بموتِ أبكارِهم، فخفيَ عليهم استعدادُ بني إسرائيلَ للخروجِ[3].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا﴾؛ أي: أَتْبعوهم باغينَ مُقدِّرينَ اللُّحوقَ بهم، وتَبِعَ وأتبَعَ بمعنًى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾؛ أي: نالَه ووصلَه ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ ولم ينفَعْه الإيمانُ حينَئذٍ ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتحِ الألفِ؛ لأنَّه يُقالُ: آمنَ به، فلما حُذِفَ الحرفُ وصلَ الفعلُ إلى (أنَّ) فصارَ في موضعِ نصبٍ أو خفضٍ على ما سبقَ.

---

(١) في (أ): «ابن عباس» وهو خطأ.

(٢) هي رواية ابن ذكوان عن ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٩)، و«التيسير» (ص:١٢٣).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٦٥).

وقُرِئَ: ﴿إنَّه﴾ بالكسرِ[1]؛ أي: آمنتُ فقلتُ: إنَّه.

والتَّوبةُ مقبولةٌ قبلَ رُؤيةِ البأسِ، فأمَّا بعدَها فلا تُقبَلُ.

* * *

(٩١) - ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قولُه: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ قيلَ: أي: آلآنَ تتوبُ وقد أَضَعْتَ الإيمانَ في وقتِه؟ قال الله له ذلك، أو قال ملَكٌ بأمرِ الله.

وقيلَ: لم يكُنْ ثَمَّ قولٌ، بل وقعَ في قلبِه ذلك، فقال في نفسِه ما قال حيثُ لم تنفَعْه النَّدامةُ، ونظيرُه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، أثنَى عليهم الرَّبُّ بما في ضميرِهم لا أنَّهم قالوا ذلك بلفظِهم، والكلامُ الحقيقيُّ كلامُ القلبِ.

وفي الخبرِ: أنَّ فرعونَ لـمَّا أدركَه الغرقُ جعلَ جبريلُ يدُسُّ التُّرابَ في فِيْهِ خشيةَ أن يُؤمِنَ[2].

وقيلَ: إنَّ موسى لمَّا خرجَ ببني إسرائيلَ وانتهَوا إلى البحرِ ضربَ هارونُ البحرَ بعصاه فلم ينفلِقْ، فلما جاء موسى قال: يا أبا خالدٍ[3]، طرِّقْ لي، فلم

(١) قرأ حمزة والكسائي بالكسر، والباقون بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

(٢) روى الترمذي (٣١٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فقال جبريل: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»، وقال: «هذا حديث حسن».

(٣) قال ياقوت في «معجم البلدان» (١/ ٨٠): «أبو خالد: هو كنية البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وجنوده، وهو بحر القلزم [وهو الذي يسمى اليوم: البحر الأحمر] الذي يسلك من مصر إلى مكة وغيرها، وهو من بحر الهند، وجاء في التفسير أن موسى عليه السلام هو الذي كناه أبا خالد لما ضربه بعصاه، فانفلق بإذن الله، ذكر ذلك أبو سهل الهروي».

ينفلِقْ، فأُمِرَ بضربِه بالعصا، فضرَبَ فانفلَقَ وكان ما كان[١].

وقيلَ: جاءَ جبريلُ يومًا إلى فرعونَ في هيئةِ مُستَفْتٍ، وقال: ما يقولُ الأميرُ في رجلٍ له عبدٌ قد نشأ في نعمتِه، لا سيِّدَ له غيرُه، فكفرَ نعمَه وجحدَ حقَّه، وادَّعى السِّيادةَ دونَه؟ فكتبَ فرعونُ: يقولُ أبو العبَّاسِ الوليدُ بنُ مصعبٍ: جزاؤُه أن يُغرَقَ في البحرِ، فأخذَه جبريلُ، فلمَّا أدركَه الغرقُ ناولَه جبريلُ عليه السَّلامُ خطَّه[٢].

* * *

(٩٢) - ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾؛ أي: نُلقيكَ على نجوةٍ منَ الأرضِ.

وقيلَ: نُخلِّصُك ببدنِك ولا روحَ فيك، ولم يقُلْ: «بجسدِكَ» لتوهُّمِ[٣] أنَّه نجا مع الرُّوحِ.

وقيلَ: إنَّ بني إسرائيلَ لم يُصدِّقُوا أنَّ فرعونَ غرِقَ، وقالوا: هو أعظمُ شأنًا من ذلك، فألقاه الله على نجوةٍ منَ الأرضِ؛ أي: مكانٍ مُرتفعٍ منَ البحرِ حتى شاهدوه.

وقيلَ: البدنُ: الدِّرعُ، وكان عليه درعٌ.

قال ابنُ عبّاسٍ: من ذهَبٍ، وكان يُعرَفُ بها[٤].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٣٩)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٧٤)، عن قيس بن عباد، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٧٥)، عن محمد بن كعب.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٧٧)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ١٢٦)، عن كعب الأحبار.

(٣) أي: لأنه يوهم.

(٤) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٠٨).

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾؛ أي: لبني إسرائيلَ، ولـمَن بقيَ من قومِ فرعونَ لـم يُدرِكْه الغرقُ، ولـم ينتهِ إليه هذا الخبرُ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أرادَ أهلَ مكّةَ وسائرَ الكفّارِ، ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾ عمَّا يُرادُ بهم.

وقيلَ: مُعرِضُونَ عن تأمُّلِ آياتِنا.

* * *

(٩٣) ـ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾؛ أي: مكَّنّاهم مكانًا محمودًا، قيلَ: أرادَ الشّامَ ومصرَ.

وقيلَ: أنزلناهم منازلَ فرعونَ وقومِه.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: منَ الثِّمارِ وغيرِها.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: يعني: قُريظةَ والنَّضيرَ وأهلَ عصرِ النَّبيِّ من بني إسرائيلَ(١)؛ فإنَّهم كانوا يُؤمِنونَ بمحمَّدٍ وينتظرونَ خروجَه، ثمَّ لـمَّا خرجَ حسدوه، ولهذا قال:

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾؛ أي: في أمرِ محمَّدٍ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: القرآنُ ومحمَّدٌ عليه السَّلامُ، فالعلمُ بمعنى المعلومِ؛ لأنَّهم كانوا يعلمُونَه قبلَ خروجِه.

وعلى القولِ الأوَّلِ هو عامٌّ في جميعِ بني إسرائيلَ، وفي كلِّ وقتٍ، وكان بينَهم اختلافاتٌ كثيرةٌ في دينِهم في كلِّ وقتٍ ـ وإنْ جاءَهم الحقُّ ـ طلبًا للرِّئاسةِ،

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣١٠) وفيه: «يريد: قريظة والنضير وبني قينقاع».

وبغيًا مـن بعضِهـم علـى بعـضٍ، فكأنَّهـم لمَّا شـاهدوا هـذه الآيـاتِ بقُوا مـدَّةً على السَّـدادِ ثمَّ اختلفُوا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في أمرِكَ يا محمَّدُ وفي غيرِه.

* * *

(٩٤ ـ ٩٥) ـ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾؛ أي: فيما أخبَرْناكَ به فسَلْ أهلَ الكتابِ كابنِ سلامٍ وطبقتِه؛ فإنَّهم يُصدِّقونَ ما نزلَ عليك، وهذا كما يقولُ الرَّجلُ لعبدِه: إنْ كنتَ عبدي فامتَثِلْ أمري، فإنْ كنتَ في شكٍّ فسَلِ النّاسِ يُخبروك بأنَّكَ عبدي، وهذا المُخاطَبُ لا يشُكُّ في أنَّه عبدُه، ولكنَّ السَّيِّدَ يُزيلُ بهذا الكلامِ الشَّكَّ عن الغيرِ، فكأنَّ الله قال: قد أخبَرْناكَ بما نعلمُ أنَّكَ لا تشُكُّ فيه، فإنْ كنتَ تشُكُّ فيه فسَلِ العلماءَ به حتَّى تعلمَ أنَّه صدقٌ؛ أي: ينبَغي للكفّارِ أن يُصدِّقوكَ ويسألوا غيرَكَ من أهلِ الكتابِ.

وقيلَ: أي: لو كنتَ ممَّن يلحقُكَ الشَّكُّ فيما أخبَرْناكَ به فسألتَ أهلَ الكتابِ لأزالُوا عنكَ الشَّكَّ، والمُبالغةُ في التَّقريرِ قد تُخرِجُ الكلامَ إلى أمثالِ هذا، ومثلُه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ أي: لن تُشرِكَ، ولو كنتَ ممَّن يجوزُ عليه هذا لبطلَ عملُك، وقولُه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩]؛ أي: لو كانَتْ ممَّن تبكي لَما بكَتْ، وقولُه: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقيلَ: الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ والمُرادُ أمَّتُه، ولهذا قال: إنَّ الله كانَ بما تعملونَ، ولـم يقُلْ: بما تعملُ.

وقال القُتَبيُّ: هذا خطابٌ لمَن كان لا يَقطعُ بتكذيبِ محمَّدٍ وتصديقِه، بل كان في شكٍّ[١].

وقيلَ: وإنْ كنتَ في شكٍّ؛ أي: ما كنتَ في شكٍّ، كقولِه: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ﴾؛ أي: ما كانَ مكرُهم لتزولَ منه الجبالُ، ثمَّ قال: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: لتزدادَ يقينًا بسُؤالِهم لا لأنَّك في شكٍّ، وهو كقولِه: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقيلَ: الشَّكُّ: ضيقُ الصَّدرِ؛ أي: إنْ ضاقَ صدرُكَ بكفرِ هؤلاءِ فسَلْ أهلَ الكتابِ يُخبِروكَ بما لقيَ الأنبياءُ قبلَكَ من تكذيبِ الأممِ إيّاهم.

والشَّكُّ في اللُّغةِ: ضَمٌّ بعضِ الشَّيءِ إلى بعضِه، يُقالُ: شكَّ الصَّيدَ: إذا نظمَ يدَه إلى يدِه أو رجلِه بالضَّمِّ.

والشَّكائكُ: الأدعياءُ؛ لأنَّهم يضُمُّونَ أنفُسَهم إلى قومٍ ليسُوا منهم.

وشكَّ الرَّجلُ في السِّلاحِ؛ أي: دخلَ فيه وضمَّه إلى نفسِه، وشكَّ الرَّجلُ في الأمرِ؛ أي: ضمَّ إلى ما توهَّمه شيئًا آخرَ خلافَه.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشّاكِّينَ.

قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذا خطابٌ للمُخاطَبين بقولِه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾.

* * *

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص: ١٦٧).

(٩٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قولُـه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: قـولُ ربِّـك؛ أي: مَن أخبرَ أنَّـه لا يُؤمِـنُ فإنَّـه لا يُؤمِـنُ ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ فحينَئـذٍ يُؤمنـونَ ولا ينفعُهم.

* * *

(٩٧ ـ ٩٨) ـ ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

قـولُه: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾؛ أي: فما كانَتْ قريةٌ آمنَتْ، وكذلك قـولُه: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [هود: ١١٦]؛ أي: فما كان مـنَ القرونِ، فـ(لولا) بمعنى: «هلّا» إلّا في هذَينِ الموضعَينِ.

أي: لـم أفعَلْ هذا قطُّ بأمّةٍ ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾ فإنَّهم آمنُوا عند نزولِ العذابِ، فكشَفْنا عنهم لـمَّا تضرَّعُوا، وعلى هذا قيلَ: نزلَ العذابُ وكان فوقَ رؤوسِهم بقَدْرِ ميلٍ، وخرجَ يونسُ من وسطِهم، فتضرَّعوا وأخرَجُوا صبيانَهم وبهائمَهم، وردُّوا المظالِـمَ في تلك الحالةِ.

قال ابنُ مسعودٍ: كان الرَّجلُ يأتي الحجرَ قد وضعَ عليه أساسَ بنائِه[1] فيقتلعُه فيردُّه، فلمَّا صحَّتْ توبتُهم كشفَ الله عنهم العذابَ بعدَما عاينوه[2].

---

(١) في (أ): «بنيانه».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٩٤)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٢٠)، ولفظه: «بلغ من توبة أهل نينوى أن ترادّوا المظالم بينهم، حتَّى إن كان الرجل ليأتي الحَجَر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيردّه».

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ؛ لأنَّ أوَّلَ الكلامِ جرى على القريةِ وإنْ كان المُرادُ أهلَها، هذا أحدُ القولَينِ في الآيةِ.

والقولُ الثّاني أنَّ (لولا) بمعنى: «هلّا»، وهو حثٌّ على الشَّيءِ؛ أي: هلَّا كانت قريةٌ آمنَتْ في وقتٍ ينفَعُهم الإيمانُ فيه، فهو توبيخٌ لفرعَونَ لأنَّه آمنَ عند البأسِ فلم ينفَعْه.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ قال الزَّجاجُ: إنَّهم لم يقعْ بهم العذابُ وإنَّما رأوا العلامةَ التي تدلُّ على العذابِ، ولو رأوا عينَ العذابِ لَـمَا نفعَهم الإيمانُ، فقولُه: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ؛ أي: لكنَّ قومَ يونسَ لـمَّا آمنوا في وقتٍ ينفعُهم الإيمانُ ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ وهو الذي يَفضَحُ صاحبَه ويُهينُه ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي إلى وقتِ الأجلِ، وقولُه: ﴿كَشَفْنَا﴾؛ أي: كشَفْنا ما أشرَفُوا عليه وقرُبُوا منه، لا ما وقَعُوا فيه[1].

* * *

(٩٩) - ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: إنَّما كفَرُوا لأنّا أرَدْنا كُفرَهم، وكان النَّبيُّ عليه السَّلامُ حريصًا على إيمانِ أبي طالبٍ فأبَى الله عليه.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أبا طالبٍ[2].

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٢٤).

(١٠٠) ـ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: بقضائِه ومشيئتِه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الرِّجسُ: العذابُ، وقيلَ: السُّخطُ.

وقيلَ: النَّتْنُ والنَّجاسةُ؛ أي: يحكمُ عليهم بأنَّهم أنجاسٌ، يعني: نفيَ طهارةِ القلبِ على الذين لا يعقِلون عن الله أمرَه ونهيَه، والقرآنَ ووعظَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ.

* * *

(١٠١) ـ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ ﴾؛ أي: في عجائبِ صُنعِ الله حتَّى تعرِفُوا أنَّ هذه البدائعَ لا بدَّ لها من صانعٍ وقادرٍ على الكمالِ.

﴿مَاذَا ﴾؛ أي: ما الذي، وقيلَ: ﴿مَاذَا ﴾؛ أي: أيَّ شيءٍ.

﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ ﴾ (ما) للنَّفيِ، وقيلَ: للاستفهامِ؛ أي: أيَّ شيءٍ تُغني الآياتُ؟

﴿وَٱلنُّذُرُ﴾: جمعُ نذيرٍ، والإنذارُ: الإعلامُ بوضعِ المخافةِ.

﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾؛ أي: سبقَ علمُ الله بأنَّهم لا يُؤمنون.

* * *

(١٠٢) ـ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾.

قولُه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ﴾؛ أي: إلّا أيامًا مثلَ أيّامِ الأُممِ الماضيةِ المُكذِّبةِ.

وقيلَ: الأيامُ بمعنى الوقائعِ، يُقالُ: فلانٌ عالمٌ بأيامِ العربِ؛ أي: بوقائعِهم.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾؛ أي: من سُنَنِنَا أنَّا إذا أنزَلْنا بقومٍ عذابًا أخرَجْنا من بينِهم الرَّسولَ والمؤمنين، و﴿ثُمَّ﴾ معناه: ثمَّ اعلَمُوا أنّا نُنَجِّي رُسلَنا[1].

﴿كَذَلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الإنجاءِ نُنجِّي المُؤمنين بمحمَّدٍ ﷺ.

﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾؛ أي: واجبًا علينا؛ لأنَّه أخبرَ، ولا خُلفَ في خبرِه.

* * *

(١٠٤ ـ ١٠٥) ـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ أمَرَه بأن يكشفَ لهم أمرَ دينِه ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: فاعلَموا أنّي لا أعبدُ الأصنامَ، بل ﴿أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾.

قولُه: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ أي: قيلَ لي: كُنْ من المؤمنين، وأقِمْ وجهَك؛ لأنَّ الأمرَ قولٌ، ومعنى (أُمِرْتُ): قيلَ لي.

﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ أي: استقِمْ بإقبالِك على ما أُمِرْتَ به بوجهِكَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿وَجْهَكَ﴾ أي: عمَلَك[2].

---

(١) أي: ليست ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الزماني، بل للترتيب في الإخبار.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٠٠)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ١٤٢).

﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلًا إلى الحقِّ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: وقيلَ لي: لا تُشرِكْ بالله.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾؛ أي: لا تعبُدْ.

وقيلَ: لا تدعُه إلـهًا.

﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ أي: شيئًا مّا؛ لأنَّه لا يقدرُ على النَّفعِ والضَّرِّ إلا الله.

وقيلَ: ما لا ينفعُك ولا يضرُّك نَفْعَ الإلهِ وضَرَّه.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الضَّرُّ: ما يُتضرَّرُ به، والكشفُ: رفعُ السِّترِ، وجعلَ دفعَ الضَّرِّ كشفًا.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ هو منَ المقلوبِ؛ أي: وإن يُرِدْ بكَ الخيرَ، ويُقالُ: أرادَه بالخيرِ وأرادَ به الخيرَ.

﴿يُصِيبُ بِهِ﴾؛ أي: بالخيرِ ﴿مَن يَشَاءُ﴾.

وقيلَ: يرجعُ ﴿بِهِ﴾ إلى الأمرَينِ؛ أي: بكلِّ واحدٍ ممّا ذُكِرَ.

* * *

(١٠٨) ـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

قـولُه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: القـرآنُ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾؛ أي: صـدَّقَ محمَّـدًا ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: ينظرُ لنفسِـه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ أي: وبالُـه عائـدٌ إليـه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ حتَّى أُحصِّلَ لكم الهدايةَ، فانظُروا لأنفسِكم، فلستُ أُخاطبُ بحفظِكم منَ الهلاكِ(١).

وقيلَ: نُسِخَت الآيةُ بآيةِ القتالِ(٢).

* * *

(١٠٩) - ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ قيلَ: نُسخَ بآيةِ القتالِ(٣).

وقيلَ: ليس منسوخًا، ومعناه: اصبرْ على الطّاعةِ، وعن المعصيةِ.

* * *

---

(١) أي: فانظروا لأنفسكم نظر من يطالب بعمله من غير أن يطالب غيره بحفظه، كأنه قيل: بحفيظ من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك. انظر: «البسيط» (١١/ ٣٣٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٣٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (ص: ١٦١): روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هذه منسوخة بآية القتال. وهذا لا يثبت عن ابن عباس، ثم إن الأمر بالصبر هاهنا مذكور إلى غاية، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها».

سُورَةُ هُودٍ

تفسيرُ سورةِ هودٍ

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

(١) ـ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

قولُه: ﴿الٓرۚ﴾: ﴿الٓر﴾ اسمُ السُّورةِ.

ثمَّ قال: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: هذا الكتابُ، وهو كما يُكتَبُ على ظهرِ الكتابِ: «كتابُ كذا»؛ أي: هذا كتابُ كذا، واسمُ الكتابِ قد يقعُ على السُّورةِ، فيُمكنُ أن يكونَ المُرادُ بالكتابِ السُّورةَ.

﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ الإحكامُ: منعُ الفعلِ منَ الفسادِ؛ أي: نُظِمَتْ نظمًا مُحكمًا لا يلحقُها تناقضٌ وخلَلٌ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: لم ينسَخْها كتابٌ، بخلافِ التَّوراةِ والإنجيلِ[1].

وعلى هذا فالمعنى: أُحكِمَ بعضُ آياتِه، بأن جُعِلَ ناسخًا غيرَ منسوخٍ، وقد يقعُ اسمُ الجنسِ على النَّوعِ فيُقالُ: «أكلتُ طعامَ زيدٍ»؛ أي: بعضَ طعامِه.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾؛ أي: جُعِلَتْ فُصولًا: حلالًا وحرامًا، وأمثالًا ووعدًا ووعيدًا.

وقيلَ: ﴿فُصِّلَتۡ﴾؛ أي: بُيِّنت بجميعِ ما يُحتاجُ إليه؛ من الدَّليلِ على التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ والبعثِ وغيرِها.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣١٢)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٤٢)، وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس كما صرح بذلك الواحدي.

وقيلَ: ﴿فُصِّلَتْ﴾؛ أي: أُنزِلَتْ نَجْمًا نَجْمًا.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾؛ أي: من عندِ حكيمٍ؛ أي: مُحكِمٍ للأمورِ ﴿خَبِيرٍ﴾ بالأشياءِ.

* * *

(٢) ـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

قولُه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾؛ أي: قُلْ يا محمَّدُ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ... إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ﴾(١).

وقيلَ: المعنى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ لتقولَ يا محمّدُ للنّاسِ وتأمُرَهم أنْ لا يعبُدوا إلا الله.

وقيلَ: هو قولٌ منَ الله أوَّلًا وآخرًا؛ أي: لا تعبُدوا إلا الله، إنَّني لكم منه نذيرٌ؛ أي: الله نذيرٌ لكم من عبادةِ غيرِ الله، كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

* * *

(٣) ـ ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٖ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ﴾.

قولُه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: لئلّا تعبُدوا واستغفِرُوا.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٤٤)، عن «نظم القرآن» للجرجاني، ولفظه: هذا مضاف إلى النبي ﷺ، ولو كان الخطاب عن الله تعالى لقال: إنه لكم، والتأويل في النظم: قل لهم يا محمد ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ﴾، فهذا كله من كلام النبي ﷺ مأمورًا به أن يقوله.

وقيلَ: بأنْ لا تعبُدوا وبأن تستغفِرُوا[1]؛ أي: الر، كتابٌ بهذا.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: اطلُبـوا المغفـرةَ وتوصَّلـوا إليهـا بالتَّوبـةِ، فالمغفـرةُ هـي المقصـودُ والتَّوبةُ سـببُها.

وقيلَ: استغفِرُوا ربَّكم منَ الذُّنوبِ السّالفةِ، ثمَّ توبوا إليه منَ الذُّنوبِ المُستأنفةِ إنْ وقعَتْ.

وقال الفرَّاءُ: ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الواوِ؛ أي: وتوبوا إليه[2].

وقيلَ: هما بمعنًى واحدٍ؛ لأنَّ التَّوبةَ الرُّجوعُ، ومَن استغفرَ الله فقد رجعَ إليه.

وقيلَ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ منَ الشِّركِ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فلا تراجعوا الشِّركَ؛ أي: اثبُتوا على الإيمانِ.

﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يتفضَّلْ عليـكم بالرِّزقِ والسَّعةِ، ولا يسـتأصلْكم بالعذابِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ أي: إلى مدّةِ الحياةِ.

وقيلَ: أصلُ التَّمتُّعِ: الإطالةُ للشَّيءِ، ومنه: «حبلٌ ماتعٌ»؛ أي: طويلٌ، ومَتَعَ النَّهارُ؛ أي: ارتفَعَ، أي: يطوِّلُ انتفاعَكم بالدُّنيا إلى أجلٍ مُسمًّى.

قال مُقاتلٌ: فأبَوا فدَعا عليهم رسولُ الله ﷺ، وابتُلُوا بالقحطِ سبعَ سنينَ حتَّى أكلوا العظامَ المُحرَّقةَ والقِدَّ والجيَفَ والكلابَ[3].

---

(١) في (أ): «تستغفروه».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣١٣)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٤٥)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ١٥٧). ولم أجده في «معاني القرآن» للفراء.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧١)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٣٤٦)، وعنه نقل المصنف. وروى البخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨)، من حديث ابن مسعود قال: إنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا رَأى من الناس =

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾؛ أي: يُعطِ كلَّ مَن تفضَّلَ في الدُّنيا على غيرِه بشيءٍ جزاءَ عملِه.

وقيلَ: كلّ مَن عمِلَ عملًا فيه فضيلةٌ فإنَّه يُثيبُه عليه.

وقيلَ: أي: ويُؤتِ كلَّ ذي فضلٍ جزاءَ فضلِه، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: ويُؤتِ كلَّ مَن فضَلَتْ حسناتُه على سيِّئاتِه فضْلَه؛ أي: الجنّةَ، وهي فضلُ الله، فالكنايةُ في قولِه: ﴿فَضْلَهُۥ﴾ ترجعُ إلى الله.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: إنْ تتولَّوا عن الإيمانِ وتُعرِضُوا عن الذي فُصِّلَ لكم في هذا الكتابِ ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ، وهو كبيرٌ لِمَا فيه منَ الأهوالِ.

وقيلَ: اليومُ الكبيرُ: أيّامُ قتلِ الكفّارِ، كيومِ بدرٍ وغيرِه.

* * *

(٤) ـ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: بعد الموتِ تُرجَعُون إلى الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ثوابٍ وعقابٍ.

* * *

= إدبارًا، قال: «اللَّهُمَّ سَبْعٌ كسَبعِ يوسفَ»، فأخذتْهم سَنةٌ حَصَّتْ كلَّ شيءٍ حتى أكلوا الجلودَ والمَيْتةَ والجِيَفَ...، الحديث. و«القِدُّ» بالكسر: سير يقد من جلد غير مدبوغ.

(٥) - ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ أخبرَ عن مُعاداةِ المشركين للنَّبيِّ ﷺ، ويظنُّونَ أنَّه يخفَى على الله أحوالُـهم.

﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾؛ أي: على عداوةِ المسلمين، ففيه هذا الحذفُ، وثنَيتُ الشَّيءَ؛ أي: عطَفْتُه وطوَيتُه، ومنه: ثَنْيُ الثَّوبِ، ومنه: الاثنانِ؛ لأنَّه عطفُ الآخرِ على الأوَّلِ.

نزلت في الأخنسِ بنِ شَريقٍ، وكان رجلًا حلوَ الكلامِ حلوَ المنطقِ، يلقَى رسولَ الله بما يُحبُّ وينطَوي له بقلبِه على ما يسوءُ[(١)].

وقيلَ: قال المنافقون: إذا غلَّقنا أبوابَنا واستغشَينا ثيابَنا وثنَينا صدورَنا على عداوةِ محمَّدٍ ﷺ فمَن يعلمُ بنا؟ فنزلتِ الآيةُ[(٢)].

﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾ أي: ليتوارَوا عنه؛ أي: عن محمَّدٍ أو عن الله.

﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ وهو أخفَى ما يكونُ لعبدٍ، فالله أعلَمُ بسرائرِهم.

وقيلَ: نزلتْ في قومٍ كانوا يُخبِّئونَ أشخاصَهم منَ النَّبيِّ ﷺ لئلَّا يدعوَهم

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣١٥)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٦٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصرح ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٣٥٧) أنه من طريق أبي صالح عن ابن عباس. وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٣٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٦٥)، عن الكلبي، وعلى هذا فلعله من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٣٨).

إلى الإيمانِ(١)؛ أي: إنَّ الله يعلمُ صنيعَهم وإن خفيَ على النَّبيِّ عليه السَّلامُ بعضُ أحوالِـهم إلى أن يُطلِعَه الله عليه.

وقيلَ: يستُرونَ أنفُسَهم بثيابِهم لئلّا يسمعوا ما يقرأ عليهم من القرآنِ.

* * *

(٦) - ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾؛ أي: يعلمُ السِّرَّ والعلَنَ، وهو الذي يرزقُ الجميعَ، فلا يغفلُ عن بريَّتِه، فكيف يخفَى عليه أحوالُـهم؟

والدّابّةُ: كلُّ حيوانٍ يَدِبُّ، والهاءُ للجماعةِ التي تَدِب، وهي منَ الدَّبيبِ.

﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فضلًا لا وجوبًا.

وقيلَ: وعدًا منه حقًّا.

وقيلَ: أي: إلّا منَ الله رزقُها، و﴿عَلَى﴾ بمعنى «من» كما قيلَ:

إذا رضيَـتْ علـيَّ بنو قُشَـيرٍ(٢)

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٧٨ ـ تفسير)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٦)، عن عبد الله ابن شداد بن الهاد قال: «كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى صدره وتغشى بثوبه لكي لا يراه النبي ﷺ». وفي رواية للطبري: «كان المنفقون إذا مرُّوا به ثنى أحدهم صدره ويطأطئ رأسه، فقال الله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الآية».

(٢) صدر بيت لقُحَيف العُقَيلي، وعجزه:

لَعَمْـرُ اللهِ أعجَبَنـي رِضَاهَـا

انظر: «النوادر» لأبي زيد (ص: ٤٨١)، و«أدب الكاتب» (ص: ٥٠٧)، و«المنتخب من كلام العرب» لكراع النمل (ص: ٦١١).

أي: منِّي.

قال مجاهدٌ: ما جاءَها من رزقٍ فمنَ الله، وربَّما لـم يرزُقْها حتَّى تموتَ جوعًا[١].

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾؛ أي: منَ الأرضِ حيثُ تأوي إليه ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾؛ أي: الموضعَ الذي تموتُ فيه فتُدفنَ ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾؛ أي: في اللَّوحِ المحفوظِ.

* * *

(٧) ـ ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾؛ أي: من أيَّامِ الآخرةِ، كلُّ يومٍ ألفُ سنةٍ؛ لتفخيمِ الأمرِ في خلق السَّماواتِ والأرضِ.

وقيلَ: من أيَّامِ الدُّنيا، وهو قادرٌ على خلقِها في لحظةٍ، ولكنْ بيَّنَ فضلَ التمهُّلِ.

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بيَّنَ أنَّ خلقَ العرشِ والماءِ قبلَ خلقِ الأرضِ والسَّماءِ.

قال كعبٌ: خلقَ ياقوتةً خضراءَ فنظرَ إليها بالهيبةِ فصارَتْ ماءً يرتعدُ، ثمَّ خلقَ الرِّيحَ فجعلَ الماءَ على متنِها، ثمَّ وضعَ العرشَ على الماءِ[٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٢١)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٥٤). وروى نحوه أبو الشيخ في «العظمة» (١٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: أبو عصمة نوح بن أبي مريم أحد المشهورين بالوضع، وحبيب بن أبي حبيب كذاب يضع الحديث. انظر: «الزيادات على الموضوعات» للسيوطي (١/ ٤٦).

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: خلقَ ذلك ليبتليَ عبادَه بالاعتبارِ والاستدلالِ على كمالِ قُدرتِه وعلى البعثِ، وقد مضى معنى الابتلاءِ في مواضعَ.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: أيُّكم أعملُ بطاعةِ الله.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾؛ أي: دلَلْتَ على البعثِ، ولو ذكرتَ ذلك للمُشركين لقالوا: هذا سحرٌ، وغَرضُكم منعُكم إيَّانا عن لذَّاتِ الدُّنيا.

* * *

(٨) - ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ اللّامُ في (لَئِنْ) لامُ القسمِ؛ أي: وإن توعَّدناهم على تكذيبِهم بالبعثِ وأخَّرْنا عنهم العذابَ لاستعجَلُوا العذابَ على طريقِ الاستهزاءِ، وقالوا: ما الذي يُؤخِّرُه عنا إنْ كانَ صادقًا؟

﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾؛ أي: إلى أجلٍ وحينٍ معلومٍ، فالأُمَّةُ: المُدَّةُ.

وقيلَ: إلى انقضاءِ أجلِ[١] أمَّةٍ وقومٍ معدودينَ.

﴿مَّعْدُودَةٍ﴾: قليلةٍ.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ هو قتلُ المُشركين يومَ بدرٍ، وقتلُ جبريلَ المُستَهزئين[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: حلَّ بهم ودارَ وأحاطَ ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي: جزاءُ ما كانوا به يستَهزئون، فالمُضافُ محذوفٌ.

---

(١) في (أ): «آجال».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٥٧ - ٣٥٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٩) ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسانُ: الكافرُ هاهُنا؛ أي: إذا أذَقْنا الكافرَ نعمةً ﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا﴾ سلَبْناها ﴿مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾؛ أي: أيِسَ من زوالِ الضُّرِّ عنه وكَفَرَ النِّعمِ؛ أي: إنَّهم في حالِ الضُّرِّ يرَونَ المِحنةَ منَ الله، ويُعرِضُونَ عنه إعراضَ آيسٍ من رحمتِه، وفي حالِ النِّعمةِ يحملون ذلك على الاتِّفاقِ.

﴿لَيَـُٔوسٌ﴾؛ أي: مُؤيسٌ من رحمةِ الله كافرٌ بالنِّعمةِ.

نزلَتْ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ[١].

وقيلَ: في عبد الله بن أبي أُميَّةَ المخزوميِّ[٢].

* * *

(١٠) ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾؛ أي: صحَّةً وسعةً في الرِّزقِ بعد مرضٍ وفقرٍ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾؛ أي: الخصالُ التي تسوءُ صاحبَها منَ الضُّرِّ والفقرِ ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾؛ أي: يُفاخرُ المؤمنين ويبطَرُ.

* * *

(١١) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ يعني: المؤمنين، مدَحَهم بالصَّبرِ على الشِّدَّةِ، وهو استثناءٌ مُنقطعٌ؛ أي: لكن الذين صبروا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ في حالتَي النِّعمةِ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٥٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٥٩) دون عزو.

والمِحنةِ، ويُمكنُ أن يكونَ الاستثناءُ مُتَّصلًا حملًا للإنسانِ على جنسِ النّاسِ مُؤمنِهم وكافرِهم، فالاستثناءُ يُمكنُ أن يكونَ مُتَّصلًا.

* * *

(١٢) - ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾.

قولُه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ لمَّا قالوا: لولا أُنزِلَ عليه كنزٌ أو جاء معه ملكٌ؛ همَّ أن يَدَعَ سبَّ آلهتِهم، فنزلَتْ هذه الآيةُ[1]، وتأكَّدَ عليه الأمرُ في الإبلاغِ، كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾؛ أي: ضيِّقٌ ﴿أَن يَقُولُواْ﴾؛ أي: ضيِّقٌ صدرُك بقولِهم القبيحِ فلا تُبلِّغُهم، والمعنى: لئلّا يقولوا، كقولِه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]؛ أي: لئلّا تضِلُّوا، أو: كراهةَ أن تضِلُّوا.

وقيلَ: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾؛ أي: يضيقُ صدرُك بأن يقولوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞ﴾؛ أي: عليك أن تُنذِرَهم وليس عليك القيامُ باقتراحاتِهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾؛ أي: حافظٌ لكلِّ شيءٍ.

* * *

(١٣) - ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾؛ أي: قد أزحتُ علَّتَهم بهذا القرآنِ، فإن قالوا: افتريتَه، فليأتُوا بمثلِه مُفترًى.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٦١) عن مقاتل، وهو بنحوه في «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٣).

﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾؛ أي: بزعمِهم، و﴿أَمْ﴾ استفهامٌ توسَّطَ الكلامَ على معنى: أيكتَفُونَ بما أوحيتُ إليك منَ القرآنِ أم يقولون: إنَّه ليس من عندِ الله؟ فإن قالوا: إنَّه ليس من عندِ الله، فليأتُوا بمثلِه.

﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ منَ الكهَنةِ والأعوانِ.

* * *

(١٤) ـ ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: إنْ لم يستَجيبوا لكم أيُّها المُشركون واحدٌ من العربِ أو من أعوانِكم إلى مُعارضةِ القرآنِ ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أنَّه أُنزِلَ من عندِ الله، وقد أنزلَه بعلمِه على ما يكونُ حجَّةً على خلقِه، أو أنزلَه بالأنباءِ التي هو عالمٌ بها، واستدِلُّوا به على أنَّه لا إلهَ إلا هو، والمعنى: إذا عجزْتُم عن المُعارضةِ فاعلَمُوا صدقَ محمَّدٍ ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقيلَ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ خطابٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ والمسلمين، وهو تقريرُ الحجّةِ.

وقيلَ: فيه إضمارُ القولِ؛ أي: فإنْ لم يستجيبوا لكم فقولوا لهم: اعلَموا أنَّما أُنزِلَ بعلمِ الله، وهذا إذا قلتَ: الخطابُ في قولِه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للنَّبيِّ وأصحابِه.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: قل لهم: هل أنتم مسلمون مثلَما أسلَمْنا؟

* * *

(١٥) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

قولُه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ ﴿كَانَ﴾ زيادةٌ، ولهذا جزمَ بالجوابِ فقال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾، قالَه الفرَّاءُ(١).

وقال الزَّجَّاجُ: أي: مَن يكُنْ يُريدُ الحياةَ الدُّنيا(٢).

نزلَتْ في الكفَّارِ بدليلِ الآيةِ التي بعدَها؛ أي: مَن أتى منهم بصِلَةِ رحمٍ أو صدقةٍ نُكافئُه به في الدُّنيا بصحَّةِ الجسمِ وكثرةِ الرِّزقِ، ولكنْ لا حسنةَ له في الآخرةِ(٣).

وقيلَ: الآيةُ في المُؤمنين؛ أي: مَن أرادَ بعملِه ثوابَ الدُّنيا عُجِّلَ له الثَّوابُ ولم يُنقَصْ شيئًا في الدُّنيا، وله في الآخرةِ العذابُ لأنَّه جرَّدَ قصدَه إلى الدُّنيا(٤).

وقيلَ: هؤلاءِ أهلُ الرِّياءِ(٥)، وفي الخبرِ: أنَّه يُقالُ لأهلِ الرِّياءِ: صُمتُم وصلَّيتُم ليُقالَ: إنَّهم الصُّوَّامُ والمُصلُّون، فقد قيلَ ذلك، ثمَّ قال: إنَّ هؤلاءِ أوَّلُ مَن تُسعَرُ بهم النَّارُ، رواه أبو هريرةَ، ثمَّ بكى بكاءً شديدًا، وقال: صدقَ رسولُ الله ﷺ، قال الله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وقرأ الآيتَينِ(٦).

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٥)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٣٦٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٢) عن المبرد، وانظر: «البسيط» للواحدي (١١/ ٣٦٦).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٤٩) عن الضحاك وقتادة.

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٤٧) عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد.

وفي الآية قول آخر فقد روى أبو داود في «الزهد» (٣٦٩)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٠)، عن أنس رضي الله عنه قال: «نزلت في اليهود والنصارى».

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٣٥٠) عن مجاهد.

(٦) رواه مطولاً الترمذي (٢٣٨٢)، وقال: «حسن غريب»، وأصله عند مسلم (١٩٠٥) دون ذكر الآية.

(١٦) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أشارتِ الآيةُ إلى التَّخليدِ، والمُؤمنُ لا يُخلَّدُ، فهو محمولٌ على ما لو كانت مُوافاةُ هذا المُرائي على الكفرِ، فهذا وعيدٌ بسلبِ الإيمانِ.

وقيلَ: ليس لهم في الآخرةِ إلّا النّارُ في أيامٍ معلومةٍ، ثم يُخرِجُ الله أهلَ التَّوحيدِ منَ النّارِ.

* * *

(١٧) - ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: أفمَن كان على بيِّنةٍ كمَن يُريدُ الحياةَ الدُّنيا، فحُذِفَ الجوابُ لدلالةِ الحالِ عليه، والبيِّنةُ: الحجّةُ.

وقيلَ: أرادَ بالبيِّنةِ رسولَ الله ﷺ، والشَّاهدُ: القرآنُ، ويتَّصلُ هذا بقولِه: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: ١٣]، ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: شهِدَ ذلك الكتابُ أيضًا؛ فإنَّ فيه البشارةَ بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ؛ أي: أفمَن كان على بيِّنةٍ وشاهِدٍ كمَن ليس كذلك.

﴿وَيَتۡلُوهُ﴾؛ أي: يَتْبَعُه ﴿شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ قيلَ: القرآنُ كما تقدَّمَ.

وقيلَ: عليٌّ رضيَ الله عنه[١].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٦) عن علي رضي الله عنه وفي إسناده جابر الجعفي وهو =

وقال ابنُ عبّاسٍ: جبريلُ [1]؛ أي: يُسدِّدُه ويُقوِّمُه.

وقال في روايةٍ: يُريدُ بالشّاهدِ لسانَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ[2].

وقال محمَّدُ ابنُ الحنفيّةِ: قلتُ لأبي: أنتَ التّالي في قولِه ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؟ قال: ودِدْتُ أنّي هو، ولكنَّه لسانُ رسولِ الله ﷺ[3].

والكنايةُ في قولِه: ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ ترجعُ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ أي: لسانُه وصورتُه وحالُه تشهدُ له بالصِّدقِ.

وقيلَ: ترجعُ إلى معنى البيِّنةِ؛ أي: يتلُوه شاهدٌ من ذلك البيانِ، وهو النَّظْمُ الفائقُ الرّائقُ الذي عجزَ الكلُّ عن مُعارضتِه.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: ومن قَبْلِ محمَّدٍ والقرآنِ كتابُ موسى، وفيه إضمارٌ؛ أي: تلاهُ في التَّصديقِ.

= ضعيف. وقال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: وقيل: هو علي، وهو ضعيف لا يثبت له قائل. وقال الآلوسي في «روح المعاني» عند هذه الآية: «وأنت تعلم أن الخبر مما لا يكاد يصح، وفيما سيأتي في الآية إن شاء الله تعالى إباء عنه، ويكذبه ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني في «الأوسط» عن محمد ابن الحنفية رضي الله تعالى عنه...»، ثم ذكره وسيأتي.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠١٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٧١) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٣) عن محمد ابن الحنفية والحسن وقتادة. وانظر التعليق الآتي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٨٦٨)، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤١٠).

وقيلَ: الشّاهدُ: الإنجيلُ؛ أي: ويتلو البيِّنَةَ التي هي القرآنُ شاهدٌ منَ الله وهو الإنجيلُ، فالإنجيلُ يتلو القرآنَ في تصديقِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ وإنْ كان أُنزِلَ قبلَه، ثمَّ قال: ومن قبلِ الإنجيلِ كتابُ موسى أيضًا شاهدٌ له.

﴿إِمَامًا﴾ نصبٌ على الحالِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: جميعُ المُؤمنينَ بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي: بمحمَّدٍ منَ الفِرَقِ فهم أهلُ النّارِ.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: شكٍّ منه؛ أي: منَ القرآنِ ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: القرآنُ حقٌّ منَ الله.

وقيلَ: فلا تكُ في مريةٍ في أنَّ الكافرَ في النّارِ ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: القولُ الحقُّ الكائنُ.

والخطابُ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، والمُرادُ غيرُه.

وقيلَ: يرجعُ الكلامُ إلى قولِه: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾؛ أي: أفمَن كان معه بيانٌ منَ الله ومُعجزةٌ كالقرآنِ، ومعه شاهدٌ كجبريلَ أو عليٍّ، وقد بشَّرتْ به الكتبُ السّابقةُ، يضيقُ صدرُه بالإبلاغِ وهو يعلمُ أنَّ الله لا يُسْلِمُه؟!

ثمَّ؛ على هذا قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى بني إسرائيلَ؛ أي: يُؤمنُون بما في التَّوراةِ منَ البشارةِ بك، وإنَّما كفرَ بك هؤلاءِ المُتأخِّرون فهم الذين موعدُهم النّارُ.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: لا أحدَ أظلَمُ منهم لأنفُسِهم؛ لأنَّهم افتَروا على الله الكذبَ وأضافُوا كلامَه إلى غيرِه، وقالوا للأصنامِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

﴿أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: يُحاسبُهم على أعمالِهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ قيلَ: هو جمعُ شاهدٍ، مثلَ: أصحابٍ وصاحبٍ.

وقيلَ: جمعُ شهيدٍ، مثلَ: أشرافٍ وشريفٍ.

والمُرادُ بالأشهادِ: الملائكةُ والأنبياءُ الذين بلَّغوا الرِّسالاتِ.

وقيلَ: عنى الخلائقَ، كما يُقالُ: على رؤوسِ الأشهادِ.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فزعمُوا أنَّ له شريكًا وولدًا ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: المُشركين، واللَّعنُ: الإبعادُ منَ الرَّحمةِ، وفيه إذنٌ في لعنِ الظّالمين.

* * *

(١٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا ابتداءُ خطابٍ منَ الله تعالى؛ أي: الذين يمنَعون النّاسَ منَ الإيمانِ وسلوكِ طريقِ الطّاعةِ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: يعدِلُونَ بالنّاسِ عنها إلى المعاصي والشِّركِ ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أعادَ لفظَ ﴿هُمْ﴾ تأكيدًا.

* * *

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا يفوتُونَ الله، ولا يتخلَّصونَ من عذابِه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: لم يُعجِزوني أن آمُرَ الأرضَ فتُخسَفَ بهم(١).

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أصنامُهم لا تمنعُهم منِّي.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ لغلظِ كُفرِهم.

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: ما كانوا يُطيقونَ أن يسمَعُوا شيئًا من عظمَتي وجبَروتي(٢)؛ أي: هم عُمْيٌ عن الحقِّ، صُمٌّ عنه، وذلك لِمَا سبقَ لهم منَ الشَّقاءِ.

وقال الفرَّاءُ: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بما كانوا يستطيعون السَّمعَ ولا يعقلون، فحُذِفَ الباءُ، كما تقولُ: لأَجزِيَنَّكَ ما عمِلْتَ؛ أي: بما عمِلْتَ(٣).

***

(١) ذكره الواحدي في «تفسيره» (١١/ ٣٨٠) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره الواحدي في «تفسيره» (١١/ ٣٨٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإنه قال: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ وهي طاعته ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾، وأما في الآخرة فإنه قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً﴾ [القلم: ٤٣ ـ ٤٤].

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٣٨٣).

(٢٢) ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾؛ أي: حقًّا إنَّهم في الآخرةِ الأخسَرونَ.

قال الفرّاءُ: «لا جرَمَ»؛ أي: لا بدَّ ولا محالةَ، فكثُرَ استعمالُه فصارَ بمنزلةِ حقًّا[١].

وقال الزَّجّاجُ: «لا، جرَمَ»؛ أي: كَسَبَ، قال الله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [هود: ٨٩]، فقولُك: «لا جرمَ»، «لا» للنَّفيِ؛ أي: ظنُّوا أنَّ الأصنامَ تنفعُهم؛ أي: لا تنفعُهم، وجرَمَ أنَّهم في الآخرةِ هم الأخسَرون؛ أي: كسَبَ ذلك الفعلُ لهم الخسرانَ[٢]، وفاعلُ «جرَمَ» مُضمرٌ، و«أنَّ» منصوبةٌ بجرَمَ، كما تقولُ: كسَبَ جفاؤُكَ زيدًا غضَبَه عليك.

وعلى القولِ الأوَّلِ الجرْمُ: القطعُ، فـ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: لا قطعَ قاطعٌ على أنَّهم في الآخرةِ الأخسَرون، إلّا أنَّه كثُرَ وصارَ كالمثَلِ، فكأنَّهم قالوا: حقًّا.

وقيلَ: ﴿لَا﴾ صلةٌ؛ أي: كسَبَ لهم عملُهم النَّدامةَ.

* * *

(٢٣) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الإخباتُ: الخشوعُ، والخَبْتُ: ما تطامَنَ منَ الأرضِ، وخبتَ ذِكرُه؛ أي: خفِيَ.

وفي التَّفاسيرِ: ﴿أخبَتُوا﴾؛ أي: اطمأنُّوا، ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، كما يُقالُ: اطمأنَّ إلى كذا.

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٨)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٣٨٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٥)، و«البسيط» (١١/ ٣٨٥).

(٢٤) ـ ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ ذكرَ الكفّارَ ثمَّ المُؤمنينَ، وضربَ للفريقَينِ مثلًا، والفريقُ: الطّائفةُ.

﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ هذا مثلُ الكافرِ ﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ هذا مثلُ المُؤمنِ.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يرجعُ هذا إلى الفريقَين، وهم آيتانِ.

وقيلَ: أي: هل يستَوي الأعمى والبصيرُ، وهل يستَوي الأصمُّ والسَّميعُ؟

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ ثمَّ ذكرَ قصصَ الأنبياءِ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ تنبيهًا على مُلازمةِ الصَّبرِ على أذى الكفّارِ؛ أي: إلى أن يكفيَه الله أمرَهم.

﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بكسرِ الألفِ، ولا بدَّ من إضمارٍ؛ أي: «فقال: إنِّي»، أو: «قُلنا له: قُلْ لهم: إنِّي».

وقُرِئَ: ﴿أنّي لكم﴾ بالفتحِ[1]؛ أي: أرسلناه بأنّي لكم نذيرٌ، ولم يقُلْ: «أنّه» لأنّه رجعَ منَ الغيبةِ إلى خطابِ نوحٍ لقومِه كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾.

* * *

---

(١) قرأ بها ابنُ كثير وأبو عَمرو والكسائيُّ، والباقون بالكسر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

(٢٦) ـ ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٖ﴾

قولُه: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: أرسلناه بأنِّي لكم نذيرٌ، وبأنْ لا تعبُدوا إلّا الله، ومَن قرأ: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ﴾ بالكسرِ قال: هو مُعترِضٌ في الكلامِ؛ أي: أرسلناه بأنْ لا تعبُدوا.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾؛ أي: عذابَ يومٍ مُؤلمٍ، ووصفَ اليومَ بالألمِ لأنَّ العذابَ يقعُ فيه، وهو من قَبيلِ قولِهم: «ليلُه قائمٌ ونهارُه صائمٌ».

وقيلَ: أي: بعذابِ يومٍ أليمٍ عذابُه، فالأليمُ من صفةِ العذابِ.

والخوفُ: بمعنَى العلمِ؛ لأنَّ عذابَ الكافرِ مقطوعٌ به؛ أي: إنِّي أعلُم أنَّكم تُعذَّبونَ.

وقيلَ: ليس الخوفُ بمعنَى العلمِ، بل أرادَ: لا أدري هل تُؤمنُونَ أم لا؟ وإنِّي أخافُ أنْ لا تُؤمِنُوا فترَوا العذابَ.

* * *

(٢٧) ـ ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾؛ أي: الأشرافُ منهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ فلا فضلَ لك علينا ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾؛ أي: الأَخِسَّاءُ ممَّن لا مالَ له ولا شرفَ.

وقال الزَّجَّاجُ: نَسَبُوهم إلى الحياكةِ ولـم يعلَمُوا أنَّ الصِّناعاتِ لا أثرَ لها في الدِّيانةِ(١).

والرَّذْلُ: الدُّونُ من كلِّ شيءٍ، يُقالُ: رَذُلَ يرذُلُ رَذالةً، من بابِ «عَظُمَ يعظُمُ»، ويُقالُ: رَذْلٌ، وجمعُه: أرذُلٌ، والأراذِلُ جمعُ الجمعِ، مثلَ: كَلْبٌ وأكلُبٌ وأكالِبُ.

وقيلَ: الأراذِلُ جمعُ الأرذَلِ، كالأساوِدِ جمعُ الأسودِ منَ الحيّاتِ، والأصلُ: هو أرذَلُ من كذا، ثمَّ قيلَ: هو الأرذَلُ، فجُعِلَت الألفُ واللّامُ بدلًا منَ الإضافةِ.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ يُقالُ: بدا الشَّيءُ؛ أي: ظهرَ، ويُقالُ للبرِّيّةِ: باديةٌ؛ لظُهورِها؛ أي: اتَّبعُوكَ في الظّاهرِ لا في الباطنِ، ولـم يتدَبَّروا ما قُلتَ.

وقيلَ: أي: اتَّبعَكَ سَفِلَتُنا فيما يظهرُ لنا من أمرِهم.

وقُرِئَ: ﴿بادِئَ الرأيِ﴾ بالهمزِ(٢)؛ أي: اتَّبعُوكَ حين ابتَدؤُوا ينظُرونَ، ولو أنعَمُوا الفكرَ لـم يتَّبعوكَ، ولا يختلفُ المعنى هاهُنا بالهمزِ وتركِ الهمزِ.

وقيلَ: ﴿بادِئَ الرأيِ﴾؛ أي: أوَّلَ ما نراهُم نستذِلُّـهم ونستحقِرُهم.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هذا جحدٌ منهم لنُبوَّتِه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ الخطابُ لنوحٍ وقومِه.

وفـي التَّفسـيرِ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾؛ أي: الشُّـبَّانُ(٣) والأحـداثِ.

* * *

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٩٥)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٣٩٢).

(٢) قرأ أبو عمرو بالهمز وباقي السبعة بغير همز. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

(٣) في (أ): «الشباب».

(٢٨) ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾؛ أي: يقينٍ ومُعجزةٍ، والشَّكُّ في قولِه: ﴿إِن كُنتُ﴾ للمُخاطَبين، لا لنوحٍ عليه السَّلامُ.

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ﴾؛ أي: نبوَّةً، وهي رحمةٌ على الخلقِ.

وقيلَ: هي الهدايةُ إلى الله بالبرهانِ.

﴿فعَمِيَتْ عليكم﴾؛ أي: خفيتْ[1] بأنَّ الله سلَبَكم علمَها، ومنعَكم معرفتَها.

وقيلَ: فعَمِيتُم عنها، فإنَّ الرَّحمةَ لا تَعمَى بل يُعمَى عنها، وهو كقولِه: ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم: ٤٧]؛ أي: مُخلفَ رُسلِه وعدَه.

وقُرِئَ: ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ بضمِّ العينِ والتَّشديدِ[2]؛ أي: فعمَّاها الله عليكم.

﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ الهاءُ ترجعُ إلى الرَّحمةِ؛ أي: أَنُلزِمُكم قَبولَها؟ وهو استفهامٌ بمعنى الإنكارِ؛ أي: لا يُمكِنُني أن أضطرَّكم إلى المعرفةِ.

* * *

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا﴾؛ أي: لا أسألُكم على ما أدعوكُم إليه مالًا، فالكنايةُ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ ترجعُ إلى معنى الرَّحمةِ.

---

(١) «أي خفيت» من (أ).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائيّ وحفصٍ عن عاصمٍ، والباقون بفتح العين وتخفيف الميم. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

وقيلَ: إلى تبليغِ الرِّسالةِ.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ يُعوِّضُني ثوابَه على احتمالِ المشقَّةِ.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كان القومُ طلَبُوا منه إبعادَ أصحابِه الذين سمَّوهم الأراذِلَ، وأوهَمُوا أنَّهم يأنَفُونَ منهم، فقال: إذا كنتُ لا أطلُبُ منكم مالًا فأراذِلُكم وأفاضِلُكم عندي سواءٌ إذا آمَنُوا.

﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: قَدْرَ ربِّكم، أو: تجهلون أنَّ هؤلاءِ خيرٌ لإيمانِهم وكفرِكم[1]، أو: تجهلون أنَّ الفضلَ ليس بالمالِ وأسبابِ الدُّنيا.

وقيلَ: الباءُ في ﴿بِطَارِدِ﴾ زائدةٌ كقولِه: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣].

قولُه: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾؛ أي: مَن يمنَعُني من عذابِ الله إنْ طردتُ مَن آمنَ بالله؟

* * *

(٣١) ـ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾؛ أي: مفاتحُ الغيبِ؛ لأنَّ القومَ حكموا بأنَّ مَن اتَّبعَه منَ الأراذلِ، فقال: لا أعلَمُ إلّا ظواهرَهم.

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾؛ أي: ما يغيبُ عنِّي ممَّا يُضمِرُونَه في أنفُسِهم.

وقيلَ: لا أعلَمُ متى تقومُ القيامةُ[2].

---

(١) في النسختين: «وكفرهم»، والتصويب من «البسيط» (١١/ ٤٠٤)، وفيه: تجهلون أن هؤلاء خير منكم لإيمانهم بربهم وكفركم به.

(٢) في (أ): «متى تقوم الساعة».

وقيلَ: لا أقولُ لكم: عندي خزائنُ الله التي لا تفنَى فأبذُلَها لكم، ولا أدَّعي أنِّي عالـمُ الغيبِ.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ هو جوابُ قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، بل أمرَني الله بإنذارِكم.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾؛ أي: تستحقِرونَ، وتزَرَّيْتُ عليه؛ أي: عِبْتُ عليه، والأصلُ: تزتَري، ولكنَّ التّاءَ تُبدَلُ بعد الزّاءِ دالًا؛ لأنَّ التّاءَ حرفٌ مهموسٌ خفيٌّ، فالتّاءُ بعد الزّاءِ تخفَى، فأُبدِلَ منها الدّالُ لجهرِها، وكذلك «يفتَعِلُ» منَ الزِّينةِ.

* * *

(٣٢ـ٣٣)ـ ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ الجدالُ والمُجادلةُ: رَومُ أحدِ الخصمينِ إسقاطَ كلامِ صاحبِه، والـجَدالةُ: الأرضُ.

وقيلَ: إنَّه منَ الـجَدْلِ، وهو شدّةُ الفتلِ، ومنه: الأجدَلُ، للصَّقرِ، والجديلُ للحبلِ المفتولِ، فكلُّ خَصمٍ يُريدُ أن يفتلَ صاحبَه عن قولِه، والجدالُ في الدِّينِ محمودٌ، ولهذا جادَلَ نوحٌ، والمِراءُ مذمومٌ.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ أي: منَ العذابِ.

قولُه: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ يعني: بالعذابِ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: بفائتينَ.

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾؛ أي: أن يُضِلَّكم.

وقيلَ: يُهلِكَكُم؛ لأنَّ الإضلالَ يُفضي إلى الهلاكِ.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فإليه الإغواءُ والهدايةُ.

***

(٣٥) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ قيلَ: هو من مُحاورةِ نوحٍ لقومِه.

وقيلَ: أي: يقولُ المُشركونَ: إنَّ محمَّدًا افترى القرآنَ؛ أي: اختلَقَ.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾؛ أي: اختلَقْتُ الوحيَ والقرآنَ وقولي: إنِّي رسولُ الله ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ والإجرامُ: اقترافُ السَّيِّئةِ، وجَرَمَ وأجرَمَ بمعنًى، وفيه إضمارٌ؛ أي: فعليَّ إثمُ إجرامي، أو: عقوبةُ إجرامي، وإنْ كانتِ الأُخرى فعليكم عقابُ تكذيبِكم إيّايَ.

﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ أي: منَ الكفرِ والتَّكذيبِ.

***

(٣٦) ـ ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ آيسَه الله عن إيمانِهم ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾؛ أي: لا تحزَنْ، يُقالُ: ابتَأسَ الرَّجلُ؛ أي: بلَغَه شيءٌ يكرهُه؛ أي: لا تحزَنْ؛ فإنِّي مُهلِكُهم ومُنقِذُك.

(٣٧) ـ ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾.

قولُـه: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾؛ أي: اعقـلِ السَّـفينةَ لتركبَهـا أنـتَ ومَن آمـنَ بك.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: بمَرأى منّا.

وقيلَ: بحفظِنا لك.

وقيلَ: بأعيُنِ أوليائِنا منَ الملائكةِ المُوكَّلينَ بها ومنَ المؤمنين.

﴿وَوَحْيِنَا﴾؛ أي: على ما أوحَينا إليك من صفتِها، أو أوحَينا إليك أن اصنَعْها.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي: لا تطلُبْ إمهالَـهم.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾؛ أي: وطفِقَ يصنعُ الفلكَ ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾؛ أي: جمعٌ ﴿مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

قيلَ: كانوا يقولون: يا نوحُ صِرْتَ بعد النُّبوّةِ نجّارًا.

وقيلَ: ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾؛ لأنَّهم رأَوا شيئًا لم يرَوا مثلَه، ولـم يعرِفُوا هناك ما يحملُ مثلَ تلك السَّفينةِ. والفُلكُ واحدٌ وجمعٌ.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ إذا بدَتِ العواقبُ.

قيلَ: أي: إن تعجَّبتُم مـن صنعةِ الفلكِ فنحن نتعجَّبُ من غفلَتِكم عمَّا أظلَّكُم منَ العذابِ.

وقيلَ: سمَّى جزاءَ السُّخريةِ سُخريةً ليتَّفقَ اللَّفظانِ، فيكونَ أخفَّ على اللِّسانِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: اتَّخذَ نوحٌ السَّفينةَ في سنتَين، فكان طولُها ثلاثَ مئةِ ذراعٍ، وعرضُها خمسونَ ذراعًا، وسَمْكُها ثلاثونَ ذراعًا، وكانت من خشبِ السّاجِ، وجعلَها ثلاثة بُطونٍ، البطنُ الأسفلُ للوحوشِ والسِّباعِ والدَّوابِّ، والأوسطُ للطَّعامِ والشَّرابِ، وركبَ هو في البطنِ الأعلى(١).

وقيلَ: البطنُ الأسفلُ للسِّباعِ والهوامِّ والوحوشِ، والأوسطُ للدَّوابِّ والأنعامِ، وركبَ هو البطنَ الأعلى بما احتاجَ إليه منَ الزّادِ.

وحملَ معه جسدَ آدمَ، وجعلَه مُعترِضًا بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ(٢).

وقال الحسنُ: طولُ السَّفينةِ ألفٌ ومئَتا ذراعٍ، وعرضُها ستُّ مئةِ ذراعٍ، وارتفاعُها ثلاثونَ ذراعًا، وبابُها في عرضِها(٣).

وقيلَ: جاءَ الحيّةُ والعقربُ لدخولِ السَّفينةِ، فقال نوحٌ: لا أحمِلُكما؛ فإنَّكما سببُ الضَّرِّ والبلاءِ، فقالتا: احمِلْنا فنحنُ نضمنُ لك ألّا نضرَّ أحدًا

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٥٢)، وأبو حفص النسفي في «التيسير» (٨/ ١٩٧).

(٢) قطعة من خبر رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٢)، ومن طريقه الطبري في «تاريخه» (١/ ١١٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٦)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والكلبي متروك وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٩٥) عن الحسن قال: «كان طول سفينة نوح ألف ذراع، ومائتي ذراع، وعرضها ست مائة ذراع».

وروى (١٢/ ٣٩٤) عن قتادة قال: «ذكر لنا أن طول السفينة ثلاث مائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وبابها في عرضها».

ذكرَكَ، فمَن قرأ حينَ خافَ مضرَّتَهما: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]؛ ما ضرَّتاه[1].

***

(٣٩) ـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ﴿مَن﴾ مُتَّصلةٌ.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فسوف تعلَمون الذي يأتيه العذابُ، ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَن﴾ استفهامًا؛ أي: أيُّنا يأتيه عذابٌ.

وقيلَ: «مَن يأتيه العذابُ» ابتداءٌ، وجوابُه ﴿يُخْزِيهِ﴾.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾؛ أي: يجبُ عليه وينزلُ به ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: عذابُ الآخرةِ.

***

(٤٠) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: كانَ نهى بناءَ السَّفينةِ، حتَّى إذا حضرَ وقتُ هلاكِ قومِه بالطُّوفانِ ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ أي: ارتفعَ الماءُ بشدّةِ اندفاعٍ.

والتَّنُّورُ: قيلَ: اسمٌ أعجميٌّ عرَّبته العربُ، وهو على بناءِ «فَعُّولٍ»؛ لأنَّ أصلَ بنائِه «تنر»، وليس في كلامِ العربِ نونٌ قبلَ راءٍ.

ثمَّ قيلَ: هو الموضعُ الذي يَجتمِعُ فيه ماءُ السَّفينةِ، فإنَّ منه الماءَ والسَّفينةُ على الأرضِ، وكأنَّ الله جعلَ ذلك علامةً لنوحٍ في ركوبِ السَّفينةِ.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٦) عن رجاء بن عبد الله الهروي.

وقيلَ: كان تنُّورًا لحواءَ، صارَ لنوحٍ، وقيلَ له: إذا رأيتَ الماءَ يفورُ منَ التَّنُّورِ فاركَبْ.

وقيلَ: كان تنُّورَ آدمَ بالشّامِ بعينِ وردةَ[1].

وقيلَ: التَّنُّورُ أرفعُ الأرضِ[2]، كأنَّه قيلَ له: العلامةُ نبوعُ الماءِ من أعالي الأرضِ، شُبِّهت لعلُوِّها بالتَّنانيرِ.

وقيلَ: هو التَّنُّورُ الذي كان يخبزُ فيه في دارِه بناحيةِ الكوفةِ.

وقيلَ: هو في زاويةِ المسجدِ بالكوفةِ.

وقيلَ: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ إشارةٌ إلى ظهورِ حبّاتِ الماءِ على جهةِ الكرةِ.

وقال عليٌّ: هو تنويرُ الصُّبحِ[3]؛ أي: حتَّى إذا جاء أمرُنا وطلعَ الصُّبحُ، شبَّهَ تتابعَ الأضواءِ بخروجِ النّارِ منَ التَّنُّورِ.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يُقالُ للاثنَينِ: هما زوجانِ، ويُقالُ للمرأةِ: هي زوجةٌ، وللرَّجلِ: هو زوجُها، وقد يُقالُ للاثنَينِ: هما زوجٌ.

وقيلَ: الزَّوجُ: الضَّربُ، وعنَى في الآيةِ الذَّكرَ والأُنثَى ليبقَى أصلُ التَّناسُلِ بعد الطُّوفانِ.

---

(١) عين وردة: هو رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٤٧ و١٨٠).
وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩) من طريق عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: العين التي بالجزيرة عين الوردة.
وكونه تنور آدم ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٣٧٣) من رواية أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩)، عن قتادة.

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٠٨٨)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٨).

وقُرِئَ: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتَّنوينِ(١)؛ أي: من كلِّ شيءٍ زوجَينِ.

﴿وَأَهْلَكَ﴾؛ أي: واحمِلْ أهلَكَ في السَّفينةِ، يعني: نساءَه وأولادَه.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ ممَّن هو كافرٌ بك، وهو ابنُه الذي غرِقَ وبعضُ نسائِه.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾؛ أي: واحمِلْ مَن صدَّقَكَ ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: آمَنَ من قومِه ثمانون إنسانًا(٢)، منهم ثلاثةٌ من بنيه: سامٌ وحامٌ ويافثُ، وثلاثُ كنائنَ له، ولـمَّا خرَجُوا منَ السَّفينةِ بنَوا قريةً، وهي التي تُدعَى اليومَ: «قريةَ الثَّمانينَ» بناحيةِ الموصلِ(٣).

وورَدَ في خبرٍ: أنَّه كان في السَّفينةِ ثمانيةُ أنفُسٍ: نوحٌ، وزوجتُه غيرُ التي عُوقِبَتْ، وبنوه الثّلاثةُ، وزوجاتُهم(٤).

وقيلَ: كانوا سبعةَ نفرٍ.

* * *

---

(١) هي قراءة حفص عن عاصم، والباقون بالإضافة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٢).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ٢٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق الكلبي.

(٤) ذكره أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٨/ ٢٠٢) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً. قال الزيلعي في «تخريج الأحاديث والآثار» (٢/ ١٤٦): «غريب، ورواه الطبري في «تفسيره» موقوفًا على قتادة». وكذا قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ٨٦) وقال: «لم أره مرفوعاً».

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٠ ـ ٤١١) من قول قتادة وابن جريج.

(٤١) ـ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾؛ أي: وقال نوحٌ، أو: وقالَ الله: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا﴾.

والرُّكوبُ: العلُوُّ على ظهرِ الشَّيءِ، ويُقالُ: ركِبَه الدَّينُ، وفيه حذفٌ؛ أي: اركَبُوا الماءَ في السَّفينةِ.

وقيلَ: أي: اركَبُوها، و(في) للتَّأكيدِ، كقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، وفائدةُ (في) أنَّهم أُمِروا أن يكونُوا في جوفِ الفُلكِ لا على ظهرِها.

﴿بِسْمِ اللهِ مُجْرَاها ومُرْسَاها﴾ المُجرَى كالإِجراءِ، ومثلُه: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]؛ أي: إدخالَ صدقٍ، والمُرْسى بمعنَى الإرساءِ أيضًا، يعني: جريُها في الماءِ ورُسوُّها، وهو وقوفُها وثُبوتُها، ورَسا الشَّيءُ يرسُو؛ أي: ثبتَ، وأرساه الله إِرْساءً؛ أي: تجرِي وترسُو بأمرِ الله وقُدرتِه.

قال الضَّحّاكُ: كان نوحٌ إذا أرادَ أن يُجرِيَ الفلكَ قال: بسمِ الله، وإذا أرادَ أن يرسُوَ قال: بسمِ الله[(١)].

وقيلَ: أي: قال نوحٌ: اركَبُوا على اسمِ الله لا تُفارِقُكم البركةُ ﴿وَمُرْسَاهَا﴾[(٢)] على جهةِ الدُّعاءِ كما يُقالُ: سِرْ على وجهِ الله؛ أي: مُباركًا لك فيه.

وقُرِئَ: ﴿مَجْرِيهَا﴾ بفتحِ الميمِ؛ أي: جَرْيُها، وأجمعُوا على الضَّمِّ في (مُرْساها)[(٣)].

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: لأصحابِ السَّفينةِ رحيمٌ بهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٣).

(٢) قوله: «ومرساها» كذا في النسختين، ولعلها زيدت سهواً، أو أن في الكلام سقطاً.

(٣) اتفق العشرة على ضم الميم في ﴿مُرساها﴾، وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف: ﴿مجريها﴾ بفتح الميم، وباقي العشرة بالضم. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٤)، و«النشر» (٢/ ٢٨٨).

(٤٢) ـ ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾؛ أي: والسَّفينةُ تجري بهم، والموجُ: جمعُ مَوجةٍ، وهي قطعةٌ ترتفعُ عن جملةِ الماءِ الكثيرِ عند اشتدادِ الرِّيحِ، وشبَّهَ الأمواجَ بالجبالِ.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ قيلَ: كان كافرًا، واسمُه: كنعانُ. وقيلَ: يام.

﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾؛ أي: من دينِ أبيه، أو: منَ السَّفينةِ؛ لأنَّه ظنَّ أنَّ الجبلَ يمنعُه عن الغرقِ، والمعزلُ منَ العزلِ، وهو التَّنحيةُ والإبعادُ.

وكان هذا النِّداءُ قبلَ أن يستيقِنَ القومُ الغرقَ، وقبلَ رُؤيةِ البأسِ، بل كان في أوَّلِ ما فارَ التَّنُّورُ وظهرتِ العلامةُ لنوحٍ.

﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ بجرِّ الياءِ، وقُرِئَ بفتحِها[1].

* * *

(٤٣) ـ ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾؛ أي: أرجعُ وأنضَمُّ إلى جبلٍ ﴿يَعْصِمُنِى﴾؛ أي: يمنَعُني ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فلا أغرقُ.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا مانعَ؛ فإنَّه يومٌ حقَّ فيه العذابُ على الكفّارِ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ استثناءٌ منقطِعٌ؛ أي: لكنْ مَن رحِمَه الله فإنَّه معصومٌ.

---

(١) روى حفص عن عاصم فتحَ الياء في كلِّ القرآن، وروى أبو بكر عنه فتحَ الياء هنا فقط، وكَسْرَها في سائر القرآن، وهو قراءة باقي السبعة هنا. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾؛ أي: بينَ نوحٍ وابنِه.

وقيلَ: بينَ ابنِ نوحٍ وبينَ ما قدَّرَه منَ الإيواءِ إلى الجبلِ.

وقيلَ: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا عاصمَ لك اليومَ من أمرِ الله إلّا أنا، فإنَّ الله جعلَ لي أن أعصِمَكَ إنْ آمنتَ، فنوحٌ ممَّن رَحِمَ الله.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾؛ أي: صارَ منَ المُغرَقين.

وقيلَ: كان في سابقِ علمِنا منَ المُغرَقين.

* * *

(٤٤) - ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾؛ أي: فجرَتْ بهم السَّفينةُ إلى أن تناهَى الأمرُ، وأمرَ الله الماءَ المُنهمرَ منَ السَّماءِ بالإمساكِ، وأمرَ الله الأرضَ بابتلاعِ الماءِ، يُقالُ: بلَعَ الماءَ يبلَعُه، مثلَ: منعَ يمنَعُ، و: بلِعَ يبلَعُ، مثلَ: حمِدَ يحمَدُ، والبالوعةُ: الموضعُ الذي يتشرَّبُ.

﴿مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ عن إنزالِ الماءِ، وقد سبقَ ذكرُ الماءِ، فاقتصرَ على قولِه: ﴿أَقْلِعِى﴾.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ يُقالُ: غاضَ الشَّيءُ؛ أي: نقصَ، وغِضْتُه أنا، كما يُقالُ: نقصَ بنفسِه، ونقصَه غيرُه، وجبرَ العظمُ وجبرتُه.

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: أُحكِمَ وفُرِغَ منه، يعني: أُهلِكَ قومُ نوحٍ على تمامٍ وإحكامٍ.

وقال قومٌ: أعقمَ أرحامَ نسائِهم قبلَ الغرقِ بأربعينَ سنةً[1]، فلم يكُنْ فيمَن هلَكَ صغيرٌ.

والصَّحيحُ: أنَّه هلَكَ الوِلدانُ بالطُّوفانِ كما هلكتِ الطَّيرُ والسِّباعُ، فلم يكنِ الغرقُ عقوبةً للصِّبيانِ والطَّيرِ والبهائمِ، بل ماتوا بآجالِهم.

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾؛ أي: على الجبلِ الذي يُعرَفُ بالجوديِّ، هو جبلٌ بالجزيرةِ بقُربِ منَ الموصلِ، وإنَّما استقرَّتْ عندَ نُقصانِ الماءِ.

وقيلَ: ركبَ نوحٌ السَّفينةَ في رجبٍ، فجرَتْ بهم ستةَ أشهرٍ، ومرَّتْ بالبيتِ فطافَتْ به سبعًا، وقد رفعَه الله منَ الغرقِ، ثمَّ أرسَتْ على الجوديِّ يومَ عاشوراءَ، فصامَ نوحٌ ومَن معه شُكرًا لله تعالى.

وقيلَ: كانَ ذلك يومَ الجمعةِ.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: بُعدًا من رحمةِ الله للمُشركينَ.

ثمَّ؛ يجوزُ أن يكونَ ذلك من قولِ الملائكةِ.

ويجوزُ أن يكونَ من قولِ الله، وهكذا في قولِه: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤].

ويجوزُ أن يكونَ ذلك عبارةً عن بلوغِ الأمرِ ذلك المبلغَ وإنْ لم يكُنْ ثمَّ قولٌ محسوسٌ.

وقولُه: ﴿بُعْدًا﴾؛ أي: أبعَدَهم الله، فهو دعاءٌ عليهم.

* * *

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٥).

(٤٥) ـ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾؛ أي: وعدتَني أن تُنجِّيَ أهلي، وابني من أهلي.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ لا خُلفَ فيه، واختلَفُوا في هذا فقال قومٌ: كان ولدَ على فراشِه، وكانتِ امرأتُه خائنةً فيه، ولهذا قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فقال نوحٌ ما قالَ أخذًا بظاهرِ الفراشِ.

قال قتادةُ: سألتُ الحسنَ عنه فقال: واللهِ ما كان ابنَه فقلتُ: إنَّ اللهَ أخبرَ عن نوحٍ أنَّه قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [وأنت تقولُ: لم يكنِ ابنَه، وإنَّ أهل الكتابين لا يختلفون في أنه كان ابنَه، فقال الحسن: ومن يأخذُ دينه من أهل الكتاب، واستَدلَّ على صحة ما قال بقول نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾] ولم يقُلْ: منِّي(١).

وهذا إشارةٌ إلى أنَّه كان ابنَ امرأتِه من زوجٍ آخرَ، وقد قال بهذا قومٌ.

---

(١) انظر: «البسيط» (١١/ ٤٣٤)، وما بين معكوفتين منه. ورواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٥)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٧).

وروى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٧) عن سعيد عن قتادة، قال: سمعت الحسن، يقرأ هذه الآية: (إنه ليس من أهلك إنه عَمِلَ غيرَ صالحٍ)، فقال عند ذلك: والله ما كان ابنَه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] قال سعيد: فذكرت ذلك لقتادة، قال: ما كان ينبغي له أن يحلف.

قال البيضاوي: وهو خَطأٌ؛ إذ الأنبياءُ عُصِمَت مِن ذلك، والمرادُ بالخيانَةِ: الخيانةُ في الدِّينِ.

قلت: وهو مردود أيضاً بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما بَغَتِ امرأةُ نبيٍّ قطُّ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدتُك أنْ أُنجيهم معك» رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢٩).

وقرأ عليٌّ: (ونادَى نوحٌ ابنَها وكانَ في معزلٍ)[١]، وأهلُ طيِّئٍ يُسمُّونَ ابنَ المرأةِ ابنًا، فعرَّفَه الله أنَّه ليس بابنِ ولادةٍ.

وصارَ الأكثرونَ إلى أنَّه كان ابنَه من صُلبِه.

قال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: إنَّ الله لا يكذبُ، وقد قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾[٢].

وفرَّقَ بينَهما الكفرُ، وكان يُظهِرُ الإيمانَ، ولـم يعلَمْ نوحٌ كُفرَه.

ولا يبعُدُ أن يُقالَ: كان يعلَمُ كُفرَه، ولكنْ رَجا أن يرزُقَه الله الإيمانَ، وإنْ قالَ الله: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فظنَّ أنَّه يجوزُ أن يُؤمنَ لأنَّه من أهلِه.

وقال هؤلاءِ: إنَّ الله لـم يبتَلِ نبيًّا بأن يُولَدَ على فراشِه مَن ليس منه[٣].

***

(٤٦) ـ ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ مَن قال: «ما كان من نوحٍ» جرَى على ظاهرِه، ومَن قال: «كان منه» قال: ليس من أهلِكَ الذي وعدتُكَ أن أُنجِيَهم وإنْ كان من نسلِكَ؛ لأنَّ ذلك الوعدَ مشروطٌ بالإيمانِ، وقد استثنَى فقال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فكأنَّه قال: ليس من أهلِ دينِك، فهو من بابِ حذفِ المُضافِ.

---

(١) انظر: «المحتسب» لابن جني (١/ ٣٢٢)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (٥/ ٣٣٩٨)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٤٣٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٣٠ ـ ٤٣١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٧٦).

(٣) انظر ما تقدم قريباً عن ابن عباس.

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ أي: إنَّ سؤالَك هذا عملٌ غيرُ صالحٍ.

وقيلَ: يرجعُ هذا إلى ابنِ نوحٍ؛ أي: ابنُك صاحبُ عملٍ ـ أو: ذو عملٍ ـ غيرِ صالحٍ، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: جعلَه الله عملًا غيرَ صالحٍ، وهو كما يُقالُ: الشِّعرُ زُهيرٌ، وعلى هذا لا حذفَ، ومَن قال: إنَّه لم يكُنْ من نوحٍ؛ قال: أي: إنَّه ولدُ زَنيةٍ، فهو عملٌ غيرُ صالحٍ.

وقُرِئَ: ﴿إنَّه عَمِلَ غيرَ صالحٍ﴾[1]؛ أي: عمِلَ عملًا غيرَ صالحٍ فأشرَكَ، فحُذِفَ الموصوفُ.

وقيلَ: الولدُ قد يُسمَّى عملًا كما يُسمَّى كَسْبًا؛ كما في الخبرِ: «أولادُكم من أكسابِكُم»[2].

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: لا تسأَلْني نجاتَه ولم تعلَمْ كُفرَه.

وقيلَ: لم يعلَمْ جوازَ مسألتِه.

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: أنهاكَ عن هذا السُّؤالِ لئلّا تكونَ ـ أو: كراهيةَ أن تكونَ ـ منَ الجاهلين؛ أي: الآثِمين، وذنبُ المؤمنِ جهلٌ لا كفرٌ، قال الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

---

(١) وهي قراءة الكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(٢) رواه بنحوه الترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٤٤٥٠)، وابن ماجه (٢٢٩٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظ الترمذي: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم»، وقال الترمذي: «حديث حسن».

قرئ: ﴿فلا تَسْألَنَّ﴾ بفتحِ اللّامِ وتشديدِ النُّونِ وفتحِها، وقُرِئَ بتشديدِ النُّونِ وكسرِها، وقُرِئَ: ﴿فَلَا تَسْئَلْنِ﴾ بسكونِ اللّامِ من غيرِ ياءٍ[1].

و: ﴿فلا تَسْألني﴾ بالياءِ[2].

* * *

(٤٧) - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾؛ أي: قبِلَ منَ الله وعدَه وقال: أعوذُ بكَ أن أسألَكَ بعد هذا ما نهيتَني عنه مـمَّا غابَ عنِّي علمُه، أو مـمَّا لا أعلَمُ جوازَ مسألتِه.

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾؛ أي: جَهلي، وفيه دليلٌ على جوازِ وُقوعِ الصَّغائرِ من الأنبياءِ.

ثمَّ قيلَ: جرَى هذا الدُّعاءُ بعد المُحاورةِ بينَ نوحٍ وابنِه.

وقيلَ: لا، بل قبلَها.

* * *

(٤٨) - ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾؛ أي: قالت له الملائكةُ، أو قال الله له: اهبِطْ منَ السَّفينةِ إلى الأرضِ، أو منَ الجبلِ إلى الأرضِ، فقد ابتلعت الماءَ وجفَّت.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر بفتح اللام وكسر النون وتشديدها، وابن كثير كذلك إلا أنه بفتح النون، والباقون بإسكان اللام وكسر النون وتخفيفها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(٢) أثبت الياء في الوصل أبو جعفر وأبو عمرو وورش، وأثبتها في الحالين يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٢٩٢).

﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾؛ أي: بسلامةٍ منَّا، وقيلَ: بتحيَّةٍ.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ والبركةُ: ثُبوتُ الخيرِ حالًا بعد حالٍ، ومنه: البِركةُ؛ لثُبوتِ الماءِ فيها، ومنه: بَرْكُ الإبلِ، وبراكُ الفيلِ، وتبارَكَ اللهُ[1].

قال ابنُ عبَّاسٍ: أي: إنَّكَ آدمُ الأصغرُ[2].

فجميعُ الخلقِ الآنَ من نسلِه، وعلى هذا قيلَ: لـم يكُنْ لأحدٍ ممَّن معه نسلٌ إلا أولادِه، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، وقد بيَّنَّا أنَّ قومًا قالوا: لـم يكُنْ معه في السَّفينةِ منَ الرِّجالِ إلَّا من كان من ذُرِّيتِه.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾؛ أي: من ولدِكَ، أو مَن آمَنَ من ولدِكَ ممَّن معكَ، إذ قد قال قومٌ: كان قد حصلَ لهم أولادٌ أيضًا، والذين كانوا معه ما بلَغُوا أممًا، وإنَّما يدخلُ في هذا السَّلامِ كلُّ مؤمنٍ ومُؤمنةٍ، ولهذا قيلَ: ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾.

﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ يعني: الأممَ الكافرةَ من ذُرِّيتِه إلى يومِ القيامةِ، وفيه إضمارٌ؛ أي: وممَّن[3] نصِفُ لك ونقُصُّ عليك أمرَه أممٌ سنُمتِّعُهم مدَّةً.

* * *

(٤٩) ـ ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

قولُه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: هذه الأنباءُ من أنباءِ الغيبِ؛ أي: من أنباءِ الأممِ السَّالفةِ التي يغيبُ العلمُ بها عمَّن لـم يُعرِّفْه اللهُ.

---

(١) أي: ثبت تعظيمه. انظر: «البسيط» (١١/ ٤٤٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٤٢).

(٣) في (أ): «ومما».

﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَ﴾ لتقِفَ عليها بعد أن كنتَ أنتَ وقومُك أميين[1]، وقد كان القومُ غيرَ عارِفينَ بأمرِ الطُّوفانِ، والمجوسُ الآن أيضًا يُنكرونَه.

وقيلَ: أرادَ جهلَهم بقصّةِ ابنِ نوحٍ وإنْ سمعُوا أمرَ الطُّوفانِ على الجملةِ.

﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ كما صبرَ نوحٌ على أذى قومِه.

* * *

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا﴾؛ أي: أرسَلْنا هودًا إلى عادٍ، وكانوا عبدةَ أوثانٍ، ﴿أَخَاهُمۡ﴾؛ أي: ابنَ أبيهم؛ أي: القبيلةِ كانت تجمعُهم، كما تقولُ: يا أخا تميمٍ.

وقيلَ: أي: بشرًا من جنسِهم من أولادِ آدمَ عليه السَّلامُ.

وقيلَ: هما عادانِ: عادٌ الأُولى وعادٌ الأُخرى، فهؤلاءِ هم الأولى، وأمّا الأُخرى فهو شدادٌ ولقمانُ المذكورانِ في قولِه تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧]، وعادٌ اسمُ رجلٍ، ثمَّ استمرَّ على قومٍ انتسبُوا إليه.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تعبدُوا الصَّنمَ.

﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ ﴿مِّنۡ﴾ زائدةٌ؛ أي: ما لكم إلهٌ غيرُه، فـ﴿مِّنۡ﴾ لتأكيدِ النَّفيِ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ في عبادةِ الصَّنمِ.

قولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾؛ أي: مالًا ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

* * *

---

(١) «أميين» من (أ).

(٥٢) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ أي: سَلُوه المغفرةَ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: ارجِعُوا من عبادةِ غيرِ الله.

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ قيلَ: كانَ الله تعالى حبسَ عنهم[1] المطرَ ثلاثَ سنينَ.

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾: الماءَ منَ السَّماءِ، والمِدرارُ: الكثيرُ الدَّرِّ.

﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ القوَّةُ: المالُ والولدُ والشِّدَّةُ.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾؛ أي: لا تُعرِضُوا مُصرِّين على الشِّركِ.

* * *

(٥٣) ـ ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾؛ أي: بحُجَّةٍ واضحةٍ تُبيِّنُ بها الحقَّ منَ الباطلِ، وكان هذا كذبًا منهم وطلبًا للعلمِ الضَّروريِّ.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾؛ أي: بقولِكَ، وهذا كقولِه: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ أي: بها.

وقيلَ: من أجلِ قولِك، كما تقولُ: «كسوتُه عن عُرِيِّه»؛ أي: لأجلِ عُرِيِّه.

* * *

---

(١) في (ف): «حبس عليهم».

(٥٤ ـ ٥٦) ـ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: ما نقولُ إلا أنَّ بعضَ أصنامِنا نالَكَ بلَمَمٍ فخبَلَ عقلَك؛ عقوبةً لك على تركِها، يُقالُ: عَراه الأمرُ واعتَراه؛ أي: أصابَه.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟﴾؛ أي: وأُشهِدُكم، لا أنَّهم كانوا أهلَ شهادةٍ، ولكنَّه نهايةٌ للتَّقريرِ؛ أي: لتعرِفُوا أنِّي بريءٌ من عبادةِ الأصنامِ، يُقالُ: أشهدَ بكذا، وعلى كذا، ولكنْ يُحذَفُ حرفُ الجرِّ مع «أنَّ» و«أنْ».

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾؛ أي: أنتُم وأوثانُكم في عَداوتي ولا تُمهِلوني، وهذا القولُ مع كثرةِ الأعداءِ يدُلُّ على كمالِ الثِّقةِ بنصرِ الله تعالى.

قولُه: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾؛ أي: فوَّضْتُ أمري إليه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: نفسٍ تَدِبُّ على الأرضِ ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾؛ أي: إلا هو مُدبِّرُها، والنَّاصيةُ: قصاصُ الشَّعرِ في مقدَّمِ الرَّأسِ، ونصَوْتُ الرَّجلَ أنصُوْهُ نَصْوًا؛ أي: مدَدْتُ ناصيتَه.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: لا يظلِمُهم وإنْ كان قادرًا عليهم.

وقيلَ: أي: لا يفوتُه أحدٌ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وقيلَ: أي: بعثَني الله بدينٍ مستقيم، وهو الإسلامُ.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: إنَّ ربِّي يدُلُّ على صراطٍ مستقيمٍ، أو يدعُو إلى صراطٍ مستقيمٍ، فهو من بابِ حذفِ المُضافِ.

وقيلَ: أي: يتصرَّفُ في[1] ملكِه بما يُريدُ.

---

(١) في (أ): «ينصرف إلى».

(٥٧) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾؛ أي: تتولَّوا؛ أي: تُعرِضُوا عمّا دعوتُكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ ما أُمِرْتُ به.

وقيلَ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فعلٌ ماضٍ؛ أي: فإنْ أعرَضُوا فقُلْ لهم: قد أبلَغْتُكم الرِّسالةَ.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ أي: يخلقُ من بعدِكم مَن هو أطوَعُ لله منكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ وليس شيءٌ حفيظًا عليه حتَّى يضُرَّه إهلاكُ الأشياءِ.

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾؛ أي: أصرُّوا على الشِّركِ فأهلكناهُم.

﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: بإهلاكِهم.

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ لأنَّه لا يُتوهَّمُ أنَّ مجيءَ العذابِ اتِّفاقٌ لا عقوبةٌ، والعذابُ الذي يتوعَّدُ به النَّبيُّ أمَّتَه إذا حضرَ يُنجِّي الله النَّبيَّ والمُؤمنينَ معه.

نعم؛ لا يبعُدُ أن يبتليَ الله نبيًّا وقومَه فيعُمَّهم ببلاءٍ، فيكونُ ذلك عقوبةً للكافرينَ وتمحيصًا للمُؤمنين، إذا لـم يكُنْ ممَّا توعَّدَهم به النَّبيُّ.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ أي: بالهدى والبيِّناتِ.

وقيلَ: نجَّيناهُم برحمتِنا؛ لأنَّ النَّجاةَ إنَّما تكونُ برحمةٍ منَ الله.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: من عذابِ يومِ القيامةِ.

وقيلَ: ممَّا عذَّبَ به الكفرةَ، وكان عذابُ قومِ هودٍ عليه السَّلامُ بالرِّيحِ، وكان ريحًا صرصرًا سخَّرَها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ، فكانتِ الرِّيحُ تدخُلُ في أُنوفِهم وتخرُجُ من فُروجِهم، وتُقطِّعُهم إِرَبًا إِرَبًا، وهو عذابٌ غليظٌ.

* * *

(٥٩) ـ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

قولُه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ قال: (تلك) لأنَّه عنَى القبيلةَ ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كذَّبُوا بالمُعجِزاتِ ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾؛ أي: هُودًا، وجُمِعَ لأنَّ مَن كذَّبَ رسولًا فقد كذَّبَ جميعَ الرُّسُلِ.

وقيلَ: عصَوا هودًا والرُّسلَ قبلَه، أو كانوا بحيثُ لو أُرسِلَ إليهم ألفُ رسولٍ لجحَدُوا الكلَّ.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أي: اتَّبعَ سُقَّاطُهم رُؤَساءَهم، والجبَّارُ: المُتكبِّرُ، والعنيدُ: الذي لا يقبلُ الحقَّ، من عنَدَ يَعنِدُ؛ أي: حادَ من[1] الحقِّ إلى جانبٍ، ومنه: «عِندي كذا»؛ أي: في جانبِي.

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

قولُه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾؛ أي: أُردِفُوا لعنةً تلحقُهم؛ أي: أُهلِكُوا في الدُّنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: في يومِ القيامةِ، وهو كما قال: لُعِنُوا في الدُّنيا والآخرةِ.

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾؛ أي: بربِّهم.

---

(١) في (أ): «يعند: إذ دار من».

وقيلَ: كفَرُوا نعمةَ ربِّهم، فحُذِفَ المُضافُ.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾؛ أي: لا زالوا مُبعَدين عن رحمةِ الله.

وقد كرَّرَ الله هذه الأقاصيصَ في القرآنِ؛ لأنَّ تصريفَ المعنى الواحدِ في وُجوهٍ مختلفةٍ بألفاظٍ مُتباينةٍ من أعلى درجاتِ البلاغةِ، وقد ذكرَ قصّةَ يوسفَ ولم يُكرِّرْها، فلم يقدِرْ مخالفٌ على مُعارضةِ ما تكرَّرَ، ولا على مُعارضةِ غيرِ المُتكرِّرِ، فظهرَ الإعجازُ لمَن تأمَّلَ.

* * *

(٦١) ـ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾؛ أي: وأرسَلْنا صالحًا إلى ثمودَ.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: من صُلبِ آدمَ، وآدمُ منَ التُّرابِ.

وقيلَ: أنشأكم في الأرض.

(ثمودُ) لا يُصرَفُ إذا جعلتَه اسمَ القبيلةِ، وإنْ جعلتَه اسمًا للحيِّ صرَفْتَه؛ لأنَّ الحيَّ مُذكَّرٌ، قال الله: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُم﴾ [هود: ٦٨].

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: جعلَكم عُمَّارًا لها؛ أي: أورَثَكم الأرضَ، ويُسمَّى ساكنُ الموضعِ: عامرُه، وتُسمَّى الحيّاتُ التي تسكُنُ الدّارَ: عُمَّارَ الدّارِ.

وقيلَ: هو منَ العُمرِ؛ أي: جعلَكم سُكَّانَها أيامَ أعمارِكم، وأعمرَ الرَّجلُ دارَه فُلانًا؛ أي: أسكنَه إيّاها عُمرَه، وعلى هذا «استفعَلَ» بمعنَى «أفعَلَ»، مثلَ «استجابَ» بمعنَى «أجابَ».

وقيلَ: أي: ألهَمَكُم عمارَتَها منَ الحرثِ والغرسِ وحفرِ الأنهارِ وغيرِها[١].

* * *

(٦٢) ـ ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

قولُـه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ قيلَ: كان صالحٌ يعيبُ آلهتَهم، وكانوا يرجُونَ رُجوعَه إلى دينِهم، فلمَّا دعا إلى الله وأصرَّ عليه قالوا: انقطَعَ رَجاؤُنا منك.

وقيلَ: أي: كُنَّا نرجُو أن تكونَ فينا سديدًا، والآن أيِسْنا منك.

﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾؛ أي: قبلَ دعوةِ النُّبوّةِ.

﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ استفهامُ إنكارٍ.

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ﴾ وفي سورةِ إبراهيمَ: ﴿وَإِنَّا﴾ [إبراهيم: ٩]، والأصلُ: «إنَّنا»، فاستُثقِلَ ثلاثُ نوناتٍ، فأُسقِطَتِ الثّالثةُ.

﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾ الخطابُ لصالحٍ، وفي سورةِ إبراهيمَ: ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ [إبراهيم: ٩]؛ لأنَّ الخطابَ للرُّسلِ.

* * *

(٦٣) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

قولُـه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؛ أي: أعلِمْتُم، وجوابُ

---

(١) في (أ): «وغيره».

﴿إن﴾: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾؛ أي: ما تزيدونني باحتِجاجِكم بدينِ آبائِكم غيرَ بصيرةٍ في خسارتِكم، كقولك: «ما تزيدُني إلّا غضبًا»؛ أي: غضبًا عليك[1].

وقيلَ: التَّخسيرُ يرجعُ إلى صالحٍ؛ أي: إنْ عصَيتُ الله خسِرْتُ في ديني.

وقيلَ: أي: قولُكم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾، فتوَهُّمُكم أنّي كنتُ مُوافقًا لكم في الضَّلالةِ يزيدُني نقصًا لا فضيلةً.

* * *

(٦٤) ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

قولُه: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾؛ أي: قد جئتُكم بالبيِّنةِ ليزولَ الشَّكُّ.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ هذه الإضافةُ للتَّشريفِ.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ﴿تَأْكُلْ﴾ جزمٌ؛ لأنَّه جوابُ الأمرِ.

وقُرِئَ: (تأكلُ) بالرَّفعِ على الاستئنافِ[2]؛ أي: فإنَّها تأكلُ.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي: بعقرٍ ونحرٍ ومَنعٍ منَ الماءِ فيأخذَكم العذاب.

* * *

(٦٥) ـ ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

قولُه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ وإنَّما عقَرَ بعضُهم، وأُضيفَ إلى الكلِّ لأنَّه كان برِضَى

---

(١) في النسختين: «علي»، والتصويب من «البسيط» (١١/ ٤٥٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٠) عن الكسائي وأبي معاذ.

الباقين ﴿فَقَالَ﴾ صالحٌ: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾؛ أي: في بلدِكم، ولو أرادَ المنزلَ لقالَ: «في دُورِكُم».

وقيلَ: أي: ليتمتَّعْ كلُّ واحدٍ منكم في دارِه ومَسكنِه، كقولِه: ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]؛ أي: كلُّ واحدٍ طفلًا، وعبَّرَ بالتَّمتُّعِ عن الحياةِ؛ لأنَّ الميتَ لا يتلذَّذُ ولا يتمتَّعُ بشيءٍ.

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ أي: غيرُ كذبٍ، وقيلَ: غيرُ مكذوبٍ فيه.

قيلَ: عقَرُوا يومَ الأربعاءِ، وأُهلِكُوا يومَ السَّبتِ، واصفَرَّتْ ألوانُهم في اليومِ الأوَّلِ، ثمَّ احمرَّتْ في الثّاني، ثمَّ اسوَدَّت في الثّالثِ، وهلَكُوا في الرّابعِ، وقد ذكَرْنا القِصّةَ في «الأعرافِ».

* * *

(٦٦) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: لـمَّا جاءَ الأمرُ بالعذابِ خلَّصْنا صالحًا ومَن آمَنَ معه ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ قيلَ: الواوُ زائدةٌ؛ أي: نجَّيناهُم من خِزْيِ يومِئذٍ، وعند البصريِّين لا يجوزُ زيادةُ الواوِ، وعند الكوفيِّين يجوزُ مع «لـمّا» و«حتّى» لا غيرُ، فعلى هذا دخلتِ الواوُ لفعلٍ مُضمرٍ؛ أي: ونجَّيناهُم من خزيِ يومِئذٍ، أو: ونجَّيناهُم منَ العذابِ ومنَ الخزيِ؛ أي: العَيبِ الذي يُستَحيَى منه[1].

﴿يَوْمِئِذٍ﴾؛ أي: منَ الخزيِ الواقعِ في ذلك اليومِ، كقولِه: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]؛ أي: المكرُ الواقعُ فيهما.

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (١١/ ٤٦٠).

(٦٧) ـ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾:

قولُه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ أي: الصِّياحُ، ولهذا قالَ: ﴿وَأَخَذَ﴾، وأيضًا فصَلَ بينَ الفعلِ والاسمِ المُؤنَّثِ بفاصلٍ، فكانَ الفاصلُ عِوَضًا عن تاءِ التَّأنيثِ، ووصَفَ الصَّيحةَ بالأخذِ لأنَّهم لـم يجِدُوا منها مخلَصًا.

وقيلَ: ﴿وَأَخَذَ﴾؛ أي: وحبَسَ، ومنه: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٨]؛ أي: احبِسْ.

ثمَّ قيلَ: هي صيحةُ جبريلَ في اليومِ الرّابعِ.

وقيلَ: أتتهم صيحةٌ منَ السَّماءِ فيها صوتُ كلِّ صاعقةٍ، وصوتُ كلِّ شيءٍ منَ الأرضِ، فتقَطَّعَتْ قلوبُهم وماتُوا.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: لاصِقينَ بالأرضِ كالطَّيرِ إذا جَثَمَتْ.

* * *

(٦٨) ـ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾.

قولُه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾؛ أي: كأَنْ لـم ينزِلُوا، والمَغاني: المنازلُ.

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا﴾ قُرِئَ بالتَّنوينِ لأنَّه اسمٌ مُذكَّرٌ أُريدَ به الحيُّ، وهو مُذكَّرٌ، فصارَ كثقيفٍ وقُريشٍ.

وقُرِئَ: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ﴾ بتركِ الصَّرفِ[1]؛ لأنَّه اسمُ القبيلةِ، ومثل «ثمود»: «يهود ومجوس».

---

(١) قرأ حفص وحمزة: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَ﴾ بفتح الدَّال من غير تنوين، والباقون بالتنوين ووقفوا بالألف عوضاً منه. وقرأ الكسائي: ﴿ألا بعداً لثمودٍ﴾ بخفض الدال مع التنوين، والباقون بفتح الدال من غير تنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

﴿كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: بربِّهم، أو: كفرُوا نعمةَ ربِّهم، ويُقالُ: «كفَرتُه وكفَرتُ به»، كما يُقالُ: «شكرتُه وشكرتُ له».

* * *

(٦٩) ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ ثمَّ ذكرَ قصّةَ لوطٍ، وهو ابنُ عمِّ إبراهيمَ، وكانت قُرى لوطٍ بنواحي الشّامِ، وإبراهيمُ ببلادِ فلسطينَ، فلمَّا أنزلَ الله الملائكةَ بعذابِ قومِ لوطٍ مرُّوا بإبراهيمَ ونزَلُوا عندَه، وكان كلُّ مَن مرَّ به نزلَ عندَه، فيُحسِنُ قِراهُم، وكانُوا أُمِرُوا ببشارةِ إبراهيمَ، فظنَّهم إبراهيمُ أضيافًا، وهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، قالَه ابنُ عبّاسٍ[1].

وقيلَ: كانوا تسعةً[2].

وقيلَ: أحدَ عشرَ ملكًا على صُورِ الغلمانِ[3].

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ أي: بالبِشارةِ بالولدِ.

﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ نصبَ بوقوعِ القولِ عليه، هو كقولِك: «قُلتُ خيرًا»، وأمَّا قولُه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ﴾ فالثَّلاثةُ اسمٌ غيرُ قولٍ مقولٍ، والسَّلامُ قولٌ مقولٌ، ولو رُفِعا جميعًا أو نُصِبا جميعًا جازَ في العربيّةِ.

﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾؛ أي: عليكُم سلامٌ، وجازَ «سلامٌ عليكُم» من غيرِ ألفٍ ولامٍ،

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٧٧)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٨١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٩٦)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٦٦)، عن الضحاك.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٩٧)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٦٦)، عن السدي.

وهـو نكـرةٌ؛ لأنَّـه كثُرَ اسـتعمالُه، فحُذِفَ الألـفُ واللّامُ كمـا حُذِفا مـن «لاهُمَّ» في قولـك: «اللّهمَّ».

وقيلَ: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾؛ أي: فاتَحوه بصوابٍ منَ القولِ؛ كقولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ أي: صوابًا.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾؛ أي: غيرَ أنْ جـاءَ؛ أي: ما أبطأَ عـن(١) مجيئِه بعجلٍ، فلمَّا حُذِفَ حرفُ الجرِّ بقيَ ﴿أَن﴾ في محلِّ النَّصبِ.

﴿حَنِيذٖ﴾؛ أي: مشويٌّ، يُقالُ: «حنَذْتُ اللَّحمَ حَنْذًا»؛ أي: شوَيتُه بالحجارةِ المُحمّاةِ.

وقيلَ: الحنيذُ: النَّضيجُ، ثمَّ يحتملُ أنَّه كان الشِّواءُ مُعَدًّا لضيفٍ إنْ نزلَ، فقدَّمَه إبراهيمُ في الحالِ، ويجوزُ أن يكونَ أمرَ بالإعدادِ في الحالِ، فلِقُربِ المدّةِ جُعلَ اللَّبثُ كلا لَبثٍ.

والعِجلُ: ولدُ البقرةِ.

* * *

(٧٠) ـ ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: إلى العجلِ، أو: إلى الطَّعامِ المُقدَّمِ إليهم ﴿نَكِرَهُمۡ﴾؛ أي: أنكرَهم، وإنَّما أتَوه على صورةِ الآدميِّين لأنَّه كان يُحِبُّ الأضيافَ، وليُروه أنَّه في مقدورِ الله في صُورِهم.

---

(١) في (أ): «على».

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ أي: أضمَرَ منهم خوفًا، يُقالُ: أوجَسَ القلبُ فزَعًا، وتوجَّسَتِ الأُذنُ: إذا سمِعَتْ فزعًا، وكان في ذلك الوقتِ إذا ورَدَ عليهم قومٌ ولم يمسُّوا الطَّعامَ ظنُّوا أنَّهم عدوٌّ.

فلمَّا رأَوا علامةَ الخوفِ في وجهِه ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ فـ﴿إِنَّآ﴾ ملائكةٌ ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ بالعذابِ ﴿إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وقيلَ: أحسَّ إبراهيمُ في الابتداءِ بأنَّهم ملائكةٌ كما قال في موضعٍ آخرَ: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، فلما امتنعُوا منَ الأكلِ تحقَّقَ الظَّنُّ، فأحسَّ بالخوفِ؛ لأنَّه لم يدرِ لأيِّ شيءٍ نزلُوا.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: لم يأكُلوا، ولا يبعُدُ أن يكونَ الله ركَّبَهم تركيبًا لا تصلُ أيديهم إلى مطعومٍ.

* * *

(٧١) ـ ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

قولُه: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ قيلَ: كانت قائمةً من وراءِ السِّترِ.

وقيلَ: قامَتْ على رُؤوسِهم للخدمةِ، وكان هذا مُعتادًا فيهم.

وامرأةُ إبراهيمَ: سارةُ بنتُ هارانَ، وهو عمُّ إبراهيمَ.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ وهذا ضحكُ تعجُّبٍ ممَّا أُعِدَّ لقومِ لوطٍ منَ العذابِ وهم غافلون.

وقيلَ: ضحِكَتْ سرورًا بما زالَ عن إبراهيمَ وعنها منَ الرَّوعِ، فأتبعَها الملائكةُ بسرورٍ آخرَ بالبشارةِ.

وقيلَ: ضحِكَتْ من فزعِ إبراهيمَ من ثلاثةٍ، وهو محفوفٌ بخدَمِه وحشَمِه.

وقيلَ: لمَّا أوجَسَ إبراهيمُ الخيفةَ حَيِيَ العجلُ، فهو الذي قال: لا تخَفْ، فقالتِ الملائكةُ أيضًا: ﴿لَا تَخَفْ﴾، فضحِكَت سارةُ من ذلك تعجُّبًا.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: وامرأتُه قائمةٌ فبشَّرناها بإسحاقَ فضحِكَت سرورًا بالبشارةِ بالولدِ.

وقيلَ: ضحِكَتْ تعجُّبًا من أن يكونَ لها ولدٌ على كِبَرِ سنِّها وسنِّ إبراهيمَ.

وقال مُجاهدٌ وعكرمةُ: ﴿فَضَحِكَتْ﴾؛ أي: حاضَتْ[1]؛ لفرَحِها بالسَّلامةِ منَ الخوفِ، وصارَ ذلك علامةً لقُربِ وقتِ المولودِ الذي بُشِّرت به، ويُقالُ: ضحِكَت الطَّلعةُ؛ أي: انشقَّتْ، **وهذا بعيدٌ**[2].

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ قيلَ: لمّا وُلِدَ لإبراهيمَ إسماعيلُ من هاجرَ تمنَّتْ سارةُ أن يكونَ لها ابنٌ، وأيِسَتْ لكبرِ سنِّها، فبُشِّرَتْ بولدٍ يكونُ نبيًّا، ويلدُ نبيًّا، فكان هذا بشارةً لها بأنْ ترى ولدَ ولدِها، وأُضيفَتِ البشارةُ إلى الله لأنَّه الآمرُ بها.

وقيلَ: أي: بشَّرْناها على ألسنةِ هؤلاءِ الرُّسلِ.

﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ﴾؛ أي: من بعدِ إسحاقَ.

﴿يعقوبُ﴾ هو ابتداءٌ مُؤخَّرٌ؛ أي: ويعقوبُ يحدُثُ لها من وراءِ إسحاقَ، كما

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢١٢) عن عكرمة، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٧٦) عن مجاهد وعكرمة.

(٢) قال ابن المنير في «الانتصاف» (٢/ ٤١٠): ويبعد هذا التأويل أنها قالت بعد: ﴿يَوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فلو كان حيضها قبل بشارتها لما تعجبت، إذ لا عجب في حمل من تحيض، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل.

وللآلوسي في «روح المعاني» (١٢/ ١٦ ـ ١٧) مناقشة حسنة بين المؤيدين لهذا القول والمعارضين له، فلتنظر ثمة.

تقولُ: «في الدّارِ زيدٌ»، ويجوزُ أن يُقالَ: ويحدثُ لـها من وراءِ إسحاقَ يعقوبُ من غيرِ إضمارِ تأخيرِ الابتداءِ.

وقُرِئَ: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالفتحِ[1]؛ أي: وهَبْنا لها من وراءِ إسحاقَ يعقوبَ، تقولُ: «مررتُ بأخيكَ وأباك»؛ أي: جُزْتُ أخاكَ وأباكَ، فلا بدَّ من إضمارِ فعلٍ يُشاكِلُ معناه معنى التَّبشيرِ.

* * *

(٧٢) - ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

قولُه: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾؛ أي: يا وَيلَتي، فأبدلَ من الياء ألفًا[2] لأنَّها أخفُّ منَ الياءِ والكسرةِ.

والعجوزُ: المرأةُ الشَّيخةُ، ولقد عجَزَتْ تعجُزُ عَجْزًا، وعجَّزَتْ تعجيزًا؛ أي: طعَنَتْ في السِّنِّ، وقد يُقالُ: عجوزةٌ أيضًا.

وقيلَ: كانت وقتَ البشارةِ بنتَ ثمانٍ وتسعينَ سنةً.

وقيلَ: بنتَ تسعٍ وثمانينَ سنةً، وإبراهيمُ كانَ ابنَ مئةٍ وعشرينَ سنةً.

وقيلَ: كانَ أكبرَ منها بسنةٍ، وكان الولدُ على هذا السِّنِّ خرقًا للعادةِ، فلهذا تعجَّبَتْ، لا إنكارًا لقُدرةِ الله.

﴿وَهَٰذَا بَعْلِى﴾ البعلُ: الزَّوجُ ﴿شَيْخًا﴾ نصبٌ على الحالِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾؛ أي: مُعجِبٌ.

---

(١) قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية حفصٍ بالنصب، والباقون بالرَّفع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(٢) في (أ): «الألف».

(٧٣) ـ ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعۡجَبِینَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَیۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَیۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِیدࣱ مَّجِیدࣱ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعۡجَبِینَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أنكرَتِ الملائكةُ عليها تعجُّبَها.

﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: من قَضائِه وقُدرتِه؛ أي: لا عجبَ منَ الله أن يرزُقَكما الولدَ.

﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَیۡكُمۡ ﴾ قيلَ: هو خبرٌ عن ثُبوتِ ذلك لهم؛ أي: أتعجَبينَ من هذا مع كثرةِ رحمةِ الله عليكم بالنُّبوَّةِ والخُلَّةِ؟

وقيلَ: هو دعاءٌ؛ أي: واصلَ الله لكم رحمتَه وبركاتِه.

﴿أَهۡلَ ٱلۡبَیۡتِ ﴾؛ أي: يا أهلَ البيتِ.

وفيه دليلٌ على أنَّ أزواجَ الأنبياءِ من جملةِ أهلِ البيتِ، فعائشةُ رضي الله عنها من جملةِ أهلِ بيتِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ ممَّن قال الله: ﴿وَیُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِیرࣰا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

﴿مَّجِیدࣱ ﴾؛ أي: ذو الكرمِ والشَّرفِ، يُقالُ: مجُدَ فلانٌ يَمْجُدُ مجدًا ومجادةً من بابِ عظُمَ يعظُمُ، ومجَدَ يمجُدُ مثلَ نصَرَ وينصُرُ لغةٌ، ومجَدْتُ الدّابّةَ وأمجَدْتُها؛ أي: أكثَرْتُ علَفَها، وأمجَدَ فلانٌ عطاءَه؛ أي: كثَّرَه، ومنه قولُهم: في كلِّ الشَّجرِ نارٌ، واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَارُ(١).

---

(١) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٣٦)، و«الكامل» للمبرد (١/ ١٧٢)، و«جمهرة الأمثال» (٢/ ٩٢)، و«المستقصى في أمثال العرب» (٢/ ١٨٣ ـ ١٨٤)، وفيه: المرخ والعفار: هما شجرتان من أسرع الشجر خروج نار، والاستمجاد: الاستكثار من المجد، وهو كثرة الشرف، ومعناه: أنهما أخذا الفضل وذهبا بالمجد. يضرب في تفضيل بعض القوم على بعض إذا كانوا كلهم ذوي خير، ولبعضهم مزية وتقدُّم ليس للآخرين.

(٧٤) ـ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ جادَلَ الملائكةَ.

والرَّوْعُ: الإفزاعُ، يُقالُ: راعه رَوْعًا؛ أي: أفزَعَه، والرُّوعُ: النَّفسُ، وهو موضعُ الرَّوعِ.

﴿يُجَٰدِلُنَا﴾؛ أي: يُجادِلُ رُسلَنا، وأضافَ إلى نفسِه لأنَّهم نزلُوا بأمرِه، وهذه المُجادلةُ أنَّ إبراهيمَ قال: أرأيتُم إن كانَ فيها خمسونَ منَ المسلمين، أتُهلِكُونَهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعونَ؟ إلى أن قالَ: فواحدٌ؟ قالوا: لا، قال: فـ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فـ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٣٢](١).

* * *

(٧٥) ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾؛ أي: لحِلْمِه تمنَّى حِلْمَ الله عن قومِ لوطٍ، رحيمُ القلبِ تَمنَّى تأخيرَ العذاب، ثم مع هذا هو منيبٌ(٢) إلى الله مُستسلِمٌ لحكمِه.

وقيلَ: الأوّاهُ: المُتأوِّهُ أسفًا على ما قد فاتَ قومَ لوطٍ منَ الإيمانِ.

* * *

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٢١)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٩٠)، عن قتادة.

(٢) «أي: لحلمه تمنى حلم الله عن قوم لوط، رحيم القلب، تمنى تأخير العذاب، ثم مع هذا هو منيب» من (أ).

(٧٦) ـ ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾.

قولُه: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ ﴾؛ أي: فقُلنا: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾، أو قالتِ الرُّسلُ: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ ﴾ الجدالِ؛ فإنَّه لا مدفعَ لهذا العذابِ.

* * *

(٧٧) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ﴾ لـمَّا خرجتِ الملائكةُ من عندِ إبراهيمَ، وكانَ بينَ إبراهيمَ وقريةِ لوطٍ أربعةُ فراسخَ، فانتهَوا إلى قريةِ لوطٍ؛ بصُرَتْ بنتا لوطٍ وهما تستَقِيانِ بالملائكةِ، ورأتا هيئةً حسنةً فقالَتا: ما شأنُكم؟ ومن أينَ أقبلتُم؟ قالوا: من موضعِ كذا، نُريدُ هذه القريةَ، قالَتا: فإنَّ أهلَها أصحابُ الفواحشِ، فقالُوا: أبِها مَن يُضيفُنا؟ قالَتا: نعم، هذا الشَّيخُ، وأشارَتا إلى لوطٍ، فلمَّا رأى لوطٌ هيأتَهم خافَ قومَه عليهم، فسيءَ بهم[1]؛ أي: ساءَه مجيئُهم، يُقالُ: ساءَ به، فهو لازمٌ، وساءَه يسوؤُه، فهو متعدٍّ أيضًا.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾؛ أي: ضاقَ وُسعُه وطاقَتُه، وأصلُه: أن يذرَعَ البعيرُ بيدَيه في سيرِه ذرعًا على قَدْرِ سَعَةِ خَطوِه، فإذا حُمِلَ على أكثرَ من طَوْقِه ضاقَ عن ذلك، فضَعُفَ ومدَّ عنُقَه، فضِيقُ الذَّرعِ عبارةٌ عن ضيقِ الوُسعِ.

وقيلَ: هو من ذَرَعَه القيءُ؛ أي: غلَبَه؛ أي: ضاقَ عن حبسِه المكروهَ في نفسِه.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٩١) من رواية الكلبي عن ابن عباس.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾؛ أي: شديدٌ، يُقالُ: عصَبَ اليومُ يَعْصُبُ عصابةً، والأصلُ فيه: الإحاطةُ والشِّدّةُ، وعصَبْتُه بكذا؛ أي شدَدْتُه، ومنه عِصابةُ النّاسِ، وعِصابةُ الرَّأسِ، وعُصبةُ الرَّجلِ.

وإنَّما حزِنَ لوطٌ لعلمِه بأنَّ القومَ يقصِدُونَه ولم يُمكِنْه ردُّ الضِّيفانِ ولا ردُّ القومِ عن الفاحشةِ.

وقيلَ: كانَ الله أخذَ على الملائكةِ ألّا يُهلِكُوهم حتَّى يشهدَ عليهم لوطٌ ثلاثَ مرّاتٍ بالفسادِ، فلمَّا مضى لوطٌ معَهم خافَ قومَه عليهم فقال لهم: إنَّ أهلَ هذه القريةِ شرُّ خلقِ الله، قال ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ لمَّا أضافَهم مضتِ امرأةُ لوطٍ فقالَتْ للقومِ: إنَّه نزلَ بلوطٍ قومٌ لم أرَ أحسَنَ وجوهًا منهم، ولا أطيبَ رائحةً، فسارِعُوا إليهم(١).

* * *

(٧٨) - ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

قولُه: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يُسرِعُونَ، يُقالُ: أُهرِعَ الرَّجلُ إهراعًا؛ أي: أسرعَ في رِعدةٍ، وهذا مثلُ: أُولِعَ فلانٌ بالأمرِ، وأُرعِدَ زيدٌ، وزُهِيَ فلانٌ، وتجيءُ ولا تُستَعملُ إلّا على هذا الوجهِ.

وقيلَ: أُهرِعَ؛ أي: أَهْرَعَه حِرْصُه، وعلى هذا ﴿يُهْرَعُونَ﴾؛ أي: يُستَحَثُّونَ إليه.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٣١)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٥٣)، عن حذيفة.

ومَن قالَ بالأوَّلِ قالَ: لـم يُسمَعْ إلّا أُهرِعَ الرَّجلُ ـ أي: أَسْرَعَ ـ على لفظِ ما لـم يُسمَّ فاعلُه، ولـم يُسمَعْ: أَهرَعَ.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾؛ أي: ومن قبلِ مجيئِهم، وقيلَ: ومن قبلِ لوطٍ.

﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: الفعلَ الخبيثَ المشهورَ منهم، وقيلَ: الشِّركَ.

ولا شكَّ أنَّهم قصَدُوهم بفعلِهم الخبيثِ، فقال لوطٌ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾.

قيلَ: كان له ثلاثُ بناتٌ.

وقيلَ: بنتانِ: رثيا وزغرتا، ويجوزُ أن يُسمَّى الاثنانِ بالجمعِ، كقولِه: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي: حُكمِ داودَ وسليمانَ، وقولِه: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١].

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾؛ أي: أُزَوِّجُكُموهُنَّ فهُنَّ أطهرُ مما(١) تُريدون.

قال ابنُ عبَّاسٍ: كان رُؤساؤُهم خطَبُوا بناتِه فلم يُجِبْهم، فأرادَ ذلك اليومَ أن يفديَ أضيافَه ببناتِه(٢).

ولعلَّه كان يجوزُ في شريعةِ لوطٍ تزويجُ البنتِ منَ الكافرِ، وقد جازَ هذا(٣) في أوَّلِ الإسلامِ، فزوَّجَ رسولُ الله ﷺ بنتًا من عُتبةَ بنِ أبي لهبٍ، وأُخرَى من أبي العاصِ بنِ الرَّبيعِ.

أو أرادَ لوطٌ: أُزَوِّجُهنَّ منكم على شرطِ أن تُسلِمُوا.

---

(١) في (ف): «ما».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٤٩٦)، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣١٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٣) في (أ): «جاز ذلك».

وقيلَ: أرادَ بناتِ أمَّتِه، وكلُّ نبيٍّ أبو أمَّتِه، قالَه مجاهدٌ[(١)].

وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: أي: نساؤُكم أطهرُ لكم، فجعلَهُنَّ بناتِه؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ أبو أمَّتِه، وفي بعضِ القراءاتِ: (وأزواجُه أمَّهاتُهم وهو أبٌ لهم)[(٢)].

وليس أَلِفُ ﴿أَطْهَرُ﴾ للتَّفضيلِ حتَّى يُتوَهَّمَ أنَّ في غيرِ نكاحِ النِّساءِ طهارةً، بل هو كقولِك: «الله أكبرُ وأعلى وأجلُّ»، ولهذا نظائرُ.

﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِيٓ﴾؛ أي: لا تفضَحُوني فتُخجِلُوني عندَ النّاسِ وعند هؤلاءِ الأضيافِ.

قولُه: ﴿ضَيْفِيٓ﴾؛ أي: أضيافي، والضَّيفُ اسمٌ للواحدِ والجمعِ؛ لأنَّه مصدرُ ضافَ يَضيفُ، والمصدرُ يُستَغنَى عن جمعِه، كقولِك: رجالٌ صَوْمٌ.

وخَزِيَ الرَّجلُ خَزايةً؛ أي: استَحيا، وقيلَ: ذَلَّ وهانَ؛ أي: لا تُذِلُّوني.

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؛ أي: سديدٌ يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المُنكرِ، ويرُدُّ هؤلاءِ عن أضيافي، فالرَّشيدُ بمعنى: المُرشِدِ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى المُرشَدِ، كالحكيمِ بمعنى المُحكَمِ.

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١١/ ١٧١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٢)، ونسبت هذه القراءة لأبي بن كعب وابنُ عبّاسٍ وجعفر بن محمد. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٥)، و«شواذ القراءات» لشمس القراء الكرماني (ص: ٣٨٣).

(٧٩) ـ ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ أي: ليس بأزواجٍ لنا.

وقيلَ: ما لنا من شهوةٍ وحاجةٍ فيهنَّ.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أشارُوا إلى عملِهم الخبيثِ.

* * *

(٨٠) ـ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ لـمَّا علِمَ أنَّه لا يُمكنُه دَفعُهم تلهَّفَ وتمنَّى لو وجدَ أعوانًا على ردِّهم، والجوابُ محذوفٌ؛ أي: لدفعْتُ أهلَ الفسادِ.

وقيلَ: إنَّه أغلقَ بابَ دارِه والملائكةُ معه في الدّارِ، وهو يُناظرُ قومَه من وراءِ البابِ، فأرادُوا تسوُّرَ الجدارِ.

﴿أَوْ ءَاوِىٓ﴾ القوَّةُ مصدرٌ، فعطفَ ﴿ءَاوِىٓ﴾ عليه؛ أي: لو أنَّ لي أن أتقوَّى أو آويَ، فلمَّا لـم يذكُرْ «أنْ» رفعَ.

﴿ءَاوِىٓ﴾: أرجعُ وأنضمُّ.

﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ الرُّكنُ: النّاحيةُ، ورُكنُ الرَّجلِ: قومُه الذين يعتزُّ بهم.

وفي الخبرِ: «يرحمُ الله لوطًا لقد كانَ يأوي إلى رُكنٍ شديدٍ»[1]؛ يعني: ما كانَ يرجعُ إليه من نُصرةِ الله.

* * *

(١) رواه البخاري (٣٣٨٧)، ومسلم (١٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨١) ـ ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ لمَّا رأى الملائكةُ حُزنَه واضطرابَه عرَّفُوه أنفُسَهم.

ورُوِيَ أنَّهم قالوا: إنَّ رُكنَك لشديدٌ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فافتحِ البابَ ودَعْنا وإيّاهم، ففتحَ البابَ فدخلُوا، فضربَ جبريلُ عليه السَّلامُ وجوهَهم بجناحِه فطمَسَ أعيُنَهم فأعماهم، فصارُوا لا يهتَدون إلى بيوتِهم؛ كما قالَ الله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧][(١)].

﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾؛ أي: بمكروهٍ.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ قُرِئَ بالوصلِ من «سرَى»، وبالقطعِ من «أسرَى»[(٢)].

﴿بِأَهْلِكَ﴾ قيلَ: لـم يُؤمِنْ بلوطٍ إلا ابنَتاه، فهما الأهلُ.

وقيلَ: آمنَ به شِرذمةٌ قليلةٌ.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قُرِئَ بالنَّصبِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ[(٣)]، وهو

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢١) عن وهب بن منبه. وانظر خبر حذيفة عند ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٣١)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٥٣)، وقد تقدمت قطعة منه.

(٢) قرأ بالوصل نافع وابن كثير، والباقون بالقطع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالرفع، والباقون بالنَّصب. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥).

استثناءٌ مُنقطعٌ[1]؛ أي: لكنِ امرأتَك تلتفتُ، والتفاتُها معصيةٌ منها لله تعالى؛ لأنَّه قالَ: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، وعلى هذا خرجَ لوطٌ بجميعِ أهلِه فنَجا ابنَتاه والمُؤمنونَ، ولم تنجُ امرأتُه.

وقيلَ: إلا امرأتُك فإنَّها تلتفتُ.

وقيلَ: أي: (فأسرِ بأهلِكَ إلا امرأتَكَ) وهذا قراءةُ عبدِ الله[2]، فهو استثناءٌ مِنَ الأهلِ.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: في ظُلمةِ اللَّيلِ.

وقيلَ: في آخرِ اللَّيلِ.

وقيلَ: بعد طائفةٍ منَ اللَّيلِ.

وقيلَ: نصفَ اللَّيلِ، فكأنَّه قطعَ بنصفَينِ، وأمرَهم الله بأن لا يلتفِتُوا.

وقيلَ: خرجَتِ امرأةُ لوطٍ مع لوطٍ، فلمَّا سمعَتْ هذا العذابَ التفَتَتْ وقالت: يا قوماه، فأصابَها حجرٌ فأهلَكَها.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ الكنايةُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ترجعُ إلى الشَّأنِ؛ أي: فإنَّ الأمرَ والشَّأنَ والقِصَّةَ مُصيبُها ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ ولـمَّا قالتِ الملائكةُ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾

---

(١) أي: على قراءة الرفع، وهو قول ابن الأنباري. انظر: «البسيط» (١١/ ٥٠٨)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٩٢).

(٢) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٧٩)، و«الهداية» لمكي (٥/ ٣٤٤٥)، و«البسيط» (١١/ ٥٠٧). وجعلها الواحدي دليلاً على صحة القراءة بالنصب في ﴿ٱمْرَأَتَكَ﴾، وهو الاختيار عنده.

[العنكبوت: ٣١] قال لوطٌ: الآنَ الآنَ، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟ فخرجَ لوطٌ بأهلِه عند طُلوعِ الفجرِ، فلمَّا طلعَ الفجرُ احتملَ جبريلُ مدينتَهم حتَّى أدناها منَ السَّماءِ بما فيها، حتَّى سمعَ أهلُ السَّماءِ نهيقَ حُمُرِهم وصياحَ دِيَكِهم، لم تنكفِ[1] لهم جرَّةٌ، ولم ينكسرْ لهم إناءٌ، ثمَّ نُكِسُوا على رُؤوسِهم، وأتبعَهم الله الحجارةَ[2].

***

(٨٢) - ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا، أو أمرُنا الملائكةَ بالعذابِ.

﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبَها جبريلُ وكانت خمسَ مدائنَ، فقُلِبَتْ ظهرًا لبطنٍ، وهي المُؤتفِكاتُ، والكنايةُ في ﴿عَٰلِيَهَا﴾ ترجعُ إلى قرى لوطٍ.

﴿وَأَمْطَرْنَا﴾؛ أي: أحدَرْنا المطرَ منَ السَّماءِ، وكان إنزالُ الحجارةِ على هؤلاءِ بدلَ المطرِ.

﴿عَلَيْهَا﴾ على تلكَ القُرى، أو: على تلكَ الأقوامِ، كما قال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ [الأعراف: ٨٤]، يُقالُ: الرِّجالُ لقيتُهم ولقيتُها.

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من طينٍ شديدٍ قد صلُبَ فيها، فهي حجارةٌ قد خالَطَها طينٌ.

---

(١) أي: «لم تنكفئ» كما هو اللفظ في «البسيط» (١١/ ٥١٠).

(٢) انظر: «البسيط» (١١/ ٥١٠) عن ابن عباس وعامة المفسرين.

وقيلَ: هو مُعرَّبُ «سَنْك وَكِل»[1].

وقيلَ: هو من لغةِ العربِ.

وقيلَ: هو مما سُجِّلَ لهم؛ أي: كُتِبَ لهم، فهو في معنى: سجِّينٍ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٨ ـ ٩].

وقيلَ: ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾؛ أي: منَ السَّماءِ الدُّنيا، واسمُها: سجِّيل.

وقيلَ: هو فعيلٌ من أسجَلْتُه؛ أي: أرسَلْتُه، فكأنَّها مُرسلةٌ عليهم.

﴿مَّنضُودٖ﴾ النَّضْدُ: وَضعُ الشَّيءِ بعضِه على بعضٍ.

* * *

(٨٣) ـ ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾.

قولُه: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾؛ أي: مُعْلَمةٌ.

وقيلَ: مختومةٌ؛ أي: كانَ عليها أمثالُ الخواتيمِ.

وقيلَ: أي: كانت لا تأكلُ حجارةَ الأرضِ.

وقيلَ: مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ مَن تُرمَى به.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: في خزائنِه ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: من كُفَّارِ قُريشٍ ﴿بِبَعِيدٖ﴾؛ أي: وما هي عن قومِ لوطٍ ببعيدٍ، ولم يقُلْ: بعيدة؛ لأنَّه أرادَ: ليست بموضعٍ بعيدٍ عنهم.

* * *

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٩٧٨)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٦٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد بعضهم فيه: (حجر وطين).

(٨٤) - ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

قولُه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ثمَّ ذكرَ قصّةَ شُعَيبٍ، ومدينُ: اسمُ ابنٍ لإبراهيمَ، ثمَّ صارَ اسمًا للقبيلةِ.

وقيلَ: مدينُ اسمُ بلدةٍ بناها مدينُ بنُ إبراهيمَ؛ أي: وأرسَلْنا إلى أهلِ مدينَ، فحُذِفَ الأهلُ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دعاهُم إلى التَّوحيدِ وكانوا مُشركين.

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ نهاهُم عن ظُلمِ النّاسِ، وكانوا يظلِمُونَ في الكيلِ والوزنِ.

والمكيالُ: ما يُكالُ به، والميزانُ: ما يُوزَنُ به.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾؛ أي: في سَعةٍ منَ الرِّزقِ وكثرةٍ منَ النِّعمِ.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ وَصَفَ اليومَ بالإحاطةِ وأرادَ وَصْفَ عذابِ ذلك اليومِ بالإحاطةِ بهم، فإنَّ يومَ العذابِ إذا أحاطَ بهم فقد أحاطَ العذابُ بهم، وهو كقولك: «يومٌ شديدٌ»؛ أي: شديدٌ حرُّه.

* * *

(٨٥) ـ ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أمرَ بالإيفاءِ بعد أن نهى عن التَّطفيفِ تأكيدًا، والإيفاءُ: الإتمامُ.

﴿بِٱلْقِسْطِ ﴾؛ أي: بالعدلِ، وأصلُه: النَّصيبُ؛ أي: أَوفُوا النَّصيبَ منَ المكيالِ والميزانِ، والمقصودُ: أن يصلَ كلُّ ذي نصيبٍ إلى نصيبِه، وليس يُريدُ إيفاءَ المكيالِ والموزونِ؛ لأنَّه لم يقُلْ: أَوفُوا بالمكيالِ والميزانِ، بل أرادَ: لا تنقُصُوا حجمَ المكيالِ عن المعهودِ، وكذا السَّنَجات.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾؛ أي: لا تنقُصوا ممَّا استحَقُّوه شيئًا.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بيَّنَ أنَّ الخيانةَ في المكيالِ والميزانِ مبالغةٌ في الإفسادِ في الأرضِ.

* * *

(٨٦) ـ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

قولُه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾؛ أي: ما يُبقيه الله بعد إيفائِكم الحقوقَ بالقسطِ أكثرُ بركةً وأحمَدُ عاقبةً ممَّا تُبقُونَه أنتم لأنفُسِكم من فضلِ التَّطفيفِ.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قيل: لا تبخَسُوا إنْ كنتم مُؤمنين.

ثمَّ يحتمِلُ أنَّهم كانوا يعترِفُونَ بأنَّ الله خالقُهم فخاطبَهم بهذا، ويحتمِلُ أنَّه كان يُريدُ: إنْ كانَ قصدُكم الإيمانَ.

وقال مجاهدٌ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: طاعةُ الله؛ لأنَّها التي يبقَى ثوابُها للعبدِ[1].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: لا يحفظُ النِّعمَ عليكم إلّا الله.

وقيلَ: أي: ليس يُمكنُني إكراهُكم على قَبولِ الحقِّ، وإنَّما عليَّ الإنذارُ.

وقيلَ: أي: لا يُمكنُني شهودُ كلِّ معاملةٍ تَصْدرُ منكم حتَّى أُؤاخِذَكم بإيفاءِ الحقِّ.

* * *

(٨٧) ـ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

قولُه: ﴿قالُوا يا شُعَيبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ قالوه استهزاءً، وكان شُعَيبٌ مُواظبًا على الصَّلواتِ فرضِها ونفلِها، ويقولُ: إنَّ الصَّلاةَ تنهَى عن الفحشاءِ والمُنكرِ، فقالوا: هذه الصَّلواتُ تأمُرُكَ بأن تأمُرَنا بتركِ دينِ الآباءِ والأجدادِ، وتركِ التَّبسُّطِ في أموالِنا بما نشاءُ.

قيلَ: كانوا يَقرِضُونَ من أطرافِ الصِّحاحِ لتفضُلَ لهم القِراضةُ، وكانوا يتعامَلُونَ على الصِّحاحِ عددًا وعلى المكسورِ وزنًا، وكانوا يبخَسُونَ في الوزنِ.

قيلَ: كنَوا عن الدِّينِ بالصَّلواتِ؛ لأنَّها منَ الدِّينِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٩٦)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٧٢).

وقُرِئَ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ من غيرِ جمعٍ(١).

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ ﴿أَن﴾ عطفٌ على ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؛ أي: أن نترُكَ أن نفعَلَ في أموالِنا ما نشاءُ، ذكرَه الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ(٢).

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: صلَواتُكَ تأمُرُكَ أن تأمُرَنا بأن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤُنا، أو تنهانا أن نفعَلَ، فدلَّ الأمرُ على النَّهيِ، فحُذِفَ كما حُذِفَ «البردُ» لـمَّا دلَّ عليه الحرُّ في قولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؛ أي: ما كانَ يعبُدُ آباؤُنا، كقولِه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: ما كانَتْ تتلُو.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾؛ أي: إنْ كانَتْ صلواتُكَ تأمُرُك بهذا ولا تأتينا بعقابٍ على ما نفعلُه فأنتَ إذن حليمٌ لاحتمالِكَ، رشيدٌ في دينِك.

وقيلَ: أي: إنَّكَ حليمٌ رشيدٌ، فلا يليقُ بك مخالفةُ قومِكَ.

وقيلَ: قالوا هذا استهزاءً بشُعَيبٍ؛ أي: إنَّكَ لأنتَ السَّفيهُ الجاهلُ.

* * *

---

(١) وهي قراءة حفص وحمزة والكسائي، والباقون بالجمع. انظر: «السبعة» (ص: ٣١٧)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٧٣)، وذكره عنهما في «البسيط» (١١/ ٥٢٥)، وقد اقتصر الزجاج في تفسيرها على قوله: المعنى: إنَّا قد تَرَاضَيْنا بالبخس فيما بَيْننا.

(٨٨) ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾.

قولُه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾؛ أي: إنْ كنتُ مُحقًّا فيما أدعوكُم إليه، وأنا لا أبخَسُ، ولا أُريدُ إلّا الإصلاحَ، وليس توفيقي إلّا بالله، أتُسَفِّهونَني؟! فتُرِكَ كلُّ هذا اختصارًا.

﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾؛ أي: حلالًا، وكان شُعَيبٌ كثيرَ المالِ.

وقيلَ: أرادَ به الهدى، والتَّوفيقُ للرُّشدُ.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ يُقالُ: خالفَه إلى ذلك الأمرِ؛ أي: أتاه مُخالفًا له ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾؛ أي: ما أُريدُ إلّا الإصلاحَ، وكان النَّبيُّ عليه السَّلامُ إذا ذكرَ شُعيبًا قال: «ذلك خطيبُ الأنبياءِ»[(١)].

* * *

(٨٩) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾.

قولُه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ ﴾؛ أي: لا تحمِلَنَّكم مُعاداتي على تركِ الإيمانِ فيُصيبَكم ما أصابَ الكفّارَ قبلَكم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٢٢)، من طريق ابن إسحاق عن يعقوب بن أبي سلمة، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤٠٧١) عن محمد بن إسحاق. وكلاهما مرسل.

وقيلَ: لا يَكسِبَنَّكم، أو: لا يجلِبَنَّ إليكم.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾؛ أي: في الدّارِ والنَّسبِ؛ أي: بمكانٍ بعيدٍ، فلذلك وحَّدَ البعيدَ، أو وحَّدَه على لفظِ «القومِ»؛ أي: قد كنتُم لهم جيرانًا وقَرابةً.

وقيلَ: ليسوا ببعيدٍ في الزَّمانِ الذي بينكم وبينَهم.

* * *

(٩٠) ـ ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾؛ أي: اطلُبوا المغفرةَ منه؛ أي: توصَّلوا إلى المغفرةِ بالإيمانِ بالله.

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ يُقالُ: «ودِدْتُ أوَدُّ»، من بابِ: «حمِدَ يحمَدُ»، والله ودودٌ؛ بمعنى: أنَّه مُحِبٌّ لعبادِه، ويجوزُ أن يكونَ فَعولًا بمعنى مفعولٍ، كرَكوبٍ وحَلوبٍ؛ أي: يوَدُّه عبادُه المُؤمنونَ.

* * *

(٩١) ـ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

قولُه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ أي: ما نفهمُ؛ لأنَّك تحملُنا على أمورٍ غائبةٍ، وتعِظُنا بما لا عهدَ لنا بمثلِه، والفقهُ: فهمُ الكلامِ.

وقيلَ: أي: ما نفهمُ صحّةَ كثيرٍ ممّا تقولُ، كأنَّهم طلبُوا العلمَ الضَّروريَّ ولم يقنَعُوا بالمُعجزاتِ.

وقيلَ: مَن أبغضَ شيئًا لم يُصغِ إليه؛ أي: لا نستطيعُ سماعَ كلامِك، ولا نُصغي إليه.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾؛ أي: ليس لك جندٌ وأعوانٌ تقدرُ بها على مُخالفتِنا.

وقيلَ: ﴿ضَعِيفًا﴾؛ أي: أعمَى، والأعمَى يُسمَّى في العُرفِ ضعيفًا.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾؛ أي: عشيرتُكَ ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ الرَّجمُ: القتلُ، وكانوا إذا قتَلُوا إنسانًا رمَوه بالحجارةِ حتى يموتَ، فقيلَ لكلِّ قتلٍ: رجمٌ، والرَّجمُ أيضًا: السَّبُّ، والرَّجمُ أيضًا: اللَّعنُ، ومنه: الشَّيطانُ الرَّجيمُ، وكان رَهطُ شُعَيبٍ مِنَ المُشركينَ أيضًا.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بمنيعٍ.

* * *

(٩٢) - ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أمنعُ؛ أي: أنتم تترُكون قتلي إكرامًا لرَهْطي، واللهُ أولَى بأن يُتَّبعَ أمرُه؛ أي: حِفظي في الله أولَى منه في رَهطي.

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ الظِّهريُّ: الشَّيءُ الذي يُنسَى؛ أي: ألقَيتُم أمرَه وراءَ ظُهورِكم.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ أي: عالمٌ.

* * *

(٩٣) ـ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾

قولُه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ المكانةُ الحالةُ التي يتمكَّنُ بها صاحبُها من عملٍ؛ أي: اعمَلُوا ما أنتم عامِلُون، وهذا أمرُ تهديدٍ.

﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ على ما أنا عليه منَ الإبلاغِ، ومن طاعةِ الله.

﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾؛ أي: ستَرَونَ ﴿مَن يَأۡتِيهِ﴾؛ أي: الذي يأتيه العذابُ الذي يُخزيه ويُذِلُّه ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ ﴾؛ أي: العذابَ؛ أي: انتَظِروه إنِّي مُنتَظِرٌ أيضًا لكم العذابَ، ولي الثَّوابُ والرَّحمةُ.

وقيلَ: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾؛ أي: على تدبُّرٍ وتمكُّنٍ وتثبُّتٍ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ أنَّ الأمرَ كما أقولُ.

* * *

(٩٤ ـ ٩٥) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾

قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا﴾ قيلَ: صاحَ بهم جبريلُ فماتوا في أمكنتِهم.

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾؛ أي قد بَعِدوا عن رحمةِ الله، وهو نصبٌ على المصدرِ؛ أي: أبعدَهُم الله فبَعِدوا بُعْدًا ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ من «بعِدَ يبعَدُ» مثلَ: «حمِدَ يحمَدُ»، و﴿بُعۡدٗا﴾؛ أي: بَعِدَ في الهلاكِ، ولا يُستَعملُ في الحيِّ.

وأمَّا «بعُدَ يبعُدُ» مثلَ «عظُمَ يعظُمُ» فهو ضدُّ «قرُبَ يقرُبُ» ويُستعملُ في الحيِّ.

والأَولى أن يُقالَ: إنَّ «بَعِدَ» منَ الهلاكِ؛ أي: أهلَكَهم الله إهلاكًا كما أهلَكَ ثمودَ.

وقال ابنُ الأنباريِّ: منَ العربِ مَن يُسوِّي بينَ الهلاكِ والبُعدِ الذي هو ضدُّ القُربِ فيقولُ فيهما: «بعُد يبعُدُ، وبعِد يبعَدُ»(١).

وقال ابنُ عبّاسٍ: ما أهلَكَ الله أُمَّتَين بعذابٍ واحدٍ إلا قومَ صالحٍ وقومَ شُعَيبٍ أهلكَهما الله بالصَّيحةِ، غيرَ أنَّ قومَ صالحٍ أخذتهم الصَّيحةُ من تحتِهم، وقومَ شُعَيبٍ أخذتهم من فوقِهم(٢).

وقيلَ: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ دعاءٌ عليهم، وإنَّما أُلقِيَ إلينا لندعُوَ عليهم بذلك، ليبقَى للعُصاةِ الذِّكرُ القبيحُ، واللَّعنُ في الآخرينِ.

***

(٩٦ ـ ٩٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بيَّنَ أنَّه أتبعَ النَّبيَّ النَّبيَّ، وأزاحَ كلَّ علَّةٍ.

﴿بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: بالتَّوراةِ أو بالمُعجِزاتِ ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: حجّةٍ بيِّنةٍ، يعني: العصا.

قولُه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: اتَّخذوه إلـهًا فاتَّبعوا أمرَه

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (١١/ ٥٤٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٤٠) من طريق الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فـي ذلك لمَّـا أمرَهم به ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾؛ أي: بسـديدٍ يـؤدِّي إلى صوابٍ.

وقيلَ: ﴿بِرَشِيدٖ﴾؛ أي: بمُرشدٍ إلى خيرٍ.

* * *

(٩٨) ـ ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾.

قولُه: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ من «قدَمَ يقدُمُ»، مثلَ «نصَرَ ينصُرُ»، يُقالُ: «قدَمَ فلانٌ فلانًا»؛ أي: تقدَّمَه؛ أي: يتقدَّمُهم إلى النّارِ.

﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾؛ أي: أدخلَهم النّارَ، ذُكِرَ بلفظِ الماضي، والمعنى: فيُورِدُهم النّارَ، وما تحقَّقَ وجودُه فكأنَّه كائنٌ، فلهذا يُعبَّرُ عن المُستقبلِ بالماضي.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ﴾ لم يقُلْ: «بئسَتْ»؛ لأنَّ الكلامَ يرجعُ إلى الوردِ، وهو كما تقولُ: «نعمَ المنزلُ دارُك»، و: «نعمَتِ المنزلُ دارُك».

و﴿ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾: المدخلُ المدخولُ، والوردُ: الماءُ الذي يُورَدُ، والموضعُ الذي يُورَدُ، وهو بمعنى المفعولِ.

* * *

(٩٩) ـ ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾.

قولُه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾؛ أي: في الدُّنيا، ولعنةُ الدُّنيا: الغرقُ، أو لَعنُ المسلمين إيّاهُم، ولعنةُ الآخرةِ: النّارُ، وإبعادُهم عن رحمةِ الله.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: ولعنةُ يومِ القيامةِ.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ﴾؛ أي: العطاءُ، وأصلُ الرَّفدِ: الإعانةُ، يُقالُ: «رفَدَه يرفِدُه»، مثلَ «ضرَبَ يضرِبُ» رِفدًا ورَفدًا.

وقيلَ: الرِّفدُ بالكسرِ: الاسمُ، وبالنَّصبِ: المصدرُ، وسمَّى اللَّعنةَ رِفدًا كما يُقالُ: «عتابُك السَّيفُ».

﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾؛ أي: بئسَ العَونُ المُعانُ.

وقيلَ: سُبقَتْ لعنةُ الدنيا بلعنةِ الآخرةِ[1].

***

(١٠٠) - ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ يُشارُ به إلى الواحدِ والاثنَينِ والجملةِ.

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾؛ أي: ومنها حصيدٌ؛ أي: منَ القُرى التي أُهلِكَتْ، قائمٌ بقِيَتْ حيطانُه، ومنها حصيدٌ مخسوفٌ به قد امتُحِيَ أثرُه، كالزَّرعِ إذا حُصِدَ.

***

(١٠١) - ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾؛ أي: بالعذابِ ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفرِ.

---

(١) أي: الرفد هاهنا: اللعنة التي لعنوا بها في الدنيا، ثم وصف هذا الرفد بأنه مرفود؛ أي: مشفوع معانٌ بلعنة الآخرة. انظر: «البسيط» للواحدي (١١/ ٥٤٥).

وقال ابنُ عبّاسٍ: ما نَقَصْناهُم في الدُّنيا مِنَ النَّعيمِ والرِّزقِ، ولكن نقَصُوا حظَّ أنفُسِهم(١).

﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾؛ أي: ما دفعَتْ عنهم.

﴿ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يعبُدون، وفيه إِضمارٌ؛ أي: التي كانُوا يعبُدون.

﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾؛ أي: غيرَ تخسيرٍ، والتَّبابُ: الهلاكُ.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: ما زادَتْهم عبادةُ الأصنامِ غيرَ تتبيبٍ، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: ما زادَتْهم الأصنامُ، وعبَّرَ عنها بما يُعبَّرُ عمّا يعقلُ جَرْيًا على مُعتَقَدِهم.

* * *

(١٠٢) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾؛ أي: كما أخذَ هذه القُرى التي كانت لقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ يأخذُ جميعَ القُرى الظّالمةِ، وهذا الأخذُ أخذُ عذابٍ.

﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾؛ أي: وأهلُها ظالمونَ، فحُذِفَ المُضافُ.

﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾؛ أي: عقوبتُه لأهلِ الشِّركِ مُوجِعةٌ غليظةٌ.

* * *

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٨٢)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٤٦) وصرح بأنه من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٠٣) ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ أي: إنَّ فيما ذُكِرَ لعبرةً ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: يومَ القيامةِ.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾؛ أي: يُحشَرون لذلك اليومِ ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾؛ أي: يشهدُه البَرُّ والفاجرُ، أو يشهدُه أهلُ السَّماءِ والأرضِ.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾؛ أي: ما نُؤخِّرُ ذلك اليومَ؛ أي: أحداثَ ذلك اليومِ.

﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾؛ أي: لأجلٍ سبقَ به قضاؤُنا، وهو معدودٌ عندنا.

* * *

(١٠٥) ـ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

قولُه: ﴿يومَ يأتي﴾؛ أي: يومَ يأتي ذلك اليومُ الذي يُجمَعُ له النّاسُ.

وقُرِئَ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾[1] لأنَّ الياءَ تُحذَفُ إذا كان قبلَها كسرةٌ، تقولُ: «لا أدرِ».

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: لا تتكلَّمُ، وفيه إضمارٌ؛ أي: «لا تتكلَّمُ فيه

---

(١) قرأ بها عاصم وابن عامر وحمزة، وأثبت الياء في الحالين ابن كثير، وأثبتها في الوصل نافع وأبو عمرو والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٧).

نفسٌ»، وقد ورَدَ أنَّهم يتكلَّمُون في ذلك اليومِ، وورَدَ أنَّهم لا يتكلَّمُون بما فيه نفعٌ، ومَن تكلَّمَ بما لا فائدةَ فيه فكأنَّه لـم يتكلَّمْ.

﴿فَمِنْهُمْ﴾؛ أي: فمنَ الأنفُسِ، أو: فمنَ النّاسِ، وقد ذكرَهم في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿شَقِيٌّ﴾ الشَّقاوةُ: الشِّدّةُ والعُسرةُ، فالشَّقيُّ الذي كُتِبَتْ عليه الشَّقاوةُ.

﴿وَسَعِيدٌ﴾؛ أي: كُتِبَتْ له السَّعادةُ.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ يُريدُ: الشَّقاوةَ المُؤبَّدةَ التي هي صفةُ الكافرِ.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ، وهو أن يمتلِئَ الجوفُ غمًّا فيُخرِجَه بالنَّفَسِ.

﴿وَشَهِيقٌ﴾ الشَّهيقُ: رَدُّ النَّفَسِ، والزَّفيرُ والشَّهيقُ من أصواتِ المحزُونين.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: ما دامَتْ سماواتُ النّارِ والجنّةِ.

والسَّماءُ: ما علاكَ وأظلَّكَ، والأرضُ: مـا استقرَّ عليه قدمُكَ، وفي القرآنِ: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، فذكرَ للجنّةِ أرضًا.

وقيلَ: أرادَ به السَّماءَ والأرضَ المعهودَتَين في الدُّنيا، وأجرَى ذلك على عادةِ

العربِ في الإخبارِ عن دوامِ الشَّيءِ بقولِهم: «لا آتيكَ ما جنَّ ليلٌ وسالَ سيلٌ» و«ما اختلَفَ اللَّيلُ والنَّهارُ».

و﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: أبدًا، ولعلَّهم ظنُّوا أنَّ هذه الأشياءَ لا تتغيَّرُ إلّا ما شاءَ الله ربُّك.

قال القَفّالُ: هو كقولك: «لأضرِبَنَّك إلّا أن أشاءَ غيرَ ذلك» وعزمُك أنْ لا تترُكَ ضربَه، والمعنى: أنَّك قادِرٌ على تركِ الضَّربِ وإنْ كنتَ لا تتركُ الضَّربَ، فمعنى الآيةِ: أنَّهم مُؤبَّدون في الدّارَين، وإنَّا قادِرونَ على إخراجِهم، ولكنْ سبقَ الخبرُ بأنِّي لا أُخرِجُهم، ويرجعُ هذا إلى أنَّ خلافَ المعلومِ مقدورٌ. وهذا قولُ الفرَّاءِ[١].

وزادَه ابنُ الأنباريِّ بيانًا وقال: هو كقولكَ: «لأهجُرَنَّكَ أبدًا إلّا أن يَشيبَ الغُرابُ»، فهذا الاستثناءُ لا يُفيدُ نقصَ شيءٍ منَ التَّأبيدِ؛ لأنَّ الغُرابَ لا يشيبُ، كذلك لا يتغيَّرُ ما أخبرَ به الرَّبُّ[٢].

وقيلَ: الاستثناءُ يرجعُ إلى موقفِهم للحسابِ، أو على البرزخِ، أو مقامِهم في الدُّنيا؛ أي: خالدين في الدَّارَين إلّا مقدارَ وُقوفِهم، ومقدارَ مُكثِهم في الدُّنيا، ذكرَه الزَّجّاجُ، وذكرَ القولَ الأوَّلَ أيضًا[٣].

وقيلَ: الاستثناءُ يرجعُ إلى إخراجِ أهلِ التَّوحيدِ منَ النّارِ، وقَدْرَ دخولَ المُذنبين منَ المُسلمين النَّارَ؛ أي: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في النّارِ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨)، وذكر معنيين هذا أحدهما، وانظر كلامه ثمة.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٧٩)، و«البسيط» (١١/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩).

(٣) انظر: «البسيط» (١١/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩).

إدخالِ المُذنبينَ منَ المسلمين الجنّةَ، وخالدينَ في الجنّةِ أبدًا إلا ما شاءَ ربُّكَ من إدخالِ المُذنبينَ النّارَ مدّةً ثمَّ يصيرونَ إلى الجنّةِ.

ويدُلُّ عليه أنّه قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، ولم يقُلْ: «مَن يشاءُ»، وهذا قولُ ابنِ عبّاسٍ رضيَ الله عنهما[1].

وقيلَ: الاستثناءُ منَ الزَّفيرِ والشَّهيقِ؛ أي: لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ إلّا ما شاءَ ربُّك من أنواعِ العذابِ الذي لم يذكُرْه، وكذا لأهلِ الجنّةِ منَ النَّعيمِ ما ذُكِرَ وما لم يُذكَرْ.

وقيلَ: أي: يَبْقَونَ مدّةً مثلَ مدَّةِ السَّماواتِ من ابتداءِ خلقِها إلى فَنائِها إلا ما شاءَ ربُّكَ منَ الزِّيادةِ المُضاعفةِ إلى ما لا نهايةَ له، فـ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «سوى» أو الواوِ؛ كما تقولُ: «لك عندي ألفٌ إلّا ألفينِ»؛ أي: سِوَى الألْفَينِ اللَّذَين لك عندي.

وقال المُبرِّدُ: تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ثمَّ ابتدأَ فقال: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: لم تدُمْ دُنياهم، ولم يدُمْ كونُهم في الدُّنيا، ولم يدُمْ تمتُّعُ الكفَّارِ بدُنياهم، ولم تدُمْ طاعةُ المؤمنينَ أيضًا، وقولُه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ما بقيتِ السَّماواتُ والأرضُ إلّا ما شاءَ الله، فـ﴿مَا﴾ بمعنى النَّفيِ.

واستُدِلَّ على هذا بقولِه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فإذا لم يدخُلوا الجنّةَ إلّا بعدَ إفناءِ السَّماواتِ والأرضِ فكيفَ يُقالُ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾؟

وقيلَ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنَى الواوِ، كقولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨٦)، ولفظه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني: الذين كانوا في النار حين أذن في الشفاعة لهم فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة.

ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٥٠]؛ أي: ولا الذين ظلَمُوا؛ أي: خالدينَ فيها أبدًا، وقد شاءَ ربُّك ذلك.

وقيلَ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: كما شاءَ ربُّكَ، كقولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ أي: كما قد سَلَف.

* * *

(١٠٨) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

﴿وأمَّا الَّذين سَعِدُوا﴾ القراءةُ ﴿سَعِدُوا﴾ بفتحِ السِّينِ.

قال سيبويهِ: لا يُقالُ: «سُعِدَ فلانٌ» كما لا يُقالُ: «شُقِيَ فلانٌ»؛ لأنَّه ممَّا لا يتعدَّى[١].

وقرأ أهلُ الكوفةِ: ﴿سُعِدُواْ﴾ بضمِّ السِّينِ[٢]، واحتجُّوا بقولِهم: «مسعودٌ»، وهو على «سُعِدَ»، وهذا بعيدٌ؛ إذ يُمكِنُ أن يكونَ مثلَ «أجَنَّه» فهو مجنونٌ، و«أحَبَّه» فهو محبوبٌ[٣].

وقد ورَدَ: سَعَدَه الله فهو مسعودٌ، و: أسعَدَه الله فهو مُسعَدٌ، فهذا يُقوِّي قولَ الكوفيِّينَ.

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ أي: أعطاهُم الجنّةَ عطاءً، فالعطاءُ اسمٌ أُقيمَ مُقامَ المصدرِ.

﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ أي: غيرَ مقطوعٍ، من «جَذَّه يجُذُّه»؛ أي: قطَعَه.

---

(١) انظر: «البسيط» (١١/ ٥٦٣)، وانظر: «شرح كتاب سيبويه» للسيرافي (٤/ ٤٢٠).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي وحفص، والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٦).

(٣) أي: جاء المفعول في نحو هذا من الرباعي على حذف الزيادة. انظر: «البسيط» (١١/ ٥٦٣).

(١٠٩) ـ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

قولُه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾؛ أي: لا تشكُّوا في أنَّه باطلٌ ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم﴾ تقليدًا من غيرِ برهانٍ وحجَّةٍ.

و«لا تكُ» أصلُها: «لا تكُنْ»، فحُذِفَت النُّونُ لكثرةِ استعمالِ هذه الكلمةِ، وأشبهَتِ النُّونُ حرفَ اللِّينِ لأنَّها تكونُ علامةً كما يكونُ حرفُ اللِّينِ علامةً، وهي أيضًا غنَّةٌ تخرجُ منَ الأنفِ، فلهذا احتملَتِ الحذفَ، فالمسلمون كانوا يعلَمون أنَّ المُشركينَ يعبُدونَ الأصنامَ، فلا بدَّ من إضمارٍ؛ أي: لا تكُ في شكٍّ في حالِ ما يعبُدون في أنَّها لا تضرُّ ولا تنفعُ.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ أي: منَ العذابِ.

* * *

(١١٠) ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾؛ أي: إنْ كذَّبوك فقد كذَّبوا موسى واختلَفُوا فيه؛ أي: كذَّبَه القِبْطُ، وكان لبني إسرائيلَ اختلافٌ شديدٌ فيه.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين المُختلِفين؛ أي: لعجَّلنا عقوبَتهم، ولكنْ أخَّرْناهم مدَّةً إلى الغرقِ.

وقيلَ: لقُضِيَ بين هؤلاءِ المُختلِفين فيك يا محمَّدُ بتعجيلِ العقابِ، ولكن سبقَ الحكمُ بتأخيرِ العقابِ عن هذه الأمَّةِ إلى القيامةِ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إنْ حُمِلَتْ على قومِ موسى؛ أي: لَفي شكٍّ من كتابِ موسى، وإن قلتَ: المعنى لَقُضِيَ بين المُختَلِفين في محمَّدٍ ﷺ فهم في شكٍّ منَ القرآنِ. ﴿مُرِيبٍ﴾: مُوقِعٍ للرِّيبةِ.

* * *

(١١١) ـ ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿وإنَّ كُلًّا لَـمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾؛ أي: إنَّ كلًّا منَ الأممِ التي عدَّدْناهم يرونَ جزاءَ أعمالِهم، فكذلك قومُك يا محمَّدُ.

﴿إنَّ﴾ مُشدَّدُ النُّونِ، ﴿لَمَا﴾ خفيفةٌ.

قال الزَّجَّاجُ: لامُ ﴿لَمَا﴾ لامُ ﴿إنَّ﴾، و(ما) زائدةٌ مُؤكِّدةٌ[1].

تقولُ: «إنَّ زيداً لَمَا لينطَلِقَنَّ»، فـ«إنَّ» تقتَضي أن تدخُلَ على خبرِها أو اسمِها لامٌ كقولك: «إنَّ الله لَغفورٌ»، وقولِه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢١]، واللّامُ في ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ هي التي يُتلقَّى بها القَسَمُ، وتدخلُ على الفعلِ، وتلزمُها النُّونُ المُشدَّدةُ أو المُخفَّفةُ، ولـمَّا اجتمعَتِ اللّامانِ فُصِلَ بينَهما بـ(ما)، و(ما) زائدةٌ مُؤكِّدةٌ، وكما كُرِهَ الجمعُ بين «إنَّ» واللامِ مع اختلافِ اللَّفظين كذا كُرِهَ الجمعُ بين اللّامَينِ، بل هذا أولى لاتِّفاقِ اللّامَينِ في اللَّفظِ[2].

وعندَ الفرَّاءِ (ما) بمعنى «مَنْ» كقولِه: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢]؛

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨١)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٥٦٨).

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (١١/ ٥٦٧ـ٥٦٨) عن أبي علي الفارسي، وانظر: «الحجة» (٤/ ٣٨٥ـ٣٨٨).

أي: وإنَّ كلًّا لمَن ليُوفِّينَّهم، واللّامُ في ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ للقَسَمِ[(١)].

ويرجعُ معناه إلى ما تقدَّمَ، غيرَ أنَّ عندَ الزَّجّاجِ (ما) زائدةٌ، وعند الفرَّاءِ اسمٌ بمعنى «مَنْ».

وقرأ نافعٌ وقومٌ: ﴿وإنْ كلًّا لَمَا﴾ بتخفيفِ ﴿إنْ﴾ وتخفيفِ ﴿لَمَا﴾.

قال سيبويهِ: حدَّثَنا مَن نثِقُ به أنَّه سمعَ العربَ تقولُ: «إنْ زيدًا لَـمُنطَلِقٌ»[(٢)].

فالبَصْريُّون يُجوِّزون تخفيفَ «إنَّ» الشَّديدةِ مع إعمالِها، وعند الفرَّاءِ: لا تُخفَّفُ «إنَّ» مع الإعمالِ إلّا مع المكنيِّ؛ لأنَّه لا يَبِينُ فيه إعرابٌ، مثلَ: «وإنْكَ فعلتَ كذا»، فقولُه[(٣)]: ﴿وإنْ كلًّا﴾ نصبُ ﴿كُلًّا﴾ بقولِه: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾؛ أي: وإنْ ليُوفِّينَّهم كلًّا، وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ اللامَ لا يقعُ الفعلُ الذي بعدَها على شيءٍ قبلَه[(٤)].

وقرأ حمزةُ وجماعةٌ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ بتشديدِ ﴿إنَّ﴾ وتشديدِ ﴿لَّمَّا﴾[(٥)]، ومعنى ﴿لَّمَّا﴾ بالتَّشديدِ: «لَمَن ما»، فقُلِبَت النُّونُ ميمًا، فاجتمعَتْ ثلاثُ ميماتٍ، فحُذِفَت الوُسطَى، فصارَتْ: «لمّا».

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨ ـ ٢٩)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠).

(٢) انظر: «الكتاب» (٢/ ١٤٠).

(٣) في (أ): «معنا قوله»، وفي (ف): «كقوله»، والصواب المثبت. انظر: «البسيط» (١١/ ٥٧١).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩ ـ ٣٠)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٥٧١).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٦). وتفصيل قراءات السبعة فيهما:
قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿وإنْ كلًّا لمَّا﴾ بتخفيف ﴿إنْ﴾، وتشديد ﴿لَمَّا﴾، وقرأ ابنُ كثير ونافع: ﴿وإنْ كلًّا لَمَا﴾ بتخفيفهما، وقرأ ابنُ عامر وحمزة وحفص عن عاصم ﴿وإنَّ كلًّا لمَّا﴾ بتشديدهما، وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿وإنَّ كلًّا لَمَا﴾ بتشديد ﴿إنَّ﴾ وتخفيف ﴿لَمَا﴾.

وزيَّفَ الزَّجّاجُ هذا وقال: «مَنْ» اسمٌ على حرفَينِ، فلا يجوزُ حذفُه، وإنَّما جازَ التَّشديدُ في ﴿لَمَّا﴾ لأنَّ معناه «إلّا»، تقولُ: «سألتُكَ لـمَّا فعلتَ»؛ أي: إلّا فعلتَ، ومثلُه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]؛ أي: إلّا[1]، فمعنى الآيةِ: ما كلُّ واحدٍ منهم إلّا ليُوفِّينَّهم.

وزُيِّفَ هذا بأنَّه لا نفيَ في قولِه: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ حتَّى يُقدَّرَ «إلا»، ولا يُقالُ: «ذهبَ النّاسُ لمَّا زيدًا» بمعنى «إلّا زيدًا»[2].

قال أبو عليٍّ والكسائيُّ: التَّشديدُ فيهما مُشكِلٌ وكذا تخفيفُ ﴿إنْ﴾ وتشديدُ ﴿لَمَّا﴾[3].

﴿رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: جزاءَ أعمالِـهم، فحُذِفَ المُضافُ.

* * *

(١١٢) ـ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ الاستقامةُ: الاستمرارُ في جهةٍ واحدةٍ من غيرِ أخذٍ في جهةِ اليمينِ والشِّمالِ؛ أي: فاستَقِمْ على امتثالِ أمرِ الله، الخطابُ له ولغيرِه، وقيلَ: له والمرادُ غيرُه.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾؛ أي: استقِمْ أنتَ وهم، يُريدُ: أصحابَه الذين تابُوا من الشِّركِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٨١)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٥٧١ ـ ٥٧٢).

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (١١/ ٥٧٣).

(٣) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٤/ ٣٨٨)، «البسيط» للواحدي (١١/ ٥٧٣ ـ ٥٧٥). وتخفيف ﴿إنْ﴾ وتشديد ﴿لَمَّا﴾ هي قراءة عاصم في رواية أبي بكر كما تقدم قريباً.

قال ابنُ عبَّاسٍ: ما نزلَتْ على رسولِ الله ﷺ آيةٌ أشدُّ وأشقُّ عليه من هذه الآيةِ، ولهذا قال: «شيَّبَتْني هودٌ والواقعةُ وأخواتُهما»[(١)].

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الطُّغيانُ: مُجاوزةُ الحدِّ. وقيل: أي: لا تتجَبَّروا على أحدٍ.

* * *

(١١٣) ـ ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾؛ أي: لا تسكُنُوا، يُقالُ: «ركَن يركُن» مثل «نصَرَ ينصُرُ»، والفصيحُ: «ركِنَ يركَنُ» مثلَ «حمِدَ يحمَدُ»، وجوَّزَ قومٌ «ركَنَ يركَنُ» مثلَ «منَعَ يمنَعُ».

أي: لا تُداهِنُوا الظَّلَمةَ، وقيلَ: لا تلحَقُوا بالمُشركينَ.

﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: هو عذابٌ دونَ عذابِ الكفَّارِ، بل هو أدبٌ للمُؤمنينَ[(٢)].

* * *

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤)، وروى المرفوع منه الترمذي (٣٢٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ولفظه: قال أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ قد شِبْتَ، قال: «شَيَّبَتْني هودٌ، والواقعةُ، والمُرْسَلاتُ، وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٧٨) بلفظ: «هو أدب للمؤمنين ليس كمثل عقوبة الكفار».

(١١٤) ـ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾.

قوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ ذكرَ الصَّلاةَ تخصيصًا لها؛ لأنَّها ثانيةُ الإيمانِ، وإليها يُفزَعُ في النَّوائبِ، وكان النَّبيُّ عليه السَّلامُ إذا حزَبه أمرٌ فزعَ إلى الصَّلاةِ(١).

نزلَتِ الآيةُ في رجلٍ قال للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: أصبتُ من امرأةٍ لبعضِ الغزاةِ كلَّ شيءٍ إلّا الوقاعَ ـ ورُوِيَ أنَّه أشارَ إلى التَّقبيلِ ـ فقال عمرُ: لقد ستَرَكَ الله لو سترتَ نفسَكَ، ولم يرُدَّ النَّبيُّ ﷺ عليه شيئًا، فانطلقَ الرَّجلُ، فبعثَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ وراءَه، فدَعاه وتلا عليه هذه الآيةَ(٢).

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ قيلَ: الفجرُ والظُّهرُ طرفٌ، والعصرُ والمغربُ طرفٌ.

وقيلَ: لا تدخلُ فيه المغربُ؛ لأنَّها من صلاةِ اللَّيلِ.

وقيلَ: أرادَ الفجرَ والمغربَ، فأمَّا الظُّهرُ والعصرُ فقد ذُكِرا في قولِه: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨]، والدُّلوكُ: الزَّوالُ.

---

(١) رواه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه، ولفظه: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى».

(٢) رواه بنحوه البخاري (٥٢٦)، ومسلم (٢٧٦٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقريب منه ما رواه البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤)، من حديث أنس رضي الله عنه، ومسلم (٢٧٦٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وليس في الصحيحين تعيين صاحب القصة، ورواه الإمامُ أحمد في «مسنده» (٢٢٠٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٩٣١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وليس في شيء من هذه الروايات تعيين صاحب القصة، ورواه الترمذي (٣١١٥) من حديث أبي اليسر قال: «أتتني امرأة تبتاع تمراً... » فذكره، قال الترمذي: حسن غريب، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره، وقد وقع في صاحب القصة اختلاف. انظر: «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٥٥٣).

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: في زُلَفٍ منَ اللَّيلِ؛ أي: في ساعاتٍ قريبةٍ من أوَّلِ اللَّيلِ، أرادَ المغربَ والعشاءَ الآخرةَ.

والزُّلَفُ: جمعُ زُلفةٍ، وهي المنزِلةُ؛ أي: ساعةً بعد ساعةٍ، وفيها معنى القُربةِ، ومنه: الزُّلفَى إلى الله.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أي إنَّ الصَّلواتِ الخمسَ يُكفِّرْنَ ما بينَهنَّ منَ الذُّنوبِ(١).

وقال مُجاهدٌ: هي قولُك: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا الله، والله أكبرُ(٢).

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: هذا موعظةٌ لمَن اتَّعظَ، وخصَّ الذِّكرى بالذّاكرينَ لأنَّهم المُنتَفعون بها، والذِّكرى مصدرٌ جاءَ بألفِ التَّأنيثِ.

* * *

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٥٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٧٨٤).

ويشهد لذلك عدة أحاديث:

منها ما رواه مسلم (٢٣١) عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يتطهر، فيتم الطهور الذي كتب الله عليه، فيصلي هذه الصلوات الخمس، إلا كانت كفارات لما بينها».

وما رواه مسلم (٢٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارات لما بينهن».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦١٦). وهذه الأقوال في تخصيص الحسنات ببعض الأمور كالصلاة والذكر لا تنافي أن يكون المراد بالحسنات العموم، كما أشار ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية بقوله: «يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة».

(١١٥) - ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾؛ أي: على الصَّلاةِ، كقولِه: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه: ١٣٢].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: المُصلِّين.

وقيلَ: أي: اصبِرْ على تبليغِ الرِّسالةِ.

* * *

(١١٦) - ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ (لولا) للتَّحريضِ بمعنى «هلّا»، وهذا توبيخٌ للكفّارِ؛ أي: هلَّا كان منَ القُرونِ من قبلِكم أولو بقيّةٍ وأصحابُ عقلٍ ونظرٍ في العواقبِ، ينهَونَ قومَهم عن الفسادِ.

وقيلَ: (لولا) هاهُنا للنَّفيِ؛ أي: ما كان منَ القرونِ من قبلِكم، كقولِه: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾؛ أي: أولو دينٍ وتمييزٍ، يُقالُ: «فلانٌ فيه بقيّةٌ»؛ أي: فيه فضلٌ وتمييزٌ، وفي روايةٍ عن نافعٍ: (أولو بَقْيةٍ) خفيفةً[1]، ....

(١) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٧٤) ونسبها للهاشمي عن أبي جعفر، وابن أبي أويس عن نافع، وابن حماد عن شيبة. وذكرها في «النشر» (٢/ ٢٩٢) عن بعض الروايات بكسر الباء، وابن عطية وأبو حيان بضم الباء، ووهَّم صاحب «النشر» أبا حيان في رواية الضم، ولعله لم يقف عليها عند ابن عطية. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٢١٤)، و«البحر المحيط» (١٢/ ٣٨٦).

وهي «فَعْلَةٌ» منَ البقاءِ؛ أي: ممَّن بقيَ معه مُسْكَةٌ[1] عقلٍ ودينٍ.

وقولُه: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾؛ أي: الشِّركِ والمعصيةِ.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ هو استثناءٌ مُنقطعٌ؛ أي: لكنَّ قليلًا ممَّن أنجَينا منهم نهَوا عن الفسادِ، وهو كما قال: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ التُّرفةُ: النِّعمةُ؛ أي: اتَّبعُوا ما تعوَّدوا من نعيمِ الدُّنيا ومنَ اللَّذّاتِ.

(١١٧) ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾؛ أي: ليُهلِكَ أهلَ القُرى.

قال ابنُ عبّاسٍ: الظُّلمُ: الشِّركُ[2]؛ أي: ما كُنَّا لنُهلِكَهم بسببِ الشِّركِ، وإن أصلَحُوا فيما بينَهم في مُعاملاتِهم[3]، كما عُذِّبَ قومُ لوطٍ بخبيثِ فعلِهم، وقومُ

---

(١) «مسكة»؛ أي: بقية، كما قال الطيبي، وقال الجرجاني: المسكة: مقدار ما يتمسك به من عقل أو علم أو قوة. انظر: «فتوح الغيب» (١/ ٦٧٢)، و«حاشية الجرجاني على الكشاف» (ص: ٢٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء.

وروى الطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] يقول: «لم يلبسوا إيمانهم بالشرك، وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

(٣) قوله: «وإن أصلحوا...» كذا في النسختين، ولعل الصواب: «إن أصلحوا»، أو: «وقد أصلحوا»، ففي خبر ابن عباس السابق عند الواحدي: ﴿بِظُلْمٍ﴾ يريد: بشرك، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ يريد: فيما بينهم. قال الكرماني في «لباب التفاسير» (٤/ ٣٢٢): ﴿بِظُلْمٍ﴾ منهم، وهو الشِّركُ ﴿وَأَهْلُهَا =

شُعَيبٍ ببخسِ المكيالِ، وكأنَّ المعاصيَ الأُخرَ أقرَبُ إلى عذابِ الاستئصالِ في الدُّنيا منَ الشِّركِ، بل عذابُ الشِّركِ في الآخرةِ أصعبُ.

وقيلَ: ما كان ليُهلِكَ أهلَ القُرى وهم مُسلمون؛ فإنَّه يكونُ ذلك ظلمًا لهم، ونقصًا من حقِّهم؛ أي: ما أهلَكَ قومًا إلّا بعد إعذارٍ وإنذارٍ.

وقيلَ: أي: لو أهلَكَهم ما كان ظالـمًا وإنْ كانُوا على نهايةِ الصَّلاحِ؛ لأنَّ تصرُّفَه في ملكِه.

وقيلَ: ما كان ليُهلِكَهم بذنوبِهم وهم مصلحون؛ أي: مُخلِصون في الإيمانِ، فالظُّلمُ: المعاصي على هذا.

* * *

(١١٨ ـ ١١٩) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

قولُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: لو شاءَ لآمَنَ الكلُّ.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أرادَ اختلافَ المِلَلِ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾؛ أي: لكنَّ مَن رحِمَ ربُّك فإنَّه غيرُ مخالفٍ ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قيلَ: وللاختلافِ خلقَهم.

وقيلَ: للرَّحمةِ خلقَهم، يعني: الذين رحمَهم، فأشارَ إلى الرَّحمةِ بقولِه ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ تأنيثَ الرَّحمةِ ليس حقيقيًّا، فحُمِلَتْ على معنى الفضلِ.

= مُّصْلِحُونَ﴾ في المُعاملاتِ فيما بينَهم، ولا يَظلمُ بعضُهم بعضًا؛ لأنَّ مُكافأةَ الكفرِ والشِّركِ النّارُ، وإنَّما أهلِكَ مَن أهلِكَ بالتَّعدِّي في الشِّركِ.

وقيلَ: خلقَ أهلَ الرَّحمةِ للرَّحمةِ، وأهلَ الاختلافِ للاختلافِ، وقد يُشارُ بلفظِ «ذلك» إلى شيئَينِ مُتضادَّينِ، كقولِه: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨][1].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ أي: ما قضى وقدَّرَ في أزَلِه.

وتمامُ الكلمةِ: امتِناعُها عن قَبولِ التَّغييرِ والتَّبديلِ.

* * *

(١٢٠) ـ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ بيَّنَ أنَّه أتمَّ النِّعمةَ عليه بأن ثبَّتَ قلبَه بما قصَّ عليه.

﴿مَا نُثَبِّتُ﴾؛ أي: نقُصُّ ما نُثبِّتُ، فـ﴿مَا﴾ بدلٌ من قولِه: ﴿وَكُلًّا﴾.

﴿نُثَبِّتُ﴾: نُقوِّي ونُصبِّرُ.

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾؛ أي: في هذه السُّورةِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وخصَّ هذه السُّورةَ لأنَّ فيها أخبارَ الأنبياءِ والجنَّةِ والنّارِ.

وقيلَ: ﴿هَٰذِهِ﴾؛ أي: في هذه الدُّنيا، قالَه الحسنُ[2].

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّهم يتَّعِظُونَ إذا سمِعُوا قصَصَ الأنبياءِ.

* * *

(١) قال الزمخشري في «الكشاف»: «﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (ذلك) إشارةٌ إلى ما دلَّ عليه الكلامُ الأوَّلُ وتضمَّنه، يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلافُ خَلَقَهم ليُثِيبَ مختارَ الحقِّ بحُسن اختياره ويُعاقِبَ مختارَ الباطل بسوء اختياره».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٩٦).

(١٢١ ـ ١٢٢) ـ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ هذا تهديدٌ؛ أي: ستعلَمُونَ عاقبةَ ما تعمَلُون.

* * *

(١٢٣) ـ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: هو العالـمُ بالعواقبِ، ولا يخفَى عليه وقتُ إهلاكِ المُشركين ووقتُ الصَّلاحِ فيه.

قال أبو عليٍّ: أي: ولله علمُ غيبِ السَّماواتِ والأرضِ؛ أي: علمُ ما غابَ فيهما، وأضافَ الغيبَ ـ وهو مصدرٌ ـ إلى المفعولِ توسُّعًا؛ لأنَّه حذفَ حرفَ الجرِّ، تقولُ: «غبْتُ في الأرضِ»، و: «غبْتُ ببلدِ كذا»(١).

وقال ابنُ عبّاسٍ: لله خزائنُ السَّماواتِ والأرضِ(٢).

---

(١) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (١/ ٢٣٣)، و«البسيط» للواحدي (١١/ ٥٩٤). وفيهما: الغيب مصدر مضاف إلى المفعول على الاتساع وحذف حرف الجر؛ لأنك تقول: «غبت في الأرض»، و: «غبت ببلد كذا» فتُعدِّيه بحرف الجر، فحذف وأضيف المصدر إلى المفعول به في المعنى، نحو: ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩].

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٤٧٥)، والواحدي في «البسيط» (١١/ ٥٩٤) وصرح الواحدي بأنه من رواية الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما. والوالبي هو علي بن أبي طلحة.

﴿وإليهِ يَرْجِعُ الأمرُ كلُّه﴾؛ أي: يومَ القيامةِ؛ إذ ليس ثَمَّ لمخلوقٍ أمرٌ.

وقُرِئَ: ﴿يُرْجَعُ﴾ بضمِّ الياءِ[1].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ﴾؛ أي: يُجازي الكلَّ.

قُرِئَ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالياءِ والتّاءِ[2].

* * *

---

(١) قرأ بها نافع وحفص والباقون بفتح الياء وكسر الجيم. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٦).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٦).